

قصة الكنيسة القبطية

وهي تاريخ الكنيسة
الأرثوذكسية المصرية
التي أسسها
مارمرقس البشير

(الكتاب الثاني)



بقلم
د/ إريس حبيب المصري

قصة الكنيسة القبطية

من سنة ٤٣٥ - ٩٤٨

الكتاب الثانى

الطبعة الثامنة

٢٠٠٦

المتبعة

ايوليس حبيب المصرى



قطعة من النسيج تبين مدى ابتكار الفنان القبطي
وهي تمثل مارمرقس كاروز ديارنا المصرية يقدم الطعام
لأسد بيساره بينما أمسك بالقلم بيمينه .
وهذه القطعة محفوظة بالمتحف القبطي بمصر القديمة (بابلون)

تقدير مودة

١٢ شارع المساحة

الدقى القاهرة

الكاتبة الفاضلة الأستاذة ايريس حبيب المصرى

لك أطيب التحيات وبعد فقد تلقيت بيد الشكر كتابك الثمين
«قصة الكنيسة القبطية» وعكفت على قراءته فوجدت فيه دقة
المؤرخ الخزيه المحيط بدقائق موضوعه ، وارجو أن يوفقك الله في
اتمام كتابه هذه القصة الفريدة يمثل هذا الأسلوب العذب السلس ،
ففى ذلك خمة وطنية جليلة ، إذ أن الكنيسة القبطية ليست إلا جزء
من تاريخنا القومى الذى نعتز به . وإن مصر لتفخر بأنها كانت دائماً
حامية الأيمان فلم يعرف شعبها الأصيل معنى التعصب بل عاش
جميع سكانها على مر العصور أخوة متحابين قى الله والوطن ، فما
من دين إلا وهو يدعو إلى الخير والفضيلة ، ومصر لم تنحرف فى
يوم من الأيام عن حب الخير وتقدير الفضيلة .

أمنحك على هذا المجهود الكبير وأشكر لك هديتك

ولك أطيب التمنيات ،

دكتور محمد محمود الصياد



المتربة

كانت دائماً تترقبنا فى هتوة
مشوقة إلى عودتنا : فتتظر قرب
النافذة شتاء وعلى مقربة من الباب
صيفاً ، منصبة إلى وقع أقدامنا على
السلام . ومع أننا كنا نسخر منها
فى رفق ونعائبها فى شئ من
الحنان ، فإن الطريق الطويل للبيت
كان يكتنفه الأمان لأنها كانت
تترقبنا . ولما كانت لا تستطيع
نسياننا فلا بد أنها مازالت تترقبنا
مشوقة إلى عودتنا : منتظرة قرب
نافذة من السماء مطلعة على مقربة
من بابها .

الإهداء

إلى أمى

سليمه ميتا منقريوس
التي عرفت أن تكون أما
فى صمت ووقار .



المؤلفة إلى جانب أمها

عند مدخل المدرسة الأولية التابعة لجمعية السيدات القبطية لتربية الطفولة

بحى غريبال بالاسكندرية فى فبراير سنة ١٩٤٨

الاعتراف بالفضل لذويه

إنها لمتعة نفسية حقة أن يتقدم الانسان بالشكر وعرفان الجميل إلى من أنزروه في جهاده إذ يشعر بأنهم شاركوه المشقة فحققوها عليه .

فأتقدم - لهذا - بعظيم امتناني إلى جناب أبينا المكرم القمص متى المسكين لتفضله بمراجعة مخطوطاتي وإبداء ملاحظاته البناءة عنها رغم بعد المسافات التي تفصل بينه وبين القاهرة ورغم مشقة الطريق .

وأرفع جزيل شكرى إلى حضرة المربي الكبير الأستاذ فرنسيس العتر أرشيدياكون كنيسة للرسولين بطرس وبولس لأنه تفضل فأعازنى كتبه النادرة التي ما كان يمكننى الحصول عليها لولا تقديمه إياها ، وهذه خدمة لن أنساها ما حييت .

والى الأستاذ فرج روفائيل لأنه تفضل وأعطانى غالبية الصور التي تزين هذا الكتاب .

كذلك أقدم شكرى إلى جميع من شجعونى واستحثونى على اصدار هذا الجزء الثانى من « قصة الكنيسة القبطية » بما أبدوه من تقدير للجزء الأول .

ولا يفوتنى أن أبعث بتحيتى إلى روح الأستاذ يسى عبد المسيح فى عليائها لأنه داوم على معاونتى إلى أن وهنت قواه ولبى نداء ربه .

وأرفع الحمد لله أولاً وأخيراً لأنه هيا لى مثل هؤلاء المساندين كما هيا لى أسباب البحث والدراسة حتى مكنتنى من اصدار الكتاب .

ايريس حبيب المصرى





صدريّة لأمونيهوتب الثاني فرعون مصر من سنة ١٤٤٨ - ١٤٢٠ ق.م.
ومما يلاحظ أنه في أعلى الطرف الشمالي (فوق خرطوش الفرعون)
يوجد صليب يعلو جعراناً . وكان الجعران عند الفراعنة أحد الرموز
التي تعبر عن القيامة من الموت .

تمهيد

إن الانسان مخلوق عجيب فقد حياه الله نعمة الايمان ومع ذلك تجتاحه موجات من الشك والتردد ويستبد به تشامخ العقل فيشط إلى حد تناسى مصدر العقل . وهذا التشامخ الذى يملأ النفس حيرة دفع بالشاعر الرقيق اسماعيل صبرى إلى أن يهتف :

يارب أهلى لفضلك وأكفى شلط العقول وفتنة الأفكار

ولقد دفع شلط العقول بالانسان إلى جحود فضل البارى وبالتالي جحود فضل البرية . فنجد بعض الكتاب يسخرون مما رواه المؤرخون عن أحداث خارقة . ثم جاء الباحثون ينقبون عن الآثار ويرفمون القناع عما خفى من حضارة الأقدمين فإذا بنا نرى بأعيننا ونلمس بأيدينا حقائق التاريخ التى كانت موضع الشك والسخرية . ومن هذه الحقائق العجيبة التى لم تكن قد لاقى غير الشك تلك الحقيقة التى تتلخص فى أن المصريين لمحو قيس المسيحية وهم فى عهود الوثنية ثم كشف المنقبون الستار عن هذه العهود القديمة فوجدوا بينها ما يثبت هذه الحقيقة كالمصدرية الخاصة بأمونوتب فرعون مصر من سنة ١٤٤٨ - ١٤٢٠ ق.م .

ومثل هذا الكشف عن الحضارات القديمة يثبت وحدة التطلع الانسانى نحو الروحيات ، فهو (والحالة هذه) يثبت وحدة التاريخ التى نكلما عنها فى التمهيد للجزء الأول من هذا الكتاب .

ولو أن وحدة التاريخ وقفت عند هذا الحد لكانت قصة الانسان على هذه الأرض قصة المسالمة والهناء ، ولكن من المؤلم أن هذه الوحدة تتضمن أيضاً ما تملك الناس من علف وجور دفع بالبعض منهم إلى الاستبداد بالبعض الآخر : فداى قويهم ضعيفهم ، واستهان حاكمهم بمحكومهم .

ولما كانت وحدة التاريخ حقيقة أثبتتها الأيام فإن تطلع الناس فى جيل أفاد غيرهم فى أجيال أخرى ، كما أن ظلمهم أضمر بأجيال لم تكن قد رأت نور الوجود بعد . وأروع مثل على ما أصاب الأجيال المتعاقبة من ظلم سابق على

عهودها ما حدث فيما يسمونه بمجمع خلقيدون سنة ٤٥١م. غ (١) . الواردة تفاصيله فى الفصل الأول لهذا الكتاب . فكان الأنبا ديسقورس (البابا الاسكندرى الـ ٢٥) أول من وقع عليه الظلم ثم سطا الظلم بعد ذلك على معاصريه ولاحق خلفاءه ، ولا يزال أثر هذا الظلم بادياً إلى يومنا هذا .

على أن الضمير الانسانى الجماعى قد بدأ يصحو صحوة واعية ، وحينما يستكمل صحوته تتضح أمامه الحقائق بجلانها ، وعندها تمحو العدالة ظلم القرون وتبدأ صفحة جديدة من كتاب الانسانية هى صفحة المحاولات التى ستبذل فى سبيل التأخى والتفاهم وترسيخ العدالة . وإذا عدنا مرة أخرى إلى التأمل فى وحدة التاريخ لوجدنا أن كل ما بذله القادة الروحانيون فى سبيل السمو كان بمثابة درجات صعد عليها الناس وبها سيصلون فى النهاية إلى الهدف الذى شاءه الله لهم وهو العيش فى ألفة وتقارب .



ولما كنا قد ذكرنا فى الجزء الأول لهذا الكتاب أن التاريخ يجب أن يتركز فى الجهاد الروحى ، وفى الأشخاص الذين سعوا إلى السمو بالناس ، وفى كفاح الشعوب ، فإن قصة الكنيسة القبطية ، تتضمن صوراً للجهاد المزدوج الذى بذله آباؤنا وأولادها . وهو جهاد مزدوج لأنه ذود عن عقيدتهم وذود عن قوميتهم فى آن واحد . فهم قد أصروا على الاحتفاظ بشخصيتهم القومية فرفضوا فى عناد الاندماج فى العناصر المختلفة التى وردت على بلادهم . ونعود فنذكر ما سجلناه من قبل وهو أن المصريين فى استطاعتهم أن يستوعبوا مختلف الثقافات والفلسفات ويستمتعوا بها ولكنهم مصريون قبل كل شئ جذورهم متأصلة فى أعماق التربة المصرية ، وهم فخورون بماضيهم المجيد وتاريخهم الحافل وحُبهم لمصر يفوق حبهم للعلم والفلسفة أياً كانت (٢) . ولأن حب مصر متأصل فى أعماقهم فإنهم - رغم هدوئهم - قاموا بثورات على مدى القرون ومازالوا يثورون على مختلف مظاهر الظلم .

(١) لوسنة ٤٤٣ م ش (ميلادية شرقية) .

(٢) قصة الكنيسة القبطية - الجزء الأول - ص ٣٤ - ٣٥ .

فمما أقام شبيهون بذيلهم للخالد الذي يصاب في هدوءه حتى إذا حل موعد
الفرمان تنفقت مياهه الهادرة بقوة تملأ القلب رهبة .

ولمحف القومية التي تملأ على القبط قلوبهم لم يسع المحققون من
التريين إلا تسجيلها في مؤلفاتهم المختلفة . فقد قال ماسبيرو ما ترجمته : لقد
كان للرهبان المصريون على درجة عظيمة من البساطة لأنهم كانوا كلهم
مصريين صميمين لم يختلطوا بالأجانب ، (١) . بينما يقول دوشين ، أنهم (أي
الرهبان) لكونهم المدافعين الملتهمين عن كنيسهم الوطنية فقد اشتركوا في
المنازعات السياسية والدينية فظلوا مدى قرون عديدة خطراً كبيراً يهدد
الامبراطورية ، (٢) .

على أن أروع اعتراف بهذه القومية الجارفة هو ما جاء على لسان
ماسبيرو أيضاً وهو : ، ولكن إن كان ديسقورس قد انهزم فقد بقي المصريون
الذين أصبحت لديهم المقاومة لمجمع خلقيدون والخلق بعقيدة كيرلس
وديسقورس بمثابة الرمز للمقاومة الشعبية . فقد انفكت من عقائلا قوة كانت
كامنة ، فكها اللاهوتيون فصاروا أبعد سلطاناً من الأساقفة أنفسهم ، تلك القوة
لم تعد مجرد الكهنوت المصري بل أصبحت الجنس القبطي كله الذي تألف
منه مذاك موكب ديسقورس وخلفائه (٣) .

(١) راجع مقالة دراسة بردية أنثروبي التي نشرها في مجلة للمعهد الفرنسي للآثار الشرقية
عدد سنة ١٩٠٨ من ٢٥ حيث يقول : " c'est que les moines étaient d'une grande
vaillance, car ils étaient tous des égyptiens sans mélange d'étrangers " .

(٢) راجع كتابه ، تاريخ الكنيسة المجد الثاني من ٥١١ حيث يقول : " Les moines furent pendant plusieurs siècles un incontestable danger pour l'empire " .
وقارن به ما .
جاء في رسالة الدكتوراة عن النظام المالي في مصر منذ العصر اليوناني حتى القرن للعاشر
(بالفرنسية) لرضا فرج بلستولي من ٢٥٥ - ٢٥٧ .

(٣) راجع المقال عنه من ٢٢ حيث يقول : " Déchainée par quelques théologiens, une force cachée s'était révélée plus puissante que les évêques : ce n'était plus le Clergé égyptien mais la race Copte qui formait désormais le cortège de Dioscore et de ses successeurs " .

وقارن به أيضاً ما جاء في رسالة الدكتوراة لرضا فرج بلستولي من ٢٦٨ . وهذه الحقيقة عينها
قد شهد بها نورمان بليز إذ قال بأن المصريين كانوا دائماً شعباً ذا قومية ، راجع الترجمة
العربية لكتابه : ، الامبراطورية البيزنطية ، بقلم حسين مؤنس ومحمود يوسف زائد من ٤٧ .

بطلُ مقدم

لا تُعَدُّ المهمة الكبرى جوائزها سَيَان من غَلَبَ الأَيَّامَ أو غُلِبَا
وكل سعى سيجزى الله ساعيه هيئات يذهب سعى المحسنين هباً^(١)

١ - في أفسس

- (١) انتخاب ديسقورس خليفة
كبير لى عامود الدين .
- (٢) إرساله خطاب الشركة ورد
ثيودوريت أسقف قورث .
- (٣) رسالتا البابا الاسكندري إلى
أسقف أنطاكية .
- (٤) ظهور يدعة أوطيخا .
- (٥) أسقف دوريليا يحاول رد أوطيخا
إلى الحق .
- (٦) فلابيانوس يتطير من فتح باب
الجدل .
- (٧) فلابيانوس وأوطيخا يكاتبان
أسقف رومية .
- (٨) فلابيانوس يعقد مجمعا مكائيا
للتخلف في بلدة أوطيخا ويتسلم
في أثنائه طومس لاون .
- (٩) ثلاثة رسالتين للبابا كيرلس
وأخذ الرأي فيهما .
- (١٠) أوطيخا لا يحضر إلا في الجلسة
السابعة للمجمع .
- (١١) الحكم على أوطيخا يستند إلى
طومس لاون ويثير الشعب
لتعبيراته النسطورية .
- (١٢) المبتدع يستغل هذه الثورة
الشعبية .
- (١٣) رد لاون على أوطيخا .
- (١٤) فلابيانوس يكتب إلى لاون
ويتلقى رداً منه .
- (١٥) خطاب لاون إلى الامبراطور .
- (١٦) بيان لاون نسطوري في رأى بعض
الأرثوذكسيين .
- (١٧) عقد مؤتمر في القسطنطينية .
- (١٨) افتتاح الامبراطور ثيودوسيوس
بعقد مجمع .
- (١٩) أوطيخا يحاول استمالة
الكنيسة بأسرها إلى جانبه .
- (٢٠) دعوة الامبراطور لعقد مجمع
في أفسس .
- (٢١) خطاب امبراطوري خاص للبابا
الاسكندري .

(١) من قصيدة ، مشروع ٢٨ فبراير ، لأمير لشعراء أحمد شرقى .

(٢٢) دعوة الامبراطور
لأورشليم ليرث برهما .

(٢٣) الفرض من عقد المجمع وموعد
عقده .

(٢٤) خطاب لاون إلى الأسيرة
بواشريا .

(٢٥) تلبية لاون للدعوة إلى المجمع
لعلمه بأن صاحب الحق فيها هو
امبراطور الشرق .

(٢٦) يوبينا اليوس ودومنوس يشاركان
ديسقوريس رئاسة المجمع .

(٢٧) مئة وثلاثون أسقفًا يحضرون
المجمع الأفسسي المسقوري .

(٢٨) تدابير الامبراطور للمحافظة
على المجمع من المؤامرات .

(٢٩) رغبة الامبراطور في دحض
النسطورية .

(٣٠) تباطؤ مندوبي لاون .

(٣١) رسائل من الامبراطور ورسالة من
لاون إلى المجمع أثناء انعقاده .

(٣٢) اجماع الأساقفة على دستور
الايمان الذي سنه آباء نيقية
والقسطنطينية وافسس .

(٣٣) أوطيخا يقدم اعترافه
كتابية ويذيله بحرم جميع
المبتدعين .

(٣٤) أوطيخا يقول أن معانصر
المجمع الثلاثي إلى مزورة .

(٣٥) المجمع يصفى لتقرير
اللايلاس ولوطيخا .

(٣٦) انزلاق فلايبانوس في البدعة
النسطورية لتأثره بطوموس
لاون .

(٣٧) الأباء يقررون أن ثودكسية
لوطيخا .

(٣٨) تبرئة ساحة لوطيخا .

(٣٩) الأباء الموقعون على حكم
التبرئة .

(٤٠) فلايبانوس يسعى لاستئناف
الحكم .

(٤١) أسقف رومية يسعى جهله
لمعاونة فلايبانوس ويكتب
لإمبراطور القرب وعانقته .

(٤٢) الامبراطور ثيودوسيوس
يرفض عقد مجمع آخر ويصر
على احترام حكم المجمع

الأفسسي المسقوري .

(٤٣) مكتبة لاون لأكليروس
القسطنطينية وشعبها .

(٤٤) انتخاب أناتوليوس أحد
شمامسة الاسكندرية أسقفًا
للقسطنطينية .



١- هي أنيس

١- لما انتقل الأنبا كيرلس عامود الدين إلى الأخدار السماوية سنة ٤٣٥م ش* ، انتقلت كلمة الاكليروس والشعب على انقلب سكرتيه ديسقورس ليخلفه على الكرسي المجيد الذي لمارمرقس البشير ، وكان ديسقورس قد سحب معلمه إلى أفسس ، كما كان محبوباً لتواضعه اللجم . وقد الفتنت مزاياء هذه بالغيرة المتقدة والشجاعة المتناهية وسرعة البديهة (١) . وغنى عن البيان أنه تعلم في مدرسة الاسكندرية التي تخرج منها جميع البارزين من رجال عصره ، فبحر في العلوم الروحية والفلسفية . ولما كان متصفاً بهذه الفضائل كلها فقد كان خير من يخلف كيرلس العظيم .

٢- وما أن تمت رسالة الأنبا ديسقورس حتى بحث برسالة الشركة إلى اخوته الأساقفة عملاً بالتقليد الذي استنه مافاوه . وقد رد عليه عدد منهم يهتلونه على ما نال من كرامة عظمى ، وكان ثيودوريت أسقف قرش بين الأساقفة الذين كتبوا إليه . وكان عجباً أن يكتب هذا الأسقف للبابا الاسكندري لأنه كان من أكبر المناصبين المداء للأنبا كيرلس في موقفه ضد البدعة المسمومة مع أنه كان متفقاً معه في وجوب العسك بالعقيدة الأرثوذكسية وقد جاء رد ثيودوريت هذا بسرعة إذ قد بادر بالكتابة إلى الأنبا ديسقورس بتملقه ويمتدح فضائله وبخاصة رفته ودعته (٢) . وكان مثل هذا الخطاب غريباً لصدوره من ثيودوريت الذي انقلب فيما بعد إلى خصم

* ملحوظة : للتواريخ المستعملة في هذا الكتاب هي للتواريخ الميلادية الشرقية . ولما كانت هذه تنقص ثمانى سنوات عن الـ تاريخ العربية فإن سنة ٤٣٥ المذكورة هنا توافق سنة ٤٤٣ م غ .

(١) تاريخ الكنيسة الشرقية المقتسة (بالانجليزية) لجون نيل جـ ١ ص ٢٧٨ ، (٣٠١) حيث يقول في وصف الأنبا ديسقورس : (... a man of excellent disposition, and much beloved for his humility . These virtues were adorned with his fiery zeal for the faith, and his presence of mind .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيبي جـ ٤ ص ٤٨٢ حيث يقول :

Des qu'il eut appris son élévation sur le siège d'Alexandrie, il lui écrivit une lettre flatteuse, dans laquelle il le félicite patriculièrement de sa douceur .

عديد ، فسلك بازاء ديسقورس المسلك عينه الذى سلكه بازاء كيرلس . ومن المؤلم حقاً أن يندفع ثيودوريت هذا الانشقاع العاشم فى عدلوته للبباوين الاسكندريين لأنه كان عالماً قويم الايمان لم يوافق على البدع . غير أنه لم يكن بالرجل الذى يستطيع أن يفرق بين المبدأ وبين الشخص الذى يدّين بهذا المبدأ - فهو كان يندفع بدافع حقه الشخصى لا بدافع الغيرة على الايمان الأرثوذكسى .

٣- ولم يكذ الأتبا ديسقورس يعلى الكرسي المرقسى حتى بلغه أن دومنوس أسقف أنطاكية يسمح لثيودوريت النسطورى بأن يعظ المؤمنين . فأحس بأن واجبه يدعوه إلى أن يحضّ هؤلاء المؤمنين ضد التعاليم الابتداعية فبعث برسالتين إلى الأسقف الأنطاكي قال له فى أولهما : « إن المسيح هو وحيد الجنس وهو بكر وابن الله . وبه كان كل شئ . وقد تأنس لأجلنا دون أن يحصل له ظل من التغيير بأى نوع كان ... فإن كانت فى بيعة أنطاكية الكبرى حيث يجتمع الكثيرون من مختلف الشعوب تتردد كلمات التجديف كأنه ليس من رادع فمن الذى يشفى مسامع الذين يتشككون ؟ أو كيف لا تدعوا إلى الحزن والكآبة إذا كان المرض ينتاب الناس فى دار الشفاء حيث يجب أن يداووا الصحة ؟ » ثم يبدى استغرابه من سماح دومنوس لثيودوريت بأن يخطب فى المؤمنين فيوجه الحديث إلى ذلك النسطورى معلناً حقيقة الايمان الأرثوذكسى بقوله : أخرج من صوت الآب الذى جاء من السماء قائلاً : « هذا هو ابنى الحبيب » ، لا تقسم إلى ابلين الواحد ربنا يسوع المسيح الذى ولكن صار بالجسد من امرأة لكنه باتخاذ الجسد مع نفس عاقلة ظل ما كانه أى لها . اسمع الفيلسوف بولس وهو يسألك : « هل انقسم للمسيح ؟ » ، فنجيب : كلا... إن الذى يسبحه الكاروييم ويكرمه الساروفيم هو بنفسه لما صار مثلنا ومن أجلنا ، ركب على جحش ابن أتان . ولما لطمه الخدام على وجهه تحمك سياسياً ليكمل كل بر . هذه هى الأمور التى سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداماً للكلمة ، وهذه هى تعاليم المجمع القديم والجديد (النيقى والأفسسى) . وقد اعترف بها معنا طيب الذكر سلفك الأسقف يوحنا... إن بعضاً يحاولون أن يفسدوا الألفة التى بين الكييستين كرهاً منهم للمسلم . فيضعون مؤلفات معيبة مضادة لما كتبه أبونا للمغبوط الشهير الأسقف كيرلس

معلم المسكونة كلها والحكيم الذى كتب باستقامة وبصرامة أكثر من غيره . ولم يكن رجل الأقوال فحسب بل وحين أئثرى بالموهبة السماوية فسَرَّ حقاً سر تجسد الوحيد لابن الله ، سواء أكان ذلك كتابة أو رسالة أو خطبة أو فصولاً أو حروماً . وكلها صحيحة تتفق والنصوص الالهية ... فرد عليه دومنوس برسالة حملها القس أوسيب أئتى فيها على محبته وصراحته فى رسالته معلناً أنه طالعها بلذة عظمى .

وقد كتب له الأنبا ديسقورس ثانية يقول : أنه كان يود أن يتراسل فى أمور تسودها المحبة والسلام ، لأن ذلك برهان على وحدة الكنائس فى الايمان التى هى نفس واحدة . ولكن يسوؤه أن يقول أن الأمر ليس كذلك الآن . لذلك يكتب إليه راجياً منه أن يلجم أفواه المعلمين الذين يشككون الكثيرين بأقوالهم متواقحين على القول بأن نسطور عزل لا لأنه حاد عن الصراط المستقيم مجدفاً على المسيح بل لأنه لم يتنازل لحضور مجمع أفسس ولئن دعا ، لأن ضميره كان يوبخه . ثم يقرع الذين يحاولون التقليل من أهمية المجمع الأفسسى وفصله عن النيقى بينما سلطان كليهما واحد ، وكلاهما مسكونيان : فالأول التأم بدعوة من الامبراطور قسطنطين الكبير للنظر فى بدعة أريوس ، والثانى التأم بدعوة من الامبراطور ثيودوسيوس الصغير للنظر فى بدعة نسطور (١) .

٤- وفى تلك الآونة ظهرت بدعة جديدة . وكان المبتدع هذه المرة أرشيمندريت عن القسطنطينية اسمه أوطيخا رئيس دير به ثلاثمائة راهب . وكان أوطيخا هذا صاحب مكر ودهاء ، يعرف أن يتلاعب بالألفاظ كما يتلاعب الحاوى بالببيض والحجر . على أنه - رغم هذه الصفات - اشتهر بالعلم والتقوى حتى لقد كان أهل القسطنطينية ومن بينهم رجال البلاط ينهبون لزيارته ، لئلا يفتقد منهم عبير العفة والتقوى ، (٢) . وكان قد اتخذ

(١) تاريخ الكنيسة للسريانية الأنطاكية لمارسيريوس يعقوب توما متروبوليت بيروت ودمشق وتوليها السريان الأرثوذكس ج٢ ص ٩٠ - ٩٣ .

(٢) تاريخ الكنيسة للسريانية الأنطاكية لمارسيريوس يعقوب توما متروبوليت بيروت ودمشق وتوليها السريان الأرثوذكس ج٢ ص ٩٩ .

موقفاً حازماً ضد نسطوريوس فى مجمع أفسس (المسكونى الثالث) ، وغالى كل المقالة فى مقاومة هذا المبتدع ، فدفعته مقالاته إلى أن يهوى فى بدعة عكسية إذ ادعى بأن السيد المسيح لم يتخذ من الحشا البتولى جسداً مماثلاً لنجسنا ولكنه مر به مروراً خيالياً .

٥- وكان أوسابيوس أسقف دوريليا صديقاً لأوطيخا فبذل جهده ليقنعه بأن يعدل عن بدعته ، وفى هذا السبيل غالى هو بدوره فى توكيده الطبيعية الانسانية التى اتخذها مخلصنا من السيدة العذراء فهوى فى البدعة النسطورية مما أدى إلى ضياع جهوده فى إقناع أوطيخا . وعندها قصد إلى فلابيانوس أسقف القسطنطينية وأخبره بكل ما جرى مطالباً إياه بعزل أوطيخا الذى يلغى من ماغفوس (أحد رجال البلاط) أن فلابيانوس وأوسابيوس يتآمران عليه (١) .

٦- وحين سمع فلابيانوس بابتداع أوطيخا اضطرب قلبه داخله إذ أحس بأن شركاً مستطيراً سيحل بالكنيسة إذا انفتح باب للجدل من جديد ، وأبدى مخاوفه هذه أمام أوسابيوس معلناً أن الاغضاء عن هذه البدعة هو خير وسيلة لأنه سيضيق دائرتها فلا تتعدى جدران الدير الذى يرأسه أوطيخا . وعند ذلك تموت بموته خصوصاً وأنه شيخ قارب الكهولة .

على أن أوسابيوس لم يشارك فلابيانوس رأيه بل ذكره بما للمبتدع من النفوذ على رهبانه ، كما ذكره بموقف هذا المبتدع عينه ضد نسطوريوس . وأصغى فلابيانوس إلى كلام شريكه فى الخدمة الرسولية وهو يعمن التفكير فيه . ثم قال له : « مادمت ترى أن الواجب يحتم علينا التحدث إلى أوطيخا بقصد إرجاعه عن بدعته فاذهب أنت إليه وكلمه شخصياً ، وخض معه النقاش بلا جهر ولا إعلان لأن أوطيخا محبوب من رهبانه ، . فعاد أوسابيوس إلى أوطيخا ثانية . على أن محاولاته التى قام بها بمشورة فلابيانوس قد ذهبت هى أيضاً أدراج الرياح . لأن المبتدع استمر فى عتاده والجهر ببذعته .

٧- ثم وصل إلى مسامع فلابيانوس أن أوطيخا قد كاتب لاون أسقف

(١) شرحه ص ١٠٠ .

رومية وحاول فيما كتبه إليه أن يقلعه بصحة بدعته . وخشى فلابيانوس أن يفلح المبتدع في استمالة لاون إليه فرأى من واجبه أن يكاتبه بدوره ليوضح له أمرين: الأول أن يبين له خطأ البدعة الأوطاخية ، والثانية أن يطالبه باقناع المبتدع كي يعدل عن بدعته كما طالب أوسابيوس بذلك من قبل . وقد رد لاون على خطاب فلابيانوس بخطاب يعرف بطومس لاون (أى عقيدة إيمانه). وكان هذا الخطاب باللاتينية طبعاً . ومما يؤسف له جد الأسف أن الترجمة اليونانية لهذا الطومس كانت إلى النسطورية أقرب منها إلى الأرثوذكسية . فنشأ عن هذه الترجمة الخاطئة سوء تفاهم بين عدة أساقفة ، ولهذا السبب عد طومس لاون الحجر الأساسى لانشقاق الكنيسة (١) .

٨- ولما ذهبت سدى كل الجهود الودية التى بذلت في سبيل رد أوطيخا إلى الايمان الأرثوذكسى ، وكانت قد أدت إلى الاعلان عن بدعته ، اضطر فلابيانوس إلى أن يعقد مجمعا من أساقفته فى القسطنطينية .

وقد حضر فلورينتيوس هذا المجمع مندوباً عن الامبراطور ثيودوسيوس الصغير للمحافظة على النظام .

وبعث المجمع إلى أوطيخا ليحضر ولكنه رفض فى بادئ الأمر . وفى الجلسة الأولى قرأ أوسابيوس أسقف دوريليا وثيقة الاتهام معلناً فيها أن أوطيخا مبتدع ويجب عليه المثول أمام المجمع كى يؤدى حساباً عن بدعته .

٩- ثم قرئت فى الجلسة الثانية رسالتان للبابا كيرلس الاسكندرى (٢):

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جينى جـ ٥ من ٣٥ حيث يقول :

" ... La lettre de Léon à Flavia us, mal traduite en grec, et qui prêtait ainsi à des interpretations nestoriennees " . " D'après beaucoup d'autres évêques " D'après beaucoup d'autres évêques orientaux, : حيث يقول :
La lettre de Léon de Rome, était susceptible d'un sens nestorien "

"La division est venue d'une fausse interpretation, ما نصه La lettre de Léon à Flavianus traduite en grec d'une manière defectueuse " .

(٢) هو البابا الاسكندرى الرابع والعشرون الذى رأس مجمع أفسس (المسكونى الثالث) ، وكان انعقد بدعوة من الامبراطور ثيودوسيوس الصغير للنظر فى بدعة نسطوريوس الذى فرق بين مليحى اللاهوت والناسوت - راجع من ٣٨٧-٤٣١ من الجزء الأول لهذا الكتاب .

احنامها عن الكلمة المتجسد ، وثانيتها للرسالة التي تتضمن الجهر بايمانه
والتي بموجبها عاد الوثنام بعد الخصام بيته وبين يوحنا الأنطاكي على أثر
ارفضاض مجمع أفسس . وبعد قراءة الرسائلين طوّل الأسافة بأن يجهر كل
منهم بايمانه ، فاعترفت غالبيتهم بتماليم كيرلس الاسكندري ويدستور الايمان
الذي وضعه الآباء في مجمع نيقية والقسطنطينية وأيده آباء مجمع أفسس
ايجابياً بالتوقيع عليه وسلبياً باعلانهم الحرم على كل من يضيف إليه أو
ينقص منه .

١٠ - ووالى فلابيانوس ومجمعه جلساتهم انتظاراً لأوطيخا لأنهم تمسكوا
بالقانون الكنسي الذي يقضى بانذار المتهم ثلاث مرات - وفي سابع جلسات
هذا المجمع الفلابيانى حضر أوطيخا . فقرأ المجمع على مسامحه وثيقة الاتهام
الموجه إليه من أسقف دوريليا ، كما تلا عليه طومس لاون . وبعد تلاوة هاتين
الوثيقتين طلب المجمع إلى أوطيخا أن يجهر بايمانه . ولكنه - بدلاً من الرد
باللسان - قدم اعترافاً مكتوباً بخط يده مليئاً بالتعجيرات اللولبية المبهمة .
فغضب الأسافة وبدأ عليهم شيء من الامتناع لهذا التهريب . وعندها تدخل
بينهم فلورنتيوس المندوب الامبراطورى وأمر أوطيخا بأن يوضح ايمانه صراحة
فكانت اجابته - رغم هذا الطلب - مبهمة عاتمة ، يستدل منها على أن
المسيح هو كلمة الله وله طبيعة واحدة الالهية (١) .

١١ - ولما لم يستطع المجمع الفلابيانى أن يحظى من أوطيخا باجابة
صريحة واضحة لم يجد بداً من اصدار الحكم عليه . ولقد استند فلابيانوس فى
حيثيات حكمه على أوطيخا إلى طومس لاون معتمداً على مناصرة أوسابيوس
له . أما الحكم فيقضى بحرم أوطيخا ويتجريده من كل رتبة كهنوتية لأنه
مبتدع . إلا أن صيغة الحكم كانت إلى المسطورية أقرب منها إلى الأرثوذكسية
فأثارت غضب الشعب القسطنطينى . وبادر أوطيخا إلى استغلال هذا الغضب
الشعبى فكتب خطابين : أحدهما إلى الامبراطور ثيودوسيوس

(١) مجمع خلقيدون ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتينى المحفوظ فى مكتبة الفاتيكان الراهب
فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كراذلة مطبوع فى رومية سنة ١٦٩٤ من ٢٨ - ٣٣ ،
تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشملاذريت جيئى ج-٤ من ٥٤٧ - ٥٤٩ .

الصغير وثانيهما إلى أسقف رومية . وفي كلا الخطابين صور نفسه بصورة البرئ المعتدى عليه ورجا منهما لنصافه . وكان ذا موهبة عجيبة في الكتابة ، وهذه الموهبة كانت تمكنه من أن يهز قلوب قرائه ومستمعيه ويحرك مشاعرهم فيدفعهم إلى العمل لمصلحته . وقد بدت مهارته في التلاعب بالألفاظ من الاعتراف الذي ذُكر به خطابه إلى الأسقف الروماني - إذ قد جهر فيه بعقيدة أρθوذكسية صميمة دون أن يتعرض لمسألة الطبيعتين (١) .

١٢- ولم تكن استغاثة أوطيخا بالأسقف الروماني بالشيء الجديد - فقد اعتاد رجال الاكليروس في القرون الخمسة الأولى أن يتشاوروا ويتكاثروا عملاً بوصية المخلص له المجد ، فأعلن للشرق في يقين تام بأن السيد المسيح حال في وسط الكنيسة للجامعة لا في شخص واحد ولا في كنيسة منفردة . ومن ثم كان الشرق والغرب صليبين يكمل أحدهما للثاني لأن السلطان الموهوب من السيد المسيح يشمل الكنيسة الجامعة (٢) إذ قد أعطاء لجميع رسله وتلاميذه على السواء ، ومنهم انتقل السلطان المسيحي إلى الأساقفة الذين خلفوه . وقد سارى السيد المسيح بين رسله وتلاميذه حين منحهم هذا السلطان إلى حد أنه لم يخص أحدهم بسلطة فردية حتى ساعة أن سعد إلى السماوات وهم شاخصون إليه . وتتجلى هذه الحقيقة في صلاته له المجد حين قال مخاطباً الآب السماوي : كما أرسلتني إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم ... وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد ، (٣) . كما تتجلى من أمره إليهم بالتبشير حيث قال قبل ارتفاعه : اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها ، (٤) . ولقد سار الآباء في صدر المسيحية على هذا التسليم الإلهي فكانوا يتبادلون المشورة كما كانوا

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيني جـ ٤ ص ٤٩ حيث يقول :

" Il (Eutychès) ajouta à sa lettre une déclaration de foi parfaitement Orthodoxe, mais dans laquelle il pardait un silence prudent au sujet de la question des deux natures " .

(٢) شرحه جـ ٤ ص ٥١٩ حيث يقول :

" ... l'autorité suprême n'appartient qu'à l'Eglise dans son intégrité " .

(٣) يوحنا ١٧ : ١٨ ، ٢٢ .

(٤) مرقس ١٦ : ١٥ .

يقبداون الشكوى . وسار أوطيخا على منهج الآباء عندما كاتب لاون الأول فى شأن الخلاف القائم بينه وبين فلابيانوس إذ لم يكف بالشكوى إليه وحده بل كتب يستغيث بأساقفة الاسكندرية وتسالونيك ورافينا (بابطاليا) (١) . كذلك استغاث أوطيخا بالقيصرين : ثيوفدوسيوس الصغير والنتينيانوس الثالث (امبراطور الغرب) . وبخاصة لأنه كان يتمتع بمكانة مرموقة فى بلاط القسطنطينية . وكان الخصى خريسافىوس من أعظم مناصريه فى ذلك البلاط (٢) .

١٣- وقد بعث لاون الأول بالرسالة التالية ردًا على أوطيخا : إلى الابن الحبيب أوطيخا النفس من لاون الأسقف - لقد فهمنا من خطابكم أن بعض نوى الأغراض الدنيئة قد أثاروا للبدعة النسطورية من جديد وقد فرحنا لغيرتكم ولمقاومتكم إياهم . ولما نشك فى أن الله الذى منحنا الايمان الواحد سيعينك فى جهادك . أما من جهتنا - فبعد أن وصل إلى مسامعنا رياء المناصرين للبدعة النسطورية - نرى لزاماً علينا بنعمة الله أن نقضى على هذا الشر . والله صابط الكل يحفظك يا ابنى (٣) .

وتتضح حقيقة هذه المراسلات مما أورده مارسويريوس يعقوب تعليقاً على ما كتبه لاون بقوله : « وتناول أوطيخا جواباً شافياً من لاون مباركاً غيرته وجهاده فى سبيل الايمان ، داعياً إياه لبناً روحياً وشريكاً فى رأى والايمان مشجعاً إياه على اصلاح فلابيانوس القسطنطينى وأوسابيوس

(١) مجمع خلقيدون ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتينى المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرتمس ماريا وصديق عليه ثلاثة كراذلة . مطبوع فى رومية سنة ١٦٩٤ ص ١٤٤ .

(٢) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما ج ٢ ص ١٠٤ .

(٣) مجمع خلقيدون ترجمه إلى العربية ... ص ٣٤ ومن الملاحظ أن لاون الأول اكتفى بأن يقول عن نفسه «أسقف» فى كل الخطابات لثتى كتبها فى هذا الموضوع . وهذه الصيغة وردت فى هذا الكتاب على ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٦٣ ، ٢١١ ومثل هذا التكرار إن دل على شئ فإنما يدل على أن كلمة « بابا » لم تكن لقباً لأسقف رومية حتى القرن الخامس على الأقل . كذلك تجدر الإشارة إلى أن لاون دعا أوطيخا « ابلى الحبيب » فى هذا الخطاب ثم انضم بعد ذلك إلى الذين حرمره وهاجم البابا ديسقورس .

أسقف دوريليوم وغيرهما من المتمسكين برأى نسطور إلى أن يلتزم المجمع المنشود (١) .

١٤- ولما علم فلابيانوس أسقف القسطنطينية أن أوطيخا يكتب الأساقفة بشأن بدعته كاتبتهم هو أيضاً ليبرر موقفه . وقد رد عليه لاون أسقف رومية مبيناً أن أوطيخا يتظلم من الحكم الصادر ضده ويطلب الانصاف ، وختم رده بهذه الكلمات : « إنتى أرجو من اخوتكم أن تتدبوا شخصاً أميناً يوضح لنا السبب الذى يستلزم منا اصدار حكماً . ولا يساعدنا على الوصول إلى تثبيت السلام فى الكنيسة إلا روح التسامح التى يجب أن تسود بيننا وليمان الامبراطور المتحمل بالدين ، وسينذل جهننا فى المحافظة على الايمان الأرثوذكسى فى صفائه التام وفى شد أزr المدافعين عنه . ويبدولى أن هذا الأمر سهل المنال لأن أوطيخا وعد فى خطابه إلى بأن يصحح كل ما ارتكبه من خطأ فى العقيدة . وفى هذه الحالة يجدر بنا أن نتحاشى كل خصام وأن نتذرع بالمحبة وأن لا يكون لنا هدف غير الحق » .

ومع ما أبداه الأسقف الرومانى من عطف على أوطيخا ، ورغم هذا النصح الغالى ، فقد ذكر فى خطابه إلى الأسقف القسطنطينى بأن أوطيخا مجرد من الفهم والمعرفة (٢) .

وقد رأى فلابيانوس أن يلحظ ثيودوريت أسقف قورش ليقابل لاون شخصياً ويوضح له ما جرى فى المجمع الفلابيانى . وقد بلغ من نجاح ثيودوريت أنه تمكن من استمالة لاون إلى بدعة نسطور (٣) .

١٥- ولم يكف لاون بالرسالة التى بعث بها إلى فلابيانوس بل سارع إلى مكتبة الامبراطور ثيودوسيوس ، فبعث له فى اليوم عينه برسالة ختمها بقوله له : « إن ما يثير فرحه هو أن قلب الامبراطور ليس قلباً

(١) فى كتابه تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية ج٢ ص ١٠٥ .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيئى ج٤ ص ٥٥٤ حيث يقول :

" ... nous savons ce qu'a fait Eutychés, qui semblait digne de l'honneur de Sacerdoce, mais qui n'est qu'un homme dénué de sagesse et de science ... " .

(٣) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسيريوس يعقوب توما ج٢ ص ١٠٦ .

امبراطوريا فحسب ولكنه قلب كهوتى أيضاً ، (١) .

١٦- ويبدو أن مكاتبات أوطيخا كان لها أثر بعيد فى نفس لاون الذى لم يلبث أن كتب رسالة بعد ذلك بقليل اشتملت على بيان مفصل لايامانه بالكلمة المتجسد . وقد توسع فى رسالته هذه فى الحديث عن الطبيعيتين : الطبيعية الالهية والطبيعة الانسانية اللتين اتحدتا فى المسيح المتأنس . ولما كان قد أسهب فى الكتابة عن كل من الطبيعيتين على حدة فقد بدت رسالته لبعض الأساقفة الأرثوذكسيين أقرب إلى النسطورية منها إلى الأرثوذكسية (٢) .

١٧- وبينما كان لاون متشاعلاً بكتابة هذه الرسائل اتفقت كلمة عدد من الأساقفة على أن يجتمعوا فى القسطنطينية . فعقدوا مؤتمرًا حضره ثلاثون منهم برئاسة أسقف قيسارية (الكبادوك) كما حضره أربعة من رهبان أوطيخا . وقد تناول المجتمعون فى الحكم الذى أصدره المجمع الفلابيانى ضد أوطيخا . إلا أن مداولاتهم لم تؤد إلى نتيجة حاسمة .

١٨- فلما رأى أنصار أوطيخا أنهم لم يصلوا إلى هدفهم من وراء هذا المؤتمر داوموا على بذل الجهود لدى رجال البلاط إلى أن تمكنوا بواسطتهم من اقناع الامبراطور بعقد مجمع يعيد النظر فى حكم فلابيانوس على أوطيخا .

١٩- وكان أوطيخا - رغم شيخوخته - لا يكل ولا يمل . فما أن اطمان إلى رضى الامبراطور حتى أخذ يستعد للمجمع ، فبعث برسائل إلى أكبر عدد ممكن من الأساقفة صّور فيها نفسه بريئاً مظلوماً يطالب باحقاق العدالة . وقد بعث باحدى هذه الرسائل إلى البابا ديسقورس . وقد أراد بهذه الرسائل أن يجعل الكنيسة بأسرها فى صفه قبل أن ينعقد المجمع بالفعل .

٢٠- ولما كان الامبراطور ثيودورسيوس الصغير قد وافق على عقد

(١) تاريخ المجمع (بالفرنسية) للكاردينال ميفاليه ج٢ ص ٢٢٨ حيث يقول :

" Il (Léon) se rejouit de ce que l'empereur n'a pas seulement un cœur impérial, mais de ce qu'il a aussi un cœur Sacerdotal " .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيلى ج١ ص ٥٥٦ .

مجمع فقد رأى أن يحقده في أفسس للمرة الثانية . فأرسل خطاباً دورياً إلى مختلف الأساقفة عين لهم المكان والزمان للاجتماع . ولكنه أرسل خطابين إلى البابا ديسقورس : أولهما يطلب إليه فيه أن يرأس المجمع ويستصحب معه عشرة من أساقفته ، وثانيهما يحتم إبعاد ثيودوريت أسقف قورش عن المجمع لأنه لم يعلن توبته بعد أن حرّمه المجمع المسكوني الثالث الذي كان قد انعقد في أفسس برئاسة الأنبا كيرلس سلف البابا ديسقورس .

٢١- وقد بعث الامبراطور برسالة ثالثة إلى الأنبا ديسقورس قال له فيها : « لقد سمعنا عدداً عديداً من الأرثيمنتريين ومن للشعب المؤمن في الشرق يتناقشون بحرارة في العقيدة ، وهم مصممون على مقاطعة الأساقفة النسطوريين . لهذا أمرنا بأن يحضر القس النقي الأرثيمنتري برسوما إلى المجمع ليمثل أرثيمنتريتي الشرق ويجلس مع قداسكم وبقية الآباء الذين سيحضرون إلى المجمع (١) .

٢٢- وقد تلقى الأرثيمنتري برسوما خطاباً من الامبراطور ثيودورسيوس الصغير ينبله فيه بالكرامة التي نالها . وكان برسوما هذا راهباً مصرياً قضى المنين الطوال في برية شبيهة وصار أباً لجماعة كبيرة من الرهبان .

٢٣- وكان الهدف الذي يرمى إليه الامبراطور من الدعوة إلى عقد مجمع أفسس هذا هو إعادة النظر في الحكم الصادر من المجمع الفلابياني - أي أنه عدّه في منزلة محكمة استئنافية تعاود النظر في حكم فلابيانوس الذي كان يرى جلالته فيه حكماً صادراً من محكمة ابتدائية . وقد حدد مدينة أفسس مكاناً للاجتماع كما حدد اليوم الأول من أوجسطس سنة ٤٤١ (٢) موعداً لافتتاحه . على أن لا يول الأول أسقف رومية امتلاً مخاوفاً ، وتزايدت مخاوفه باقتراب موعد المجمع . فبعث برسالة إلى الامبراطور يعبر له فيها عن هذه المخاوف إذ قال له : « كان من المستحسن عدم عقد مجمع ، ولكن بما أن الدعوة لعقد قد صدرت فالمرجو أن يظل الامبراطور على ولائه للإيمان

(١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسيريوس يعقوب قوما ج٢ ص ١٠٨-١٠٩ .

(٢) أوسنة ٤٤٩ ميلادية غربية .

القوم ، . روالى لاون للكتابة فبعث بعدة رسائل إلى فلابيانوس يستحثه فيها على حفظ الايمان الأرثوذكسى ويرجو منه ابداء الصلف على أوطيخا (١) .

٢٤- وكانت الأميرة بولشريا الأخت الكبرى للامبراطور سيدة قوية للشكيمة واسعة النفوذ ، فكتب إليها لاون الأول يحذر عن أوطيخا بقوله لها إنه سقط في البدعة عن جهل (٢) ، وأنه إن تاب وحببت معاملته بالرحمة . ولم يكف بهذه الرسائل بل شفعها بخطابين إلى يوليوس أسقف كوس . وقد طالب فى جميع هذه الرسائل باستعمال للرأفة مع أوطيخا إن هو أعلن توبته . بل أنه طالب فلابيانوس نفسه بالترفق به فى معاملته (٣) .

٢٥- ورغم مخاوفه ، ورغم عدم موافقته على عقد المجمع ، فإن لاون الأول لبى الدعوة بأن أرسل ثلاثة مندوبين عنه وعن الكنيسة الرومانية إلى المجمع . وهؤلاء الثلاثة هم الأسقف يوليانوس والشماس هيلاريوس والكاثل دولقوت حاملاً رسالة منه إلى فلابيانوس القسطنطينى ولبس إلى المجمع كما يقضى القانون الكنسى (١) . ولقد بعث لاون الأول بمندوبيه هؤلاء لأنه كان يعلم أن الدعوة إلى عقد مجمع مسكونى من حق امبراطور الشرق جرياً على التقليد الذى بدأه الامبراطور قسطنطين الكبير حين دعا إلى عقد مجمع نيقية (المسكونى الأول) . لأن الكنائس الرسولية فى الشرق عديدة بعكس الغرب الذى لا يملك منها غير كنيسة واحدة هى كنيسة رومية . والمبدأ القانونى يقرر بأن شهادة الفرد باطله (٢) . ومع استجابة لاون الأول لدعوة الامبراطور

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرضمندرث جيتى ج٤ ص ٥٦١ .

(٢) تاريخ المجمع (بالفرنسية) للمسكوبور هينغليه ج٢ ص ٥٥ حيث يقول :

" Eutychés était tombé plutôt par ignorance que par méchanceté " .

(٣) شرحه ج٢ ص ٥٥٦ - ٥٥٨ حيث يقول : " S'il retractait, on ne refuserait pas de se : montrer miséricordieux à son égard " .

ثم يعود فيقول : " Léon adressa encore une lettre à Flavien et il l'exhorta à la : douceur à vis d'Eutychés " .

(٤) تاريخ الكنيسة للسريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما ج٢ ص ١١٦ ، تاريخ الانشقاق لجراسيموس مسرة ج١ ص ٢٢٥ .

(٥) أو على حد التعبير اللاتينى " testis unus testis nullus " راجع : مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية عن الأصل للاتينى المحفوظ بمكتبة الفاتيكان للراهب فرنسيس ماريا وصانق عليه ثلاثة كراولة طبع فى رومية سنة ١٦٩٤ ص ٤٢ .

ثيودوسيوس الصغير فقد استمر يبدى مخاوفه حتى بعد قيام مندوبيه إلى أفسس إذ كتب يقول أنه ليس هناك ما يقتضى عقد مجمع (١) .

٢٦- وكان الامبراطور ثيودوسيوس الصغير قد طلب إلى يوبيناليوس أسقف أورشليم ودومنوس أسقف أنطاكية (٢) أن يشاركا البابا ديسقورس مسئولية الرئاسة .

٢٧- ويبدو من محاضر هذا المجمع الأفسسى الاستدفاى أن مدة وثلاثين أسقفاً حضروه ، من بينهم - عدا الثلاثة الذين ذكروا : فلابيانوس القسطنطينى ، يوليوس الأسقف المنتخب لتمثيل الكنيسة الغربية ، استفانوس أسقف أفسس ، تلاميوس أسقف قيسارية الكبادوك وغيرهم من الأساقفة الذين سارعوا إلى تلبية دعوة الامبراطور لاقرار السلام فى الكنيسة . وكانت كنيسة رومية قد انتدبت الكاهن رينافوس لتمثيلها إلا أنه مات فى الطريق . وفى آخر القائمة ورد اسم الشماس هيلاريوس المنتخب الشخصى لأسقف رومية . كذلك حضر هذا المجمع الأفسسى الاستدفاى عدد من الكتبة إذ قد استصحب كل أسقف كاتبه الخاص . وكان يوحنا القس الاسكندرى رئيساً للكتبة .

٢٨- وقد عين الامبراطور ثيودوسيوس الصغير مندوبين ليحضر المجمع نيابة عنه ويحافظا على النظام : هما الكونت ألبينيوس وأولوجيوس كاتب الحرس الامبراطورى . وقبل أن يصل المندوبان الامبراطوريان إلى أفسس لقادية المهمة التى انتدبا لأجلها وصل خطاب امبراطورى إلى بروكلس حاكم آسيا الصغرى يحمل إليه الأمر باستعمال سلطته لمعاونة مندوبيه فى المحافظة على المجمع من مؤامرات المستوريين وبخاصة من

(١) تاريخ المجمع (بالترسية) للمسيحور هينليه ج٢ ص ٥٥٨ حيث يقول :

" ... somme toute, le synode ordonné par l'empereur n'était nullement nécessaire " .

(٢) يقول مارسويريوس ويقرّب توما أن الأسقف الذى شارك ديسقورس ويوبيناليوس عيه الرئاسة هو تلاميوس رئيس أساقفة قيسارية الكبادوك وليس دومنوس الذى كان متهماً بالانطورية . راجع كتابه تاريخ للكنيسة السريانية الأنطاكية ج٢ ص ٧٤ - ٧٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٩ .

ثيودوريت أسقف قورش المحروم من المجمع الأفسس (المسكوني الثالث).

٢٩- وقد حمل المندوبان الامبراطوريان خطاباً إلى المجمع طالب فيه ثيودوسيوس الصغير آباءه بأن يقضوا على النسطورية قضاءً مبرماً بعد أن أصدر للمجمع المسكوني الثالث حكمه بحرم نسطور وتجريده من كل رتبة كهنوتية .

٣٠- ولقد تباطأ مندوب لاون الأول في الحضور : فلما أرسل إليهم المجمع مندوبيه يستدعيهم أجابهم الكاتب دولقيط : « إن الرسائل التي حملنا إياها لاون رئيس أساقفة رومية تقضى بحضورنا للمجمع المقدس عند بحث قضية محب الله للقس ورئيس الدير أوطيخا فصب فلا تحضره عندما يتداول آباءه في أمور أخرى ، (١) » .

٣١- وفي الجلسة الأولى قرأ يوحنا لقس الاسكندري ورئيس كتبة المجمع خطاب الامبراطور ثيودوسيوس الصغير الذي يتضمن أمره بعقد المجمع وأمله في أن يسود السلام في الكنيسة . وما أن انتهى من تلاوة هذا الخطاب الامبراطوري حتى أعلن الأسقف الملقب من الغرب أنه هو وزملاؤه يحملون خطاباً من أسقف رومية استجابة لدعوة الامبراطور ، وأن الرسالة تتضمن هذا المعنى . وما كاد البابا ديسقورس يسمع كلماتهم حتى قال : « فلنقرأ رسالة لاون أخينا وزميلنا في الخدمة الرسولية » . إلا أن يوحنا كبير الكتبة أعلن بأنه لا تزال لديه عدة رسائل امبراطورية لم يقرأها بعد ، فأمر يوبينا اليوس أسقف أورشليم وشريك الأنبا ديسقورس في رئاسة ذلك المجمع الأفسس الاستثنائي بقراءة الرسائل الامبراطورية أولاً . وكان بين تلك الرسائل الرسالة التي تضمنت أمر الامبراطور بحضور الأرشيمندريت برسوما إلى المجمع (٢) .

(١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسيريوس يعقوب توما ج٢ ص ١١٨ - ويلاحظ هنا أن المندوب الروماني وحفظ بالآداب الكهنوتية لأوطيخا رغم الحكم الفلاني كما يصفه بأنه محب لله .

(٢) مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتيني المحفوظ بمكتبة القلتيكان الرابع فرانسيس ماريا وصديق عليه ثلاثة كرائلة - طبع في رومية سنة ١٦٩٤ ص ٤٦ تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسيريوس يعقوب توما ج٢ ص ١٢٩ .

٣٢- وبعد الانتهاء من تلاوة رسائل الامبراطور أعلن للبابا ديسقورس بأن الايمان الذى قرره الآباء فى نيقية والقسطنطينية وأفسس (المجامع المسكونية الثلاثة) هو الايمان الأرثوذكسى الذى يتمسك به هو وكنيسته المصرية . ثم قال : « هل بين الآباء المجتمعين هنا من يجسر على أن يغير هذا الايمان أو يبتدع فيه ؟ » فأجاب الجميع : « إن من يجسر على الابتداع فى ما قرره آباء هذه المجامع المسكونية للمقدسة جدير بالحرم » . فعاد البابا ديسقورس يقول : « ولكن لأجل راحة ضمير كل منا ، ولأجل تثبيت الايمان واستئصال شائفة الخصام ، يجب أن نذكر أنفسنا بالايمان الذى سلمه لنا آباء هذه المجامع المسكونية المقدمة » . فهتف آباء المجمع : « إن هذا الايمان يخلص المسكونة . وقد حددته لنا الآباء كاملاً » . فأعلن البابا عند ذاك حرمة لكل من يعلم خلافاً للدستور الذى وضعته المجامع المسكونية للثلاثة . فقال آباء المجمع : « ليحيا ديسقورس حارس الايمان » . ففى شخصك يحيا الآباء أيها الراعى اليقظ » . - وإذا رأى البابا الاسكندرى اجماع الأساقفة على حفظ الايمان الذى أقره الآباء قال : « مادمنا متفقين على الايمان الواحد فلنستعرض معاً الحكم الذى صدر من فلبيانوس ومجمعه ضد أوطيخا ، (١) . ومن هذه الكلمات يتضح الغرض الذى اتعقد لأجله هذا المجمع : أى أنه كان بمثابة محكمة استئناف تستهدف فحص القرارات التى أصدرها المجمع الفلبيانى . ولهذا السبب لا يعد مجمعاً مسكونياً رغم أن الأساقفة الذين اجتمعوا فيه جاءوا من مختلف أقطار المسكونة .

٣٣- وهذا نودى على أوطيخا ليظهر بايمانه . فبدلاً من أن يجيب قدم إلى رئيس الكتبة اعترافه بالايمان مكتوباً بخط يده وموقعاً عليه بامضائه . وفى هذا الاعتراف قال : « إني منذ صباى أسعى لأن أعيش فى صمت وعزلة ، ولم أصل بعد إلى غايتى . وأنا استهدف الآن لخطر داهم لأننى رفضت كل ابتداع . وتمسكت غاية التمسك بالايمان القويم . وإننى أعلن محافظتى الثامة على الايمان الذى نادى به آباء المجامع المسكونية الثلاثة : نيقية

(١) مجمع خلقيدون ... ص ٩٥ ، تاريخ الكنيسة السريانية ... ج ٢ ص ١٣١ .

والقسطنطينية وأنفس ، واعتمد دوماً على ما كتبه كيرلس المطوب الذكر معل
المسكونة .

وما أن ذكر اسم كيرلس حتى هتف الحاضرون جميعاً بأنهم متمسكون
بايمان كيرلس الاسكندري ، وقال أوسدانيوس أسقف بيرتيوس أن هذا البابا
الاسكندري قد أوضح الايمان بالطبيعة الواحدة لله الكلمة المتجسد أوضحاً
تاماً . وهذا الايمان الذي أوضحه كيرلس وأعلنه ديسقوريوس هو الايمان
الأرثوذكسي للقلل بأن للسيد المسيح جعل من الطبيعتين - الالهية
والبشرية - طبيعة واحدة ، وهو الايمان الذي عبر عنه يوحنا للحبيب بقوله :
« الكلمة صار جسداً » (١) .

وعاود يوحنا رئيس للكنيسة قراءة اعتراف أوطيخا حيث قال : « إنني لأؤمن
بإله واحد ضابط لكل خالق ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح
ابن الله الوحيد : أعنى أنه من جوهر الآب ، إله من إله ، نور من نور ، إله
حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب في الجوهر : أعنى أنه
مساو لذات الآب ، به كان كل شيء ما في السماء وما على الأرض ، وهو الذي
من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد وتأنس ، تألم
وقام من بين الأموات في اليوم الثالث ، وصعد إلى السماوات ، ومنها يأتي
ليدين الأحياء والموتى . ولأؤمن بالروح القدس . »

أما جميع الذين يقولون بأنه في وقت ما لم يكن الابن ، أو أنه لم يكن
قبل أن يولد ، أو أنه خلق من العدم ، أو أنه من جوهر آخر أو شخص آخر ، أو
أنه اختلط وامتزج جميع الذين يقولون هذا محرومون من الكنيسة الجامعة
الرسولية . هذا هو الايمان الذي أجهر به والذي تسلمته من آبائي ، في هذا
الايمان ولدت وفيه كرست فقبلتني رحمة الله ، وفيه اصطبغت بالصبغة
المقدسة ، ورسمت كاهناً وعشت حتى اليوم ، وسأظل متمسكاً بهذا الايمان إلى
أن أفارق هذه الحياة .

وقد ذيل أوطيخا اعترافه الأرثوذكسي الصميم هذا بحرم لجميع

(١) يوحنا ١ : ١٤ .

المبتدعين من سيمون الساحر إلى نسطوريوس . وبعد الحرم الذي أصدره أوطيخا قال في اعترافه المكتوب بخط يده ما نصه : « بينما أنا عائش في هذا الايمان ، مداوم على الصلوات ، افترى على أوسابيوس أسقف دوريليا لدى فلابيانوس الأسقف المكرم ، ولدى غيره من الأساقفة الذين اعتادوا المجئ إلى المدينة الامبراطورية لمختلف الأسباب ، وادعى زوراً وبهتاناً أنني مبتدع ، فخلبوا لى بكلمات فارغة ثم عقدوا مجعاً لملين أن لا ألبى دعوتهم ، مبينتين الفية على الايقاع بى سواء حضرت أم لم أحضر . وقد كشف لى عن سبق اصرارهم رئيس الحرس الامبراطورى (١) .

٣٤- ثم أكد أوطيخا شفوياً أن محاضر جلسات المجمع الفلابيانى مزورة وأهاب بالمجتمعين أن يتصفوه . وهنا تدخل فلابيانوس قائلاً بأن أوسابيوس أسقف دوريليا كان المشتكى الأول على أوطيخا فيجب استدعاؤه ليمثل في حضرة المجمع ويؤدى حساباً عما حدث . فقال الكونت ألبيديوس أحد المندوبين الامبراطوريين « أن جلالة الامبراطور - بوصفه الحامى الأمين لقوانين البلاد - قد أمر بأن الذين جلسوا كقضاة فى مجمع القسطنطينية يتفرون الآن فى قفص الاتهام ، وليس لهم حق التكلم ما لم تمنحهم هذا الحق ، .

٣٥- وعندها رأى البابا ديسقورس أن خير حل لهذا الاشكال هو قراءة محاضر المجمع القسطنطينى الفلابيانى . فوافق الأساقفة بالاجماع على رأيه ما عدا مندوبى أسقف رومية اللذين اقترحا تلاوة خطاب أسقفهما . فقاطعهما أوطيخا قائلاً بأنه لا يلقى فى مندوبى الغرب لأنهما صديقان لفلابيانوس وهما صنيفاه بالفعل . فلما سمع المجمع هذا الاعتراض قرر الأخذ برأى البابا الاسكندرى وقراءة المحاضر . ثم قدم كل من فلابيانوس وأوطيخا تقريراً عما حدث فى مجمع القسطنطينية الذى حضره (٢) .

(١) مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية عن الأصل للاتينى المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كراذلة ، طبع فى رومية سنة ١٦٩٤ من ٢٥، ٤٩ - ٥٠ ، ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) شرحه من ٥٢ - ٥٣ ، ١٠٣ - ١٠٤ ، تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسوريوس بخرب ثوما ج٢ من ١٤٨ .

٣٦- وبعد الاصغاء إلى المحاضر والتقاريرين المتقدمين من فلابيانوس وأوطيخا وقف الأسقف القسطنطيني ليبرر نفسه في ما أصدر من حكم على المبتدع وللمرة الثانية انزلق في البدعة النسطورية لأن طومس لاون قد شوش تفكيره .

٣٧- وحين انتهى من دفاعه تداول المجمع فيما سمعه من الطرفين . وبعد المداولة قال يوبينالوس أسقف أورشليم : « مادام أوطيخا يجهر بايمان نيقية ويؤمن بما أعلنه الآباء في المجمع العظيم (المسكوني الثالث) الذي انعقد في مدينتنا هذه ، فمن الواضح لي من كلماته أنه أرثوذكسي - لذلك أقرر وجوب اعادته إلى رتبته الكهنوتية ورياسته للدير » . فردد المجمع : « هذا حق وعدل » . ثم قال دومنوس أسقف أنطاكية : « كان قد وصلني من القسطنطينية الحكم الصادر من فلابيانوس على أوطيخا (١) فصادت عليه إذ اعتقدت بصحته » . أما الآن وقد اتضح لي من الاعتراف المكتوب بخط يد أوطيخا الذي استمعا إليه في هذا المجمع - فقد تبين لي أن المحكوم عليه أرثوذكسي لأنه أعلن صراحة « تمسكه بايمان نيقية وبتعاليم الآباء (أيام المسكوني الثالث) الذين اجتمعوا في هذه المدينة » . لهذا أعلن موافقتي على استحقاق أوطيخا لكرامة الكهنوت ولرعاية الرهبان » .

وما أن انتهى دومنوس من كلامه حتى قام استفانوس أسقف أفسس وقال : « من الواضح لي - بعد أن سمعت محاضر المجمع الفلابيانى - أن الأرشمندريت أوطيخا أرثوذكسي متمسك بايمان الثلاثمائة والثمانية عشر الذين اجتمعوا في مجمع نيقية » . لهذا أرى أنه مستحق الكهنوت ورياسة الدير » . وأضاف تلاميذ أسقف قيسارية الكبادوك : « بما أن أوطيخا لم يبتدع في الايمان الذى سنّه مجمع نيقية فإننى أعده جديراً بكرامة الكهنوت » .

٣٨- وقد وافق الآباء بالاجماع على ما قرره هؤلاء الأساقفة الأربعة

(١) تاريخ المجامع (بالفرنسية) للمسلمير هيفيليه ج٢ ص ٥٢٧ ، ويورد هذا المؤرخ لكنسى (على الصفحة صحتها) الكلمات التى استعان بها فلابيانوس على وصف أوطيخا وهي أنه ذئب فى ثوب حمل وهذا نصها : « Il y a de gens qui, sous la peau de l'agneau, sont des loups ravissants. Tel est le cas d'Eutychés ... » .

وحكموا بتبرئة أوطيخا والحكم على فلابيانوس . ويازاء هذا الاجماع قال البابا ديسقورس : « إننى أوافق هذا المجمع المقدس وأحكم ببرد أوطيخا إلى كرامة الكهنوت وإلى رعاية شئون ديريه كسابق عهده » .

٣٩- وكان أول الموقعين على الحكم يوبينالوس أسقف أورشليم ، فدومنيوس أسقف أنطاكية ، وآخرهم الأرثيمنتريث برسوما . أما البابا ديسقورس فلم يذيل هذا الحكم بتوقيعه إلا بعد أن صادق على امضاءات الأساقفة المئة والثلاثين الذين اجتمعوا معه (١) .

ثم تقدم يوحنا كبير الكتيبة برسالة من الرهبان الذين يرعاهم أوطيخا وسأل الأساقفة المجتمعين إن كانوا يودون سماعها فأجابوه بالإيجاب . وبعد تلاوة الرسالة وجدوها أرثوذكسية صحيحة ، وبالعناقشة فيما حوته ثبت لآباء المجمع أن أولئك الرهبان يؤمنون بما جاء فى رسالة رئيسهم أوطيخا إذ قد أعلنوا فيها أنهم يؤمنون بدستور نيقية ويتمسكون بتعاليم البابا كيرلس الاسكندرى . ولما اقتنع آباء هذا المجمع الاستغافى بصحة ايمان رهبان أوطيخا حكموا ببرائتهم جميعاً من كل بدعة ، وباركوهم كما باركوا رئيسهم ، وأمنوا لهم فى العودة إلى ديرهم . ثم أصدروا حكمهم بحرم فلابيانوس وستة من أساقفته (٢) . وأرسلوا صورة من الحكم إلى الامبراطور ثيودوسيوس الصغير الذى صادق عليه وأمر بنفى فلابيانوس وزملاءه .

٤٠- وعندما رأى فلابيانوس أن الدائرة دارت عليه قرر أن يستأنف الحكم الصادر ضده . ولما كان أساقفة هذا المجمع - المئة والثلاثون - قد وقعوا الحكم عليه ، ولما كان ثلاثة من بينهم قد جلسوا فى مجتمعه ثم رجعوا عن رأيهم (٣) ، وكانوا قد أدانوا أوطيخا ثم برأوه ، ولما كان أسقفا أورشليم

(١) مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية عن الأصول اللاتينية المحفوظة بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس مازيا وصادق عليه ثلاثة كراثة - طبع فى رومية سنة ١٦٩٤ ص ٥٧ - ٥٨ ، «تاريخ المجامع» ، (بالفرنسية) للمنتسور هيجليه ج٢ ص ٥٦٧ .

(٢) نقرر للكنايس الشرقية أن حكم الحرم إن صدر عن غير حق ارتد على من أصدره لأنه سيف ذو حدين .

(٣) مجمع خلقيدون ، ترجمه ... ص ٥٨ - ٦٠ ، تاريخ الكتيبة (بالفرنسية) للأرثيمنتريث جينى ج٤ ص ٥٦٦ .

وأنتلاكية قد انضموا هما أيضاً إلى أوطيخا ، ولما كان هذا كله حقيقة أدركها فلابيانوس فقد أدرك معها أن الاستئناف إلى الأساقفة الشرقيين سيكون عبثاً . ولكنه - مع ذلك - عزم على إرسال خطاب دورى إلى جميع أساقفة الشرق والغرب وبخاصة إلى لاون الأول أسقف رومية (وزملائه القريبين) . وفى خطابه إلى الأسقف الرومانى أوضح له أنه استعان بطومسه فى ادانة أوطيخا (١) .

٤١- - وحين تسلم أسقف رومية خطاب فلابيانوس بعث إلى الامبراطور ثيودوسيوس الصغير رسالة باسمه وباسم مجمعه يستحلفه فيها أن يعمل على اعادة النظر فى الحكم الصادر ضد فلابيانوس من المجمع الأفسسى الاستئنافى . وقد هاجم لاون الأول هذا المجمع علناً فى رسالته واستعطف الامبراطور ليأمر بعقد مجمع آخر فى مكان ما بإيطاليا (٢) .

ولكى يضيف أسقف رومية إلى طلبه قوة استشفع بامبراطور الغرب وبأمه وبزوجته . ولقد تأثر ثلاثتهم بما كتبه إلى حد أن كلأ منهم كتب خطاباً منفرداً إلى ثيودوسيوس الصغير معزراً فيه طلب أسقف رومية بعقد مجمع على أرض إيطالية .

٤٢- - فرد الامبراطور على كل منهم رداً منفرداً أيضاً . وكانت الخطابات الثلاثة تتضمن معنى واحداً : هو أن المجمع الأفسسى الاستئنافى يتكون من مجموعة من الأساقفة الأنقياء الذين دافعوا عن الايمان الأرثوذكسى ، وأدانوا فلابيانوس بعدل لاثارته الفتنة فى الكنيسة . فقد قال فى رده ما نصه : « إن مجمع أفسس تصرف بمخافة الله المطلقة وبالايمان القويم ولم يمس بأذى قوانين الآباء كما علمت كل شئ بالتأكيد . لذلك فإنكم أحسنأ تفعلون إذا كنتم لا تتدخلون فى الأمر » . ويتضح من هذا الخطاب استمرار امبراطور

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) ... ج ٤ ص ٥٦٥ والحاثة الواردة على أسفل للصفحة عينها .

(٢) « مجمع خلقيدون » ترجمه ... ص ٦٢ - ٦٣ ، تاريخ الكنيسة الأنطاكية ، لمارسيريوس يقرب توما متربوليت بيروت ودمشق وتوابها للسريان الأرثوذكس ج ٢ ص ١٤٩ .

الشرق على وجوب احترام المجمع الأفسسي الاستثنائي وعلى تنفيذ قراراته حتى آخر نسمة من حياته (١) .

٤٣- وبينما كان الأباطرة يتراسلون بعث لاون الأول برسائله إلى اكليروس القسطنطينية وشعبها وأرشمندريتها ، وإلى الأسقف يوليوس وإلى فلابيانوس وقد حاول في خطابه الأول أن يستثير الشعب للقسطنطيني كي لا يقبل أسقفاً عليه غير فلابيانوس إذ لم يكن قد بلغه أن هذا الأسقف قد مات في منفاه (٢) .

٤٤- ولكي يؤكد الامبراطور ثيودوسيوس احترامه للمجمع الأفسسي الثاني بعث بخطاب إلى اكليروس القسطنطينية وشعبها بأذن لهم فيه بانتخاب أسقف بدلاً من فلابيانوس ويرجو منهم فيه أن يختاروا أسقفاً أرثوذكسياً ويتحاشوا جميع النسطوريين . وقد قبل القسطنطينيون مشورة الامبراطور فاختاروا أناطوليوس ليجلس على السدة الشاغرة (٣) . وقد أغضب انتخابهم هذا أسقف رومية لأن أناطوليوس كان أصلاً شماساً اسكندرياً ، كما كان سفيراً للبابا الاسكندري في القسطنطينية (٤) وقد رأس الأنبا ديسقورس الاحتفال برسمامته ثم عاد إلى بلاده بالسلامة .



(١) ، مجمع خلقيدون ، ترجمه ... من ٦٣ - ٦٧ ، تاريخ الكنيسة لسريانية ... ج ٢ من ١٥٠ حيث يطلق على خطاب الامبراطور ثيودوسيوس بقوله : « هكذا ظل أسقف رومية مدة من الزمن ينتظ على أحر من الجمر لحد بلوغه غايته المنشودة » ، وهذا مثل تاريخي واضح على أن امبراطور الشرق كان - هو وعده - صاحب الحق في الدعوة إلى المجامع المسكونية لأن المجمع لم ينفذ رغم أن أسقف رومية وامبراطور لغرب رغبا فيه .

(٢) مجمع خلقيدون ... من ٦٧ - ٧٢ .

(٣) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) ... ج ٤ من ٥٧٢ ، تاريخ الانشقاق لجراسيموس مسرة ج ١ من ٢٢٥ .

(٤) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) ... ج ٤ من ٥٧٤ .

ب- فى خلقيدون

- (٥٩) تجمع الأساقفة فى نيقية ثم ذهابهم إلى خلقيدون .
- (٦٠) افتتاح المجمع فى حضرة الامبراطور والامبراطورة .
- (٦١) ترتيب الجلوس والرياسة .
- (٦٢) أساقفة الغرب وشمال افريقية الذين حضروا المجمع .
- (٦٣) ادعاءات مندوبى رومية .
- (٦٤) التهمة الأولى ضد البابا ديسقورس .
- (٦٥) التهمة الثانية .
- (٦٦) الشغب والتذبذب فى المجمع .
- (٦٧) مضبطة المجمع الأفسسى تبين حقيقته .
- (٦٨) صيغة المصريين بالحق .
- (٦٩) التهمة الثالثة ضد البابا ديسقورس .
- (٧٠) القضية المدنىون يحاولون تبديد التوتر .
- (٧١) موقف أسقف سلوقية .
- (٧٢) ديسقورس رأس الأساقفة يحفظ الايمان .
- (٧٣) اعلان البابا ديسقورس ايمانه فى المجمع .
- (٧٤) حكمه الصحيح على أوطيخا .
- (٧٥) معاودة أسقف سلوقية إلى التنايق .
- (٧٦) توبيخ البابا ديسقورس له .
- (٤٥) الامبراطور ثينودوسيوس لم ينجب ولداً ويستشير آباء الصحراء فى هذا الشأن .
- (٤٦) رسل الامبراطور يشهدون سطو البربر على الآباء .
- (٤٧) الآباء يرسلون راهباً ورهباً لتقوية عزيمته .
- (٤٨) بولشريا تنقض عهد بتولتها وتزوج من مرقيانوس .
- (٤٩) غيرتها من نفوذ البابا الاسكندرى .
- (٥٠) لاون ومرقيانوس يتبادلان الخطابات .
- (٥١) تراجع لاون عن رغبته فى عقد مجمع .
- (٥٢) مرقيانوس يقرر عقد مجمع .
- (٥٣) خطاب لاون إلى مرقيانوس يتضمن تلبية الدعوة .
- (٥٤) امبراطور الشرق هو وحده صاحب الحق فى الدعوة إلى عقد مجمع مسكونى .
- (٥٥) خطاب بولشريا إلى لاون .
- (٥٦) رد لاون عليها .
- (٥٧) المسيحيون جميعاً يتناقشون فى بدعة أوطيخا قبل انعقاد المجمع .
- (٥٨) رغبة مرقيانوس فى عقد المجمع بنيقية .

(٩٧) احتجاج رومية على القانون الثامن والعشرين وقرار المجمع الخلقيدوني له رغم ذلك .

(٩٨) الانتظار الخلقيدونيين رد الامبراطور مرقيانوس .

(٩٩) مصالحة مرقيانوس على حكم المجمع واسره بنفى البابا ديسقورس .

(١٠٠) اربعة من اساقفة البابا الاسكندري يختارون النفي معه .

(١٠١) تحمله الاهانات في سبيل الايمان .

(١٠٢) اجتذابه الناس الى الايمان وهو في المنفى .

(١٠٣) بعض اساقفائه يزورونه في منفاه .

(١٠٤) تاجر مصري تجنح سفينته فيزور البابا ديسقورس .

(١٠٥) بفتوتى رئيس الاديرة الباخومية يزوره .

(١٠٦) البابا ديسقورس يدخل الى قرح سينه .

(١٠٧) شهادة بعض الابهاء له .

(١٠٨) ثيودويستوس سكرتير البابا الاسكندري يكتب سيرته ويضطر الى البقاء بعيداً عن مصر .

(١٠٩) اساقفة الشرق يستقرون ثلاث مرات .

(١١٠) البابا ديسقورس يحرم لاون وطومنه .

(١١١) الشكوك تساور بعض الاساقفة فيحلبون مهلة خمسة ايام .

(١١٢) مطالبة الفريريين بتفسير الكلمات الثلاثية المبهمة .

(١١٣) سوء النية المبينة للبابا ديسقورس .

(١١٤) المجمع يجتمع بعد ثلاثة ايام فقط .

(١١٥) الدعوة الثلاثية من المجمع كالاولى ، موزلة .

(١١٦) الشكوى الاولى ضد البابا الاسكندري .

(١١٧) الشكوى الثانية وما تلاها من شكوى .

(١١٨) سبق اصرار الخلقيدونيين على الايقاع بالبابا ديسقورس .

(١١٩) الادعاءات الرومانية .

(١٢٠) الحكم المجمعى على البابا ديسقورس .

(١٢١) غضب القضاة الملبنيين .

(١٢٢) شذوذ الحكم الخلقيدوني .

(١٢٣) اوثوكسية البابا ديسقورس لا غبار عليها .

ب- في خلقيدون

٤٥- تلك كانت الحالة حين انتقل الامبراطور ثيودوسيوس الصغير إلى الدار الباقية دون أن يجنب ولداً . وكانت أخته الكبرى بولشريا قد دبّرت زواجه بمعرفتها فشعرت بخيبة الأمل حين لم يجنب أخوها من يخلفه على العرش . وكانت قد استحلقتة (في وقت ما) أن يتزوج من امرأة ثانية . ولكنه لم يعمل بمشورتها ، بل أرسل إلى برية شيهيت طالباً النصح والعزاء من آباء الصحراء المصرية . وحين تقابل رسول الامبراطور مع هؤلاء الآباء وأعلمهم بالسبب الذي جاءهم لأجله قال له يونس شيخهم : « قل للامبراطور أن لا يحفل بالنصيحة الجوفاء لأن الله لن يهبه ولداً ولو تزوج من عشر نساء » .

٤٦- وبينما هم يتحادثون في هذا الموضوع انتفض على الدير جماعة من البرير فهتف يونس : « أن البرير يبخن قتلنا ، فمن خاف فليهرب ، أما من شاء أن يحظى بإكليل الشهادة فليبق » . وظل الراهب الشيخ يونس في مكانه ، ربقى معه ثمانية وأربعين راهباً قتلهم البرير جميعاً . ولما عاد للرسول إلى القسطنطينية ووصف الحادثة للامبراطور أمر ببناء كنيسة على اسمهم في عاصمته (١) .

٤٧- وأطاع الامبراطور مشورة الآباء المصريين ولم يتزوج ثانية . وكان رهبان شيهيت قد أرسلوا إلى القسطنطينية مع الرسول الامبراطوري ناسكاً شيخاً تقياً ورعاً اسمه إيليا ، كما كانوا قد بعثوا مع للرسول نفسه بخطاب يقولون فيه : « ها نحن مرسلون إليك رجلاً قديماً اسمه إيليا قريب الشبه من إيليا النبي » (٢) . وقد قضى هذا الراهب الوقور بعضاً من الوقت مع الامبراطور وهو يقويه ويعزّي قلبه . فلما أحسن بأنه قد أذى رسالته استأذن في العودة إلى برية شيهيت ثانية .

(١) مخطوط يروى سيرة التسعة والأربعين شيخاً محفوظ بدير الأنبا بيشوى ، «الصادق الأمين» للراهبين المقاريين الايغومانس فيلوثاوس والقس ميخائيل (الستكسار القبطي) طبع في مصر سنة ١٦٢٩ ش ج ١ ص ٣١٨ - ٣٢٠ .

(٢) الستكسار الأثيوبي ترجمه إلى الانجليزية وليس بودج ج ٢ ص ٦٠٦ .

٤٨- وفي سنة ٤٤٢م^(١) لما مات الامبراطور ثيودوسيوس الصغير بخير خلف اعتزلت زوجته الامبراطورة أودوكسيا العالم وذهبت إلى أورشليم حيث قضت بقية حياتها .

وكانت الأميرة بولشريا ذات مطامع واسعة : فقد أشرقت بنفسها على تربية أخيها ، واختارت له زوجته بمعرفتها ، ثم استحلقتة بالزواج ثانية حين وجدت أن للزوجة التي اختارتها هي لم تنجب ولياً للعهد . وكانت مدفوعة في هذا كله برغبتها الجامحة في أن تحتفظ بالعرش اسلالة أبيها . بل أن هذه الرغبة كانت عنيفة في نفسها إلى حد أنها نفرت بكارتها للرب وأقنعت أختها باقتضاء لثرتها إذ كانت هي أكبرهن سناً . وقد فطنت كل هذا لتسد الطريق على أي منافس لأخيها في عرش أبيها . وهكذا عاشت هي وأختها في جناح خاص من القصر أطلق عليه اسم « جناح الملكات العذاري »^(٢) . وحين وجدت بولشريا أن كل جهودها قد ذهبت هباء منثوراً لأن أخاها لم يخلف من يحتل العرش من بعده خشيت أن ينتقل السلطان من عائلتها إلى عائلة أخرى . فنقضت نذر بتولتها ، وخلعت عنها ثوب الرهينة وتزوجت من القائد مرقيانوس الذي رفعته إلى مرتبتها ومنحته أن يشاركها عرش أبيها . وقد أعطاهما لاون الأول أسقف رومية الحل فوراً بينما رفض جميع الأساقفة أن يملحوا البركة لزواج راعية سابقة .

٤٩- ولما كانت بولشريا على هذه الصفات كانت لا تطيق نفوذاً غير نفوذها . وكانت - لهذا السبب عينه - تشعر بخيرة عنيفة من خليفة مارموقس لما يتمتع به من نفوذ واسع^(٣) . وهكذا كان اعتلاؤها العرش الفرصة التي طالما ترقبها الأسقف الروماني ، والتي لم يظفر بها في حياة الامبراطور ثيودوسيوس الصغير . وحيث أنه لم يتردد في منحها بركته

(١) أي سنة ٤٥٠م غريبة وهو للتاريخ الأكثر شيوعاً .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيني جـ ص ٣٠٧ - ٣٠٤ حيث يصف بولشريا وأختها على ص ٣٠٢ بكلمة " Vierges - Reines " .

(٣) تاريخ الكنيسة الشرقية للمقنسة لجون نيل جـ ص ٧١٠ حيث يقول ما نصه :

The power of the Prelate of Alexandria was in some respects greater than that of the Bishop of Rome over his own prelates, and the civil authority attached to the office was ... exceedingly great .

ازولجها ، فقد سارع إلى تهنيئتها ومقيا نوس زوجها . ولتتهز الفرصة فاقترح عقد مجمع في آخر خطاب للتهنئة .

٥٠- وقد تبادل لاون الأول والامبراطور مرقيانوس عدة رسائل ذات مغزى خاص . ومن عبارات هذه الرسائل نستطيع أن نستشف الدوافع الداخلية التي أملتها . فقد بعث هذا الأسقف الروماني برسالتين متتاليتين إلى الامبراطور قال له في أولاهما : « من لاون الأسقف إلى مرقيانوس المنتصر - أعلم أيها الملك أنني تسلمت رسالتك بفرح عظيم . وقد أمدت للنظر فيها وأدركت رموزها ... » - ويعد أن أفاض المديح لذللك العاهل قال له : « تقبل هذه الرسالة القصيرة الآن التي يحملها إليك شمامسة أنطوليوس . وسأبعث لك برسالة أخرى إن شاء الله مع رسل للخصوصيين أخبروك فيها بكل ما يليق الأخذ به لمصلحة الكنائس والتغاهم بين رجال الدين الموقرين » .

وقد تبعث هذه للرسالة الأولى رسالة ثانية فوراً جاء فيها : « من لاون الأسقف إلى مرقيانوس المنتصر - أعلم أيها الملك أنني تسلمت ردي على رسالتك لرهبانك ... وقد تلقيت بفرح عظيم خطاب حنانك ، وكان لي مصدر حيور ، لأنني عرفت منه ما تنويه من اصلاح أمور الكنيسة ... أعلم أيها الملك العظيم أنني - اعتماداً على ارشاد الله - أرجو أنه بواسطة محبتك لتستقيم الأمور . والآن أستحلفك وأستعطفك بسر الخلاص العجيب أن تشدد قلبك ، ويسلطانك تمنع كل مشاغب مخدوع من أن يفحص الايمان بفروره ومكره ... فإنه لا يليق ولا يوافق أن نرجع إلى المناقشات للعالمية ولأن نبحث عن أقوال الجهلاء لئلا نضل عن الحق الثابت كأنه لا يزال هناك شك فيه . فليس من واجبن أن نشك في أوطيخا إن كان قد ضل بسبب معتقده الخاطئ أو لم يضل ، وليس لنا أن نشكبه في عدالة الحكم للصادر من نيسوقرس ضد فلابيانوس المطلوب الذكر . ولكن عدداً من الأساقفة قد ندم وأعلمنا بالشر الذي حدث طالبيين الصفع عن كل ما اقترفوه . فليس لنا أن تفحص ايمانهم بل علينا أن نقبلهم ونصفح عنهم (١) .

(١) : مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية عن الأصل للاتقلى المعفوظ بمكتبة القديكان للرابب فرنسيس ماريا وصداق عليه ثلاثة كراذلة - طبع في رومية سنة ١٦٩٤ من ٧٢ - ٧٤ .

وإن من يعمن النظر في جميع الرسائل التي كتبها لاون الأول بخصوص أوطيخا ليجدها تشير إلى وجوب التفرق به . وليس بمستغرب أن ينصح أسقف بالترفق ولكن المستغرب أن يتكاسى هذا الأسقف نصحه ساعة أن تأمر مندوبيه مع بعض الأساقفة في خلقيدون ضد الأنبا ديمقورس فزعموا أنه شارك أوطيخا بدعته استناداً إلى أنه حكم ببراءته . والأغرب من هذا كله خطابه الآنف الذكر الذي قال فيه : « ليس من واجبنا أن نشك في أوطيخا إن كان قد مثل بسبب معتقده للخطيئة أو لم يضل » ... ليس لنا أن نشبهه في عدالة الحكم الصادر من ديمقورس ضد فلابيانوس المطوب الذكر ، ... ليس لنا أن نفحص عن إيمانهم بل علينا أن نقبلهم ونصفح عنهم ، ... إننا نعجب - ربحق - لصدور مثل هذه العبارات من أسقف مسئول أمام الكنيسة فنسأل : ما الدافع الخفي الذي جعل لاون يمنح عفوه ؟ وعلى أي أساس سيعفو عن الأساقفة الخاطئين إن كان ليس من حقه أن يفحص إيمان هؤلاء الأساقفة ؟

٥١- على أن لاون تراجع عن رغبته في عقد المجمع بعد مكاتبة أناتوليوس أسقف القسطنطينية والامبراطورة بولشريا ، فعاد يكتب إلى الامبراطور قائلاً إنه لم يعد هناك حاجة إلى عقد مجمع بعد الجهود التي بذلها كل من أناتوليوس وبولشريا (١) .

٥٢- وبعد تبادل هذه الرسائل بين لاون الأول ومرقيانوس أعلن هذا الامبراطور استعداد له عقد مجمع على أن يحدد هو مكانه وزمانه ، وقال بأنه إن لم يكن في استطاعة الأسقف الروماني أن يحضر بنفسه فيلرسل من يلوون عنه ليجلسوا مع بقية الأساقفة الذين سيجمعون ليقرؤوا الإيمان .

فلما رأى لاون هذا الاستعداد لدى مرقيانوس أرسل إليه عدة رسائل

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشيمندريت جيبي ج٤ ص ٥٧٨ حيث يقول ما نصه : « Il (Léon) pensait que , Grâce au concours d'Anatolius et de Pulchérie , on pourrait mettre fin à la plupart des discussions ... » Quant au concile que nous-mêmes nous avons demandé , il n'y a pas de nécessité de réunir les évêques de toutes les provinces' ... » .

طالباً إليه فيها أن يعقد مجمعاً فوراً في مكان ما بإيطاليا (١) . - إلا أن الامبراطور - مع موافقته على الاقتراح بعقد مجمع - لم يقابل هذا الطلب بالترحاب، إذ قد شاء أن يستعمل الحق الذي خولته إياه التقاليد بوصفه امبراطوراً للشرق - أي الحق في تحديد مكان المجمع وزمانه. فبعث برسائله إلى مختلف الأساقفة يعين لهم فيها الزمان والمكان الذي حددهما هو بنفسه لعقد المجمع (٢) .

٥٣- ولما وصل خطاب الامبراطور مرقيانوس إلى أسقف رومية بعث إليه بالرد التالي : « من لاون الأسقف إلى مرقيانوس المنتصر - لقد طلبت إليك أن تؤجل موعد المجمع المطلوب عقده للمصالحة بين الكنائس الشرقية ، لأن بعض الأساقفة لا يستطيعون للسفر هذه الأيام بسبب الحروب الناشئة في بلادهم ، وقد يستطيعون الحضور فيما بعد . وأنا أعرف أنك ستجعل المكانة الأولى للأمور الكنسية . ولست أرغب في أن أعصاك ، ولكي أتمنى تثبيت الايمان في القلوب . ولقد ضلّ نسطوريوس وأوطيخا عن الحق . ولئن اختلف كل منهما في التعبيرات التي استخدمها ، إلا أن كليهما مكر للقيم . فيجب على الجميع أن يسخروا من تعليمهما ... ومع أنني لا أستطيع الحضور بنفسى تلبية لدعوتكم إلا أنني سأبعث بمندوبين على هما باسكاسينوس ولوستينيوس ومعهما بعض الكهنة (٣) .

٥٤- وهكذا قبل الأسقف الروماني أن يملكه مندوبوه في المجمع الذي دعا إليه الامبراطور مرقيانوس بخطاب منه حدد فيه بنفسه المكان والزمان لعقده : قبل لاون الدعوة مع أنه كان قد أبدى رغبته للامبراطور في العدول عن عقد المجمع . فكان قبول هذه الدعوة دليلاً آخر على أن امبراطور الشرق

(١) وهذا أيضاً يناقض لاون الأول نفسه بنفسه ، فيطالب بعقد مجمع ثم يحدل عن الطلب ثم يعود إلى استعجال عقده فتزولاً على رغبة الامبراطور مرقيانوس .

(٢) البابوية المنشقة (بالفرنسية) للآبيه جيلى ص ٩٨ .

(٣) « مجمع خلقيدون » ترجمه إلى العربية ... ص ٧٤ - ٧٦ ، ويلاحظ في هذا الخطاب بدء انقلاب لاون الأول على أوطيخا إذ يصفه بأنه « مكر للقيم » بعد أن كان يطف عليه ، كذلك يساريه بنسطوريوس في ضلاله .

هو وحده صاحب الحق في الدعوة إلى عقد المجامع المسكونية (١) .

٥٥- ولم تغف الامبراطورة بولشريا في تلك الأثناء مكتوفة اليدين ، بل رجت بنفسها في هذا الشأن الخطير ، فكتبت خطاباً إلى لاون الأول قالت له فيه : « من بولشريا المنصورة إلى الأب الوقور أسقف مدينة رومية العظمى - أعلم يا أبى أننا تسلمنا رسالة قداسكم بما يليق من لكرلم لصدورها عن أسقف وعدد تلاوتها أتركنا أن ليمانكم صاف وجدير بالكنيسة المقدسة . وإننى أؤمن بهذا الايمان عينه أنا وزوجى الملك القوى . أما الشكوك والبدع والانشقاقات فهي بعيدة عنا . ثم إننى أود أن أعلمك أن لناطوليوس الوقور - أسقف مدينتنا العظيمة - يتمسك بالايمان القويم ، ويعترف بالتعاليم الرسولية . وقد استبعد البدع التي كان البعض يعمل على ترويجها . وسيتبين لك ايمانه للحق من للخطاب الذي بحث به إليك وقد وقع بنفسه على الخطاب الذي كنتم قد أرسلتموه إلى فلابيانوس المطروب الذكر وأيد ما فيه

(١) « مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتيني المحفوظ بمكتبة الفاتيكان للراب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة - طبع في رومية سنة ١٦٩٤م ٧٢، ٧٥، ٧٨ ، تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) للأرشمندريت جيئى جـ٤ ص ٥٨٠ حيث أورد نص خطاب لاون الأول الذي يعلن فيه قبول دعوة الامبراطور ويختتمه بوضع لوطيخا في صف واحد مع نسطوريوس فيقول ما نصه :

" Nous aurions pensé que Votre Clénence se serait rendue au désir que nous lui avions manifesté, d'ajourner à un temps plus favorable l'assemblée sacerdotale que vous aviez projetée ... Mais puisque par omour de la foi catholique vous avez voulu que l'assemblée eut lieu j'ai envoyé mon frère et cavêque Paschasinus ... pour me remplacer au concile, afin de ne pas paratre entraver par mon abstention, votre bonne volonteé ... Je lui ai adjoint mon confrère dans le sacerdoce, le prêtre Bonfaciues ... et mon frère Gulianus, avec le secours du Seigneur, et grâce à leur modération, ces personnages agiront de manière ... à ne laisser dans les cours de quelques éveques aucune trace de l'impiété de Nestorius ou de celle d'Eutychès, car très - glorieux empereur, la foi Catholique ... ne souffre ni l'un ni l'autre de ces deux hérétiques " .

راجع أيضاً كتاب تاريخ للكنيسة للسرانية الأنطاكية لمارسوريوس يخوب توما مديبوليت بيروت ونمشرق وتوايعها للسرمان الأرثوذكس جـ٢ ص ١٥٠ حيث أورد المؤلف الأسباب التي جعلت الامبراطور مرقيانوس يلبي رغبة لاون الأول في عقد مجمع مسكونى للخطر في قرارات المجمع الأنسى للديسقرى .

من تعاليم صحيحة . ولود أن أرجو منك أن تستحث أساقفة ايليريا والشرق وغيرها من البلاد أن يحضروا المجمع تحقيقاً لرغبة زوجي الحنون وذلك لكي يتدولوا معاً في إيمان الكنيسة الجامعة ، ويقحصوا بحنان مسيحي وإيمان نصراني قضية الأساقفة الذين انشقوا على الكنيسة من مدة غير بعيدة . كذلك لود أن أعلمك أن زوجي الحنون قد أمر باحضار جثمان فلابيانوس المطوب الذكر من المنفى لدفعه في مدبنتنا العظيمة إلى جانب أحداث سلفائه المكرمين . كذلك أمر زوجي بإعادة جميع الأساقفة الذين نفوا مع فلابيانوس المطوب الذكر إلى كراسيهم كي يتشاور الأساقفة الذين سيحضرون إلى المجمع في أمرهم ويعيدوهم إلى كراسيهم تبعاً لجدولتهم ، (١) .

٥٦- وقد أجاب لاون الأول على خطاب بولشريا برسالة شكرها فيها على كل ما أدته للكنيسة من خدمات ، وعلى المعونة التي قدمتها لمدنوبيه ، وعلى إعادة الأساقفة المنفيين ، وعلى نقل جثمان فلابيانوس المطوب الذكر إلى عاصمة كرسيه (٢) .

٥٧- ولقد استاء الأساقفة الشرقيون من جهر بولشريا بإيمان لاون الأول الذي عدوه Nestorian ، إذ بدا لهم أنها انزلت في البدعة من غير أن تدري كما انزلق فلابيانوس من قبل - ساعة أن كتب حقيقات حكمه على أوطيخا .

ويبدو من كل هذه الخطايات أن للمسيحيين في كافة البلاد قد عرفوا ماهية البدعة الأوطاخية واتخذ كل منهم موقفه بازائها قبل اللذباب إلى المجمع .

(١) مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتيني المحفوظ بمكتبة لفتانيكان الراهب فرنسيس ماريا وصديق عليه ثلاثة كرافلة - طبع في رومية سنة ١٦٩٤ ص ٧٤ - ٧٥ ، ويجدر القول هنا بأن الامبراطور مرقيانوس - باعده الأساقفة المنفيين - قد اعتدى على سلطة المجمع التي تمكك وحدها الحق في ادانة الأساقفة أو تبرئتهم . كذلك يلاحظ أن الامبراطورة قد أعلنت مقدماً عودة الأساقفة المتهمين إلى كراسيهم .

(٢) تاريخ المجمع (بالفرنسية) للمنتور هيفليه ج ٢ من ٥٩٠ .

٥٨- وخيلما بعث الامبراطور مرقيانوس بالدعوة إلى عقد المجمع كان ينوى عقده في نيقية إذ كان يحلو له أن يشبه نفسه بقسطنطين الكبير ، ولكن لما كانت قبائل الهون تهدد حدود امبراطوريته ، ونزولاً على رغبة بولشريا (١) فقد قرر عقده في خلقيدون لقربها من القسطنطينية (٢) .

٥٩- وما أن تسلم البابا ديسقورس دعوة الامبراطور إلى المجمع حتى ترك أهله وولاده للمرة الثانية - ولم يكن ليدور في خلد واحد منهم أنه لن يعود إليهم بالجسد وقد استصحب معه عدداً من الأساقفة بينهم القديس مكاري أسقف أذكو . ولما كانت الدعوة تشير إلى عقد المجمع في نيقية فقد تجمع الأساقفة في تلك المدينة التي أكمبها المجمع المسكوني الأول شهرة خاصة (٣) . ولكن حين وصل الأساقفة إليها بلغهم أن الامبراطور لا يمكنه مغادرة عاصمته . ورفض مندوبو لاون الأول رفضاً باتاً أن يحضروا المجمع ما لم يحضره الامبراطور بنفسه ، وبعثوا إليه يستحلفونه بأن يحضر (٤) ، ووافقهم بولشريا على رأيهم وألحت هي (بذورها) على زوجها ليحضر المجمع بنفسه . ولما كانت تعلم أنه من المتعذر عليه أن يترك عاصمته في الوقت الذي يتهدد قبائل الهون حدود امبراطوريته ، اقترحت عليه أن يعقد المجمع في خلقيدون لقربها من القسطنطينية . ونتيجة لالاحاح مندوبى لاون الأول ، وتحت تأثير بولشريا ، أرسل مرقيانوس إلى الأساقفة يدعوهم إلى موافاته في خلقيدون . فلبوا الدعوة وغادروا نيقية . ولقد أبدى بعض الأساقفة مخاوفهم من أن يحدث أنصار أوطيخا شيئاً من الشغب لسهولة الوصول من القسطنطينية إلى خلقيدون . ولكن الامبراطورة طمأنتهم بأن

(١) مختصر تاريخ الشعوب لاون للجرى . طبعه في مطبعة الجزويت ببيروت الآب أنطون صالحاني من ١٤٥٠ ، ويقول مارسويريس يعقوب توما في كتابه تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية ج٢ من ١٥٤ أن السبب في اختيار مكان المجمع هو حدوث زلزال عنيف في نيقية

(٢) هي الآن إحدى قرى نيقية في آسيا الصغرى ، تعرف باسم « قاضى كوى ، أو « قرية القاضى »

(٣) راجع الفصل الخاص بهذا المجمع في الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٤) ترى ما للدافع الخفى الذى جعل نواب لاون الأول يقفون هذا الموقف ؟ .

أصدرت أوامرها المشددة إلى جلدها بأن يمنحوا أى شخص غير حاصل على إذن كتابى من أسقفهم من الدخول إلى خقيدون (١) .

٦٠- وقد افتتح المجمع جلساته فى الثامن من أكتوبر سنة ٤٤٣م (٢) ، ولم يتفق لثمان من المؤرخين على عدد الأساقفة الذين حضروا هذا المجمع . فمنهم من نزل به إلى ثلاثمائة وستين ، ومنهم من صعد به إلى ستمائة وثلاثين (٣) ، كما أنهم لم يتفقوا على عدد الجلسات . ولكنهم اتفقوا جميعاً على أن الامبراطور مرقيانوس والامبراطورة بولشريا قد حضرا افتتاحه ، وأنهما عينا تسعة عشر قاضياً مدنياً مهمتهم حفظ النظام والاشراف على الجلسات . فكانوا بمنزلة مجلس وزراء ، وجلسوا فى وسط كنيسة القديسة أوفيميا حيث انعقد المجمع .

٦١- وقد جلس الامبراطور والامبراطورة فى صدر الكنيسة عن يمينها البابا ديسقورس ، فيوديناليوس أسقف أورشليم ، فهيركللاس أسقف كورنثية ، فأساقفة مصر وبابلوريا وقسطنطين . بينما جلس عن يسار الامبراطور وزوجته أسقف القسطنطينية ، فمندوب أسقف رومية وأساقفة أنطاكية وقيسارية وأنفس رينطس وآخاكية وقرانيا .

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المقام أنه على الرغم من اعطاء المكانة الأولى لرومية وللاثانية للقسطنطينية بوصفهما عاصمتى الامبراطورية الرومانية ، إلا أن البابا ديسقورس هو الذى أجلسوه عن يمين الامبراطور للمكانة الروحية الطمية التى امتازت بها الاسكندرية فجعلت منها كعبة لجميع الساعين نحو المعرفة .

وقد رأس الجلسات بالتناوب - مع القضاة المدنيين - أربعة من الأساقفة

(١) مجمع خقيدون ، ترجمه إلى العربية ... ص ٧٩ ، تاريخ الكنيسة بالفرنسية للأرشمندريت جينى ج-٤ ص ٥٨٧ - ٥٨٣ .

(٢) لوسنة ٤٥١ ميلادية غربية - وهو للتاريخ الأكثر شوباً .

(٣) تاريخ الكنيسة ... ج-٤ ص ٥٨٣ ، للدراسة النفسية فى شرح حال الكنيسة للأسقف ملانيرس ص ١٢٨ - ١٢٩ ، صلاة تحليل للابن وتكاثار القديسين فى الفخولاجى الكاثوليكي المطبوع برومية .

الخمسة الذين أطلق عليهم لقب ، بطارقة ، (١) .

٦٢- وقد حضر المجمع عدد من رجال الاكليروس الغربيين وعلى رأسهم الأسقفان باسكاسيوس ولوستيتيوس مندوبا لاون الأول . كذلك تمكن أسقفان أفريقيان من مغادرة بلادهما قبل أن يغزوها قبائل البربر فاستطاعا أن يجسرا المجمع .

٦٣- وما أن التأم المجمع حتى وقف باسكاسيوس مطالباً رجال البلاط باخراج البابا ديسقورس من المجمع وإلا يضطر هو وزملاءه إلى الانسحاب من الجلسة . وتساءل رجال البلاط عن السبب لذلك فأجاب لوستيتيوس بأن هذا الرجل لم يحضر ليجلس مع القديسين بل ليؤذي حساباً عما فعله في أفسس . وهنا سأل أحد الأساقفة : « وأى ذنب جلى ؟ » فرد لوستيتيوس قائلاً : « لقد تجرأ على عقد مجمع بغير ترخيص من أسقف رومية » . ومن المخجل أنه لم يقم واحد من المجتمعين ليصحح ما ادعاه هذا الأسقف الروماني فيبرز الدعوة التي وصلته من امبراطور الشرق (٢) . ومن المخجل أيضاً أن الامبراطور مرقيانوس سمع هذا الادعاء دون أن يعترض عليه مع أنه أصر على أن يحدد بنفسه المكان والزمان للمجمع . وكل ما فى الأمر أن اكتفى أحد الأساقفة بقوله لمندوب لاون الأول : « إن كنت قد جئت مشككاً فكيف تجلس قاضياً ؟ » .

(١) ، البابوية المنشقة ، (بالفرنسية) للأبيه جيتى ص ١٠٠ ، وهؤلاء الخمسة هم أساقفة أورشليم وأنطاكية والاسكندرية والقسطنطينية ورومية . ويقول الأرثوذكس جيتى فى « تاريخ الكنيسة » ج٤ ص ٦٠٢ ما نصه : " Le titre du patriarche commençait à entrer dans les usages au milieu du cinquième Siècle " .

(٢) دائرة معارف العلوم الدينية للفرنسية ج٣ ص ٢٩٣ حيث جاء ما نصه : " ... Les empereurs d'orient eurent seuls, sans conteste, le droit de convoquer les conciles généraux " كذلك يعود الأرثوذكس جيتى فبؤكد هذه الحقيقة عند التحدث عن المجمع المندوب سادس المجامع المسكونية لدى الكنائس التي اشتركت فيه فيقول فى كتابه ، تاريخ الكنيسة ، ج٥ ص ٤٨٠ (فى الهامش) ما نصه : " D'après la lettre de l'empereur (d'Orient) on voit que c'était lui qui convoquait le concile . Ce fait incontestable a été reconnu par le pape Agathon dans sa réponse, par les principaux auteurs qui ont écrit sur l'histoire à cette époque " .

ولكى يحتفظ البابا ديسقورس بالسلام ويتفادى شغياً لا داعى له قام من مكانه عن يمين الامبراطور وجلس فى وسط الكنيسة إلى جانب القضاة المدنيين (١) .

٦٤- وبدأ المندوبان الرومانيان يتهمان البابا ديسقورس فقالا أنه نقض القوانين الكنسية فتساءل البابا الاسكندرى : من منا الذى نقض القوانين : أنا الذى استجاب دعوة الامبراطور ثيودوسيوس المطوب الذكر بحضور المجمع الأفسسى الاستثنائى ، وعدم السماح لثيودوريت النسطورى أن يحضر هذا المجمع لأنه لم يتب بعد حكم الحرم الذى أوقعه عليه المجمع المسكونى الثالث ، أم أنتم الذين سمحوا لهذا الأسقف النسطورى بأن يجلس بينهم وهو لا يزال محروماً ومقطوعاً من جسم الكنيسة ؟ (٢) .

٦٥- وتجاهل جميع الأساقفة هذا السؤال للخرج فلم يجبه واحد منهم ، وصمت القضاة المدنيون أمام هذا التجاهل . وتقدم أوسابيوس أسقف دوريليا الذى كان المشتكى الأول على أوطيخا ليلعب الدور عينه بازاء البابا ديسقورس فادعى بأنه هو وزملائه قد حوكموا ظلماً وعدواناً ، وأن البابا الاسكندرى تصرف تصرفاً دكتاتورياً دون أن يفرض وجوداً لغيره من الأساقفة المجتمعين معه . وهو - فوق ذلك - أوطاخى . ومما يؤسف له جد الأسف أن هذه التهمة الباطلة ظلت لاصقة بالبابا ديسقورس وكنيستته القبطية حتى اليوم رغم اعتراف أوسابيوس وزملائه أساقفة للشرق بأنهم لفقوا هذه التهمة فى الجلسة ذاتها وطلبوا الغفران ثلاث مرات .

٦٦- وفى الوقت عينه الذى قبل فيه مجمع خلقيدون هذه التهمة الباطلة ضد البابا ديسقورس من غير تداول ولا تمحيص قبل عضوية ثيودوريت

(١) مجمع خلقيدون ، ترجمه ... ص ٨٢ - ٨٣ ، ويوصف البابا ديسقورس على ص ٨٣ بكلمة : التقى ، تاريخ الكنيسة المريانية الأنطاكية لمارسيريوس يقوب توما ج ٢ ص ١٥٨ - ١٦٠ ، تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) للأرشمندريت جيلى ج ٤ ص ٥٨٤ .

(٢) «مجمع خلقيدون» ترجمه .. ص ١٠٣ ، تاريخ الكنيسة للسريانية ... ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦٥ . ويقول هذا الأسقف الجليل (مؤلف الكتاب) على ص ١٦٣ من كتابه ما نصه : «والحقيقة للارلنة هي أن مجمع خلقيدون التأم لتنفيذ مأرب شخصية بحثة ليس إلا» .

الفسطاطى أسقف قورش . وما أن وقع نظر أساقفة مصر عليه حتى رفعوا أصواتهم عالياً مطالبين باخراج هذا الفسطاطى من المجمع . ففرق أساقفة الشرق أصواتهم أيضاً عند المصريين . وبماذ الشغب المجمع . ومن المؤلم حقاً أن القضاة المدنيين المكلفين بحماية للنظام فى هذا المجمع قد اضطروا إذ ذاك إلى أن يذكروا الأساقفة بأن مسلكتهم هذا يتنافى مع كرامة الكهنوت . ومن المؤلم حقاً أن يذكر رجال الدولة رجال الدين بالوقار الذى تقتضيه مكانتهم الدينية . صحيح أن لجميع المؤمنين الحق فى أن يشتركوا فى مناقشة الأمور الكنسية لأنهم أعضاء فى الكنيسة المقدسة التى تتألف من رعاة ورعية . وهذا الحق الذى للمدنيين قد منحهم إياه للرسل أنفسهم حين اجتمعوا مع المؤمنين لاختيار رسول يخلف يهوذا الاسخريوطى بعد انتحاره (١) ، كما منحهم إياه عند اختيار استفانوس وزملائه الشماسية (٢) . وهكذا منح رسل الرب المدنيين الحق فى أن يشتركوا فى الانتخاب لأسمى الدرجات الكهنوتية وهى درجة الرسل وخلفائهم الأساقفة ، وأدنى هذه الدرجات وهى الشماسية . ومع هذا فالرعاة قد انتمنوا على الايمان (٣) . وبما أنهم الحراس على التعاليم المقدسة فبالواجب عليهم أن يسلكوا مسلكتاً بعيداً عن الشكوك والشبهات . وعليهم أن يفصلوا بين رأى الفردى الخاص وبين التعليم التقليدى العام . ولقد كان من تذبذب الأساقفة فى خلقيدون أن ظلت جرثومة الفسطاطية فى الكنيسة حتى اليوم (٤) .

٦٧- وما كانت السكينة تستتب فى المجمع حتى طالب البابا ديسقورس بقراءة مضابط جلسات المجمع الأفسسى الاستثنائى وحين قرئ الجزء الأول منها التفت هذا البابا إلى آباء المجمع وقال لهم : « ترون من هذه المضابط أن الامبراطور ثيودوسيوس المطوب الذكر هو الذى دعا إلى عقد المجمع . وترون منها أيضاً أن هذا الامبراطور الطوبى الذكر قد أمر بعدم قبول

(١) أعمال ١ : ١٥ - ٢٦ .

(٢) أعمال ٦ : ١ - ٦ .

(٣) ١ تيموثيوس ٤ : ٢٠ .

(٤) لا تزال لأن كنيسة فسطاطية فى كل من العراق وإيران .

ثيودوريت أسقف قورش ضمن الأعضاء لستوريتيه ، كما أكد قبول عضوية الأرثوذكسية برسوما . وترون من المضابط عليها أن الامبراطور وكل إلى الرياسة مع يوهناكوس . أسقف أورشليم ودوموس أسقف أنطاكية . وقد حكما - نحن الثلاثة - معاً ، وقضينا بتهمة ساحة أوطيخا (١) ، فلماذا تطلبون إلى وحدي تأدية الحساب ؟ ونحن حكما - ثلاثنا - لم نفرد بالحكم ، بل تشاررنا مع زملائنا الذين جلسوا معنا في المجمع - وعددهم مئة وثلاثون أسقفاً . وكان لكل منهم مطلق الحرية في التعبير عن رأيه (٢) . وبعد أن قرأنا الاعتراف الأرثوذكسي الذي قُتِمَ علينا أوطيخا بخط يده ، أجمع الأساقفة على تبرئته ، ووقعوا بامضاتهم على هذه التبرئة .

٦٨- وهذا صرخ الأساقفة الشرقيون قائلين : : إننا لم نوقع على هذا الحكم إلا تحت الضغط ، لقد حكما على فلابيانوس مكرهين فوقنا على ورقة بيضاء تحت تهديد رجال الامبراطور لنا . وقد أكد أسقف أفسس هذا الكلام ، فأثار بذلك خواطر أساقفة مصر ودفعهم إلى أن يقولوا : : إن جندي المسيح لا يرهب قوة السلطان ، ولا يتراجع غير الجبان ، أوقدوا النار لندريك كيف يموت الشهداء . ثم قال البابا ديسقورس في انتزان : : كان الأتيق بكم أن ترفضوا التوقيع على ما لا تعرفون لأن قراركم يتعلق بجلال الايمان (٣) .

٦٩- وساد الصمت بضع دقائق أراد بعدها أحد الأساقفة أن يبدد الاضطراب النفسي الذي ملأ نفوس زملائه فقام واشتكى الأنبا ديسقورس بأنه تأمر مع الأرثوذكسية برسوما وعدد من الرهبان المصريين على قتل فلابيانوس . فلم يسمع الأساقفة المصريون بأزاء هذا الاتهام الباطل إلا أن يطالبوا رئيس الكنيسة بقراءة رسالة الامبراطورة بولشريا إلى أسقف رومية (٤)

(١) مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية من الأصل اللاتيني للمحفوظ بمكتبة الفاتيكان الراهب فرنسيس مازيا وصديق عليه ثلاثة كراثة - طبع في رومية سنة ١٦٩٤ ص ٨٤ - ٩٠ .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرثوذكسية جيتي جـ ٤ ص ٥٦٥ .

(٣) مجمع خلقيدون ، للمفسر يوسف الدبس الماروني فصل ١٧ فقرة ٨٩ ، تاريخ الكنيسة المارونية الأنطاكية لمارسيريوس يعقوب لوما جـ ٢ ص ١٦٩ .

(٤) مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية ... ص ٧٤ - ٧٥ .

ورد هذا الأسقف عليها . وقد جاء في كل من الرسالتين أن فلابيانوس قد لقي ربه وهو في المنفى ، وأن الامبراطور مرقيانوس قد أمر بنقل جثمانه إلى القسطنطينية . فأمر القضاة المندوبون بتلبية طلب المصريين . وحين قرأ رئيس الكتبة هاتين الرسالتين اللتين أعلنتا براءة الأنبا ديسقورس ورهبانه من هذه التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب سرى شعور بالاضطراب إلى نفوس بعض الأساقفة ، وامتلاً المشتكى خجلاً إذ ثبت للمجمع أنه لم يصدق القول . وقد سرى خجله إلى بقية الأساقفة الذين شاطروه التلفيق وساد المجمع جو من الحرج والتوتر .

٧٠- وقد رأى القضاة المندوبون أن يبددوا هذا التوتر فطالبوا رئيس الكتبة بالاستمرار في قراءة مضابط جلسات المجمع الأفسسي الاستثنائي فعاود القراءة إلى أن وصل إلى ذكر طومس لاون الذي كان مندوبوه قد قدموه إلى ذلك المجمع ، وعندما قاطعه مندوباً أسقف رومية بأن سألا البابا الاسكندري لماذا لم يأذن بقراءة رسالة أسقفهم في مجمعه ، فأجاب : « لقد أمرت بقراءة الرسالة مرتين لا مرة واحدة (١) » قالوا : « إذن لماذا لم تقرأ ؟ » أجاب : « سلوا أسقف اورشليم وأنطاكية » . وحين سئل الأسقفان أجابا : « لما أمر ديسقورس بقراءة رسالة لاون الأول قال رئيس الكتبة بأنه لا تزال عنده رسائل امبراطورية أخرى يجب قراءتها لم يتكره أحدنا برسالة أخينا لاون » .

٧١- ويبدو أن هذا الرد قد أوقع الآباء المجتمعين لأنهم لم يعودوا يسألون عن هذا الموضوع . واستمر رئيس الكتبة في قراءة مضابط جلسات المجمع الأفسسي الاستثنائي . ولما قرأ الاعتراض الذي قدمه أوطيخا إلى الأساقفة صاح باسيليوس أسقف سلوقية بأن امضائه مزورة . فلم يكذب البابا ديسقورس يسمعه حتى هتف قائلاً : « لست أدري لماذا يتكر باسيليوس امضائه وهو يعلم أنه إنما أمضى وثيقة أرثوذكسية صميمة » . وما أن سمع الأساقفة هذه الكلمات حتى هتفوا جميعاً : « لا نجرؤ على أن نزيد على الايمان القويم حرفاً واحداً ، لقد سلمه لنا الآباء وأبائنا وما علينا غير الاستمسك به » .

(١) شرحه ص ٩٢ .

٧٦- وكانت هذه الصيغة صيغة الأرثوذكسية الصميمة - إذ أن الأساقفة هم حفظة الايمان الذى تسلموه عن السلف ليسلموه إلى الخلف دون أن تشويهه شائبة (١) . ولم تكن هذه الصيغة غير صدى لتوكيدات الأنبا ديسقورس الذى أعلن بأنه ثابت على تعاليم سلفيه العظميين أنثاسيوس الرسولى (٢) وكيرلس عامود الدين ، لا يحيد عنها قيد أنملة . وقد استجاب الأساقفة لتوكيداته بهذه الطريقة وأردفوها بقولهم : « ديسقورس رأس الأساقفة يحفظ الايمان » (٣) .

٧٣- وبعد أن فاه الأساقفة بهذه الكلمات وجدوا أنفسهم أمام ضرورة ملحة هي أن يعن كل منهم ليمانه فى صراحة وتوكيد ، ورأوا أن يبدأوا بالأنبا ديسقورس فسألوه أن يعن ليمانه ، فأجاب على الفور - مردداً ما جهر به كيرلس سلفه العظيم فى المجمع المسكونى الثالث حيث قال : « إن ألهب الحَدَّاد قطعة من الحديد بنار متقدة ثم ضرب الحديد بالمطرقة ، فالضرب يقع على الحديد وحده ولا يمس النار مع أن النار متحدة بالحديد ، . واتحاد النار بالحديد صورة لاتحاد لاهوت سيدنا بناسوته : لأن النار تظل محتفظة بطبيعتها النارية لا تتغير إلى الحديد ولا تمتزج معه ولا تختلط به مع أنها لا تفارقه . هكذا سيدنا لم يفارق لاهوته لحظة واحدة ولا طرفة عين (٤) ومسح أن

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيتى ج٤ ص ٥٩١ .

(٢) مما يجدر إثباته هنا شهادة دوشن بمصرية الأنبا أنثاسيوس رداً على الزاعمين بأنه يونانى فقد نقل دوشن فى كتابه تاريخ الكنيسة المجلد الثانى ١ ص ١٦٨ ما نصه :

" Athanase, patriarche d' Alexandrie et la plus grande figure qui domine toute l'histoire religieuse de Christianisme égyptien, donnait à son église un caractère national s'opposant farouchement à l'hellénisme et aux empereurs " .

وترجمته ما يلى : « إن أنثاسيوس بطريرك الاسكندرية وأكبر شخصية سيطرت على كل التاريخ الدينى للمسيحية المصرية قد أعطى كنيسته شخصية وطنية مقاومة بعنف للزعة الهيلينية والأباطرة ، وهذه شهادة فرنسى بمصرية أنثاسيوس وبقومية كنيسته .

(٣) « مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية ... ص ٩٧ ، والجملة التى منفوا بها والمكتوبة بين قوسين قد ردت حرفياً فى الكتاب المشار إليه .

(٤) مما تجدر الإشارة إليه هنا أن القبط يؤكدون هذا الايمان فى آخر كل قداس قبل =

لا هوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين إلا أنه اتحد معه بخير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . وهذه الحقيقة يحذر عليها أباء كنيسة الاسكندرية بقولهم : : الطبيعة الواحدة لله الكلمة المتجسد : (١) وقد برأ هذه الحقيقة على قول يوحنا الانجيلي : : الكلمة صار جسداً .

[illegible]

٧٥- ولقد انقضى هذا الاعتراف الديسقورى علم رؤوس خصوم البابا

• التناول مباشرة إذ يقول الكاهن : آمين . آمين . آمين . آمين . آمين . آمين . آمين . آمين .
إلى النفس الأخير أن هذا هو الجسد المحي الذي لا يذوق للوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع
المسيح ، أخذ من سبتنا وملكتنا كلها ولدة الإله القديسة الطاهرة مريم وجمعها واحداً مع
لاهوته بغير لختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . وأعترف الاعتراف الحسن أمام بيلاطس البنطي .
وأسلمه عنا على خشبة الصليب المقدسة بارادته وحده عنا كلها . بالعقوبة آمين أن لاهوته لم
يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين . يعلني عنا خلاصاً وغفراناً للخطايا وحياء أبدياً
لنم يتناول منه . آمين . آمين . آمين . آمين . آمين . آمين . آمين . آمين .

(١) : مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية ... ص ١١٧ ، الايمان والطقوس إلى الكنيسة القبطية (بالانجليزية) ليسى عبد المسيح ص ١٧ .

(٢) : مجمع خاتميون : ترجمه إلى العربية ... ص ٩٩ .

الاسكندري انتقضا من الصاعقة ، فلم ينهبوا ببنت شمة إذ وجدوا أنفسهم عاجزين عن الكلام فطالبوا رئيس الكتيبة بمعاودة القراءة لمضابط المجمع الأفسسي الاسكندنافي . فقرأه حتى وصل إلى قول باسيليوس أسقف سالوقية : « إننى أحرم كل من يقسم للمسيح الواحد الذى اتحد لاهوته بناسوته إلى اثنين أو أقوميين » ، ولا يعبد المسيح الواحد الذى جمع بين الطبيعتين وجعل منهما الطبيعة الواحدة لله الكلمة المتجسد ، . وما كاد رئيس الكتيبة ينتهى من قراءة هذه الكلمات حتى قاطعه باسيليوس نفسه بأن أنكر أنه تفوه بهذه الكلمات . وهنا هف الأساقفة المصريون قائلين : « لا يقسم أحد غير المنقسم » ، ووافقهم الأساقفة الشرقيون فأردف المصريون هتافهم بقولهم : « كما ولد المسيح هكذا تألم » . وعلى أثر هذه الهتافات سأل بعض الأساقفة : « لماذا ينكر باسيليوس أقواله هذه وهى أرثوذكسية صميمة » ؟ . ثم سألوه لماذا وقع الحرم على فلابيانوس وزملائه مادام يشاركونهم عقيدتهم . فأجاب : « لقد جاء حكمي نيباً لحكم مئة وعشرين أو مئة وثلاثين أسقفاً ، فكنت مضطراً إلى مجاراتهم » .

٧٦- وما أن سمع الأنبا ديسقورس هذه الكلمات حتى قال لذلك الأسقف : « بكلامك تكبرر وبكلامك تدان ... » (١) لقد خفت أن تجهز بإيمانك مجاملة للناس فتجاوزت حدود الصلاح واستهنت بالعقيدة . « ألا تعلم أن لا رياء فى الإيمان » ؟ .

٧٧- ولقد كان لهذا التوبيخ فى نفوس أساقفة الشرق من الأثر البالغ ما حركهم إلى أن يقولوا : « أخطأنا ونطلب الغفران » فطلب إليهم الآباء عند ذلك أن يقرروا الحقيقة فى ما قالوا من أنهم أمضوا ورقة بيضاء ، فقالوا ثانية : « أخطأنا ونطلب الغفران » . فعاد الآباء يطالبونهم باعلان الحقيقة عن اتهامهم ديسقورس بأنه قتل فلابيانوس ، وللمرة الثالثة قالوا : « أخطأنا ونطلب الغفران » .

٧٨- وهنا قُم المجمع طومس لاون للأنبا ديسقورس ليطن رأيه فيه . وكان هذا الطومس ضمن الرسالة التى كان قد بعث بها لاون الأول إلى

(١) متى ١٢ : ٣٧ .

المجمع الأفسى الإسكندري والتي لم تُقرأ يومذاك لتقديم الرسائل الإمبراطورية عليها . ولم يكذب البابا الاسكندري وقرأ للطومس في ترجمته اليونانية حتى ألقاه إلى للسبطورية أقرب منه إلى الأرثوذكسية . فلم يتردد في توقيع الحرم على الطومس وعلى صاحبه .

٧٩- ولم يبق من بين الأساقفة من يتعرض لمسلك البابا ديسقورس في هذا الشأن الخطير إذ وجدوا أنه أُنحس كل ادعائاتهم باعلانه ايمانه الأرثوذكسي الصميم (١) . ويضاف إلى ذلك أن بعض الأساقفة قد ساورهم للشك في التعاليم الذي تصبّنه طومس لاون ، ويدت شكوكهم واضحة على وجوههم . ولاحظ القضاة المحدثون ذلك فصاملوا : « هل في هذا الطومس ما يقتضي الارتياح في ايمان صاحبه ؟ ، فتظاهر الأساقفة بعدم الارتياح فيه ولكنهم طالبرا بمهلة مدى خمسة أيام للتداول معا وأجيبوا إلى طلبهم (٢) .

٨٠- وفي غضون هذه المهلة تداول الأساقفة معا ، ولكن لم يوجه أحدهم إلى ثواب رومية أى طلب خاص بالإيمان ، وإنما طالبوهم بتفسير بعض الكلمات اللائقية التي تعذر عليهم فهمها في ترجمتها اليونانية لغرضها (٣) .

٨١- ومن المؤلم أن نية بعض الأساقفة كانت مبدية على تنفيذ غرضهم

(١) « مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية ... من ٩٩ - ١٠١ ، تاريخ الكنيسة السريانية لمارسويريوس يعقوب توما ج٧ من ١٧٠ - ١٧١ ويخدم هذا المبرر الجليل كتابته عن الافتراءات التي وجهها بعض الأساقفة إلى الأنبا ديسقورس بقوله على من ١٧١ : « فلما حصص الحق وزق الباطل لم يجدوا وسيلة يذرعون بها سوى طلب التفران ... وقد لفظ بمثل هذه الافتراءات معظم الكتيبة البيزنطيين ... غير أن ما نقلناه هنا بأمانة عن تاريخ هذين المجمعين (الأفسى للثاني والخلقيدوني) الذي نشرته رومية بالعربية سنة ١٦٩٤ لأمل التمام عن وجه الحقيقة الواضحة . فانفضحت افتراءات التيساريين وظهر المجمع الخلقيدوني بمظهره أشبه بالجماع للموص وصلاح للمرق .

(٢) « مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية ... من ١٧٠ .

(٣) « البابوية المنشقة (بالفرنسية) للآبيه جيلى من ١٠١ حيث يقول ما نصه :

" ... Les légats de Rome ne furent appelés par Anatolius que pour expliquer certains mots latins qui paraissaient obscure à ceux qui hésitaient , " .

الخاص : وهو الايقاع بالبابا الاسكندري . فقولوا على ابعاد القضاة المندنيين من حضور جلساتهم لينفذوا أغراضهم .

٨٢- وعاد الأساقفة إلى عقد مجمعهم الخلقيدوني بعد ثلاثة أيام فقط لا خمسة وأرسلوا ثلاثة منهم لدعوة البابا ديسقورس ، وكان هذا البابا في حكم المعتقل لأن أصحاب السلطة كانوا قد أصدروا أوامره السرية إلى بعض الجنود ليحيطوا بالببيت الذي يقوم فيه ويمنعوه من الخروج (١) . فلما جاءه مندوبو المجمع نكروهم بأنه لم تمض غير أيام ثلاثة من الخمسة التي كانوا قد اتفقوا عليها ، ثم سألهم إن كانوا قد أبلغوا القضاة المندنيين بهذا الاجتماع أم لا . فتجاهل مندوبو المجمع للملاحظة الأولى ، أما سؤاله عن القضاة المندنيين فقد أجابه مندوبو المجمع بأن المندنيين لا شأن لهم بالأمر الكنسية ، وكانت اجابتهم هذه في غاية من الغرابة لأنهم كانوا يعرفون تمام المعرفة أن المندنيين حضروا كل المجمع منذ أن دعا الامبراطور قسطنطين الكبير إلى عقد مجمع نيقية ، كما أن المندنيين جلسوا معهم في نفس هذا المجمع الذي أوجأ جلساته وويخوهم عندما تخطوا حدودهم الأسقفية وخابضوا في مناقشات سفسطائية . كذلك حضر بعض الأباطرة المجمع بأنفسهم ، كما افتتح الامبراطور مرقيانوس والامبراطورة بولشريا مجمعهم - والأباطرة ليس من رجال الدين طبعا ! ومع ما في أجوبة مندوبي المجمع من مولرية فإن البابا ديسقورس رأى أن لا فائدة من الاسترسال في الكلام معهم ، واكتفى بأن قال : « هل خاطبتم الجنود المكلفين بحراستى في هذا الشأن ليسمحوا لى بالخروج دون أن يعترضوا سبيلى ؟ » أجابوه : « ليس هذا من شأننا لأن المجمع لم يكلفنا إلا بتوجيه الدعوة » . ولم يكن هذا الرد غير دليل آخر على النية السيئة المبيتة لهذا البابا البرئ الذي عاد يسألهم عما إذا كانوا قد أبلغوا حراسه ليتركوا له حرية الخروج . للمرة الثانية أمسكوا عن الاجابة على هذا السؤال .

(١) « مجمع خلقيدون » ... ترجمه إلى العربية من ١٧٧ ، تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسيريوس يعقوب توما ج ٢ من ١٧٤ حيث يقول ما نسه : « فأقام مرقيان حراسا عليه (ديسقورس) لئلا يبرح المكان » .

وبعد هذه الدعوة الصورية خرج مندوبو المجمع ليبلغوا زملاءهم بأن البابا الاسكندري قد رفض تلبية الدعوة (١) .

٨٣- وأرسل المجمع ثلاثة أساقفة آخرين لدعوة الأنبا ديسقورس للمرة الثانية - وقد كرر هؤلاء تمثيلية الذين سبقوهم - فعادوا يحملون للمجمع الرفض المزعوم للبابا الاسكندري .

٨٤- وعند ذاك استدعى المجمع بعض الرجال الذين جئ بهم ليشكوا على الأنبا ديسقورس وقد تركزت شكواهم في أمور مادية محضنة ، فلم يسيروا إلى الايمان من بعيد أو من قريب . وقد ادعى هؤلاء الشهود بأن الأنبا ديسقورس قد احتجز في الاسكندرية للمراكب المحملة بالقمح لأهالي ليبيا . وهذه الشكوى في الحقيقة ترجع إلى عهد بعيد : فقد وجهت هي بعينها إلى البابا أثناسيوس الرسولي بما يزيد على قرن من الزمان حيث قيل أنه منع الغلال المصرية عن سكان للقسطنطينية . وكان يلجأ إليها خصوم الباباوات الاسكندريين كلما أعينهم الحيل .

٨٥- أما الشكوى الثانية فلم تكن إلا مجرد مهاترة حيث ادّعوا أن خليفة مارمرقس قد قتل الأسقف فلابيانوس . ولم يكثر آباء خلفيدون بهذه الشكوى ، بل لم يكلفوا أنفسهم مؤونة الاصغاء إليها فقد ثبت بطلانها علناً كما وضح من خطاب الامبراطورة بولشريا ورد الأسقف لاون عليها - إذ بدا ما في هذه التهمة من افتراء دلّ عليه هذان الخطابان . ثم ازداد الأساقفة يقيناً ببراءة البابا الجليل لما سمعوه من ترديد الأساقفة الشرقيين للكلمات : « أخطأنا ونطلب الغفران » .

(١) ما أشبه التيلة بالبارحة ! فموقف مجمع خلفيدون من الأنبا ديسقورس أشبه بموقف الانجليز والفرنسيين حين انضموا إلى إسرائيل وقاموا بهجومهم للغادر على بلاندا الحببية في أكتوبر - نوفمبر سنة ١٩٥٦ . ففي الحاليتين أبس الغربيون الباطل ثوب الحق لطهم يبالغون من كرامة مصر وشعبها الأبى ، وفي الحاليتين باءوا بالقتل ولو أنهم في الحالة الأولى نجحوا في استصدار الحكم بفضي البابا المرقسي . وقد صدق عليهم قول أحمد شوقي أمير الشعراء في قصيدة بطولن اعتداء ، حيث قال :

وكم من أنك بمجموعة من الباطل الحق عنوتها

ثم تقدم مشتكون آخرون . على أن المجمع رأى أن كل شكاواهم نافهة لا تحتل الفحص ، ومن السهل نقضها .

٨٦- وفي اليوم التالي بحث المجمع برسله إلى البابا ديسقورس . وكان هذا هو الإنذار الثالث ، ولم يكن سوى تكرار للدعوتين السابقتين . فكان هذا المسلك دليلاً قاطعاً على أن أباء خلقيدون لم يتمسكوا إلا بالشكليات ونسوا روح التعاليم المسيحية التي انتمنوا عليها . فقد كان الأنبا ديسقورس على أتم استعداد لأن يذهب إلى المجمع ، ويجيب الآباء ، ويدافع عن كرامته وكرامة كنيسة المصرية التي يحبها ، ولكنه منع من مغادرة المنزل الذي كان معتقلاً فيه تلقيناً للأوامر المشددة من الامبراطورة لكي يقال عنه أنه عصى المجمع (١) . ومادام لم يسمع لصوت للكنيسة (مثلة في الأساقفة) وجبت معاملته كالوثني والمشار (٢) .

٨٧- وعند ذاك عقد للمجمع جلسته في غياب القضاة المدنيين (ممثلى الدولة) وغياب أساقفة مصر والأساقفة الموالين لهم (٣) . فعاد مندوبو رومية إلى المهاترة مرة ثانية وقالوا أن الأنبا ديسقورس قد رفض السماح بقراءة طومس أسقفهم لاون الأول في المجمع الأفسسي الاستثنائي ، وبدلاً من أن يثرب تجراً فأصدر الحرم على الأسقف الروماني . وقد تقدم عدد من الناس بشكاوى ضد البابا الاسكندري . وكانت آخر شكاوى ضده هي أنه رفض أن يلبي الدعوة المثلثة للمجمع ، فحكم بذلك على نفسه بنفسه ، لهذه الأسباب يطن لاون الأول - أسقفنا الكلي القداسة - بلساننا وبلسان المجمع المقدس الملائم هنا ، وبالتفاق مع القديس بطرس صخرة الكنيسة الجامعة وأساس الايمان الأرثوذكسي أن ديسقورس مجرد من رئاسة الكهنوت ومن كرامة كهنوتية .

(١) : مجمع خلقيدون : ترجمه ... من ١٧٢ - ١٧٥ .

(٢) متى ١٨ : ١٧ .

(٣) تاريخ الكنيسة السريانية ... ج ٢ من ١٧٥ - ١٧٦ .

ولما لم يكن بين أساقفة هذا المجمع في تلك الجلسة المشغولة أسقف مصري ولا أسقف موال للمصريين ، فإنه لم يبق من بين الحاضرين من يعترض على ذلك للقرار الجائر ولا على تلك الادعاءات القاطلة .

٨٨- ولقد أودع المجمع هذه الاتهامات الرومانية بالحكم التالي : من المجمع المسكوني المقدس العظيم الملائكة بنعمة الله وتلبية لدعوة الملوك خائفين الله ^(١) في خلقيدون ، في كنيسة القديسة أوفيميا الشهيذة المنتصرة ، إلى ديسقورس : ليكون معلوماً لديك أنه بما أنك عصيت أوامر للكنيسة ورفضت تلبية الدعوة التي وجهها إليك هذا المجمع المقدس بعد دعوته إليك ثلاث مرات ، هذا إلى جانب الذنوب العديدة التي اقترفتها ^(٢) ، فإنك منذ اليوم الثالث عشر من أكتوبر مخلوع عن كرسيك بأمر المجمع المقدس الذي حكم بأنك غير جدير بتأدية المهام الكهنوتية ، ^(٣) . ولقد غالى المتجذرون على الأنبا ديسقورس في خصومتهم له إلى حد أنهم اندحبوا أناطوليوس أسقف القسطنطينية ضمن مندوبيهم لينتروا البابا الاسكندري ذلك الحكم الجائر ولكنه أبى تورعاً ^(٤) لأنه كان في أول الأمر ضمن شمامسة البابا المفترى عليه ، ولأن الأنبا ديسقورس هو الذي رسمه على الكرسي القسطنطيني بدلاً من فلابيانوس .

٨٩- وعندما علم القضاة المنفيون المعينون من الامبراطور مرقيانوس بما جرى تملكهم الغضب ، وقصدوا إلى المجمع حيث احتجوا على هذا الظلم ، معللين أن مثل هذه الجلسة التي انعقدت في غيابهم غير قانونية . وبذلوا

(١) يتضح من صورة الحكم عليها أن الأساقفة اجتمعوا تلبية ، لدعوة الملوك الخائفين لله ، مقربين بذلك أن أسقف رومية لم يكن صاحب الدعوة إلى هذا المجمع وبالتالي إلى غيره من المجامع (عدا مجمعه الخاص) .

(٢) لم يذكر للمجمع ما هي للذنوب التي اقترفتها والتي أوجبت الحكم عليه .

(٣) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) ... ج٤ ص ٥٩٤ ، مجمع خلقيدون ، ترجمه ... ص ١٨٧ - ١٩٠ .

(٤) تاريخ الكنيسة المروانية ... ج٢ ص ١٧٧ .

جهد الجبايرة في سبيل البابا الاسكندري من دون جدوى . ولما لم يجدوا غير آذان صماء أعلنوا سخطهم قائلين : « أما أنتم فتعطون جواباً لله عن ديسقورس الذى عزلتموه بغياوب الرئيس القفى (القيصر) وبغياوبا نحن أيضاً » (١) .

٩٠- وهذا الحكم أغرب حكم فى التاريخ الكنسى - فهو إن دلّ على شئ فإنما يدل على واحدة من اثنتين ، فإما أن يكون آباء خلقيدون قد جهلوا الماضى أو تجاهلوه . فقد بنوا حكمهم على أن البابا ديسقورس قد حرم لاون الأول أسقف رومية فى حين أنه ليس بأول أسقف رومانى يصدر الحرم عليه . لأنه قبل ذلك بما ينيف على قرن من الزمان أصدر هيلاريوس أسقف بواتييه حرمه على ليباريوس أسقف رومية لترديه فى البدعة الأريوسية (٢) . ولم يكن هيلاريوس أسقفًا على كرسى رسولى ، كما أنه كان خاضعاً لكرسى رومية بالذات ومع هذا لم يخلع هيلاريوس بل لم يوبّخ . أما الأنبا ديسقورس فكان أسقف كرسى رسولى كما أنه كان صاحب السلطة العليا فى كنيسه إذ لم يكن خاضعاً لأسقف آخر . فلما أصدر حرمه على لاون لمسطوريته تخطى آباء خلقيدون القوانين الكنسية وخلعوا الاسكندري . ولكى يبرروا مسلكهم هذا استعانوا بالامبراطورة فأصدرت أوامرها السرية بمنع البابا ديسقورس من الخروج ليتسنى لهم أن يجدوا شكاية عليه . ولولا ذلك لكان لاحتجاج القضاة المنحنيين المنتدبين من الامبراطور أثر فى تغيير الحكم .

وكما أن لاون لم يكن بالأسقف الرومانى الأول الذى صدر ضده حكم الحرم كذلك لم يكن بالأخير . وهكذا شدّ الحكم الخلقيدونى عما سبقه من أحكام كما شدّ عما تلاه . فقد حدث بعد ذلك بنحو قرنين فى المجموع الذى

(١) شرحه ج ٢ ص ١٧٤ ، ١٨١ .

(٢) أنظر الفصل الخاص بالأنبا أنطاسيوس الرسولى فى الجزء الأول لهذا الكتاب ، وراجع أيضاً : « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشمندريت جيلى ج ٣ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢٠٨ - ٢١٠ ، حياة القديس أنطاسيوس ، (بالفرنسية) للأبى بارثييه ص ٢٤٠ - ٢٤٥ .

تعدّه بعض الكنائس المجمع المسكونى السادس الذى انعقد فى القسطنطينية سنة ٦٨٠ م. غ. بدعوة من الامبراطور قسطنطين بوجونا - حدث أن صدر حكم منه بالحرم على هونوريوس أسقف رومية إذ ذلك . وقد حضر هذا المجمع مندوبون عن الكنائس الخمس التى عدّها الخلقيدونى بطريركيات . وغنى عن القول أن الذى ذهب إلى هذا المجمع باسم الكرسي المرقسى كان الأسقف الدخيل المقروض عليه من امبراطور القسطنطينية (١) . وبعد ذلك بقرنين آخرين أصدر فوثيوس أسقف القسطنطينية حرمة على نيقولاوس الأول أسقف رومية لابتداعه فى الثالوث الأقدس حيث قال بانثاق الروح من الآب والابن معاً (٢) على الرغم من أن مجمع القسطنطينية (المسكونى الثانى) حصر انبثاق الروح القدس من الآب فحسب استناداً إلى قول رب المجد نفسه : روح الحق الذى من الآب ينبثق (٣) . ثم جاء المجمع الأفسسى (المسكونى الثالث) فحرم كل من يزيد على دستور الايمان أو ينقص منه حرفاً . وحين أصدر فوثيوس الحرم على نيقولاوس الأول لم يتعرض له أحد ولم يخلعه مجمع بل ظل محققاً بأسقيته وبكرسيه .

فالتاريخ يثبتنا بأربع مرات صدر فيها الحرم على أسقف رومانى لابتداعه فى الايمان : وكان فى المرة الأولى صادراً من أسقف خاضع للكرسي الرومانى ، وفى المرتين الثانية والرابعة من حبرين مستقلين ممثلين لكرسيين رموليين هما نيسقورس الاسكندرى خليفة مرقس الرسول وفوثيوس القسطنطينى خليفة أنندراوس الرسول . ومن هؤلاء الثلاثة لم يصب بسوء غير البابا الاسكندرى - أما فى المرة الثالثة فقد صدر الحرم من مجمع .

ويلخص مارسويريوس يعقوب توما الأسباب التى تجعل الحكم الصادر

-
- (١) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) ج٢ ص ٧٩٧ ، تاريخ الكنيسة ... ج٥ ص ٤٩٥ ، ٤٩٧ - وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكنيسة الرومانية تعترف بسكونية هذا المجمع .
(٢) دائرة معارف العلوم ... ج٨ ص ٦٢٧ ، تاريخ الكنيسة ... ج٦ ص ٢٥٤ - ٢٧٤ .
(٣) يومنا ١٥ : ٢٦ .

مُند الأُنبا ديسقورس غير قانوني بقوله: ١- لأنه كان حكماً غيابياً لم يستمع القاضي به إلى دفاع البابا الاسكندري عن نفسه كما تقتضى بذلك القوانين الكنسية ، ٢- لأن الجلسة التي نودى فيها بعزله لم تكن قانونية إذ انعقدت قبل موعدها ، ٣- لأن الذين أصدروا الحكم كانوا من المتعديين ببدعة نسطور ولم يكن بينهم القضاة المذنبون ولا أساقفة مصر ولا للمتفقون معهم فى الرأى ، ٤- لأن الأساس الذى بنى عليه الحكم واه - وهو أن ديسقورس دعى ثلاث مرات ولم يحضر - وقد بينا أنه كان محاطاً بالحراس الذين أصروا على منعه من الخروج ، ٥- لأن هذا البابا كان متمسكاً بالايمان الأرثوذكسى الذى أصدر بصدده مجمع أفسس (المسكونى الثالث) فى قانونه السابع حرماً على كل من يدخل عليه زيادة أو نقصاناً ، ٦- لأن القاضين به لم يعزوا إلى مارديسقورس بدعة ما كما يتجلى من قول نواب لاون عند افتتاح المجمع ومن الحكم الذى أصدروه فيما بعد ، وقد أيدَ الامبراطور يوستينيانوس هذا الأمر فى مرسومه الذى أقره سنة ٥٥٣ إذ قد ورد فيه ما نصه : « إن ديسقورس لم يخطئ بشئ فى أمر الايمان ، ٧- لأن القاضين به لم يطعنوا فى أرثوذكسية مجمع أفسس الثانى (الاستنفاى) الذى بسببه شجب مارديسقورس وإلا لعزلوا أناطوليوس القسطنطينى ومكسيموس الأنطاكى لأن رسامتهما منه (١) .

ولكن قيل بأن مارسويريوس أرثوذكسى العقيدة وأن كنيسة أنطاكية ظلت على أطيب العلاقات مع كنيسة الاسكندرية على مدى الأجيال ، فما القول عن المؤرخ البروتستانتى الألمانى أدولف هارناك ؟ فقد قال هذا المؤرخ الذى له مكانته بين المؤرخين الكسبيين ما ترجمته : « إن لاون تأمر مع الامبراطور وأسقف العاصمة وأسقطوا ديسقورس . ولكنه فى لحظة سقوطه كان مصير معارضيه الذين كانوا متحدين حتى تلك الساعة (وهم الامبراطور

(١) راجع كتابه تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية ج٢ ص ١٧٧ - ١٧٨ ، ومما يجدر تذكره هنا أن المصريين لقبوا أنصار خلقيتون بلقب « ملكيين » لأنهم ساءروا الامبراطورة بولشريا وزوجها فى التجنى على البابا ديسقورس ، وبدأ على هذه التسمية أطلق الخلقيدونيين على المصريين وأنصارهم لقب « يماقية » وذلك لأن الأُنبا ديسقورس كان اسمه يعقوب قبل اعتلائه السدة المرقسية .

والبابا الروماني) - كان مصبرهم الكبا، (١) . ثم عاد المؤرخ نفسه فقال في كتاب آخر له ما ترجمته : « لقد تخلصت الدولة في آخر هذه الفترة من أقوى خصومها وهو أسقف الاسكندرية ولو أن الأمن كان باهظاً للغاية ، (٢) .

٩١- وبعد أن أصدر المجمع الخلقيدوني هذا الحكم الجائر استمر بعد جلساته . وفي الجلسة المعدودة الخامسة دارت المناقشات حول الايمان ، ولم يسمع الأساقفة المجتمعون إلا التحدث عن واضعي هذا الايمان - أي لم يسمعهم إلا أن يذكروا الآباء المصريين . وعندها أعلن أنطوليوس أسقف القسطنطينية أن أرثوذكسية ديسقورس لا غبار عليها ، وأنه لم يخلع لابتداعه وإنما خلع لاصداره الحرم على لاون الأول أسقف رومية ولرفضه دعوة المجمع المثثة . وتبدو هذه الحقيقة واضحة من الاتهامات الموجهة إلى البابا ديسقورس من مندوبي رومية كما تبدو من الحكم المجمعى حيث لم ترد فيه كلمة « بدعة ، إطلاقاً . ثم أن الحكم لم يتعد الخلع ، لأن آباء خلقيدون - رغم تجنبهم على البابا الاسكندري - لم يجسروا على حرمة إذ لم يستطيعوا أن يجدوا مستنداً يستندون إليه لحرمة بعد صراحته التامة في المجمع . ولقد أيد المنسبور هيفيليه شهادة أنطوليوس بأرثوذكسية ديسقورس إذ قال : « إن الحكم الصادر من المجمع ضد ديسقورس لم يتضمن كلمة « بدعة » ، كما أن الحكم

(١) راجع كتابه « ملخصات لتاريخ العقيدة » في ترجمته الانجليزية المطبوعة بالولايات المتحدة سنة ١٨٩٢ حيث يقول ما نصه : *Leo I ... made common cause with the emperor and the bishop of the Capital and overthrew Dioscorus . But at the moment of his fall, the opposition between the hitherto united powers (emperor and pope) was destined to come out* .

(٢) راجع كتابه « تاريخ العقيدة » المترجم إلى الانجليزية - الطبعة الثالثة - والمطبوع في لندن سنة ١٨٩٧ ج ٢ ص ١٥٤ حيث جاء ما نصه : *... the State was delivered at the close of this period from its most powerful opponent, the Bishop of Alexandria, though at much too high a cost* .

وينبغي أن الدولة إذ ذاك كانت الدولة البيزنطية . وقد أدرك المسؤولون عن هذه الدولة الاستعمارية أن أقوى خصومهم هم بطلان الاسكندرية الذين لم يكونوا مجرد رؤساء دينيين بل دفعهم وطنيتهم إلى انكاء الروح القومية في أبحاثهم فكانوا بهذا العمل خصوماً عتيدين للمستعمر . ولهذه الوطنية ظلت الامبراطورية البيزنطية تسجد بهم إلى أن انتهت في منتصف للقرن السابع .

الصادر من مندوبى لاون خلا منها أيضاً ، (١) . وبعد مرور ما يزيد على عشرة قرون منذ أن فاه أناطوليوس بهذه الشهادة جاء أسقف يوناني آخر يزيدها . وهذا الأسقف هو جاورجيوس مطران نيموكوبيون الذى كتب مقالاً باللغة اليونانية الحديثة وطبعه فى تسالونيكي سنة ١٥٥٣م تحت عنوان : اتحاد الكنيسة القبطية بالكنيسة الأرثوذكسية : بحث تاريخى عقائدى وقانونى ، قال على ص ٥٩ منه ما ترجمته : « لم يدين ديسقورس لايمانته ولكنه دين لأنه رفض الاشتراك مع البطريرك لاون ولأنه دعى مرات ثلاثاً قلم يلب الدعوة » . ثم أيد هذه الشهادات فى عصرنا الحالى مار أغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك أنطاكية إذ قال : « نستنتج من هذا كله الأمور التالية - أولاً - اطلاع مار ديسقورس الواسع على قوانين الكنيسة ... ثانياً - تمسكه بالإيمان القويم (الأرثوذكسى) ... ثالثاً - شهادة أوسطانتاوس أسقف بيروت بصحة قوله بإبرازه رسائل كيرلس ... رابعاً - تبرؤه من أوطاخى بقوله : إذا كان أوطاخى يذهب بخلاف مذهب البهية فإنه يستحق النار أيضاً لا مجرد العقاب ... خامساً - قوله إن فلابيانوس عزل لقوله بطبعين من بعد الاتحاد » (٢) .

وهذه الشهادات - وغيرها - تبين مدى الجور الذى وقع على البابا الاسكندرى وكنيسته المصرية . وإن من يمعن النظر فى محاضر جلسات خلقيدون ليزداد دهشة إذ يجد أن آباء هذا المجمع المشنوم لم يتعرضوا لقرارات المجمع الأفسسى الاستثنائى على الإطلاق : فلم ينقضوها ، ولم يتداولوا فيها ، ولم يشيروا إليها من قريب أو من بعيد فكان فى مسلكهم هذا

(١) فى كتابه : تاريخ المجامع ، (بالفرنسية) ج ٢ ص ٥٩ حيث قال ما نصه :

" L'archevêque de Constantinople (Anatolius) dit que Dioscore n'a pas été déposé à cause de sa foi orthodoxe, mais, parcequ'il avait excommunié le pape (Léon) , et n'avait pas obéi au synode " .

ويجب ميفيليه على هامش الصفحة عينها بقوله : " Dans le decret synodale contre Dioscore, il n'est pas fait expressément mention de son hérésie, et la sentence que les légats du pape (Léon) ont portée contre lui n'en dit rien non plus " .

(٢) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لهذا البطريرك الجليل عندما كان مطراناً باسم مارسوزيوس يعقوب توما ج ٢ ص ١٧٤ - ١٧٥ .

الدليل القاطع على أنهم لم يجتمعوا للتداول في العقيدة ، ولا في معاودة النظر في أمر أوطيخا وإنما اجتمعوا للتعدى على البابا الاسكندري . فما أن نجحوا في استصدار الأمر الامبراطوري بنفيه حتى تجاهلوا موضوع أوطيخا تماماً .

٩٢- ومما يزيد حقيقة الموقف جلاءً أن المجتمعين في خلقيدون - بعد الانتهاء من الحكم على البابا ديمقورس - نشأوا بوضع القوانين الخاصة بالأمور الادارية . وحين كانوا على وشك أن يؤكدوا مكانة للقسطنطينية ويضعوها في مرتبة رومية أثار مندوبو لاون ضجة معلنين أنهم لن يقبلوا بحال ما هذه المساواة . وقد بدت من كل مناقشتهم الرغبة في تفحيم أسقفهم ووضعه بالقباب غير مألوفة من قبل مثل لقب ، رئيس أساقفة الكنيسة الجامعة ، (١) . وقد استعملوا في مناقشاتهم لأن لاون أوصاهم مقدماً أن يدافعوا عن سلطته بأرواحهم (٢) ، مع العلم بأنه كان قال لأناطوليوس في إحدى رسائله إليه بأن كرمة أية كنيسة ترجع إلى أن أحد الرسل القديسين أسسها (٣) . ولما رأى نواب لاون أن كل مناقشاتهم ضاعت هباء منثوراً انسحبوا من الجلسة على الفور . على أن انصحابهم لم يكن له من أثر لأن الآباء نفذوا رغبتهم بأن سنوا القانون الثامن والعشرين الذي لم يكن سوى مزيد للقانون الثالث من قوانين المجمع المسكوني الثاني . وقد استند الآباء

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيبي جـ ٤ ص ٦٠٤ حيث يقول :

" On voit par tous le discours tenus par Paschasius au concile de Chalcedoine que les délégués romains s'attachaient surtout à relever les prérogatives de l'évêque de Rome et qu'ils lui attribuaient des titres pompeux et tout à fait nouveaux, comme celui d'archevêque de l'Eglise Universelle " .

(٢) دائرة معارف العلوم الدينية جـ ٨ ص ١٥٠ حيث جاء ما نصه :

" Il (Léon) avait recommandé à ses légats de sauvegarder et de défendre son autorité en leur personne " .

(٣) شرحه في الجزء الثامن وعلى الصفحة عينا وردت هذه الفقرة من خطاب لاون وهي : " ... c'est l'origine apostolique d'une Eglise, sa fondation par un apôtre qui la rend digne d'un rang supérieur " . الكلمات اعترف بمساواة جميع الكنائس التي أسسها الرسل .

فى هذا القرار إلى التقدم المدنى لهاتين العاصمتين . وكان انسحاب نواب لاون الأول فاتحة الانشقاق بين كنيسة العاصمتين الشرقية والغربية . ويؤخذ من وضع هذا القانون (الثامن والعشرين) أن غالبية من حضروا المجمع الخلقيدونى رضوا بأن يصغوا فى صمت تام إلى المهارات الرومانية حين كانت موجهة ضد البابا ديسقورس ، ولكنهم قطعوا هذا الصمت عندما بدأ الرومانيون ينتقصون من أهمية القسطنطينية (١) - مما يوضح أنهم اجتمعوا (فى الحقيقة) ليتنازعوا الأولية . فتأمروا على اضعاف البابا الاسكندرى أولاً ثم تفاوضوا عن احتجاج نواب رومية على قانونهم الثامن والعشرين واحتجاج لاون الأول نفسه (٢) لدى الامبراطورة بولشريا وزوجها مرقيانوس ، لأن هذا القانون دخل فى حيز التنفيذ فى الحال وصادقت عليه جميع الكنائس ومن بينها رومية (٣) .

٩٣- وظل آباء المجمع يوالون عقد اجتماعاتهم انتظاراً لرد الامبراطور لأنهم كانوا قد بحثوا بصورة الحكم إلى كل من مرقيانوس وبولشريا حاكمى الشرق ، وإلى فالنطينيانوس الثالث لىمبراطور الغرب . وقد طلب الآباء إلى الأباطرة أن يصادقوا على حكمهم إذ لم يكن فى وسعهم تنفيذه فعلاً ما لم تؤيده السلطة الزمنية التى تملك السلطة التنفيذية وبخاصة لأن البابا الاسكندرى كان واسع النفوذ وله سلطة بعيدة المدى (٤) .

٩٤- وبعد أيام وصل خطاب الامبراطور مرقيانوس يحمل المصادقة

(١) الخلاصة الوفية فى أرثوذكسية الكنيسة القبطية - مقال للأستاذ فرنسيس العتر أرشيدياكون كنيسة الرسولين بطرس وبرلس بالقاهرة - نشره فى مجلة الصخرة العدد الذى يجمع بين شهرى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٤٩ من السنة الثالثة عشرة ص ١٩ - ٢٤ .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) ج ٤ ص ٦٠٧ حيث يقول ما نصه : " Le canon (28 de Chalcedoine) donna lieu à une polémique dans laquelle St. Léon montra plus de passion que de franchise. Le canon du concile était une réponse foudroyante aux nouvelles prétensions dont les délégués romains s'étaient fait les échos au concile ... " .

(٣) ، الباباوية المنشقة ، للآبى جيئى (بالفرنسية) ص ١٠٣ ، تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيئى ج ٤ ص ٥٩٤ .

(٤) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيئى ج ٤ ص ٥٩٤ .

على حكم المجمع كما يحمل الأمر بنفى البابا ديسقورس إلى جزيرة غنفرا (عدد شاطئ آسيا للصغرى) ، وأذن لبقية الأساقفة بالعودة إلى بلادهم . وهكذا انفصّ مجمع خلقيدون المشكوك الذى ترجع إليه سبّة شق الكنيسة المقدسة .

٩٥- وقد سحب البابا الاسكندرى فى منفى اثنان من أساقفته ، كما صاحبه بطرس رئيس للشماسة وثيودوسيوس سكرتيره وكاتب سيرته . وكانت مصاحبتهم لقداسته ببعض لختيارهم . وكان القديس مكاري أسقف أدكو يشتمى أن يشارك باباء مرارة الكفى أيضاً ، ولكن هذا البابا المصرى المقدم الذى كانت تربطه بالأنبا مكاري أواصر المحبة الصادقة لم يسمح له بذلك بل قال : « عد أنت إلى بلادنا الحبيبة لأن اكليل الشهادة ينتظرك فى المدينة عينها التى ارتوت بدماء مرقس للرسول » . وقابل الأنبا مكاري هذه النبوءة مقتبهاً ، وذهب إلى الشاطئ لعله يجد سفينة تنقله إلى الاسكندرية . وقد صاحبه إلى الشاطئ الرجال الخمسة الذين كانوا سيقاسون مرارة الكفى - أى الأنبا ديسقورس وصاحبه الأريمة . ذهبوا جميعاً إلى شاطئ البحر ليلبثوا مع زميلهم الذى ينتظره اكليل الشهادة بأمانتهم ، وليتجهوا معه بأبصارهم وقلوبهم إلى وطنهم العزيز الذى لن يروه بالجسد ثانية ووجد الأسقف للقديس سفينة تجارية أوصلته إلى الاسكندرية . وفى الوقت المعين نال اكليل الشهادة الذى تنبأ له عنه البابا الجليل ديسقورس .

٩٦- أما الأنبا ديسقورس فقد ذهب هو وزملاءه إلى جزيرة غنفرا . وكان معظم أهالى تلك الجزيرة لا يزالون وثنيين ، بينما كان من فيها من المسيحيين نسطورياً حتى لقد اعتاد أسقفهم أن يهزأ بخليفة مارمرقس زاعماً أنه بذلك يزيده حزناً على حزن .

٩٧- على أن البابا الاسكندرى تحمّل كل هذا فى سكون ، وقابل سخرية النسطوريين بصبر ووقار ، كما دأب على تعليم الوثنيين . وقد شفى المرضى ، وواسى الحزانى ، وسعى إلى اغاثة كل من استلجده به ، عملاً بقول الرب : « اشفوا المرضى . طهروا البرص ... » (١) .

(١) متى ١٠ : ٨ .

٩٨- ولم يكن نفى الأنبا ديسقورس ليحول دون وصول بعض أحبائه إليه ومن بين الذين ظلوا على عهد الوفاء مقيمين للكهنة بطرس الأيبيري (١) الذي بعث إليه برسالة صتمتها وصفاً لكل ما حدث في مجمع خلقيدون بعد سفر البابا الاسكندري . وقد رد عليه خليفة مارمرقس يقول : « ... أما نحن فإننا نعتز بأن لاهوته لم يفارق ناسوته طرفة عين . ونعترف بأنه - عند نزوله من السماء حيث كان جالساً عن يمين الآب - نخل إلى بطن العذراء موحداً بين لاهوته وناسوته وحدة لا انفراق فيها . وكما أنه لا بداية للاهوته كذلك لا نهاية للاهوته متحداً بناسوته . وحين علق على الصليب لأجلنا لم يفترق لاهوته عن ناسوته وقد صعد إلى السماوات بالجسد عينه الذي اتخذه من مريم أم الله ، وهو جالس عن يمين الآب . هذا هو إيماننا ، (٢) .

٩٩- وذات يوم جاءه تاجر مصري جنحت مركبه عند شواطئ غنغرا ، فانتهاز الفرصة للسؤال عن باباه . ويكى حينما وقعت عيناه عليه . غير أن الأنبا ديسقورس خفف من حزنه قائلاً : « يا بني - ما مدنا نحفظ الايمان الذي سلمه لنا آباؤنا فحقن في خير رغم الضيقات والسلاسل . ثم قدم له التاجر مبلغاً من المال قائلاً : « إقبل يا أبى هذا المبلغ من ابنك لأنك في بلاد غريبة » . أجابه : « لست في بلاد غريبة يا بني - لأن الله الذي خلق الكائنات والذي منحنا الشجاعة للدفاع عن الايمان هو يمنحنا نعمة تمكننا من أن نشعر أننا لسنا في بلاد غريبة ، لأن للرب الأرض وملؤها ، (٣) . وامتلاً قلب التاجر عزاءً لسماعه هذه الكلمات ، ولكنه ظل يلح على البابا ديسقورس ليقبل المال إلى أن أخذه منه في النهاية . وقد وزع هذا المال على الفقراء والمعوزين الذين كانوا يأتون إليه (٤) .

(١) أيبيريا هي الاسم الذي أطلق قديماً على الجزء الشرقي من أسبانيا ، وهو الجزء الواقع على نهر أيبيروس - ويحرف الآن باسم أيبرو .

(٢) سيرة الأنبا ديسقورس بقلم تلميذه فيلوبيستوس ترجمها إلى الفرنسية عن الأصل القبطي المستشرق ناز وبشرها في « المجلة الأسبوعية ، العدد العاشر للمجلد الأول ٢ (مارس - أبريل سنة ١٩٠٣) . ص ٢٧٩ .

(٣) مزمور ٢٤ : ١ .

(٤) سيرة الأنبا ديسقورس ... ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

١٠٠- وثمة زلزال آخر جاءه خصيصاً وهو بفتوتى رئيس الأديرة الباخومية .
وحين التقى رجلا الله وقع كل منهما على عنق الآخر وقبله . ثم قضيا عدة
أيام معا تعزى كل منهما بصحبة الآخر إذ كانا يتحدثان عن عظام الله . وفى
أثناء الحديث قال بفتوتى لباباه : : أليست للعليقة التى رأيا موسى مشتعلة
بالنيران فى البرية دون أن تحترق هى أيضاً من الرموز التى يمكن الاستعانة
بها لتصوير وحدة اللاهوت باللاهوت ؟ ، فأجابه الأنبا ديسقورس بالإيجاب .

ويعد أن سعد بفتوتى بصحبة باباه الجليل بضعة أيام تنسم خلالها الخليفة
المرقسى نسيم مصر الحبيبة ، استأذن هذا الناسك فى العودة ليحمل إلى رهبانه
نحية الزاعى الثابت رغم المنفى وعذابه . وما أن وصل إلى أديرته حتى أعلم
نساكه بما رآه وما سمعه فسبحوا الله تعالى الذى يعطى قديسيه نعمة تمكنهم
من احتمال كل أنواع المشقات (١) .

١٠١- ويعد أن قضى البابا ديسقورس سنوات خمساً فى جزيرة غنغرا
تمكن خلالها من أن يكتسب الوثنيين من أهلها إلى السيد المسيح والمبتدعين
منهم إلى الايمان الأرثوذكسى انتقل إلى فرح سيده محققاً فى حياته قول السيد
له المجد : : كن أميناً إلى الموت فأعطيك إكليل الحياة ، (٢) .

١٠٢- ولما كان الآب السماوى لا يمسى تعب المحبة ، ولا يدع أحبائه
بين أيدي ظالمهم دون انتصافهم - إذ هو يميل ولا يهمل - فقد أقام للأنبا
ديسقورس شهود عدلٍ فى مختلف العصور . فقللٍ عليه للقديس ساويرس
الأنطاكى (٣) : : أنه شهيد المسيح ، الذى وحده لم يجث للبعل فى المجمع
الباطل ، ، بينما وصفه مار زكريا الفصيح أسقف موللي (السريانى) بأن :

(١) سيرة الأنبا ديسقورس بقلم تلميذه ثيودوريتوس ترجمها إلى الفرنسية عن الأصل القبطى
المستشرق ناورنشرها فى : المجلة الآسيوية ، العدد للعاشر للمجلد الأول ٣ (مارس - إبريل سنة
١٩٠٣) ص ٢٩٧ - ٣٠٠ .

(٢) سفر الرؤيا ٢ : ١٠ .

(٣) هو أحد الأبحار الأرثوذكسيين الذين اضطهدهم الامبراطور يوستينيان فى القرن السادس فلجأ
إلى واديها الرحيب حيث وجد الأمان .

« إيمانه كان مثل إيمان أثناسيوس وكيرلس وسائر الملائكة (١) . وإذ روض نفسه هذا الرجل الرسولي - منذ نعومة أظفاره على الإيمان القويم (الأرثوذكسي) أبى السجود للصنم ذي الوجهين الذي صاغه لاون والمجمع الخلقيدني . أما الأنبا بطرس الثالث (البابا الاسكندري السابع والعشرون) فقد سماه « شهيد المسيح الصادق » ، في حين دعاه تلميذه ثيوفيستوس « شهيد الحق » (٢) .

١٠٣- وكان ثيوفيستوس شماساً وسكرتيراً للبابا ديسقورس ، أحبه وأعجب به فتبعه أينما ذهب . وحين أصدر مجمع خلقيدون حكمه الجائر بفضي هذا البابا المصري الجريء ذهب معه إلى المنفى . وفي المنفى شغل ثيوفيستوس نفسه بكتابة سيرة معلمه الكبير الذي لازمه إلى أن استراح من ظلم هذا العالم وانتقل إلى عالم العدل والبر .

ولم يستطع ثيوفيستوس (بعد انتقال باباه) أن يعود إلى بلاده المحبوبة ، لأن الامبراطور مرقيانوس كان قد أقسم بأنه إن تجرأ سكرتير الأنبا ديسقورس على الرجوع إلى وادي النيل فهو لابد مقتول . ففادر ثيوفيستوس جزيرة غنغرا ، وقصد إلى المدن الخمس لقربها من مصر ولوجود مصريين فيها . وهناك استكمل سيرة باباه الجليل ويحث بها إلى وطنه العزيز على يد صديق صدوق كي يجد المصريون في هذه السيرة الرائعة من القوة ما يمكنهم من مواصلة الجهاد ليكونوا خليفين بهذا البابا المصري العظيم الذي رضى باللاهانة والنفي ذوداً عن الإيمان الأرثوذكسي الذي تعلمه من سلفائه الأماجد (٣) .



(١) أي للمطيين .

(٢) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسوريوس ومقرب ثوما ج ٢ ص ٢٠٢-٢٠٣ .

(٣) مخطوط عربي يتضمن سيرة الأنبا ديسقورس محفوظ بمكتبة البطريركية القبطية بالقاهرة رقم ١٧١ لاهوت ، تاريخ بطاركة الاسكندرية وكشف باسمائهم للشماس كامل صالح نخلة ص ١٠-١١ .

رجع الصدى : أ- الأنبا تيموثيئوس الثانى

- (١٠٤) النتائج البعيدة المدى توجب الترتيب فى الحكم .
- (١٠٥) تسرب الفطرسية إلى المسئولين فى الكنيسة .
- (١٠٦) وصول نيا الحكم على البابا ديسقورس إلى الاسكندرية مقروناً بالتهديد .
- (١٠٧) ثورة المصريين وتجدد اضطهادهم .
- (١٠٨) مجمع الكرازة المرقسية يجدد الحرص على مجمع خلقيدون .
- (١٠٩) والى الاسكندرية يحاول الايقاع بالأساقفة المصريين ويفتك بالأنبا مكارى أسقف أدكو .
- (١١٠) استيلاء الخلقيدونيين على عدد من الكنائس .
- (١١١) الدخيل بروتيريوس يسلب الكنائس .
- (١١٢) لاون الأول يكاتب الدخيل بروتيريوس .
- (١١٣) ولاء المصريين لباباهم المنفى ومكاتبته إليهم .
- (١١٤) نياحة الأنبا ديسقورس وانتخاب خليفة له .
- (١١٥) مميزات تيموثيئوس .
- (١١٦) تزايد غضب الوالى على المصريين .
- (١١٧) البابا الاسكندرى يقوم بزيارة راعوية والنتائج التى ترتبت عليها .
- (١١٨) معاقبة المصريين بنفى باباهم الشرعى وفرض دخيل ثان عليهم .
- (١١٩) استقبال أهالى فلسطين ولبنان وآسيا الصغرى للأنبا تيموثيئوس .
- (١٢٠) موت مرقياثوس واعتلاء باسيليوس عرش القسطنطينية .
- (١٢١) خطاب دورى من الامبراطور إلى جميع الأساقفة .
- (١٢٢) الأنبا تيموثيئوس هو الذى كتب الخطاب الدورى فأوضح أورثوذكسية كنيسه .
- (١٢٣) الخطاب الدورى أساس لصلح بين الكنائس الشرقية دام عدة سنوات .
- (١٢٤) نقل رفات الأنبا ديسقورس إلى الاسكندرية .
- (١٢٥) عودة البابا الاسكندرى إلى مكر كرسية وقرار الدخيل امامه .
- (١٢٦) استناب السلام ونياحة الأنبا تيموثيئوس .

١٠٤- لو أن الانسان أوتى المقدرة على معرفة الغيب فلذلك نتاج أعماله: سيئة كانت أم حسنة ، لكن وزن الأمور قبل أن يصدر حكماً فيها . ولكن - على الرغم من هذا القصور فالواجب يقضى على الانسان أن يترث قبل البت فى أمر أيا كان ، لعله بهذا التريث يستطيع أن يتجنب ما قد ينتج عن عمله من شرٍ مستطير .

ومن سوء الطالع أن الآباء الذين اجتمعوا فى خلقيدون لم يفكروا مطلقاً فيما كانوا مزمعين أن يصدروا من حكم ولا فيما قد ينتج عنه من أضرار جسم . إذ قد اندفعوا فى تصرفهم بغرض رئيسى هو الخط من هبة البابا الاسكندرى . فإن المجمع - على حد قولهم - كان قد التأم ليثبت الايمان ، ولكن آباء المجمع ، حتى بعد لقرار الايمان ، وبعد أن وافقهم الأنبا ديسقورس على وجوب توقيع أشد للعقاب بأوطيخا إن صح ما اتهموه به من ابتداع ، وبعد أن أكد آباء المجمع للمندوبين الامبراطوريين أن الايمان الأرثوذكسى لا تشوبه شائبة : بعد هذا كله عادوا فعدوا عدة جلسات لم يتناولوا خلالها الكلام عن الايمان إلا فى جلسة واحدة هى تلك التى جهر فيها أناطوليوس أسقف القسطنطينية بأرثوذكسية البابا ديسقورس حيث قال : « إن أرثوذكسية هذا الحبر النقى لا غبار عليها » .

١٠٥- وفى أثناء جلساتهم - عدا تلك الجلسة الوحيدة - لم تدر مناقشاتهم إلا حول الشؤون الادارية وحول من يكون الأعظم فيهم . وهكذا دببت روح الخطرسة فى الكنيسة ، فتولد عنها للشقاق ونما الزوان جنباً إلى جنب مع الزرع الجديد (١) . وتقاسى الأساقفة شرط العظمة الذى وضعه القادى الحبيب (٢) . ويتضح هذه الحقيقة من أنهم حالما تخلصوا من البابا ديسقورس ثارت ثائرتهم واحترقوا الجدل بينهم على امتيازات كرسى رومية وكرسى القسطنطينية . وأخذ كل فريق منهما يناصر أسقفه ، يؤيد ذلك الرسالة التى كان قد بعث بها أسقف رومية إلى بولشريا . فإن هذا الأسقف ، بعد أن تحدث عن للمجمع الخلقيدونى بكل لزدراء وتحقير ، وبعد أن أنكر

(١) متى ١٣ : ٢٤ - ٣٠ .

(٢) مرقس ١ : ٤٣ - ٤٥ ، لوقا ٢٢ : ٢٥ - ٢٧ .

القانون للثامن والعشرين من قوانين المجمع - بعد هذا كله هاجم أناتوليوس أسقف القسطنطينية بلهجة من الضجر لا تليق بأسقف . وهكذا كشف عما كان يعضمه من حسد : ذلك للحسد الذي كان قد ستره بسطر الغيرة على الدين . ولم يكف لاون بخطاب واحد بل أنه بحث بمدة خطابات إلى الامبراطور مرقيانوس والامبراطورة بولشريا تحدث فيها عن مجمع خلقيدون بحدة لا تدع مجالاً للشك في أن الغيرة على الدين لم تكن بالدافع الوحيد الذي أملى عليه كتابة هذه الخطابات . ولم تقف حده عند مهاجمة المجمع ، بل دفعته إلى مهاجمة أناتوليوس أسقف القسطنطينية وشريكه في الخدمة الرسولية . فقد قال في خطابه إلى الامبراطور مرقيانوس ما ترجمته : " لقد أحسن أخى أناتوليوس صلحاً بالتحلى عن أخطاء الذين رسموه ، (١) . ولكن الواجب كان يحتم عليه أن يرعى زمامكم لما أسديتموه نحوه بدلاً من الاندفاع في سبيل مطامعه الخاصة . ولقد غضضنا الطرف عن هفوات رسامته لكي نرضيكم (٢) .

واستمر لاون الأول يهاجم أناتوليوس إذ ادعى في الخطاب الذي بحث به إلى الامبراطورة بولشريا بأن القانون الثامن والعشرين من القوانين التي استلها مجمع خلقيدون - والذي سوى بكرسى رومية كرسى القسطنطينية - كان بناءً على طلب أناتوليوس وتحقيقاً لمطامعه الشخصية ، متناسياً أنه إنما جاء توكيداً للقانون الثالث من قوانين مجمع القسطنطينية (المسكوني الثاني) . ولقد تمادى لاون في ادعائه إلى حد أنه أنكر وجوده

(١) يجدر القول هنا بأن الأتبا ديسقورس هو الذي وضع اليد على أناتوليوس على أثر الحكم الذي أصدره المجمع الأنفسى الاستثنائي ضد فلابيانوس . راجع للفصل السابق لهذا مباشرة .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيبي جيه ص ١١ حيث قال ما نصه :

" Mon frère Anatolius ■ bien fait d'abandonner les erreurs de ceux qui l'avaient ordonné (Dioscore) ... mais il aurait du conserver ce qu'il devait à votre bonté, sans se laisser aller à l'ambition . Pour vous être agréable, nous avons fermé les yeux sur les défauts de son ordination " . وهذا يصح التساؤل إن . كان من اللائق أن يتقاضى أسقف مملوك عن التشريعات الكنسية - يتقاضى عما يمس هذه التشريعات لرضاء للسلطان ؟ .

ضمن قوانين مجمع القسطنطينية ، متناسياً (للمرة الثانية) أن الذين اجتمعوا في ذلك المجمع أساقفة رسوليين نظيره تماماً ، وأن المسألة الإدارية البحتة مرجعها إلى الكنيسة صاحبة الشأن . فالإيمان لأنه عقيدة الكنيسة الجامعة يجب أن تتداول فيه جميع الكنائس معاً وتقره بحكم الأغلبية ، أما للنظام فأمر فردى محض مستمد من البيئة والتقاليد ، لذلك لا حاجة لأن تتداول الكنيسة فيه ، بل يجب أن يترك أمره لكل كنيسة على حدة لتختار ما يلائمها منه . ولما كان القانون القسطنطيني الثالث قانون إداري بحث كان أمره موكولاً إلى كنيسة القسطنطينية لأنها صاحبة الشأن فيه . ولقد أحترم للشرق مبدأ الحرية الفردية فلم يتدخل قط في إدارة الكنيسة الرومانية . فكان الواجب على الكنيسة الرومانية (وهي للكنيسة الرسولية الوحيدة في الغرب) أن تحترم هي أيضاً مبدأ الحرية الفردية ولا تتدخل في الأمور الإدارية للشرق . ولقد أثار القانون الثامن والعشرون جدلاً كانت الكنيسة في غنى عنه . وأبدى فيه لاون الأول ثورة الغضب بدلاً من الاخلاص . والواقع أن القانون الثامن والعشرين كان الرد الصاعق للادعاءات الرومانية التي كانت قد بدأت في الظهور في مجمع خلقيدون . فلم يكن بغريب أن يصير الأماقية الشرقيون على تنفيذه (١) .

١٠٦ - وبينما كان أصحاب السلطان يكتبون ، وصل رسول امبراطوري إلى الاسكندرية ينبئ الشعب بالحكم الذي صدر على البابا ديمقورس

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيبي جـ ٤ ص ٢٦٠٧ جـ ٥ ص ١١ - ٢١ . وقد أورد هذا الكاتب تفاصيل الرسائل التي بحث بها لاون الأول في جـ ٥ الفصل الأول . وقال في ص ١٩ منه ما نصه :

" Léon ne voulait pas comprendre que ceux qui les avaient promulgué étaient assis sur des sièges apostoliques aussi bien que lui, et qu'une affaire qui ne concernait que l'Orient n'avait pas besoin d'être notifiée à l'Occident les évêques Orientaux n'empêchaient pas les évêques Occidentaux de reconnaître au Siège de Rome certains privilèges, pourquoi l'Occident aurait-il empêché l'Orient d'en accorder à l'évêque de leur ville impériale de Constantinople ? Le consentement de l'Eglise est requis pour qu'une définition de foi devienne oecuménique, mais quant aux decrets disciplinaires, chaque Eglise peut faire ceux qu'elle croit utiles.

ويتعين قس اسمه بروتيريوس بدلاً منه . ومن المزم أن بروتيريوس هذا كان
اسكندرياً . وكان مجمع خلقيدون قد اختار هذا القس ووافق الامبراطور على
تعيينه . وكان الرسول الامبراطورى يحمل - إلى جانب هذه الرسالة - رسالة
امبراطورية ثانية يتهدد فيها كاتبها كل من يجرؤ على العصيان - أيا كان -
بأشد العقوبات . وكان يصعب بروتيريوس شذمة من الجند مكلفة بمعاينة
مخالفى الأوامر الامبراطورية (١) .

١٠٧- على أن هذا التعسف أدى إلى عكس ما كان يجره الامبراطور
مرفقانيوس منه . فإن المصريين بدلاً من أن يتراجعوا أمام تهديد هذا الحاكم
الفاشم ، وأمام تجليس دخيل ، قد قابلوا للوعيد والتهديد بأن أضرموا نار الثورة
فى الاسكندرية . وعلى أثر ذلك اندلعت نار الاضطهاد وتجدد الاستشهاد فى
وادي النيل (٢) .

١٠٨- ولقد كان الأساقفة على رأس الشعب المصرى فى رفضهم لهذا
الوضع الشاذ ، فرفضوا بكل إباء أن يخضعوا لأسقف دخيل ، كما رفضوا
الاعتراف بأسقف وباباهم لا يزال على قيد هذه الحياة ، ملتين ولاهم للبابا
ديسقورس رابعهم الشرعى الذى انتخبه الشعب بمحض ارادته . وقد أراد
الأساقفة المصريون أن يؤكدوا ولاهم للخليفة المرقسى ، وأن يطنوا استقلالهم
الكسى ، فعقدوا مجمعا أيدوا فيه الأنبا ديسقورس تأييدا تاما اجماعيا . وجرموا
لاون الأول وطومسه والمجمع للخلقيدونى .

١٠٩- على أن والى الاسكندرية - وهو عميل القسطنطينية - رأى أن
ينفذ أوامر سيده فأمر جنده بأن يقابلوا كل أسقف على حدة ، ويطلبوا إليه

(١) مجمع خلقيدون ، ترجمه إلى العربية من الأصل للاتينى المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الرابع
فرنسيس ماريا وصلاق عليه ثلاثة كراثة . طبع فى رومية سنة ١٦٩٤ من ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) كانت فلسطين هى أيضا مسرحا للاضطهاد حيث هاج سكانها حين أراد يوبيلاليوس أسقفهم أن
يقرأ عليهم قرارات مجمع خلقيدون وطومس لاون - راجع كتاب « تاريخ الكنيسة ،
(بالفرنسية) للأرشمندريت جيتى جـ ٥ من ٣٠ ، السكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية
واليس بروج جـ ٤ من ١٢٣٨ - ١٢٤٠ حيث يقدر الذين راحوا ضحية هذا الاضطهاد بثلاثين
ألفا .

أن يوقع على قرارات مجمع خلقيدون . وكان للدافع لهذا التصرف الشاذ أن
الوالى توهم أنه قد يظفر بالأساقفة إن هو قابل كلاً منهم على حدة . لأن
الإنسان فى وحدته غالباً ما يسلك مسلكاً يختلف عن مسئكه وهو ضمن
جماعة . إلا أن هذا الوالى قد أخطأ الظن لأن أساقفة الكرازة المرقسية كانوا
راسخى الايمان الأرثوذكسى ، كما كانوا متأكدين من أرثوذكسية باباهم
الشرعى ، فأكسبهم هذا الايمان وهذا للتوكيد جرأة فائرة مكنهم من مواجهة
الحكام فى غير تردد . فكان موقف كل أسقف على حدة موقفه بالضبط وهو
مع اخوته الأساقفة الآخرين ، إذ لم يستمد أحدهم الشجاعة من زملائه وإنما
استمدّها من الله مصدر كل قوة وشجاعة . وكان أول أسقف قصد إليه الجند هو
الأنبا مكارى أسقف أنكو الذى كان قد صاحب الأنبا ديسقورس إلى خلقيدون ،
والذى كان بوده أن يشارك باباه الجليل مرارة النفى عن مصر للحبيبة .
وبالطبع رفض الأنبا مكارى أن يذعن لمطالب الوالى فلم يوقع على الوثيقة
التي جاء بها الجند . وحين واجهوا رفضه ، طعنه أحدهم طعنة قاتلة ، فلم
يلبث أن استودع روحه الطاهرة بين يدى الآب السماوى . وهكذا نال اكليل
الشهادة الذى كان قد تكبأ له به البابا ديسقورس وهو فى طريقه إلى المنفى .
ويعد أن قتل جند الوالى البيزنطى الأسقف مكارى تركوه وقصدوا إلى بقية
الأساقفة الذين رفضوا جميعاً التوقيع ، فنالهم النفى والتشريد . وكان من أثر
قتل الأسقف القديس مكارى وتشريد الأساقفة شركائه فى الخدمة الرسولية أن
ثار الشعب الاسكندرى وأصر على الحيلولة دون اعتلاء بروتييريوس الكرسي
المرقسى ومدوا فى وجهه كل طريق يوصله إلى الكنيسة المرقسية . وقد تم لهم
ما أرادوا إذ عجز الدخيل عن الوصول إلى الكنيسة التي هى مركز الرئاسة
الروحية .

١١٠- وكانت النتيجة الحتمية لهذا التصرف أن أذيق المصريين صنوف
العذاب ولافوا أشد العقاب ، لأن الوالى ، بالاتفاق مع الأسقف الدخيل ، أمر
بإغلاق جميع الكنائس ماعدا للذئ اليسير منها الذى اغتصبه الامبراطور وسلمه
إلى أنصار مجمع خلقيدون من الرومان - اليونان . وكانت بين الكنائس
المنقصة الكنيسة التي تضم جسد القديس مرقس التي كانت قائمة على شاطئ
البحر أما الكنيسة التي كانت تضم رأس هذا القديس فقد ظلت فى أيدي

المصريين الذين حافظوا عليها بكل حرص (١) .

١١١- ثم جد بروتيريوس في سلب الكنائس التي مكنه الجدد من الاستيلاء عليها عوة بحكم امبراطور القسطنطينية ، إذ أحس في أعماق نفسه بأنها لابد عائدة إلى أصحابها يوماً ما . فرأى أن ينتهز الفرصة ويسلب كل ما فيها ، حتى إذا ما عادت إلى أصحابها وجدوها قاعاً صفصفاً . فكان بروتيريوس كاللص الذي يتسور الجدران لا راعى للحظيرة الذي يشفق على الرعية (٢) .

١١٢- ودنا عيد القيامة المجيد لسنة ٤٤٧ م ش (٣) ، فأرسل لاون الأول أسقف رومية إلى بروتيريوس خطاباً يطلب إليه فيه أن يحدد موعد الاحتفاء بالقيامة المجيدة على جاري عادة باباوات الاسكندرية طبقاً لقرارات مجمع نيقية العظيم . ولم يكن طلب الأسقف الروماني غير تملق للأسقف المعين من الامبراطور (٤) . فازدادت خواطر المصريين هياجاً واستمروا على اصرارهم في وجوب القضاء على هذا الدخيل الذي أمعن في اضطهادهم والتفكيك بهم (٥) ثم وجد مناصراً له في شخص أسقف رومية .

١١٣- وأنه لمن دواعي فخراً - معشر المصريين - أن الاضطهاد الذي

(١) من ظروف الحوادث انشأ استصعبت ذات يوم عدداً من الأجانب إلى الكنائس الأثرية والمتحف القبطي في مصر القديمة وحولما كنت أريهم أيقونة مارمرقس بكنيسة السيدة العذراء المعروفة بالمعلقة سألتني أحداهن : ، ألهيت كنترالية مدينة البندقية ملوى لجسم هذا القديس ؟ ، قلت : ، إن البندقيين لديهم الجسد ، أما نحن فلدننا الرأس . فعمادت تسأل : ، أنتصدين المحنى الأبدى للرأس ؟ ، أجبتها : ، إن رأسه عندنا أدنياً ومادياً : أدنياً لأن كنيسةنا نسمى باسمه . وهي لأن محتفظة بجماليمه ، ومادياً لأن الرأس محفوظ في الكنيسة المرقسية بالاسكندرية .

(٢) يوحنا ١٠ : ١ - ٤ .

(٣) أومنة ٤٥٥ ميلادية غربية .

(٤) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جبتي جـ ٥ ص ٢٧ .

(٥) يرى المؤرخون الكنسيون أن الجدد للذين وضعهم الامبراطور تحت أمره بروتيريوس قد فتلوا أربعة وعشرين ألفاً من المصريين - راجع : تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية ، لمارسيريوس يضرب قوما جـ ٢ ص ١٩٧ .

تأمر الدخيل والوالى على صبه على رؤوس أجدادنا لم يزددهم إلا ولاء للبابا
ديسقورس باباهم الشرعى المنفى . إذ كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأنه منحية
للحد والافتراء . وقد ضاعف هذا الولاء قوة احتمالهم فرضوا بالعذاب وأسروا
على عدم الاذعان لحكم الامبراطورية الغربية عن مصر . وسمع البابا
ديسقورس فى منفاه بولاء شعبه له وبما يتحمله من عذاب وتككيل جزاء
اخلاصه له وللعقيدة الأرثوذكسية فقطر الدم من قلبه اشفاقاً على رعيته . وكان
يكتبهم كلما سحت له الفرصة إذ كان بعض التجار - فى ذهابهم ولإيابهم -
يرسون عند جزيرة غنغرا ليقفوا على أخباره فى المنفى . فيحملون رسائله إلى
شعبه . وأحياناً كان يحملها بعض الرهبان الذين كانوا يقصدون إلى الجزيرة
التي اضطر راعيهم الأول إلى العيش فيها ليطمئنوا على صحته . فكان الشعب
يترقب هذه الرسائل وينقلها بلهفة وفرح .

١١٤- وفى سنة ٤٥٠م ش وصلت الأنباء بأن البابا ديسقورس قد استراح
من ظلم الناس وذهب ليجد العدالة عند عارف الخفايا . فعم الحزن جميع
القلوب ، وتوجع المصريون ، وامتلاًوا لوعة لأنهم اتجهوا بأبصارهم جميعاً نحو
تلك الجزيرة النائية التي لفظ باباهم فيها آخر أنفاسه . وحين شردت خواطهم
سرب هذه الجزيرة ، وتخيلوا البطل الشهيد على فراش الموت بعيداً عن الأهل
والوطن ازدادوا حسرة عليه . وضاعفت هذه الحسرة من عزمهم على مقاومة
القوة الناشئة التي تفرض عليهم غريباً عنهم . وكان والى الاسكندرية غائباً
عن المدينة حين نعى الناعى البابا ديسقورس . فرأى الجميع أن خير سبيل
يلتجونه انتصاراً لباباهم الراحل هو أن ينتخبوا خليفة له من بين تلاميذه .
وبالفعل اجتمع الشعب مع اكليروسه على الفور وقر رأيهم على انتخاب
تيموثيوس أحد سكرتيريه ليخلفه على السدة المرقسية ، فكان البابا الاسكندري
السادس والعشرين . وهكذا ظلت سلسلة الخلافة الرسولية فى كنيسة الاسكندرية
متصلة الحلقات دون أن يتطرق إليها انقطاع رغم كل العناصر التي تألبت
عليها (١) .

١١٥- وكان تيموثيوس هذا قد تتلمذ للأنبا كيرلس عامود الدين ثم

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيتى ج ٥ ص ١٩٧ .

لخليفته الأنبا ديسقورس . وقد تهرب في دير القلمون (١) حيث كان شديد الحرص على للنسك والعبادة ، متبحراً في العلوم الروحية وسير الآباء . فكان للصوم المتواصل والصلوات التي يرفعها ليل نهار أثر واضح عليه - فقد كان تحويل الجسم ولكن عينيه للبراقين وذهنه الصالحى كافاً شاهدي حق على ما بلغه من سمو روحى . لذلك استقدمه الأنبا كيرلس من الدير ، ورسمه قساً على كنيسة الاسكندرية (المرقسية) فدأب على خدمة الشعب وتعليمه تحت رئاسة هذا البابا العظيم ، ثم دأب على الخدمة والتعليم بعد انتقال الأنبا كيرلس إلى مساكن للنور وتسلم الأنبا ديسقورس مقاليد الرئاسة . لهذا أحبه الشعب ورأى أن ينتخبه ليجلس على السدة المرقسية رغم استعفافه إياه ليتتركه كاهناً بسيطاً (٢) .

١١٦ - وعاد الوالى إلى الاسكندرية ، وعلم بما كان من انتخاب الأنبا تيموثيوس الثانى ، فاستشاط غضباً إذ أدرك أن المصريين مصريون على الاحتفاظ بحقهم فى انتخاب من يعطى كرسى الكرازة المرقسية . ولما كان يريد أن يجد لنفسه عزراً يبرر به ما سيصيبه عليهم من عذاب ادعى أنه كان من الواجب عليهم أن ينتظروا عوفته قبل أن يزاولوا عملية الانتخاب . ولم يستح من أن يتمادى فى استبداده بالمصريين فأنكر عليهم حقهم فى الاحتفاظ باستقلالهم الكنسى ، معلناً أنه من الواجب عليهم أن يخضعوا لحكم الامبراطور فى أمور الكنيسة كما يخضعون له فى أمور السياسة . ربما أنهم لم ينتظروه حق عليهم العقاب . وتنفيذاً لخطته أخذ يناصر بروتييريوس ويتجاهل البابا للشرعى ممعناً فى اضطهاد المصريين إذ عدهم ثائرين على السلطة الامبراطورية . وبازاء هذا التشدد فى الحكم وهذا البطش البيزنطى عقد الأنبا تيموثيوس الثانى مجمعاً من أساقفته عاد فأكد فيه حرم كل من يقبل قرارات المجمع للخلفيدونى المشدوم . ولقد أجمع

(١) وتضج لنا من سيرة هذا البابا الجليل أن للدير المعروف باسم « الأنبا صموئيل القلمونى » كان ديراً قديماً سابقاً لعهد الأنبا صموئيل ، وأنه كان عامراً بالرهبان فى هذا القرن الخامس . غير أن الزمن كان قد عدا عليه ، فمصره الأنبا صموئيل فى القرن السابع ، ولهذا أصبح معروفاً باسمه .

(٢) تاريخ الكنيسة السريانية الايطالية لمارسوريوس وحقوب توما ج٢ ص ٢١٠ .

الكليروس والأراخنة كبيرهم وصغيرهم - على مؤازرة البابا الجليل ولم يشذ من بينهم غير أربعة أساقفة (١) .

١١٧ - وقد رأى الأنبا تيموثيوس الثاني أن واجبه الراعوى يحتم عليه تفقد رعيته فى هذا الوقت العصيب ، فغادر الاسكندرية وأخذ ينتقل بين مخطف البلاد المصرية . وحيثما نزل كان يثبت قلوب أبنائه على الايمان الأرثوذكسى ويقوى عزيمتهم ، ويوضح لهم أن من يستعين بالله يجد فيه الملاذ فلا يخشى السلطة الزمنية مهما طغت واستبدت .

وبينما كان الأنبا تيموثيوس الثانى يقوم برحلته الراعوية وصل إلى الاسكندرية الكونت ديونيسيوس أمير الجيش : وصل يحمل الأوامر المشددة لاختضاع المصريين لبروتيريوس بكل ما أوتى من قوة . وقد نفذ هذا الكونت أوامر امبراطوره إلى حد اقترف معه من الفظائع ما لم يخجى ذلك القرن الخامس وركز المصريين بما قاساه آباؤهم على أيدي الأباطرة الوثنيين . إلا أن هذا التصرف لم يمنع البابا تيموثيوس الثانى من أن يكمل زيارته الراعوية التى ملأت القلوب عزاء وألهبتها غيرة وذلقتها تمسكا بحقها الوطنى . فلما عاد خليفة مارمرقس من رحلته وجد أن ديونيسيوس قد أغلق فى وجهه جميع أبواب مدينة الاسكندرية العظمى ليمنعه من دخول عاصمته . فاضطرم غضب للمصريين ، ولم يعودوا يطيقون تدخل الرومان فى شئونهم الدينية تدخلاً ظالماً غشوماً ، وقر قرارهم على أن يضعوا حداً لكل هذه المهازل . واشتبك المؤمنون والجيش فى معركة دامية سقط فيها الكثيرون . ولقد حار الكونت ديونيسيوس فى أمره بازاء صلابة الشعب المصرى . وراعه أن يراهم وقد تجمعوا كتلة متراسة وقصدوا إلى الدار التى يسكنها بروتيريوس . وكانت جموعهم ثائرة هادرة إلى حد أنه رأى من مصلحته عدم التعرض لهم . ولما رأى الدخول مقبلين عليه أصابه الذعر ، فهرب إلى مقصورة المعمودية فى كنيسة واخفى بها . غير أن الجماهير

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيتى جـ ٥ من ٣٠ حيث يقول :

" Apart ces évêques, au nombre de quatre, l'épiscopat égyptien tout entier se prononça contre l'intrus. Timothée anathématisa le concile de Chalcedoine ■ ceux qui le recevaient " .

كانت أشبه بمن لعبت الخمر برأسه ، فتبعته هناك وقتلته بحد السيف . ثم حمل البعض منهم جلته وساروا بها فى الشوارع وهم يصيحون كالمجانين : « هذه جثة الدخيل بروتيرويس » . ثم تملكهم نوبة جارفة من الجنون عند ذاك فدفعهم إلى تقطيع الجسد لرباً لرباً وحرقه ونذر مائه فى الهواء (١) .

١١٨ - وامتلاً الرأى حقاً وغضباً بازاء ما أبداه المصريون من عدم الاكتراث التام لكل تهديداته واضطهاداته ، وازداد غيظاً حين واجه هذه الثورة العلنية ، فاندفع بقوة هذا الغيظ إلى استئصال وسائل أشد قسوة لعله يستطيع أن يضع حداً لهذا العصيان . فطلب من الامبراطور أن يأمر بنفى الأنبا تيموثيوس الثانى أملاً بذلك أن يحد من اندفاع المصريين وتمردهم . وقد لبى الامبراطور مرقيانوس هذا الطلب - إذ استماع نفى للباباوات الاسكندرنيين - ولم يكتف بنفى البابا الاسكندرى وحده بل نفاه هو وأخاه إلى نفس جزيرة غنغرا التى لفظ فيها الأنبا ديسقورس آخر أنفاسه .

على أن هذا الطغيان لم يكن كافياً لاختماد ثورة الغضب التى طغت على نفس الرأى ، فسمى إلى إقامة بابا بدلاً من الأنبا تيموثيوس الثانى ، ونجح فى تعيين رجل اسمه سولوفانتشولى . ولكن المصريين أصروا على عدم الاذعان لهذا الدخيل الثانى وقاطعوه مقاطعة تامة إذ عدوه ألعيوة فى أيدي الحكام . واستمروا فى مقاطعتهم له مدى سبع سنين كاملة دون أن تلين لهم قناة ، وصمدوا فى أنفة أمام هذا الاعتداء الصارخ . ومن عجيب ما يروى أن الأنبا تيموثيوس الثانى نجح فى اكتساب محبة أهالى غنغرا حتى لقد وصفوه بأنه « العجائى المحسن » (٢) .

ولم ينس البابا الاسكندرى - وهو فى المنفى - أن واجبه الأول هو الدفاع عن الايمان الأرثوذكسى ، فبعث برسالة إلى أهالى مصر وفلسطين يحذرهم من بدعة أوطيخا ، وشفعها برسالة ثانية إلى بعض المصريين المقيمين فى

(١) أسهب سانت ألفونسو دى ليجورى فى وصف هذه الحادثة فى كتابه : تاريخ الهرطقات ، المطبوع بالعربية فى دير سيدة طاموش فى مقاطعة كسروان سنة ١٨٦٤ من ٢٦٧ .

(٢) كتاب تاريخ الكنيسة السريانية الأنتاكية لمارسوريوس يخرب توما ج٢ من ٢١٨ .

القسطنطينية للغرض عينه . وأعقب هاتين الرسالتين برسالة ثالثة دعمها بشهادة الكتاب المقدس ويقاليم أنثاسيوس للرسولى وكيرلس عامود الدين وباسيليوس الكبير وغريغوريوس الناطق بالالهيات وذهبي القم وغيرهم من معلمى الكنيسة الجامعة ولم يكتف الأنبا تيموثيوس الثانى بهذه الرسائل الثلاث فبعث برسالة رابعة إلى الرهبان والراهبات والمؤمنين فى كنيسة الاسكندرية وضح لهم فيها الايمان الأرثوذكسى مستنداً إلى احدى رسائل الأنبا ديسقورس (١) .

١١٩- ومن نعمة الله تعالى على صفيه الأنبا تيموثيوس الثانى أن أحبه الناس على حد قول المثل الشائع : « من حبه ربه حبيب فيه خلقه » . وقد بدت هذه المحبة الدافقة فى زحف الجماهير لرؤيته وهو ذاهب إلى المنفى إذ قد ساقه الوالى قسراً عن طريق النبر لا عن طريق البحر (٢) ، فمر بفلسطين ولبنان وآسيا الصغرى . وقد قابله سكان تلك البلاد بالتهليل والتبجيل كأنما هم خارجون ليحيوا بطلاً منتصراً . وحين وصل الأنبا تيموثيوس إلى بيروت خف أسقفها أوستاثيوس لاستقباله ، وتجمهر الناس حولهما طالبين إلى البابا الاسكندرى أن يباركهم فوقف فى وسطهم ، وصلى لأجلهم ، وباركهم . وقد قضى الأنبا تيموثيوس الثانى ليلة فى بيروت لازمه فى أثنائها أولسون شقيق الأسقف أوستاثيوس . ولما كان هذا الشقيق أستاذاً للشرع فقد تحدث مع البابا المرقسى فى العقيدة الأرثوذكسية . وفى ختام هذا الحديث قال البابا الجليل لمضيفه : « سأجاهد وأسعى لأجل الايمان لأعيش فى صفاء تام مع الله رغم ما قد يصبه الناس على من أذى » (٣) .

١٢٠- وفى سنة ٤٦٦م ش (٤) توفى الامبراطور مرقيانوس ، ويموته زال الملك عن آل ثيودوسيوس : هذا الملك الذى حاولت بولشريا أن تحتفظ به

(١) شرحه ج٢ ص ٣١٠ .

(٢) يبدو أن الوالى كلن يهدف إلى جعل البابا الاسكندرى عبرة لغيره فأخطأ العرمى إذ قد حياه المؤمنون تحية الأبطال الطافرين لادراكهم بأنه انتصر فى المحافظة على العقيدة الأرثوذكسية .

(٣) كتاب تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسيريوس يعقوب توما ج٢ ص ٢١٩ .

(٤) أوسنة ٤٧٤م .

بكل الوسائل ، فافتقرت في هذا السبيل شتى الآثام . فقد حرّضت أخاها على الزواج من امرأة ثانية لينجب ولداً (ولو أنه لم يصغ لنصحها) ، ثم نقصت عهد بنولتها حين لم تجد لأخيها وريثاً . وفي آخر الأمر تأمرت مع لاون الأول وغيره من الأساقفة العوالين لها على إيجاد وسيلة لنفى البابا الاسكندري وإبعاده عن شعبه ، وشجعت زوجها على الاستبداد بالشعب المصرى ورغم كل هذه الآثام المتلاحقة انتهى الأمر بانتقال العرش إلى يدى شخص ليس من سلالة ثيودوسيوس . فقد آل إلى باسيلوس الذى تسلم مقاليد الامبراطورية الشرقية والذى لم يكن له أية صلة من القرابة لآل ثيودوسيوس . ومن حسن الحظ أن الامبراطور الجديد عين لبلاطه طبيباً اسكندرياً (١) . فانتهاز المصريون الفرصة وطلبوا إليه أن يعمل على اعادة باباهم المنفى إليهم . وقد نجح مسعى هذا الطبيب إذ قد لبى الامبراطور الطلب وجاء الفرج للأنبا تيموثيوس الثانى .

وامتلأت نفس البابا الاسكندري فرحاً . لأنه سبرى وطنه الحبيب ثانية وبخاصة لأن الهواجر كانت قد ساورتها في أنه سيقضى في جزيرة غلفرا كل حياته كما قضاهم الأنبا ديسقورس . ومع شوق الأنبا تيموثيوس لرؤية شعبه ولده فقد رأى أن واجب اللياقة يحتم عليه للذهاب إلى القسطنطينية أولاً ليفقد الشكر بنفسه إلى الامبراطور الذى أصدر الأمر بالافراج عنه . وكان أسقف هذه المدينة قد أعد كنيسة القديسة ايريني لنزول البابا الاسكندري فيها ، كما عين عدداً من رجال الاكليروس لاستقباله وكنل إليهم أمر خدمته . ولما وصل الأنبا تيموثيوس الثانى إلى القسطنطينية استقبله الرهبان والملاحون الاسكندريون المقيمون بتلك العاصمة إذ ذاك والذين كانوا قد وفدوا خصيصاً لرجاء الامبراطور في شأن اعادة باباهم من منفاه . وكانت مراحل الله شاملة إذ قد أنزل الامبراطور ياسيلسكوس هذا البابا الاسكندري الجليل في قصره ورحب به كل الترحيب . وتوافدت جموع الشعب على القصر الامبراطورى : البعض منهم لينال بركة الأنبا تيموثيوس الثانى

(١) . للتربة في مصر ، مقال بالانجليزية للدكتور جورجى صبحى نشره في مجلة الآثار القبطية العدد التاسع (سنة ١٩٤٣) ص ١١٢ .

والبعض الآخر لبدال الشفاء بصلواته . وفى تلك الأثناء رجا هذا البابا الاسكندرى الجلول من الامبراطور باسيلسكوس أن يعمل على توطيد السلام فى الكنيسة ويعيد الأساقفة المنفيين إلى كراسيهم لكي يحس الأرثوذكسيون بالاستقرار النفسى .

١٢١- ولقد اقتنع الامبراطور بوجهة نظر البابا الاسكندرى فدعا إلى عقد مجمع حضره خمسمائة أسقف ، وبعد التداول معاً وافقوا على اقتراح الأنبا تيموثيوس الثانى بإرسال خطاب دورى (١) إلى جميع الأساقفة هنا نصه :
لما كنا نرغب فى تثبيت القوانين التى وضعها سلفاؤنا رغبة منهم فى وحدة الكنيسة ولما كنا نبغى المحافظة على قوانين مجامع نيقية والقسطنطينية وأفسس (المسكونية الثلاثة) ، فإننا نطلب إلى جميع الأساقفة أن يحرموا ويحرموا فى النار طومس لاون وكل ما جرى فى مجمع خلقيدون من تجدييد ايمان وتفسير ومناقشة ، لأن هذه جميعها ليست سوى ابتداع فى الدين . واننا - فوق هذا - نحكم بادانة كل من لا يعترف بأن الابن قد تأنس حقاً ، وكل من يشايح أوطيخا فى بدعته القائلة بأن جسد المسيح هو جسد خيالى نزل من السماء ، كما نحكم بادانة من يقولون مع أبوليناريوس (أسقف اللاذقية) بأن تجسد المسيح لم يكن غير تجسد ظاهرى . ويجب على جميع الأساقفة أن يوقعوا على هذه الرسالة كما يوقعوا حرماً علانية على كل ما جرى فى خلقيدون . وكل من تشيع فى مستقبل الأيام لهذا المجمع فإنه سيلقى أشد العقاب بوصفه مكدر كصفو الكنيسة وعدواً لله وللإمبراطور: فإن كان من الأساقفة يعزل وإن كان من الرهبان أو العلمانيين ينفى وتصادر أمواله .

١٢٢- وتجدر الإشارة هنا إلى أن الامبراطور باسيلسكوس يقتصر على مقاومة البدعة الأوطاخية ، بل سهر كذلك على مطاردة المتشيعين لها . على أنه متى عرفنا أن كاتب هذه الرسالة الامبراطورية هو الأنبا تيموثيوس الثانى زال العجب ووجدنا أنها ليست سوى دليل ضمن الأدلة العديدة على

(١) مما تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدد أن الأنبا تيموثيوس يوسف فى مقدمة هذا الخطاب الدورى : يا لبهى ومحب الله . .

لأنه هو وكنيسته يبرآن من البدعة الأوطاخية براءة الذئب من دم ابن يعقوب .
ومن أبرز الذين ساندوا البابا الاسكندري في تلك الفترة وجاهدوا إلى جانبه
الراهب بولس ، الفيلسوف الفصيح ، (١) .

وثمة دليل آخر على أرثوذكسية الكنيسة القبطية وباباواتها المجاهدين هو
أنه حين كان البابا تيموثيوس الثاني في القسطنطينية مشغلاً بالعمل على
تثبيت السلام في الكنيسة ، قصد إليه جماعة من الأوطاخييين أملين أن يوافقهم
على بدعتهم ولكنه قال لهم في صراحة تامة : « إن جسد الابن مساو لجسدا
وأما لاهوته فمساو للآب » (٢) . فعادوا من حضرته يجررون ذيل القشل وأدركوا
أنه متمسك بايمان أسلافه - باباوات الاسكندرية - الذين دعموا الايمان بالفعل
والقول .

١٢٣- وكانت هذه الرسالة التي كتبها الأنبا تيموثيوس الثاني وبعث بها
الامبراطور باسيلسكوس إلى الأساقفة على هيئة خطاب دورى أساساً لصلح دام
عدة سنوات بين كنائس أورشليم والقسطنطينية وأنطاكية والاسكندرية .

١٢٤- ولم ينس الأنبا تيموثيوس الثاني - في موجة الفرح التي غمرته
لما رآه من اخلاص الشعب ومن رضى الامبراطور - أن يستأذن في نقل
رفات الأنبا ديمسقورس البطل المعترف إلى مصر . فسمح له باسيلسكوس بذلك
. وما أن وصلت رفات هذا البابا الاسكندري - الشهيد بغير سفك دم - إلى
عاصمة كرسيه حتى سارع المؤمنون إلى الاحتفاء به . وقد رأس الأنبا
تيموثيوس الثاني الاحتفال بالصلوات التي أقيمت في الكنيسة المرقسية

(١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب توما ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢) أورد الأرثوذكسيون جيتي في كتابه « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) ج ٢ ص ٣٦ - ٣٧
تفاصيل هذه الوقائع ولخصتها بقوله : Timothy qui avait rédigé cette lettre circulaire :
n'était pas Eutychien . Lorsqu'il était à Constantinople ceux qui étaient
ouvertement monophysites, allèrent le trouver, s'imaginant qu'il leur donnerait
raison, mais il leur dit : " La chair du Verbe incarné est consubstantielle à la
nôtre, et dans sa divinité, le Verbe est consubstantielle au Père " . Il se retirèrent
mécontents " .

تكريماً لذكرى سلفه العظيم . وكان احتفالاً مهيباً خليقاً من ظل أميناً على العقيدة حتى الموت . وبعد الانتهاء من هذا الاحتفال الرائع وضع الجثمان الطاهر مع أحداث الأساقفة الاسكندريين (١) .

١٢٥- ولقد مر الأنبا تيموثيوس الثاني في طريق عودته إلى وطنه الحبيب بمدينة أفسس حيث عقد مجمعاً حضره خمسمائة أسقف . وبعد أن تشاوروا معاً أجمعوا على حرم مجمع خلقيدون وطومس لاون ومن يعترفون بها (٢) .

ومن المفرح أنه حالما وصل الأنبا تيموثيوس الثاني إلى الاسكندرية غادرها سولوفانشيولي الدخيل من تلقاء نفسه لجا إلى ديرِه إذ أحس باندفاع الشعب العارم وبخاصة لأنه رأى الشعب يخرج في جماهيره الفقيرة لاستقبال راعيهِ المنفى المنتصر . ولقد ترك الاسكندريون الدخيل يسحب في أمان دون أن يتعرض له أحدهم لأنهم رأوه مسالماً ، وعدّوا خروجه المباشر من المدينة اعترافاً منه بشرعية الأنبا تيموثيوس الثاني .

١٢٦- أما البابا الاسكندري فقد دأب على اصلاح الكنائس التي عيشت بها أيدي الملكيين (أنصار مجمع خلقيدون) ، كما انشغل في تزيين الكنيسة الكبرى التي كانت قد أقيمت في منطقة مريوط باسم مارمينا العجائبي . ولم يكف هذا البابا اليقظ بالبناء المادي لأنه كان يعلم تمام العلم أنه راعٍ للفوس لا للجدران . فانشغل بالبناء الروحي بأن انصرف إلى تعليم شعبه وتعزيز القلوب الخائرة . كذلك وجه عناية خاصة إلى الغرياء والمساكين والمسجونين والأرامل . وحين رآه الشعب منصرفاً بكليته إلى هذه الأعمال الداتجة عن المحبة الخالصة سارعت جموعه إلى تقديم هداياهم من ذهب وفضة ومال ليعاونوه على اتمام أعماله الراعوية العظيمة (٣) . وقد توج الأنبا تيموثيوس الثاني جهوده بجمع الشمل إذ قد نجح في اكتساب عدد غير قليل ممن زاغوا

(١) تاريخ الكنيسة السروانية الأنطاكية لمار سويريوس يعقوب توما ج٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) تاريخ الكنيسة المروانية الأنطاكية لمار سويريوس يعقوب توما ج٢ ص ٢٣٢ .

(٣) شرحه ... ج٢ ص ٢١١ .

عن الايمان القويم ، كما نجح في توطيد دعائم السلام بينه وبين اخوته
 الأساقفة بعد خصام طال أمده وتخلقه الاحقاد والاضطهادات . كذلك اتبع
 سياسة الرفق بالخلقيدونيين الثائبين بأن قبلهم في شركته بمجرد اعلانهم
 الحرم على مجمع خلقيدون واعترفهم بالايمان الأرثوذكسى . وبهذه الخطوة
 الرشيدة اكتسب عدداً كبيراً منهم . ومع أن بعض المتعنتين لم يرقهم هذا
 المسلك إلا أن الفرح عم المؤمنين الثائبين على التعاليم المسيحية الحقة .

وفي سنة ٤٧٢م ش ، وبعد جهاد دلم لثنتين وعشرين سنة وأحد عشر
 شهراً انضم إلى الأخذار السامانية بعد أن خدم ملك السلام كصانع من صانعي
 السلام فاستحق بذلك أن يحصى مع أبناء الله (١) .



(١) متى ٥ : ٩ .

ب- الأنبا بطرس الثالث

- (١٣٧) انتخاب بطرس أحد تلاميذ
الأنبا ديسقورس للسدة
المرقسية .
- (١٣٨) عقد مجمع في القسطنطينية
يصدر الهينوتيكون ،
ويحضره مندويو البابا
الاسكندري .
- (١٣٩) تشابه الهينوتيكون والخطاب
الدوري الذي كتبه تيموثيوس
الثاني .
- (١٤٠) موقف الأسقف أكايوس من
خلقيدون .
- (١٤١) تبادل الرسائل بين الأنبا
بطرس وأسقف القسطنطينية
ولورشلين .
- (١٤٢) مندوي أسقف رومية يحملان
رسالتين إلى الامبراطور زينون
ورسالة إلى الأسقف أكايوس .
- (١٤٣) القبض على هذين المندويين .
- (١٤٤) أسقف رومية يصدر الحرم على
مندوييه وعلى البابا
الاسكندري والأسقف
القسطنطيني .
- (١٤٥) كنيسة الاسكندرية وأندلاكية
لا تأبهان لهذا الحكم .
- (١٤٦) انتقال البابا الاسكندري إلى
بيعة الأيكار .
- (١٣٧) انتخاب بطرس أحد تلاميذ
الأنبا ديسقورس للسدة
المرقسية .
- (١٣٨) عقد مجمع جدد الحرم على
لاون وطومسه .
- (١٣٩) زينون يفتصب صرخ
القسطنطينية ويضطر الأنبا
بطرس إلى مغادرة
الاسكندرية .
- (١٤٠) وفد مصري يقابل الامبراطور
ويطالبه باحترام حقوق
مواطينيه .
- (١٤١) على الباضي تدور الدوائر .
- (١٤٢) اتصال الأسقف القسطنطيني
بالأنبا بطرس .
- (١٤٣) الحبران الاسكندري
والقسطنطيني يتبادلان
أربعة عشر خطاباً .
- (١٤٤) مضمون الخطاب البابوي
الثاني والرد عليه .
- (١٤٥) عطف الأنبا بطرس واستجابة
أكايوس له .
- (١٤٦) طلب أكايوس إلى الأنبا
بطرس أن يتشبه بموسى
النبي .

١٣٧ - وكان في الاسكندرية إذ ذاك كاهن اسمه بطرس ، صديق للبابا
المنتقل إلى مساكن الدور وتلميذ للبابا ديسقورس العظيم . وكان بطرس هذا قد

تشبع بالتعاليم الأرثوذكسية وناصر معلمه في جهاده الشاق المرير ضد القوة المتألمة عليه . فكانت تلمذته للأنبا ديسقورس ومناصرته له خير تزكية حفزت الشعب على انتخابه ليكون البابا الاسكندري السابع والعشرين ، فتمت رسامته سنة ١٨٨٨ م (سنة ٤٧٢ م ش) باسم بطرس الثالث المعروف باسم بطرس مغفوس .

١٢٨- وقد بدت غيرة الأنبا بطرس الثالث على الايمان الأرثوذكسي الذي أصبح حارماً عليه منذ اللحظات الأولى لتسلمه مقاليد الرئاسة . فإنه ما كاد يعلى السدة المرقسية حتى سارع إلى عقد مجمع من أساقفته وقد قرر جميع الأساقفة الملتزمين في ذلك المجمع تجديد الحرم على لاون وطومسه .

١٢٩- وحدث في تلك الأثناء حادث لم يكن في الحسبان هو أن زينون اغتصب عرش القسطنطينية من الامبراطور باسيلسكوس . وعند ذلك اتجهت أنظار المصريين إلى العاصمة الشرقية في شئ من التساؤل لأن زينون كان متابعاً للخلفيين فعدّ تجديد الحرم على لاون وطومسه تحدياً لسلطته الامبراطورية وأصدر أمره بنفى الأنبا بطرس الثالث . على أن هذا البابا الاسكندري لم يذعن للحكم بل اختفى في ضاحية من ضواحي عاصمته وهو واثق من ولاء شعبه له . وقد حرص هذا الشعب الأمين على أن لا يبرح بمكمن راعيه الأول للذي ظل مختلفاً سنوات خمساً لأن غضب الامبراطور زينون على المصريين بلغ حداً فرض معه دخيلاً اسمه جاورجيوس على السدة المرقسية . غير أن اضطراب الأنبا بطرس الثالث إلى الإقامة بعيداً عن مقر رياسته لم يؤخره عن تأدية واجباته الراعوية إذ قد دأب على تعليم شعبه بما كان يبعث به إليهم من رسائل في كل المناسبات (١) ، بينما استبد بهذا الشعب الوفي دخيل أجنبي . وقد سار الشعب على التقليد الأبوي بأن قاطع الدخيل مقاطعة تامة .

١٣٠- وبازاء الاعتداءات المتكررة من أباطرة القسطنطينية رأى

(١) المنكسار الأثووي ترجمه إلى الإنجليزية واليس بودج ج١ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ حيث عبر عن هذه الحقيقة بقوله ما نصه :

" he used to teach them to be strong dy his letters " .

المصريون أن يبذلوا جهوداً جريئة في المطالبة بحقهم المسلوب . فرأوا أن خير وسيلة هي أن يقابلوا الامبراطور نفسه ويتفاوضوا معه . فانتدبوا لهذا الغرض وفداً مذهبهم للسفر إلى القسطنطينية . وقد سافر هذا الوفد بالفعل وتمكن من مقابلة الامبراطور ومطالبه باحترام حق المصريين في انتخاب باباهاهم وفي استقلال كنيستهم عن الحكام المدنيين . وكان على رأس هذا الوفد رجل اسمه يوحنا طلايا . وأصغى الامبراطور إلى مطالب المصريين ، ولكنه أبدى تردده في قبولها لأنه استنتج أن يوحنا هذا لم يرأس الوفد ويتجشم عناء السفر إلا لكي يجلس بدوره على السدة المرقسية . وبعد مناقشة قصيرة أدرك يوحنا السبب في تردد الامبراطور ، وعند ذلك أقسم له أمام الجميع أنه لن يقبل الباباوية الاسكندرية حتى إذا أعلن المصريون رغبتهم في انتخابه . وبإزاء هذا القسم وافق زينون المصريون على ما طلبوا وأكد لهم أنه سيحترم شعورهم القومي الفياض في الاحتفاظ باستقلال كنيستهم وفي عدم التعرض لمن يختارون من الرعاة . فعاد المصريون إلى وطنهم وقد اطعمأنا إلى تركيدات الامبراطور .

١٣١- وفي سنة ٤٧٤ م . ش . توفي جاورجيوس الدخيل . فنسى يوحنا طلايا القسم الذي قطعه على نفسه علناً أمام الامبراطور ومن معه ، وسعى لدى أصحاب السلطة المدنية في الاسكندرية فحظى بمناصرتهم إياه ونادى بنفسه خليفة لمارمرقس . وزعم أن الدنيا دافنت له ، وبدأ بمباشرة مهامه الراعية بأن أرسل رسالة الشركة إلى أسقفى رومية والقسطنطينية . وبعث برسالة إلى أسقف رومية عن طريق البريد العادى ، أما رسالته إلى أسقف القسطنطينية فقد بعث بها إلى شخص له دالة خاصة في البلاط اسمه ايللوس ، ورجا منه أن يوصلها بنفسه كما رجا منه أن يشفع فيه لدى الامبراطور زينون . وقد شامت العناية الالهية أن يكون ايللوس متغيباً عن القسطنطينية حين وصلها مندوب يوحنا طلايا . فاحتفظ هذا المندوب بالرسالة بدلاً من أن يتقدم بها بنفسه إلى الأسقف القسطنطينى فوراً . وهكذا وصلت رسالة الشركة إلى أسقف رومية قبل أن تصل إلى أسقف القسطنطينية . وكان يجلس على كرسي العاصمة الشرقية الأسقف أكاكيرس ، فظن أن هذا التأخير لزمراً له من يوحنا طلايا وتميز

غضباً على هذا الرجل الذى أخطأ فى حقه ونصح الامبراطور زينون بأن يعيد إلى المصريين باباهم الشرعى - وهو الأنبا بطرس الثالث .

أما أسقف رومية فلم يكذب على رسالة يوحنا طلايا حتى بعث إلى أكاكىوس الأسقف وزينون الامبراطور برسالتين يهدى فيهما سروره لاعتلاء يوحنا طلايا للمدة الموقفية . وحين وصلت رسالة الأسقف الرومانى إلى القسطنطينية كان الامبراطور قد تفاهم مع أسقف عاصمته على وجوب ارجاع الأنبا بطرس الثالث إلى مقر رياسته . فكتب رداً على خطاب أسقف رومية قال له فيه : « إن هذا الانسان لا يليق لهذه الكرامة السامية لأنه حثث بيمينه » (١) وقد نفذ الامبراطور ما اتفق عليه مع أكاكىوس الأسقف القسطنطينى إذ قد أصدر أمره باعادة البابا الاسكندرى الشرعى من منفاه وإبعاد يوحنا طلايا عن الاسكندرية .

١٣٢- ثم اتصل الأسقف أكاكىوس بسفراء للبابا بطرس الثالث فى القسطنطينية وأعلمهم باستعداده لأن يعاود الشركة القدسية مع كنيسة الاسكندرية فبعث السفراء إلى باباهم بتقرير مفصل عن كل ما حدث .

١٣٣- وأحسن الأنبا بطرس الثالث بالفرح يفمر قلبه حين اطلع على تقرير سفرائه ، وتوقع أن يتم الصلح بين كنيسته وكنيسة القسطنطينية . إلا أن فرجه كان ممتزجاً بالحزن لأنه كان يقدر أهمية الوديعة التى لكتمه عليها رب المجد . لذلك تبادل مع أكاكىوس أربع عشرة رسالة (٢) قبل أن يتفق معه نهائياً . كتب منها الأنبا بطرس ثمانية أعجب ما فيها انسياقها المنطقى .

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيئى جـ ص ٤٤ - ٤٥ ، تاريخ الكنيسة للقبطية لمسى القمص ص ٣١٨ .

(٢) لقد ظلت نسخة من هذه الرسائل محفوظة بدير الأنبا مكارى الكبير بديرية شيهيت مدى قرون ، ولكنها ضاعت الآن بسبب الغزوات المتتالية التى قام بها قبائل البربر على هذا الدير العظيم . وفى سنة ١٩٦٤ قام قسم اللغة القبطية بالمعهد العالى للدراسات القبطية بنشر مجموعة من هذه الرسائل باللهجة القبطية البحريرية جمعها وراجعها الأستاذ شاكر باسيلوس ويأمل القسم أن ينشر الترجمة العربية لهذه الرسائل فى وقت قريب .

فقد كتب هذا البابا الجليل رسالتين مختاليتين طلب في أولهما تأكيداً من الأسقف أكاكيرس لكل ما جاء في تقرير سفراته - على أن يكون هذا التأكيد بخط يده .

١٢٤- أما للخطاب الثاني فقد تضمن توبيخاً لأكاكيرس على انحيازه للخليقيونيين . ونصحاً له بالقوة وقد ردّ عليه أكاكيرس فوراً معترفاً بخطيئته وختم خطابه بقوله : « أشرق علينا بدورك يا سراج الأرثوذكسية ، وأزّر السبيل لنا نحن الذين ضلوا عن الايمان القويم . كن لنا مثل استفانوس أول الشهداء (١) واحثف نحو مضطهدينك قائلاً لا تحسب لهم يارب هذه الخطية . فردّ عليه الأنبا بطرس الثالث ضارعاً إلى جميع القديسين أن يشفعوا فيه ، وجميع القوات السمائية أن يستمطروا عليه الرحمت . فما كاد أكاكيرس يطّلع على هذه الرسالة حتى امتلأ قلبه فرحاً وتهليلاً . ويحث باجابته على الفور إلى البابا الاسكندري قال له فيها : « أنى موقن الآن أنك بالحقيقة تلميذ السيد المسيح : فأنت تصحنا بأن نعمل الخير وتحثنا على أن نصلى بلا انقطاع . وقد عولنا على العمل بنصحتك فإن قبلنا في شركتك فإنك تعمل على توليد السلام ، وإن لم قبلنا في شركتك رفعت شكواى منك إلى منبر المسيح ربنا واستودعت الأمر بيدى محب البشر ويدى قدامتك . »

١٢٥- وتأمّل الأنبا بطرس الثالث هذه الرسالة ملياً وطلعت على قلبه موجة من الرفق والحنان نحو كاتبها . فبادر بالرد عليه قائلاً : لماذا تزيننى حزناً على حزن ؟ لقد تملقت بسيف الامبراطور ، ولما خلت نفسك فى مأمن من كل شر وقعت على الحرم (٢) . أما الآن ، فإذا تيقنت من الحقيقة ، فقد رأيت أن تجعنى مسئولاً عنك أمام منبر المسيح له المجد . فأعلم أننى لا أستطيع أن أهمل أمرك ولا أن أصمّ أذننى عن قبول توبتك ، ولو أنك قد جعلت نفسك غريباً عن كرامة الكهنوت بما فعلته فى مجمع خليقيون . ولا يحزنك ما أقوله لك لأنه الحق بعينه . وأنا لا يسعنى إلا أن أتمسك بما وهبني المسيح

(١) أعمال ٦ : ٦٠ .

(٢) إشارة إلى أن أكاكيرس كان ضمن الذين تكلموا على الأنبا ديسقورس فى خليقيون .

من حرية لا يستطيع أحد أن ينتزعها مني ولو قضى على حياتي لأنها حرية مجد أولا لله ، (١) .

١٣٦- وقد رد أكاكيرس على هذه الرسالة برسالة تطفح حرارة قال له فيها : كن أيها الأخ كموسى النبي وامتف معه إلى الله أن أغفر لقومى اثمهم وإلا فامحنى من كتابك ، (٢) . لأن هرون الكاهن الأعظم كان قد سقط فى الخطيئة مع الشعب وعبد العجل الممسيوك من حلى النساء ، وبصلوات موسى من أجل أخيه هرون أبرم الصلح بينه وبين العلى وظل محتفظاً برياسة الكهنوت حتى آخر حياته (٣) . «فأمسك بأيدينا كما فعل موسى ، وضع أرجلنا على الصخرة التى لا تزعزع والتى ليست سوى السيد المسيح كما قال بولس الرسول ، (٤) .

١٣٧- وكان الرد الثالث للأتبا بطرس يفيض محبة وحناناً ، فقد قال فيه : صل وصم بكل اجتهاد ، وأنا أصوم وأصلى معك ومن أجلك . فترفع كلانا تويتنا إلى الله (٥) باسم الكنيسة الجامعة . فرد عليه أكاكيرس بقوله : «الآن ينهلك قلبى لأنك قبلت أن تشاطرنى ما أحمل من أعباء ثقيلة . وأنى أشكر الله تعالى الذى هيا لى فرصة التوبة بصلاتك ومحنى القوة بأصوامك معى وعلى . وأنا فرح لأننى سأحظى بالدخول معك إلى الحضرة الالهية . فأرجو منك الآن أن ترسل إلينا بعض آباء الصحراء وبعض الطمانيين الموثوق بأرثوذكسيتهم لكى يرافقونا فى زيارة ، نزمع أن نقوم بها للإمبراطور لتحدث إليه بشأن إبرام الصلح بين جميع الكنائس . فنسعد بتثبيت السلام فى بيعة ملك السلام ، .

١٣٨- ولقد استجاب الأتبا بطرس الثالث إلى طلب الأسقف أكاكيرس

(١) رومية ٨ : ٢١ .

(٢) خروج ٣٢ : ٣٣ .

(٣) راجع تفاصيل هذه الحوادث فى خروج ٣٢ .

(٤) ١ كورنثوس ١٠ : ٤ .

(٥) مما تجدر الإشارة إليه هنا أن الأتبا بطرس الثالث قد وضع نفسه موضع الخاطى مع أنه لم يشاطر أكاكيرس (وبغیره من الأساقفة) خطية التوقيع على قرارات مجمع خلقيدون المشترم .

وسارع إلى انتخاب عدد من آباء الصحراء والأراخنة الأتقياء المشهود لهم بالايمان الراسخ . وأرسلهم ليحضروا المجمع الذى انعقد فى القسطنطينية . وقد أصدر هذا المجمع المنشور الموصوف بمنشور زينون الذى أعلنت فيه العقيدة الأرثوذكسية وعرف باسم « هينوتيكون » ، وهذا نصه : « بما أن الايمان الذى لا عيب فيه - هو وحده - يتجينا ، لذلك تقدم إلينا محبو الله رؤساء الأديرة ورهبان آخرون ملتصين بدموع العمل على اقرار السلام والألفة بين الكنائس المقدسة فننضم إلى بعضها للبعض الأجزاء التى باعد بينها عدو الخير منذ زمن طويل فكانت النتيجة الموقعة لهذا التبعاد أن قضى بعض المؤمنين من غير أن يتألموا سر الصبغة المقدسة (المعمودية) ، بينما اضطروا غيرهم إلى أن يعيشوا السنوات الطوال من غير أن يسعدوا بالنعمة المملوكة فى سر التناول . ولم يقتصر الأذى على حرمان المؤمنين من الأسرار المقدسة بل تعداه إلى نيلهم الشهادة : فسقط المئات منهم ولرقت الأرض بدمائهم بينما صعدت أوراخهم تستنجد بأبى المرحم . يضاف إلى هذا كله ما وقع من انقسام واضطهاد فى مختلف البلاد . لهذا كله نعلن أننا لن نقبل دستوراً غير الذى وضعه الثلاثمائة والثمانية عشر بمجمع نيقية العظيم والذى صادق عليه مجمع القسطنطينية فالمجمع الأفسسى برئاسة الأنبا كيرلس الكبير وقد حكموا جميعاً بادانة نسطور وأوطيخا . لذلك نقبل الاثنى عشر حرماً التى أصدرها محب الله كيرلس بابا كنيسة الاسكندرية الجامعة ، فنعترف بأن السيد المسيح هو ابن الله حقاً وهو المتأنس بالحقيقة وهو الذى نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء والدة الإله فهو واحد لا اثنان . ونحن نعلن أن ابن الله الذى صنع العجائب هو الذى تألم بالجسد بارادته وحده عنا كلنا . ونرفض رفضاً باتاً جميع الذين يفصلون طبيعته أو يمزجونها كنسطور كما نرفض الذين يقولون مع أوطيخا أنه تجسد تجسداً خيالياً - ذلك أن التجسد الحقيقى المنزه عن الخطية الذى من والدة الإله لم يزد على الابن شيئاً : فقد ظل الثالثون دائماً بعد تجسد الإله الكلمة . وأتينا نكتب لكم هذا لا لنعلن ايماناً جديداً ولكن لنبين أننا نحرم كل من يرى غير هذا الايمان الذى سلمه لنا الآباء سواء أكان ذلك فى خلقيدون أو فى غيره من المجامع . ونعلن حرماناً خاصة على نسطور وأوطيخا المبتدعين .

« فليتحد الجميع إذن في الكنيسة أمنا الروحية كأبناء متحابين لتعمرنا ببركاتنا فنفرح الملائكة كما نفرح أبونا الذي في المملوكات » (١) .

١٣٩- وهذه الرسالة الدورية الثانية كتبها أكاكبوس أسقف القسطنطينية ، وهي تتضمن نفس التعاليم التي تضمنتها الرسالة التي كتبها البابا تيموثيوس الثاني خليفة البابا ديسقورس بأمر الامبراطور باسولسكوس . إلا أن الأنبا تيموثيوس الذي كتب الرسالة الأولى اختلف مع الأسقف أكاكبوس في إصدار الحرم الطلى على خلقيدون في حين أن أكاكبوس جعل حكمه عاماً . غير أن كليهما اتفقا على حرم أوطيخا .

١٤٠- ولم يكن أكاكبوس نمطورياً ولا أوطاخياً ، ولكنه غص الطرف عن ذكر خلقيدون لأن قرارته لم تغز بالصيغة الجماعية الكنسية . وقد عد الكثيرون من الأساقفة طومس لاون أقرب إلى البدعة النسطورية (التي تفصل السيد المسيح إلى لتكين) منه إلى العقيدة الأرثوذكسية (التي تؤمن بالمسيح الواحد الذي اتحد لاهوته بناسوته بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير) . مما جعلهم يقارمونهم بكل ما أوتوا من قوة ، وقد كان هؤلاء الأساقفة يرون رأى أكاكبوس فقالوا بأن مجمع خلقيدون لا يعد مسكونياً إلا إذا طفر بمصادقة جميع الكنائس كما هو الحال مع المجامع الثلاثة التي انعقدت في نيقية والقسطنطينية وأفسس (٢) .

١٤١- ولما وصل رسل الأسقف أكاكبوس والامبراطور زينون يحملون « الهينوتيكون » قابلوا الأنبا بطرس الثالث وقدموه له ، ثم قصد الجميع إلى الكنيسة المرقسية حيث وقف البابا الاسكندري يخطب فيهم وفي الجماهير التي زحرت بهم الكنيسة ليفسر لهم ما جاء في هذا « الهينوتيكون » . ثم أوصى المؤمنين أن يصلوا لكي يحفظ الله الامبراطور الذي تم في عهده الوثام بين الكنائس .

ولما انتهى الأنبا بطرس الثالث من تفسير دقائق الايمان للشعب ومن

(١) تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمار سويريوس يعقوب توما ج٢ ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيبي ج٥ ص ٤٤ - ٤٦ .

رفع صلاة الشكر لله بعث برسالتين : احداهما إلى أسقف القسطنطينية وثانيتهما إلى أسقف اورشليم أعلمهما فيهما بكل ما جرى وباغتباطه لعودة الألفة والتفاهم بين الكنائس وقد رد عليه الأسقفان مطنين فرحهما أيضاً بهذا الود الذي تجدد . وقد خاطبه مار أكاكيوس بقوله : « إلى محب الله شريكنا وأخينا بطرس ... » ، بينما وجه إليه الأسقف الأورشليمي الخطاب بقوله : « إلى محب المسيح ورئيس الكهنة سيدى وأخى وشريكى بطرس ... » (١) .

١٤٢- وفى تلك الأثناء أرسل فيليكس أسقف رومية خطاباً إلى الامبراطور زينون رجا منه فيه أن يتوسط لدى البربر المغيرين على كنيسة أفريقيا ليحول دون اغتصابهم إياها . وقد حمل هذا الخطاب مندوبان كما حملتا رسالتين أخريين : واحدة إلى الامبراطور أيضاً ، وللثانية إلى الأسقف القسطنطيني يطلب إليهما أن يعطفا على يوحنا طلايا . ومن المستغرب أن فيليكس حذر مندوبيه من الاتصال بأكاكيوس على الرغم من أنه حملهما رسالة إليه .

١٤٣- وقبل وصول المندوبين الرومانيين إلى القسطنطينية علم الامبراطور من عيونه وأرصاده بالغرض من لئتابهما . فأمر بالقبض عليهما والزج بهما فى السجن ، كما أمر بانتزاع جميع الأوراق التى يحملانها . وبينما هما فى السجن بعث إليهما الامبراطور برسول خاص أقنعهما بالاتصال بالأسقف أكاكيوس . وعندما صدر الأمر بالافراج عنهما فاستأنفا رحلتهم إلى القسطنطينية وحين وصلها اتصلا على الفور بأسقفها كما اتصلا بمسؤولي البابا الأنبا بطرس الثالث . وكانت مقابلتهما للأسقف القسطنطيني ولمسؤولي البابا الاسكندري فى وضع النهار وعلى مرأى من أهالى القسطنطينية .

١٤٤- وثارت نائرة الأسقف فيليكس ، وزينت له العنجهية الرومانية أن يوقع الحرم على مندوبيه وعلى كل من أكاكيوس أسقف القسطنطينية وبطرس الثالث بابا الاسكندرية . ولم يكتف باصدار الحرم ضد هذين

(١) تاريخ الكنيسة السريانية ... ج٢ ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .

الحبرين بل انتدب مندوباً ثالثاً ليحمل حرمه هذا إليهما (فى القسطنطينية) .
على أن هذا المندوب الثالث وقع بدوره تحت تأثير رجال البلاط الامبراطورى
وانضم إلى حمار أكاكىوس والأنبا بطرس الثالث .

١٤٥- على أن الحرم لم يكن له من أثر إطلاقاً لأن كنيسة الاسكندرية
والقسطنطينية ظلتا تعدان البابا بطرس الثالث والأسقف أكاكىوس الحبرين
الشرعيين لهما ، كما عدتا فيليكس الأسقف الرومانى متدخلاً فيما ليس يعنيه .
كذلك ظلت الكنيسة على صلة للمودة التى جاهد كل من الأنبا بطرس ومار
أكاكىوس فى سبيل تدعيمها (١) .

١٤٦- ومن نعم الله تعالى على الشعب المصرى أن أتاح له فرصة هذا
السلام بعد كل ما قاسى من ضيق وعذاب ، فاطمأن قلبه وتمكن من أن يسعد
برعاية باباه الشرعى له رعاية مباشرة واسعة المدى . لأن الأنبا بطرس الثالث
قضى أيام باباويته فى تثبيت شعبه ، وتعزيز القلوب الكسيرة التى أصابها
الحزن من بطش الحكام ، وتشديد العزائم لمواجهة ما قد يصادفها من آلام فى
المستقبل فانقضت بقية أيامه فى العمل المتواصل فى هدوء واستقرار ، مسجحاً
الآب السماوى الذى هدأ العاصفة وأحل محلها السلام . وظل يدير دفة الكنيسة
مدى ثمانى سنين وثلاثة أشهر انتقل بعدها إلى أورشليم .

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيئى جيه ص ٤٨ - ٥١ ، على أنه مما يؤسف له
أنه لما تولى يوستينوس الحكم انصاع لهورميسداس أسقف رومية وثناسى الهيلوثيكون راجع
مقال مستنوت فى قاموس المير والأناب والمناصب والعقائد المسيحية جمعه سميت رويس
ونشره جون مورى فى لندن سنة ١٨٧٧ ج ١ ص ١٤ حيث جاء ما نصه : " The policy of
Acacius broke down When he was no longer able to animate it . In the course of
a few years, all for which he had laboured was undone . The (Henoticon) failed
to restore unity to the East, in 519 the emperor Justin submitted to Pope
Hormisdes (of Rome) , the condemnation of Acacius was recognised by the
Constantinopolitan Church " .

وترجمته ما يأتى : " أن سياسة أكاكىوس تداعت حين لم يستطع انصاف الحياة عليها فى مدى
سنوات قليلة تفكك كل ما كان قد جاهد لأجله ، وفشل الهيلوثيكون فى إعادة الوحدة إلى
الشرق . وفى سنة ٥١٩ انصاع الامبراطور يوستينوس لهورميسداس أسقف رومية وصادقت
الكنيسة القسطنطينية على إدانة أكاكىوس " .

وقت السلام : ١ - الأنبا أنطاسيوس الثانى

- (١٤٧) انتخاب الأنبا أنطاسيوس الثانى .
- (١٤٨) تبادل رسائل الشركة بين الأساقفة .
- (١٤٩) ابننا الامبراطور زينون وما جرى لهما .
- (١٥٠) وفاة زينون وتملك أنطاسيوس وخطاب اسقف رومسية للامبراطور الجليل .
- (١٥١) استمرار المصريين على عدم الاعتراف بظقيدين .
- (١٥٢) تقدير الامبراطور أنطاسيوس للمصريين .
- (١٥٣) نياحة الأنبا أنطاسيوس وانتخاب خليفته .
- (١٥٤) البابا الجديد يبحث على التمسك بالايمان القويم .
- (١٥٥) آخر الأديرة المصرية فى القريب .
- (١٥٦) وصول الرهبنة المصرية إلى ايرلندا .
- (١٥٧) نياحة البابا الاسكندري .
- (١٥٨) انتخاب يؤنس الثانى وتبادل رسائل الشركة .
- (١٥٩) الله تعالى يقيم كهنوثا ملكيا ومملكة مقدسة .
- (١٦٠) البابا الاسكندري وساويرس الانطاكى يتكاثبان .
- (١٦١) يعقوب السروجى يكتبهما .
- (١٦٢) همة الأنبا يؤنس الثانى فى تلبية واجباته الراعوية .
- (١٦٣) نياحته .
- (١٦٤) مزاييا سكرتير البابا المتنيح .
- (١٦٥) أسباب تردد الشعب فى انتخابه .
- (١٦٦) موقف المصريين من ديسقورس خلاصة لتاريخهم الحافل بالمجد .
- (١٦٧) تبادل رسائل الشركة .
- (١٦٨) البابا الاسكندري يشفع فى شعبه لدى الامبراطور .
- (١٦٩) نياحة الأنبا ديسقورس الثانى .
- (١٧٠) آخر السلام فى الفنون والعلوم .

١٤٧ - واستمر السلام ناشراً للويته إذ أقر الامبراطور حق المصريين فى استقلالهم الكسبى حسب وعده لياهم . فلما تليح الأديبا بطرس الثالث لم تعترض السلطات للزمنية أمر الانتخاب ولم تفرض دخيلاً على السدة المرقسية ، بل تركت للمصريين الفرصة ليزالوا حقهم الشرعى ، وبالتالي لم تتدخل حين اجتمعوا لانتدولوا معاً وينتخبوا من يرونه صالحاً لرعايتهم .

وبذلك تمكن الشعب من أن يجتمع للتشاور مع اكليروسه فيمن يجلس على السدة المرقسية الشاغرة . ومن مراحم الله على كنيسته أن اتفقت كلمة الجميع على انتخاب أنثاسيوس كاهن الكنيمة للمرقسية والمشرف على كنائس الاسكندرية ، لأنه كان من المجاهدين للروحيين المبرزين حتى لقد كانت قدسية حياته مضرباً للأمثال فكان هيكلاً مكرساً للروح القدس حقاً (١) . وتمت رسامته فأصبح الخليفة الثامن والعشرين للقديس مرقس الرسول سنة ٤٨١م ش .

١٤٨- ولقد رأى الأنبا أنثاسيوس الثاني أن يستعمل أعماله البابوية بكتابة رسائل الشركة إلى الأساقفة الذين وقعوا قد على الرسالة الدورية التي كتبها الأنبا تيموثيوس في عهد الامبراطور باسيلسكوس والتي تدعمت بالهينوتيكون الذى نشره الامبراطور زينون على الأساقفة . وحين وصلت رسالة الأنبا أنثاسيوس الثانى إلى هؤلاء الأساقفة ردوا عليه جميعاً مقدمين إليه تعزينهم فى فقد الأنبا بطرس الثالث وتهنئتهم له بالجلوس على كرسي مارمرقس الرسول الشهيد والبشير وموطنين صداقتهم فى وحدة الايمان .

١٤٩- وكان للامبراطور زينون لبنتان : اخفت احدهما فجأة ولم يستطع أحد أن يعثر عليها برغم البحث المتواصل الذى قام به رجاله . وحقيقة الأمر أنها كانت قد تخفت فى زى الرجال وركبت مركباً إلى الاسكندرية . ومن هناك قصدت إلى برية شيهيت حيث قادتها العذبة الإلهية إلى ناسك شيخ وقور اسمه الأنبا بييموا اعترفت له بحقيقة أمرها . فحفظ سرها وأرشدھا إلى مغارة وسط الصحراء عاشت فيها اثنتى عشرة سنة لا يعرف أحد عنها غير الناسك بييموا الذى كان يفتقدها من حين إلى حين . ثم اعتادت بعد ذلك أن تحضر الصلوات مع الرهبان . ولما لم تكبت لها لحية ولا شارب ترهموا أنها خصى وكانوا يدعونها « هيلاريون الخصى » . أما البنت الثانية

(١) السنكسار الأنثوبي ترجمه إلى الإنجليزية واليس بروج ج١ ص ٧٦ حيث يقول ما نصه : " for the holiness of his life was proverbial, he contended splendidly in the way of God, and the Holy Spirit dwelt in him " .

للامبراطور فقد انتابها مرض حار ففى علاجه الأطباء . وكان صويت الآباء المصريين قد طبق الآفاق ، فرأى زينون أن خير سبيل لشفائها هو أن يرسلها إلى هؤلاء الآباء . وما أن انتهى إلى هذا للرأى حتى هبأ لابنته مركباً ملكياً معبداً بكل ما تحتاج إليه الأميرة ، وأرسل معها عدداً من الحرس والخدم وقد حملها خطافاً إلى الآباء قتل لهم فيه : « لقد رزقنى الله تعالى ابنتين : ضاعت لهما منى فلت أدري ما أصابها ولا ما مصيرها . بينما أصيبت الثانية بمرض عضال . فأرجوا أن تنكروا بالصلاة عليها ليسمع الله لكم ويشفيها بشفاعتكم » . فلما وصلت الأميرة إلى شبهيت أخذ للنسك يصلون لأجلها بحرارة عدة أيام . غير أن صلواتهم لم تلت بالفائدة للمرجوة . وعند ذلك نادوا على الراهب هيلاريون وملموا له الأميرة ليصرخ من أجلها . وبالطبع عرف : هيلاريون ، شقيقته على الفور بينما هى لم تعرفه . فأخذها إلى مغارته وركع إلى جانب السرير الذى أرقعها عليه وأخذ يصلى بحرارة ودموع ثم قبلها فى حنان . فلم تلبث الأميرة أن قامت معافاة منشحة الصدر . فاستصحبها : هيلاريون ، إلى النسك قللاً : « إن الأميرة قد برئت بصلواتكم » . فلما عادت إلى القسطنطينية فى صحة وعافية فرح بها أبواها فرحاً عظيماً واستفسروا منها عما حدث فسردت لهم كل ما جرى من أمر الراهب هيلاريون . وعندما أرسل الامبراطور زينون فى طلب هذا الراهب . فلما مثل بين يديه استحلفه هو والامبراطورة على الاتجيل أن يدعاه يعود إلى شبهيت فى أمان إن هو اعترف لهما بسرهما فلما أمته الامبراطور وزوجته كشف لهما عن شخصيته . ففرح كلاهما إذ عرفا أن ابنتهما قد بلغت هذه الدرجة من القداسة بعد أن ظنفاها ماتت . فأقاما الزينات حتى بدت القسطنطينية فى زينة الأفراح عدة أيام ، عادت بعدها الأميرة ليلاريا (الراهب هيلاريون) إلى شبهيت حيث قضت بقية حياتها .

ولقد أراد الامبراطور زينون أن يعبر عن اعترافه بفضل الآباء الذين كرسوا حياتهم لله ، فأصدر أمره بترميم جميع كنائس الأديرة الموجودة فى تلك البرية حتى منطقة مريوط (المتاخمة للاسكندرية) . كذلك أمر بأن يصرف لآباء البرارى المصرية سنوياً كل ما يحتاجون إليه من قمح وزيت .

وقد ظلت هذه الأوامر نافذة للمفعول طيلة حياة الامبراطور زبدون (١) .

١٥٠- وقد توفي هذا الامبراطور سنة ٤٨٣م. ش (٢) وخلفه أثناسيوس (٣) على عرش القسطنطينية ولم تمش مدة وجيزة على اعتلائه العرش حتى جاءه مندوبان غربيان يحملان إليه رسالة من أسقف رومية . وقد تضمنت هذه الرسالة تهلة للامبراطور بالعرش كما تضمنت رجاء الأسقف للروماني من الامبراطور أن يصدر منشوراً يلغى به منشور زبدون (الذى هو للهنوتيكون) بحجة أن المنشور المطلوب سيعيد كنيسة الاسكندرية إلى للشركة مع الكنيسة الغربية .

ولما وصل هذان المندوبان إلى القسطنطينية رأى الامبراطور أن خير وسيلة للوصول إلى الحل للصحيح هو أن يجمع بينهما وبين سفراء الأنبا أثناسيوس الثانى فى العاصمة الشرقية . وكان البابا الاسكندرى قد استشف للفرص الذى يهدف إليه الأسقف للروماني من رسالته إلى الامبراطور فزود سفراءه فى القسطنطينية بمذكرة تفصيلية تضمنت وجهة نظر الكنيسة المصرية فى العقيدة . وقد أوضح البابا الاسكندرى فى هذه المذكرة أن البابا على انشقاق الكنيسة هو طومس لاون الذى جعل من المسيح الواحد مسيحين منفصلين . وقد رأى البابا أثناسيوس الثانى أن يبين فى المذكرة عيبها ليمان كنيسه وموقفها بازاء كل من نسطور وأوطيخا فأعلن فيها حرمة لكليهما .

١٥١- ومع أن الأنبا أثناسيوس الثانى كان صريحاً كل الصراحة فى التقرير الذى بعث به إلى سفرله إلا أنه لم يصل إلى نتيجة لأن الغربيين كانوا لا يريدون إلا أن يقيموا المصريين على الاعتراف بمجمع خلقيدون

(١) شرحه ج٢ ص ٥٢٧ - ٥٣٠ ، للصلدى الأمين ج١ ص ٣٠٧ - ٣٠٩ .

(٢) أو سنة ٤٩١ ميلادية غربية .

(٣) يرى بعض المؤرخين أن الامبراطور أثناسيوس لم يقبل العرش إلا بعد نياحة الأنبا أثناسيوس الثانى . على أن جدول الباباوات الملحق بدليل المتحف القبطى لمقرس سميكة ج٢ ص ١٦١ - ١٦٨ يسجل أن هذا الامبراطور بنا حكمه فى بابلية الأنبا أثناسيوس الثانى . ولما كان هذا الجدول هو المرجع الذى اعتمدنا عليه فى تسلسل التاريخ فى هذا الكتاب فقد ذكرنا نياً اعتلاء أثناسيوس العرش فى هذا المهد .

الذى لعنوه مراراً وتكراراً - إذ قد جدد حرمة كل بايولات الاسكندرية الذين تناقروا من بعد الأتيا ديمتريوس على السدة المرقسية (١) - على أن المصريين ظلوا على اصرارهم ، غير معترفين بهذا المجمع المشكوك الذى لم تجن منه الكنيسة غير أوحم العواقب ، ومازالت كنيسة القوقية تحذ هذا المجمع مجسماً لصياً حتى اليوم .

ومن نعمة الله أن الامبراطور أنستاسيوس كان محباً للسلام ، خلتاً الله ، فلم يرد أن يوسع الخرق بالخرق فى مجالات لا نهاية لها وإن تولى إلا إلى اتساع شقة الخلاف بين الكنائس ولكونه محباً للسلام لم ينصر الخلقيدونيين كما أنه لم ينصر خصوم الخلقيدونى . ولم يكن هناك الحزبان وحيدى يازاء خلقيدون ، بل كان هناك فريق ثالث فى جيرة من أمره لا يدعى أيوافى على قرارات هذا المجمع لم يعرفها . وهذا الفريق الثالث حتى بنفس المصلحة التى عامل بها الامبراطور للفريقين الآخرين وهى سياسة الحياد : فترك الحرية لكل فريق ليعيش وفق عقيدته التى يدين لها بالقولاء (٢) . وفريق هذا فقد رفض الامبراطور طلب الأسقف الروماني ولم يصدر منشوراً ينقض به منشور زينون إذ لم يجد لامل هذا المنشور من مبرر .

١٥٢- ولم يمن أنستاسيوس بهذه الفضائل فحسب بل أنه أقرد للمصريين فى قلبه مكاناً خاصاً . ذلك أنه كان إبان حكم زينون قد اضطر إلى الفرار لأن هذا الامبراطور كان يريد قتله - ولجأ أنستاسيوس إلى مصر عندما فر هارباً من وجه الامبراطور الحائق عليه . فكانت مصرنا الحبيبة أشبه بالأم الرؤوم له - شأنها معه شأنها مع جميع الذين لجأوا إليها فى مختلف العصور طالبين فى رحابها الأمن والاستقرار . ووجد أنستاسيوس من المصريين كل لكرام ورعاية حتى لقد قامت بيته وبين العدد الكبير منهم روابط الألفة والصدقة فأحبهم وأحبوه . وفى ذات يوم استنصحه أحد المصريين لزيارة ناسك متوحد ، فكتباً له هذا الناسك بأنه سيجلس يوماً ما

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للترغيبندريت جيلي ج٥ ص ٥٨ .

(٢) شرحه ج٥ ص ٥٣ .

على عرش القسطنطينية . فلما تحققت هذه النبوة وتسلم أنستاسيوس مقاليد الامبراطورية للشرقية ، ذكر ذلك الذى تكبأ له بالكريهة التى سيدأها فأمر ببناء كنيسة عظيمة فوق الصومعة التى كان يسكنها . وقد جعل الامبراطور جميع أواني هذه الكنيسة من الذهب الخالص اعترافاً منه بالجميل . كذلك بعث بالهدايا النفيسة إلى جميع المصريين الذين أكرموه فى شدته (١) .

ولما كان الامبراطور أنستاسيوس على هذه الخصال فقد استمتع المصريون فى عهده بالسلام ، وعاشوا مطمئنين مستقرين فى ظل باباهم الماهر على راحتهم وعلى تدعيم إيمانهم الأرثوذكسى بطويمه وارشاده .

على أن باباوية الأنبا أنطاسيوس الثانى لم تدم غير سبع سنين إذ قد انتقل إلى عالم النور فى سنة ٤٨٨ م . ش .



ب- الأنبا يونس الأول

١٥٣- وكان يعيش فى دير الأنبا مكارى الكبير راهب اسمه يونس ، قضى السنين الطوال فى الجهاد الروحى فمطر الوادى بسيرته . لذلك اتجهت إليه الأبصار عند التداول فيمن يخلف البابا الراحل . ومن ثم قصد وفد من الأساقفة والأرارنة إلى برية شيهيت لمقابلته والاعراب له عن رغبتهم فى انتخابه . فامتنع فى أول الأمر لزمه فى هذه الحياة الدنيا . ولكن لما وجد اصرار الذين جاءوا إليه قال فى نفسه : « من يدرينى إن كان الحاج هؤلاء الرجال وحيًا من الروح القدس ؟ فيجب على أن أحذر لئلا أكون معاندا لله . كما يجب أن أقبل هذه المسئولية العظمى بكل اتضاع وبغير تردد » . وما أن ساورته هذه الخواطر حتى أعلنها لمن جاءوا إليه مؤكداً لهم أنها كرامة لا يستحقها ولكنه يقبلها إذ يشعر أنها ضرورة موضوعة عليه من الله جل اسمه ويعاهددهم بأنه سيجاهد فى سبيلهم بكل ما أوتى من قوة . وفرح

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمسى القس من ٣٦١ - ٣٦٢ .

ملندور الشعب حين سمعوا هذه الكلمات ، واستصحبوا لداكس يؤنس معهم إلى الاسكندرية حيث تمت رسامته في حفل رائع باسم يؤنس الأول البابا الاسكندري التاسع والعشرين .

١٥٤- وظل الأنبا يؤنس الأول على وفائه للعهد الذى قطعه على نفسه أمام الأساقفة والأراخنة الذين جاءوه فى شبهيت إذ أن أول ما قام به بعد أن تسلم مقاليد الرياسة كان توجيه الشعب إلى وجوب التمسك بالايمان القويم . وكان السلام مستتباً لأن الامبراطور أنستاسيوس كان هو أيضاً وفياً لأصدقائه المصريين .

١٥٥- وإن حياة الأنبا يؤنس الأول لدليل من الأدلة الساطعة على أن الأديرة المصرية كانت إذ ذاك تشعّ النضياء بنشرها نور القداسة والعلم بين الجميع . وكان نورها وهاجاً إلى حد أن الغربيين الذين كانوا يرغبون فى الوقوف على كمال الحياة النسيكية كانوا يأتون إلى بلادنا المحبوبة ويزورون صحاريها التى تقدست بأنفاس التماسك من أبنائها البررة ليتعلموا منهم القوانين الأصولية للرهبنة . بل أن كنيسة غالبا (فرنسا) مدينة بمدرستها الرهبانيتين المعروفتين باسم ليرين وسان فيكتور إلى الشرق وبخاصة إلى مصر ، إذ كان لكاسيانوس اليد الطولى فى تأسيسهما بعد أن عاد إلى بلاده من الرحلة التى دامت ستين عدة فى صحارى مصر مع رهبانها . ولقد تخرج من ليرين وسان فيكتور العدد الوفير من قادة الفكر والروح فى الغرب . وقد جاهد هؤلاء القادة لنشر الحياة النسيكية فى مختلف البلاد ، فكان - كلما رسم أحدهم أسقفاً على ايباشية ما ينشئ بها ديراً ملحقاً بكنيسته ويسيره وفقاً للنظام الذى اتبعه فى ليرين وسان فيكتور ^(١) . فانتسعت بذلك دائرة الأثر الروحي ، ونمت حبة الخردل إلى شجرة عظيمة تتأوى فى أغصانها الطيور ^(٢) . وكان هؤلاء الرهبان الغربيون يقرأون ضمن الكتب الموضوعه عليهم سيرة الأنبا أنطوني أبى الرهبان التى كتبها تلميذه العظيم الأنبا أنثاسيوس الرسول . وإن من بطالع تاريخ هذه الرهبانات ليدرك مدى الأثر

(١) أنظر الفصل الخامس بكاسيانوس فى الجزء الأول لهذا الكتاب .

(٢) متى ١٣ : ٣٦ - ٣٣ .

الذى أهدقته مصر في كنائس الغرب وبخاصة في كنيسة غاليا . فعقّ القول بأن النور الذى سطع من هذه الكنيسة فجعلها المركز الرئيسى لكل الجهود الفكرية في الغرب حتى القرن السادس إنما كان تمكّماً لتلك النور الذى سرى من ولدينا الحبيب سريان أشعة الشمس على الكون (١) .



غرفة الطعام في دير الأدبا مكارى الكبير

١٥٦- وبين الرهبان الذين تخرجوا من المدرسة الديرية في سان ليرين القديس باتريك الذى حمل الشعلة إلى أيرلندا حيث قامت الأديرة طبقاً للنظام المصرى . ويجدر بنا - نحن أبناء مصر - أن نذكر عبارة وردت في فناس أولنجوس مؤداها أن سبعة من الرهبان المصريين مدفونون في ديزوت أوليدا بمقاطعة دوينجال (بايرلندا) ، كما أن هناك أدلة على أن الرهبنة المصرية كانت متبعة في جلاستبرى (بانجلترا) . ولم ينس الرهبان في العصور الأولى أن الرهبنة نشأت في مصر فكانوا على صلة مستديمة بهذه البلاد (التي هي بلادنا الحبيبة) إذ عثروا أرضاً مقدسة ثانية . ولهذا السبب نجد الكثير من الشبه بين الزخرفة في المخطوطات والحفر على الحجارة في

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) لأرشميتريوت جيتى جيه من ٦١ و ٨٠ - ٨١ .

ايرلندا وبينها في مصر (١) . بل أن هناك شعباً كبيراً بين القديس ايرلندي والقديس القبطي (٢) . وكل هذه الحقائق تبين لنا أن للشحلة المقدسة التي حملها الآباء المصريون لم تنتقل منهم إلى أبنائهم فحسب ولكنها انتقلت منهم إلى أبناء الأم للبعيدة أيضاً .

١٥٧- ولقد ازدهرت كنيسة الاسكندرية في عهد الأنبا يؤنس الأول وعاد نورها إلى بهائه الأول لأن النفوس اطمأنت وهذلت القلوب ، ولم يعد هناك ما يزعج الخواطر إذ كان الامبراطور أوستاسيوس مسالماً . فانصرف الأنبا يؤنس الأول - خلال هذه السنين المملوكة أمداً - إلى أعماله القراعية وكتبه فيفيض غبطة ونشراً . ولم يكثر صفو بابلويته غير اللواء الذي تنتشر في الاسكندرية وقمضى على الكثيرين من أبنائه . ولقد دأب هذا البابا ليقظ على نفقة شعبه أثناء نقضى اللواء ليواسي المتألمين ويمزى الحزلى .

وفي سنة ٤٩٧ م . ش . انضم إلى أبنائه بعد أن وعى شعبه بحكمة وعدل مدة تناهز ثمانى سنين .



(١) من المثير أن حين كنت في فيلادلفيا (ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة) خلال السنة الدراسية سنة ١٩٥٢ - سنة ١٩٥٣ ، ذهبت ذات يوم مع صديقة إلى الكنيسة البريسبيتيرية الأولى (First Presbyterian Church) . وما أن وصلتها حتى وجدت فرق مدخلها صغيراً محاطاً بنقوش على الطريقة القبطية تماماً فالتفت صديقتي : : من أين جئكم بهذه النقوش ؟ أجابت : : لست أدري . وكل ما أنويه هو أن هذه الكنيسة بنيت منذ سبعين سنة ، وأن المهندس الذي أشرف على بنائها وزخرفتها ايرلندي . : : قلت لها : : حقاً لا ريب في أن المهندس ايرلندي هو السبب في أن هذه النقوش قبطية .

(٢) : التحت والرسم في الفن القبطي ، (بالانجليزية) مقال لكوستيجيان نشره في مجلة محبي الفنون القبطية (الآثار حالياً) المجلد الثالث (سنة ١٩٣٧) ص ٥٦ - ٥٧ ، القطع في ركب الحضارة الملمية ، مقال للدكتور مراد كامل نشره في مجلة مارميثا العدد الخامس (سنة ١٩٥٤) ص ١٥ .

ج- الأنبا يونس الثاني

١٥٨- فلما ترمكت الكنيسة اجتمع الاكليروس والشعب للتشاور معاً كالمعتاد . فوقع اختيارهم على يونس الراهب المتوحد الذى نشأ منذ نعومة أظفاره على الفضائل المسيحية وتشبعت روحه بفعاليتها إلى حد دفعه إلى أن يهجر العالم ليعيش فى صومعة نائية لعله يبلغ الكمال المسيحى فيظفر برضى الله . على أن عزلته فى المغارة النائية لم تكن كافية لأن تجعله فى معزل عن العالم ، فقد ذاع صيته حتى بلغ المدن الآهلة بالسكان . وقد اجتذبت شهرته العدد الوفير من الناس الذين سارعوا إليه ليدالوا بركته وليجدوا عنده العزاء الروحى . فلما انتقل الأنبا يونس الأول إلى عالم النور قصد إليه مندوبو الشعب ليعرضوا عليه كرامة الرئاسة العليا فى الكرازة المرقسية . وكان يونس كسلفه شغوفاً بالعزلة زاهداً فى المظاهر للعالمية . إلا أن اجماع الاكليروس والشعب أرغمه على قبول هذه للكرامة العظمى ، وبذلك أصبح البابا الاسكندرى الثلاثين سنة ٢١٣ ش (سنة ٤٩٧ م . ش .) باسم يونس الثانى .

وكان أول ما قام به البابا الجديد بعد رسامته هو كتابة رسالة الشركة إلى اخوته الأساقفة الشرقيين الذين اصطلح معهم سلفاؤه بعد القطيعة التى نجمت عن خلقيدون . وكان أسقف القسطنطينية وأنطاكية ضمن هؤلاء الأساقفة الذين كتب لهم وجاءه ردهما .

١٥٩- وفى تلك الفترة أظهر الله عجائبه فأقام لنفسه كهنوتاً ملكياً وأمة مقدسة (١) . وكان الكهنوت الملكى يشمل ساويرس أسقف أنطاكية ويعقوب أسقف سروج (٢) (ما بين الدهرين) ، والعدد العديد من كواكب البرارى

(١) ١ بطرس ٢ : ٩ .

(٢) ويوصف بأنه ، قنطرة الروح القدس ، راجع ما أورده عنه مارسيريرس يعقوب توما فى كتابه : تاريخ الكنيسة الميريانية الأنطاكية ، ج ٢ ص ٢٥٥ - ٢٥٧ ، ٢٧٥ - ٢٧٨ و ٢٩٧ - ٣٠١ ولا يفوتنا أن نذكر أن لهذا الأسقف ميامر رائعة تقال يوم الجمعة العظيمة ، وقد درجت كنيسنا على قراءتها فى هذا اليوم المجيد .

المصرية وعلى رأسهم جميعاً البابا يونس الثاني الذى اشتهر إلى جانب تقواه بتضلعه فى العلم والفلسفة .

١٦٠- وقد رد ساويرس الأنطاكي على رسالة للشركة التى بحث بها الأنبا يونس الثاني ، أعلن له فيها ايمان كنيسة أنطاكية ، وأكد له فى هذه الرسالة تمسكه بتعاليم الآباء العظام : أناسيوس وكيرلس وديسقورس .

وعندما تمسلم البابا يونس الثاني الرد على رسالة الشركة من أخيه ساويرس أسقف أنطاكية قبلها بفرح ، ومجد الله الذى جمع شمل الرعية فى حظيرة الكنيسة الواحدة . ويحث برسالة ثانية إلى الأسقف الأنطاكي تفيض بنعمة الايمان . وقد بين فيها هو أيضاً وحدة الايمان التى تربط بين الكليستين : ويخلص هذا الايمان فى وحدة للجوهر الإلهى المعلن لنا فى ثلاثة أقانيم ، وتجسد الابن الكلمة الذى تعد لاهوته بذاتوته بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير (١) .

١٦١- ولقد كانت هذه المراسلات أكبر عامل على توثيق روابط المحبة بين هذين الحبرين وكنيستيهما ، ولم يمض غير وقت قليل على تكاتبهما حتى شاركهما يعقوب السروجي الرسائل فشاطرهما للمحبة الأخوية بدوره .

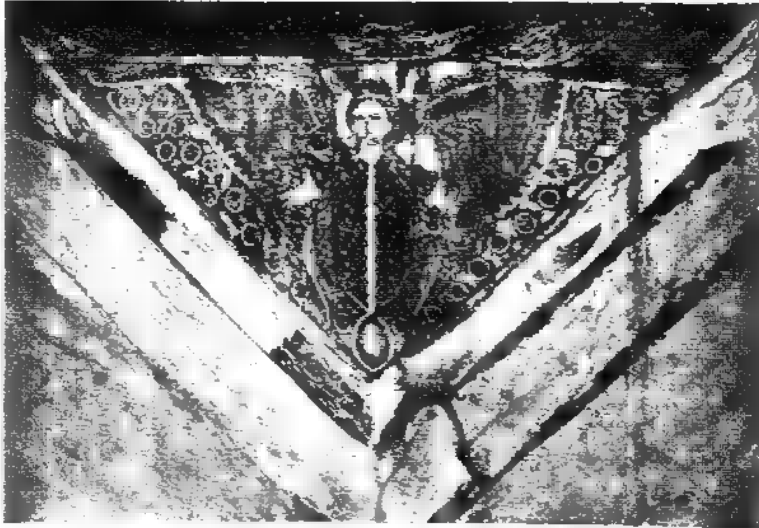
١٦٢- ومن مميزات الأنبا يونس الثاني سهره على رعيته فلم يتوان عن كتابة الرسائل التى توضح الايمان وعلى الأخص الرسائل الفصحية التى كان يعين فيها موعد عيد القيامة للمجيئة لبقية الأساقفة عملاً بقرار مجمع نيقية وجرياً على تقاليد أسلافه الأمجاد .

على أن للكتابة والتعليم والارشاد لم تكن بالعمل الوحيد الذى انصرف إليه هذا البابا الجليل لأنه وجه عنايته الخاصة إلى إعادة بناء الكنائس التى كان أنصار خلقيدون قد هدموها أو أصابوها بتصدع وإلى تزويدها بالأواني والملابس الكهنوتية التى كان قد اختلسها الأساقفة الدخلاء . فازداد تعلق

(١) التفسير الأنثوي ترجمه إلى الإنجليزية واليس بودج ج٢ ص ٩٣٧ .

لشعب يراعيه الأول حين رأى منه كل هذه العناية ببناء للنفوس وبناء بيوت
العبادة .

١٦٣- وبعد أن قضى الأتبا يؤنس الثاني إحدى عشرة سنة في قيادة
الكنيسة قيادة رشيدة مضيئة بالنعمة الالهية دخل إلى فرح سيده بسلام .



صورة ملونة تمثل أحد الحيوانات غير المتجسدة المحيطة بالعرش
السماوي ، استلهمها الفنان من وصف يوحنا اللاهوتي
في سفر الرؤيا - وهي في دير الأدبا مكتري الكبير

د- الأنبا ديسقورس الثاني

١٦٤- وكان سكرتير البابا الملقب اسمه ديسقورس ، وقد اشتهر بالاستقامة والولاء للتمم للإيمان الأرثوذكسي حتى عذبه الشعب رجلاً كاملاً ومحاسياً مناضلاً وأحبه ووثق به ومما زاد القلوب تعلقاً به الاسم الذي كان يحمله : لأن كلمة « ديسقورس » كانت تستثير كولمن للشجن لدى المصريين وترسم في مخيلاتهم صورة للبطلانة النادرة التي انتصف بها البابا الاسكندري الخامس والعشرون ، وهو ديسقورس الأول الشهيد بخور سفك دم الذي رفض في عزة وإباء أن يتفكر لايامانه لرضاء للامبراطور الفاشم عملاً بالمبدأ الرسولي : ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس ، (١) .

١٦٥- وكان الامبراطور أنستاسيوس يحب ديسقورس هذا لأنه كان يحرفه شخصياً ، وأعلن عن تقديره له في أكثر من مناسبة . وحين خلت السدة المرقسية أبدى رغبته في أن يراه جالساً عليها . ولما كان المصريون قد ذاقوا الأهوال من أباطرة القسطنطينية ، فقد وقفوا مترددين في انتخاب ديسقورس حين سمعوا برغبة الامبراطور إذ خامرهم الشك في أن هذا الامبراطور قد يكون قد تناسى للعهد بدوره كما فعل كثيرون من سلفائه ، فمكنت له النفس في أن يتدخل لفرض من يريده أسقفاً على الاسكندرية . ويرجع سبب ترددهم إلى أنهم كانوا منذ عهد للمجمع الخلقيدوني المشنوم يأبون كل تدخل أجنبي في شؤونهم الدينية . ويرجع الفضل في ذلك إلى الأنبا شنودة وأقرانه من أساطين للكنيسة القبطية في العصور الرسولية - لأنهم أيقظوا الوعي القومي وحركوا المشاعر الوطنية . فإن الاكليروس المصري - ومعهم الاكليروس الشرقي - ظلوا جميعاً على مدى الأجيال المحور الذي يدور حوله الشعور القومي القاصي بتحريم انحياز للعنق للغير الأجنبي - فضنكوا الاضطهاد والموت على التفريط في استقلالهم الكنسي - (٢) جميع

(١) أعمال ٥ : ٢٩ .

(٢) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرثوذكسيين جيني جيه ص ٦٠١ حيث يقول :

" Le clergé oriental a eu la gloire de rester toujours le centre et le soutien du sentiment national " .

هذه الخواطر جاشت بها نفوس المصريين يوم أن كانوا يتشاورون في انتخاب ديسقورس ، ولم يترددوا في أن يعلنوه بما يخشونه من رضا الامبراطور عنه .

١٦٦- وإن موقف المصريين من الكاهن ديسقورس وموقفه منهم يؤلف صفحة من الصفحات المجيدة في تاريخنا للملئ بالأمجاد . ذلك أن المصريين صارحوا بمخاوفهم وأعلنوا له أنهم يعرفون تمام المعرفة أن الامبراطور أنستاسيوس صديق لهم ولكن قد يفسح سكرتهم عن تدخله في أمورهم : قد يفسح المجال أمام غيره من الأباطرة الذين يكونون خصوماً لهم في الرأي للتدخل في شئونهم الكنسية ومن الأدلة على العظمة للروحية التي اتصف بها ديسقورس أنه شاطرهم كل هذه المشاعر وأعلن لهم بأنه يرفض تدخل الامبراطور في انتخاب من يخلف القديس مرقس وأنه يدع هذا الأمر بين أيديهم - فلهم أن ينتخبوه أو أن ينتخبوا سواء لأن الانتخاب من حقهم وحدهم . وكان ديسقورس صادقاً كل الصدق في ما قاله لمواطنيه فظل ساكناً منصرفاً إلى عمله الكهنوتي لا يقابل أحداً من الحكام ولا يحارل التأثير في أي ناخب . وبعد أن انقضت عدة شهور على هذا الحال تأكد المصريون من خلالها حسن نية ديسقورس ولخلاصه لوطنا . وأعجبوا بموقفه فانتخبوه خليفة للأبنا يونس الثاني فأصبح ديسقورس الثاني البابا الاسكندري الحادي والثلاثين سنة ٢٢٤م . (سنة ٥٠٨ م) .

١٦٧- وما أن اعلى الكرسي للمرقسي حتى جدد للشركة مع ساويرس أسقف أنطاكية وغيره من الأساقفة الأرثوذكسيين . فتلقى منهم الرسائل المزيدة للايمان للقيام وللناطقة باخلاصهم له وبفرحهم لأنه نال هذه التكرامة السامية فرد عليهم برسالة ملؤها المحبة والاخلاص .

١٦٨- وحدث أن أثار بعض المضربين فتنة في الاسكندرية أغضبت الامبراطور أنستاسيوس فخافوا سوء العقوبة ورجوا من باباها أن يشفع فيهم لكي يدفع عنهم أذى الامبراطور فأعلن لهم عن اغتياله بخمتمهم وقصد إلى الامبراطور لمساعدته . وقد نجح في مهمته إذ قد أعلن الامبراطور صفحه عن المشاغبين .

١٦٩- ومما يؤسف له أن أيام البابا ديستورس الثاني كانت قصيرة : فلم تتجاوز باباويته الستين انضم بعدها إلى أسلافه تاركاً شعبه يبكىه ويتألم من أن راعياً روحياً مثله لتنتقل إلى عالم النور بهذه السرعة (١) .

١٧٠- ومن مراحم الله تعالى أن دام السلام مدى باباوية خمسة من خلفاء مارمرقس : أى من عهد الأنبا بطرس الثالث البابا الـ ٢٧٠ . ومن أبرز ما يتميز به السلام اطمئنان القلوب لشعورها بالاستقرار الذى هو ضرورة لازمة لكل إنتاج علمى وفنى . ولما كانت مصر ملتقى الشعوب فقد تلاقت فيها الفنون اليونانية والفارسية والهندية (٢) وغيرها من فنون الأمم المجمعة فى بلادنا . على أن المصريين الذين استطاعوا أن يستوعبوا الفلسفات الغربية ويتمثلوها ثم يظلوا على طابعهم المصرى الأصيل قد استطاعوا أيضاً أن يستوعبوا الفنون الأجنبية المتلاقية على أرضهم وأن يمزجوها ويؤلفوا منها وحدة جديدة من ابتكارهم الخاص . لأن الفنان المصرى حين أراد أن يعبر عن خياله وعن المؤثرات التى انعكست عن نفسه فاستجاب لها ، عبر عنها جميعاً بما ابتكره من فن ولم يعبر عنها بفنٍ نقله عن غيره . لأن الناقل ليس فناناً إذ هو لا يعكس لنفعالاته ووجداناته انعكاساً تلقائياً . أما الفنان فيبتكر لأنه يهدف إلى التعبير عما يخالجه نفسه من خواطر وهواجس . ولقد استعمل المصريون شتى الوسائل للتعبير عن مشاعرهم ووجداناتهم كالرسم والنحت والنقش على النحاس والجلد . وكثيراً ما كان يحلو للفنان أن يستعين بأكثر من وسيلة واحدة للتعبير عن وجدان واحد كأن ينحت صورة ويلونها . ولا تزال بقايا الفن الذى أنتجه هذا القرن الخامس تشهد للعالم برقة مشاعر الفنانين المصريين ودقة تعبيراتهم ويندع انتاجهم .

والفن القبطى يستهدف التعبير عن الأفكار الروحية . وقد يكون هذا

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمسى القمص من ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٢) من الطريف أنه أقيم سنة ١٩٥٦ معرض للفن الهندى تحت إشراف صوبيرو تانور (حفيد الشاعر لهندي المعروف) . وكان من بين المعروضات حزام من القطيفة المرباه مزين بزخارف ذهبية لحداء ، الفتح ، أو مفتاح للحياة عند قدماء المصريين . وعند الاستفهام عن الأصل فى استعمال هذا الرمز قيل بأن العلاقات بين مصر والهند ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

الميل إلى الروحيات هو الذى اجتذب برك وأقرانه من الفنانين الباريسيين فتأثروا بالنقش القبطى إلى حد بعيد (١) . وهذه النزعة الروحية المميزة للقبط قد تكون السبب فى أن فنانهم لم يوقعوا بأصناماتهم على أى إنتاج فنى مما ابتكروه بل كانوا يكتبون بأن يكتبوا « عوض يارب من له تعب فى ملكوت السموات » ، وكانوا يعدون هذه الجملة توقيعاً كافياً - ولأنه توقيع حبر المؤرخين والمشتغلين بالآثار الذين تعبوا فى البحث والتدقيق لهم يظفرون بأسماء الفنانين الأعلام الذين أنتجوا روائع فنية نادرة المثال من دون جدوى .

وكما استطاع الفنانون فى فترة السلام أن يتركوا للأجيال المتعاقبة كنوزاً لا تقوّم بمال قارون ، كذلك ترك لنا الكتاب القبط عصارة تفكيرهم . ومن أبرز كتاب القرن الخامس للرحالة قزمان الذى كان تاجراً من الاسكندرية سافر على مركب انساب فوق مياه البحر العربى حوالى سنة ٥١٢ م . ش . فلما عاد إلى وطنه مصر أراد أن يرفقه عن قومه ويوسع معلوماتهم فكتب يصف لهم كل ما رآه بقوله : فى جزيرة نابرويانا (سيلان) توجد كنيسة وكهنة وشعب مؤمن ولست أدري إن كان الايمان قد امتد إلى أبعد من ذلك أم لا لأننى لم أتجول خارج حدود هذه الجزيرة . وهناك كنيسة أيضاً فى المنطقة المسماة «مأل» (مالابار) حيث ينمو الفلفل ، وفى المكان المدعو كاليان (قرب بومباي) . وينتخب أسقف من بلاد فارس لها ولجزيرة ديسقورس (سوكوترا) فى المحيط الهندى أيضاً ... وكهنة

(١) ، الرثدية والمسيحية فى مصر ، مقال لمارفين تشونسى روس نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية المجلد السابع (سنة ١٩٤١) ص ٤٨-٤٩ . ولقد قال ضمن مقاله هذا ما نصه : Coptic sculpture has been described as painting in stone, the designs are simple ... the back ground cut away to give deep strongly contrasting shadows. the colouristic art of the Copts whose influence was to penetrate all of Europe .. " فالرسومات .. بسيطة والقاع منحوت نحتاً عميقاً يعطى ظلالاً قائمة عتوفة للجان ... ولأن القبطى ذو الألوان الزاهية قد تدخل لونه كل أوروبا ، ثم يقول على صفحة ٥٠ ما نصه :

" Coptic art is didactic, attempting to convey a spiritual meaning rather than ومعه : « أن الفن القبطى استقرالى يستهدف أن يبرز ... duplicate outward forms. روحياً بدلاً من أن يعطى صورة مكررة للأشكال الخارجية . »

وجمهور من المسيحيين ... وتضم الجزيرة (سيلان) كنيسة للمسيحيين الذين استقروا فيها ، يرعاهم كاهن وشعاس من بلاد فارس أيضاً ... ولكن الأهالي ومكلمهم لا يزالون وثنيين ... (١) وبهذا الوصف وغيره مما أورده قرمان لأهلب خيال مواطنيه .

كذلك أتاح السلام الفرصة أمام رجال العلم للبحث ولجراء التجارب . وكان علماء المدرسة الاسكندرية قد ذاع صيتهم لطول باعهم فى العلوم الروحية فجاءهم الساعون نحو المعرفة من جهات للعالم الأربع . ومن مخلفات هذا العصر نسخة من أقدم النسخ لسفر للتكوين تحوى على ثمان وثمانين صورة خاصة بهذا السفر العظيم . وهذه النسخة ذات القيمة العظمى محفوظة الآن فى متحف الدولة بفيينا . على أن العلوم فى المدرسة الاسكندرية لم تقتصر على العلوم الروحية لأن هذه المدرسة قد اشتهرت بالفلك والطب والموسيقى وزعم الحياة (بيولوجيا) . ومن المحزن أن معظم مخلفات هذا العصر والمصور السابقة عليه قد ضاعت ، ولم تصلنا منها غير شذرات متفرقة . ومن الآثار الثمينة الباقية من هذا القرن كتاب فى علم النبات يبدو أن مؤلفه قد كتبه بناءً على طلب احدى الأميرات الرومانيات (٢) ومما يجدر ذكره أن فن الزخرفة المأخوذة عن الأزهار واستعمالها لتزيين الكتب (المخطوطة) يرجع إلى هذا العصر ، إذ أن المناخ (فى هذه الحقبة) وجدوا فى النباتات رسوماً وأشكالاً لا تتناسق مع الخطوط التى يكتبونها فاستعملوها لجعلها من مخطوطاتهم قطعاً فنية تستمتع بها النفس كما يستمتع بها العقل فتتضاعف بذلك المتعة الروحية لدى القراء (٣) .

(١) . ابتداء من أورشليم ، (بالانجليزية) لجون فوستر ، طبع فى لندن سنة ١٩٥٩ ص ٢٢
ويلاحظ أن المخطوط الأصلي به أجزاء ممزقة تشبه إليها للنقط الموضوعه بين الجمل ولأن
للكتاب الأصلي بأثاف من اثنى عشر مجلداً . راجع أيضاً ، لماذا الكنيسة ؟ ، للمؤلف نفسه طبع
فى لندن سنة ١٩٥٤ ص ١٠١ .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمسى القمص ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٣) ، النحت والرسم فى الفن القبطى ، مقال بالانجليزية لكوسيجان نشره فى مجلة جمعية الآثار
القبطية (محبى للفنون القبطية سابقاً) المجلد الثالث (سنة ١٩٢٧) ص ٥٧ .

ووقت للحرب : ١- أنبا تيموثيوس الثالث

(١٧١) انتخاب تيموثيوس كاهن الكنيسة المرقسية .	(١٧١) التنافس على الألقاب .
(١٧٢) كتابته رسالة الشركة .	(١٧٢) الجدل حول أوريجانوس وزهو الامبراطور بنفسه .
(١٧٣) موت الامبراطور أنستاسيوس واعتلاء يوستينيان العرش .	(١٧٨) عودة الأنبا تيموثيوس من المنفى وجهاده مع الشعب ورسامته أسقفا على جزيرة ههلا .
(١٧٤) مناصرة يوستينيان الخلقيدونيين ونفيه البابا الاسكندري .	(١٧٩) البابا تيموثيوس يعلن الحرم على الأوطاخيين .
(١٧٥) التجاء ساويرس الأنطاكي إلى مصر .	(١٨٠) انتقاله إلى بيعة الأبيكار .

١٧١- ومرة أخرى وجد الأساقفة ولأراخنة الشعب أنفسهم مضطرين إلى التداول في من يختارونه ليكون راعيهم الأول، وبدأوا يصلون ويتشاورون واستجابة لصلواتهم ألهمهم الروح القدس أن يختاروا تيموثيوس كاهن كنيسة مارمرقس . وكان هذا الكاهن عالماً فهِمًا مشهوراً له من الجميع بالقداسة وصفاء السيرة ، وفوق هذا كله فقد كان شديد التمسك بالايمان الأرثوذكسي الذي راح ضحيته الأنبا ديسقورس البطل المقدم . فلما وازن الناضجون جميع هذه المزايا أجمعوا على أن القس تيموثيوس هو خير من يجلس على السدة المرقسية . فتمت رسامته باسم تيموثيوس الثالث البابا الاسكندري الثاني والثلاثين سنة ٢٢٧ش (سنة ٥١١ م . ش .) ولقد تمكن المصريون من الاجتماع والتشاور لأن الامبراطور أنستاسيوس كان لا يزال على تسامحه وسعة صدره كما كان لا يزال وفيًا لأصدقائه من بنى مصر فترك لهم حرية الاختيار ولم يحاول أن يفرض عليهم من لا يرضونه .

١٧٢- ومار الأنبا تيموثيوس للثالث على موال سلفائه بأن أرسل رسالة الشركة إلى اخوته أساقفة الشرق . وقد تمتعها رسالة خاصة بعث بها إلى الحبر الجليل ساويرس أسقف أنطاكية . فردوا عليه جميعاً معطين اغتيابهم بدوام السلام والألفة بينهم .

١٧٣- على أن دول الحال من الحال - فقد انتقل الامبراطور أنستاسيوس إلى الدار الباقية . وخلفه على عرش القسطنطينية الامبراطور يوستنيان الأول في السنة عيها لقي أقيم فيها تيموثيوس الثالث خليفة لديسقورس الثاني .

١٧٤- وكان الامبراطور الجديد ميالاً إلى مناصرة الخلقيدونيين ، وقد دعم ميله هذا يوحنا أسقف الكبادوك الذي لازمه ملازمة للظل . وفي يوم من أيام الأحاد ذهب الامبراطور والأسقف للصلاة معاً . وكان ظهورهما جنباً إلى جنب في الكنيسة مدعاة إلى حدوث للشغب لأن بعض المصلين المتشيعين للامبراطور هتافوا بسقوط ساويرس الأنطاكي مطالبين بمحاكمته كنسياً في حين أن غيرهم هتف بوجوب التمسك بالإيمان الأرثوذكسي الذي يتمسك به هذا الحبر الأنطاكي الجري . ولما كان الفريق الامبراطوري أكثر عدداً فقد تغلب على الفريق الثاني فازداد الامبراطور صلفاً وقرر أن يأمر بعقد مجمع . ولما دعى البابا تيموثيوس الثالث لحضور هذا المجمع لم يلب الدعوة إذ كان يعلم موقف الامبراطور والمشييعين له وأنهم لا يستهدفون إلا الإيقاع بالأرثوذكسيين فنارت ثائرة الامبراطور وأمر بالقبض على البابا الاسكندري ونفيه . وحين وصل الجند إلى الكنيسة المرقسية تنفيذاً لأوامر الامبراطور ثار الشعب وتجمهر حول الكنيسة ليمنع الجند من الوصول إلى باباه المبجل . واشتبك الفريقان في معركة عنيفة رغم أن القوى كانت غير متكافئة لأن الجند مسلحون والشعب أعزل . وقد اندفع للجند في الفتك بهذا الشعب الوفي وقتلوا عدداً غير قليل من المؤمنين . ولما قضوا على المقاومة الشعبية اقتحموا الدار البابوية وقبضوا على البابا عنوة وساقوه إلى المنفى .

ولم يكتف الامبراطور بذلك بل فرض على الكرسي الاسكندري دخيلاً يدعى أبوليناريوس .

١٧٥- أما ساويرس بطريرك أنطاكية فقد لبى دعوة الامبراطور وذهب إلى القسطنطينية . فحكم المجمع بتجريده وحرمة إلا أن الله تعالى كان قد قبض للأرثوذكسيين صديقاً أميناً في شخص الامبراطورة ثيودورا . فشفت لدى زوجها في هذا الحبر الأنطاكي المتمسك بالإيمان الأرثوذكسي . وكان أنصار الامبراطور قد هيجوه ضد الأنبا ساويرس إلى حد أنه كان يريد قطع لسانه ، إلا أن شفاعة الامبراطورة كانت لها أكبر الأثر في نص زوجها فأخلي

سبيل البطريرك ساويرس ولكنه منعه من العودة إلى مقر كرسيه . فغادر بلاده مكرهاً وجاء إلى بلادنا الرجبية هرباً من حاشية الامبراطور ووطنائها ، فوجد في مصر للمأوى الأمين كما فعل سيده له للمجد حين جاء وهو وليد إلى هذا الروادى العتيق .

١٧٦- وأن هذا المجمع الذي لم يتجاوز أعضاؤه الأربعين أسقفاً والذي جرد ساويرس من رتبته الأسقفية هو الذي خلع على أسقف القسطنطينية لقب ، بطريرك مسكوني ، تملقاً منه للامبراطور يوستينيان مما حدا بغريغوريوس أسقف رومية إلى أن يطعن في يوحنا الصوامك الأسقف القسطنطيني لتجروته على قبول لقب خاص بالسيد المسيح . إلا أن هذا الطعن لم يكن مجرباً من الهوى لأن هذا الأسقف الروماني نفسه ولفق على أن يستأثر بلقب ، بابا ، دون بقية الأساقفة (١) . وهكذا لخدمم اللزاع على الألقاب بين كنيسة الامبراطوريتين للشرقية والغربية .

١٧٧- على أن هذا اللزاع لم يكن قاصراً على المنافسة وحدها ولكنه شمل مواضع شتى أهمها شخصية أوريجانوس . فقد قامت المجادلات حول هذا المعلم الكبير في فترات متقطعة . وكان الرهبان المصريون مجمعين على أن أوريجانوس هو المعلم الممتاز في الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية حتى لقد استشهد به أثناسيوس الرسولي نفسه . والواقع أنه كان لأوريجانوس تلاميذ ومريدون في مختلف البلاد وعلى مر القرون . وبين ألقابه في أوائل القرن السادس واضح كتاب ، ديونيسيوس الأريواغي .

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيبي جيه ص ١٨٩ حيث يقول ما نصه : ... " on donnait au Patriarche de Constantinople le titre de (patriarche oecuménique) C'est la première fois, croyons-nous, qu'on lui donnait officiellement ce titre . date ainsi de la même époque que le titre de (pape) attribué exclusivement à l'évêque de Rome " . على

بطريرك القسطنطينية لقب ، بطريرك مسكوني ، وهذه هي المرة الأولى - على ما نظن - بخلع عليه هذا اللقب رسمياً . ويرجع تاريخ هذا التلقب إلى العصر عهده الذي أطلق فيه لقب ، بابا ، على أسقف رومية وحده .

ومع أن رهبان مصر كانوا مجمعين على الاعجاب ، بأوريجانوس إلا أن اخوتهم للرهبان الفلسطينيين كانوا منقسمين في تقديرهم له . فالبعض منهم كان يباهى بالتكلم له بينما عمد البعض الآخر إلى تشويه ذل اسمه لينسب إليه الابتذال . بل أن البعض منهم لم يستطع أن يفهم تشبيهاته واستعاراته ففسرها تفسيراً حرفياً أضاع معناها الروحي الحقيقي . في حين أن أوريجانوس نفسه حذر - في أكثر من مناسبة - من التفسير الحرفي . وليس ذلك فحسب بل أن البعض حَرَفَ أقواله تحريفاً جليهاً مائلاً بالخطأ .

وكان الامبراطور يوستينيان الأول ذا نزعة فلسفية دفعته إلى التدخل في الأمور الكنسية . وقد زاده تملق رجال البلاط غروراً فتعدى حدود سلطانه وأقام نفسه حكماً في النزاع الذي احتدم حول أوريجانوس . وليس ذلك فحسب ، بل أنه زعم أنه الفصيل في الأمور الروحية ! ولما كان قد نفى زعماء الأرثوذكسيين - أمثال الأنبا نيموثيوس الثالث وساويرس الأنطاكي - لم يجد من يتكره بالقيام حدوده . ولقد انتهز خصوم أوريجانوس الفرصة فكنوا يجمعون عند الامبراطور ويناقشون معه . واستطاعوا - بالتلاعب بالأنفاظ واستعمال التعابير المبهمة العائمة - أن يضموا إلى صفوفهم وأن يجعلوه يوقع للحرم على أوريجانوس كونه صاحب سلطة مجمعية ! ولقد ثار أعباء أوريجانوس لهذا الاعتداء الصارخ على حق الكنيسة وأعلنوا سخطهم جهاراً . ولم يحاول واحد من الحكام أن يهدئ من ثائرة المصريين بل تركوهم في حلقهم وألمهم . أما المناصبون لأوريجانوس من أمالي فلسطين فقد رفضوا الاعتناء إلى أنفسهم حين أولد أن يقرأ عليهم صورة الحرم الصادر من يوستينيان الأول ضد أوريجانوس ، ولم تهدأ ثائرتهم إلا بعد أن يضيف إلى الحرم العبارة الآتية : « إن كل حرم لا يرضى الله باطل ، باسم الآب والابن والروح القدس ، » (١) ولقد وافق الأسقف الفلسطيني على تنزيل الحرم بهذه الكلمات لأنها لم تفر غضب الامبراطور (إذ لم يظن إلى مغازها) ، بينما هأا الفلسطينيين لأنهم كانوا متوثقين في أعماق قلوبهم أن

(١) مما تجب الإشارة إليه أن آباء الكنيسة الشرقية يحذرون الحرم سيقاً ذا حدين ، وهم لذلك يشددون في وجوب التحفظ من إصداره . لأن عقوبة الحرم - إن صدرت ظلماً - ارتبت على من أصدرها .

هذا الحرم الامبراطورى ضد معلمهم الكبير لا يرضى الله مطلقاً . ولما كان أسقفهم مسالماً فقد استغلوا محبته للسلام وأخذوا ينشرون بين الشعب تعاليم أوريجانوس بحرية تامة (١) .

وبهذه المناسبة يحسن بنا أن نحدد موقف الكنيسة القبطية بالذات من أوريجانوس ، ويتلخص فيما يلى :

١- كان الأنبا ديمتريوس الكرمل (البابا الاسكندرى الـ ١٢) قد وثق به كل الثقة حتى أنه عينه مديراً للمدرسة اللاهوتية كما انتدبه لحض البدع فى بلاد العرب والموصل وآخاثة . ولكنه غضب عليه حين قبل الكهنوت من أسقفين غربيين عن الكرازة المرقسية فأصدر الحرم ضده وبخاصة لأنه كان قد أخصى نفسه .

٢- رفع الأنبا ديونيسيوس - البابا الرابع عشر - الحرم عنه وطلب إليه أن يعود إلى الاسكندرية ليتسلم رئاسة مدرستها من جديد ولم يغضب عليه حين اعتذر عن العودة .

٣- عندما احتدم الجدل بين الأنبا ثيودوفيلس الكبير (البابا الاسكندرى الـ ٢٣) وبين يوحنا ذهبى الفم (أسقف القسطنطينية) ، شمل غضب البابا الاسكندرى كل أصدقاء الأسقف القسطنطينى - العائشين منهم فى الجسد والذين انتقلوا إلى الدار الباقية - وكان أوريجانوس ضمن الأخيرين . على أن الأنبا ثيودوفيلس حين أدرك خطأه بازاء ذهبى الفم صالح كل من خاصمهم وأعلن من جديد رضاه عن أوريجانوس وتعاليمه .

٤- درج كيرلس الأول عامود الدين (البابا الاسكندرى الـ ٢٤) على نشر ملخصات لحياة البارزين من رجال الكنيسة وتعاليمهم لنشرها على تلاميذ المدارس وكان أوريجانوس ضمن من كتب عنهم هذا البابا الاسكندرى العظيم

٥- استمر الرهبان المصريون يتناقلون تعاليم أوريجانوس . ومن أسطح الأدلة على هذه الحقيقة المخطوطات التى عثر عليها صدفة فى مغارة

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيئى جيه من ٢٥٢ - ٢٥٦ .

بالتقرب من طره (جنوبى للقاهرة) منذ خمس عشرة عاماً . والمحافظة الآن
بالمتحف القبطى بمصر العتيقة .

٦- لم تتخذ الكنيسة القبطية أى موقف عدائى ضد أوريجانوس منذ أن
أباح البابا ثيوفيلس الكبير لأبنائه قراءة للتعاليم الأوريجانية إلا حين بدلت تكتلر
بالدعايات الغربية وتتناقلها فى العصور الأخيرة . ومن العجيب أن الغربيين قد
اتهموا آباء الكنيسة القبطية بصنق الفكر والحسد بلزاه أوريجانوس مع أن الذى
شوه تعاليمه وأثار للحقد حوله هم الغربيون أنفسهم (١) ابتداء من ليرونيموس
(جيروم) الذى تعدد للكنيسة الكاثوليكية قديساً .

على أنه يجب القول بأنه ليس من المتيسر الآن الحكم بصورة قاطعة على
أوريجانوس : فلا يمكن تبرئته تبرئة تامة كما أنه ليس من العدل تخطئته
ذلك لأن بيننا وبينه ما يقرب من ستة عشر قرناً . فليس من السهل أن
نعيش فى الوسط الذى عاش فيه ونفعل بانفعالاته ونفكر بعقلونه . كما أن
الشئ الكثير من كتابات أوريجانوس قد ضاع ، وقد يكون البحث تطرق إلى ما
وصل إلينا منها فلم يلفنا على حقيقته . لأنه إن كان أوريجانوس نفسه قد
اشتكى فى أثناء حياته بأن هناك من يشوهون كتاباته فكم بالحرى تزايد هذه
الشكوى بعد الأعاصير التى هبت عليه فى القرون التالية . على أنه ليس من
اللياقة فى شئ أن ننسى كل جهاد أوريجانوس وخدماته حتى وإن كان قد
أخطأ . فداود النبى والملاك الذى لا يزال العالم كله يتغنى بمزاميره قد سقط فى
أكثر من خطية . حسناته زادت على سيئاته فلم يلبث المجتمع أن نسى سيئات
داود لينكر حسناته . وليس من شك فى أن رجلاً كالأنبا ديمتريوس الكرام

(١) راجع كتاب : ملخص لفكر أوريجانوس ، (بالفرنسية) لأوجين دى فاي ص ٦٧ حيث يقول ما

نصه : " ... Celui que le Christianisme occidentale a littéralement proscrit de son sein a été l'un des plus grands Chrétiens de son temps . Ce Origène a souffert de cette injuste ostracisme, l'étroitesse qui en a été la cause, n'a - t - elle pas infligé une perte encore plus grave à l'Eglise elle même ?

وترجمته كما يلى : أن ذلك الذى نبذته المسيحية الغربية كان من أعظم المسيحيين فى
عصره . ولأن كان أوريجانوس قد تألم بسبب هذا الظلم للصارخ فما لا شك فيه أن صنق العقل
الذى كان السبب فى نبذه قد أصاب الكنيسة بجراح دامية .

كان حكوماً وقوراً لا يصدر الحرم جزافاً . لذلك لا يسعنا إلا القول بأن الفصل في موضوع أوريجانوس لم يحن لواقعه وإنما قد حان الأولن لأن نعرف أنه تقائى في خدمة سيده وأدى الخدمات المنظمة للكنيسة رغم ما قد يكون سقط فيه من أخطاء .

١٧٨- وبينما كانت رعى المعارك الكلامية حول المبادئ بقدرة نال المصريون نصيب الأسد من الاضطرابات . فمع أن باباها كان قد عاد من المنفى إلا أنه هو وساويرس الأتطاكي كانا مطاردين من بلد إلى بلد ومن دير إلى دير . ورغم هذه المطاردة فقد تجلت نعمة الله إذ هيأت للفرصة للأتبا تيموثيوس لأن يرسم أسقفاً على جزيرة فيلا التي كانت حتى ذلك تابعة لأسقفية أسوان . وكان اسم هذا الأسقف الجديد ثيودورس . وقد قضى ما يقف على الخمسين سنة في أسقفية فتمكن من تحويل الأهالى جميعاً إلى المسيحية : فقد كان الجزء الشمالى منها مسيحياً بينما كان الجنوبى وثنياً ولكن الوثنيين اعتنقوا المسيحية لجهوده وقوته . ولقد امتد عمل ثيودورس إلى حد أنه ساهم في تجديد السور المنيع الذى كان دقديانوس قد بناه لتحصين الجزيرة . كذلك حول الجزء الأمامى من معبد ايزيس إلى كنيسة كرسها باسم استفانوس أول للشهداء ، وبنى كنيسة فى المنطقة الوسطى من فيلا . وليس ذلك فحسب بل أنه هو الذى وضع صليبا فى يد ابراهيم (أحد كهنته) وأمره بأن يرفعه فوق معبد فى اللوية . وبعد ذلك ذهب بنفسه لينتقد للنوبيين ويعرف مدى اقتبالهم للمسيحية وقضى بينهم ست سنوات عاد بعدها إلى ابيارشيته حيث تليح بسلام (١) .

ولاستمر الأتبا تيموثيوس فى تنقلاته هو وساويرس الأتطاكي ، وكانا حيثما حلا يتفخآن لللفة فى القلوب ويزينانها حملسة لئتمسك بالايامن الأرثوذكسى وأخيراً تمكنا من الالتجاء إلى دير بعيد عن عيون الجنود البيزنطيين . فاستقر بهما للمقام فى سلام وأخذ فى كتابة الرسائل لشعبيهما لتعزية للقطوب وتقوية للعزائم .

(١) مقال لهارى موزنيه : المسيحية فى فيلا ، (بالفرنسية) نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية - للعدد الرابع (سنة ١٩٣٨) ص ٤٤ - ٤٥ .

١٧٩- وكأنما لم تكن كل هذه الاضطرابات والمجاذلات وما لازمها من اضطرابات كافية لأن يقطع الكيل بالألم في كنس المصريين بل زاد عليها ما بلغ الأنبا تيموثيوس الثالث من أن نفراً من أمالي القسطنطينية قد وفدوا على مصر لينشروا بدعتهم الأوطاخية فازداد حزناً على حزن ورأى من ولجبه أن يحذر شعبه من الاستماع إلى هؤلاء المبتدعين فبادر إلى توقيع الحزم على هؤلاء الأوطاخيين وطالب الشعب الأرثوذكسي بالابتعاد عنهم وصم الأتالن عن أتاليهم (١) .

١٨٠- وقد دلم الأنبا تيموثيوس الثالث على تعليم شعبه بما كان يبعث به إليهم من رسائل رغم ما كان يعانيه من ضيق لاضطرابه إلى البقاء بعيداً عنهم . وكان عزله الاشتغال بالخدمة الكنيسية المصرية وسط كل هذه العواصف والأنواء ليوصلها إلى ميناء السلام . وظل في جهاده الروحي المتواصل إلى أن انتقل إلى المكان الذي يرفرف عليه السلام الدائم . وقد قضى على السدة المرقسية ما يقرب من سبع عشرة سنة إذ كان انتقاله إلى بيعة الأبرار سنة ٥٢٨ م . ش .



(١) السكندر الأنطوني ترجمه إلى الإنجليزية وليس بودج ج٢ ص ٦٢٧ - ٦٢٨ .

ب- الأنبا ثيودوسيوس

- | | |
|----------------------------------|-----------------------------------|
| (١٨١) انتخاب ثيودوسيوس الخليفة | (١٩٢) دعوة الامبراطور لليبيا |
| المرقسى ٢٢٤ . | الاسكندري وذهب هذا البابا |
| (١٨٢) بدء المتاعب لليبيا | الجليل إلى القسطنطينية . |
| الاسكندري . | (١٩٤) وصول الأنبا ثيودوسيوس إلى |
| (١٨٣) مندوبو الامبراطورة ثيودورا | القسطنطينية . |
| يأتون إلى الاسكندرية . | (١٩٥) نفي الأنبا ثيودوسيوس |
| (١٨٤) ثيئانوس يطلب الصلح . | وفرض دخيل بدلاً عنه . |
| (١٨٥) مجمع خلقيدون بين خصومه | (١٩٦) ثبات المصريين على عهد |
| وأنصاره . | الوفاء . |
| (١٨٦) الفصول الثلاثة . | (١٩٧) الامبراطور يوستينيان يزداد |
| (١٨٧) بناء كنيسة أجيا صوفيا . | تعباً . |
| (١٨٨) رسالة الأنبا ثيودوسيوس ورد | (١٩٨) رضى الضمير هو الشجاع وسعد |
| الامبراطور عليه . | قلعة الاستيراد . |
| (١٨٩) جراحة هذا البابا . | (١٩٩) المصريون يبتون كنيسة سين . |
| (١٩٠) القبض على البابا الاسكندري | (٢٠٠) الأنبا ثيودوسيوس يضاعف |
| بأمر الامبراطور . | أصوامه وصلواته . |
| (١٩١) متاصرة والى الاسكندرية | (٢٠١) المصريون يحوزون لقب |
| ليبيا ثيودوسيوس . | «ثيودوسيوس» . |
| (١٩٢) دعوة مندوبى الامبراطور إلى | (٢٠٢) انتقال الأنبا ثيودوسيوس إلى |
| القسطنطينية . | محفل القديسين . |

١٨١- ويتوالى الأيام وصل الأنبا ثيموثيوس إلى نهاية شربله فى هذه الحياة ، ورد المؤمنون ، كما كان هكذا يكون ، من جيل إلى جيل وإلى دهر الداهرين أمين ، . محبرين بذلك على أنه كما ولد آدم وعاش على الأرض ثم مات ، هكذا سار جميع أبنائه فى طريقه . فلما سار الخليفة المرقسى الثانى والثلاثون فى هذا الطريق عبده ، وانتقل من هذا العالم ولجج الاكليروس والشعب مشكلة انتخاب من يخلفه . ولقد ألهمهم الروح القدس إلى أن ينتخبوا للناسك

اللقى ثيودوسيوس الذي تمت رسامته في الكنيسة المرقسية فصار بذلك البابا الاسكندري الثالث والثلاثين سنة ٥٢٨ م . ش .

١٨٢- ولم تلتصق غير أسابيع قصيرة على رسامة الأنبا ثيودوسيوس حتى بدأت متاعبه . وقد ظلت هذه المتاعب تلاحقه حتى آخر باباويته . وكان السبب في هذه المشكلة الأولى هو أن حزياً من الاسكندريين تجمع حول شماس كبير السن اسمه قيانوس وتملقوه حتى أفهموه بأنه هو وحده الجدير بأن يكون البابا الاسكندري . فوقع في فخاخهم ورضى أن يرسموه أسقفًا على الاسكندرية .

١٨٣- إلا أن رياسته لم تدم غير ثلاثة شهور لأن الاسكندريين بعثوا برسالة إلى الامبراطورة ثيودورا رجوا منها فيها أن تناصر البابا ثيودوسيوس . فأرسلت مندوبيها إلى الاسكندرية لاجراء التحقيق ومعرفة من الذي رسم أولاً من هذين الأسقفين المصريين لاعتماده رسمياً قبل الدولة . وحالما وصل المندوبون إلى الاسكندرية رفعت إليهم عريضة موقعاً عليها من مئة وعشرين من رجال الكنيسة المصرية بين ديليين ومذنيين يقررون فيها أن انتخاب ثيودوسيوس قد سبق لانتخاب قيانوس . ولم يكف للمندوبين بهذين التقريرين ولكنهم عقدوا اجتماعاً في كنيسة مارمرقس حضره المسؤولون من رجال الكنيسة والدولة ، كما حضره عدد عديد من الاسكندريين . وقد وضعوا الكتاب المقدس في الوسط ليذكروا أنفسهم بوجود السيد المسيح بينهم ، كما وضعوا المرسوم الذي يحمل ختم الامبراطور وصورته : وبعد أن استقر الجلوس بالمجتمعين حضر البابا ثيودوسيوس ومعه الأساقفة الذين رسموه . ففرق مندوبو الامبراطورة بين هؤلاء الأساقفة واستجوبوا كلاً منهم على حدة . فاتفقت كلمتهم على أن انتخابه كان مطابقاً لقوانين الكنيسة إذ قد اختاره الشعب ووضع الأساقفة اليد عليه طبقاً لما قرره الآباء .

١٨٤- وهنا تقدم قيانوس وأقر ما شهد به الأساقفة طالباً الصفح والغفران وشفع فيه بعض الحاضرين لدى البابا ثيودوسيوس ليقبل توبته بشرط أن يكتب قيانوس بخط يده أنه سلك مسلكاً مخالفاً للقوانين الكنسية . فوافق قيانوس وكتب ما طلب منه . قلم يصفح عنه البابا ثيودوسيوس فحسب ولكنه رده إلى

رغبة الأرضى بياكونية التى كان قد جرد منها . وشمل الفرع الجميع لاتفاق كلمتهم واستبشروا خيراً إذ ظنوا أن هذا الاتفاق سيؤدى إلى استناب السلام فى الكنيسة بالصالح أولادها .

١٨٥- على أن السلام لم يتحقق فى مصر ولا فى غيرها من البلاد الشرقية . ذلك لأن الخلاف على قانونية مجمع خلقيدون كان مازال قائماً . فكان الجميع يتناقشون فى هذا الموضوع بكل ما تحتمل المناقشة من معنى . فبعض خصوم هذا المجمع قد عمدوا إلى تشويهه بكل ما أوتوا من قوة لتسهيل عليهم مهاجمته ، فى حين أن البعض الآخر هاجمه بحسن نية وصفاء سريرة لاعتقاده بأن التطعيم الذى نادى به ثيودوروس أسقف المصيصة والذى أقره المجمع تعليم خاطئاً فعلاً . ومقابل هؤلاء وأولئك وقف مناصرو للمجمع الخلقيدونى يبذلون الجهد فى تحرير قراراته وكان مناصرو هذا المجمع ومهاجموه يرفعون تقاريرهم إلى الامبراطور يوستينيان إذ كان يأمل كل فريق أن يستميله إلى جانبه . وكان بطبعه ميالاً إلى الخوض فى المجادلات اللاهوتية والفلسفية .

١٨٦- وقد أدت كل هذه المجادلات إلى تقوية هذا الميل الطبيعى فى الامبراطور . فبعد أن راجع تقارير المتخاصمين توهم أنه عرف دقائق الموضوع وأن فى إمكانه أن يقدم الحل الذى يرضى للجميع . ذلك لأن بعض أنصاره قد أوهموه أن الخلاف فى شأن مجمع خلقيدون ينحصر فى نقط ثلاث هى : رسالة ثيودوروس أسقف المصيصة ، رسالة ايباس ، رسائل ثيودوريت أسقف قرش ضد الحروم الإثنى عشر التى للأبنا كيرلس . فأصدر الامبراطور مرسوماً وقع فيه للحرم على تلك المراسلات التى عرفت فيما بعد باسم لفصول الثلاثة .

على أن هذا المرسوم لم يزد النار إلا اشتعالاً ، لأن بعض الأساقفة رفضوا الدوقيع عليه رفضاً باتاً إذ وجدوه مخالفاً لعقيدتهم ، بينما وقع عليه البعض الآخر على الفور (١) .

(١) الفابريه المشقة (بالفرنسية) لأبيه جيتى من ١٩٤ - ١٩٥ ، تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) لأرشميتريوت جيتى ج٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٩ .

كذلك زعم يوستينيان بأنه مسئول عن تكويث دعائم السلام والوحدة لا في الامبراطورية فحسب بل في الكنيسة أيضاً - على أن الوحدة التي كان يبتغيها كان معناه النسق الواحد . صحيح أن النسق الواحد يؤدي إلى السلام ولكنه سلام للموت . فكان للهدف الأول من تصفه في الدفاع عن الايمان هو التأكيد من أن أبناء الكنيسة لا ينضجون ولهم عقول مفكرة (١) .

١٨٧- ولم يقصر الامبراطور لاهتمامه على الخوض في الموضوعات الدينية والفلسفية بل وجه اهتمامه إلى الفن أيضاً . وكان للنقش المصرى والفن السوري لبعث الأثر في الفن القبطي فعولا اتجاهه تحولاً جديداً . ولقد استغل الامبراطور هذا الاتجاه الجديد في الفن بأن أمر مهندسيه ببناء الكنائس الفخمة والمعروفة باسم «أجيا صوفيا» في مدينة القسطنطينية (٢) .

١٨٨- وفي تلك الأثناء بعث الأنبا ثيودوسيوس برسالة إلى الامبراطور يوستينيان والامبراطورة ثيودورا يقدم لهما فيها عميق امتنانه لما قاما به من خدمة للكنيسة الاسكندرية . ومن المدهش أن رسالة للابا الاسكندري استنكرت في الامبراطور رغبته في القتال ! فقد تبادر إلى ذهنه بأنه ترك المصريين في سلام فإن ما بينهم وبين باباهم من محبة وألفة سيذهب قوة فيمكتهم من مقاومة أوامره لذلك رأى أن يباغتهم بمطالبتهم بالتوقيع على قرارات مجمع خلقيدون . وقد رأى أيضاً أن يبدأ بسياسة اللين مكثفياً بالمفاجأة فكتب إلى الأنبا ثيودوسيوس يدينه بأنه إن قبل الاعتراف بمجمع خلقيدون فسيجعله والي الاسكندرية وبابا القارة الأفريقية - وكل هذه السلطة بالاضافة إلى باباويته للكرسي المرقسي ، فيتمتع نفوذه الروحي كما يصبح له نفوذ مدني أيضاً . وهنا نسي الامبراطور أن يكتفى باللين أولاً فأضاف إلى هذه الوعود

(١) « جوستينيان وعصره » بالانجليزية ليرسي نيقول ١٢٧ ص ١٢٧ حيث قال :

" ... for Justinian's unity meant uniformity . Universal uniformity brings peace, but it is the peace of death . The first task of Justinian's benevolent faith - defending despotism was to make sure that the children of the Church never grew up to have minds of their own " .

(٢) الدحت والرسم في الفن القبطي (بالانجليزية) - مقال لكرستيجان نشره في مجلة محبي الفنون القبطية (الأثار القبطية حالياً) العدد الثالث سنة ١٩٣٧ ص ٥٧ .

الخلافة تهديداً إلى البابا الاسكندري مؤبداً أنه إن تجرأ على الرفض فلن يكون نصيبه إلا اللقي والتفريد طول أيام حياته فزحيش والحالة هذه بعيداً عن وطنه وعن أهله وشعبه .

١٨٩- على أن تهديد الامبراطور لم يكن ليوخف البابا الاسكندري خليفة ألكسندروس وثئاسيوس وكيرلس وبسقرس ، وسلب الشهداء الأبطال . فلم يكذ ينتهي من قراءة الخطاب الامبراطوري حتى قال على مسمع من مندوبي الامبراطور وكبار رجال الدولة الذين جاءوا معهم : « يحدثنا الكتاب المقدس بأن الشيطان حين جرب رب المجد حاول اغرامه باعطائه السلطان على ممالك العالم . وقد أجابه سيدنا له المجد بقوله : للرب الهك تسجد واباه وحده تعبد (١) . وما أننى خادم لرب المجد فإننى لا أستطيع أن أحيد عن تعاليمه إذ ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس . وهذا الذى يطلبه منى الامبراطور لا يؤدي إلى هلاكى لأنه يجعلنى غريباً عن السرد المسيح ملكى للحقيق . ثم رفع يمينه نحو السماء وقال : إننى أحرم طومس لاون ومجمع خلقيدون وكل من ناصره أو يناصره حالياً ومستقبلاً وما انتهى من الجهر بهذه الكلمات حتى التفت إلى والى الاسكندرية ومن معه من ذوى النفوذ وقال : إن للامبراطور سلطاناً على هذا الجسد القانى . أما روحى فهى ملك للمسيد المسيح ملكى الوحيد . فافعلوا بهى ما شئتم : احبسونى أو أنفونى أو نفقوا أى أمر آخر يحكم به الامبراطور فأنا على أتم استعداد لأن أتحمل كل هذا وأكثر منه ، ولكنى لست مستعداً لأن أجعل نفسى غريباً عن سيدى واللهى » .

١٩٠- ولما انتهى الأنبا ثيودوسيوس من هذا الحديث قام من مكانه يريد الخروج . ولكن الوالى وأعوانه منعه من مغادرة الدار البابوية أولاً ثم قبضوا عليه وأخذوه معهم إلى دار الولاية واحتجزوه يوماً كاملاً بليته وفى الغد أطلقوا سراحه تاركين له حرية التنقل .

١٩١- ويبدو أن الشجاعة التى أبدىها البابا الاسكندري أثارت إعجاب سيماكوس والى الاسكندرية فانضم إلى مناصريه . ومن ثم أخذ يتفاهم معه على خير سبيل ينتهجه ، وانتهى به الأمر إلى اقناع الأنبا ثيودوسيوس

(١) لوقا ٤ : ٤ - ٨ .

بمغادرة العاصمة . ولكى يسهل له طريقه أعد له مركباً زوده بكل معدات السفر ، ألقه إلى الصعود حيث أخذ يطم الشعب والرهبان ويحثهم على اللبثات إلى المنتهى .

١٩٢- أما مندوبو الامبراطور فقد عادوا إلى القسطنطينية حيث قصوا على مولاهم كل ما قاله الأنبا ثيودوسيوس ، وكيف أنه غادر الاسكندرية وهو مصمم على الرفض وحين سمع الامبراطور ورجال بلاطه أقوال المندوبين أحسوا بدهشة عجيبة إذ لم يكونوا يتصورون أن هناك انساناً يرفض عروضاً سخية كمروض الامبراطور ، وأنه بهذا الرفض يعرض نفسه لأن يكون طريداً شريداً بدلاً من أن يعيش فى الجاه والترف .

١٩٣- وبإزاء هذا الرفض أخذ الامبراطور يناقش نفسه بنفسه : أيترك المصريين يعيشون فى سلام أم لا ؟ ولكن إن تركهم وشأنهم ألا يعتدون تصرفه هذا تراجعاً منه أمام اصرار باباهم على التمسك بمبادئه ؟ ثم ألا يزداد نفوذ هذا البابا الجليل على القلوب ؟ ومتى التفت القلوب حوله أكثر فأكثر ألا يزيدهم هذا الالتفاف قوة واستمساكاً بعقيدتهم ويسهل عليهم مقاومة الأوامر الامبراطورية فى المستقبل ؟ وحين جالت هذه الهواجس فى خاطر الامبراطور تروم أنه قد يستطيع أن يحول الأنبا ثيودوسيوس عن موقفه إن هو عاود الكرة ، فاختار مندوباً جديداً ، لبقاً حلو اللسان ، وحكمه الدعوى إلى البابا الاسكندرى للمجئ إلى القسطنطينية ظناً منه أن المقابلة للشخصية قد تؤدي إلى اقناع هذا البابا الجليل بالخضوع للحكم الامبراطورى .

وما أن وصل المندوب الامبراطورى إلى الاسكندرية حتى قابل باباها وأبلغه دعوة الامبراطور يوستينيان - وحينذاك غاص الأنبا ثيودوسيوس فى التفكير إذ قامت فى مخيلته صورة لكل الامكانيات - وأول هذه الصور أن ينفذ الامبراطور تهديده فيلقيه ويحول دون رؤيته شعبه الوفى ووطنه الحبيب . وتلاحقت الصور ولكن شبح النفى لم يزجج هذا البابا الجريئ كما لم يرهبه ما قد يصيبه من سجن وتعذيب إذ قد اقترنت كل هذه الصور بما لاقاه الأنبا بطرس الأول خاتمة الشهداء والأنبا أنطاسيوس الرسولى وغيرهما من أسلافه باباوات الاسكندرية البواسل للذين تقبلوا صنوف العذاب فى رضى دون أن

يترشحوا قيد أنملة عن إيمانهم الأرثوذكسى . وحين مرت كل هذه الصور فى خاطر الأنبا ثيودوسيوس ابتسم فى هدوء وعاد من شروبه الفكرى ، ثم التفت إلى المندوب الامبراطورى وقال : « إبنى استودع نفسى فى يدى ملكى يسوع المسيح ، وبهذه الثقة ، أذهب معكم لمقابلة الامبراطور غير خائف ولا هائب ، وحين انتهى البابا الاسكندرى إلى هذا القرار اختار عدداً من رجال كنيسة الدينيين والمندوبين الموثوق بهم ليرافقوه إلى القسطنطينية .

١٩٤ - ولقد شاء الامبراطور يوستينيان أن يسهل السفر لصيفه الكبير فأرسل له مركباً خاصاً إلى الاسكندرية استقله الأنبا ثيودوسيوس والرجال الذين انتخبهم لمراقبته . ولما وصلوا إلى القسطنطينية استقبلهم الامبراطور والامبراطورة وجميع رجال البلاط استقبالاً رسمياً . ولقد تعجبوا جميعاً لما بدا على البابا الجليل من رصانة ووقار ، وما امتاز به من فضل . ثم أقرروه هو ورجال حاشيته فى الدار التى أعدت لملاقاتهم .

وقد تقابل الامبراطور يوستينيان مع الأنبا ثيودوسيوس ست مرات أيدى الامبراطور خلالها كل كرم ولطف . على أنه - فى ختام هذه المقابلات الست - عرض نفس المروض الذى كان قد بحث بها إلى البابا الاسكندرى مع مندوبيه . فلم يسمع من فم رجل الله غير قوله : « لا حياة ولا موت ، ولا سلطان ، ولا عرى ولا جوع ، ولا سيف ولا نار - ولا جميع هذه القوى مجتمعة بقادرة على أن تفصلنى عن المسيح ملكى وإلهى . ولن أتنازل عن نقطة واحدة ولا حرف واحد مما تعلمته من آبائى مطمئ للكنيسة الملهمين الذين لتعلمت على تعاليمهم لأوصلها إلى رعية المسيح ابتداء من اليوم الذى بشر مصر فيه مرقس الانجيلى بكلمة الله وانتهاء إلى اليوم الذى رسمنى فيه أبى تيموثيوس شماساً على كنيسة الاسكندرية حتى لأدخلنى الكليروس والشعب لاعتلاء الكرسي المرقسى » .

١٩٥ - ولما لم يستطع الامبراطور يوستينيان أن يزحزح البابا ثيودوسيوس قيد أنملة عن عقيدته حكم بنفيه عن بلاده وذلك بأن سجنه فى القسطنطينية . ثم تروم أن فى مقدوره أن يسترضى للمصريين بإقامة دخيلاً اسمه بولس القديسى أسقفاً عليهم بدلاً من باباهم للشرعى الذى

انتخبوه برضاهم . وقد تمت رسامة هذا الدخيل فى القسطنطينية ثم أرسله
الامبراطور إلى الاسكندرية فى حراسة كنيئة من الجيش .

١٩٦- على أن هذا الحكم التصفى - بدلاً من أن يزجرح المصريين عن
موقفهم - زادهم استمساكاً به . ولم يكنهم أن يقاطروا الدخيل فى صمت بل
ثاروا فى حدة ، ودوت هتافاتهم فى الشوارع والطرقات وهم يقولون « ليسقط
الخائن ! ليسقط يهوذا الدخيل ! » ولكن هذا للسخط العلنى لم يحرك للدخيل
ساكناً ، فظل فى الاسكندرية سنة كاملة لم يلق فى خلالها إلا المقاطعة النامة .
لأن المصريين أعرضوا عنه وامتنعوا من الصلاة فى الكنائس التى تحت
حيازته . ولم يجد من يناصره غير الولى وجنده من حزب الامبراطور . وفى
آخر هذه السنة ضاق بولس التنيسى ذرعاً بهذا الشعب المصرى ذى العصبية
الحنيفة والقومية العزيزة فأرسل خطاباً إلى الامبراطور يستجد به ويقول له أن
المصريين يفرقون منه كما لو كان أجريباً . وقد ختم هذا الدخيل خطابه بأن
أهاب بالامبراطور أن ينفذه مما هو فيه من مأزق ويجد له وسيلة يخضع بها
المصريين للحندين لسلطانه .

١٩٧- فلما قرأ الامبراطور يوستينيان خطاب صليحه بولس التنيسى ثارت
ثارته وتضاعف غضبه على المصريين ، وتساءل كيف يجروون على
الاستمرار فى عصيانه . ودفعه غضبه إلى أن يخلق جميع الكنائس التى لم
يتمكن الدخيل من الاستيلاء عليها عقاباً للمصريين على تمردهم العلنى .
وعند ذاك امتلأت القلوب حسرة إذ قد وجد المصريون أنهم لن يستطيعوا
الاستمتاع بشعائرتهم الدينية التى يحبونها ما لم ينهبوا إلى كنيئة تحت سيطرة
بولس التنيسى ، ولكنهم رغم حسرتهم ورغم ميلهم الطبيعى إلى الزوجيات
وتعلقهم بشعائرتهم الدينية لم يخضعوا ولم يلبثوا وأصروا على عدم الصلاة مع
الدخيل مع أنهم - بتصرفهم هذا - حرموا من تناول من الأسرار الكنسية
وعن صبغ أطفالهم بالصبغة المقدسة طيلة تلك السنة المشؤمة .

١٩٨- وكان الشعاع الوحيد الذى أثار ظلمتهم الحالكة هو شعورهم
بالرضى الداخلى الناتج عن لوفاء والإخلاص . وقد زللت هذا الشعاع سطوعاً

الخطابات التي كانت ترد عليهم بلا انقطاع من باباهم السجين في القسطنطينية. لأن هذا الراعي الصالح كان يرقب آلام شعبه فييتهل إلى الله تعالى أن يزيده ثباتاً ، ويقرن ابتهالاته برسائله المعزية للنفوس المشددة للعزائم.

١٩٩- ويقدر ما كانت الشدائد تكفاهم وتنصب على رؤوس المصريين ، كانوا يزدادون تمسكاً بعقيدتهم التي تسلموها مختومة بدم الشهداء . ولما أدلهمت الحوادث عقد قسوس الاسكندرية وأراخنة الشعب اجتماعاً لم يرأسه أسقف ، لأن جميع الأساقفة الأرثوذكسيين كانوا هم أيضاً منفين بأمر الامبراطور يوستينيان . وفي هذا الاجتماع قرر الكهنة مع الشعب أن يبناو كنيسة باسم « الأنجيليون » يقيمون فيها شعائهم الدينية بمعزل عن الأسقف الدخيل ، ويجدون فيها الملجأ الأمين وقت الضيق . ولقد نفذوا قرارهم بالفعل فبنوا كنيسة في مكان معروف باسم مكان الأعمدة غربى المدينة . وكأنما نفخ فيهم نجاحهم في بناء هذه الكنيسة غيرة فوق غيرة فبنوا كنيسة ثانية شرقى المدرسة الخاصة بالتمثيل . وقد أطلقوا على الكنيسة الثانية اسم الشهيدين قزمان ودميان . وحين تعالت قباب الكنيستين شامخة نحو السماء بلغ الامبراطور خبر بنائهما فرأى أن يعاقبهم أشد العقاب . ومن ثم أصدر أمره بوجوب الاستيلاء على جميع كنائس المصريين وتسليمها لمناصرى المجمع الخلقيدونى الذين لهم وحدهم حق إقامة الشعائر الدينية .

٢٠٠- ولما وقف البابا ثيودوسيوس على كل ما جرى حزن حزناً شديداً فضاغف صلواته وأصوامه خشية أن يقع الاسكندريون فريسة للسلطان فينسوا الايمان الذى استشهد آباؤهم فى سبيله . وكانت الصلاة التى لا يفتأ يوردها هى قوله : يا سيدى يسوع المسيح - لقد اشتريت هذا الشعب بدمك الزكى الكريم ، ولنت وعدت بأن تكون معنا إلى الانقضاء ، فحل فى وسط شعبك ولتكن ارادتك فعالة فى كنيسك . آمين . وظل مداوماً على الصلاة لكى يشدد الله القلوب ويملاها جرأة لتثبت إلى الدهاية ، كما ظل مداوماً على كتابة الرسائل لهذا الشعب الذى اتكمنه الله تعالى رعايته . فتحققت فى البابا

ثيودوسيوس صفات الرعاية الصالحة إذ لم ينس أنه مسئول عن هذه الرعاية . فلما وجد أن صاحب السلطة الزمنية وقف حائلاً بينه وبين رعيته سلم هذه الرعاية لرأى الرعاية الذى لا يتناول إليه سلطان ساقلاً ليه أن يحفظها كحديقة للعين حسب وعده الصادق . وفى الوقت عينه شددت رسائله عزائمهم . وبإزاء هذه الرعاية الصاهرة من خلف قضبان السجن أحس المصريون بالطمأنينة النفسية فازدادوا جرأة وثباتاً (١) .

٢٠١- ولقد دامت باباوية الأنبا ثيودوسيوس اثنتين وثلاثين سنة ، قضى ثمانى وعشرين منها فى اللقى . ومع طول هذه المدة ، ومع حنينه إلى شعبه وإلى وطنه العجيب ، فإنه ظل وفاقاً لعقيدته الأرثوذكسية التى تسلمها من أسلافه الأمجاد . فكان ثباته هذا صورة رائعة لبسالة المصريين الذين عاشوا بالعقيدة وتحملوا الآلام والضيقات فى سبيلها واستشهدوا ثوباً عنها . وبهذا الثبات المصرى العجيب كان قوة لشعبه الذى سار خلفه واعتز برياسته وظل يدين له بالولاء . فتأير على مقاطعة الأسقف الدخيل للمقروض عليه من القسطنطينية . ورضى أن يظل محروماً من شعائره الدينية التى يحبها دون أن يتنازل عن عقيدته وهكذا قدم الأنبا ثيودوسيوس وشعبه المثل الحى الرائع للوفاء والجرأة

(١) فى مساء الثلاثاء ٢٠ يناير سنة ١٩٥٩ (١٢ طوبة سنة ١٦٧٥ ش) شرف معهد للدراسات القبطية (بالأنبا رويس بالقاهرة) حضرة الحبر الجليل قداسة مار أغناطيوس يعقوب الثالث بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسرمان الأرثوذكس بصحبة الأسقفان الكرمان مار جرجس مطران حلب ومار ملاتئوس مطران حمص وحماة . وقد تلقى غبطة البطريرك خطاباً متافياً عن صلات المودة التى ربطت بين كنيسة أنطاكية والاسكندرية . ومما ذكره فى هذا الخطاب الجامع أنه حين كان الأنبا ثيودوسيوس الاسكندرى سجيناً فى القسطنطينية مع عدد غير قليل من الأساقفة الأرثوذكس ، هال الرهبان القبور يعقوب اليرادعى أن يجد الأسقفيات شاعرة لعدم وجود من يرسم الأساقفة إذا ما خلا كرسي بدياعة صاحبه لأن البطارقة الأرثوذكسيين كانوا جميعاً مسجونين بحكم الامبراطور . فاستعان هذا الراهب الصغير بالامبراطورة ثيودورا التى كانت موالية للإيمان الأرثوذكسى لتتقن زوجها الامبراطور يوستينيان بأن يأذن البابا ثيودوسيوس برسامة بعض الرهبان أساقفة . فتجحت شفاعته الامبراطورة ، وقام هذا البابا الأمين برسامة عدد من الأبحار بينهم بولس الثانى بطريرك أنطاكية الذى كان مصرى الأصل ، ومنهم يعقوب اليرادعى نفسه الذى رسم مطراناً على حلب .

فى سبيل الحق . ولقد بلغت محبة المصريين لآباءهم واعتزازهم به مبلغاً جعل خصومهم يصفونهم بالثيودوسيوسين .

٢٠٢- ولقد انتقل البابا ثيودوسيوس إلى محفل القديسين الملتصقين سنة ٥٥٩م ش . دون أن يمتنع ناظره برؤية مصر الحبيبة ، ولكن السلام الداخلى الناتج عن رضى الضمير كان خير ثواب له عن هذا العناء .

• ونحن معشر الأرثوذكسيين المصريين الذين أطلق عليهم اسم «ثيودوسيوسين» نضرع إلى الثالث الأقدس أن يلهما من الروحيات ما يجعلنا أهلاً للتمسك بعقيدة ذاق فيها هذا البابا العظيم من مرارة النفى ما لم يذقه كثيرون من أساقفة الكنيسة ، كما يجعلنا أهلاً للاعتراف بالإيمان الذى اعترف به أمام السلاطين والملوك فى وقت سادته الاضطرابات والفتايل - فلا نحيد قيد أنملة عن ذلك الطريق للقيام الذى رسمه لنا ، لننال ما ناله من نصيب فى ملكوت السماوات بالنعمة والرحمة والمحبة التى لمخاضنا للصالح يسوع المسيح فادينا الحبيب - له المجد مع أبيه للصالح والروح القدس المحى فى كنيسته من الآن وإلى أبد الدهور - آمين • (١) .



٢٠٣- ولقد وجد الأنبا ثيودوسيوس فى أساقفته مساندة قوية إذ كانوا يدركون معه أنهم رعاة مؤتمنون على شعب الله فلم يكن البابا الاسكندرى وحيداً فى جهاده بل كان أشبه بقمة الهرم الشامخة الثابتة فى مكانها لأنها ترتكن على البناء الضخم المتراس تحها . فكان الشعب المصرى وأساقفته هذا الهرم الراسخ لقمته التى هى البابا المرقسى . ومن أقوى دعائم هذا الهرم الروحى الأنبا قزما أسقف أنتينوبوليس (٢) الذى ذلق مرارة النفى مع باباه بأمر الامبراطور يوستينيان . ذلك أن غضب هذا الامبراطور كان شديداً بالمعاصرة

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين (طبعة ليقيس) ج٢ ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .

(٢) مدينة بناها الامبراطور هادريان ، تقع على بعد ثلاثمائة وخمسون كيلومتراً جنوب القاهرة (فى منطقة ملوى الآن) .

الهوجاء التي تكسح في طريقها كل من لا ينحني أمامها . على أن الأنبا قزما لم ينق مرارة النفي غير سنوات ثلاث أصدر الامبراطور بعدها العفو عنه - ولو أن هذا العفو لم يشمل الأنبا ثيودوسيوس إذ توهم يوستيديان أن الاستمرار في حبسه قد يضعف من مقاومته في النهاية . فاحتفظ به وأُفرج عن عدد من أساقفته . وسارع الأنبا قزما إلى مصر وطله الحبيب . ولما وصله ظل في الاسكندرية شهراً كاملاً إذ تجمهر حوله أهلها يستفسرون عن باباهم وعن السبب في عدم عودته إليهم . فشدد هذا الأسقف قلوبهم بأن وصف لهم بالتفصيل ما جرى في المقابلات بين الأنبا ثيودوسيوس وبين الامبراطور يوستيديان ، كما وصف لهم رسالة البابا الاسكندري في تحمل للسجن والبعد عن مصره الحبيبة وشعبه اللقي . وقد تحزت القلوب بهذا الوصف ولو أن الجميع تمثوا على الله أن يأتي اليوم الذي يرون فيه وجه باباهم الجليل في عاصمته بيليم . وبعد أن قضى الأنبا قزما شهراً في عاصمة السدة المرقسية عاد إلى أنتينوبوليس عاصمة كرسية الخامس ، فوصلها في الموعد المحدد للاحتفاء بعيد للشهيد كلوديوس (١) وتزاحم الناس على للكنيسة في العيد في تلك السنة للاستشفاع بالشهيد والاستصار عن الأنبا ثيودوسيوس . فكان فرحهم يومئذ مزدوجاً : الفرح بتكرى كلوديوس الذي منحه الله تعالى نعمة أكلته لأن ينال لكليل الشهادة والفرح بقاء أسقفه بد غيبة طويلة ، وتكتم عبر البابا المنفى خلال كلمات المحبة الدافقة من فم الأنبا قزما . بركة الجميع تحل علينا وتشهدنا لكون جديرين بهم إلى النفي الأخير - آمين (٢) .



(١) واحد من آلاف الشهداء الذين سقطوا في الاضطهاد العائر ضحية لمهاتوان الامبراطور ثيوديانوس .

(٢) راجع كتاب تاريخ القديس أنبا يوحنا القسبر لقسطن ميمانيك من ١٠١ .

٢٠٤- قرمًا التاجر الرحالة الاسكندري

٢٠٤- على أنه رغم الأحوال التي لاقاها المصريون ظهر من بينهم رجال تركوا لنا آثاراً لها قيمتها . ومن هؤلاء الرجال قرمًا للتاجر الاسكندري الذي عاش في منتصف القرن السادس . وقد جاب هذا للتاجر - في أيام شبابه - البحر الأحمر والمحيط الهادئ ، ثم زار بلاد الحبشة ، كما يبدو أنه وصل إلى الخليج الفارسي والهند الغربية وسيلان . ويعد هذه الرحلات الطويلة تهرب حوالى سنة ٥٤٨م في صحراء سيناء حيث كتب مؤلفاً بعنوان « الطبوغرافية المسيحية » . وكان هدفه الأول لهذا الكتاب هو أن يبين خطأ النظرية الرثينة القائلة بأن الأرض مستديرة وقد بين أن الأرض مستطيلة تغطيها زرقة الجلد وتقع السماء من فوقهما . أما الجزء الآهل بالسكان فيتوسط للمستطيل الأرضى وتحيط به البحار . وتقوم الجنة التي عاش فيها آدم في آخر هذه البحار . وتدور الشمس حول جبل له قمة رفيعة : فتدور حول قمته صيفاً وحول سفحه شتاء . وهذا ما يبرر طول النهار وقصره في مختلف الفصول .

وتحوى « الطبوغرافية المسيحية » بعض للمعلومات المجيبة : أخصها وصف عرش من الرخام شاهده في نواحي « زولا » بالحبشة . ويحمل هذا العرش كتابة منقوشة عليه تروى أعمال البطولة والانتصارات الباهرة التي أحرزها بطليموس إيفيرجيتيس وملك من ملوك أكسوم . كذلك تحوى خرائط يرجح أنها أقدم خرائط مسيحية لا تزال باقية للآن . ويستخلص من بعض اشارات وردت في « الطبوغرافية المسيحية » أن قرمًا كتب مؤلفاً جغرافياً أكبر حجماً منها ، ولكن لم يعثر أحد عليه للآن ، تحدث فيه عن حركات النجوم وضمنه تعليقات عن المزمير ونشيد الأنشاد (١) .



(١) دائرة المعارف البريطانية - الطبعة الرابعة عشرة ج٦ من ٤٨٤ .

جـ- الأنبا بطرس الرابع

(٢٠٥) الاضطراب في الاسكندرية .	(٢١٧) الولاء الاجمالي للبابا
(٢٠٦) الامبراطور قسطنطين دخيلاً	الشرعي من القبط والأحباش
ثانياً .	والتوبيخ .
(٢٠٧) الخسارة الفادحة التي لحقت	(٢١٢) التشابه بين الحبريين
يوسطينيان بالتراث الروحي .	الاسكندري والأنطاكي .
(٢٠٨) يوستين الثاني يتبع خطة	(٢١٤) الأنبا بطرس يقوم بزيارة
البطش بالمصريين .	راسية .
(٢٠٩) خطة أبولينايريوس الدخيل .	(٢١٥) البابا الاسكندري يعين الراهب
(٢١٠) والي الاسكندرية الجديد	دميانوس سكرتيراً له .
يهانن المصريون .	(٢١٦) انتقال الأنبا بطرس الرابع إلى
(٢١١) انتخاب الأنبا بطرس الرابع	عالم النور .
وتضايف بطش الحكام .	

٢٠٥- وكانت الاسكندرية في ذلك العهد تجمّع عجيج البحر الهائج كما عمت اللقائل والاضطرابات ولدى الليل بشاطئيه - فقد غادر للبلاد السلام منذ اليوم الذي اضطرب فيه للبابا ثيودوسيوس إلى أن يغادرها .

٢٠٦- ولقد سبق للقول بأن الامبراطور يوستينيان كان قد فرض دخيلاً على الكرسي الاسكندري اسمه بولس التنيسي بعد نفيه ثيودوسيوس البابا الشرعي الذي ارتضاه الشعب المصري . ولقد عدّ المصريون هذا الدخيل معدياً على حقوقهم الروحية باستناده إلى مناصرة الامبراطور للبيزنطى فقاوموه مقاومة عنيفة . ومن المولم أن الامبراطور لم يتعظ بالمقاومة الشعبية المصرية ، ولم يهدف إلا إلى العمل على اخضاع هذا الشعب الحريص على تراثه الروحي فأمن في اعتقلته على حقوق المصريين ، إذ لم تعالج المدينة بولس التنيسي حتى أمر الامبراطور برسامة أبولينايريوس في القسطنطينية أيضاً ليجلسه على السدة المرقسية . وقد ذكر المؤرخون أن هذا الدخيل وصل إلى الاسكندرية متخفياً في زي القواد الحرييين ، ثم أصدر أمره بأن يجتمع الناس

فى الكنيسة . فلما تجمعوا خلع ملابس الجندية وظهر أمامهم بملابس
الامبراطور ثم بدأ يقرأ عليهم المرسوم الامبراطورى بالتصديقه وحين وصل إلى
قراءة المرسوم الخلقيدونى بدأ الضغط على الوجوه كما علت الاحتجاجات .
وعندما أمر جنوده باعمال السيوف فى رقابهم فلم يشهد عدد كبير منهم حتى
لقد أطلق الناس على ذلك اليوم اسم « المنبحة » (١) - وكان هذا اليوم فاتحة
لسلسلة من التكتيل والتعسف . ورغم ذلك فقد أصرّ المصريون على مقاطعة
أيزيداريوس الدخيل كما قاطعوا سقته من قبل .

٢٠٧- ولم يكد أيزيداريوس يصل إلى الاسكندرية حتى كان الامبراطور
يوسيتيان قد فارق الحياة . ويؤكد بعض المؤرخين حسن نيّته ، إلا أن الجميع
متفقون على أن تدخله فى الأمور اللاهوتية قد جرّ على الكنيسة هلايا جمة ،
ومن بينهم الوثاقون من حسن نيّته . ذلك لأن الأخطاء التى تسبب عن الجهل
لا تصلحها حسن النية ومما لا ريب فيه أيضاً أن الامبراطور لو كان خالص
النية فى محاولته الوقوف على الحقيقة لما صمّ أنفيه عن كل مشورة ماعدا
مشورة أخصائه المقربين إليه ولما أضمن فى الاستبداد بالمتعمكين بالايمان
الأرثوذكسى . ولا يمكن لانسان أن يقدر مدى الخسائر التى نتجت عن الحكم
الذى أصدره هذا الامبراطور ضد أوريجانوس إذ هى أفدح من أى تقدير لأنها
لا تعرض . ذلك لأن بعض المتهورين المتزلفين للامبراطور قد أحرقوا عدداً
عديداً من مؤلفات هذا العلامة المصرى الكبير كما أحرقوا عدداً كبيراً أيضاً من
مؤلفات ديديموس الأعمى البصير لا شئ . إلا لأنه كان تلميذاً مخلصاً معجباً
بالاعجاب كله بأوريجانوس . ولما كانت هذه المؤلفات مخطوطة كانت للنسخ
الموجودة منها منبذلة العدد ، وكان فقدها ضياعاً إلى المنتهى . ومن هنا
يتضح إلى حد ما - مدى هذه الخسائر التى ألحقها الامبراطور يوسيتيان
بالتراث الروحى حتى لو اعتذر عنه أصحابه بحسن نية (٢) .

(١) كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا للدكتور زامى رياض طبع فى القاهرة سنة ١٩٦٢ ص ٥٦ .

(٢) راجع كتاب : ملخص لفكر أوريجانوس ، (بالفرنسية) لأرجين دى فاى ص ١٦٠ حيث يقول

« ما نصه : Que dire de Justinien ? sans doute il fut grand capitaine, politique »

٢٠٨- وقد خلف يوستينيان على العرش الامبراطور يوسين الثاني فسار على خطة سلفه بأن ساعد أبولناريوس الأسقف الدخيل . وقد نهج منهجهم جميع لأباطرة القسطنطينية من بعدهما . وهكذا بذر الامبراطوران يوستينيان ويوسين الثاني بذور الشقاق بين كنائسى الاسكندرية والقسطنطينية ، كما زرعاً للقلق والاضطراب فى جزء هام من الامبراطورية الشرقية نتيجة لمسلكتها هذا . لأنه بينما أخذ يتعاقب عملاء الأباطرة المستعربين على الكرسي الاسكندري ، ظل المصريين على ولائهم لبابائهم الشرعيين الذين كانوا يتدخّبونه من مواطنيهم ويحمض اراذلتهم . وقد أصرّوا على الاحتفاظ باستقلالهم للكنسى بأن أخلصوا الولاء لبابائهم ، ورفضوا رفضاً باتاً الاذعان لأى أسقف دخيل ، كما استمروا على حرّهم لمجمع خلقيدون وقراراته . وكان استمرارهم هذا صورة لقوميتهم الخوفية وتصميمهم على مقاومة الاستعمار الفكرى رغم بطش للحكام المندنيين بهم .

٢٠٩- وكان البابا ثيلودوسيوس - وسط كل هذه الرزايا - قد انتقل إلى الأخدار السماوية ، بعد أن قضى ثمان وعشرين سنة يرسف فى القيود فى أحد سجون القسطنطينية . ومثل هذه المنة كلنت تكفى لأن تدفع بالبعض إلى

= consommé, incomparable administrateur, promoteur du plus fameux des codes, mais quel despote ! ■■ c'est ce prince, qui avait la pretention d'être un théologien, qui s'arrogeait le droit de faire son procès à l'homme qui avait voué sa vie à la propagation du christianisme et qui avait confessé sa foi au milieu des tortures ... "

وترجمته كما يلى : : وملّا نقرل فى يوستينيان ؟ ليس من شك فى أنه كان قائلاً عظيماً وسياسياً محكماً ومديرًا لا يبارى وصلحب مجموعة من أشهر المجموعات القانونية - ولكن يالاه من طاغية ! وهذا الأمير الذى ادعى أنه لاهوتى هو الذى اغتصب الحق فى أن يقيم من نفسه خصماً لذلك الرجل (أوريغانوس) الذى كرس حياته لفسر المسيحية والذى اعترف بايمانه وهو يذوق صنوف التعذيب . .

والواقع أن غرور الامبراطور يوستينيان وتصفاه كان السبب فى ضياع للعد العدي مما كتبه أوريغانوس فلم تصلنا مؤلفاته إلا مترجمة . والترجمة لا تعطى صورة صحيحة للكتاب الأصلي إلا إذا قرئت بالأصل . وفي الترجمات لكذب أوريغانوس للكثير من الأخطاء ، ولا يمكن لأحد أن يجزم إن كانت هذه الأخطاء ترجع إليه أو إلى الترجمة خصوصاً وأن خصومه سعروا جهدهم إلى تشويه سمعته وبالتالي إلى تشويه كتاباته ليتخذوها حجة ضده .

المسلم برؤى الامبراطور رغبة فى الانطلاق من هذا السجن . ولكن البابا ثيودوسيوس الذى كانت تجرى فى عروقه نماء الشهداء ، والذى رضع حب كنيسة المصرية مع اللّين ، لم يكن بالرجل الذى يفرط فى ايمانه ، وبخاصة لأنه كان يعرف تمام المعرفة أن السجن ليس هو بالحجرة المنيقة التى حالت دون تجوله فى أرجاء وادى النيل ، ولكنه سجن الاستعباد الفكرى الذى يضطر صاحبه إلى أن يعيش ذليلاً لا يستطيع أن يرفع رأسه فى وجه انسان حتى وإن استطاع التنقل فى بلاد الله تعالى بما فيها من سعة .

ولقد توهم أبوليناويس للدخول أن نياحة هذا البابا الجليل ستضعف من مقاومة المصريين له وتجطهم برضخون لسلطانه . فدفعه هذا للوهم إلى انتهاج خطة غريبة ظنها كفيلة له بالنجاح . فلقياً أولاً إلى حاكم الاسكندرية واستصدر منه أمراً بنفى جميع الأساقفة الأرثوذكسيين ليخلو له الجو . ثم أقام حفلة عشاء كبرى دعا إليها قسوس المصريين وأراختهم عملاً بالمطل القاتل : « أطعم القم تستحي العين » . غير أن رجال القبط - الدينيين منهم والمعتدين - كانت تسيطر عليهم جميعاً عاطفة جامحة هى حبهم لابلانهم وكنيستهم ، فقلوا على ولائهم ، لم يرحزهم عنه انتقال باباهم ولا نفى أساقفتهم ولا الوليمة الفاخرة التى تُلذّنوا بها .

٢١٠- وفى هذه الآونة العصيبة تدلرك السيد للمسيح كنيسة رسوله الحبيب بمرلحه ، وذلك أن الامبراطور استبدل والى الاسكندرية للموالى لأبولينايريوس بوالٍ جديد اسمه أريستوماخوس ، خطب ود للمصريين ، وكان لهم فى شدتهم خير عزاء . فأوعز إلى المسؤولين منهم بأن يقصدا إلى أحد الأديرة المتاخمة للاسكندرية بدعى لقامة للصلاة ، وهناك يقومون برسم من ينتخبونه للسدة المرقسية .

٢١١- ولقد فرح المصريون فرحاً عظيماً بهذا الاقتراح إذ كان سيوفر عليهم ضريبة الدم التى كانوا سيدفعونها حتماً لو أنهم انتخبوا راعيهم الأول رغم ارادة الحاكم المندى . وتشارروا معاً فى هذا الأمر الخطير ، وبحثوا عن ثلاثة أساقفة لم يضطروهم الولاة إلى سفادرة البلاد ، فعاشوا بعيدين عن

عواصمهم ولو أنهم داخل وطنهم المصرى . واتفق للكهنة والأراخنة مع هؤلاء الأساقفة الثلاثة على أن يسبقوهم إلى دير الزجاج — وهو أحد الأديرة العديدة التى كانت تزخر بهم منطقة الاسكندرية إذ ذاك . وبعد ذلك أخذت جموعهم تتوافد على الدير أفراداً وجماعات فى هدوء تام كى لا يشعر الأسقف للدخيل بتحركاتهم . ولما اكتمل جمعهم اتفقت كلمتهم على انتخاب راهب اسمه بطرس من دير الزجاج الذى اجتمعوا فيه . فوضع الأساقفة اليد عليه باسم بطرس الرابع ، ومن ثم أصبح الخليفة الرابع والثلاثون للقديس مرقس سنة ٥٥٩م (سنة ٢٧٥هـ) . وامتلاً الكل غبطة لهذه الرسامة لأن نعمة الأب السماوى كانت تسطع على وجه الأنبا بطرس الرابع وتنعكس عليهم .

وانتشر نبأ رسامة الأنبا بطرس فى طول البلاد وعرضها ، فأدرك أبولينايريوس أن المصريين مصممون على ممارسة حقهم الشرعى فى انتخاب من يريدونه ليجلس على السدة المرقسية . فجن جنونه واستثار الحكام المستعمرين ومشايعهم من العملاء ليحولوا دون دخول البابا الاسكندرى عاصمة رياسته . وقد شدد الامبراطور الخفاق على المصريين إذ ذاك بأن استبد بالأساقفة المصريين وبأن اضطر الأنبا بطرس الرابع أن يعيش شريفاً ينتقل من دير إلى دير ، ولا يستطيع أن يدخل الاسكندرية . ولم يكف يوستين الثانى بهذا التصف بل زاد اللطين بلة بالاستيلاء على القمح الذى تعب المصريون فى زراعته وحصدته ليقتاتوا به هم وأولادهم ، لتصديره إلى رومية التى كانت محاصرة بجحافل اللومبارديين (١) إذ ذاك . ويبدو أن كل هذه الوسائل الاستبدادية لم تشف غليل أبولينايريوس فكتب رسالة إلى الامبراطور يشتكى فيها من جرأة المصريين . على أن المنية عاجلت هذا الأسقف للدخيل فمات قبل أن تصل رسالته إلى الامبراطور . ويموته خفت حدة التوتر وبدأ المصريون يتفلسفون الصعداء إذ قد داعبهم الأمل فى أن تستقر الأمور . ولكن خاب فأنهم لأن الامبراطور أمر بنقل الولاى المهانين لهم وتعيين والٍ قاس

(١) من القبائل الشمالية التى اجتاحت أوروبا ونجحت فى الدخول فى قهر الامبراطورية الرومانية الغربية .

محله وقف للجبايا المرقسى بالمرصاد فلم يمكنه من دخول عاصمته . على أن اضطراره إلى البقاء بعيداً عن مقر رياسته لم يؤلمه إذ كان قلبه مفعماً غبطة وهوداً لأنه كان في صفاء مع الله ، وكان في إمكانه أن ينتقل بين الأديرة ويستمتع بصحبة رهبانها الذين كانوا درعاً قوياً له ، فلم يسانده فحسب بل أوجدوا له أيضاً الفرصة للخلوة والتأمل . فاستطاع أن يكتب الكثير من الرسائل التي كان يبعث بها إلى شعبه وإلى اخوته الأساقفة الشرقيين الذين كانت روابط المحبة متوتقة بينه وبينهم رغم ما كان ينقله أباطرة القسطنطينية من سموم للشقاق .

٢١٢- وكانت ضلوحى الاسكندرية فى تلك العهد تزخر بالأديرة التى بلغ عددها الستمائة وكان رهبان هذه الأديرة مع جميع الرهبان المصريين والشعب المصرى وشعبى الحبشة والنوبة موالين فى اجماع تام للجبايا بطرس الرابع يتلقون رسائله بكل فرح ، ويسيروا وفق لارشاداته رغم الأوامر المشددة التى كان يصدرها عملاء القسطنطينية ضد المصريين (١) .

٢١٣- وكان للسدة الأنطاكية شاغرة منذ أن نتيج مارساويرس (منفىاً فى بلادنا) . ولما رأى الأنطاكيون أن المصريين تجمعوا وانتخبوا لرعايتهم للجبايا الذى يريدونه ، شجعهم هذا على أن يجمعوا بدورهم لكى يختاروا راعيهم الأول . وقد ألهمتهم النعمة الإلهية اختيار راهب ناسك مملوء حكمة اسمه ثيوفانيوس . وما أن سمع الأنبا بطرس الرابع برسامة هذا الحبر الجليل حتى سارع إلى كتابة رسالة للشركة وبعث بها إليه فتلقاها مارثيوفانيوس بسرور وانشراح إذ كان الحبران متمسكين بالعقيدة الأرثوذكسية مضطهدين من أجلها . فكما أن الأنبا بطرس الرابع اضطر إلى التنقل من دير إلى دير دون أن يتجح فى دخول عاصمته ، كذلك اضطر مارثيوفانيوس إلى العيش فى دير خارج مدينة أنطاكية . فكانت الرسائل المتبادلة بين الأسقفين المطاردين من الامبراطور يوستين الثانى مصدر تعزية لهما وأشجيعهما (٢) .

(١) السكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية وليس بودج ج٤ ص ١٠٣٣ - ١٠٣٤ .

(٢) السكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية وليس بودج ج٤ ص ١٠٣٥ .

٢١٤- ولما مات أبوليداريوس النخيل استطاع الأنبا بطرس الرابع أن يخرج من عزله : ومن ثم قام برحلة راعوية زار خلالها المدن والقرى المتناثرة في أرجاء وادينا للرحيب . فتعزت قلوب المؤمنين برويته حراً طليفاً إذ أيقن الجميع أن من يلقي رجاءه على الآب السماوى لا يخيب رغم الظواهر القادحة ورغم الزمن .

ومن للمراحل الإلهية أن كانت من بين ثمار هذه الزيارة الراعوية رسالة أسقف على السدة الشاغرة لجزيرة فيلا الذى اشترك هو أيضاً فى تقوية السور الكبير المقام لحماية الجزيرة تعاوناً منه مع والى المنطقة (١) .

٢١٥- ولم يكن الأنبا بطرس من المتبحرين فى العلوم الدينية والمدنية فحسب بل كان أيضاً ممن يعرفون العلماء أفقرهم . وهذا التقدير للعلم دفعه إلى أن يبحث - أثناء تجواله بين شعبه - على راهب متبحر فى العلوم ليتخذه سكرتيراً خاصاً وتعاون معه الشعب . فأشار عليه بعضهم بأن يتخذ لهذا المنصب شماساً متهرباً بدير جبل طابور (٢) يدعى دميانوس . وكان دميانوس هذا من أرباب الأقلام كما كان مصوراً ماهراً (٣) . فذهب الأنبا بطرس الرابع إلى هذا الدير وطلب إلى رئيسه أن يسمح للناسك دميانوس بأن يعيش معه فى الاسكندرية ويكون سكرتيره ، فيحمل معه أعباء الخدمة للكنيسة : الروحية منها والمادية . ومع أن دميانوس كان شغوفاً بحياة العزلة يؤثر البقاء فى الدير على العيش فى أى مكان سواه ، إلا أنه لم يستطع أن يرفض طلب البابا الاسكندرى الجليل إذ أدرك أن الضرورة موضوعة عليه لأن يخدمه بكل ولاء وتفان ، وبخاصة لأن الأنبا بطرس الرابع كان يتمتع بمكانة خاصة فى القلوب لما قاماه من صنوف الاضطهاد من الأباطرة والدخلاء . فذهب معه إلى المدينة

(١) مقال لهنرى مرنويه ، الممبوية فى فيلا ، (بالفرنسية) نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية العدد الرابع (سنة ١٩٢٨) ص ٤٧ .

(٢) كان هذا الدير يقع غربى الاسكندرية ولا أثر له الآن .

(٣) دليل المتحف القبطى لمرقس سموكه ج ٢ ص ١٦٥ .

للعلمى حيث.انشغل فى تعليم للشعب وتبنيه على الايمان الذى تسلمه من آياته .

٢١٦- ومما يثير الأسى أن هذا البابا المتقانى فى محبة شعبه ، والذى امتاز بالتقوى والعلم معاً لم يش طويلاً ، فلم تدم باباويته غير سنتين اثنتين ضم بعدهما إلى بيعة الأبقار . فامتلات القلوب حزناً على فقده ، ولم يخفف من حدة هذا الحزن غير شعورهم بأنه سيرقل فى النور الأعظم .



فترة من الراحة

- (٢١٧) مميزات الراهب دميانوس .
 (٢١٨) تجديد عمارة الأديرة .
 (٢١٩) انتخاب الأنبا دميانوس للسدة المرقسية .
 (٢٢٠) اهتمامه باكتساب مشايخ ميلتيوس الليكوبولى .
 (٢٢١) بطرس الأنطاكي يخرج على الايمان الارثوذكسى .
 (٢٢٢) محاولة الأنبا دميانوس اقتناعه بالعودة إلى الحق .
 (٢٢٣) الجهاد الروحي للبابا الاسكندري، وأساقفته .
 (٢٢٤) انتقال الأنبا دميانوس إلى بيعة الأقباط .

٢١٧- كان دميانوس - سكرتير البابا الراحل - متضلعا في العلوم الدينية والمذنية تبعاً للثقافة التي سارت عليها كنيسة مصر (١) منذ أن أنشأ لها مرقس الرسول مدرسة الاسكندرية . وكان قد انتظم في سلك الرهبنة منذ صباه ، فماش في دير الأنبا يؤنس القصير في برية شيهيت حيث جاهد جهاد الأبطال ليلوغ الكمال المسيحى فرسم شماساً . وكان أبوه الروحى فى هذا الدير من الرهبان المعروفين بالتقوى والصلاح . فتشبت نفس دميانوس بتعاليم أبيه الروحى ومن ثم اندفع إلى الكد ليل نهار لاكتساب المعرفة حتى أصبح مقتدراً بالقول والفعل متشعاً بالنعمة الإلهية .

٢١٨- ثم ترك دير يؤنس القصير كما ترك برية شيهيت وقصد إلى دير معروف باسم « بيهانوثون » فى « جبل طابور » . ومن مراحم الله أن أديرة شيهيت كانت - فى ذلك العصر - نامية مزدهرة كنبات الحق إذ كان سلام السماء مستقراً على الأرض وقتذاك . ولم يشعر الرهبان الساكنون فيها بأى احتياج لأن المؤمنين كانوا يتبارون فى تقديم عطاياهم للأديرة . فكانت فترة هدوء تشاغل فيها للرهبان بترميم أديرتهم وتجديد

(١) دراسة المسيحية فى مصر فى القرن السابع (بالفرنسية) لأميلير ص ٢٨ حيث يقول ما نصه

" Ce patriarche (Damianos, 35), était un homme fort versé dans les sciences : ecclésiastiques à la manière des Coptes ... " .

عمارتها (١) . بعد أن كانت قبائل البربر قد خربت منها الشيء الكثير (٢) .

وكان دميانوس قد عاش في شيهيت أولاً ثم في دير جبل طابور ، إلا أن الأنبا بطرس الرابع قد اختاره ليكون سكرتيراً له ويشاطره أعباء الرعاية فترك حياة العزلة ليعيش في الاسكندرية مع باباه .

٢١٩- فلما خلت السدة المرقسية بنياحة الأنبا بطرس الرابع أجمع الأكليروس والشعب على انتخاب دميانوس خليفة له . ولكن العقبات التي كان يقيمها القابضون على الحكم إذ ذاك حالت دون رسامته فلم يتمكن الأساقفة من وضع اليد عليه إلا بعد مضي سنتين كاملتين على انتقال سلفه العظيم ولم يعزل الأنبا دميانوس الكرسي المرقسى إلا سنة ٥٦٣ م. ش (سنة ٢٧٩ ش) وبذلك لم يتسلم مقاليد الرئاسة فعلاً إلا بعد انقضاء أربع سنين على نياحة الأنبا بطرس الرابع .

٢٢٠- وبعد رسامته بقليل من الزمن اتصل به أن بعضاً من المشايخين للأسقف ميلتيوس الليكوبولى (٣) وقد تصلوا إلى أديرة شيهيت . فحزن البابا دميانوس لذلك حزناً شديداً لأن أنبا ميلتيوس هذا لم يكتفوا بالانشقاق عن الكنيسة ، بل أضافوا إلى انشقاقهم بدعة تناول الدم الكريم غير مرة في ساعات منقطعة من الليل . فأمر بطردهم من الأديرة حتى لا ينقلوا سمومهم بين السذج من الرهبان .

ولكن طرده إياهم كان عملاً سلبياً فرأى أن يقرنه بعمل إيجابى . لذلك كتب رسالة عنوانها ، اللوغس ، (أى الكلمة الإلهى) تتضمن التعاليم اللاهوتية في الحكمة الإلهية ، وأرشف هذه الرسالة بأخرى أطلق عليها اسم

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية (طبعة ليقينس) للأنبا سلويزس أسقف الأشمونين ص ٤٧٣ .

(٢) كانت هذه القبائل قد خربت الأديرة للقاتمة في الصحراء الغربية ثلاث مرات حتى ذلك الوقت . راجع كتاب ، أديرة وادى النطرون ، (بالانجليزية) لاقين وايت جـ ٢ ص ١٦٢ جـ ٢ ص ٧ ، ٣١ ، ٢٢٨ .

(٣) كان أسقف أسيرط في عهد الأنبا بطرس خاتمة الشهداء - راجع ص ١١٧ - ١٢٧ من الجزء الأول لهذا الكتاب .



قطعة من النسيج تصور انطلاق الروح نحو السماء

«الميستاجوجيا» (أى الأسرار الإلهية) أوضحت فيها التعاليم الأرثوذكسية للصميمة الخاصة بأسرار الكنيسة السبعة . وهاتان الرسالتان لم تكونا غير جزء ضئيل مما كتبه هذا البابا الجليل لأنه كتب رسائل فصحية عديدة ، ورسائل تعليمية توضح العقيدة ، ومياמר تفسر التعاليم الكنسية المجيدة . وكان البابا الجليل يرمى من وراء جميع مؤلفاته إلى توضيح العقائد المسيحية وترسيخها فى أذهان أبناء رعيته (١) .

وعلى أثر انتشار رسالتي « اللوغس » و « الميستاجوجيا » بين المؤمنين قصد أتباع ميلتيوس الليكوبولى إلى البابا الاسكندري ويفضل ما أسبغه الله

(١) للسكسار الأنثوى ترجمه إلى الانجليزية واليس يودج جء من ١٠١١ - ١٠١٣ .

عليه من نعمة نجح في أن يقدمهم بما هم فيه من ضلال ويردهم إلى الإيمان الأرثوذكسي . وكانت مناقشاته لهم في رقة وعذوبة وسعة صدر . وهكذا اكتسبهم إلى الحظيرة المقدسة التي كانوا قد أخرجوا أنفسهم منها .

٢٢١- ويعد أن مضت ثمانى سنوات على اعتقال البابا دميانوس السدة المرقسية ، انتقل ثيوفانيوس أسقف أنطاكية إلى جولاريه . فخلفه قس اسمه بطرس . وما أن اعتلى هذا الأسقف السدة الأنطاكية حتى بعث برسالة الشركة إلى البابا الاسكندري . ففرح الأنبا دميانوس حين وصلته هذه الرسالة ، وجمع أساقفته وقرأها عليهم . ولكن لم يكد ينتهي من قراءتها حتى تبذل فرحه إلى حزن لما تضمنته تلك الرسالة من ابتداع في عقيدة الثالوث الأقدس .

٢٢٢- وحين وقف البابا الاسكندري على ما في رسالة البطريرك الأنطاكي من ابتداع ، لم يقف عند حد الحزن ، بل يادر بكتابة رسالة حاول فيها - بما حباه الله من نعمة ووداعة - أن يستميل إليه ذلك البطريرك الأنطاكي خشية أن تنقسم عروة الصداقة والمودة بين الكنيستين الاسكندرية والأنطاكية . وكان بطرس الأنطاكي يرى وجوب التفرقة بين الأقاليم الثلاثة ، فوضح البابا دميانوس تعاليم الآباء الخاصة بهذه العقيدة الخطيرة التي تلخص في وجوب الاعتراف بالله الموحد الجوهر المثلث الأقاليم . ولقد أثبتت رسالة البابا الاسكندري بصورة قاطعة ما كان للمصريين من غيرة علمية كما دلت على أن القبط دأبوا على اختيار العلماء من رهبانهم ليجلسوا على السدة التي زانها أناسيوس وكيرلس (١) .

على أن هذه الرسالة مع ما امتازت به من حكمة وسداد لم يكن لها أي أثر في نفس بطرس الأنطاكي الذي رفض الدواء المقدم له من البابا الاسكندري الرصين وأصر على التثبت ببدعته التي تفرق بين الثالوث غير المفترق .

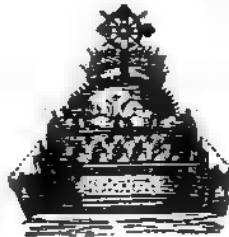
(١) دراسة للمسيحية في مصر في القرن السابع (بالفرنسية) لأمبولوس ص ٢٨ حيث يقول ما نصه : " Cette discussion ne servit qu' à montrer le zèle que l'on conservait : encore dans l'Égypte, pour les sciences sacrées, et que sur le trône des Athanase et des Cyrille, on mettait encore de préférence les plus savants des moines " .

وهكذا حل الجفاء محل الود بين المصريين والأنطاكيين طيلة العشرين عاماً التي قضاها هذا البطريرك المبتدع على الكرسي الأنطاكي .

٢٢٣- ولقد دأب البابا دميانوس على كتابة الرسائل والميامر التي تهدف إلى إقرار الإيمان الأرثوذكسي في القلوب ووضح جميع رسائله بالآيات الكتابية المقدسة . وكانت رسائله تمازج بسلاسة المنطق وبالفيرة المتقدمة فاجتذبت عدداً وفيراً من المبتدعين إلى العقيدة الأرثوذكسية . ومن مراحم الله على كنيسه القبطية الوفية أن الأنبا دميانوس وجد في أساقفته خير معاون له على احياض البدع وإزالة السبيل أمام المتلهفين على معرفة الحق والعيش بمقتضاه .

ومن أبرز الأساقفة الذين امتازوا بالروحانية والعلم بيسنقيوس أسقف قسط ، ويونس أسقف البرلس وتلاميذه يوحنا وقسطنطين وكليستوس . ومما يؤسف له أن غالبية هؤلاء الأساقفة لا يعرف التاريخ لهم تراجم لأن رغم أن مؤلفاتهم موجودة يعرفها الباحثون .

٢٢٤- ولقد داوم الأنبا دميانوس على تعليم شعبه وتثبيته على الإيمان الأرثوذكسي كما داوم على الأصوام والصلوات مدى حياته . وهذا الجهاد المقترن بالتقشف لم يكن ليؤثر فيه لولا ما صادفه من ضيق وتعب . فمرض بضعة أيام انتقل بعدها إلى المساكن للنورانية . وكانت مدة رئاسته للكنيسة سناً وثلاثين سنة (١) .



(١) تاريخ الكنيسة لمسي للقمص من ٢٥٥ - ٢٥٦ .

صلة الكنيسة ببلاد النوبة

٢٢٨) تبعية النوبة للكراسة	مقدمة .
٢٢٩) فن العمارة الكنسية في النوبة .	الراهب يوثيانوس يعلم
٢٣٠) الاكتشافات الحديثة .	التوبيين -
	٢٣١) تعميق الامبراطور
	يوستينيان .
	٢٣٢) لونغينوس يتال كرامة
	الأسقفية .

مقدمة - كانت للنوبة على صلة وثيقة بمصر منذ العصور الفرعونية حتى لقد عثر الباحثون فيها على معابد فرعونية . ولقد تأثر النوبيون بإخوتهم المصريين إلى حد أنهم كانوا يكتبون لغتهم بالرموز الهيروغليفية ويتعبدون للآلهة المصرية وبخاصة لايزيس التي ظلت عبادتها مزدهرة إلى القرن السادس للميلاد .

ولقد هاجر إلى النوبة عدد كبير من القبط فيما بين القرن الثاني والقرن السادس للميلاد لشعورهم بأنهم أهل وجيرة وأن النيل يربط بينهم جميعاً فيجعل من مصر والنوبة بلداً واحداً . وكان لهذه الهجرة أثر مباشر إذ سرت آية المسيح في النوبة .

ويظن البعض أن الملكة كنداكا التي ورد اسمها في الاصحاح الثامن من سفر الأعمال كانت نوبية . ويرجع ذلك إلى أن النوبة كانت مقسمة إذ ذاك إلى ثلاث ممالك أقصاها جنوباً هي مملكة ماقرة وعاصمتها مرو . وورد في تاريخها أن إحدى ملكاتها كان اسمها كنداس . وهذا التشابه اللفظي حدا بهم إلى الظن بأنها هي الملكة التي نال خصيها للمصودية على يدى فيليس (أحد السبعين تلميذاً) . ولكن كل هذه المؤثرات المختلفة لم تجعل للمسيحية كنيسة معترف بها ولا أسقف يولاها أو كهنة يؤدون لها الخدمات والشعائر .

٢٢٥- وفي وسط الزعازع والأهواء التي عصفت أثناء القرن السادس

ومضت نعمة الله كالبرق الذى يشق الظلام إذ قد أوجد نالى للكنيسة رجالاً ونساء يدركون مسؤولياتهم ويؤدون واجباتهم . ومن بين الذين ملأ خوف الله قلوبهم الراهب يوليانوس الذى فضل أن يشغل نفسه فى توصيل رسالة المسيح إلى الذين لم يسمعوها بدلاً من أن يخوض فى الجدل السياسى والمناقشات العقيدة . وجمال بصره فوجد أن بلاد النوبة فى ميسس الحاجة إلى من يثبت أهلها على الايمان القويم .

وكان يوستينيان إذ ذاك ممسكاً بزمام الحكم . وقد دفعه استبداده إلى الزج بالأنبا ثيلودوسيوس البابا الاسكندرى فى أحد سجون القسطنطينية . ولكن الامبراطورة ثيودورا كانت أرثوذكسية العقيدة وكثيراً ما تشفعت فى المتمسكين بهذه العقيدة لدى زوجها . ورغم تصفه فإن يوستينيان كان يقبل شفاعتها (١) . ومن ثم استطاع البابا السجين بمعاونتها أن يبحث برسالة إلى أسقفى أسوان وفيلا يوسيهما فيها بالنوبيين .

٢٢٦- وفى الوقت عينه لم يرق للامبراطور أن يحمل آباء الكنيسة المصرية بشرى الخلاص إلى جيرانهم فى النوبة . فرأى - رغم قبوله شفاعته ثيودورا - أن يرسل وفداً من عنده ليبشر للنوبيين مداومة منه لكنيسة الاسكندرية . وكان الراهب يوليانوس رائد الوفد القبطى موجوداً إذ ذاك فى النوبة واستطاع بنعمة الله أن ينشر الايمان .

وفى سنة ٥٤٢م غ وصل وفد الامبراطور إلى المملكة المتاخمة للحدود المصرية والتي كانت عاصمتها وقتذاك مدينة فريس . ولكن ميلكو ملكها رفض هذا الوفد الامبراطورى إذ كان قد اطمان إلى وفد الكنيسة القبطية ولزناح إلى معاملته وتعاليمه . وكان لهذا التصرف الملكى أثر بعيد لأن الراهب يوليانوس قضى فى تلك المملكة ثمانى عشرة سنة نجح خلالها فى تأسيس

(١) قارن هذا بقول السيد المسيح : «فإن كنتم وأنتم تفرحون أن تسطروا أولادكم عطايا جيدة فكم بالجرى أبوكم الذى فى السموات يهب خيرات للذين يسألونه» (متى ٧ : ١١) . أما الشفاعة فهي معمول بها منذ العهد القديم -راجع تكوين ١٨ : ١٧-٢٣، أرميا ٧ : ١٦ و ١٤ : ١١ و ١٥ : ١- وهذه لفظة قبطى وهناك آيات غيرها كثيرة فى المهددين للتقديم والجديد .

كنيسة منظمة لها رعاتها وخدامها العاملين فيها . ثم سلم الشعلة المقدسة إلى راهب آخر اسمه لونجينوس كرس حياته تكريساً تاماً لخدمة الشعب النوبى .

٢٢٧- وقد نهج الملك أريثيوم لبن الملك سيلكو منهج أبيه من طاعة للوفد الكنسى القبطى . وتحت تأثير لونجينوس أمر جلالته بتحويل المعابد إلى كنائس .

ثم سمع ملك علوه (المملكة الوسطى) بجهد لونجينوس الروحى المستمر فبعث إليه برسالة سنة ٥٧٥ يدعوهُ أن يأتى إلى بلاده . فلبى الدعوة فوراً وذهب إلى منطقة سوريا . فلم يلبث أن اكتسب الملك إلى الايمان فامتدت المسيحية بجهدوه حتى بلغت ضفاف النيل الأزرق . ولشدة فرح الأنبا ثيودورس أسقف فيلا بأعماله تحدث عنها إلى الأنبا دميانوس الذى كان يجلس إذ ذاك على السدة المرقسية وفرح البابا بدوره فرحاً جعله يرسم لونجينوس أسقفاً على النوبة سنة ٥٨٠ .

٢٢٨- واستكمالاً لرسالتهم ترجم القبط الكتاب المقدس إلى اللغة النوبية مع أن اللوبيين كانوا يجيدون قراءة اللغة المصرية . وأصبحت النوبة أسقفية تابعة للكرسى المرقسى ومع ذلك فقد سار للقبط معهم على خطة احترام قوميتهم كما احترمو من قبل القوميات المختلفة فى كل المناسبات التى ربطت بينهم وبين الشعوب الأخرى (١) .

٢٢٩- والكنائس النوبية صغيرة الحجم ولا يستلنى من ذلك إلا الكنائس التى كانت أصلاً معابد فرعونية ولا يزال هناك عدد من الكنائس تزينها الأعمدة التى تعلوها الزخارف شأنها فى ذلك شأن المعابد السابقة على العهد المسيحى (٢) .

(١) راجع ص ٣٩ من الجزء الأول لهذا الكتاب .

(٢) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ج ١٦ ص ٥٨٤ - ٥٨٦ ، دليل المتحف القبطى لمرقس سميكة ج ٢ ص ١٤٠ - ١٤١ ، كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا للدكتور زاهر رياض : الكتاب الثالث ص ١٤٧ - ١٩١ .

٢٣٠- ومما يجدر ذكره هنا أن العلماء الذين اشتغلوا منذ سنة ١٩٦٠ في إنقاذ الآثار الفرعونية في النوبة قبل أن تجرفها مياه النيل عند اكتمال بناء السد العالي قد عثروا على عدد من الكنائس مزبانة بأيقونات ملونة ومذهبة . وقد وجد هؤلاء الباحثون في كنيسة فريس (١) سجلاً يحتوي على أسماء خمسة وعشرين أسقفاً من أساقفة باشوراس (٢) تحت الناحية الجنوبية الشرقية داخل الكنيسة هناك . كذلك عثروا في كنيسة قصر إبريم على جثمان أسقف لتلك الجهة يحمل تقليد رسامته بالقبطية وصورة منه بالعربية . ومن بين الكنوز التي عثروا عليها عدداً من المخطوطات مازال تحت البحث والدراسة . ويقول الأستاذ بلوملي (٣) بأنه يرجح وجوب إعادة كتابة تاريخ النوبة الكنسي بعدما تنكشف حقائق هذه المخطوطات .



(١) لو Faras .

(٢) لو Pachoras - راجع مجلة المتحف الأعلى ببرارسة لعدد الثاني سنة ١٩٦٣ ص ٣٣ .

(٣) Prof. Plumly وهو أستاذ للتاريخ بجامعة كامبردج (إنجلترا) وأحد الذين اشتغلوا بإنقاذ آثار النوبة .

القرن السادس في الميزان

- (٢٣١) هو قرن ملهى بالأعاصير والعواصف .
 (٢٣٢) ميزناه : المقاومة المستمرة والأبناء الأعلام .
 (٢٣٣) المتمرد على الامبراطور موريس .
 (٢٣٤) التجاء هذا الامبراطور إلى المكر والخديعة .
 (٢٣٥) الساع الخرق بين المصريين ومستعمرهم .

٢٣١- كان القرن السادس على وشك الانتهاء . وقد كان هذا القرن بالنسبة للمصريين لكنيستهم قرن الأعاصير والعواصف . فقد كانوا يحرسون الحرص كله على ما سلمه إياه آبائهم من تراث مجيد . ولقد طالما وقفوا في وجه الأباطرة وقفة الأبطال دفاعاً عن إيمانهم الأرثوذكسى للصميم : ومن البلايا التى أصابتهم نفى باباوات الاسكندرية الأصليين المنتخبين من الشعب وتجليس الدخلاء من صنائع أباطرة القسطنطينية على السدة المرقسية . ورغم ما حل بالمصريين من كوارث ، فقد ظلوا متمسكين باستقلال كنيستهم ، رافضين أن يعطوا ولأئهم لغير باباواتهم الشرعيين .

٢٣٢- ويتصف هذا القرن بميزتين عظيمتين : أولاهما المقاومة الشعبية المستمرة التى كانت تتحول فى غالب الأحيان إلى ثورة علنية ضد أباطرة القسطنطينية ، وثانيتهما فحول الآباء الذين أنجبهم هذا القرن والذين كانوا للباباوات الاسكندريين خير عضد فى دفاعهم عن كنيسة آبائهم وأجدادهم (١) .

٢٣٣- وقد قَدَّرَ للأنبا دميانوس أن يُعَمَّرَ حتى أنه عاصر فى سنى باباويته أربعة أباطرة هم يوستين الثانى وطيباريوس وموريس وفوكاس (قروفا) .

(١) قارن بين هذا الجهاد فى سبيل القومية وبين الجهاد الذى دارم عليه المصريون فى مقاومتهم للبطالسة دفاعاً عن مصرتهم فى الفصل الخاص بالمدرسة الاسكندرية الوارد فى الجزء الأول لهذا الكتاب .

ولقد كان للتوتر بين المصريين وبين النخلاء المستعمرين خفياً في عهد الامبراطورين يوستين الثاني وطيباريوس . ولكن لم يكد الامبراطور موريس يحتل عرش القسطنطينية حتى اشتدت وطأة التوتر مما دفع بالمصريين إلى أن يتمرّدوا على القيصريين ويضرموا عليه نار الحرب بقيادة ثلاثة اخوة هم مينا وأبيسخيرون ويعقوب . وقد لاحقوا القوات الرومانية في قتالهم حتى جزيرة قبرص .

٢٣٤- ولما رأى الامبراطور موريس أن المصريين انتصروا على جيشه رغم سطوته وجبروته قرر أن يلجأ إلى الخديعة والمكر . فبعث إلى أولوجيوس الأسقف الدخيل برسالة يطلب إليه فيها أن يفاوض زعماء مصر في الصلح . وفي أثناء هذه المفاوضات أقام ذلك الامبراطور على القوات الرومانية المراقبة في مصر قائداً جديداً شديد البطش عديم الاحساس . تمكن من تعزيز الجيش خمسة واستطاع بذلك أن يخمّد نار الثورة ثم غدر بالمصريين شر غدر فقطع رؤوس زعمائهم الثلاثة ونفى ابن مينا (الأخ الأكبر) خارج البلاد كما شرّد جميع الزعماء إذ خشى أن يعاودوا الكرة في التمرد على الامبراطور .

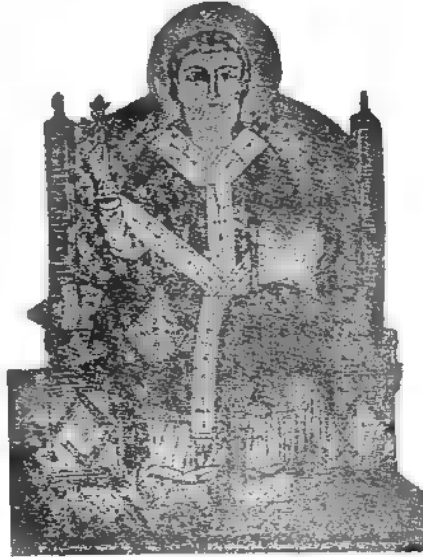
٢٣٥- وكانت نتيجة هذا الخبر ازدياد الاضطراب في كثير من جهات القطر المصري . وقد أدى ذلك إلى إثارة غضب المستعمرين على المصريين والمخالفة في التنكيل بهم . فصدر مرسوم امبراطوري يقضى بفصل جميع المصريين من المصالح الحكومية ، وبذلك اتسع الخرق بين المصريين وبين حكامهم الأجانب . ولكن أبناء الشهداء ظلوا متمسكين باستقلالهم الفكري الروحي الذي دفعوا في سبيله أفدح الأثمان (١) .



(١) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى للقمص س ٣٦٥ - ٣٦٦ .

الأسقف بيسنثيوس

- (٢٣٦) شخصية هذا الأسقف .
(٢٣٧) اجراء الآيات على يديه .
(٢٣٨) رؤيته غير المنظور .
(٢٣٩) انتقاله إلى بيعة الأيكار .
(٢٤٠) وثيقة تشهد بما تجمل به
بيسنثيوس من عطف .



الأدبا بيسنثيوس
أسقف فقط

٢٣٦- ولقد وقف أساقفة الكرازة المرقسية في الطليعة مع أبنائهم خلال جميع هذه الثورات . كما وقف الأنبا فيلياس (١) وغيره إلى جانب الأنبا بطرس خاتمة الشهداء (٢) ، هكذا حمل الأنبا بيسنثيوس أسقف فقط والأنبا يؤنس

(١) هو أحد الشهداء الذين راحوا منحية الامبراطور ديوقديانوس - راجع ص ١٣٤ - ١٣٨ من الجزء الأول لهذا الكتاب .

(٢) هو البابا الاسكندري ١٧ وأخر من سقطوا في اضطهاد ديوقديانوس .

أسقف السبرلس وغيرهما عبء القيادة مع البابا دميانوس .

ولد بيسنثيولوس من أسرة مسيحية محافظة على التعاليم الروحية المجيدة ، فدفعه تطلعه نحو الكمال الروحي إلى أن يهجر بيت أبيه ويذهب إلى وادي النطرون حيث قضى بضع سنين في دير يرعاه دانيال قمص شهيت . وفي الفترة التي قضاها في الدير حفظ عن ظهر قلب سفر المزامير وأسفار الأنبياء الإثني عشر الصغار واتجيل القديس يوحنا البشير (١) . ثم ترك الدير وانفرد في صومعة آملاً في أن يقضى عمره في وحدة مع الله . غير أن ما اشتهر به من علم وصلاح قد حول إليه أنظار أهل قفط إثر نياحة أسقفهم فانتخبوه لرعايتهم . وفي أثناء رسامته سمع في الكنيسة صوت يقول : مستحق بيسنثيولوس الرجل الصالح أن يرعى رعية الله الحي ، فلما سمع الحاضرون ذلك الصوت السماوي وجدوا الله في علاه .

٢٣٧- وما أن نال بيسنثيولوس كرامة الأسقفية حتى وقف كل جهوده على خدمة شعبه . فكان يتفق في مصالح ذلك الشعب كل ما اتصلت إليه يداه من مال وقد منحه الله من القوى الروحية ما يبرئ السقيم بمجرد وضع يده عليه . فكان المرضى يسارعون إليه من كل بلد . ولتعلق الناس به وفرحهم بما نال من نعمة لقبوه بطر ايبارشيتته وحامى بلاده (٢) .

٢٣٨- ولما كان دائم الاتصال بالعالم الروحي فقد وهبه الله تعالى أن يرى - وهو يرفع الذبيحة المقدسة - أجواق الملائكة محيطة بالمذبح . فدأب على أن يصل بشعبه إلى الكمال المسيحي . وكان لعذوبة تعبيره وتسلسل تفكيره المنطقي في النفوس أثر عظيم .

٢٣٩- ولما دنت ساعة انتقاله إلى بيعة الأبيكار أحس بها مقدماً ، فجمع أبنائه وحدثهم بعظائم الله وأوصاهم بأن يظلوا أمداء على التديعة الأرثوذكسية التي اتقنهم عليها حتى النهاية . ثم استودع روحه يدي الكاهن الأبدى .

(١) دراسة المسيحية في مصر في القرن السابع (بالفرنسية) لأميليو س ١٩ .

(٢) شرحه ص ٢١ حيث يقول : *lumière du pauvre* ■ *Pisentios était regardé comme* " nome et la protection de tout le pays " .

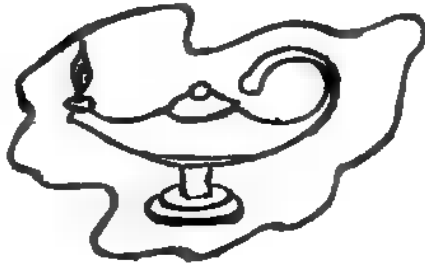
رقد بلغ في القداسة مكانة سامية لسمح الله بأن تجرى الآيات والمعاجيب باسمه بعد مماته . فقد احتفظ تلميذه بقطعة من ثوبه للكهنة الأبيض ، وكان يضعها على من يأثونه من المرضى فييرلون (١) .

٢٤٠- ومن الكورز التي حصل عليها المتحف القبطي ببابلون (مصر القديمة) سنة ١٩٤٣ قطعة من الحجر الجيري وجدت بين المسالكات المعروفة باسم مجموعة « جيمي » (٢) ، وهي تحوى خطاباً من أرملة مسكينة إلى «بيسنفيلوس» رئيس الكهنة الحق . وكانت هذه الأرملة في صديق عظيم . ذلك لأن القرس كانوا في عراك مستمر مع الليبزنطيين ، وكانت رعى الممارك لا نهذاً إلا لاندور بين هاتين الامبراطوريتين . فكانت النتيجة الطبيعية أن يفوز القرس تارة ويفوز الليبزنطيون طوراً . ولم يهنا المصريين في كلا الحالتين إذ كان القرس يمتعون في الاستبداد بهم كما يمن الليبزنطيون في التصف معهم سواء بسواء . وقد عاشت الأرملة صاحبة الخطاب المشار إليه في وقت انتصر فيه القرس على الليبزنطيين ، فخلعت جيوشهم الطافرة مصر واستبد حكامهم الغاشمون بشعبها . وقد ضاعف القرس الضرائب على المصريين ، ولم يهمهم غير لبتزاز الأموال سواء كانت في أيدي القادرين أو أيدي العاجزين . فإن لم يستطع مصري أن يسدد ما فرضوه عليه صلدوا ما لديه من عقار وأخذوا ما فرضوه عليه مضاعفاً . فكانت هذه الأرملة بين من صودرت أموالهم فلم يبق لديها غير رأسين من القطن اضطرت إلى أن ترهنهما لتدفع ما فرض عليها من ضريبة . وبعد هذا كله اكتشف للحكام الطغاة أنها لا تزال تملك البيت الصغير الذي تطله فأرادوا أن يستولوا عليه أيضاً . وحين ضاقت الأرملة ذرعاً بهذا الجور لم تجد أمامها من تستنجد به غير الأسقف

(١) مخطوط عربي رقم ٤٧٠ تاريخ من ١٢٠ - ١٢٧ محفوظ بالمتحف القبطي ويضمن سيرة الأنبا بيسنفيلوس أسقف قسط ، السكران العربي طبعة رينيه باسمه من ٦٤٩ - ٦٥١ ، السكران الأنثوني ترجمه إلى الإنجليزية وأعيد بوزج جـ من ١١١١ - ١١١٢ .

(٢) في القيمة تقدم عليها المعبد القروني المعروف باسم « مدينة هابر » على الضفة الغربية من النيل مقابل مدينة الأقصر .

بيسلفيوس (١) الذى رجى منه أن يشفع فيها لدى الولاة الفاشمين . ومما يؤسف له أن الباحثين لم يعثروا بعد على الوثائق التى تبين لنا النتيجة التى أسفر عنه هذا الخطاب . غير أنه مما لا شك فيه أن مثل هذه المكاتبة دليل ساطع على متانة الصلة بين الأسقف وشعبه فى القرن السابع . وأن الناحية الانسانية البادية فى الخطاب لا تزال تفعل قطعا فى القلوب حتى الآن (٢) .



(١) يرى المستشرقون أن الأسقف بيسلفيوس المذكور فى الخطاب هو صاحب هذه السيرة رغم أن الخطاب لا يحدد شخصيته بالذات .

(٢) نشر المستشرق الانجليزى دريشر نص الخطاب الذى رفعه الأرملة فى أصله القبطى مع ترجمته الانجليزية فى مجلة جمعية الآثار القبطية للعدد العاشر (سنة ١٩٤٤) من ٩١ - ٩٦ . ورغم دراسته هذه بقوله : " the letter bears edifying witness to the relations between bishop and people in the VII century Egypt, and its human interest has lost nothing with the passing of time " .

وترجمته ما يلى : « والخطاب شهادة قيمة للصلة بين الأسقف والشعب فى القرن السابع فى مصر ، وسمته الانسانية لم ينقصها مر الأيام ، ولعلنا سيرة هذا الأسقف فى نسخة خطية بالمتحف القبطى رقم ٤٧٠ تاريخ من ورقة ٣٠ (ط) - ١٣٧ (ج) .

الأنبا يونس أسقف البرلس

- (٢٤١) يونس سليل أسرة كهنوتية (٢٤٢) انتخابه أسقفًا على البرلس .
عريقة . (٢٤٤) النور يشع من وجهه .
(٢٤٢) رهبنته في شيهيت ثم انفراد (٢٤٥) كتابته السنكسار .
في صومعة . (٢٤٦) نياحته .

٢٤١- وبين معاصري بيسنثيوس الأنبا يونس أسقف البرلس الذي عرف معنى الرعاية الحقة وساند باباه دميانوس في تعليم الشعب . وكان من أسرة كهلوتية عريقة كما كان وحيد أبويه . فلما توفيا بنى بمالهما بيعة ومضيفة للغرباء والمساكين وكان يتولى خدمتهم بنفسه .

٢٤٢- وحدث ذات يوم أن جاء إلى المضيفة راهب كان قد حضر إلى المدينة ليبيع السلال التي جدلها الرهبان ، وأخذ يتحدث عن روعة الرهبنة وجلالها . فكان لكلامه في نفس يونس أثر دفعه إلى أن يوزع أمواله على المساكين ويذهب إلى البرية إلى الدير الذي يرأسه دانيال قمص شيهيت كما فعل بيسنثيوس . كذلك نهج يونس منهج أسقف فقط في أنه توجد بعد أن قضى بضع سنين في الدير ولقد انتصر على كل تجربة شيطانية بقوة الله الحالة فيه .

٢٤٣- ثم حدث أن ألهم الروح القدس كهنة البرلس وشعبها أن ينتخبوا هذا القديس الفاضل أسقفًا لهم . فما أن اعتلى كرسى الأسقفية حتى جاهد الجهاد الحسن في اقتلاع الزوان من بين الحنطة . فقد حدث في أيامه أن ادعى راهب من أهل الصعيد أن الملاك ميخائيل يوعز إليه بكل التعاليم التي ينادى بها والتي كانت غريبة عن الكنيسة - فضلل بعض السذج بهذا الادعاء . فلم يجد الأسقف يونس بداً من أن يضع حداً لهذا التضليل فنشر رسالة مضمناها التعليم الأرثوذكسى ، ثم جرد هذا الراهب المبتدع من أسكيم الرهبنة .

٢٤٤- ومما يؤثر عن هذا الأسقف أنه كان - في كل مرة يرفع الذبيحة

الإلهية - يؤخذ بها إلى حد أن نوراً سماوياً كان يشع من وجهه ويراه الشعب حين ينتهي من القداس فيبهر أنظاره .

٢٤٥- وقد كتب هذا الأسقف للعالم كثيراً من سير الشهداء والآباء والمعترفين ، وأمر بقراءتها في الكنائس لتعظيم الشعب ، وبهذه الوسيلة وضع للكنيسة التقليد المعمول به للآن ولذا يقضى بقراءة السنكسار كلما أقيمت شعائر القداس الإلهي .

٢٤٦- وبعد أن قضى السنين الطوال في الجهاد والتعظيم أراد الله تعالى أن يريحه من مشاق هذا العالم فرأى في رؤى الليل الأنبا أنطوني والأنبا مكاري يدبانه بقرب انضمامه إلى بيعة الأبرار . فجمع شعبه وحثه على المحبة المتبادلة عملاً بالتعاليم الإلهية التي كتب عنها البشيريون ، والتمسك بالإيمان الأرثوذكسي حتى النفس الأخير - ثم رقد بسلام (١) .



(١) السنكسار الأنطوني ترجمه إلى الإنجليزية وليس بودج ج ٢ ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

دانيال قصص شهيدية

- (٢٤٧) الرهبان يخدمون ويعلمون - (٢٥٠) دانيال وقاطع الأحجار .
 (٢٤٨) رئاسة القمص دانيال تشمل - (٢٥١) وصية القمص دانيال
 الرجال والنساء - ونهايته .
 (٢٤٩) الشريعة أنستاسيا ضمن من
 تكلّموا له .

٢٤٧- لم يكن الأنبا بيسنطيوس أسقف فقط ، والأنبا يونس أسقف البرلس ومن إليهما من الأساقفة الأجلاء سوى كواكب من الطبقة الأولى تسطع في سماء صافية مزديانة بالآلاف الكواكب المختلفة الأحجام . وكانت الأديرة في القرن السادس تزخر بالرهبان الممثلين نعمة حتى لقد ملأ شذاهم الأرجاء كالبحور الزكي وهكذا تتابعت سنو الفيض واحدة تلو الأخرى (١) . وكان النظام في الأديرة الباخومية متبعاً بدقة إلى حد أن جموع للرهبان كانوا مقسمين إلى فرق - لكل فرقة منهم عملها الخاص . فالبعض منهم كان يعتنى بالمرضى والمصابين بأرواح شريرة ، والبعض ينظم للخدمات بين الفقراء والمعوزين ، والبعض يشرف على المستشفيات - بل لقد كان عدد منهم مسئولاً عن أقسام خاصة من هذه المستشفيات تبعاً لاختصاصه ، وجميعاً كانوا مشغولين بكرم الضيافة والعناية بالغرياء . وهذه الأعمال تبين إلى أي حد عاش الرهبان مسيحياتهم (٢) . ولم تقف خدمات الرهبان عند هذا الحد بل تجاوزتها إلى

(١) دراسة المسحية في مصر في القرن السابع (بالفرنسية) لآميليوس ٢٠ حيث يقول :
 (... à la fin du VIème siècle, la ferveur de ces moines était tellement grande que tout le pays était embaumé du parfum de leurs vertus, et que les années d'abondance succédaient sans interruption aux années d'abondance) .

(٢) التاريخ للوزياكي ترجمه إلى الفرنسية لوكرو ٤٧ حيث يقول :
 (... Les travaux : Les travaux des Pakhômiens étaient strictement réglés et au VIème siècle encore, les moines fournirent des équipes de travailleurs . Le soin des malades, l'apostolat, les devoirs de fraternité et d'une hospitalité affable et prévenante, le traitement d'innombrables démanigues l'assistance des indigents, l'entretien des hopitaux si répandus, et déjà si spécialisés, nous prouvent comment le monachisme pratiquait la charité) .

التعليم ، لأن الأديرة كانت قد أصبحت محاريب للعلوم الدينية والمدنية ، فكان لها أبعد الأثر في تاريخ المجتمع القبطي وكنيسته وفي تاريخ الديار المصرية أيضاً (١) . ويرجع الفصل في هذا الأثر البارز إلى أن الرهبان لم يستأثروا بما أحرزوا من علوم بل دأبوا على نشرها بين أفراد الشعب . ولغيرتهم على اخوتهم - أبناء الكنيسة المصرية - قسموا مدارسهم إلى نوعين : النوع الأول هو المدارس التي افتتحوها داخل الأديرة ووقفوا التعليم فيها على الرهبان ، والنوع الثاني هو المدارس التي افتتحوها في القرى المجاورة للدير حيث كان رئيس الدير ينتدب من يراه صالحاً من الرهبان لتلقيين الأطفال القراءة والكتابة والحساب ومبادئ الدين (٢) .

٢٤٨- وكان يقوم بالتعليم في داخل الأديرة الشيوخ من الرهبان الذين اشتهروا بالعلم والتقوى لأن برامج الدراسة كانت واسعة تهدف إلى اعداد الرهبان لحسن تأدية رسالتهم . وبين هؤلاء الشيوخ الحكماء دانيال قمص شيهيت الذي خدم بلاده أعظم خدمة بأن قدم للكنيسة أساقفة أعلام ، وليس ذلك فحسب بل أن رعايقه شملت المتبتلات أيضاً فرعاهن أحسن رعاية .

٢٤٩- وبين العذارى اللواتي تمكن تحت رعاية دانيال الشريفة أنستاسيا . فقد جاءت ذات يوم متخفية في زي الرجال وأعلمته بحقيقة أمرها ، كما أنبأته بأنها فرت من وجه امبراطور القسطنطينية الذي أراد التزوج منها . وحين

(١) التدريب في مصر في العصر للمسيحي وبين القبط (بالانجليزية) مقال للدكتور جورجى صبحى نشره في مجلة الآثار القبطية الممد للتعلم سنة ١٩٤٣ ص ١١٢ ، وأن من يدرس الرصية الموجهة إلى الراهب (أو الراهبة) يستلج منها نشأته بخمات مختلفة . فمثلاً ورد في المخطوط العربي سنة ٤٠٥ ملص المخطوط بمكتبة المتحف القبطي في الجزء للمتعلق بقسمه الراهبات ما يلي : لا تختصني عن اخواتك الراهبات بشئ دونهن ، وافقدي للمرضى ، زوري المحبرسين عزى المتصليقين لدرسي الكتب الإلهية وداومي على قراءتها لتضيئ نفسك بنعمة الروح القدس ، وكوني مثلاً صالحاً للذين ينظرونك . وقد وردت هذه الرصية بجنبها في المخطوط القبطي سنة ٧١ المقيد في الكتف تحت رقم ١١٢ والمخطوط بالمكتبة الأهلية ببازيس . ويتضح منها لسلهاض همة المخفارة للهبة لأن تخدم الناس - كلاً حسب حاجته .

(٢) شرحه ص ١١٤ - ١١٥ .

عرف منها قصتها أرشدها إلى مغارة قريبة من ديرها عاشت فيها . وكان أحد تلاميذ القمص دانيال يحمل إليها الخبز والماء مرة أسبوعياً ويتركهما عند باب مغارتها ويمضى لحال سبيله . وكانت - كلما ساورتها الهواجس والهموم وصفت جميع ما خالجهما من مشاعر بكتابه على حجر وتركت هذا الحجر عند باب المغارة . فلما جاء تلميذ دانيال بالخبز والماء ووجد هذا الحجر حمله إلى معلمه . فكان دانيال يكتب لها بدوره ويبحث بالرد مع تلميذه فتهدأ هواجس أنفاسها . ولما كانت تكتب باليونانية ، ولما كان دانيال قد اختار رسوله إليها ممن يجهلون هذه اللغة فقد كانت اعترافاتها سرّاً مكتوماً . وقد ظلت على هذه الحال ثمانى وعشرين سنة ولم يسمع أحد بها إلا بعد نياحتها^(١) .

٢٥٠- ولقد حدث ذلك يوم أن ذهب للقمص دانيال إلى المدينة ليبيع السلال التي صنعها بيديه فالتقى برجل يدعى أولوجيوس كان مضيفاً للفقراء معيناً للفقراء . وكان هذا الرجل يعمل طيلة يومه بما يساوى أوقية من الذهب . فكان لا ينفق مما يربحه فى يوم إلا ما يكفى لسد رمقه ويوزع الباقي على المحتاجين ثم يلقى بالفصلات إلى الكلاب . فلما رأى القمص دانيال ما يبذله أولوجيوس من احسان صلى إلى الله بحرارة ليجود عليه بما يعينه على مضاعفة احسانه . ولم تمض على هذه الصلوات الحارة غير أيام معدودات حتى عثر أولوجيوس على كنز ثمين فلعب المال برأسه ونفقه إلى أن يهجر مدينته ويرحل إلى القسطنطينية . وهناك استعان (بالمال الذى معه) ليبلغ منصب الوزارة . وحين تحقق طموحه تولى للفقراء والمعوزين .

وفى تلك الآونة رأى القمص دانيال أولوجيوس فى حلم - رآه وهو يتقلب على فراش الدميم مغفلاً أعمال البر التي كان يعملها أيام أن كان فقيراً ثم رأى السيد المسيح جالساً على عرش القضاء يطالبه هو - دانيال - بنفس أولوجيوس التي حفرها القنى . فلما استيقظ للقمص دانيال من نومه وذكر ما رآه فى الحلم ارتاع وأخذ يتהל إلى الله بلجاجة أن يعيد أولوجيوس إلى ما كان عليه

(١) الصادق الأمين القمص غيارثوس والقمص ميخائيل الراميين بدير الأنبا مكري الكبير ج ١ ص ٢١٨ - ٢١٩ .

وأن يغفر له ما سبق أن طلبه لأجله بصفاء سريرة . ولم يفتض على ذلك زمن طويل حتى مات الامبراطور وخلفه على عرش القسطنطينية امبراطور جديد عزل أولوجيوس عن منصبه الوزارى . وخشى أولوجيوس بطن الامبراطور به فعاد إلى مدينته تاركاً خلفه كل مظاهر العظمة ، وعاود عمله السابق الوضيع - وهو قطع الأحجار - كما عاود احسانه إلى ذوى الحاجة . وسمع دانيال بعودة أولوجيوس فتهلل قلبه ، ثم ذهب إليه وروى له كل ما رآه فى مقامه بشأنه وحمد الله الذى أعاده إلى ما كان عليه . فانضم أولوجيوس إليه فى حمد الله وتسبيحه ، وقضى ما بقى من حياته فى عمل الخير والاحسان (١) .

٢٥١- ولقد عاش دانيال قمص شيهيت أربعين سنة ونصف فى الصحارى مداوماً على الصوم والصلاة ، مهتماً بتعليم الرهبان والراهبات الخاصين لرياسته وعندما دنت ساعة انتقاله من هذا العالم أعلمه بها ملاك الرب ، فجمع حوله الرهبان والراهبات وأوصاهم بأن يظلوا محافظين على المحبة التى هى رباط الكمال ، متمسكين بايمانهم الأرثوذكسى الذى ارتضى جدودهم أن يبذلوا فى سبيله أرواحهم ثم استودع روحه يدى الآب السماوى وانتقل إلى بيعة الأبقار بسلام (٢) .



(١) عن نشرة : أولوجيوس قاطع الأحجار ، إحدى مطبوعات دير العذراء للشهير بالسريان بولدى النطرون - طبعت بمطبعة الدير فى يونيو سنة ١٩٥٦ .

(٢) الصادق الأمين للقمص فيلوثيوس وللقمص ميخائيل الراهبين بدير الأنبا مكارى الكبير ببرية شيهيت ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥ .

نور وظلال : ١- الأنبا أنستاسيوس

(٢٥٧) انتخاب أنستاسيوس قمص	(٢٥٦) حضور ملو أنستاسيوس الأنطاكي إلى مصر .
(٢٥٢) كنيسة الانجيليين الأربعة .	(٢٥٧) انتصار الفرس وفستكهم بطش الامبراطور فوقاً .
(٢٥٤) غضب أولوجيوس الدخيل ومضايعته الاضطهاد .	(٢٥٨) عنابة البابا الاسكندري باللاجئين .
(٢٥٥) نياحة البطريرك الأنطاكي وعودة المياه إلى مجاريها .	(٢٥٩) كتابته اثنتى عشرة رسالة .

٢٥٢- وسرت مزجة من الحزن بين المصريين جميعاً على أثر سماعهم نبأ انتقال الأنبا دميانوس إلى صفوف الكنيسة المنتصرة ، ولم يخفف من حدتها إلا اتجاه القلوب إلى الله طالبين منه تعالى أن يجبر بينهم باقامة البابا الرؤوف الصالح لهم . فاستجاب الطلئ تضرعاتهم ووجه أبصارهم إلى القمص أنستاسيوس كاهن كنيسة « الانجيليين الأربعة » (١) . فقد تعلم هذا الكاهن في المدرسة الاسكندرية واشتغل قاضياً في القصر الملكي لأنه كان ابناً لشريف من أشراف المدينة . على أنه استقال من منصب القضاء رغم ما تمنع به من جأه عن طريقه لكي يخدم الكاهن - أي أنه ترك خدمة الملك الأرضي ليعبد الملك السماوي . فازداد المؤمنون تقديراً له ولجلوه كل الاجلال . ولم يلبث تقديرهم له أن تحول إلى محبة صادقة لما رأوه فيه من اخلاص وتقان ومن حكمة واستقامة . وكانت هذه المزاجيا خير تزكية له للكرامة الأسقفية العليا . ومن ثم اقتاده الشعب إلى الكنيسة المرقسية حيث وضع الأساقفة اليد عليه فأصبح الخليفة السادس والثلاثين للقديس مرقس الرسول سنة ٥٩٨م (سنة ٣١٤ش) .

٢٥٣- وكان يجلس على عرش القسطنطينية إذ ذاك الامبراطور فوقاً . وكان هذا الامبراطور أشد بطشاً وتصفاً من غيره من الأباطرة . فقد بعث

(١) هي إحدى للكنائس التي لم يبق لها أثر إطلاقاً .

بأوامره المشددة إلى ولايته في مصر بمضاعفة الاضطهاد على المصريين ولأن يختصوا البابائولت والأساقفة بالنصيب الأوفر من هذه الاضطهادات مما اضطر البعض منهم إلى مغادرة عواصمهم والالتجاء إلى الصحراء حيث يستطيعون الصوم والصلاة من غير قلق ولا اضطراب . على أن الأنبا أنستاسيوس - لكونه من عائلة شريفة - لم يضطر إلى مغادرة عاصمته إذ كان الولاة رغم تصفهم بحسبون حساب . لذلك كان هذا البابا الاسكندري يقابل ما يبلغه من تهديد ووعيد بعدم المبالاة ، كما كان ينتقل من مدينة ومن قرية إلى أخرى ليتفقد رعيته غير آبه لأوامر الحكام . فأدت جرأته إلى ازدياد احترام الحكام له مما جعلهم لا يمرضون له مطلقاً أثناء طوافه بمختلف الجهات . وكان - كلما غادر الاسكندرية ليتفقد أهالي جهة ما - يود ثانية إلى عاصمته من غير تردد . ومن دواعي فخرونا أنه رغم اللطش المتواصل قد دعت الضرورة للبابا أنستاسيوس إلى رسامة عدد كبير من الكهنة في جهات متفرقة ، وبخاصة لأنه كان قد استرد بعض الكنائس التي كان للخلقيديونيون قد سلبوها . كذلك بنى عدة كنائس جديدة . وكان - كلما شاد كنيسة جديدة - شاد إلى جوارها مقراً للأساقفة والكهنة (١) .

٢٥٤- وراقب أولوجيوس الدخيل تنقلات الأنبا أنستاسيوس باهتمام بالغ وضاق ذرعاً بجسارة هذا البابا ونجاحه والتفاف الشعب حوله . فلم يجد تفكيراً لما ملأه من غيظ إلا برفع الشكوى إلى الامبراطور فوقاً . فكتب إليه يقول إن الأنبا أنستاسيوس قد عقد مجمعاً من أساقفة الكرازة للعرسية أعلنوا فيه جميعاً حزمهم لمجمع خلقيديون المشلوم ولكل من ناصره ويناصره . وسرى الغضب من أولوجيوس الدخيل إلى الامبراطور الذي عينه فبعث هذا الامبراطور برسالة عاجلة إلى والى الاسكندرية يأمره فيها بالاستيلاء على كنيسة قرمان ونضحيان وأمهما واخواتهما (٢) ، كما يأمره بمضاعفة التفك بالمصريين . وحين ذهب إلى والى الاسكندرية مع أولوجيوس الدخيل في كتيبة من الجند ليستولوا على

(١) السكسار الأثيوبي ترجمه إلى الانجليزية واليس بروج ج٢ ص ٣٩٥ .

(٢) هذه العائلة المولقة من الأم وأولادها الخمسة استشهدت في اضطهاد ديوكليانوس ، ولها كنيسة حتى الآن باسم الخمسة وأمه ، في منول شبة جنوب القاهرة .

الكنيسة المذكورة قام الشعب الاسكندري بثورة هادرة استشهد فيها عدد عديد من المؤمنين الأوفياء . وازداد التوتر بين الحكام وبين الشعب للذى صمم على أن يحول بين الجند وبين الأنبا أنطاسيوس . فكان الجند يحاولون شق طريقهم وسط الجمهور المتكثف بالضرب يمينا وشمالاً . على أن الشعب - رغم وفرة من سقط منه - حال دون وصول الجند إلى باباه . ولم يقتصر البيطش بالمصريين على الاستيلاء على كنيسة قزمان ودميان بل توالى يوماً بعد يوم . فرأى الأنبا أنطاسيوس بازاء هذا الاستبداد أن يغادر الاسكندرية حقاً لدماء أولاده الذين يسقطون دفاعاً عنه . ومن ثم قصد إلى برية شيهيت حيث نهج منهج أرميا الذى فى بكائه على قتلى بنت شعبه (١) . صارفاً أيامه فى الصوم ولياليه فى الصلاة ليتدارك الآب السماوى شعبه بمراحمه الجزيلة . ولقد صدر الحكم الإلهى على فوقاً سريعاً إذ قد قام عليه موريس وقتله واستولى على عرشه.

٢٥٥- وفى تلك الشدة للرهيبة مات بطرس البطريرك الأنطاكى المبتدع وخلفه على سدته راهب يدعى أنطاسيوس . فصارح الأنبا أنطاسيوس إلى كتابة رسالة الشركة إلى البطريرك الجديد دون أن ينتظر للرسالة التى يفرض القانون على الأسقف الجديد أن يرسلها إليه . فلما تسلم مار أنطاسيوس رسالة البابا الاسكندري فرح فرحاً عظيماً إذ كان قلبه شبيهاً بالأرض الصالحة التى متى سقطت فيها البذرة الصالحة أنت بخير الثمار . وفى الحال جمع أساقفته وتلا عليهم رسالة البابا الاسكندري فلغضبوا بها . ثم قال لهم مار أنطاسيوس : « أنتم تعلمون أننا جميعاً نرغب فى السلام ونرحب به . وهذه الرسالة التى جاءتنا من البابا لتعظيم خليفة القديس مرقس الرسول هى عربون مودته وشركته معنا . ونحن لا نسعنا إلا أن نرحب بها ونمد أيدينا إلى صاحبها للجيل مبتهجين ، إذ أننا نعرف أن أرثوذكسية الكنيسة القبطية لا غبار عليها . وقد كانت الشركة المقدسة تربط كرسيه الأنطاكى بالكرسى الاسكندري ، ولم يقطع هذه الشركة غير بطرس المبتدع لزيغه » . وقد قويات هذه الكلمات باستحسان لجماعى .

(١) مزمور أرميا ٢ : ١١ .

وقرر الأساقفة أن يردوا على رسالة البابا الاسكندري وأن ينتدبوا بعضاً منهم للذهاب إلى مصر لتسليمها إليه شخصياً . وقد رأى مار أنطاسيوس أن يرأس هذا الوفد بنفسه مستصحباً خمسة من أساقفته .

٢٥٦- ولما قرب مار أنطاسيوس وأساقفته من الاسكندرية سمع الأنبا أنطاسيوس بقدمهم - وكان لا يزال مقيماً في الأديرة - فخرج من الدير في رهط من رهبانه فالتقى بضيوفه الأجلاء شمالي الاسكندرية واحتفى بهم إذ ردد رهبانه قول داود للنبي: « الرحمة والعدل التقيا . البر والسلام تقابلا » (١) . ثم سار بهم إلى دير على مقربة من شاطئ البحر خارج مدينة الاسكندرية . وقد قضى الأنطاكيون في ضيافة للبابا الاسكندري شهراً كاملاً تناوبوا خلاله المناقشة في الموضوعات الروحية التي تهم الكنيستين . وقد خرجوا من هذه المناقشات على اتفاق وانسجام . ثم رجع الأنطاكيون إلى بلادهم مشرحين مغتبطين بما لا قرا من اكرام المصريين وإخلاصهم .

٢٥٧- ولم يكد الأنبا أنطاسيوس يودع ضيوفه - وقد امتلأ قلبه نشوة لعودة الألفة بين الكرسيين الرسولين - حتى أخذت السحب القاتمة تتكاثر فوق مصر إذ قد أخذ الفرس يزحفون على البلاد المصرية لما أحرزوا من انتصار على القوات البيزنطية المرابطة على حدود الامبراطورية . ونخل الفرس أورشليم ونزعوا الصليب للقائم فوق قبة كنيسة القيامة المجيدة وحملوه إلى بلادهم فاضطر مئات من سكان فلسطين إلى الهرب والالتجاء إلى مصر تفادياً لما قد يقع عليهم من بطش الفرس الذين يحملون الخراب والدمار حيثما حلوا .

٢٥٨- ووجد اللاجئون في مصر الأمان والسلام اللذين يطلبانهم ، لأن مصرنا العزيزة كانت - على مدى الأجيال - أما رؤوماً لجميع المطاردين والمضطهدين وسارع الأنبا أنطاسيوس إلى الترحيب بهم ، وجاهد هو وأساقفته على توفير أسباب الراحة لهم وتأمينهم على عيشهم . غير أن

(١) مزمور ٨٥ : ١٠ (٨٤ في الأجيال للتبوية) .

انقاذهم لهؤلاء المساكين كانت محدودة إذ كان عدد كبير من الكنائس فى
قبضة الخلقيدونيين الذين لم يكتفوا بالاستيلاء عليها بل صادروا أموالها أيضا .
وفى هذه الضيقة التى أحس بها البابا الاسكندرى لأنه عاجز عن تقديم كل
المساعدات التى يرغب فى أدائها ، تجلت رحمة الله بصورة رائعة لشعبه
المصري المعذب وبإباء المحب للكرام ، فحملت قلب الأسقف للخيال - وكان
أسمه يوحنا الريحيم - وحركته لأن يتقدم إلى الأنبا أنستاسيوس ويعرض عليه
مطلوبته فيما يؤديه من خدمات للاجلين . وهكذا جمع حب الخير بين
التعبرين: الأصل والدخول ، فعملوا معا على تخفيف ريلات المعوزين (١) .

٢٥٢ - ولما كانت النعمة الإلهية تساند الأنبا أنستاسيوس فقد منحه اليقظة
الكافية لتأدية مهامه الراعوية مع انشغاله بأعمال الإغاثة فكتب فى العقيدة
الأرثوذكسية اثنتى عشر رسالة استحدث فيها شعبه على اليقظة والتمسك
بالايمان الخالى . ولإطمئنان القلوب إلى رعايته استطاع الموهوبون أن ينتجوا
قطعا فنية جميلة (٢) .

(١) نشرت مجلة « النور » التى تصدرها حركة الشبيبة الأرثوذكسية المحترف بها من المجمع
الأنطاكي المقدس فى العدد العاشر لسنة السابعة (سنة ١٩٥١) مقالا للأستاذ اسبيرو جيور عن
يوحنا الريحيم (من ٢١٥ - ٢١٦) ، استلها بقوله : « ليست المسيحية ديانة كتاب ، أو ديانة
أقوال ، أو وصايا ، وإنما هى ديانة العمل والحق . ليست ديانة ذلك الشاب القائل : هذه كلها
حفظتها منذ صباى » (على ١٩ : ٢٠) ، بل ديانة ذلك السامرى الشفيق (لوقا ١٠ : ٢٣ - ٢٧)
الذى كذب على تلميذ جراحات الإنسانية للشقية المعذبة الساقتة ، وصب عليها زيت رحمته
وغمر تعزيتة ... والقدس يوحنا الريحيم هو احدى الشخصيات المسيحية البارزة التى نغنت إلى
صميم الحقيقة المسيحية فأدرك كله شخصية الرب يسوع ... ، ويد أن مرد الكاتب سيرة هذا
القدس قال عنه أنه « طفق يسكب نفسه فى خدمة المساكين ، مبددا أمواله الموروثة الطائلة
حتى هلئ بئنازله إلى صفهم فقيرا محمدا لا يملك شروى فقير . » وخدم الكاتب هذا المفال
الشفيق بقوله : « وقد تقيته الكنيسة بحق بالرحيم ، وتعد له فى ١٢ تشرين الثانى » .

(٢) من مخلفات هذا العصر قطعة من اللطم منحوت عليها ملك جالس ، تحت قوس بين
عامودين ، ويظهر القوس فرع من أورق الشجر . وهذه القطعة محفوظة الآن فى متحف والترز
لنن بباتيمور بالولايات المتحدة تحت رقم ٧١ و ٧٢ ، وقد كتب عنها مورفين تشونسي روس
مقالا نشره فى مجلة الآثار القبطية العدد السادس (سنة ١٩٤٠) قال فى آخره ما نصه :
(Like much of the Coptic art which has survived , The bone relief in the =

وقد منى هذا البابا الساهر اثنتى عشرة سنة على السدة للمرقسية ثم
انتقل إلى بيعة الأبقار فى هدوء وإطمئنان (١) .



= *Walters* although ugly almost to the extent of being grotesque has yet an *unfathomable* impressiveness, a characteristic typical of Coptic sculpture for several centuries ...) .

وترجمته ما يلى : إن قطعة العظم المحفورة المحفوظة فى متحف ولترز - كثيرها من
غالبية القطع اللغية القبطية الباقية - وإن تكن قبيحة إلى حد السخرية لها أثر لا ينقرض ، وهذه
صفة مميزة للنحت القبطى استمرت مدى قرون .

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية - مخطوط نقله القمص شاديه ... ج ١ ص ٨٦ - ٨٨ .

ب - الأنبا أندرونيكوس

- (٢٦٠) الشرق عامراً بالقدسين رغم
الحكام الفاشمين .
(٢٦١) تشييد المصريين بحقهم في
انتخاب باباها .
(٢٦٢) غزو الفرس لمصر وخذلهم
بأهلها .
- (٢٦٣) ملك الفرس يفرض النمطورية
مع كونه من عباد الشمس .
(٢٦٤) انتقال البابا الاسكندري إلى
بيعة الأيكار .

٢٦٠ - بينما كانت الملوك تتصارع ، والعروش تتأرجح ، والناس في حيرة واضطراب لا يدرون ما سيصيبهم نتيجة لهذا الكالاب على الحكم ، كان الشرق لا يزال عامراً بالقدسين الذين وضعوا ثقتهم التامة في الله وأدركوا أن الخلوة به تعالى هي السلام الشامل رغم الأحداث العالمية وتقلباتها . وهؤلاء القديسون ملأوا الأديرة المنتشرة في بلاد مصر وسوريا وآسيا الصغرى . وكان رهبانها يقضون حياة روحية نسكية مدارها التأمل في الإلهيات وتجنب المناقشات غير المجدية . فكان شأنهم وسط هذه الزعازع شأن المنارة التي تقشع الظلمات بنورها الساطع (١) .

ويبدو أن هذه المنارات الروحية امتدت على طول الودى الرحيب إذ أن هناك مخلفات تبين لنا أنه كان هناك دير في جزيرة فيلا يرأسه بوسيه (٢) الذي كان أسقفاً للجزيرة في الوقت عينه . ومن المولم أن الجزء الأخير من النص القبطي (الصعيدى) قد ضاع مما يجعلنا نجعل متى بدأت الحياة الرهبانية في فيلا وكم من الأجيال دامت . على أنه من الواضح أن الحياة المسيحية ازدهرت فيها وأن أساقفتها جاهدوا الجهاد الحسن .

٢٦١ - ومن المولم أن بلادنا كانت مطمع الغزاة كما كان هؤلاء الغزاة

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيلى جـ ص ٤١٨ .
(٢) مقال لهنرى مونيه : : المسيحية في فيلا ، نشره في مجلة الآثار القبطية المند الرابع (سنة ١٩٣٨) ص ٤٧ .

يستبدون بشعبنا الثابت الصبور . وكان المنقط الأجنبي على أشده في ذلك العهد حتى أنه كاد يخلق المصريين خفناً . ولكنهم رغم هذا أصروا على التثبت باستقلالهم الدينى - فاجتمعوا كهنة وشعباً لانتخاب خليفة لباباهم الراحل العظيم .

وكان فى الاسكندرية إذ ذلك شماس يدعى أندرونيكوس يخدم فى بيعة «بى أنجيليون» (١) . وكان من أسرة نلت نفوذ سياسى كبير إذ كان ابن عمه . المقدم فى الديوان الامبراطورى بالاسكندرية . وكان هذا الشماس - رغم نفوذه المستمد من السلطة السياسية - محباً للغريب وللقريب ، مخلصاً ، متضامناً من العلوم الدينية والمنخية . فوجد الاسكندريون فيه جميع الفضائل التى تؤهله لأن يرقى إلى السدة المرقسية . وهكذا تم انتخابه فأصبح الخليفة السابع والثلاثين للقديس مرقس سنة ٣٢٧ش (سنة ٦١١ م) . ولما كانت أسرة أندرونيكوس ذات نفوذ واسع فقد تمكنت بهذا النفوذ من أن تمنع الولاة من التعرض بالأذى للأساقفة عند قيامهم برسامة للمختار من الشعب . وبالفعل تمت رسامته فى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية نبهاً للتقليد الأصيل بدلاً من أن تنكس فى أحد الأديرة كما حصل مع سلفائه بعد مجمع خلقيدون . كذلك استطاع الأنبا أندرونيكوس أن يقيم فى الاسكندرية بدلاً من اللجوء إلى الأديرة . وكان لفرط تواضعه يقيم فى صومعة خاصة بناها لنفسه ملحقة بالكنيسة التى كان لها شماساً بدلاً من الإقامة فى الدار للبابوية .

٢٦٢- وكان الآلام التى عاهاها المصريون على أيدي البيزنطيين لم تجعل الكليل طافحاً فحلت بهم كارثة أخرى هى انتصار الفرس على واديهم الرحيب . فلم يقض الأنبا أندرونيكوس فى باباويته غير فترة قصيرة حتى كانت الجيوش الفارسية تعيث فى البلاد فساداً وتنتشر للرعب والفرع فى كل مكان . وكانت نزعة الفرس إلى التخريب عنيفة إلى حد أنهم كانوا يخربون لمجرد التخريب . وأول هذه الأعمال التخريبية كان انقضاضهم على الأديرة المتاخمة للاسكندرية وتدميرها عن آخرها . وحالما انتهوا من هدم الأديرة

(١) أى الإنجيل .

وتشتيت سكانها النساك الآمنين حولوا أنظارهم نحو أهالي الاسكندرية . فأعلن كسرى ملك الفرس الأمان ثم نادى جنده فى أنحاء المدينة بأن الملك يرغب فى الاجتماع بالرجال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ثمانى عشرة سنة وخمسين سنة مدعياً بأنه يريد أن يتفاهم معهم على ما فيه خيرهم . وعين لمقابلتهم ساحة فى خارج المدينة . فلبى ثمانون ألفاً من الرجال دعوته واجتمعوا فى الساحة . ولم يكادوا يستقرون فى أماكنهم حتى أحاط بهم الجيش وأبادهم عن بكرة أبيهم .

على أن هذا الخدر المروع لم يشبع شهوة الفرس للتخريب ، فقد كان ملكهم كسرى على رأس جنده يدوس الزرع والضرع بسنابك الخيل فيفتك بها فتكاً ذريعاً . ومكنا سعى الفرس إلى قتل الناس وهدم للمباني وإبادة البهائم والقرود قلم يلج من فتكهم حى ولا جماد !

٢٦٢- ولم يكف هذا الملك الغادر يسفك الدماء البرينة بل أراد أن يتدخل فى الشؤون الكنسية رغم كونه من عباد الشمس . وذلك أنه أعلن المسيحيين فى جميع الأقطار التى غزاها - مصرية كانت أو سورية - بأنهم لم يحظوا بحياة آمنة ما لم يعترفوا بالنسطورية (١) . فأبى المصريين الإذعان لهذا الحكم القسفى وآثروا أن يلاقوا حتفهم فى سبيل المحافظة على إيمانهم الأرثوذكسى من أن يقرروا فى هاوية البدعة الوخيمة التى لعنها مجمع أفسس (المسكونى الثالث) برئاسة باباها كيرلس العظيم . وقد ظل الفرس يضطهدون المصريين اضطهاداً وحشياً مدى ستين سنة قهرهم بعدها الامبراطور هرقل فأخرجهم من الديار المصرية صاغرين وطاردهم حتى حدود بلادهم . ثم أعاد الصليب الذى اغتصبوه إلى مكانه فوق قبة كنيسة القيامة .

٢٦٤- وخلال هذا الاستبداد الوحشى وهذا الإمعان فى التخريب من جانب الفرس المستعمرين كان الأنبا أنثونيوس يتنقل بين شعبه المعذب يواسى الحزين ويضمد جراح المكوم . وكان فى الوقت عينه يذكر هذا الشعب

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيلى ج ٢ من ٤١٩ .

المتوجع بالتعاليم الروحية التي ترفع القلب الإنسانى نحو العرش الإلهى وتؤهل
المظلوم لأن يرى شعاعاً من النور خلف للظلمة الحالكة . وقضى هذا البابا
الجليل سنوات سداً (أو ما يزيد بقليل) مدلولاً على عمل للرحمة والافتقاد ،
مشاركاً مع أبنائه فى آلامهم وآمالهم . ثم سمع الصوت الإلهى يناديه : نعماً
أيها العبد الصالح والأمين... أدخل إلى فرح سيدك ، (١) . فاستجاب لهذا النداء
الموجه إليه من القادى الحبيب وانتقل من هذا العالم المليئ بالظلمة والظلم إلى
عالم النعمة والنور (٢) .



(١) متى ٢٥ : ١٤ - ٣٠ .

(٢) تاريخ بطريركة الاسكندرية للأبنا سافيرس أسقف الأشمونين ج٢ ص ٤٨٩ .

سبحان الذى يغير ولا يتغير

- (٢٦٥) الكنيسة جمعت بين الثبات على الايمان والبحث العلمى .
- (٢٦٦) تضاعف استبسال المصريين بازاء تضاعف البطش بهم .
- (٢٦٧) هرقل يمعن فى الاستبداد بالمصريين رغم هزيمته أمام الفرس .
- (٢٦٨) نesk الأنبا بنيامين والرؤيا التى رآها .
- (٢٦٩) أخر مقابلة الأنبا أندرونيكوس للناسك ثيوناس .
- (٢٧٠) انتخاب الأنبا بنيامين وطرد الفرس فى باباويته .
- (٢٧١) هرقل يقيم قورش أسقفًا للاسكندرية وواليا لمصر فى وقت واحد .
- (٢٧٢) انذار الملاك للأنبا بنيامين .
- (٢٧٣) الأنبا بنيامين يلجأ إلى برية شيهيت ثم إلى دير فى منطقة طيبة .
- (٢٧٤) الأسقف الدخيل ينقذ قم من ميثا أخى الأنبا بنيامين .
- (٢٧٥) جهاد الراهب مسرون يوس ثم رسامته أسقفًا لأورشليم .
- (٢٧٦) فتك قورش بالمصريين لا يقف عند حد .
- (٢٧٧) غزو العرب وحمول هرقل بازائه .
- (٢٧٨) زحفهم على مصر وخيانة المقوقس .
- (٢٧٩) من هو المقوقس ؟
- (٢٨٠) موقف القبط بازاء الزحف العربى .
- (٢٨١) مشاعر السوريين والأسبان نحو العرب .
- (٢٨٢) عمرو يظفر بحصن بابلون ويوالى زحفه نحو الاسكندرية .
- (٢٨٣) التنافس والتحاسد والتمييز العنصرى تنخر فى عظام الامبراطورية البيزنطية .
- (٢٨٤) تولى عمرو بن العاص الادارة .
- (٢٨٥) تفاهم عمرو مع القبط .
- (٢٨٦) تقابل البابا الاسكندرى مع عمرو بن العاص .
- (٢٨٧) غزو عمرو لبرقة وطرابلس .
- (٢٨٨) معاودة غزو الاسكندرية وحرق المدينة بأسرها .
- (٢٨٩) حريق مكتبة الاسكندرية .
- (٢٩٠) عمرو يعتمد تخريب مدينة الاسكندرية تخريباً شاملاً .
- (٢٩١) استمرار التناهم بين عمرو والقبط .
- (٢٩٢) تجديد أديرة شيهيت وكنائسها .
- (٢٩٣) غزو النوبة

(٢٩٨) جدل عنيف بين الأساقفة خارج مصر .	(٢٩٤) تكريس الكنائس بعد تجديدها .
(٢٩٩) البابا الاسكندري يسجل القوانين فعلاً ثم يمرض وينتقل إلى الدار الباقية .	(٢٩٥) رؤيا الأنبا بنيامين أثناء تكريسه كنيسة الأنبا مقاري الكبير .
(٣٠٠) الخليفة يعزل عمرو بن العاص ويقوم مكانه والياً قاسياً .	(٢٩٦) البابا الاسكندري يتهلل ويقص رؤياه على الرهبان .
(٣٠١) محاولة البيزنطيين استرداد مصر .	(٢٩٧) ملاك الرب يشير على الأنبا بنيامين بتسجيل قوانين الكنيسة .

٢٦٥ - كانت مصر في القرنين التاليين لمجمع خلقيدون فريسة للاضطرابات والفتنة نتيجة للصراع الذي لا هوادة فيه : صراع بين أباطرة القسطنطينية المستعمرين المستبدين وبين الشعب المصري الذائر عليهم وعلى استبدادهم . وأنه لمن دواعي فخرا واعتزازنا أن الكنيسة رغم التوتر المتزايد ظلت ثابتة على عقيدتها في جلال ووقار ، متمسكة بإيمانها الذي سلمه إياها الرسل وخلفائهم . ومما يزيد هذا الثبات مجداً أن الكنيسة شجعت البحث العلمي والتفكير الحر إذ وجدت فيهما الوسيلة التي يستطيع بواسطتها بعض الناس أن يلمحوا قُبلاً من حقيقة الأسرار المسيحية . ولقد كان آباء الاسكندرية يفرحون حين يجدون شخصاً يسعى إلى سبر غور التعاليم الإلهية المستطنة في الكتاب المقدس . وبهذا الموقف للحكيم بازاء الساعين نحو المعرفة أقامت الكنيسة صرح الايمان شامخاً على أساس متين (١) بل لقد درس آباء الكنيسة الفلسفة

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيبي جـ المقدمة من ٢ حيث يقول ما نمسه :
" ... un grand fait brillera avec éclat pour la gloire de l'Eglise d'Orient . Ce fait est la majestueuse immobilité dans la profession de la doctrine primitive .
" Il ne faudra pas croire que tout en étant immobile dans la : la profession de la doctrine révélée, l'Eglise d'Orient ait condamné l'intelligence chrétienne à l'immobilité . Elle a toujours encouragé l'intelligence dans ses efforts pour exposer le dogme avec exactitude, en tirer les conséquences =

٢٦٦- ولقد دفع المصريون أقدم الأتقان في سبيل الاحتفاظ بعقيدتهم الأرثوذكسية صافية نقية . وكانوا - كلما أصح الأباطرة استبداداً - ازدادوا ثباتاً واستبسالاً . ولقد ظل الأباطرة على بطشهم حتى عندما كانوا يضطرون إلى محاربة جموع للقبائل المتبريرة التي نجحت في النهاية في الظفر بهم ، وحتى عندما كانوا يقاتلون الفرس الذين لم يهادنهم مطلقاً . ومن أبرز الأمثلة على استبداد الأباطرة البيزنطيين بالمصريين فرضهم دخلاء على السدة المرقسية ، يعينونهم في القسطنطينية ويرسلونهم إلى الاسكندرية يصحبهم الجند مزودين بالأوامر المشددة بأن كل من لا يخضع لسلطانهم سيلقى أسوأ العذاب ولمزه .

٢٦٧- وفي سنة ٦١٧ م ش ، حين انتقل الأنبا أندرونيكوس إلى مساكن النور كان الامبراطور هرقل لا يزال مترعاً على عرش الامبراطورية الشرقية . وقد أحرز الفرس في أيامه عدة انتصارات إلى حد أنهم اغتصبوا مصر من قبضته ، وظلوا مسيطرين عليها ست سنوات ، أخيراً نجح في اجلاتهم عنها . ولم يكد يستقر به المقام ثانية حتى عاود سياسة البطش والتفك : ففرض عليهم دخيلاً ، وطرد باباهم الشرعى من جهة إلى أخرى ، واضطهد جميع الذين لم يقبلوا الاذعان لصنعيته . ولأن الأنبا أندرونيكوس كان سليل عائلة شريفة ذات نفوذ واسع استطاع أن يبقى في الاسكندرية . ولكنه - مع ما لعائلته من نفوذ - لم يستطع أن يخفف من حدة الاستبداد البيزنطى ، كما لم يتمكن من أن يجنب أسافته مرارة النفى . ولم يكن له يومذاك من عزاء إلا فى صحبة مسكرتيه المتفانى - بنيامين . وقد تبادل البابا الشيخ وسكرتيه الشاب المحبة

= كذلك يقول على ص ٢٠ من المقدمة لوصف ما نصح :

" though they lived in the blinding sun, they knew that all outlines softly recede, and there is a point beyond which all definitions fail . It follows that they were perfectly capable of believing in two mutually contradictory statements " و ترجمته كما يلى : مع أنهم كانوا يعيشون فى الشمس البهيرة فقد . عرفوا أن كل الخطوط تتلاهى إلى نعمة وأن هناك نقطة تغفل عندها كل التعاريف . لهذا كانت لديهم المقدرة التامة على الايمان بالمتناقضات .

والاعجاب . وبهذه العاطفة الجياشة المتبادلة بينهما استطاع كل منهما أن يعزى الآخر ويشدده .

٢٦٨- وكان بنيامين سليل عائلة غنية من مريوط . ولما بلغ سن الرشد باع كل ماله وترك أهله وعشيرته والتحق بدير من الأديرة الواقعة في منطقة الاسكندرية حيث قضى بضع سنين تحت رعاية ناسك شيخ اسمه ثيودناس . ولقد كرس نفسه خلال هذه السنين لدراسة الأسفار الالهية وبلوغ الكمال المسيحي . فرأى ذات مساء رؤيا تتلخص في أن ملاك الرب ظهر له قائلاً : «تهلل يا بنيامين لأنك سرعى رعية السيد المسيح » . فلما أصبح الصباح قص رؤياه على أبيه الروحي الذي قال له : «أحذر الكبرياء يا بني . فمن أين تدرى إن كان الذي تراه لك هو ملاك الرب أم أنه ملاك من ملائكة الظلمة أراد أن يخدعك ليوقعك في حباله ؟ » وقد دفع هذا التحذير بنيامين إلى مضاعفة جهوده لبلوغ ذلك الكمال الروحي الذي تطلع نحوه بقلبه .

٢٦٩- وحدث بعد ذلك بقليل أن الناسك الشيخ ثيودناس اضطر إلى الذهاب إلى الاسكندرية . فأخذ معه بنيامين ليتوكأ عليه في الطريق . ولما انتهيا من تأدية المهمة التي جاءا إلى المدينة بسببها ذهبا لينالا بركة البابا أندرونيكوس قبل العودة إلى ديرهما . وفي أثناء الزيارة أخذ ثيودناس البابا على حدة وأطلعته على الرؤيا التي رآها بنيامين ومضاعفته جهوده على أنرها . فلما سمع خليفة مارمرقس هذا للحديث قال لثيودناس : «والآن يا صديقي عد إلى الدير وحدك في رعاية الله ، وأترك هذا الشاب معي لأنى أرى يد الله عليه » . وأطاع الناسك الشيخ أمر باباه وترك له تلميذه بنيامين . فوضع البابا اليد عليه ورسمه كاهناً ثم عينه سكرتيراً خاصاً له ، ولقد اشتهر بنيامين - أيام سكرتيرته - باستقامته وغيروته وقنانيه في العمل . وكان قلب البابا يتהלل كلما رأى سكرتيره يعمل في صبر وسكون . فلما أحس بأن مساعته قد دنت أشار على شعبه باختيار بنيامين خليفة له . وفرح الشعب بهذه الإشارة . فلما تليخ الأنبا أندرونيكوس اختاروه بالاجماع . وقد تمت رسامته سنة ٣٣٣س (سنة ٦١٣م) ، فأصبح البابا الاسكندري الثامن والثلاثين .

٢٧٠- وكان الأنبا بنيامين ضمن العاملين في صمت وصبر . ولما كان مدركاً عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه فقد دأب على تعليم شعبه منذ اليوم الأول لإختياره وبينما كان منشغلاً في عمله تمكن الامبراطور هرقل من اجلاء الفرس عن مصر .

٢٧١- ولم تكن الصدمة التي أصابت هذا الامبراطور باعتداء الفرس على امبراطوريته كافية لأن تردعه عن استبداده ونزعته إلى التجبر بالمصريين فلم يكد يستعيد سلطانه حتى أصدر أمره بنقل قورش أسقف فاسيس (بأميا الصغرى) من مكانه إلى كرسى الاسكندرية . وقد منحه السلطتين الدينية والمدنية في آن واحد إذ جعله أسقفاً للاسكندرية ووالياً على مصر .

٢٧٢- وبينما كان قورش في طريقه إلى الاسكندرية ظهر ملاك الرب للأنبا بنيامين وقال له : « أنصحك بأن تترك عاصمتك وتلتجئ إلى الصحراء . ومن المستحسن أن تتصح أساقفتك بأن يحتموا في الصحراء هم أيضاً ، لأن الذى سيبقى منهم في عاصمة كرسيه سيلقى الويلات على أيدي الجنود العوفة من هرقل » .

٢٧٣- ولم يكن الأنبا بنيامين مخالفاً للرؤيا السماوية . وفي الأحد التالي لهذه الرؤيا ، حين انتهى من تأدية شعائر القداس الالهى أعطى شعبه التعليمات الصريحة عما يجب عليهم عمله بإزاء الاستبداد البيزنطى الذى سيحل بهم . ثم بعث برسالة دورية إلى جميع أساقفة الكرازة المرقسية أطلعهم فيها على الرؤيا التى رآها والحديث الذى سمعه خلالها . وبعد أن رتب أمور الكنيسة وأرشد الكهنة والشعب إلى الخطوة الواجب اتباعها استصحب اثنين من تلاميذه - وخرج ثلاثتهم من الاسكندرية عند المغيب . ولما كانوا مسافرين سيرا على الأقدام فقد قضوا عدة أيام حتى وصلوا إلى مريوط . فمكثوا فيها أياماً غير قليلة ثم خرجوا منها قاصدين إلى بيرة شيهيت على الأقدام أيضاً ! ولما كان سفر الأنبا بنيامين بعد الحكم الفارسى مباشرة فقد رأى آثار التخريب والتدمير في كل مكان . لأن هؤلاء الغزاة خربوا كل ما يمكنهم تخريبه حتى لقد امتدت يدهم المدمرة إلى الأديرة في صحاريها . ولما وصل البابا الاسكندرى وزميلاه

إلى بيرة شيهيت وجنوها تحمل آثار التدمير أيضاً . فامتلاً قلب الأنبا بنيامين حزناً على هذه الأماكن المقدسة وبخاصة لأنه لم يكن في ظرف يستطيع معه ترميمها . وقد مكث هو وزميلاه بضعة أيام في شيهيت وتبادلون اللقائى مع سكانها النساك الأوفياء الأحرار . ثم غادروا هذه المنطقة التى تقست بأنفاس أصفياء الله وقصدوا إلى الصعيد الأعلى فعاشوا في دير من الأديرة للصغيرة المتناثرة حول منطقة طيبة (الأقصر) .

٢٧٤- وأول عمل قام به قورش الأسقف الدخيل حالما وصل إلى الاسكندرية كان البحث عن الأنبا بنيامين . فلما لم يجده قبض على مينا أخيه . ثم أمر هذا الدخيل المسيد جلده بأن يحرقوا جنبى مينا لعل الألم يجعله يعترف بمخبأ أخيه . ولكن مينا تحمل اللهب فى صمت تام دون أن يلفظ بكلمة واحدة . فاستثار صمته غضب قورش أكثر فأكثر وأمر بأن يضعوه على الفور داخل زكية مملوءة رملاً ويقروا به فى البحر . وهكذا كان مينا أول شهيد تنكل به قورش (١) .

٢٧٥- وكان أحد المقاومين البارزين لقورش راهب اسمه صفرونيوس أخذ يحتاجه لعله يقتله بالإيمان الأرثوذكسى . ولكن قورش ظل على ضلاله فترك صفرونيوس الاسكندرية وذهب إلى القسطنطينية حيث قابل أسقفها وامبراطورها . ولكنه قتل فى اقتناعهما بفساد مسلكتهما مع المصريين . فغادر القسطنطينية وقصد إلى أورشليم . وحدث أن وصل المدينة المقدسة وكرسيتها شاعر ، فظن الناس أن وصوله إلى مدينتهم فى مثل هذا الوقت إشارة من السماء لانتخابه أسقفاً عليهم .

٢٧٦- ولم يكن مسلك الامبراطور هرقل فى فرض دخيل على مصر غير دليل صارخ على استبداده بهم وامعانه فى استعمارهم - وبخاصة لتزويده هذا الدخيل بالسلطتين الدينية والمدنية . لأن قورش كان رجلاً لا ضمير له ، ولا ذرة من الانسانية فيه . فلم يكن ليتراجع عن البطش بأى شخص إذ لم

(١) تاريخ بطريركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين طبعة ايفيس ج٢ ص٤٩١ .

يحترم سناً ولا جسداً ولا مركزاً . ولم يهمه إلا أن يرضى المصريين على الخضوع لسلطانه والاعتراف بمجمع خلقيدون وأنوفهم « ماغرة » وكانت العقيدة الخلقيدونية قد صيغت في قالب جديد وكتبت في منشور امبراطورى يعرف باسم « ايكليسيس » . وحين أصدر الامبراطور هذا المنشور وبعث به إلى الأساقفة في مختلف البلاد كان مغروراً إلى حد الزعم بأن فى استطاعته أن يفرضه على الكنيسة الجامعة . ولما رفض بعض أعضاء هذه الكنيسة الجامعة قبول منشوره ، صب عليهم جام غضبه . ونال المصريون النصيب الأوفر من هذا الغضب الامبراطورى ، لأن قورش صمم على تنفيذ رغبة مولاه هرقل مهما كلفه ذلك (١) . فقتل بالمصريين من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى بل لقد بعث بجلوده إلى الصحارى . فلم يوجد لمكان حرمة ولا لشخص كرامة لأن جند قورش داسوا المقدسات وانتهكوا الحرمات . ولو أن الامبراطور هرقل أبدى أدنى إشارة ضد هذه القصة لكانت كافية لردع هذا الوحش البادى فى شكل انسان . ولكنه - بدلاً من ذلك - أبدى استهسانه لهذا الفك الشنيع . ورغم هذا كله أصر المصريون على الاحتفاظ بمعقيدتهم الأرثوذكسية والتمسك باستقلالهم الدينى . فلم يرهبوا الموت ولا العذاب - إذ كانوا قد ألفوهما - ورضوا بأن يدفعوا الثمن فى أنفة واعتزاز . ولم يقابلوا هذا الاستبداد فى صمت وذلة ولكنهم تمردوا أكثر من مرة وأعلنوا للمستعمرين الغاشمين سخطهم عليهم واستخفافهم بوسائهم الجهنمية (٢) . فبذت مصرنا العزيزة - التى بنى مجدها

(١) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) ج ٩ ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢) « مختصر تاريخ مصر » (بالفرنسية) الجزء الثانى - المبحث الأول لهنرى مونيه ص ٦٨ ، ٩٢ حيث يقول ما نسمه : " L' Egyptien savait qu' il était le peuple dont le clergé eut le plus à souffrir dans sa foi par sa suite de l'ingérence byzantine . Il avait sous les yeux les continuelles persécutions des empereurs contre les patriarches qui souvent préférèrent l'exil aux brillantes prerogatives de leur charge, les excommunications des conciles contre les doctrines de ses théologiens, les interventions brutales réitérées de Constantinople qui cherchait à installer sur le trône de Saint Marc des candidats à son choix, ce qui amenait des rixes et des massacres " . كان للمصريين يعرفون أنهم الشعب الذى نال . " كهنه أكبر نصوب من الآثم ذوباً عن الايمان بسبب تبعيته (السياسية) للقسطنطينية -

القراينة وآباء الاسكندرية - فى القرن السابع فى صورة قائمة موجعة : نعى ناحية منها وقف للطفاء المسيحيون من عملاء القسطنطينية ، وفى الناحية الأخرى وقف المصريين سامدين رافعى الرؤوس . فكانت النتيجة العنصرية لهذه الصورة للقائمة الموجعة انتصار القومى والاضطراب .

٢٧٧- وفى وسط كل هذا القلق والتوتر ، وهذا الاستعداد الذى تقابله الثورات ، ظهر خطر جديد هو زحف الدولة العربية . فقد نفخ محمد بنى الاسلام فى أهله عزيمة جديدة دفعتهم إلى أن يوحدا صفوفهم ثم توجهوا إلى غزو البلاد المجاورة لهم . وفى انطلاقهم الأولى غزوا دولة الفرس فسحقوها . وملأهم النصر على هذه الدولة العريقة نشوة اندفعوا بتأثيرها إلى الزحف على سوريا بعد اجتياحهم فلسطين . ومن العجيب أن انتصاراتهم الباهرة المتلاحقة لم تحرك للإمبراطور هرقل ساكناً . ويبدو أن شيكاً من الخور قد استولى عليه ، فلم يبق لديه غير عكارة من الهممة كان قد صرفها فى المناقشات الدينية العظيمة (١) ، وهكذا تحالف التوتر السياسى والقلق الدينى والتحاسد بين الولاة وحلق الشعوب المحكومة ، على تهديد الطريق أمام للجيش العربى الزحف - لقد كانت ساعة موافقة له حقاً (٢) .

- وتدخلها فقد كان هذا الشعب المصرى يرى أمامه كل يوم بطش الأباطرة بالبطاركة الذين كانوا كثيراً ما يفضلون النفى على امتيازات كرامتهم العظمى ، وللحرم على قبول العقيدة المفروضة . وكانت الأحكام الفاشمة الصادرة من القسطنطينية تتكرر بلا انقطاع مستهدفة تجلس العلاء على عرش القديس مرقس فلا تكدى إلا إلى التمدد والمنازع .

(١) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) ج١ ص ١٨٤ .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فبيت ص ١١٥ حيث يقول ما نصه : Les arabes n'eurent pas en face d'eux des populations attachées à leurs maitres, ni des chefs militaires capable d'user avec discernement des ressources immenses que possédaient les contrées envahies, sans quoi' écrit de Gobineau, " les Amr et les Khalid se seraient fait rudement et promptement reconduire dans leurs deserts " .

وترجمته كما يلى : : لم يواجه العرب شعباً متعلقاً بحكامها ، ولا قادة حربيين فى استطاعتهم أن يستغلوا موارد البلاد الغاشمة لهم بحكمة ، ولولا ذلك ، على حد تعبير دى جوبينو لا منظر القواد أمثال عمرو وخالد أن يوردوا للتهوى لغربهم إلى صحاريهم .

٢٧٨- وامتلاً العرب نشوة بانتصاراتهم المتلاحقة فى بلاد فارس وفلسطين وسوريا ، ودرغبتهم فى بسط نفوذهم ونشر دينهم الجديد بين الشعوب فواصلوا الزحف على مصر (١) وكان عمرو بن العاص قائد الجيش للزحف على بلادنا فحاصر القرما على البحر الأحمر . ودام القتال شهراً واحداً سلمت المدينة بعدها وكانت القرما هى الباب الذى دخل منه جميع الغزاة الآتين من الشرق لأن الذى يستولى عليها يستطيع التوغل منها إلى داخل البلاد . واتجه عمرو بجيشه جنوباً . فكانت أول مدينة قاومتهم فى طريقهم هى بلبس حيث اضطروا إلى مقاتلة حاميتها شهراً ثانياً . فلما سقطت بلبس انفتح أمامهم الطريق إلى حصن بابلون (بمصر عتيقة) . وكان هذا الحصن قد بناه الامبراطور الرومانى تراجان فى مستهل القرن الثانى للميلاد فحاصره عمرو بجيشه . وظل الحصار سبعة شهور (٢) . وخلال هذه الشهور السبعة توالى الامدادات على العرب ، بينما ظل البيزنطيون يغطون فى سبات عميق . وحينما كانت رحى الحرب دائرة بدأ العرب بمفاوضة شخص يدعى المقوقس لايزال لغزاً غامضاً . ولم يتفاوض معه العرب فحسب بل أنه وقع على المعاهدة التى سلم بمقتضاها مصر إلى حكمهم . ولقد دمغته مفاوضاته وتسليمه السرى بالخيانة العظمى .

٢٧٩- ومع أن الغموض لايزال يكتنف شخصية المقوقس ، إلا أن هذا الغموض لم يصنه من أن يوصف بالخيانة . وفى هذا الصدد يقول دى هينو: « إن عدم وصول امدادات من القسطنطينية ، والعداء المستحكم بين القبط والبيزنطيين والخيانة التى اتصف بها شخص له مركز عال يشار إليه باسم «المقوقس» ، كل هذه العوامل مجتمعة توضح لنا ذلك الاندحار السريع الذى كان نذير الموت للامبراطورية البيزنطية فى مصر ، . ويضيف دى هينو فى الهامش قوله : « ولكن - من كان هذا المقوقس الخائن على وجه التحقيق ؟ أكان الأسقف الملكى قورش ؟ أو شخصية أخرى ؟ وهل لا يجوز أن

(١) اختلف المؤرخون على تاريخ الفتح العربى فقال بعضهم أنه حدث فى السنة الثامنة عشرة للهجرة أى سنة ٦٣٨ م بينما أوصله البعض الآخر إلى سنة ٦٤٢ م ، وقد أخذنا هنا بالرأى السائد فحفظناه سنة ٦٤١ م .

(٢) أربعة شهور فى رأى بعض المؤرخين .

يكون شخصية خيالية لا وجود لها على الإطلاق ؟ (١) ويرجح بعض المؤرخين بأنه كان قورش الأسقف - الوالى ، لأنه كان صاحب السلطة المطلقة فى مصر فى ذلك الوقت . فيقول جاستون فييت المستشرق الفرنسى : « يطلق المؤرخون العرب اسم « المقوقس » على الرجل الذى نظم الدفاع عن مصر ضد الفتح العربى ثم وقع معاهدة التسليم معهم . وهذه التسمية غامضة . ومن المتواتر أنه قورش البطريك الملكى الذى كان الامبراطور هرقل قد عهد إليه بالادارة المدنية أيضاً (٢) . أما دائرة المعارف البريطانية فتقول ما ترجمته : « إن السهولة التى انتزعت بها مصر من قبضة البيزنطيين ترجع إلى خيانة واليها قورش الذى كان بطريك الاسكندرية أيضاً . كما ترجع إلى عدم كفاءة القادة الرومانيين » (٣) .

٢٨٠- ومهما يكن من حقيقة قورش ، فالواقع أن شخصاً ما سلم حصن بابلون إلى العرب وانسحب بجنده منه قاصدين إلى الاسكندرية . وبينما كانت هذه العمليات الحربية دائرة وقف القبط موقفًا سلبياً ، ينفرجون على

(١) فى كتابه بمصر : من مينا إلى فواد الأول ، (بالفرنسية) من ١٩٧٧ حيث يقول :

" L'absence de secours de la part de Constantinople, les haines qui divisaient entre eux les habitants Coptes ■ Grecs, la trahison probable d'un personnage très considérable, désigné vaguement par les historiens sous le nom de Moqaouqis, expliqueraient assez bien cette chute qui fut le coup de grâce donné à la domination byzantine dans la moyenne et la Basse Egypte " .

وأضاف على الهامش : " De plus , quel est au juste ce Moqaouqis tratre ? ... ou peut être un personnage imaginaire ? " .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) ج٢ للمبحث الثانى لجاستون فييت من ١٩٠٠ حيث يقول :

" Les textes Arabes donnent au fonctionnaire qui organisa la defense de l'Egypte, puis signa le traité de Capitulation, le surnom encore inexpliqué de Mokawkis ... On convient généralement qu'il s'agit du patriarche Melkite Cyrus, à qui Heraclius avait confié l'administration civile du pays " .

(٣) فى طبعها الرابعة عشرة ج٨ من ٨٧ حيث جاء ما نصح : " The ease with which this valuable province was wrenched from the Roman empire appears to have been due to the treachery of the governor of Egypt, Cyrus, patriarch of Alexandria the incompetence of the Roman generals " .

الحوادث دون أن يشتركوا فيها . فلم يكونوا يشعرون بأى تضامن مع الحكام البيزنطيين الذين لاقرأ الول على أيديهم . فقد كان هؤلاء البيزنطيون دخلاء على مصر ، لا شاغل لهم إلا استنزاف دماء المصريين . فكانوا يتكلمون بلغة غير لغتهم ، ويدينون بالولاء لعقيدة غير عقيدتهم . ويؤيدون امبراطوراً غريباً عنهم . وحين وقف القبط يقفرون على المعارك للدفعة رحاما زينت لهم الشماعة أن الحرب ضد الامبراطورية البيزنطية لا ضد بلادهم المصرية ، وبخاصة لأن أباطرة القسطنطينية كانوا قد دلبوا - منذ مجمع خلقيدون المشلوم - على حرمان القبط من شرف للدفاع عن بلادهم بسبب الثورات المتتالية التي كان يخوضها القبط ضدهم ، فأراد أصحاب السلطان البيزنطى أن يقننوا على هذه الثورات قضاء مبرماً فكانت إحدى وسائلهم منع القبط من الانخراط فى سلك الجيش - على أن القبط - فى تخليهم عن مناصرة مستعمرهم - لم يتخلوا مطلقاً عن اعتزازهم بقوميتهم (١) . ولقد اندفعوا فى مصلحتهم هذا بدافعين : التوتر المتزايد بلا هوادة بينهم وبين أباطرة القسطنطينية ، وبارقة الأمل فى أن يكون الحكم الجديد أخف وطأة عليهم من الحكم القديم .

٢٨١- ولم يكن القبط بالشعب الوحيد الذى جاش فى صدره هذان العاملان ، بل شاركهم فيهما الأسباب . فلقد قال جيتى : « لقد استقبل غالبية الأسباب العرب استقبال المحررين » (٢) . كذلك أحس السوريون بهذه الأحاسيس عينها إذ قد وصف سير وإليم موير هذه الحقيقة بقوله : « ... لم يذق السوريون آلام الاضطهاد الدينى على أيدي البيزنطيين فحسب ، بل ذاقوا الأهوال بسبب تزايد الضرائب . ولهذه الأسباب واجهوا الزحف العربى على بلادهم دون أن

(١) فى الجزء الثانى للمبحث الثانى من كتاب « مختصر تاريخ مصر » لجاستون فييت ص ١١٥ حيث يقر : " en Egypte particulièrement, c'est Byzance qui était attaquée, et, en abandonnant leurs matre, les Coptes n'ont d'aucune façon abdiqué leur dignité nationale " .

(٢) فى كتابه تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) ج ٥ ص ٥٣٠ حيث يقول : " un grand nombre d'Espagnols acceptèrent les Musulmans comme des libérateurs " .

يحركوا ساكناً، آمليين في أن يكون نصيبهم أكثر احتمالاً تحت حكم العرب المعروف باللين والتسامح من نصيبهم تحت التعسف البيزنطي (١) .

وهكذا يشهد المؤرخون بأن الشعوب تنفست الصعداء حين أحست بأن ظل القسطنطينية أخذ في التقلص أمام الزحف العربي ، كما أحست ببارقة الأمل تشق ظلمتهم حين رأوا الامبراطورية البيزنطية تكدع أمام عيونهم (٢) .

٢٨٢- وبعد أن تم النصر لعمر بن العاص على حصن بابلون ترك عدداً من رجاله في القسطنطية (٣) وزحف بالباقيين على الاسكندرية . وفي أثناء هذا الزحف التقى جيشه بعدد من الكتائب البيزنطية المرابطة في مختلف المدن المصرية . ولكن الأمراء الذين كانوا ولاية مدنيين وقادة حربيين في آن واحد لم يوحّدوا صفوفهم ولم ينسقوا عملياتهم الحربية معاً ، بل وقفوا يتفرجون على هذا الجيش الزاحف ينتصر على كل منهم بمفرده ويطلبهم واحداً فواحد دون أن يفكر أحد في نجدة أخيه أو في الاتحاد مع الأمراء الذين لم يواجهوا جيش عمرو بعد . بل ظلوا جميعاً في أماكنهم ينتظر كل منهم دوره في عدم مبالاة بدلاً من تنظيم هجوم موحد منسق ويبدو أن هذا الخمول العجيب الذي كان قد استحوذ على امبراطورهم هرقل قد سرى إليهم فأفقدتهم المقدرة على العمل . كذلك ظل التحاسد بينهم على أشده حتى لقد أظلم بصيرتهم ، فلم يفقهوا إلى

(١) في كتابه ، الخلافة - ازديمارها . فسقربها ، (بالانجليزية) ص ٦٥ - ٦٦ حيث يقول ما نصه : " the people of Syria who, apart from the religious persecutions to which they had been subjected, suffered from increased taxation, and in consequence remained passive spectators of the invasion of their country, hoping more indeed from an occupation by the Arabs who abstained from pillage, and whose rule was mild and tolerant than from the continuance of the status quo " .

(٢) دائرة معارف العلوم الدينية (بالفرنسية) ج ٩ ص ٥٠١ حيث جاء ما يلي :

" A l'époque ou parut Mahomet, l'empire byzantin, et celui de Perses s'effondraient d'eux - mêmes . Le Syriens chrétiens, opprimés par les Grecs, n'aspiraient qu'à s'en affranchir " .

(٣) أي الخيمة - وهو الاسم الذي أطلقه عمرو بن العاص على منطقة حصن بابلون حيث نصب خيامه (أي مصر عتيقة) .

أن اتحادهم ومؤازرتهم بعضهم بعضاً سيمنحهم من القضاء على عدوهم المشترك. وهكذا استطاع عمرو بن العاص أن يقهر هؤلاء الأمراء المتحاسدين المفكرين . فلم يلبث الجيش الزحف أن ألقى الحصار حول أسوار الاسكندرية . وهنا أيضاً يظهر الخلاف بين المؤرخين إذ يقول بعضهم أن حصار هذه العاصمة المجيدة دام شهر ثلاثة ، بينما يؤكد غيرهم أنه استمر أربعة عشر شهراً (١) .

٢٨٣- ومرة أخرى تألب التفاض والتحاسد والتمييز العنصري على اصناف البيزنطيين مما أدى إلى تسليمهم العاصمة الثانية لامبراطوريتهم (٢) . ولولا هذه القوة المعنوية ألقى نخرت كالسوس في عظام الامبراطورية التي شاد أباطرة رومية وبيزنطة مجدها لصاعت جهود عمرو بن العاص عبثاً ، وبخاصة لأن الاسكندرية لها شاطئ طويل ممتد على مسافة أميال ، تروح المراكب وتغدو أمامه بلا انقطاع ، وكانت في الوقت عينه محصنة تحصيناً قوياً إذ كانت تحيط بها أسوار عالية منيعة . فلم يكن لمدينة كالاسكندرية أن تخشى الجوع الذي يفرضه الحصار لأن الامدادات التي يمكن أن تصلها عن طريق البحر سهلة ميسورة . ولكن على الرغم من كل هذه المزايا العجيبة فإن الاسكندرية سلمت بعد أشهر (طالت أو قصرت) . ويرجع تسليمها إلى التحيزات التي مزقت كلمة أصحاب الحكم فيها ، وإلى أن القواد كانوا فاسدين مرتشين . فأدى هذا كله إلى انتقال مصر من حكم البيزنطيين إلى حكم العرب في خريف سنة ٦٤٢ م . وقد وقع عمرو بن العاص القائد العربي وقورش عميل القسطنطينية على المعاهدة التي تم بها هذا الانتقال : وكلاهما غريب عن هذا البلد الحقيق الذي تحكما في مصيره .

(١) مختصر تاريخ مصر ج٢ البحث الثاني لجاستون هوبت ص ١١١ حيث يقول :

" Les traditions musulmanes ne s'accordent pas sur la date, ni sur la durée du siège d'Alexandrie par les Arabes, ■■ résistance byzantine dura de trois à quatorze mois " .

بينما يقول ستانلي لاين هول في كتابه : تاريخ مصر في القرون الوسطى ، ص ١٢ ما نصه :
" The chronology of the Arab conquest of Egypt is almost hopelessly bewildering " .

(٢) إذ جاءت بعد القسطنطينية مباشرة .

٢٨٤- وما أن استقر الأمن حتى اتخذ عمرو بن العاص مقره في ضاحية القسطنطينية - وهي الضاحية التي ضرب فيها خيامه عندما حاصر حصن بابلون. وقد جعل عمرو بن العاص من هذه الضاحية عاصمة له لسببين : أولهما أنه انتصر فيها على أقوى حامية للإمبراطورية البيزنطية مرابطة في مصر ، وثانيهما أن المواصلات بين الاسكندرية وبلاد العرب لم تكن موسرة وهو كان يبنى مركزاً سهل الاتصال ببلاد .

٢٨٥- ولقد أراد عمرو - حالما استتب له الأمر - أن يتفاهم مع القبط ، فدارت بينه وبينهم مفاوضات عرف أثناءها أن الأنبا بنيامين البابا الشرعي المنتخب من الشعب لا يزال عالقاً في دير في أعالي الصعيد ، لأنه كان قد اضطر هو وأساقفته إلى أن يغادروا عواصمهم تجنباً لبطش قورش المخيل بهم . وكان زعيم القبط المتحدث بلسانهم إذ ذاك رجلاً مؤمناً مخلصاً اسمه سانونثيوس (١) . فرجا عمرو منه أن يبعث برسله إلى البابا الشريد ليطلب إليه أن يعود إلى مقر رياسته آمناً مطمئناً . ولقد فرح القبط بهذا التصريح ، وسارع رسل سانونثيوس إلى الصعيد ليبلغوا باباهم بما جرى .

وفي تلك الأثناء تعهد عمرو القبط بأن يدع لهم حرية العبادة كما يدع لهم حرية التصرف في شئونهم القضائية والإدارية . ولم يكف عمرو بذلك ، بل أقام بعضاً منهم مديرين لمختلف الجهات ولم يطالبهم بغير الجزية إذ ألغى الضرائب الفادحة التي كان أباطرة القسطنطينية قد فرضوها على المصريين بغير رحمة . على أن عمرو - مع تسامحه هذا - قد أعفى القبط من الجندية فحرمهم بذلك شرف الدفاع عن وطنهم عند الحاجة (٢) .

٢٨٦- وما أن وصل الأنبا بنيامين إلى بابلون حتى خف سانونثيوس ليستقبله ويخال بركته ويبلغه بكل ما جرى بينه وبين عمرو . ثم اتفق معه على الموعد الموافق لمقابلة القائد العربي . فلما التقى الرجلان الكريمان تحادثا ملياً

(١) لو كان المقوقس قبطياً فلماذا كان تفاهم عمرو بن العاص مع سانونثيوس بعد أن استتب له الأمر ولماذا اختفى المقرض بعد توقيعه المعاهدة ؟ .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) ج٢ المبحث الثاني لجاستون فييت ص ١٢٩ .

فى جميع الثلثون الخاصة بمصر ورفاهيتها ثم ألقى الأنبا بنيامين كلمة ضافية على المجتمعين وعلى أثر هذه الزيارة أعلن عمرو تقديره للبابا الاسكندرى على رؤوس الأشهاد إذ قال : « إنه لم يحدث فى حياته رجلاً من رجال الله أظهر ذيلاً وأتقى صحيفة وأجل منظرًا منه » (١) ثم التفت إلى ضيفه الجليل وقال : « تفضل بالعودة إلى مقر كرسيك ، وأرع أولادك ، وقم بشئونهم كما يتراءى لك - وإن منحني الله تعالى النصر على برقة وطرابلس بصلواتك ، فأنى أهبك كل ما تطلب » . فرفع البابا الجليل أكف الضراعة داعيًا لعمرو بالنصر ثم التفت إلى الحاضرين ونصحهم بأن يلازموا الهدوء ، وأن ينصرف كل منهم إلى عمله لتستعيد مصر ما أضاعته بسبب الحرب ونتيجة لطغيان البيزنطيين (٢) .

٢٨٧- وسار عمرو على رأس جيشه ، فقزا برقة وانتقل منها إلى طرابلس . ثم فرض على المدينة الثانية جزية من العبيد توردهم له سنويًا . فلما تم له النصر على تلك البلاد عاد إلى مصر واستقر فى القسطنطينية التى كان قد اتخذها عاصمة له . وكانت توجد قناة - تعرف باسم الخليج - كانت تجرى من القاهرة إلى بلبيس ومنها إلى القلزم (٣) . وقد أصلحها عمرو ورفع كل ما فيها من عولق فى السنة الثانية لغزوه مصر . وظلت هذه القناة صالحة للملاحة ثمانين سنة بعد ذلك . وكان عمرو حكيمًا متزنًا فى معاملته المصريين ، فأولى الزراعة اهتمامًا كبيرًا وأمر العمال المصريين بتنظيف الترع والمصارف .

٢٨٨- إلا أن الخليفة عمر بن الخطاب ضاق ذرعًا بعمرو لأنه كان ينتظر منه أن يبعث إليه بمبالغ من المال أوفر بكثير مما وصله . وأبدى عمر غضبه

(١) تاريخ مصر الإسلامية لآلياس الأيوبي ص ١٦ .

(٢) تاريخ بطريركة الاسكندرية لساموريس أسقف الأشمونين (مطبعة ليفيس) ج ٢ ص ٤٩٦ حيث يقول : « وكان الأب بنيامين حسن المنظر جدًا جيد الكلام يسكن روفار ، وص ٤٩٧ حيث يقول : « وتصرف للبابا بنيامين من عند عمرو بن العاص مكرماً مهجلاً . وكل ما قاله الأب الطوباني للامير عمرو وجده صحيحاً لم يسقط منه حرف واحد ، « للسكندر العربى ترجمه إلى الانجليزية وليس بوجد ج ٢ ص ٤٧٧ .

(٣) أو القبحر الأحمر .

على عمرو في السنة الرابعة للفتح العربي بأن عين عبد الله بن سعيد والياً على الصعيد وحصر سلطة عمرو في الدلتا . ولكن عمرو لم يرض بهذا الوضع واستقال من ولاية مصر . على أنه قبل أن يغادر البلاد كان البيزنطيون قد أرسلوا أسطولاً مؤلفاً من ثلاثمائة مركب إلى الاسكندرية واحتلوها من جديد ، فامتدأوا أملاً في استرداد مصر كلها لحكمهم ثانية . فرجا المصريون الخليفة أن يبقى عمرو ليوافق هذا الغزو الجديد لخبرته ودرأته . فقبل رجاءهم . وكانت المعركة الثانية حول الاسكندرية حامية الوطيس سقط فيها العدد الوفير من الجانبين . وقد سقط جواد عمرو من تحته إذ قد أصابه سهم في رقبته . أما قائد البيزنطيين - واسمه مانويل - فقد سقط هو في المعركة . على أن النصر كان حليف عمرو بن العاص للمرة الثانية في مصر . وكان قد أقسم بأنه إن تم له النصر فسيهدم أسوار الاسكندرية . فنفذ بالفعل ما كان قد أقسم به ، وأمر جلده بأن يدكوا الأسوار حتى تتساوى والأرض (١) . ثم أصدر أمره باضرام النار في المدينة كلها . وهكذا أصبحت الاسكندرية عاصمة العلم والثقافة وكعبة الفكر والمفكرين أطلالاً مبعثرة . فكان نصيبها في ذلك الدمار نصيب أورشليم بعد أن دكها الامبراطور تيطس . وفي صدد هذه المأساة قال دى هينو أن أحد الرحالة - واسمه بيبير مارتير دانجير - الذي مر بالاسكندرية سنة ١٥٠٢ كتب عنها يقول : « يا للأسى ! هذه الاسكندرية الشهيرة العظيمة ، الغنية بسكانها ، الياقطة أقصى درجات الجمال ، التي كانت في غابر الزمان عاصمة البطالسة ، رأيناها - ويا لهول ما رأينا ! - رأيناها مهدمة مدمرة بتطرق الهجران إلى معظم أرجائها ، (٢) .

(١) جاء في كتاب : مصر الاسلامية ، لالاس الأيوبي ص ٩٩ ما نصه : « فحلف عمرو بن العاص للن أطفاله الله عليهم ليهيمن ذلك السور حتى يكون مثل بيت الزانية يوتى من كل مكان » ، راجع أيضاً تاريخ مصر في العصور الوسطى ، (بالانجليزية) لستانلى لاين بول ص ٢١ .

(٢) في كتابه : مصر : من مينا إلى فؤاد الأول ، (بالفرنسية) على هامش ص ١٩٩ حيث قال : " Un vorageur de passage à Alexandria en 1502, Pierre martyr d'Anghera écrit : Odoulcur ! cette Alexandrie célèbre, immense, si riche d'habitants, si belle, jadis capitale opulente le Ptolémées, nous l'avons vue, Ospectacle ! abattu ruinée en grande partie déserte " .

٢٨٩- وهذا يحسن بنا أن نقف قليلاً عند حادث كان له أكبر الأثر في التاريخ - ألا وهو حادث حرق مكتبة الاسكندرية . لأن هذا الحادث قد أثار الكثير من المتناقضات في مختلف العصور حتى لقد خصه عدد جزيل من المؤرخين بالافاضة فيه . على أن الكلام هنا سيقصر على سرد أقوال اثنين من جموع المؤرخين هما جاستون فييت المستشرق الفرنسي المعروف وأمين مكتبة دار الآثار العربية بالقاهرة سابقاً ، والمتليح الأنبا كيرلس مقار بطريرك القبط الكاثوليك والرئيس المنتدب للمجمع العلمي المصري سابقاً . فقد قال فييت : « إن عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩هـ (سنة ١٢٣٠م) والمشهود له بتوخي الحقيقة والكتابة الجدية ، كتب بصف عامود السوارى ، فقال عنه أنه الأثر الوحيد الباقي من ذلك البناء الفخم الذى عُلِمَ فيه أرسطاطليس وتلاميذه من بعده ، ثم أضاف هذا الطبيب البغدادي الشهير إلى ذلك الوصف قوله : « وهناك كانت تقوم المكتبة التى أحرقتها عمرو بن العاص بأمر عمر » . وهذا النص الصريح الذى اتخذ الغرب تكأةً للنقاش قد أثار الدوائر الاسلامية العصرية عاصفة من الغفور . ويرجع هذا الغفور إلى المغالاة فى التفسير إذ رأى فيه القوم مساساً بالحضارة العربية عامة لذلك وجب علينا أن نرد المسألة إلى حدها الحق . فحن لا نجهل أن المسلمين قد قاسوا بلأيا الحرب فى هذا المضمار ، ونختصر على ذكر مكتبة طرابلس التى أحرقتها قبائل الفرنجة ، ومكتبة بغداد التى أحرقتها المغول . ولكن الفتح العربى - على وجه التحقيق - قد أضر بالانسانية من الناحية العلمية كما أضر بها الفتح المغولى وغيره من الفتوحات . وعرب القرن السابع - فيما نظن - كانوا قلوبى العناية بالأدب المكتوب بلغات يجهلون بها . وعلى ذلك يكون اتهام جنود عمرو باحراق المكتبة لا مساس له بالحضارة العربية إطلاقاً . وعلى كل حال فإن شهادة ابن خلدون - ولو جاءت متأخرة - لا يمكن اغفالها . وقد أثبتت هذه الشهادة أن العرب قد ألْقُوا فى الماء والناز جميع كتب الفرس التى يؤيد الواقع زوالها من الوجود بحيث لم يبق لها أثر . وعلى ذلك يكون حرق مكتبة الاسكندرية حادثاً محتملاً وقوعه من جنود العرب كما يكون متفقاً مع

المنطق بحيث يصنى لنا أن نؤيده دون أن نمس الحقيقة الراهنة (١) .

هذا - ولا يتبعنا ذلك - بالاعتراف بحقيقة الحادث . فإننا نضطر في غالب الأحيان - عقد كتابية لتاريخ المسلمين - إلى أن نرجع إلى مصادر حديثة لانعدام المصادر القديمة . أما فيما يتعلق بالفتح العربي فإن لدينا مصادر قديمة عديدة كمؤلفات ابن للحكم والبلاذري والطبري والمسعودي والكندي ، ولم يشر أحدهم من قريب أو من بعيد إلى حرق المكتبة . فمن الخفة أن نصدق ما رواه عبد اللطيف الذي جاء بعد هذا التاريخ - تاريخ حرق المكتبة - بسنة قرون (٢) .

وهذا الموقف الذي وقفه جاستون فبييت يتعارض مع موقف غبطة الأنبا كيرلس مقار . فإن هذا الحبر العلامة يستشهد بسوزومين وثيودوريت وروفينوس (٣) ليبرهن على أن المكتبة كانت لا تزال موجودة في القرنين الرابع والخامس . ويضيف إلى شهادتهم ما شهد به أفثونيوس إذ قال : وهذه المكتبة مكتبة السيرايوم - المفتوحة للجمهور طول النهار هي - للمدينة كلها - دعوة مستمرة للاستقاء من مآهل الحكمة ، ويردف الأنبا كيرلس شهادات الأقدمين بقوله : أن مكتبة السيرايوم التي كانت في القرن الرابع المكتبة العظمى للاسكندرية ، لم تحرق بأمر يويانيوس سنة ٣٦٤ م ، ولا خربت بأمر ثيوفيلس الكبير سنة ٣٩١ م ، بل ظلت قائمة مع المكتبات الأخرى في القرن الخامس وحتى آخر القرن السادس (٤) .

(١) ، مقدمة ابن خلدون ، طبع على نفقة ورثة المرحوم الشيخ محمد عبد الخالق المهدي - القاهرة سنة ١٩٣٠ .

(٢) في مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) ج٢ المبحث الثاني ص ١١١-١١٢ وقد أوردا النص الفرنسي في آخر هذا الفصل .

(٣) ثلاثتهم من المؤرخين القدامى .

(٤) ، دراسة جديدة لسيرايوم الاسكندرية ، (بالفرنسية) للمسنبيور كيرلس مقار ص ٣٠ حيث أورد شهادة أفثونيوس وهذا نصها : " Cette Bibliothèque (du Serapeum) ouverte au public à toutes les heures, est pour toute la cité, une invitation constante à la sagesse " . " La Bibliothèque du Serapeum qui était au IV^{ème} siècle la =

وثمة شاهد آخر استند إليه الأنبا كيرلس مقار في هذا الشأن الخطير هو بول أوروز الأسباني - وكان شاباً سنة ١٤م - وقد جاء إلى الاسكندرية إذ ذاك، وزار مكتبة السيوريوم وغيرها من مكاتب المدينة وشهد بما رآه - واستكمل الحبر للعلامة بحثه في هذا الموضوع بالرجوع إلى أمونيوس الفيلسوف الاسكندري الذي كتب في السنوات الأخيرة للقرن السادس ، ولم يكف بذكر المكتبة العظمى التي بالاسكندرية بل ذكر أيضاً أنها كانت تحوى إذ ذاك أربعين نسخة من كتاب ، التحاليل الفلسفية ، ونسختين من ، المصنفات ، وكلاما للفيلسوف المعروف أرسطاطليس . وكان أمونيوس هذا معلماً ليوحنا القراماطيقي الملقب بفيلبيون الذي يروى عنه كتاب للعرب أنه بذل أقصى جهده في اقناع عمرو بن العاص بترك المكتبة وقد ضاعت جهوده عبثاً لأن عمرواً كان قد تلقى أوامر مشددة من الخليفة عمر بن الخطاب تحتم حرق المكتبة .

وبعد أقوال هؤلاء المؤرخين الأقدمين أورد الأنبا كيرلس مقار شهادة الدكتور عبد اللطيف البغدادي الذي تخرج من المدرسة النظامية في بغداد ، والذي جاء إلى مصر حيث قضى سنوات عدة في التدريس بالأزهر ، ثم ذهب إلى دمشق مع صلاح الدين الأيوبي . ولما عاد إلى بغداد مسقط رأسه كتب مذكرات عن رحلته . وبعد أن وصف - في مذكراته هذه - عامود السوربي والخرائب المحيطة به أضاف : « وله دار للعلوم وفيها خزائن الكتب التي حرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه ، (١) .

=Grande Bibliothèque d'Alexandrie n'a pas été brûlée par l'ordre de jovien en 364, ni détruite par le patriarche Théophile en 391, mais elle a existé avec les autres bibliothèques de la ville au V^{ème} siècle et jusqu' à la fin du VI^{ème} siècle".

(١) « مذكرات عن رحلتي في مصر ، للدكتور عبد اللطيف البغدادي اتصل بالربع الفترة الأولى وللاطلاع على مختلف الآراء حول هذا الموضوع راجع ، دراسة جديدة لسيوريوم الاسكندرية ، (بالفرنسية) للمنسيور كيرلس مقار ص ٢٢ - ٣٦ ، تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشيمندريت جبتي ج ٤ ص ٩٣ - ٩٤ والهامش الصافية على هاتين الصفحتين ٢ ج ٤ ص ٤٧١ - ٤٧٢ والهامش على الصفحة الأخيرة منهما . راجع أيضاً كتاب الفريد بطار : الكنائس القبطية القديمة في مصر ج ٢ ص ٢٤٠ .

وتجدر الإشارة هنا إلى لهجة التوكيد التي يديها عبد اللطيف - فهو لم يقل « من الضائع » ، أو « يقال » ، بل سرد الواقعة بصيغة لا تدع مجالاً للشك أمام القارئ مما يدل صراحة على أنه إنما كان يسرد حقيقة متداولة بين الجميع .

ولقد كان خطاب الخليفة عمر بن الخطاب قاطعاً لا هوادة فيه . وقد أورد ابن خلدون هذا الخطاب في مقدمته مبيناً أن الخليفة بحث به إلى سعد بن أبي وقاص فأنح بلاد الفرس وخاصاً بمكتبهم قال له فيه : « إن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله » . ولما كان الخطاب الذي بحث به عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص هو بعينه الخطاب الذي بحث به إلى سعد بن أبي وقاص كان خطاباً دورياً حكم به هذا الخليفة على مكتبتي بلاد فارس والاسكندرية في آن واحد .

وبين هذين الكاتبين - وهما جاستون فيريت والأنبا كيرلس مقار - وقف الياس الأيوبي الذي توسع في الكتابة ليبين أن المكتبة كانت - عند دخول العرب فقدت كل قيمتها الروحية للفكرية إذ لم يكن بها يومذاك غير كتب النحو والصرف والموضوعات الجدلية التي كان قد مجّها القبط إلى حد أنهم كانوا متشوقين إلى حرق المكتبة بأنفسهم ! ثم لخص حديثه هذا في النهاية بقوله : « فلم يخمر العالم ، إذن خسارة يبكىها في مسألة احراق كتب تلك المكتبة » لا - بل خرج من هاتيك الحادثة فائزاً فوزاً حقيقياً ... (١) .

٢٩٠- وبعد الوقوف عند حادثة حرق مكتبة الاسكندرية نعاود مساهرة ركب التاريخ وانسياب حوادثه فنقول أن عمرواً تعمد أن يخرب الاسكندرية تخريباً شاملاً عند الانتصار عليها للمرة الثانية كي لا تتعرض لغزو البيزنطيين مرة أخرى . لأنهم - حين يجدونها أطلالاً مبعثرة - يجدون أن غزوها مخاطرة لا جدوى منها . ولأن كان رجال عمرو لم يضرمو النار في المكتبة كما يعتقد البعض ، فالحريق للذي أضرموه في الاسكندرية عامة - عند الغزو

(١) في كتابه « تاريخ مصر الاسلامية » ص ١٧٤ - ١٧٩ .



جزء من باب الهيكل بدير الأنبا بيشوى (بواى النطرون) ويوجد مثله فى
دير السيدة العذراء (البراموس) على باب هيكل الكنيسة القديمة التى
تحمل اسمها المبارك

الثانى - قد التهم المكتبة ضمن ما التهم من ميان فخمة وآثار فكرية وفنية فى هذه المدينة التى ظلت قروناً عدة العاصمة الأولى للثقافة الروحية والأدبية فى العالم كله .

٢٩١- على أن المعارك التى دارت حول الاسكندرية للمرة الثانية والتى انتهت بذلك هذه المدينة العظمى لم تغير فى شعور عمرو نحو القبط ، إذ أدرك أن البيزنطيين هم الذين خرقوا حرمة السلام الذى تعاهدوا به معه ، ولا دخل لأبناء مصر فى هذا للتعدي . ولأنه ظل على عهده معهم فقد لتبع فى ادارة شئون مصر الطريقة عيها التى كانت متبعة من قرون قديمة من حيث الادارة والتقسيم إلى مديريات .

وقد رأى - تقادياً لما يحتمل أن يقع من ثورات - أن يعفى القبط من الخدمة العسكرية ، ولكفى بفرض الجزية كما سبق القول . فكان ما جمعه منهم من المال فى السنة الأولى لولايته مليون دينار (١) ، وفى السنة الثانية أربعة ملايين من الدنانير ، وفى السنة الثالثة ثمانية ملايين من الدنانير (٢) . كذلك عمل على تنمية الزراعة ليقتضى له لرسال القمح إلى البلاد العربية أسوة بالبيزنطيين الذين كانوا يرسلون القمح إلى القسطنطينية . وعلى الرغم من هذه الادارة الحازمة التى أبدلها عمرو فإن الخليفة عمر بن الخطاب لم يرض عنه إذ كان يطمع فى مقدار من المال أوفر من الذى كان يصله من مصر . فعين عبد الله بن سعيد والياً على الصعيد أولاً على أن الأمر لم يستتب نهائياً لهذا الوالى الجديد إلا بعد مقتل عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان الخلافة . فجاء عبد الله بن سعيد إلى مصر مع عدد من الرجال . وكان من عبدة المال فجمع لنفسه ثروة ضخمة . وكان أول من بلى ديواناً يكون مقرراً للحصول الجزية التى ضاعفها مما أدى إلى انتشار مجاعة فى البلاد قضت على حياة عدد كبير من أهلها . على أن الله - فى شامل رحمته بالمصريين - قد تداركهم بأن بارك فى محصول البلاد ، فزال ذلك وطأء المجاعة وتم قول

(١) كان لدينار يساوى خمسين قرشاً إذ ذاك .

(٢) وجاء فى بعض المخطوطات أن المبلغ وصل إلى اثني عشر مليون دينار .

المزمور : « لأن أعين الكل تدرجاك . لأنك تعطيههم طعامهم فى حين حسن » (١) .

٢٩٢- على أن عمرو بن العاص - قبل أن يغادر مصر - أكد احترامه للقيط بأن منح الأنبا بنيامين الحق فى إعادة بناء الأديرة والكنائس التى كان قد دمرها الفرس . وفرح البابا الاسكندرى بهذه المنحة إذ قد عدّها منحة سماوية . وأخذ يتفقد الأبنية المقدسة ليعرف ما تهدم منها وما تبقى . وكانت نتيجة زيارته لهذه الأبنية أنه قرر البدء بتجديد أديرة برية شهيت وكنائسها . واختار أن يبدأ بدير الأنبا بيشوى إذ قد وجد أن البرير كانوا قد خربوه تماماً . ثم امتد البناء إلى بقية أديرة تلك المنطقة التى تقدست - بأنفاس أصفياء الله منذ القرن الثانى للميلاد وحين رأى للرهبان غير باباهم على تدمير أماكن العبادة ازدادوا همة ونشاطاً ، وأتموا بناء الأديرة والكنائس الخاصة بها فى فترة قصيرة . وكانت النعمة التى حلت على بطل الأرثوذكسية الأنبا أثناسيوس الرسولوى قد حلت على خليفته الأنبا بنيامين ، فجعلت الشعب يحبه ويلتف حوله ويدين له بالولاء الخالص ، فعم الكنيسة سلام شامل .

٢٩٣- وفى تلك الآونة أراد عبد الله بن سعيد أن يثبت أنه لا ينقص عن عمرو بن العاص فى شئ فجرد حملة على بلاد النوبة كان النصر فيها حليفه فعرض على ملكها جزية سنوية مشفوعة بثلاثمائة وستين عبداً وأمة . على أن النوبيين لم يكونوا مواطنين على تقديم هذه الجزية أو هؤلاء العبيد والإماء ، وكانوا يناوشون العرب على الحدود بلا انقطاع (٢) .

٢٩٤- ولما أتم الرهبان تجديد دير الأنبا بيشوى وكنيسته واستقروا فيه آمنين فرحين ، تركهم البابا الحكيم يستريحون قليلاً ثم استحثهم على معاودة العمل لتجديد دير الأنبا مكارى الكبير . فابتهجوا بهذا الطلب إلى حد أنهم ما

(١) مزمور ١٠٦ : ٢٧- ٢٨ ، ١٤٥ : ١٥- ١٦ .

(٢) دليل المتحف القبطى لمرقس سمكة ج ٢ ص ١٤١ ، كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا للدكتور زاهر رياض ص ١٦٥ .

كلوا ينتهون من عملهم حتى يلوأ دلول للدير كنيسة جديدة . ثم ائتدبوا بعضاً منهم ايتذب إلى الأتبا بديامين ويطلب إليه أن يتفضل بالحضور إلى شيهيت لتكريس الكنيسة الجديدة . وقد وصل هؤلاء الناسك المتتدبون من اخوتهم لمقابلة البابا الاسكندري ليلة عيد الميلاد فى الساعة التى كان هذا البابا الجليل يتهبأ للزول إلى الكنيسة ليحتفى بهذه للمناسبة البهيجة . وقد فرح بآقياهم لما بدا عليهم من وقار ورصانة . ثم دعاهم إلى الاشتراك معه فى اقامة شعائر الصلاة . وبعد أن اغتبطوا جميعاً بتأدية للشعائر للمقدمة معاً ورفعوا أى التسبيح لله تعالى على ميلاد كلمته للمتجسد ، أعلم الناسك باباهم الجليل بأنهم أتمموا بناء الكنيسة للجديدة فى دير الأتبا مكارى ثم قالوا له : : تفضل يا أبانا المبجل بالمجى معنا للاحتفاء بتكريس هذه الكنيسة . فأجابهم على الفور : : حقاً أنها لدمعة عظمت أن يمنحنى إلهى هذه الفرصة السعيدة المجيدة ، ويتيح لنا جميعاً أن نجدد أماكن العبادة ومساكن القديسين بعد كل ما حاق بنا من آلام مريرة . ثم التفت إلى أغاثون سكرتيره الخاص وقال له : : أعدد ما يلزمنا للسفر كى نحظى ببركة أبينا القديس مكارى الكبير .

ولما دنا الموكب للبابوى من البرية سيق بعض من للرهبان الركب ليشروا اخوتهم فى الدير بقدم خليفة للقديس مرقس فخف الجميع لاستقباله وسار الشبان من الرهبان فى مقدمة الموكب يحملون سعف النخل يتبعهم الشيوخ حاملين للمجامر وكان للجميع يقرنمون معاً بالمزامير والصلوات الكنسية . فامتزجت صلواتهم وترانيمهم بالبخور للمتساعد من مجامرهم ، وترددت هذه الألحان فى فضاء الصحراء المترامية كما انتشرت رائحة البخور فعمطرت الأرجاء .

٢٩٥- ولقد بدأ الأتبا بديامين زيارته بتكريس الأديرة المختلفة فى برية شيهيت ثم انتهى إلى دير الأتبا مكارى الكبير أبى رهبان تلك البرية . وبينما هو يقيم للذبحة الإلهية إذ به يرى فى ركن من الهيكل شيخاً وقوراً تشع منه الأنوار السماوية . فلم يستطع أن يدين شخصيته لبهاء منظره . على أنه لم

يلت أن رأى سيرافيماً (١) وسمعه يقول له : « هذا هو الأنبا مكارى أبو الآباء جاء ليشاركك معك في تكريس بيعة أقمتها باسمه لأبنتائه للرهبان الذين يحبهم ويحترمونهم ، فامتلاً قلب الأنبا بنيامين بالفرح الممتزج بالرهبة ، وأخذ يتأمل الأنبا مكارى في الكبار والجلال . وبينما هو شارد فى تأمل هذه الرؤيا العجيبة سمع السيرافيم يقول : « لو أن أولاده ساروا فى طريقه وبأجوا على السعى نحو الكمال المسيحى الذى دأب هو على بلوغه ، فسيسدون معه فى مساكن النور . أما إن حادوا عن طريقه فيكونوا غرباء عنه فى دار النعيم » . وهنا اعترض الأنبا مكارى الحديث قائلاً : « يا مولاي لا تختم حديثك بهذه الكلمات : ولا تحكم على أولادى بقسوة . لأنه إن بقى فى المفقود عتبة واحدة فستحل عليها بركة الله . وإنى لو أتيت تماماً أنه إن وجد الأب السماوى راهباً واحداً ينتمى للناموس ، بأن يحب الأخوة ، ويرفع عينيه نحو السماء مرة واحدة يومياً فيسرحم البقية من أجله ، ويقبهم العذاب الأبدى » . وحين سمع الأنبا بنيامين هذه الكلمات تهال بالروح إذ أدرك عمق المحبة التى يكنّها الأنبا مكارى لأبنتائه الرهبان وهتف قائلاً : « مبارك أنت حقاً أبوا للعظيم مكارى ، ومباركون هم أولادك للسالكون فى طريقك ، لأنهم استحقوا أن يكونوا أولاداً لشفيح مقدّر مثلك . إنك مطوّب حقاً يا مكارى إذ أنت أشبه بالسفينة التى تحمل الكثيرين إلى ميناء السلام والخلاص . فطوبى للبطن الذى حملك والذين للذين رخصتهما (٢) لأنك جميل بالنعمة التى فاضت عليك وأعلت قدرك بين الناس » .

٢٩٦- ولما انتهى البابا الاسكندرى من تطويب الأنبا مكارى بدأ فى تكريس المذبح ، وإذ به يرى السيد المسيح له المجد يدهن المذبح بالميرون المقدس ويدهن بعده جدران الهيكل والكثيسة . وعند ذلك امتلأت روحه نشوة

(١) واحد من أعلى طمخة من الشخصات السموية لأنه هو زملاؤه يجلسون بالجلال على العرش ويتمنن إليه للتصحيح وفقاً بغير قدور ، ولكل منهم سعة أجنة : باثنين يغلى وجهه من بهاء عظمة الله وباثنين يغلى رجليه وطير باثنين - راجع صلاة الصلح وصلاة ، أنت هو القوام حراك ، من قلب غريغوريوس .

(٢) لوقا ١١ : ٢٧ .

سماعية وأخذ يردد قول المزمور : « ما أحلى مساكنك يا رب القوات . تشاق وتذوب نفسي إلى ديار الرب . قلبي وجسمي قد ابتهجا بالإله الحي ... مفلحك يا إله القوات ملكي وإلهي » (١) . ولقد انعكست النشوة الروحية التي غمرت الأنبا بنيامين على وجهه طيلة القداس الإلهي . فرأى الرهبان النور يشع من وجهه فامتثلوا بدورهم بالفرح الروحي . ولما انتهى القداس جلس للبابا مع الرهبان يتبادلون الحديث عن عظام الله . وفي أثناء الحديث قال لهم : « صدقوني يا أولادى إننى لختطفت إلى السماء مثل بولس الرسول ، ومثله أيضاً سمعت كلمات لا يسوع لأنسان أن يقولها (٢) . كذلك رأيت مجد الله يملأ الهيكل ، ورأيت الجند السمايين يسبحون الأب والابن والروح القدس . ومع هذه الرؤيا العجيبة رأيت القديس مكاري الكبير أبا البطاركة واقفاً فى وسطنا مشاركاً إيانا الصلوات التى يمكن بواسطتها الدخول إلى عرش النعمة . وفى اللحظات التى رفعت فيها السر الأقدس إمتلأت نفسى بفرح لا يوصف إذ رأيت البخور يتصاعد من أفواه الاخوة - الذى هو صلوات القديسين (٣) المرتفعة نحو السماء حينئذ لم أتمالك نفسى لقيض الفرح الذى غمرنى . فتهفت بذلك النشيد الذى هتف به القتيبة الثلاثة وهم وسط النار المقدسة وقلت : « مبارك أنت أيها الرب إله آبائنا ومسيح ومجد إلى الأبد ، (٤) ، مبارك حقاً هو الله إله القديسين الذين يستظل العالم بصلواتهم ويهتدى بهم فى طريق التقوى . ان هذا المكان ليس سوى ملتقى الملائكة ومسكن جميع الملتجئين إلى الله . ولقد سبحت إلهى بقلب خالص معترف بمجده ، وسبحت ربى يسوع المسيح الذى أهلتنى لأن أرى كل هذه العجائب التى لا توصف . »

وكان كل هذه الاستعلانات الإلهية لم تكن كافية إذ قد تمت أعجوبة فى شفاء ابن حاكم مدينة نيقويس . فقد كان يشكو من مرض عضال ، وكان نائماً

(١) مزمور ٨٤ (٨٣ فى الأجبية) .

(٢) ٢ كورنثوس ١٢ : ٤ .

(٣) رؤيا ٥ : ٩ .

(٤) دانيال ٣ : ٤٢ .

فى الكنيسة بعد تكريسها وإذا به يصرخ صرخة عالية أزعج الجميع فهرعوا إليه . وعندما تحول فزعهم إلى فرح إذ وجدوه قد شفى : روى لهم أنه رأى فى حلم رجلاً طويلاً ذا لحية بيضاء تكدلى فوق صدره قد جاء إليه ووضع عليه يده فأبراه فى الحال . فتيقن الجميع من أن الأنبا مكارى هو الذى ظهر له وشفاه (١) .

٢٩٧- وهكذا قضى الأنبا بديامين يومه مع الرهبان وهم يتحدثون جميعاً بما يجريه الله تعالى من عجائب لا تنتهى . فلما غربت الشمس ، وانفرد كل راهب فى صومعته ، رأى البابا فى رؤى الليل ملاك الرب وسمعه يقول له : « قم أيها الراعى ، وسجل قوائين الكنيسة ، ونظم أمور هذا المكان المقدس الذى أنت مقيم فيه الليلة ليكون تسجيلك وتنظيمك منارة تهدى جميع الذين سيأتون نداء الله الهامس فى قلوبهم ويأتون ليقبضوا هنا فى هذه البرية ، فأجابه البابا الاسكندرى : « إنه ليسعدنى أن أطيع أوامرك أيها الملاك اللورائى » . قال له الملاك : « إذن فليكن معلوماً لديك أن يوم انتقالك من هذا العالم سيكون موافقاً للتاريخ الذى كُرمت فيه بيعة القديس مكارى . فرد عليه هذا البابا الوقور بقوله : « ليجعلنى إلهى مستحقاً لكل ما قلت ، ومبارك هو رعى يسوع المسيح محب نفسه لأن مرحامته تفيض على وتغمرنى » . وعندما اختفى ملاك الرب من أمام عينيه . فلما أصبح الصباح طلب الأنبا بديامين إلى أغاثون سكرتيره أن يسجل كل ما رآه وسمعه ليذكره هذا التسجيل بأعبائه الجسماء وليستحله على سرعة التنفيذ قبل أن يتم الله وعده وينقله من هذا العالم .

٢٩٨- وعاد الأنبا بديامين إلى عاصمة كرميه وإنهمك فى تنفيذ ما أمره به الملاك وفى تهيئة المؤمنين وتصوير الكنائس التى خربها الاستعمار . وبينما هو مشغول بهذه الواجبات الراعوية العظيمة كان المسيحيون فى البلاد الأخرى منشغلين فى جدال عنيف حول موضوع له أهميته وهو : « هل للسيد المسيح مشيئة واحدة أم مشيئتان » . ولما اشتد النقاش بين الأساقفة حول هذا الموضوع

(١) أديرة وادى الطورين - الرسالة السادسة من رسائل مارمينا - للدكتور منير شكرى ، الاسكندرية سنة ١٩٦٢ ص ١٨٧ .

رأى الامبراطور أن يدعو إلى عقد مجمع فى القسطنطينية . على أن الكنيسة المصرية لم يكن لها مندوبون فى هذا المجمع، ولم يسمع لها صوت فيه ، لأن الذى حضره هو قورش صليبة الامبراطور . ولم يكن لقورش هذا أى حق فى أن يدوب عن كنيسة مصر أو يتكلم بلسانها لأنه كان دخيلاً معتدياً فرضه الاستعمار على هذه الكنيسة المصرية الصليبية التى رفضت الاعتراف به وقاطعته مقاطعة تامة . وفوق هذا فقد كان قورش (وقت انعقاد المجمع) خارج مصر إذ كان قد تركها نهائياً على أثر توقيع المعاهدة بينه وبين عمرو بن العاص الذى هيا الفرصة للأتبا بنيامين ليتسلم مقاليد رئاسته ويعيش فى عاصمته . فلم يكن قورش معتدياً فحسب وإنما كان قد اضطر لأتبا إلى مفادرة مصر التى كان قد اعتدى عليها . وهكذا حققت الأحداث السياسية آمال القبط فى طرد هذا الدخيل . ومن المدهش أنه على الرغم من هذه الحقيقة فقد كان لقورش اللوفاحة الكافية لأن يحضر المجمع الذى كان قد انتقد بأمر هرقل باسم الكنيسة المصرية . والأغرب من هذا أنه وجد من بين المؤرخين من قال أن بطريك الاسكندرية حضر هذا المجمع (١) .

٢٩٩- وخلال هذه المناقشات تولت الأيام مما جعل نهاية الأتبا بنيامين تقترب ، وكان يعلم بقرىها لأن ملاك الرب كان قد أنبأ بها . فشغل نفسه فى السهر على رعيته ودأب على تعليمها ليطلعن ضميره وسجل القوانين الكنسية والنظم الرهبانية تنقيداً لأوامر ملاك الرب حالما عاد من تكريس كنائس الأديرة بشبهيت . وما أن انتهى من تحقيق هذه الوصية حتى أصيب بمرض فى رجله ألقه سنتين كاملتين لاحتل فيها الألم والوجع بصبر وهده . وقد خدمه تلميذه أغاثون خلال هاتين السنتين خدمة الابن البار بأبيه المحبوب . ولقد أبدى للقسوس عطفهم على هذا البابا الصبور فشفعوا فيه لدى الآب السماوى ضارعين إليه أن ينقله من دار الشقاء إلى دار الهناء . فتقبل منهم تعالى هذه الشفاعة وأرسل إليه الأتبا أنطاسيوس الرسولى وبصحبته قديسين آخرين . فظهر له ثلاثتهم فى حلم ويشروه بقرب انتقاله إلى بيعة الأبقار . وما أن انبثق فجر

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيئى جـ ٥ ص ٤٢٢ .

تلك الليلة حتى فاضت روح الأنبا بنيامين إلى بارئها . وكان انتقاله في اليوم الثامن من شهر طوبى المبارك (١٧ يناير) - وهو ذات اليوم الذى كان قد كرس فيه كنيسة الأنبا مكارى الكبير فى شيهيت . فتحققت بذلك النبوة التى كان قد تنبأ له بها ملاك الرب .

ولقد كان جلوس الأنبا بنيامين على للسدة المرقسية صورة من الصبور المتلاحقة التى لا تحصى عن عناية الله تعالى بكنيسته المصرية . ذلك لأن هذا البابا الجليل كان بين الصفوة المختارة فاستطاع أن يخلق بروحه فى الأجواء العليا ويلمح قسماً من النور السماوى ثم يعكس هذا النور على غيره من الناس إذ كان قد تلقاه من مصدره مباشرة (١) .

وكانت مدة رياسة الأنبا بنيامين على الكنيسة المصرية تسعاً وثلاثين سنة، قضى ثلاثة عشر سنة منها طريداً شريداً ثم منحه الله تعالى أن يعود إلى مقر كرسيه وأن يستعيد للكنيسة مكانتها فى القلوب الجاحدة .

٣٠٠- على أن السلام الذى كان عمرو بن العاص قد بسط رأيته فوق مصر بسبب سياسة التفاهم التى سار عليها تقلص ظله . فقد استبدل الخليفة عمر بن الخطاب هذا القائد الحكيم بعبد الله بن سعيد على ولاية مصر . ويرى ابن الدقماق أن زكريا ملك اللوية أهداه منبراً ، وقد بعث بهذه الهدية مع نجار من فندره اسمه بقطر ليكون فى خدمته . وقد وضع عبد الله بن سعيد هذا المنبر فى جامع عمرو حيث ظل إلى أن استبدله قرة بن شريك بعد ذلك مما يزيد عن أربعين سنة (٢) .

ولقد ضاعف عبد الله بن سعيد الجزية على المصريين مستهدفاً فى ذلك أمرين : أولهما استرضاء للخليفة وثانيهما الأمل فى أن تدوم له الولاية . وقد تحقق هدفه إذ قد ظل محتفظاً بها إلى ما بعد مقتل عمر بن الخطاب والمناداة

(١) تاريخ بطريركة الاسكندرية لساويرس أسقف الأشمونين (طبعة لويجيس) ج ٢ ص ٥٠٣ .

(٢) لثر القطب على العمارة الاسلامية الأولى (بالانجليزية) لكرنويل - مقال نشره فى مجلة الآثار القطبية المجلد الخامس (سنة ١٩٣٩) ص ٢٠ .

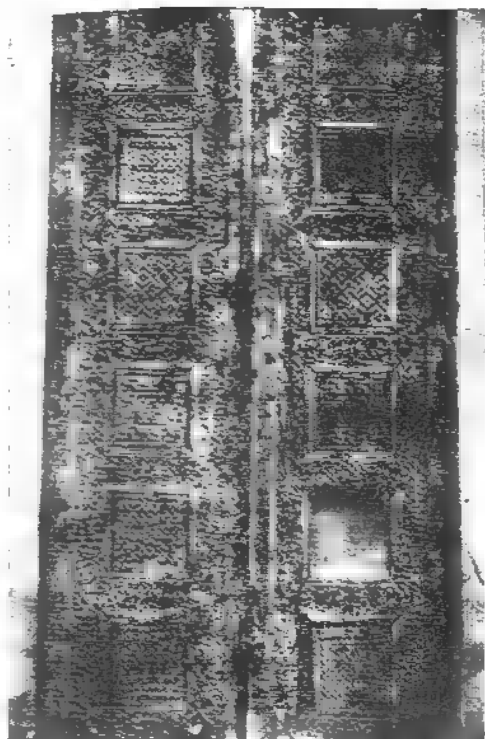
بعثمان بن عفان خليفة من بعده ولما رأى عبد الله بن سعيد أن مضاعفة الجزية تستجلب له رضى للخليفة استمر يضاعفها سنة بعد الأخرى حتى لقد بلغت سنة ٦٥٤م أربعة عشر مليوناً من الدنانير ولقد عقب عثمان بن عفان على هذه الزيادة بقوله لعمره حين قابله في المدينة : « إن الذاقة الآن تدر لبناً أكثر من قبل » . أجابه عمرو : « نعم ولكن هذا يؤذى صغارها » . ولقد صدق القائد العربي إذ قد تضجّر الشعب من فداحة الأموال المفروضة عليه وأبدى سخطه بالثورة على عبد الله بن سعيد بأن رفض السماح له بدخول مصر عند عودته من رحلة له في فلسطين . كذلك وصل مندوبو الشعب الغاضب إلى المدينة طالبين إلى عثمان بن عفان أن يولى عليهم رجلاً يرتضونه .

٣٠١- وفي تلك الآونة رأى اميرالمطور القسطنطينية - وكان حفيداً لهرقل- أن يحارب العرب في مصر لعله يظفر بهم وقد دفعه إلى هذه الحرب ما أحس به هو وقومه من جوع . ذلك لأن أهالي القسطنطينية كانوا يشبهون من غلال مصر فلم يعودوا يحصلون على هذه الغلال بعد أن فقدوا سيطرتهم عليها وقد دارت معركة بحرية عنيفة بين القوت البيزنطية والقوات العربية . إلا أن هذه المعركة - رغم عنفها - لم تدم غير ساعات تم النصر بعدها للعرب . وتعرف هذه المعركة باسم « معركة للصواري » لكثرة المراكب الشراعية التي استعملها الفريقان يومذاك . وقد قاد عبد الله بن سعيد الجيش العربي بنفسه . ولعلف هذه المعركة لم يحاول البيزنطيون أن يشتركوا مع العرب في حرب مدى قرون بل كانوا يكتفون بمناورات ومناوشات لا تغني فتية (١) .

(١) تاريخ مصر الإسلامية لأندلس الأيوبي ص ١٠٢ - ١٠٣ ، مصر في العصور الوسطى (بالإنجليزية) لستبلى لاين بول ص ٢٢ .

لنص الفرنسي لما ورد على ص ٧٥ من قول فييت عن حرق مكتبة الاسكندرية :

" Nous devons nous arrêter à un incident d'une importante gravité, sur lequel nous formulerons des conclusions avec une parfaite sérénité. Un écrivain Arabe, particulièrement sérieux, Abd al-Latif, mort en 629 (1231), parlant de la colonne Pompée écrit que c'est le dernier vestige d'un édifice on enseignèrent Aristote, ■ après lui, ses disciples. L'éminent médecin de Bagdad ajoute : "C'était ■ qu'était placée la bibliothèque que brûla " Amr ibn al-As " . =



باب هيكل الأنبا بنيامين (البابا الـ ٣٨)
بنير الأنبا مكاري الكبير ببرية شيهيت

= sur l'injonction de Umar. Ce texte précis, utilisé en occident pour des besoins de polémique, a donné lieu à des commentaires qui ont provoqué des explosions d'indignation dans les cercles musulmans contemporains. Ici, ce sont des exagérations nouvelles, qui prétendent mettre en cause toute la civilisation Arabe. Il faut restreindre le problème à ses vraies limites, car nous n'ignorons pas que les musulmans ont eu, sur ce chapitre, à souffrir des malheurs de la guerre, nous bornons à citer l'incendie de la bibliothèque de Tripoli par les =

= Francs et de celle de Bagdad par les Mongols. Mais, précisément la conquête Arabe fut momentanément, du point de vue intellectuel, aussi nuisible à l'humanité que la ruée mongole, et les Arabes du VII^{ème} siècle, croyons-nous s'intéressaient fort peu à la littérature tout court, et, à plus forte raison, à une littérature rédigée dans des langues étrangères. Ce n'est donc pas médire de la civilisation musulmane que de considérer les soldats de " Amr " comme capables d'avoir incendié une bibliothèque : d'ailleurs au témoignage, tardif aussi, mais peu négligeable, d'Ibn Khaldun, les Arabes auraient jeté à l'eau ■ au feu tous les livres des Perses, qui, en fait, ont bel et bien disparu . L'incendie de la bibliothèque d'Alexandrie est donc un fait possible, qui cadre avec l'état d'esprit que nous pouvons prêter sans choquer la vraie semblance, aux guerriers arabes . Ceci dit, nous sommes à l'aise pour nier l'authenticité de l'incident . Pour rédiger l'histoire des pays musulmans, nous sommes souvent réduits, faute de mieux, à utiliser des textes de basse époque . Mais, précisément pour cette narration de la conquête d'Egypte, nous possédons de ouvrages relativement anciens, ceux d'Ibn ' Abd al Hakam . de Baladhuri, de Tabari, de Masudi, de Kindi . Or, aucun d'eux n'a fait la plus petite allusion à cette incendie, et il serait léger de croire son historicité sur le témoignage de ' Abd al Latif, postérieur de six cents ans " .

على أنه مما يجدر ذكره أن كل هؤلاء الكتاب الذين يستند إليهم قبيط عاشوا بعد الفتح العربي بقرنين أو ما يزيد فهم أيضاً لم يماصروه . فاعتراض قبيط على عبد اللطيف البغدادي ينطبق عليهم حتى وإن كانوا سابقين عليه . كذلك يجدر القول بأن كل المتأخرين من الكتاب قد وجدوا الكثير من التضارب والتشويش فيما ورد عن هذه الحقة - راجع ما قاله كل من قبيط وسنانى لابن بول كما أوردها في الهامش من ص ٢١١ . كذلك قال رحنا فرج باسولى فى رسالته للدكتوراه ما نصه : L'Egypte a été conquise par les Arabes en 641 . Cette période est encore assez confuse et entourée des incertitudes . Les écrivains arabes qui l'ont racontée sont de date assez postérieure aux événements

وترجمته : لقد استولى العرب على مصر سنة ٦٤١ . وهذه الحقة ما زالت إلى حد ما مشوشة ومحاطة بالكثير من الأساطير والكتاب العرب الذين سردوها يرجعون إلى عصر متأخر عن حوادثها راجع رسالته عن النظام المالى فى مصر منذ العصر البرناتى حتى القرن العاشر بعد الميلاد طبع فى باريس فى ٢٨ يونيو سنة ١٩٦٢ من ٢٦٢ .

معترف جرئ : الأنبا صموئيل القلموني

- (٢٠٢) الوثائق القبطية الصميعة تستعرض صوراً للفكر الانساني.
- (٢٠٣) المنطقة التي نشأ فيها صموئيل .
- (٢٠٤) والدا صموئيل وكيفية معيشتهم .
- (٢٠٥) صموئيل يشب على حب الكنيسة .
- (٢٠٦) رغبة أبويه في تزويجه واصراره على التبتل .
- (٢٠٧) نياحة والدي صموئيل وذهابه إلى الصحراء .
- (٢٠٨) وصوله إلى شيهيت وتعلمه للناسك اغاثون .
- (٢٠٩) فرح الناسك اغاثون به ويقاؤه معه ثلاث سنين .
- (٢١٠) الله تعالى يمنح صموئيل شفاء الأمراض .
- (٢١١) حالة مصر العامة في ذلك العهد .
- (٢١٢) حكم قورش الأسقف البيزنطي الدخيل .
- (٢١٣) قائد الجيش البيزنطي يقتحم الصحراء وينكل بالرهبان .
- (٢١٤) صموئيل في جبل القلمون .
- (٢١٥) صموئيل يجمع بين الحياة الديرية وحياة الوحدة .
- (٢١٦) بطش المقوقس بالأنبا صموئيل ورهبانه .
- (٢١٧) الأنبا صموئيل في الأسر .
- (٢١٨) الله تعالى يمنح زركانديس ولداً بصوات الأنبا صموئيل .
- (٢١٩) زركانديس يعتنق المسيحية ويعيد الأنبا صموئيل إلى وطنه .
- (٢٢٠) دير الأنبا صموئيل بجبل القلمون .

٣٠٢- إنه لمن دواعي الرضا والارتياح أن يجد الباحث عن الحقائق التاريخية أن التقدير والاعجاب للذين يكلهما لأمجاد الماضي قد أخذنا يسريان إلى نفوس الآخرين فيجتذبان قلوباً كانت جاحدة لهذه الأمجاد . وهذا هو الحال فيما يتعلق بالتاريخ القبطي - أو بالحرى فيما يتعلق بتلك الناحية من التاريخ التي تكاد أن تكون في معزل عن التاريخ للذي ينتقله الطلبة في المدارس . لأن التاريخ الذي يدرسه الجميع بصفة عامة هو تاريخ الفتوحات والغزوات وسؤر

الملوك والحكام . أما الوثائق القبطية الصميمة فتستعرض أمام الباحث صوراً للفكر الانساني - إن لم يكن استعراضاً للفكر في جملة فهي صور للفكر في جزئياته - لأنها تصف الفكر الذي ساد مصر حقبة من الزمن . ومتى استجلى الباحث حقيقة هذه الحقبة الخاصة استطاع عن طريق هذا الاستجلاء أن يستوضح غوامض العصور التي تبدو كالأساطير الخرافية في مختلف البلاد ولكنها في مصر حقيقة لا وراء فيها . وكلما أجهد الباحث نفسه في استجلاء غوامض هذه العصور القديمة ازداد إدراكاً أنه خير له أن يقتنع بتطور الفكر والتطلع الانساني من أن يعرف تاريخ هذه المعركة أو تلك ، ومدة حكم هذا الملك أو ذاك . والوثائق القبطية خير وسيلة يصل الباحث بواسطتها إلى تتبع انطلاقة الفكر الانساني ومعرفة تطوره . بل أن أقل الوثائق شأناً ، وتلك التي تتعلق بأقل للرهبان أهمية لها قيمة عظيمة في الكشف عن خبايا الفكر الانساني . فكم بالحرى يفيد الباحث حين يقف على سيرة قديس ممتاز كالأنبا صموئيل القلموني (١) .

٣٠٣- ولقد ولد صموئيل في مدينة تقوم على أنقاضها اليوم مدينة فوه . ويبدو من وصفها أنها كانت على جانب كبير من الثراء . وكانت تقع في المنطقة التي تضم بين جوانبها مدينة بونو التي اشتهرت بمواكبها الدينية الرائعة في العصر الفرعوني إذ كان يقوم بها معبد للآلهة ، واجيت ، وكانت تواجه المعبد بحيرة قامت في وسطها جزيرة يحج إليها الزوار سنوياً من مختلف جهات القطر المصري ليستشيروا كهانها ويستمتعوا بجمال الجزيرة الصناعية العائمة وسط البحيرة . وقد ظلت عبادة ، واجيت ، حتى آخر العصور الوثنية .

وكانت هذه المنطقة رغم ما تنطوى عليه عاصمتها من جاه ومن زعامة دينية أقرب إلى الهمجية منها إلى المدنية . ذلك أن معظم أراضيها كان

(١) مجلة تاريخ الأديان : صموئيل القلموني . نقله إلى الفرنسية عن القبطية أميلينو ص ٧ حيث يقول : " Pour tracer l'histoire de la pensée humaine, les œuvres de la littérature Copte sont de la plus grande utilité, même les œuvres les moins hautes et les moins compréhensives, même les ' vies ' des moines peu célèbres".

مغموراً بالمياه على مدار السنة . فكان أغلب سكانها من صيادى السمك ورعاة
البقر . ولأنهم كانوا يقضون معظم حياتهم فى العزلة بين الماء والسماء فقد
كانوا يرضون بشطف العيش فى سبيل الاحتفاظ بحريتهم ، كما كانوا سريعى
التمرد على كل سلطة لكونهم عرفوا معنى الحرية الفردية واستمتعوا بها . وكان
كل رجل فى الدلتا يستطيع أن يحمل السلاح وأوى إلى هذه المنطقة لذلك
عدت معقلاً للكافرين والمتمردين على الاضطهاد والمعتزين بحريتهم . ولقد
أوى إليها فى وقت ما الأنبا مكارى الكبير أبو رهبان برية شيهيت هرباً من
وجه لوسيوس الأريوسى . وعندما غزا العرب مصر كان سكان هذه المنطقة
فى طليعة المقاومين للغزاة . فقد قاموا بثورات انتهت معظمها إلى مأس
مروعة .

٣٠٤- وكان والد صموئيل كاهن المدينة التى هى عاصمة تلك المنطقة
الهادرة الساخطة . وكان يملك بعضاً من الأرض . فكان هو وزوجته يقدمان
بالكفاف من العيش ويصرفان كل ما تبقى لهما من المال على الفقراء
والمعوزين . كذلك جعلاً من بيتهما مأوى للفقراء والمرضى ، وانصرفا إلى
خدمة المكفوفين والشيوخ واليتامى . فعلاً صيتهما الأرجاء .

وقد عاش هذان الزوجان وهما يؤديان هذه الأعمال سنين عديدة فى
رضى وحبور لا ينقص عليهما عيشتهما غير لهفتهما إلى خلف تقرّ به
أعينهما . فدأوما على الصوم والصلاة ضارعين إلى الآب السماوى أن يسدهما
بطفل يزيد حياتهما سعادة . واستجاب الآب الرحيم هذه التضارعات الحارة
ورزقهما ولداً أسمياه صموئيل .

٣٠٥- ولم يذكر كاتب سيرة صموئيل شيئاً عن طفولته . على أنه لا شك
فى أنه نشأ بين أطفال مدينته يشاركهم الدرس واللعب . وقد شب على حب
الكنيسة والتمسك بفرائضها من صوم وصلاة ومن تذكارات القديسين والاحتفاء
بالأعياد والمواسم . ولما كان نقل الكتب (بالخط اليدوى) هو الوسيلة الوحيدة
لشرها وتهئية الفرصة لمطالعتها فى العصور السابقة على ابتكار المطبعة على
القبط بفن الكتابة عناية خاصة . واهتم والد صموئيل بتعليمه فن الكتابة غاية

الاهتمام فأجاده كما أجاد حفظ الصلوات الكنسية والأسفار الالهية . وفي الثانية عشرة من عمره رسم شماساً .

٣٠٦- وكان أول ما شغل بال والدى صموئيل هو أن يزوجه ليفرحا بأولاده - شأنهما في ذلك شأن جميع المصريين على مر العصور . ولكنهما ما كادا يفتاحانه في هذا الموضوع حتى لاقيا منه إعراضاً تاماً إذ أكد لهما أنه يرغب في حياة التمسك والزهدي . وحين وقفا على رغبته هذه حاولا إقناعه بالعدول عنها . بحجة أنه وحيدهما ويشتهيان رؤية أولاده ، غير أنه أصر على رأيه . وحين تبين أن قلبه متعلق بالرهينة نزلا على رغبته ومنحاه بركاتهما . ويازاء هذه الرغبة الملحة من جانب صموئيل رأى أبوه أن خير ما يعمل هو أن ينفق ما يملك من مال في بناء كنيسة فخمة . وقد استغرق بناء هذه الكنيسة وزخرفتها سنتين كاملتين . وكان صموئيل قد نال أثناءهما رتبة رئاسة الشماسية (الأرشيدياكونية) فسلمه أبوه مقاليد الكنيسة وهو مغتبط . وكان العناية الالهية قد هيات لهما هذه الفرصة السعيدة فمُنحتهما الوقت الكافي لاتمام بناء الكنيسة ثم أعطتهما بعد ذلك مهلة قصيرة نقلتهما بعدها إلى عالم الأرواح .

٣٠٧- ولما وجد صموئيل نفسه وحيداً رأى أن خير عزاء له هو أن يقضى الأيام الأولى من تيقمه في الصلاة والصوم ضارعاً إلى الله أن يرشده إلى أقوم طريق يسلكه . ثم وزع أمواله على الفقراء والمحتاجين ، وسلم الكنيسة إلى الذي خلف أباه في خدمتها ، وغادر المدينة قاصداً إلى الصحراء . وما أن انتهى من الحدود للمنطقة العامرة حتى ظهر له ملاك الرب في زي راهب ينرى العودة إلى برية شيهيت . فلزم الملاك صموئيل كما لازم ملاك الرب طوبيا الصغير من قبل (١) . وأخذ يوصف له روعة الحياة التسكية وما تتطوى عليه من عظمة روحية فسّر صموئيل لأن كلام الملاك لم يكن إلا صدىً لنداء قلبه . على أنه قرر أن يترك بدير القديس مكارى الكبير . وكانت قد انقضت قرون ثلاثة منذ أن عاش هذا للقديس العظيم في برية شيهيت . على أنه رغم ما أصاب أديريته من تخريب وتدمير فقد ظلت هذه الأديرة طوال هذه المدة

(١) راجع سفر طوبيا .

تستهوى خيال الشباب المتطلع نحو الكمال المسيحى . لأنها ظلت مفارقة ساطعة
بمن كان يعيش فيها من نساك روحيين فاجتذب نورهم الشباب الذى كان
صموئيل ضمه .

٣٠٨- ومار صموئيل بصحبة رفيقه الملاك المتخفى فى زى راهب حتى
اقتربا من بركة شيهيت . وعندها قال له الملاك : « إن فى هذا الجبل شيوخاً
قديماً اسمه أغاثون يحيا على الأرض حياة سكان السماء . فإن شئت أن تتقدم
فى حياة البر والصلاح يحسن بك أن تتلمذ له ، فرجا منه صموئيل أن يرافقه
حتى يقدمه إلى هذا الشيخ الجليل ويوصيه به خيراً . فقال له الملاك : « إن
والديك كانا بارين ، وما كانا عليه من برٍ يدعونى إلى أن ألبى طلبك وأوصلك
إلى الشيخ القديس . فإذا ما تتلمذت له فإننى لنصحك بطاعته لنستطيع أن
نسمو بنفسك وننال رضى الله تعالى . فتشجع الآن وتعالى معى . »

ثم أمسك الملاك بيد صموئيل ودخل به إلى صومعة القديس أغاثون وقال
له : « أقبل هذا الشاب واسمح له أن يتلمذ لك . وأليسه اسكيم الزهنية . وعلمه
قوانين النسك ليكون لك عكازة فى شيخوختك . » ثم توارى عنهما الملاك .
فسبحاً الله فى ملائكته وقديسه .

٣٠٩- وحين دخل صموئيل صومعة الناسك الشيخ أغاثون أحس فى قلبه
الفتى بشئ من الرهبة . ولكن ما أن وقع نظره على هذا الراهب القديس حتى
تبديت مخاوفه إذ أدرك من النظرة الأولى ما تنطوى عليه نفس الشيخ من
العطف والحنان . وازداد قلب صموئيل اطمئناناً عندما سمعه يقول له : « مرحباً
بك يا ابنى صموئيل خادم الله الطى . إننى فرح بك لأننى أعتقد أن الله قد
بعث بك إلىّ لتكون عكازتى فى شيخوختى . » ثم صلى الشيخ الناسك على
الاسكيم الزهبنانى المقدس وألبسه لياة قائلاً : « ليذبّت خطواتك إله آبائنا
القديسين أنطونى ومكارى ، ولتكن لهما تلميذاً من الآن حتى انقضاء الأيام . »
ومن تلك اللحظة اندمج صموئيل فى حياة النسك والتبذل وقضى السنين الأولى
من حياته النسيكية فى خدمة معلمه الشيخ أغاثون ، فبث فيه الشيخ روح
الرداعة ودرّبه على السكوت والتأمل فى الالهيات كما دربه على حفظ الآيات

المقدسة لكي يترنم بها ليل نهار . وقد علمه إلى جانب التعاليم الروحية الأعمال اليدوية كصنع السلال وغير ذلك عملاً بما وضعه كواكب البرية . وقد قضى صموئيل في هذا التلمذ للحياة النسيكية سنين ثلاثاً أصيب بعدها الشيخ أغاثون بمرض أقعده عن العمل . فقام صموئيل نحوه بخدمة هي خدمة الابن المطيع لأبيه المحبوب . وظل في هذه الخدمة شهراً ثلاثاً انتقل بعدها أغاثون إلى بيعة الأبرار . وكما حلت روح ايليا على تلميذه اليسع (١) هكذا حلت روح أغاثون على تلميذه صموئيل .

٣١٠- ولما وجد صموئيل نفسه وحيداً ضاعف صلواته وتأملاته . وقد منحه الله تعالى موهبة شفاء الأمراض فذاع صيته في أنحاء القطر المصري . ومن ثم قصد إلى صومعته رهط كبير من شباب مصر الذين كانوا يرغبون في حياة النسك والتقوى ليتعلموا له - فقبلهم بفرح روحى . كذلك قصد إليه مئات من المرضى لينالوا للشفاء بصلواته . وقد اتخذهم الملاحون لهم شفيعاً يستجدون به في الملمات فيسعدون بالهدوء بعد العاصفة . ولقد بلغ صوت صموئيل حداً جعل أسقف القيس (بمديرية المنيا) يقصد إليه لينال البرء مما كان يعانيه من ألم وسقم .

٣١١- ولقد كانت مصر ما بين أولخر القرن السادس وأوائل القرن السابع - أى في العصر الذى عاش فيه الأنبا صموئيل على هذه الأرض - كانت مصر تكن وتتوجع إذ كانت ترزح تحت الحكم البيزنطى . وبدأ هذا الأثنين مع المجمع الخلقيدونى المشلوم الذى كان من نتائجه أن هرب السلام من وادى النيل . وقد ظل الأنبا ديسقورس المصرى المنارة الثابتة فوق الصخور رغم الأمواج المتلاطمة المتكسرة على هذه الصخور . ومن المستغرب أن آباء خلقيدون زعموا أنهم بخلع ديسقورس ونفيه إلى جزيرة غفرا سيسقطونه فى أعين أبنائه ويقضون بذلك على كل مقاومة فى مصر . ولكنهم أخطأوا كل الخطأ فى هذا الزعم لأن النتيجة جاءت على عكس ما كانوا يزعمونه تماماً .

(١) ٢ ملوك ١٥ .

وأخذ الصراع يتزايد ويشد عتقا سنة بعد سنة . لأن أهادية للقسطنطينية لم يفهم الحكم السياسى ولا التسلط على غلال مصر بل طمعا فى أن يغلظوا داخل أفكار المصريين ويتحكموا فى منائرهم ويرسموا لهم العقيدة التى يجب أن يدينوا بها . وأخذن المصريون بالجراح ولكنهم ظلوا رافعى الرأسى ثابتى الايمان . فقد تعلموا من آباءهم أن يجمعوا بين المتناقضات - فمثلا كان شيوخ النساك فى البرية يؤكدون لتلاميذهم من الشباب أن التواضع فضيلة مسيحية يجب عليهم التجميل بها إن شاموا أن يلتصروا فى عراكهم الروحى . ولكنهم علموهم - إلى جانب هذه فضيلة القز ، والفرز هذا معناه أن نعرف مع من نتواضع ومع من تتشامخ (١) .

٣١٢- ولقد قضى صموئيل هو ورهبانه من رجال الله فترة من الزمن فى أمن وهندو . فلما فرض الامبراطور هرقل قورش أسقفا وخوّلته الولاية على مصر أيضا . بدأ هذا الطاغية بمطاردة الأنبا بنيامين الذى كان قد لجأ إلى دير فى الصعيد الأعلى . ولما عجز عن الظفر بالبابا الاسكندرى رأى أن يصب جام غضبه وانتقامه على الشعب المصرى بأسره ، فبعد أن نكل بسكان المدن تراقح على سكان الصحارى وقطع على الآباء الساكنين فيها خلواتهم وتأملاتهم ، وأمعن فى التكنيل بهم لعله يظفر بسر اختفاء الأنبا بنيامين أن يدفع بأحدهم إلى جحد الايمان الأرثوذكسى . ولكن بطشه تكسر على صخرة الصمود المصرى .

(١) رأينا بأعيننا التطبيق العملى لهذا المبدأ حين سحنا بزيارة القفس الشريف سنة ١٩٤٥ إذ شاهدنا نياقة المطران يشرك مع رهبانه فى كنس كنيسة الأنبا لئونيرس ومسحها ثم شاهدناه وهو يجلس فى عزّة على كرسىه لينتقى تهانى رؤساء الطوائف والحكام المدنيين للبلاد . كما شاهدنا الأطفال وأصاغر الناس يتجمعون حول الأنبا كيرلس السادس (البابا الاسكندرى الـ ١١٦) وهو يباركهم ويسلم عليهم بكل بساطة بينما هو لا يقابل رجال الدولة ورؤساء الطوائف إلا بالمواعيد المحددة وهو جالس على كرسىه . ويتكلم روبرت لاين (فى كتاب النار المقدسة) عن مقدرة الآباء الشرقيين فى الجمع بين شتى المتناقضات فيقول عن الأنبا باسيلوس الكبير (كاتب القفس) على ص ١٢١ ما نصه : " There was geniality under the thundering brow " . وترجمته : كانت هناك عنوية خلف الجبين المكتهر .

٣١٣- ولتتهت إقامة الأنبا صموئيل في برية شيهيت فجأة ، ومن غير أن يشاء هو أن يتركها . وذلك أن قورش كان قد أمر قائد الجيش أن يفرض «الاكتيسيس» (١) على جميع أساقفة مصر ونساكها . وتتقيداً لهذا الأمر اتحم الأديرة ومن بينها الدير الذي يقيم فيه صموئيل وربهانه . فجمعهم وقرأ عليهم الرسالة التي يحملها وتتضمن «الاكتيسيس» . ثم سألهم : «أنؤمنون بالعقيدة التي تضمنتها الرسالة ٢ ، فقوبل سؤاله بالصمت التام . فقال القائد غاضباً : « ألا تعلمون أن في استطاعتي أن أريق دماءكم ؟ » فقدم إليه صموئيل - برصفه الأب الروحي للجماعة - وقال له : « إنا نأبى التسليم بهذه العقيدة الابتاعية ونحرم مجمع خلقيدون وقراراته . ولا ندين بالولاء لغير بابانا العظيم الأنبا بنيامين ، فجن جنون القائد وقال : « أقسم بعظمة الرومان أنني سأقطع رؤوسكم جميعاً إن لم تبادروا بالتوقيع على هذه الرسالة » . قال له صموئيل : « أرني رسالتك هذه » . فسلمها له القائد ظناً منه أنه سيوقع عليها خوفاً من التهديد . على أنه ما كادت يد صموئيل تقبض على الرسالة حتى مزقها إرباً إرباً وأتبع تمزيقه الرسالة بتوكيده الحرم على مجمع خلقيدون وكل من يدينون به . وحين رأى القائد ما فعله صموئيل وسمع ما قاله ثارت ثورته فهجم عليه وانهال لطماً وصفعاً . ثم نادى على جنده ليشبعوه جلداً فنفذنوا في الحال ما أمرهم به . ولما سقط على الأرض مغشياً عليه رفعوه إلى جزرع شجرة ليجهزوا عليه . غير أن أحد الجنود طاش سهمه وأصاب عين القديس اليمنى فسلمها . وعند ذلك أمرهم القائد بالكف عن التنكيل به توهماً منه أنه فارق الحياة . ويبدو أن المجهود الذي بذلوه في ضرب صموئيل كان قد أنهكهم ، أو أنهم اكتفوا بالتنكيل بالرئيس فتركوا بقية الرهبان دون أن يتعرضوا لهم .

(١) أو منشور الامبراطور هرقل للمؤيد لخلقيدون - وما يجرى الإشارة إليه هنا هو أن قورش حين اغتصب لنفسه الحق في أن يتوب عن كنيسة مارمرقس في المجمع المحدود سانس للمجامع المسكونية لدى الكنائس التي تعترف به ، والذي انعقد سنة ٦٨٠ م - قد نال جزاء اعتدائه إذ قد أصدر هذا المجمع الحكم بحرمة مع هونوريوس أسقف رومية - راجع ، تاريخ الكنيسة ، (بالترسية) للأرشمندريت جيتي ج٥ ص ٤٩٥ .

ولما انصرف الجند أسرع للهربان إلى حملته ، ونقلوه إلى مغارة قريبة إذ ظنوا هم أيضاً أنه أسلم الروح . ولكنهم - فى الفترة التى كانوا يصلون فيها عليه تذبذب وعارده رشده . ففرحوا بذلك فرحاً عظيماً وظلوا يعنون بخدمته حتى تم له الشفاء .

٣١٤- ولما استعاد الأنبا صموئيل قوته تماماً انتخب أربعة من بين رهبانه وتركوا شيهيت متجهين جنوباً نحو منطقة الفيوم حتى بلغوا جبل القلمون (١) حيث عاشوا بضع سنين فى أمان وفى غيطة روحية . وكانت أقامتهم فى دير يغلب الظن أنه كان قد بنى قبل وصولهم إلى تلك المنطقة بسنين عديدة (٢) . وكان إلى جانبه عين ماء غزيرة يكثر فيها السمك البلطى . فاستطاع الرهبان أن يستعينوا بهذا الماء فى زراعة بضعة أفننة حول ديرهم واغتنوا بذلك عن النزول إلى الحقول فى أيام الحصاد كما كانوا يفعلون أيام أن كانوا فى برية شيهيت . كذلك استطاعوا أن يقتاتوا من السمك الذى كان يملأ تلك العين .

٣١٥- وعلى الرغم من المسافة الشاسعة التى تفصل بين الدير وبين البلاد الآهلة بالسكان ، فإن أهالى المنطقة حالما علموا بإقامة الأنبا صموئيل فيه هرعوا إليه . وكان الأنبا صموئيل ورهبانه الذين كثر عددهم يرحبون بهم فى دعة وسكون . على أنه حين كان يتكاثر عددهم إلى حد تعطيل الصلوات والتأملات كان الأنبا صموئيل يخرج من الدير من غير أن يراه أحد ويأوى إلى مغارة قريبة بضعة أيام يكف خلالها على الصلاة والصراعة والاستشفاع بالسيدة ولدة الآلهة وبالقدسين . حتى إذا ما فاض النور الإلهى على قلبه عاد إلى الدير مزوداً بالقوة الروحية التى تمكنه من رعاية رهبانه ومن خدمة قاصديه فى همة ووداعة .

(١) هذا الجبل يبعد عن الاسكندرية بما يقرب من أربعمائة وخمسين كيلو متر إلى الجنوب الشرقى .

(٢) يذكر مارسيوريوس يعقوب توما فى كتابه تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية أن الأنبا تيموثيوس الثانى البابا الاسكندرى الـ ١٦ كان متروياً بهذا الدير .

٣١٦- وحدث أن الشخص الذي كان يطلق عليه اسم المقوقس (١) كان ماراً بالفيوم قبله صبت الأنبا صموئيل ورهبانه وقرر أن يذهب إلى ديرهم لينقّص عليهم حياتهم الهائلة . وكان أحد المقربين إلى الأنبا صموئيل قد عرف باللية المبيتة له ولاخوته فسارع إلى إطلاعه عليها . فقرر هذا القديس أن يهرب من الشر هو ورهبانه ، فخرجوا من الدير تاركين البواب - وكان شيخاً متقدماً في السن - ولجأوا إلى المغاور المحيطة بالدير . ولما وصل المقوقس وأعرافه لم يجدوا غير هذا البواب الشيخ فسألوه عن مكان الرهبان فتجاهلهم ولم يجيب بكلمة واحدة . وعندما انهاروا عليه ضرباً ولكماً . فأنقذه الألم كل حكمة وأرشدهم إلى المغاور التي اعتصم بها الرهبان . ولم يكنه ذلك بل أضاف إليه قوله أن الأنبا صموئيل يتهم المقوقس بالابتداع في الدين . فعاد المدعو بالمقوقس إلى الفيوم متظاهراً بأن ما سمعه لم يهمه إطلاقاً . ولما علم الرهبان بأنه رحل عن الدير هو وجنده عادوا إلى ديرهم مع رئيسهم زعماء منهم أنهم أصبحوا في مأمن من شره .. غير أنه لم يمض يومان على هذه الحادثة حتى وصل جند المقوقس إلى الدير فجأة يحملون الأمر بالقبض على الأنبا صموئيل . وما أن وقعت عيونهم عليه حتى كبّلوه بالحديد واقتادوه إلى الفيوم . فلما مثل بين يدي قورش (المقوقس) سأله من الذي أقامه رئيساً على الدير . فأجابهُ قائلاً : « إنا إنما نخضع لله ونطيع أولمر بابانا القديس الأنبا بنيامين » . فطمه ذلك الطاغية على فمه وأمر جنده أن يجلدوه حتى يفارق الحياة . وفي أثناء ذلك تدخل بعض الأشراف ونجحوا في أن يخلصوا القديس من يد ذلك الغادر . وعندما تقدم بعض تلاميذ الأنبا صموئيل وحملوه إلى وادي الريان بالقرب من عين ماء يحيط بها النخيل . وهناك سهروا على العناية به حتى استعاد قواه من جديد .

(١) ترجم أميلينو سيرة الأنبا صموئيل من القبطية إلى الفرنسية ونشرها في مجلة تاريخ الأديان . وقد قال على ص ٢٢ منها ما نصه : " Il faut, je crois, voir dans Mouqôqis l'un de ces personnages qui apparaissent aux époques de troubles, qui ont une grande habileté pour l'intrigue, souple devant ■ plus fort ou plus puissant, arrogants, envers le faible".

قارن بين هذا الرأي وبين ما جاء على الهامش في صفحتي ٢٠٦ - ٢٠٩ .

٣١٧- على أنه ما كاد الأنبا صموئيل يستقر في مكانه الجديد حتى أغار البربر على تلك المنطقة . فأعملوا فيها السلب والنهب . ثم أخذوا الأنبا صموئيل أسيراً إلى بلادهم . وفي هذا الأسر التقى بالايغومانس يؤنس رئيس أبرية القديس مكاري الكبير . لأن القبائل الصغيرة كانت قد سطت على برية شيهيت أيضاً . وكان الرجال الذين سبوا الأنبا صموئيل خاضعين للزعيم اسمه زركانديس فاتخذ له عبداً . وكان هذا الزعيم من عبدة الشمس فحاول جهده أن يفتح القديس الأسير بالتحول عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الشمس . ولما وجد أن عوده لا تكفي لتحويله لجأ إلى التعذيب والتفكيك بكل الوسائل التي استطاع أن يبتكرها . على أن الآلام التي قاساها الأنبا صموئيل على يد زركانديس لم تكن لتزعزعه لأنه كان من بين المخترعين الذين لا يخشون العذاب ولا يرهبون الموت ولا يعطيهم إلا رضى الله .

ولما كان الأب السماوى قد منح صموئيل موهبة الشفاء - قبل أن يقع في الأمر - فإن هذه المنحة كانت نعمة عليه في أسرهِ . وذلك أن رجلاً كسيحاً كان المريض قد أقعده اثنتى عشرة سنة حتى جلس من الشفاء استرعى عطف القديس الذى امتلأ قلبه شفقة بالناس . ففُتصرع إلى الأب السماوى أن يفتح على هذا الكسيح ويشفيه من داءهِ . فاستجيب دعواتهِ . وكان فرح الكسيح الذى شفى لا يوصف فأخذ يبيع خبر شفائه فى كل مكان ولكل مريض . فكان من الطبيعى أن تتقاطر الجموع عليه حاملين إليه مرضاهم طالبين إليه أن يصلى من أجلهم . ولقد أبدى الله عطفه على صفية الذى تحمل صلوف العذاب فى سبيل الايمان بأن قبل ضراعتهِ من أجلهم جميعاً . ولقد تأثر رؤساء القبائل فى تلك الناحية بهذا العطف العظيم الذى أبداه الأنبا صموئيل على مرضاهم ورأوا أن خير جزاء له هو إعادته إلى بلاده مكرماً معزراً . غير أن زركانديس عارض فى ذلك مدعياً أنه لا يستغنى عن خدماتهِ .

٣١٨- وكانت زوجة هذا الزعيم عاقراً كما أنها كانت مريضة . فكان من الطبيعى أن تنهف على الصحة وعلى انجاب الأطفال فطلبت إلى زوجها أن يسمح للراهب الأسير أن يأتى إلى بيتهم ويصلى لأجلها . ولكنه رفض فى

بادئ الأمر . على أنها ظلت ترجو منه وتلح عليه حتى قبل طلبها .
فاستحضر صموئيل أمامه وأبلغه رغبة زوجته فى حضرتها . وفى الحال ركم
الناسك القديس على ركبتيه وأخذ يصلى فى حرارة وجهاد روحى عنيف .
فقبل الله دعاءه وأنعم على زوجة زركانديس بالصحة ، وفى الوقت المناسب
أنجبت ولداً .

٣١٩- ولقد امتلأ قلب زركانديس فرحاً لهذه المنحة المزدوجة واعتذر إلى
صموئيل عما فرط منه من قسوة كما رجا منه أن يعلمه للمسيحية . وكان هذا
الطلب أشهى ما يأمله الناسك القديس فطمه وعمده باسم الآب والابن والروح
القدس . ثم عرض زركانديس على أسيره الذى أعتقه أن يضمه إلى ورثته
اعترافاً منه بفضلته . غير أن الأنبا صموئيل شكر له فضلته وقال له : « إن أعظم
أمنية لى هى أن أعود إلى بلادى العزيزة » . قال له زركانديس : « ألا تشاء أن
تبقى معنا فتمكننا من أن نكفر عن كل ما ألحقناه بك من أذى ؟ » . أجابه
صموئيل قائلاً : « ما مضى فات . وإنى أؤكد لك بنية خالصة أننى نسيت ما
ألحقتموه بى . وأشكر ربي والهي يسوع المسيح الذى أهلتنى لخدمتكم ومنحني
نعمة صيغكم بالصيغة المقدسة (المعمودية) . فأرجو من مكارمكم أن تأذنوا
لى بالعودة إلى وطنى المحبوب . ولكي أثبت لكم أن قلبي لا يحمل لكم غير
المحبة سأبقى معكم خمسة أسابيع أخرى أرجو أن تأذنوا لى بعدها بالعودة إلى
بلادى » . فقبل زركانديس رجاء صموئيل وأكرمه اكراماً زائداً مدة الأسابيع
الخمس وكانت هذه الفترة مليئة بالمشاعر المتضاربة - وهى مزيج من الفرح
والأسى للأخوين الروحانيين صموئيل ويونس إذ قد توثقت عرى المحبة بينهما ،
وكان كلاهما متلهفين إلى العودة لوطنهما الحبيب . فقال يونس : « عد
بالسلامة إلى بلادنا يا أخى وأضرع إلى الآب السماوى أن يهئ لى أسباب
العودة أيضاً » . أجابه صموئيل : « أنا أعرف أنك ستذوق الكثير من العذاب .
ولكن أحفظ الوديعة المقدسة إلى المنتهى والآب تعالى سيفشق عليك ويعيدك
سالمًا إلى مصرنا الحبيبة » . فلما انتهت الأسابيع الخمسة قبل كل منهما الآخر
قائلاً : « إن لم يمحنا الله تعالى أن نرى بعضنا بعضاً على هذه الأرض ثانية
فلنا الثقة فى أن نلتقى أمام عرش النعمة » .

ولم يكن زركاندس ممن يقبلون أنصاف الحلول لذلك بالغ في التكنيل بالأنبا صموئيل ، فلما رضى عنه بالغ في اكرامه . وزيادة في الاكرام قدم له عدداً من الجمال محملة بالهدايا ثم أمر الرجال الذين كانوا قد استحضروه من وادى الريان بأن يعودوا به إلى ذلك الرادى حتى لا يضل الطريق . ثم ودعه بفرح روحى .

ولما وطئت قدما الأنبا صموئيل أرض مصر انحنى عليها يقبلها رافعاً الشكر لله ثم استراح قليلاً عند الحدود وقصد بعد ذلك إلى ديريه بجبل القلمون . وكانت عودته مفاجئة سعيدة جداً لرهبانه الذين سارعوا إلى الترحيب به . فعاش بينهم فترة قصيرة من الزمن قضاها فى تعليمهم وارشادهم متخذاً من اختباراتهم فى الأسر لمظة على عناية الله بأولاده . ولقد شاعت العناية الالهية أن يستريح هذا المعترف المجاهد من أتعابه فى هذه الفترة من حياته تمهيداً لنقله إلى موضع للراحة الأبدية .

وقد دام حزن الرهبان عليه سبعة أيام عادت بعدها الحياة إلى الدير كما كانت وانصرف كل راهب إلى عمله المعتاد لأن الأنبا صموئيل كان قد انتقل إلى الفردوس : هـ ذلك الملكوت العجيب الذى حلم به المصريون على مر العصور ووصفوا ما فيه من هناء وبركة كأنهم قد رأوه رؤيا العين . إنهم شعب سعيد حقاً إذ قد استطاع أن يجد فى سعادة الدار الآخرة العزاء لكل أحزانه وآلامه فى هذه الدار الفانية ، (١) .

٣٢٠- ولا يزال دير الأنبا صموئيل بجبل القلمون (٢) قائماً لآن ،

(١) للوقوف على تفاصيل ترجمة الأنبا صموئيل راجع ، سيرة القديس صموئيل القلمونى ، ترجمهما أميليو عن القبطية إلى الفرنسية ونشرها فى مجلة تاريخ الأديان .

(٢) كلمة قلمون يونانية الأصل ومعناها الغاب ومنها اشتقت الكلمة العربية ، قلم ، . وقد أطلق هذا الاسم على منطقة دير الأنبا صموئيل لكثرة نبات الغاب فيها إذ ذاك . ويقول أبر صالح الأرمنى إنه كان لهذا الدير أطوان كثيرة وملاحات تلتج نحو ثلاثة آلاف أردب من الملح سنوياً - راجع ، دليل المتحف القبطى ، لمرفس سميكه ج١ ص ١٧ .

ولقد نشر الراهب جان سيمون مقالاً بالفرنسية عن ، الدير القبطى الصموئيلي القلمونى ، فى مجلة ، أوريونتاليا كريستنا بيروديكا لسنة ١٩٢٥ ص ٤٦ - ٥٢ ، قال فيه : إن الدير ازدهر -

عامراً بنعمة الله . على أن الدير الحالي ليس سوى جزء بسيط من الدير الأصلي إذ بلغت مساحته فيما مضى من الزمان اثنتى عشر فداناً بينما هو الآن لا يتجاوز الفدان . وتقع عين الماء على مقربة من أسواره ولكنها لم تعد غزيرة كما لم يعد بها سمك إطلاقاً . إلا أن لهذه العين خاصية عجيبة هي أن مياهها تتزايد كلما تقدم مخلوق ليشرب أو ليستقى منها - سواء كان هذا المخلوق انساناً أم حيواناً . وقد أصبحت المنطقة المحيطة بالدير قاحلة جرداء إلى أبعد الحدود ، وفي المنطقة نبات اسمه « الفردق » في شكل شجيرة قصيرة كثيفة . وله ثمرة شبيهة بالعنب الصغير لونها بنفسجي ويعصر الرهبان هذه الثمرة ويشربون عصيرها . كذلك يجففون بذارها ويحمصونها على النار ثم يطحنونها كالبن ويقلونها في الماء ويشربونها باردة أو ساخنة تبعاً لمزاجهم أو لحالة الجو . ومن مزايا هذا المشروب أنه يقلل الحاجة إلى الشرب .

ومن نعمة الله التي لا تحصى على أننى زرت هذا الدير في أوائل شهر يوليو سنة ١٩٥٨ (سنة ١٦٧٤ ش) فكانت الزيارة أشبه بومضة من ومضات النور الآتى من عالم آخر ملأت النفس هدوءً واستقراراً . وكان بالدير وقتذاك ثمانية عشر راهباً - تسعة منهم من الشباب الجامعى الذى لى نداء الله إلى الحياة العظمى فترك الوظيفة والمستقبل وأثر الخلوة للصوم والصلاة والتأمل . ويعيش هؤلاء الشباب الجامعيون فى انسجام خالص مع اخوتهم الآخرين . ومن هؤلاء الرهبان ناسك بلغ المئة من عمره . ويسود الجميع سلام روحى

= تجميع مؤسسه ، وكان فى بادئ الأمر باسم السيدة للعذراء . وقد ظل صيته يملأ الآفاق إلى القرن الثالث عشر حتى أن باقوت ذكره فى قاموس الجغرافى كما تكلم عنه الفلباسى فى كتاب تاريخ القديسين . وفى القرن الخامس عشر ظهر مخطوط يتضمن العجائب التى أجرتها السيدة العذراء فى قلمون ، ومع أن هذا المخطوط لم يطبع لأن لا يمكن تحديده للقرن (الحديثة) طبعت . وفى هذا القرن أيضاً ذكره المقرئى فى خطه . ولا يمكن تحديد القرن الذى تنادى فيه هذا الدير الذى كانت له مكانة خاصة مدى قرون طويلة إذ لا نسمع عنه بعد ذلك إلا فى القرن السابع عشر من الراهب المؤرخ فانسلاب . ثم يعود الدير للظهور فى القرن التاسع عشر . فما الذى جرى ؟ لا نعرف لأن على وجه التحقيق ولكن فى سنة ١٨٩٩ ذهب بعض رهبان البرموس فصوروه من جديد . فمن لا يشعر بالأسى عندما يقارن بين حالة الدير الراهلة وبين ما كان عليه فى عصر ازدهاره ؟ .

عجيب لأن الذى دعاهم إليه ملأهم من نعمته فمكتهم من أن يعيشوا هذه العيشة الملائكية على الأرض .

ومما يجدر ذكره أن عدداً من المستشرقين الأجانب قد كتبوا عن الأنبا صموئيل وعن ديريه بجبل القلمون : فبعضهم ترجم المخطوطات التى عثر عليها بينما علق البعض الآخر على هذه المخطوطات . وقد نشر الراهب جان سيمون عدة مقالات عنه إحداها ترجمة لمخطوط قبطى به أجزاء ناقصة وهو باللهجة الصعيدية كتبها أحد رؤساء دير الأنبا صموئيل اسمه اسحق . وقد اختار اسحق القلمونى هذا ذكرى نياحة الأنبا صموئيل ليرثيه . وجعل من مرثيته مديحاً شأنه فى ذلك شأن الآباء القدامى . وقد نشر المستشرق الألمانى كارل وسلى هذا المخطوط من غير أن يترجمه سنة ١٩١٧ ، ثم ترجمه جان سيمون إلى الفرنسية سنة ١٩٣٤ . وهذا المخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية بفيينا ضمن مجموعة من خمس مخطوطات أخرى كلها عن حياة الأنبا صموئيل بقلم اسحق القلمونى (١) .

وأهم مخطوط يتضمن سيرة الأنبا صموئيل هو السيرة التى كتبها اسحق القلمونى باللهجة القبطية الصعيدية ، وهذا المخطوط محفوظ الآن بمتحف بيبيربونت مورجان بنيويورك . ولم يتعرض أحد من المستشرقين لترجمته بعد . على أن فان كوفنديج قد لخصه بالفرنسية ونشره فى كتابه : « دراسة لرهبان مصر منذ مجمع خلقيدون (سنة ٤٥١) إلى الفتح العربى (سنة ٦٤١) » (٢) .

ومما يجدر ذكره أنه كان هناك دير ثانٍ يحمل اسم الأنبا صموئيل القلمونى وكان معروفاً فى وقت ما باسم « دير السند » وقد شيد بالقرب من نقادة ولكنه اندثر الآن (٣) .

(١) راجع « أوراق متناثرة عن ميمر قبطى لتكريم الأنبا صموئيل القلمونى » (بالفرنسية) للآب جان سيمون نشره فى مجلة « ميسلانتيس بيليسيس » ج ٢ من ١٦١ - ١٧٨ ، طبع فى رومية سنة ١٩٣٤ .

(٢) ملحق ببيبربونت مورجان بنيويورك : مخطوط ٥٧٨ رقم ٩ صعيدى ، وقد أشار إليه الآب سيمون فى مقاله المذكور فى الهامش الذى جاء على ص ١٦٢ .

(٣) « أديرة أيفلانيوس » (بالانجليزية) بقلم هـ. أ. ويلز ، و. أ. كرام - ج ١ من ١١٢ ، ١١٥ ، ١٢٣ ، طبع فى نيويورك سنة ١٩٢٦ .

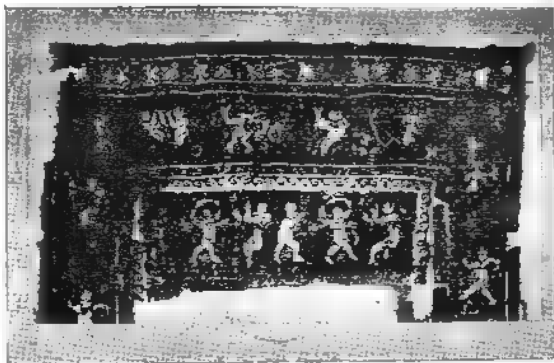
الايغومانس يونس رئيس أديرة الأنبا مكاري الكبير

(٢٢١) الشذرات التي بين أيدينا عنه ،

٣٢١- إن يونس الذي استحق أن ينال رتبة « ايغومانس » ويشرف على أديرة الأنبا مكاري الكبير يمكن اعتباره من الجنود المجهولين في صفوف الكنيسة القبطية المجاهدة . ذلك أننا لا نعرف عن نشأته شيئاً كما لا نعرف متى ذهب إلى برية شهيت . على أننا نعرف أنه وقع في الأسر ثلاث مرات . وفي كل مرة كان يترأف الله عليه ويعيده إلى وطنه . وأغلب الظن أن التقاء بالأنبا صموئيل القلموني كان في مدة الأسر الأخيرة . وقد وقع في الأسر للمرة الثالثة سنة ٦٣١ م إذ كان مشغولاً بمهمة اخفاء كنوز الكنيسة حتى لا يسقط عليها الخلقيدونيون من عملاء امبراطور القسطنطينية فحمل هذه الكنوز وترك برية شهيت قاصداً البحيرة الداخلية حيث فاجأه الديرير وأسروه . وقد عاش في الأسر عدة سنوات عاد بعدها إلى بريته المحبوبة . وليس من شك في أنه ساهم - بعد ذلك - مساهمة فعالة في تدمير الأديرة كما أنه استطاع أن ينقل أجساد التسعة والأربعين شهيداً . وكان يونس ذا بصيرة تتكشف أمامها الأسرار . وقد استعان بما كان يراه من أمور خفية لتعليم الرهبان العائشين تحت رعايته . ومن الأدلة على هذه الحقيقة أن كاهناً سبى السمعة قصد إلى الكنيسة ذات يوم . فرأى يونس الشياطين تحوم حوله بل أن البعض منهم دخل فمه . وعندما دخل الكاهن الكنيسة رأى يونس ملاكاً نورانياً ممسكاً بسيف يطرد هذه الشياطين . فلما انتهى الكاهن من الصلاة وخلع ملابس التقديس وخرج خارج الكنيسة عادت الشياطين إلى الاحاطة به . فأتخذ يونس من هذا الذي رآه وسيلة ليقنع تلاميذه بأن عليهم التفريق بين الكاهن بوصفه خادم المذبح وبين الكاهن كاتمان موضحاً لهم أن فاعلية الشعائر المقدسة لا تنقص بسبب خطية الكاهن ولا تزيد بسبب بره ، بل هي هي في جميع الحالات لأن البركة الناتجة عنها هي منحة إلهية لا صلة لها إطلاقاً بصلاح الناس أو شرورهم .

ويقول للبعض أن يونس عاش سبعين سنة بينما يرى غيرهم أنه عاش تسعين وحيثما أحس بأن ساعته قد اقتربت جمع الاخوة وأوصاهم بالجهاد للوصول إلى الكمال المسيحي .

وتقوم شهرة يونس الحقيقية على صيت تلاميذه الذين أنشأهم بنفسه ودأب على تعليمهم وتقريبهم . ويمكن القول بأن تلاميذه ينقسمون إلى فريقين : الفريق الأول يتألف من أولئك الذين تتحلل فيهم الصفات للميزة لآباء شبيهة مدد قيام الأديرة في تلك البرية المقدسة ، والآباء الذين اتصفوا بالمظاهر الجديدة التي طرأت على الحياة النسيكية (١) .



قطعة نسيج من الصوف فيها الكثير من المرح- أغلب الظن أنها ترجع إلى القرن السادس (أو أوائل السابع)

(١) رسالة مارمونا السابعة : أديرة وادي الطرون للكهنوت مطير شكرى طبع في الاسكندرية سنة ١٩٦٢ من ١٨٩ - ١٩١ .

الصلة بين مصر والأراضي المقدسة

(٢٢٨) شعائر أسبوع الآلام .	(٢٢٢) مثانة الصلة بين القبط وبلاد المقدس .
(٢٢٩) ترتيب صلوات أسبوع الآلام .	(٢٢٣) أسقف دمياط يبدأ الموسم بصلوات يرامونى (١) الميلاد المجيد .
(٢٣٠) صلاة سبت الفرح التي يبدؤ بواسطتها نور المسيح .	(٢٢٤) الصلاة والمواعب الخاصة بعيد الميلاد المجيد .
(٢٣١) الصلوات الخاصة بعيد القيامة المجيدة .	(٢٢٥) الواجبات الملقة على الأسقف ما بين عيدى الميلاد والقطاس الأمجلين .
(٢٣٢) صلوات عيد العنصرة .	(٢٣٦) صلوات القطاس المجيد تقام فى القدس وعلى ضفاف الأردن فى تم واحد .
(٢٣٣) زيارة القدس الشريف بمناسبة عيد العذراء .	(٢٣٧) الأسقف يتفقد المؤمنين ما بين عيد القطاس والصوم الكبير .
(٢٣٤) حالة الأراضي المقدسة قبل الفتح العربى .	
(٢٣٥) العهد العمرية ورعاية الذمام .	

٣٢٢- وخلال الانقلابات العنيفة التى زعزعت أركان السلام فى مصر وإنتهت بتقويض أسس الامبراطورية البيزنطية ظل المصريين أوفياء لايمانهم كما ظلوا متمسكين بالصلة التى تربط بينهم وبين أورشليم مدينة الملك العظيم وغيرها من بلاد الأراضي المقدسة . وكان المثلث منهم (أو بالحرى الآلاف) يحجون سنوياً إلى هذه البلاد التى تقدست بحياة السيد المسيح فيها وهو فى الجسد . وكانوا يستهدفون التبرك بزيارتها فى موسم خاصة كأسبوع الآلام

(١) يرامونى هى كلمة يونانية (Paramony) ومعناها الحرقى خارج المسكن ويعبر عنها باللهجة الدارجة بكلمة « استعداد » ذلك لأن الانسان وهو خارج منزله يكون فى حالة يقظة وتجهيز ، والمقصود من هذا التعبير كسياً هو الصوم الذى إن أمكن وإن لم يمكن فالصوم مع الامتناع من أكل المملح حتى يكون الانسان أكثر استعداداً لفرح الميلاد أو للقطاس المجيدين ولا يرجد مثل لهما فى عيد القيامة لأن الصوم السابق كله صوم نقشقى بقدر المستطاع .

أو تذكّار ببناء كنيسة القيامة ، وكصوم للسيدة العذراء أو غيره من الأيام المتصلة
بتكريات لها في القلب حطين خاص .

وكان الامبراطور قسطنطين الكبير قد بنى كنيسة القيامة التي تضم القبر
المقدس . وبعد أن أتم بناءها أعطى لكل شعب من الشعوب للخاصة لسلطانه
مكاناً خاصاً به : وبالمطبع أعطى للمكان الأول للروم (أى اليونانيين) لأنهم
بنو جنسه . ثم أعطى المكان الثانى للقبط للمكانة الممتازة للتي كان يستمتع
بها الأنبا أنطاسيوس الرسولى (البابا الاسكندرى لـ ٢٠ المعاصر له) . وقد
اكتسب القبط ممتلكات أخرى فى الأرضى للمقدسة على مر الأيام فشيخوا
الكنائس فى مختلف المدن التي اتصفت بحياة للفادى الحبيب : فى الناصرة
وأريحا ويافا وغيرها وكان المؤمنون الأثرياء يقفون على هذه الكنائس الأرضى
وللعقار ليضمونها صيانتها ويهدونوا أسباب للعيش لمن سقاط بهم شئونها . وكان
أسقف أنطاكية هو المشرف الأعلى لهذه الكنائس للقبطية وما يتبعها من
ممتلكات نظراً لما بين للكنيستين الاسكندرية والأنطاكية من وحدة الايمان .
على أن البابا الاسكندرى كان يتدب الكهنة وللرهبان للذين يثق فيهم ويرسلهم
إلى تلك البلاد لرعاية المؤمنين فيها ولتنشيط الايمان الأرثوذكسى فى قلوبهم .
وكان هؤلاء الكهنة وللرهبان يعيشون فى فلسطين إلى أن يطلب إليهم البابا
الاسكندرى (أو أحد الآباء للمطارنة المنتدبين منه) أن يعودوا إلى مصر .
وعند ذلك كان يعين خلفاءهم ويرسلهم مقدماً كي تستمر للخدمة وللصلوات بلا
انقطاع . وكان الكهنة وللرهبان المنتدبون مسئولون عن الخدمات الخاصة
بالأيام للعادية . أما للصلوات الخاصة بأعياد الميلاد والتطاس والقيامة والصعود
فكانت منوطة بأحد أساقفة الكرازة المرقسية . وقد ظل أسقف دمياط يتمتع
بشرف هذه الخدمة الجليلة عدة قرون ، فكان يذهب إلى الأرضى المقدسة
يقبل عيد الميلاد المجيد ليقيم الشعائر الخاصة به فى بيت لحم ثم يظل فى
الأرضى المقدسة إلى أن ينتهى من تأدية صلوات عيد العنصرة .

٣٢٣- فى منتصف اليوم الذى يسبق برامونى الميلاد يذهب رئيس
الأديرة للقبطية إلى بيت لحم يصحبه للرهبان . وحالما يصلون إلى هذه القرية

الوادعة يدخلون كنيسة المهد المقدس ويقبلون المذبح الذى سيقمونه عليه
 القداس الالهى - وهذا المذبح فى رعاية الأرمن الآن - ثم ينزلون جميعاً إلى
 مغارة المهد ، ويتوسط المغارة الآن نجم من الفضة يرمز إلى النجم الذى أضاء
 الطريق أمام المجوس وأوصلهم إلى حيث ولد للفادى الحبيب . والنجم الموضوع
 الآن قد ثبته الآباء فى المكان الذى وقع عليه نور النجم للهادى ساعة أن وصل
 المجوس إلى المغارة التى ولد فيها فادينا . فيقبل كل منهم هذا النجم ، ويصلى
 فى صمت تام ثم يصعد الجميع إلى دير الأرمن (الذى يعلو مغارة المهد)
 للاستراحة . وقد أقيموا فيه غرفة للأسقف وثانية لرئيس الأديرة القبطية وحيثما
 ينتهون من هذه الخدمة القدسية يستريحون ساعة من الزمن ويتناولون فيها
 قليلاً من الطعام . ثم يرتدون ملابس التقديس مرة أخرى ويخرجون جميعاً إلى
 ميدان كنيسة المهد لينتظروا الأسقف . ويصل ركبته حوالى الظهر ، وتسير
 سيارته فى بطء وهودة فوق الشوارع الصاعدة المبلطة بالحجارة المربعة
 العريضة إلى أن تقف أمام باب كنيسة المهد . وحالما ينزل من السيارة يتخذ
 الرهبان والمؤمنون أماكنهم أمام الأسقف وخلفه ليؤلفوا له موكباً يتقدمهم حملة
 البيارق والمباخر والشموع الموقدة . ويسير الكل فى هذا الموكب الرائع وهم
 يترنمون بالألحان الكنسية البديعة فيدخلون الكنيسة ويتجهون منها إلى مغارة
 المهد المقدس . وفى المغارة يقبل الأسقف والكهنة كل بدوره مكان المهد الذى
 رقد فيه للفادى الحبيب وهو وليد . ثم يصعدون جميعاً فى موكبهم إلى الكنيسة
 وهم يرددون ترانيم الميلاد ، وهناك يقيمون صلاة الشكر ويقبلون المذبح . ثم
 يصعدون مرة أخرى إلى دير الأرمن للاستراحة مدة تقرب من الساعة .

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر ينزلون مرة أخرى إلى كنيسة المهد لرفع
 بخور عشية (١) وفى منتصف هذه الصلاة ينزل نياقة الأسقف إلى مغارة المهد
 لإقامة صلاة تمجيد للفادى الحبيب . وإذا ما انتهى من هذا التمجيد عاد هو

(١) رتب الآباء صلوات تنهياً بولسيتها النفس للقداس الالهى وهذه الصلوات تعرف باسم « بخور
 عشية » و « بخور باكر » . وبخور عشية ترفع فى السماء بينما ترفع بخور باكر فى الصباح
 المبكر . والبخور رمز إلى الصلوات تهباً لما قاله يوحنا الرسول فى سفر الرؤيا ٥ : ٨ .

ومن معه من رجال الاكليروس إلى كنيسة المهد واشتركوا في اتمام صلاة بخور عشية التي ينتهون منها في الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم العظيم . ويصعدون بعد ذلك إلى دير الأرمن مرة ثالثة للاستراحة بنفس الموكب الرائع الذي كانوا قد ألفوه عند استقبال الأسقف .

٣٢٤- وفي الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم المبارك يأخذ الأسقف مركزه في الموكب ويلتف الرهبان والشعب حوله : كل في مكانه ثم ينزلون في خطوات متزفة إلى كنيسة المهد وقد امتزجت رائحة البخور والأنوار المتلألئة من آلاف الشموع والقناديل بالألحان الكنسية الخاصة بالميلاد المجيد . ثم يدخلون كنيسة المهد المزدانة بالقناديل ذات الزجاج الملون . وهذه القناديل مرقبة في أنصاف دوائر ومدلاة من السقف . فيسطع نورها خلال الألوان ، وتغطيه سحابة من البخور المتصاعد نحو العلا فيشعر المؤمنون كأنهم في عالم من الخيال - عالم كله بهاء وغبطة .

وفي هذا الجو الروحي الساحر الذي هو مزيج من الأنوار والألوان والرائحة الزكية ترتفع أصوات المؤمنين بالصلاة : فتعلوا أحياناً وتتخفض أخرى حتى كأنها هدير البحر - تتلاحق أمواجه في غير انتران وتتفاوت علواً وانخفاضاً . ويقضى المؤمنون بضع ساعات في هذه النشوة الروحية الخلاية وقد داخلهم الفكر بأنهم خلال هذه الساعات ليسوا على الأرض بل أنهم اختطفوا إلى السموات ولمحوا قبساً من بهاء المجد الأسنى . ويستمررون في صلواتهم حتى الواحدة بعد منتصف الليل حين ينتهى القداس الالهى . فيجتمع المؤمنون في موكبهم للمرة الأخيرة ويسيرون كما لو كانوا في حلم بديع ، صاعدين في تودة وأفكارهم شاردة محلقة في الأجواء العليا حيث رفعتهم الصلوات حتى يبلغوا دير الأرمن . وعندما يدركون بأنهم مازالوا في الجسد إذ يجلسون إلى مائدة ليتناولوا الطعام الذي أعده لهم الرهبان . وبعدما يشتركون معاً في الخبز الأرضي كما اشتركوا في الخبز السماوى يأوون إلى فراشهم ليستعيدوا في أحلامهم تلك الساعات المليئة بالغبطة التي ارتفعت فيها أرواحهم إلى عرش النعمة ليسبحوا وليد بيت لحم ويهتفوا مع الملائكة مهللين قائلين : المجد لله في العلا وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة .

٣٢٥- وفي صبيحة يوم الميلاد المجيد يتبادل الأسقف وشعبه التهاني كما يتقونها من الأساقفة والأقارب . ولكي يحققوا روح هذا العيد العجيب يوزعون اللهبات والصلايا على اخوتهم المساكين . ويعد أن ينتهوا من معاينتهم يعود كل منهم إلى البلد الذي جاء منه وهو راضى النفس مقتبط للفؤاد . ولا يبقى غير الأسقف وزوجاته - إذ يعودون إلى أورشليم لينتقوا التهاني من مواطنيهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . وفي هذه المدينة المليئة بالذكريات الروحية لجميع المؤمنين . يؤدي الأسقف بعض الولجيات الملقاة عليه قبل العودة إلى مصر الحبيبة . ويعد أن يتلقى تهاني عيد الميلاد في أورشليم يغادرها إلى أريحا حيث شيدت كنيسة على اسم كوكب البرية الأنبا أنطوني أبى الرهبان وسط حديقة واسعة يقوم في زاوية منها منزل فسيح^(١) . ويبقى الأسقف ومن معه في مدينة أريحا حتى برامون الغطاس . وفي ذلك اليوم يستيقظون مبكرين جداً لبدءوا بالصلاة في السادسة صباحاً . ويرفع الأسقف بخور باكر، وتنتهى الصلاة في التاسعة . وهذه الصلوات تقام في كنيسة الأنبا أنطوني بأريحا .

٣٢٦- لما بعد ظهر ذلك اليوم - يوم برامون الغطاس - فإن الأسقف يذهب إلى نهر الأردن يتبعه للرهبان وجميع المؤمنين الموجودين في تلك الجهة ، ويرفع بخور عشية من للرابعة حتى السادسة مساء . وفي السابعة تماماً تبدأ صلوات للقدس الالهى في أورشليم وعلى ضفاف نهر الأردن في أن واحد . ويرأس الأسقف للصلوات التي تقام عند النهر فيبدأ بصلاة اللقان - أى الصلاة الخاصة بتقديس الماء . وخلال هذه الشعائر تمتزج تسابيح البشر بالتسابيح التي ترفعها الطبيعة إلى باربيها : فتغريد الطيور وخزير المياه يتخلل الدور المنبعث من مئات الشموع كما يتخلل البخور الزكي المتصاعد من المجامر . ويمتزج هذا كله بأصوات المصلين فيؤلف وحدة رائعة للطبيعة المتعابذة التي تشترك كلها في تمجيد الخالق المبدع .

وهذا أيضاً يتنشق للبشر على هذه الأرض مجد السموات ، ويظلمون في تضارعاتهم وابتهاالاتهم حتى منتصف الليل وقد رفعتهم هذه الصلوات إلى العلا

(١) يقول التقليد الكنسى إن هذا البيت مقام مكان بيت زكا للشار .

وهيأت لهم الاقتراب من الآب الحنون . وحين ينتصف الليل تنتهى الشعائر المقدسة فيصرف الأسقف المؤمنين بالبركة . وعندها يعود كل منهم إلى مخدعه ليستعيد فى ساعات نومه الغبطة التى ملأت عليه روحه فى يقظته .

٣٢٧- ويقضى الأسقف عيد للغطاس فى أريحا ثم يعود إلى اورشليم . وخلال الأسابيع التالية يقوم برحلة راعوية فيترسم خطوات الفادى الحبيب إذ ينتقل من بلد إلى آخر ليفتقد الشعب ويقف على حاجاته وتطلعاته . ويستمر فى رحلته هذه إلى أن يقترب عيد القيامة المجيدة . وعندها يعود إلى اورشليم من جديد لكي يترأس حفلات أسبوع الآلام المقدسة . وكل مطلع يعرف أن كنيسة القبطية قد خصصت لهذا الأسبوع صلوات وقراءات متصلة بالآلام المحيية التى قاساها الفادى الحبيب منذ أن ألقى اليهود القبض عليه إلى أن علّقه على خشبة الصليب المقدسة وأخذوا يهزأون به .

٣٢٨- وإن الشعائر التى وضعها آباء الكنيسة القبطية لهذا الأسبوع الذى له قدسية خاصة فى القلوب تتضمن كل ما جاء فى العهدين القديم والجديد الخاص بتجسد الله الكلمة ، فأختاروا من العهد القديم الآيات التى تشير إلى سقوط الانسان الأول وما يتطلبه العدل الالهى من قصاص ثم دفاع الرحمة الالهية الشاملة التى حتمت على الابن الأزلى أن يترك مجده ويعيش كإنسان ليفتدى بنى الانسان . وتلى هذه القراءات المختارة الآيات التى تصف تجسد ابن العلى بالفعل فنقرأ فى الأناجيل الأربعة . وتتخلل هذه القراءات المأخوذة من أسفار العهدين القديم والجديد صلوات وضعها الآباء خاصة بساعات الآلام وما حدث فى كل منها . ولهذه الصلوات نغمات خاصة هى مزيج من الخشوع والصراعة والنصر (١) .

(١) حدث سنة ١٩٥٠ أن جاء إلى مصر موسيقى فرنسى كان يقوم وقتذاك بجولة فى الشرق الأوسط لدراسة الموسيقى الدينية لدى شعرب هذه المنطقة وحدث أن كان فى بلندا فى أسبوع الآلام . وذهب معنا لمصنور صلوات يوم الجمعة العظيمة (أى ذكرى الجمعة التى صلب فيها السيد المسيح) . ودخل للكنيسة وقت الظهر ، وظل واقفاً يسفى باهتمام عجب . ولما انتهت الصلوات وبدأ المصلون يخرجون ظل واقفاً فى مكانه يساهل : « هل انتهت الصلوات حقاً ؟ » . ولكننا له لأنها انتهت فخرج على مضض . وبعد أيام جاء لزيارتنا فى بيتنا فسأله والذى عمّا جعله يعجب بصلوات الجمعة الحزينة إلى هذا الحد ، فأجاب : « إن أعجب ما فيها هو أنه -

٣٢٩- ولما كان أسبوع البسخة له قدسية خاصة فقد اعتبره الآباء قائماً بذاته ولذلك دعوا يوم الجمعة للمابق عليه ، جمعة ختام الصوم ، . والصلوات التى تقام صباح ذلك اليوم تتضمن صلاة القنديل أى صلاة سر للمسحة المقدسة - وهو السر الخامس من الأسرار الكنسية السبعة (١) . وعقب هذه الصلاة يدهن الكاهن جميع الحاضرين فى الكنيسة بالزيت ثم يقوم شعائر القداس الالهى بعد ذلك . وتقام هذه الصلوات فى كنيسة الأنبا أنطونيوس المبلية فى ركن من ساحة ، البطريركية ، (٢) القبطية بالقدس .

أما السبت التالى لجمعة ختام الصوم فمعروف باسم ، سبت لعازر ، تذكراً لاقامته من الموت بكلمة من السيد المسيح . وفى السابعة من صباح هذا السبت يجمع الأسقف والكهنة والشعب فى ساحة البطريركية القبطية ليؤلفوا موكباً يتجه إلى الجسمانية حيث يقام القداس الالهى الذى ينتهى حوالى العاشرة . ثم فى الثانية من بعد ظهر هذا السبت أيضاً تقام صلوات عشية أحد الشعانين فى كنيسة القيامة .

وتبدأ الشعائر الخاصة بأحد السعانيين فى السادسة صباحاً بكنيسة القيامة وتنتهى بدورة لاحتفالية كبرى . وأحد الشعانين هو الأحد الذى دخل فيه سيدنا له المجد إلى أورشليم على ظهر أتان فتلقته الجموع هاتفة : ، أوصنا لاين داود .

= وسط ألحان الحزن قرن نعمة الانتصار . ولقد ملئت هذه الأتغام على نفسى قام أطلق للبقاء بين جدران غرغرى فى القوكنة إذ أحسست أن صداها دخلنى يتطلب القضاء الواسع ليتجاوب معها . فخرجت أنتقل على غير هدى ثم قررت الذهاب إلى مصر القديمة لأنها منطقة للكنائس الأثرية ، وإذ وجدت كنيسة أبى سرجة مفتوحة ومضاءة وعلمت بالصلوات التى تقام ليلائن (ليلة سبت الفرج) لحقتها وسعدت بشعائر هذه الليلة المجيبة أيضاً .

كذلك كويت لى صديقة انجليزية تشكرنى لأنها حضرت معى صلوات البسخة وتقول :

(Never can I forget the tunes of " Thok tay tee gom " , They hammered so terrifically at my soul) .

(١) ج١ من هذا الكتاب ص ٤٦٥ - ٤٦٨ .

(٢) مع أن الكنيسة القبطية ليس لها بطريرك فى القدس إلا أن مقر المطران هناك معروف ، بالبطريركية .

أوصلا في الأعالي ، . وفرض البعض من هذه للجموع ثيابه على الأرض بينما لوح البعض الآخر بسعف النخل (١) . على أن هذه الجموع الهائفة المهللة المرجبة تحولت إلى ما يشبه الوحوش الضارية قبل انقضاء الأسبوع فصرخت حائقة صاخبة في وجه بيلاطس البنطى مطالبة بصلب المسيح (٢) . والألحان الكنسية - لأنها خاصة بذكرى الآلام المروعة التي انتهت بالقيامة المجيدة - قد عبرت عن كل المشاعر الانسانية من حزن ولوعة وبأس إلى فرح وتهليل وانتصار . ولم يفرق الآباء حين وضعوا الألحان لصلواتهم بين نغمة الأسى ونغمة النصر ، بل مزجوا النغمتين للتعبير عن قوة القيامة الكامنة داخل أوجاع الموت الذي جازه المخلص لذلك ظهرت بوادر الانتصار بين أنغام الشجن ثم طغت عليها في النهاية في صلوات القيامة للمجيدة التي لا تخلو - هي أيضاً - من رنين الألم كسدى لآلام الصليب .

وحالما تنتهى الصلوات الخاصة بأحد الشعانين تبدأ صلوات البسخة (٣) . وتقام هذه الصلوات صباحاً ومساءً من كل يوم ابتداء من مساء أحد الشعانين حتى خميس للعهد في كنيسة الأنبا أنطوني . أما يوم الجمعة العظيمة الذي هو يوم الصليب عينه فالصلوات تبدأ من بكرة هذا اليوم وتستمر طوال النهار حتى الرابعة بعد الظهر (٤) . وبعد استراحة تقرب من الساعة تبدأ دورات الصليب . وهذه الدورات هي مواكب تتألف من الأسقف والكهنة والشمامسة والشعب (رجالاً ونساء) : فيحمل البعض منهم المجامر بينما يحمل غيرهم الشموع الموقدة والبيارق والصلبان ويسيرون في كنيسة القيامة من نقطة أثرية مقدسة

(١) متى ٢٦ : ١١ - ١٠ ، مرقس ١١ : ١٠ - ١١ ، لوقا ١٩ : ٢٩ - ٣٨ ، يوحنا ١٢ : ١٢ - ١٦ .

(٢) متى ٢٧ : ١٥ - ٢٦ ، مرقس ١٥ : ٦ - ١٥ ، لوقا ٢٣ : ١ - ٢٥ ، يوحنا ١٨ : ٢٨ - ٤٠ .

(٣) « بسخة » كلمة يونانية مأخوذة من كلمة « فصح » العبرية لأن المسيحيين يعتبرون المسيح لهمهم إذ تقدم نفسه كقارة عنهم .

(٤) تنتهى صلوات هذا اليوم المبارك في الرابعة بعد الظهر استناداً لصلوات الدورات التي تبدأ من الساعة الخامسة وتستمر حتى الثامنة . وبعد استراحة زهاء ساعة تبدأ صلوات ليلة سبت الفرح . أما في القطر المصري فصلوات الجمعة الكبيرة تنتهى حوالي الساعة مساء لعدم إقامة صلوات الدورات .

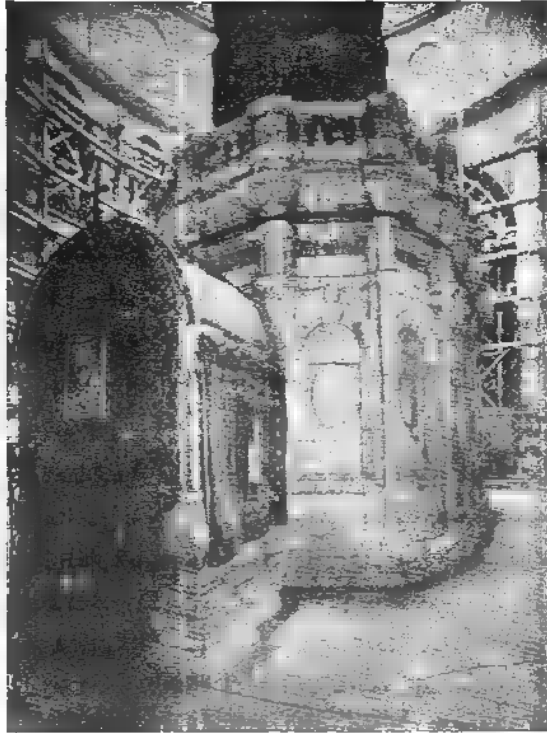
إلى أخرى ، فيقفون عند كل نقطة ليقرأوا القطع المناسبة من أسفار العهدين القديم والجديد ملحقاً بالصلوات التي وضعها الآباء ، وتكلى جميعها بالألحان الخاصة العجيبة التي لا تقال إلا في هذه المناسبة الفريدة فهي والحالة هذه لا تكلى إلا مرة واحدة في السنة . وهذه الألحان والصلوات تتيح للإنسان الفرصة لأن يخلق بروحه فتمكنه من أن يلوح قبساً خاطفاً من بهاء النور السماوي وتكتسح روحه لفتعاشاً عجيباً لا مثيل له ولا يمكن التعبير عنه . وتنتهي هذه الدورات في الثامنة مساءً يستريح المؤمنون بعدها ساعة ثم يقصدون إلى الكنيسة مرة أخرى لتأدية شعائر ليلة السبت التي تستمر طوال الليل ثم تختتم بالقلمس الإلهي الذي ينتهي في الساعة من صباح سبت الفرح (١) وتسمى صلاة « أبو غلميس » (٢) - وهي خاصة بتقديس الزيت الذي يستعمل في سر المسحة المقدسة .

٣٣- وفي ظهر السبت تتدفق جموع المؤمنين على كنيسة القيامة ليحضروا الصلاة التي يظهر لهم بعدها نور السيد المسيح ، ويمسك كل منهم بمجموعة من ثلاث وثلاثين شمعة مربوطة معاً تسمى « بالفند » . والقبر المقدس يتوسط هذه الكنيسة الفسيحة التي تصنيق على سعتها بالجماهير . وإلى شرقي القبر حجرة لا تزيد على مترين مربعين على كل من جانبيها الشمالي والجنوبي نافذة مستطيلة يقف بجوارها مندوبون عن بيت لحم وغيرها من المدن ذات الذكريات الخاصة ، بينما يقف داخل الغرفة مندوب الكنيسة القبطية مع غيره من مندوبي الكنائس صاحبة الحق كالأرمن والسرمان ويدخل بطريرك الروم الأرثوذكسي داخل القبر المقدس ويصلي بينما يردد آلاف المصلين الذين تزخروهم الكنيسة كلمة : « كيراليسون - يارب ارحم » إلى أن يبرق النور من القبر المقدس (٣) فيتلقاه مندوبو الكنائس بشموعهم ويوقدون بها

(١) سبت لفرح أو سبت للنور هو اليوم السابق على أحد القيامة المجيدة .

(٢) هذا هو التعبير العربي الدارج لكلمة " Apokalipic " اليونانية الأصل للقبطية بالاستعمال .

(٣) من المعروف أنه حين كان إبراهيم باشا والياً على مصر وشي إليه الراهبون بأن النصارى يدعون أن نور المسيح يظهر لهم يوم سبت الفرح . فاستصحب الأنبا بطرس الجارلي - البابا -



القبر المقدس يتوسط كنيسة القيامة

- الاسكندري ١٠٩ - وقصد إلى القدس . وهناك أمر بإخراج جميع المؤمنين من الكنيسة وباغلاق بابها في وجههم ، كما أمر بأن يدخل البابا الاسكندري إلى القبر للمقدس مع بطريرك الروم ساعة الصلاة بينما وقف هو وجنده في ساحة الكنيسة . وفجأة سطع نور وهاج ملأ أرجاء الكنيسة وخرج خارجها بعد أن شق للعمود القائم عن يسار الدخول إلى الكنيسة . ففرح الشعب الذي كان متجمهرًا خارج الباب وهتف : « إن المسيح قد خرج إلينا حين وجد أن الحاكم قد أبعدنا عنه بالقوة » . ولا يزال أثر النار واضعًا على العمود حتى الآن على خلاف العمود المقابل له الذي لم يشقه النور .

للنور المبتلى ، فى حين يوقد مندوبو المدن شموعهم من النافذتين ويحملون هذه الشموع المضاءة ويجرون بها لوضعها فى الكنائس المعروفة مثل كنيسة المهد فى بيت لحم . وفى لمح البصر يكون اللقد الذى فى يد كل واحد من آلاف المجتمعين فى الكنيسة متيراً قتللاً أوتار هذه للشموع وتشيع البهجة والرهبة معاً فى القلوب حتى ليخيل للناظر إليها أنه فى عالم من النور . وبعد أن يردد المؤمنون صلوات التسييح والشكر ينصرفون وقد طغت عليهم نشوة من الحبور .

والمقصورة المصنوعة من الحديد المفرغ هى الهيكل الخاص بالأقباط وهو ملاصق لقبر المسيح له المجد . وناحية الهيكل الملاصقة له هى للناحية الشرقية، فالمذبح الذى ترفع عليه للصاعدة المقدسة هو أقرب جزء لذلك المكان الذى قيل عنه ، ويكون قبره مجداً إلى الأبد ، . (أنشياء ١١ : طبعة الكنائس التقليدية) .

٢٣١- أما الصلوات الخاصة بعيد القيامة المجيدة فتبدأ فى الثامنة مساء وتنتهى فى الرابعة صباحاً (١) . يستريح المؤمنون بعدما زهاء ساعة يتناولون خلالها شيئاً من طعام الجسد ثم يعنون ليسيروا فى موكب النصر مقدمين التسييح والتمجيد للقادى الذى قهر الموت وأزال شوكرته . وحين يلتهمون من دورات المديح هذه يكون صبح القيامة قد لتبثق نوره . فينصرفون مغتبطين مهللين نتيجة لتلك الساعات التى اقتربوا فيها من مصدر النور والنصرة .

٢٣٢- ولا تنتهى رسالة نياقة الأسقف عند هذا الحد ، بل يستمر فى المدينة المقدسة إلى أن تنتهى للخمسون يوماً التالية للقيامة المجيدة . فيستهلها فى السادسة صباحاً من اثنين شم للتسيم بأقامة قنل فى كنيسة الملكة هيلانة

(١) إن الشائع فى الكنائس القبطية فى مصر هو أن تبدأ شعائر القيامة المجيدة فى الساعة السابعة من مساء السبت وتستمر حتى الواحدة بعد منتصف الليل . ولكن المواعيد المتبعة فى القنل أكثر مطابقة للحقيقة لأن للقادى للحبيب قام من القبر فى سحر الأحد - أى أنه قام عند مطلع القدر . وللقدر لا يهتق إلا حوالى لليلة .

ثم يختتمها بالاحتفال بعيد العنصرة (١) . وتقام شعائر هذا العيد المبارك في
علية صهيون التي حل فيها الروح القدس على تلاميذ الرب الأطهار ورسله
المكرمين (٢) . هذا الروح الذي يحل على كل مؤمن على مدى الأجيال في
سر الميرورن الذي يدهنه به الكاهن بعد أن يذال سر الصبغة المقدسة
مباشرة (٣) .

وأنة لمن المحزن المولم أن علية صهيون هذه قد وقعت في أيدي
اسرائيل منذ الحرب العاشمة التي استطاع الصهيونيون بواسطتها أن يغتصبوا
بعض أجزاء من الأرضى المقدسة ويشردوا أهلها . لم يعد فى وسع القبط أن
يصلوا فيها فاضطروا لهذا السبب إلى إقامة شعائر العنصرة فى مختلف
الكنائس .

ويعد الانتهاء من كل هذه الصلوات والمهام يعود أسقف دمياط إلى

(١) عيد العنصرة هو اليوم للخمسين بعد القيامة للسجدة ويسمى ، البليديكوسى ، عن الكلمة
اليونانية التى تعنى الخمسين . وفى هذا اليوم المقدس حل الروح القدس على التلاميذ حسب
وعد المخلص ، فقسما هذا اليوم واحتفلوا به ، فسار الآباء الرسوليون على مثالهم وجعلوا من
، البليديكوسى ، صيدا تمثل به الكنيسة على مدى الأجيال . ففي صباح هذا العيد يقام القداس
الالهى ، أما بعد الظهر فتقام صلاة السجدة . وقد أطلق الآباء هذا الاسم على هذه الصلاة لأن
الآباء للرسوليين (عملاً بطليم للرسول) قد جعلوا الصلوات أثناء الخمسين يوماً للتألية للقيامه
السجدة بغير سجود . وبعد اكتمال الخمسين يوماً مارسوا السجود ، وبدلوا بمعاودة الركوع فى
الصلوات أثناء الصلاة التى تقام فى مساء عيد الخمسين وذلك أصبحت معروفة باسم ، صلاة
السجدة ، وهى تنقسم إلى ثلاثة أجزاء تتضمن كلها للسجود لأن للرسول خشوا ساجدين حولها
تقبلوا الروح القدس . ويرجع تقسيمها هذا إلى أن اليهود قديماً كانوا يحتفلون بعيد الأسابيع
تذكراً لقبول موسى الشريعة ، وكانوا يحتفلون بثلاثة تذكارات هى : يوم الخمسين ، تقديم
حزمة الكريز ، سنة اليريرول أو الحقن - لاويين ٢٣ : ١٥ - ١٦ ، ٢٥ : ١٠ - ١٧ ، تكية
١٦ : ٩ ، أصحال ١٠ : ٢٤ و ٣٦ : ١٨ و ٢٠ : ٢١ و ٢٠ : ١٦ ، ١ كورنثوس ١٦ :
٧ - ٨ ، كتاب صلاة السجدة (تيماً للقدس القبطى) ، مجلة المحبة للحد السادس من السنة
الداسمة والعشرين - (يونيو سنة ١٩٦٣) ص ١٨١ - ١٨٢ ، شعائر السجدة والعنصرة
(بالانجليزية) مقال لبرمستر نشره فى مجلة موزيون للعدد ٤٧ ، مطبوع فى لوقين ببلجيكا
سنة ١٩٣٤ (ويضمن النص القبطى وترجمته) ص ٢٠٥ - ٢٥٧ .

(٢) راجع ما جاء عن مرقس الرسول فى الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٣) هذا هو التعبير القبطى للمعمودية لأنها لا تتم إلا بالانطيس لكلى داخل جرن المعمودية .

مقر كرسيه حيث يباشر مسؤولياته الراعوية في إيبارشيتيه (١) .

٢٢٢- وثمة موسم آخر له قدسيته ، يحلو للقبض فيه أن يتبركوا بزيارة الأماكن المقدسة ، هو موسم صوم السيدة العذراء الذي ينتهى بحمل الملائكة لجسدها إلى السماء . ويقع هذا الصوم ما بين اليوم الأول واليوم السادس عشر من شهر مسرى المبارك (أو ما بين السابع والثاني والعشرين من شهر أوغسطس) . وتعرف هذه الزيارة بالزيارة المريمية . وخلال أسبوعى الصوم يقام للقداس الإلهي من الساعة الثامنة حتى الساعة التاسعة والنصف صباحاً في كنيسة الجسمانية (٢) . لأن هذه الكنيسة تحوى القبر الذى ضم الجثمان الطاهر الذى لولادة الإله مدى ثلاثة أيام حملته بعدها الملائكة وطارت به إلى السماء (٣) . أما يوم العيد - وهو يوم ١٦ مسرى - فتمتصر فيه الصلوات حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً . وخلال هذه الصلوات تقرأ الفصول التى تبين للمؤمنين كيف كرست هذه العذراء المختارة حياتها كلها لله ، وكيف أطاعت وأمنت لمساعدتها بما قاله لها الملاك . وبهذا الايمان الثابت الخالص أثبتت أهليتها لأن تكون أمّاً للكلمة المتجسد ومن ثم أصبحت القدوة المثلى لجميع المؤمنين على مدى الأجيال .

(١) مما يؤسف له أنه لم يعد لدمياط أسقف . على أن القدس الشريف وما يستتبعه من الأراضى المقدسة والبلاد المجاورة لها أصبح يضاف أسقفية منفصلة لها مطرانها الخاص مدبأبابوية الأنبا كيرلس الثالث (البابا الامكندرى ال ٧٥) فى القرن الثالث عشر .

(٢) تقع هذه الكنيسة فى بلدان جسمانى الذى سهر فيه السيد المسيح ليلة أن قبض عليه الجسد بأمر رؤساء الكهنة . وهى مبنية فى جزء منخفض انخفاضاً كبيراً إذ ينزل المؤمن تسعين درجاً لكى يصل إليها .

(٣) يقول لنا التاريخ الكنسى أنه حينما مرضت السيدة العذراء أرسل يوحنا المبيب يدعو الرسل جميعاً أن يأتوا إلى اورشليم ليكرتوا حولها . فتسارعوا جميعاً إلى هناك . ولما كان توما فى الهند إذ ذاك فقد استغرق سفره إلى المدينة المقدسة أياماً كثيرة . وقبل وصوله تنبحت والدته الإله بسلام . وقد أنعم الله عليه برؤية الملائكة تحمل جسدها إلى السماء . فلما وصل إلى اورشليم أبلغته الرسل بأمر نياحتها ودفنها فى الجسمانية . قال لهم : أنتم تعرفون أننى لا أؤمن من غير أن أرى قداموا اقتدوا لى قبرها وأرونى جسدها . فأخذوه إلى القبر حسب طلبه ولما فتحوه لما يجدوا جسد أم النور . وعندها أخبرهم برؤياه وبأنه قال لهم هذا الكلام ليروا هم أيضاً أن الجسد ليس موجوداً حيث وضعوه .

والكنيسة القبطية لا تكفى بتكرير ألم النور خلال هذين الأسبوعين فحسب بل أنها تكرس اليوم الحادى والشرين من كل شهر قبطى لهذا الهدف للذيل فنهى الفرصة أمام المؤمنين لكى يتأملوا حياة هذه الشخصية الفريدة حقاً والى اصطفاها رب المجد ليتجسد منها . وفى هذا اليوم من كل شهر قبطى يقام القداس الإلهى فى الجسمانية أيضاً (١) .

وفرق هذا كله فقد كرس آباء الكنيسة للمصرية شهر كيهك لتمجيد سر التجسد الإلهى ولتكرير ولادة الإله - ذلك لأنهم رسموا موعد الميلاد المجيد فى آخر هذا الشهر . ففى أمسيات المسبوت منه تقام صلوات تعرف باسم « السبعة وأربعة » ، لأنها تتضمن سبع ثيوتوكيات وأربع هوسات (٢) . وتنتهى هذه الصلوات بالطرح : أى بتفسير الصلوات التى قيلت والتطيق عليها وبنهايتها بقطعة تقال باللحن ويتجاوب فيها الشعب مع الكاهن .

٣٣٤- ومع أن للقبط كانوا مدلولين على زيارة الأرضى المقدسة فى المواسم المختلفة ، إلا أنه لم يكن لهم أسقف عليها إذ سبق للقول بأن البابا الاسكندرى ظل ينتدب أسقف بمياط لرعاية القبط ومصالحهم هناك مدى قرون عدة . وكانت الرئاسة العليا خلال تلك القرون للأسقف اليونانى الذى أطلق عليه لقب « بطريرك » ، منذ مجمع خلقيدون المشعوم - أما شئون للقبط بالذات فكانت موكولة أثناء الأيام العادىة لبطريرك أنطاكية الذى كان له أسقف

(١) يحتفى للقبط فى مصر أيضاً بهذه التكرير فتقام للقدسات فى جميع الكنائس التى تعمل لم السيد الخراء .

(٢) للثيوتوكية هى تمجيد للثيوتوكس (أى تمجيد لولادة الإله) والهيوس كلمة قبطية معناها تسبحة والتسبيحات الأربعة هى : ١- تسبحة موسى النبى خرج ١٥ ، ٢- مزمر ١٣٥ . ٣- تسبحة الفنىة الثلاثة (دانيال ٣) ، ٤- مزامير ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٠ - وفى شهر كيهك يترنمون بالتسبحة الأولى تنلوها ثيوتوكية يومى الاثنين والثلاثاء ، فالتسبحة الثانية تنلوها ثيوتوكية يومى الأربعاء والخميس ، فالتسبحة الثالثة تنلوها ثيوتوكية يومى الجمعة والسبت ، فالتسبحة الرابعة تنلوها ثيوتوكية يوم الأحد . وهذه التسبيحات كلها مع الثيوتوكيات رريت فى كتاب الابسملودية السدرية طبعة افلاويوس لبيب بأمر قداسة الأنبا كيرلس الخامس سنة ١٦٧٤ ش (سنة ١٩٠٨ م) بمطبعة عين شمس بمصر . والهوسات تقع ما بين ص ٣٠ - ٩٢ .

فى أورشليم وكان بطريرك أورشليم إيان الفتح العربى هو صفرونيوس الذى كان راهباً من الاسكندرية ثم واجه قورش فى شجاعة . ولما لم يجد منه أنفاً صاغية كما لم يجد من امبراطور القسطنطينية ولا من أسقفها غير التآمر مع عميلهما قورش ضد الأرثوذكسيين قصد إلى أورشليم ولم يلبث أن اختير بطريركاً لهذه العاصمة وما يتبعها من الأراضى المقدسة (١) .

ثم بدأ الزحف العربى، فراقبه صفرونيوس باهتمام بالغ (٢) . وحين اقتربت القوات العربية من حدود ايباشيته ورأى سلطان القسطنطينية يتقلص بسرعة أمامها رأى أنه من الخير أن يتفاوض مع المسلمين فى أمر الصلح لئلا يحافظ بذلك على سلامة أبنائه . على أنه اشترط مجئ عمر بن الخطاب شخصياً إلى أورشليم ليوقع معه معاهدة الصلح . فوافق هذا الخليفة على مطلب صفرونيوس رغم معارضة مستشاريه وقواده، وذهب إلى «ورشليم مدينة الملك العظيم : هذه المدينة التى يقدمها المسيحيون والمسلمون واليهود سواء يساء حتى لقد أسموها « القدس الشريف » . فكان لزيارته هذه أبلغ الأثر وبخاصة لأنه كان أول خليفة غادر البلاد العربية . فاستقبله صفرونيوس بالاكرام والقرحاب ، وصحبه إلى جميع المزارات المقدسة . ويبادل الزعيمان الثقة والمودة .

٣٣٥- وفى أثناء هذه الزيارة قدم عمر بن الخطاب رسالة إلى صفرونيوس تعرف فى التاريخ باسم « العهدة العمرية » لأن الخليفة تعهد فيها للمسيحيين باحترام حقوقهم وترك الحرية لهم بممارسة شعائرهم الدينية ومباشرة أعمالهم الدنيوية (٣) . ولما كانت هذه العهدة نجمت عن جميع المسيحيين القاطنين فى الأراضى الممتدة فقد استطاع القبط أن يداوموا على تأدية شعائرهم ورياسة مقدساتهم والقيام بالحج فى مواعيده . ومن ثم استمرت الصلة بينهم وبين الأراضى المقدسة قائمة ، بل أنها توثقت على مر الزمن .

(١) « تاريخ الكنيسة » (بالفرنسية) للأرشمندريت جيلى ج ٥ ص ٤٢٢ .

(٢) « الخلافة : لزمدها نداءها فسرطها » (بالانجليزية) لوليم موير ص ٧١ .

(٣) شرحه ص ١٣٥ - ١٣٦ حيث أورد تفاصيل العهدة ، « تاريخ القدس » لعارف باشا لعارف طبع بدار المعارف بمصر سنة ١٩٥١ ص ٤٦ - ٤٧ .

الصلة بأثيوبيا

- (٢٤١) اجتذابه والى مقاطعة دامت
وجمع غفير للسيد المسيح .
- (٢٤٢) ترهبه على يدى شيخ ناسك
فى كنيسة القديس
استفانوس .
- (٢٤٣) قضاؤه اثنى عشر عاماً فوق
قمة دامت ثم زيارته الأديرة
والأماكن المقدسة .
- (٢٤٤) تعلمه عدداً وفيراً من الرهبان
والرهبانيات سبع سنوات ثم
فياحته .
- (٢٣٦) الأثيوبيون يشاركون
المصريين ايمانهم وعدايمهم
للامبراطورية البيزنطية .
- (٢٣٧) عنابة الأنبا بنيامين بأبناؤه
الأثيوبيين ومعاونة القديس
تكلا هيمانوت له .
- (٢٣٨) نشأة القديس تكلا هيمانوت .
- (٢٣٩) تكلا يتحول من صائد وحوش
إلى صائد للناس .
- (٢٤٠) تكلا يوزع أمواله ويتجول فى
البلاد معلماً .

٢٣٦- من الصلوات التى عدتها الكنيسة المصرية صلوات مقدسة تلك
الصلة التى تربط بيننا وبين أثيوبيا فمئذ أن وضع أنثاسيوس الرسولى اليد على
فرومنتيوس سنة ٣١٨ م ش (١) راسماً آياه أسقفاً على هذه البلاد الشقيقة جرى
التقليد على أن يرسم خليفة مارمرقس الراهب الذى يراه جديراً بالكرامة
الأسقفية راعياً أعلى للأثيوبيين . ولم تكن هذه الرسامة سوى العلامة الخارجية
لتلك الصلة العميقة غير المرئية التى هى الايمان الواحد . وكان هذا الايمان
الواحد متيناً قوياً إلى حد أنه كان يجعل الأثيوبيين يجمعون على الوقوف إلى
جانب المصريين فى صراعهم ضد أباطرة القسطنطينية . بل لقد أدرك
الأباطرة أنفسهم متانة هذه الصلة فزعم الامبراطور قسطنطينوس أن أنثاسيوس
الرسولى لا بد أن يكون مختلفاً عند فرومنتيوس حين عجز مندونيوس عن الطور
على بطل الأرثوذكسية الصنديد . ولم يكن الراهب المختار لأسقفية أثيوبيا
ليرسم فى الاسكندرية فحسب بل كان قبطياً صميماً . كذلك لم يكف

(١) هذه السنة مرافقة لسنة ٣٢٦ م غ . راجع الفصل الخاص بالأنبا أنثاسيوس الرسولى فى الجزء
الأول لهذا الكتاب .

الباباوات بإيقاد الأساقفة من قبلهم إلى تلك البلاد ، بل كثيراً ما كانوا يوفدون الكهنة والرهبان للخدمة هناك . وكان عدد كبير من الأثيوبيين يأتون إلى مصر للترهب في أديرتها ومشاركة الآباء القبط عيشة النسك في الصحارى المصرية . وكما شارك الأثيوبيون المصريين الإيمان الأرثوذكسى ، وكما شاركهم العداء للإمبراطورية البيزنطية ، كذلك شاركهم تفاؤلهم عند دخول العرب إلى مصر . وكان حنقهم على عملاء القسطنطينية بازاء نفى البابا بنيامين وأساقفة الكرازة المرقسية لا يقل عن حنق الأقباط . فتلقوا نبأ عودته إلى مقر كرسيه بالتلهيل ورفع آى للشكر لله تعالى .

٣٣٧- وحدث بعد عودة الأنبا بنيامين من المنفى بقليل أن انتقل أسقف أثيوبيا إلى بيعة الأبقار (١) . وكان البابا الاسكندرى إذ ذاك منشغلاً بتكريس بيعة الأنبا مكارى الكبير فى دير . وما كاد ينتهى من عمله هذا حتى بادر إلى رسامة كيرلس تلميذه أسقفاً لأكسوم . وحمل كيرلس إلى وطنه الثانى (أثيوبيا) رسالة معلمه الأنبا بنيامين بكل اخلاص ، فعلم الشعب الذى ائتمنه الله عليه بهمة وغيره متقدمة . ومن رضى الله تعالى عنه أن هيا له من يساعده بأن أقام له القديس تكلا هيمنوت . ويرى بعض المؤرخين أن تكلا هذا كان مصرى المولد (٢) بينما يرى غيرهم أنه ولد فى إحدى القرى القريبة من أورشليم ، والتى كانت من نصيب صانوق وأبيانار كاهنى العلى (٣) أما السنكسار الأثيوبى فيؤكد أنه ولد فى أثيوبيا وترعرع فيها ولو أنه يقر بأنه سليل عائلة كهنوتية (٤) . ومع اختلاف المؤرخين على مسقط رأس تكلا فإنهم مجمعون على قداسه .

(١) تبدير قبطى للكنائى عن الفردوس الذى ينتقل إليه المتبتلون .

(٢) تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى للتمص طبع فى القاهرة ١٩٢٤ من ٣٨٠ ، رحلة الأنبا يؤنس التاسع عشر إلى أثيوبيا ليوسف جرجس طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٠ من ٧١ - ٧٢ .

(٣) الصادق الأمين لقدس القمصين فيلوثيوس وميخائيل للمترجمين بدور القديس مكارى الكبير طبع فى القاهرة سنة ١٩٢٩ للشهداء (١٩١٣م) ج٢ من ٣١٠ .

(٤) السنكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج طبع فى جامعة كامبردج سنة ١٩٢٨ ج٤ من ١٢٤١ .

٣٣٨- وكان والد تكلا من عائلة من الكهنة الذين أضاعوا أثيوبيا بايمانهم، كما كانت أمه بارّة تخاف الله . وكان والداه على جانب عظيم من الثروة ، ولكن ثروتهما لم تحقق لهما السعادة إذ لم يكن لهما ولد وبعد سنين من الصلوات العارة والأصولم النسكية رزقهم الله تكلا الذى لم يبلغ درجة عظمى من القداسة بعد لكمال نموه فحسب ، وإنما بدت علامات القداسة عليه وهو بعد فى سن مبكرة . وقد حرص أبوه على تعليمه المزامير وغيرها من آيات الأسفار الالهية وهو فى السابعة من عمره . فلما أتقن حفظها صحبه أبوه إلى الأسقف الذى رسمه شماساً بعد أن امتحنه واطمأن إلى تفوقه . ولم يكتفِ الأسقف بوضع اليد عليه ولكنه تدياً له أيضاً بأنه سيكون ائناً مختاراً .

٣٣٩- ولما بلغ تكلا أشده كان يقضى أوقاته فى التنقل بين الغابات لاصطياد الوحوش الكاسرة . وكانت المخاطر تستهويه ، وملافة الأهوال تستثيره ، فكان يستمتع بالعودة ظافراً بعد اجتيازه الأخطار . وذات يوم بينما كان فى أعماق إحدى الغابات إذ به يرى السيد المسيح له المجد محمولاً على أجنحة الملائكة ، وخلال هذه الرؤيا العجيبة سمع المخلص يقول له : : إنك من الآن لا تعود تصطاد للوحوش بل ستترك هذا الذرع من الصيد لغيره ، لأنك ستصطاد أنفس الناس إلى معرفة الحق . فقد اصطفتك منذ أن كنت فى بطن أمك ، ولهذا منحتك موهبة الشفاء . ثم توارت الرؤيا وتلاشى الصوت . وشرد تكلا بفكره ثم عاد لغوره إلى قصره ليفكر فى ما رأى وما سمع .

٣٤٠- وبعد أيام قلائل انتقل والد تكلا إلى دار البقاء . فعاد بفكره إلى الرؤيا التى سعد بها ورأى أن خير ما يعمل هو أن يوزع أمواله على الفقراء ويجعل من بيته مأوى للمساكين والغرياء . فنفذ عزمه هذا ولم يحمل معه غير عصا للطريق . ثم انصرف وهو يردد قول السيد المسيح : : ماذا ينتفع الانسان لو ربح للعالم كله وخسر نفسه ، (١) . ولما كان قد ترك العالم كله ليتبع الفادى الحبيب فقد أخذ يتجول فى البلاد يعلم ويبشّر . وكان لبشيره من الأثر ما جعل الأسقف يرسمه قسيساً وزادته هذه الرسامة نعمة وملأته غيرة ، فاندفع فى

(١) متى ١٦ : ٢٦ .

التعليم والتبشير بحرارة جعلته ينجح فى اكتساب سبعة آلاف نفس للمسيح .

٣٤١- وكان والى المقاطعة المسماة « دامت » ، لايزال وثيقاً . فلما سمع بما أحرزه تكلا من نجاح احتدم غيظه وأرسل جنده وراءه ليلقوا القبض عليه . فلم يلبث الجند أن أمسكوا به وفاقوه فى قسوة إلى الوالى الذى أمر بتعذيبه . فلم يتحمل تكلا كل ما صب عليه من عذاب فحسب بل أنه شفى جميع المرضى الذين استنجدوا به أثناء تعذيبه . فدهش الجميع من صبره ومقدرته على تحمل الآلام . وازدادت دهشتهم حين رأوه يعطف عليهم ويشفى أسقامهم رغم ما يقاسيه على يدى واليهم من تنكيل . فكان عطفه عليهم واحتماله العذاب فى الوقت عينه سبباً فى اجتذابهم إلى المسيحية . ولم يكن هذا الأثر قاصراً على الشعب بل شمل الوالى أيضاً - فأعلنوا جميعاً رغبتهم فى أن يتبعوا المسيح حتى بلغ عدد الذين اصطبغوا بالصيغة المقدسة فى ذلك اليوم اثنى عشر ألفاً وتسعاً وتسعين نفساً . وتهال قلب تكلا فرحاً لاصطياده هذا الجمع الغفير إلى الحق . ولكنه لم يكتف بإعلانهم قبول للمسيح لكونهم رأوا عمله الصالح ومجدوا آياه الذى فى السموات ، بل دأب على تعليمهم ليكون ايمانهم مبنياً على المعرفة الحقة .

٣٤٢- وقضى تكلا سنين عديدة فى هذا الجهاد رأى بعدها رؤيا تشير عليه بالذهاب إلى كنيسة للقديس استفانوس أول الشهداء . وكان الغرض من ذهابه إلى تلك الكنيسة هو التلمذ لئاسك شيخ والاستزادة من المعرفة المسيحية على يديه . فأطاع تكلا هذه الرؤيا السماوية الثانية كما أطاع الأولى وعاش سنوات عشرًا فى هذه الكنيسة . وقد أكرمه الله تعالى بأن أجرى على يديه الآيات والمعاجيب .

٣٤٣- ولما انقضت هذه السنوات العشر تجلّت لتكلا رؤيا سماوية ثالثة أشار عليه الصوت الإلهى فيها بأن يترك الكنيسة التى يقطنها ويتسلق جبلاً عالياً اسمه جبل « دامو » فى مقاطعة تيجرى ليعيش مع ناسك آخر . وأطاع تكلا الرؤيا السماوية من غير تردد على جارى عادته ، وعاش اثنتى عشرة سنة

على قمة جبل دامو . ثم ظهر له ملاك الرب بعد ذلك ونصحه بأن يفتقد الأديرة والبيوت المبعثرة في برارى تيجرى فنزل لغوره من الجبل وأخذ يتجول فى طول البلاد وعرضها . وحالما انتهى من هذه الرسالة الموضوعية عليه قصد إلى القدس الشريف ومنه إلى بقية المدن التى عاش فيها المخلص له المجد .

٣٤٤- ولما انتهى من زيارة الأماكن المقدسة كلها عاد إلى بلده . ثم نحت لنفسه مغارة فى إحدى الصخور الطبيعية وقضى فيها أيامه ولياليه دون أن يغادرها مرة واحدة . وكانت الجماهير تهرع إلى حيث يقيم وعاش بعضهم معه مترسمين خطواته . وكان بين الذين تتلمذوا له عدد غير قليل من النسوة . فعلم الجميع - رجالاً ونساء - ووضح لهم طريق الحق والحياة . وقضى سبع سنين على هذا المتوال . وبعد انقضاء هذه السنوات السبع رأى تكلا رؤيا من المجد الأسنى إذ قد بدا له السيد المسيح ومعه السيدة العذراء يحيط بهما نور يخطف الأبصار . وفى هذه الرؤيا قال له السيد المسيح : « يا مختارى تكلا - لقد انتهى زمن جهادك وتتوجت بالنصر وقد قبلك قريباً زكياً لى . فتعال إلى نندال الأكليل الذى لا يضمحل » .

وهكذا انتقل للقديس تكلا هيمانوت إلى فردوس النعيم بعد أن قضى تمساً وتسعين سنة وفعمانية أشهر على هذه الأرض تاجر خلالها بالوزنات التى تسلمها من رب المجد وريح ربحاً وقيراً (١) .



(١) السنكسار الأنثوى ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج طبع فى جامعة كامبردج سنة ١٩٢٨ ج٢ ص ١٢٤١ - ١٢٤٦ .

المحبة واسعة الحيلة

- (٢٤٥) حيلة القس أغاثون لتأدية أعماله الراعوية .
 (٢٤٦) خدماته الجزيلة وانتخابه للسدة المرقسية .
 (٢٤٧) الأنبا أغاثون يفتدى الأسرى .
 (٢٤٨) ويجدد بناء الكنيسة المرقسية بالاسكندرية .
 (٢٤٩) ثيودوروس الخلقيدوني يستبد بالأنبا أغاثون وشعبه الوفى .
 (٢٥٠) عناينة الله تعالى بشعبه .
- (٢٥١) ملاك الرب ينصح الأنبا أغاثون بطلب الراهب يونس السمودى .
 (٢٥٢) اقامة الراهب يونس مشرفاً على كتائس الاسكندرية .
 (٢٥٣) نزاهة الوالى مسلمة .
 (٢٥٤) حرص البابا أغاثون على القوانين الكنسية .
 (٢٥٥) سبعة أساقفة يتفاهمون مع والى سخا .
 (٢٥٦) نياحة الأنبا أغاثون .
 (٢٥٧) جهلنا بتراجم الأساقفة الذين أمدوا واجبهم .

٣٤٥- لما انتقل الأنبا بنيامين إلى الأخدار السماوية كان بين الرجال الذين انتفاهم لإدارة شئون الكنيسة كاهن اسمه أغاثون ممثلاً نعمة وحكمة . وكان من أهالى مريوط حيث ارتفعت قباب كنيسة مارمينا العجايبى . فنشأ فى بيئة مشبعة بالروح الدينية استقارت فيه الميل إلى التأمل فى الالهيات وفى دراسة الكتب المقدسة ومسير الآباء . ولما نال سر الكهوت ازداد فيض النعمة داخله فازداد ادراكاً لعظم المسئولية الملقاة على عاتقه إذ كان - منذ البداية - يعرف أن الانسان حارس لأخيه . وقد أرهف فيه هذا الادراك شغوره بحاجات شعبه فأحبه حباً جماً . ودفعته محبته إلى أن يرقب فى اهتمام بالغ تألب الحكام واستبدادهم وأن يفكر ملياً فى أحسن الوسائل التى يستطيع بواسطتها أن يخدم الشعب المصرى دون أن يعوقه هؤلاء الحكام الغاشمون . وقد أدى به التفكير إلى ضرورة الجهاد فى صورة لا يتركها أولو الأمر . ومن ثم تخفى فى زى نجار وحمل مستلزمات هذه المهنة جهراً وأخفى فى طياتها ما يحتاجه

الكاهن لخدمة الشعب . وقد جازت حيلته هذه لأن الحكام لم يفتنوا إلى أن هذا الدجارج هو الايقومانس أغاثون . فتم له النجاح في القيام بأعبائه الراعوية بلا مانع ولا عائق ، وسعد الشعب بالحصول على الأسرار الالهية أمناً مطمئناً .

٣٤٦- ولما عاد الأنبا بنيامين إلى مقر كرسيه على أثر انتصار العرب أطلعته الشعب على تقاني أغاثون وحيلته . فتهلل البابا الاسكندري حين وجد من بين أبنائه من طغت عليه النعمة الالهية وملأته حباً في الخدمة إلى هذا الحد . ومن ثم اتخذته سكرتيراً خاصاً . وكرس أغاثون نفسه لعمله الجديد بنفس التقاني والاخلاص الذي عهدته فيه الشعب من قبل . ورأى أن من أعظم الواجبات الملقاة عليه تدوين سيرة الأنبا بنيامين . وفي هذه السيرة لم يكتف أغاثون بسرد حياة باباه القديس بل وصف معها كل ما جرى من حوادث جسام ولما كانت هذه الفترة من تاريخنا العجيب مليئة بالتقلبات فإن كتاب أغاثون عن خليفة مارمرقس له أهمية عظيمة لأنه يطلعنا على فصل حاسم من حياة الشعب المصري العريق . وبذلك أدى هذا السكرتير البابوي خدمة عظيمة لوطنه ولمواطنيه الذين عاصروه وللذين جاءوا من بعده .

وكانت السنوات التي قضاها القس أغاثون في خدمة الأنبا بنيامين فترة تدريب واعداد إذ قد تهيأت له الفرصة للاتصال بالشعب أكثر فأكثر ، وبالتالي لمعرفة حاجات هذا الشعب ومطالبه . ومما زاد هذا التدريب قيمة أنه حين اضطر البابا الاسكندري إلى ملازمة الفراش خلال السنتين الأخيرتين من باباويته انتمن سكرتيه أغاثون على تصريف الأمور في الكنيسة . وكان لتقاني السكرتير البابوي في الخدمة وصبره ودعته أن الشعب قال عنه : « لقد أحسن أبواه تسميته إذ جاء اسمه على مسمى بالفعل . فإن كلمة : أغاثون ، معناها الصلاح ، وهذا الكاهن صالح كل الصلاح » . فلم يكن بمستغرب - والحالة هذه - أن يلتف الشعب حوله يحبه ويقدره فينتخبه راعياً أعلى بعد انتقال الأنبا بنيامين إلى الأخدار السماوية سنة ٦٥٦ م . فأصبح البابا الاسكندري التاسع والثلاثين .

٣٤٧- وحين تسلم الأنبا أغاثون مقاليد الرئاسة في الكنيسة وجد مصر

تخز بعدد من الأسرى الروم والصفالية والايطاليين . ورأى أن هؤلاء الأسرى قد يسببون مقاعب للمصريين إن هم تمردوا أو حاولوا الاخلال بالأمن . وفى الوقت عينه خشى أن ينكروا مسيحيتهم لينالوا العتق من أسرهم . فرأى أن يضرب عصفورين بحجر واحد فيريح مصر من مضايقتهم ويحفظ عليهم مسيحيتهم بأن دفع القدية عن أكبر عدد منهم - إذ كان يعوزه المال اللازم لافتدائهم جميعاً . وكان - إذا ما لفتدى أسيراً منهم - يعطيه حرية الاختيار بين البقاء تحت رعايته أو السفر إلى وطنه . فمن شاء منهم العودة رحله على نفقته الخاصة ، ومن شاء أن يبقى ثبتته على الايمان بمساعدته على إيجاد عمل يرتزق منه .

٣٤٨- وكان عمر بن العاص قد عاد إلى مصر ليتولى الأمر فيها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان . وقد أتبع فى هذه الفترة نفس السياسة التى كان قد اتبعها فى فترة ولايته الأولى ، فمنح القبط حرية العبادة وترك الأمر بين يدى باباهم أغاثون كما كان قد تركه بين يدى البابا بنيامين من قبل . وقد وجد البابا الاسكندرى أن سياسة التسامح هذه فرصة مواتية له لاعادة بناء كنيسة القديس مرقس التى كانت قد هُتمت وقت تدمير مدينة الاسكندرية عند فتحها للمرة الثانية . وبينما كان الفعلة منهمكين فى بناء الكنيسة أمر الأنبا أغاثون ببناء بيت فسيح مقابلها ليجد فيه الغرباء والنزلاء مكاناً يقضون فيه أيام غربتهم كلما اضطروا إلى الذهاب للاسكندرية (١) .

٣٤٩- وفى أثناء هذه الأعمال الانتشائية حدث أن تواطأ ثيودورس أحد أنصار مجمع خلقيدون المشنوم مع يزيد بن معاوية والى دمشق على أن يوليه رئاسة كنيسة الاسكندرية فوافقه يزيد على ذلك بعد أن أخذ منه رشوة مغرية . فجاء ثيودورس - على أثر ذلك - إلى الاسكندرية وأخذ يستبد بالأنبا أغاثون وبالشعب الأرثوذكسى الأمين . ولم يكف بفرض جزية عامة عليهم بل زاد على ذلك بأن فرض على الأنبا أغاثون ستة دنانير سنوياً على كل تلميذ من

(١) تاريخ الأمة القبطية لوقرب نخلة ووفولة طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٨ .

تلاميذه الأخصاء ، كما استولى على المال الذى كان يدفعه البابا الاسكندرى للملاحين وبحارة الأسطول المصرى . ولم يشبع كل هذا المال جشع ثيودورس الخلقيدونى إذ كان يستولى على كل ما يرد من مال للأتبا أغاثون (١) . ثم أعلن فى قحة غربية بأن كل من يعثر على هذا البابا الجليل له الحرية فى رجمه بالحجارة حتى الموت !

٣٥٠- على أنه رغم هذه الآلام المريرة لم ينس الآب السماوى شعبه المصرى الأمين إذ كانت أديرة بوية شهيت عامرة بالنساك الأتقياء المكرسين للصوم والصلاة والتأمل فى الالهيات . وكان هؤلاء القديسون يتضرعون إلى الله بلا انقطاع ليعيد السلام إلى الكنيسة . وكان كثير من المؤمنين يذهبون للتبرك بهؤلاء النساك المستبشرين بنعمة الله وكان بعض هؤلاء الزوار يقضى أيلماً طويلاً فى الصحراء لمعاونة الرهبان على بناء الصوامع الجديدة التى اقتضت بنائها ضرورة مفرحة هى تزايد عدد النساك . وكان بين المؤمنين الذين ذهبوا إلى الصحراء لمعاونة الرهبان فى عملهم رجل مؤمن اسمه يونس السمودى . وحدث أنه بينما كان يونس مذهباً فى مساعدة الرهبان على البناء أصيب بمرض أقعده عن العمل . ثم اشتدت وطأة المرض عليه حتى ظن معظم الآباء أنه لن يبرأ منه . على أن يونس ظل مواظباً على التوسل إلى رب الكنيسة ليتدبركه بمراحمه . وفى احدى الليالى غفا يونس قليلاً فرأى القديس مرقس يشفع فيه أمام عرش النعمة . وفى اليوم التالى استيقظ من النوم فوجد نفسه معافى . فامتلاً قلبه عزاء وغبطة وقرر أن يكرس حياته كلها لله . ثم خرج من بوية شهيت قاصداً أحد الأديرة الواقعة بالقرب من الفيوم . وقد صحبه يومذاك راهبان عاشا معه وتكلمنا له .

٣٥١- وفى احدى الليالى بينما كان الأتبا أغاثون مضطرباً إلى الاختباء من بطش ثيودورس الخلقيدونى ، رأى أحد القديسين فى حلم يقول له : « أرسل فى طلب الكاهن يونس السمودى لأنه سيكون عوناً لك وسنداً كما

(١) السلكار الأثيوبى ترجمه إلى الإنجليزية وليس بودج جـ ١٥٨ .

سيكون خليفتك على السدة المرقسية ، . وما أن استيقظ البابا الاسكندري حتى بعث برسله إلى الأنبا ميخا أسقف الفيوم طالباً إليه أن يرسل له الراهب المشار إليه . وكان الأسقف يحب هذا الراهب ويود استيقاظه إلى جانبه ، ولكنه امتثل لأمر البابا ويادر بارسال الراهب يؤنس إليه .

٣٥٢- وحين وقعت عينا الأنبا أغاثون على يؤنس السمودى فرح به فرحاً عظيماً ، وازداد فرحه حين تحدث إليه إذ وجده واسع الاطلاع متجماً بكل الفضائل المسيحية . فأقامه مديراً لكنيسة القديس مرقس كما منحه السلطة للإشراف على كل كنائس الاسكندرية . ولقد تجلت حكمة يؤنس وحسن إدارته فازدانت ثقة البابا به .

٣٥٣- وحدث أن شغرت عدة ايبارشيات فى تلك الأيام ، فاقترح بعض المؤمنين على الأنبا أغاثون أن يرسم يؤنس أسقفًا على احداها . ولكنه رفض جميع طلباتهم محتفظاً به للباباوية تحقيقاً للحلم الذى رآه والذى عرف منه أنه سيكون البابا من بعده . وذلك لأنه كان حريصاً على القوانين الكنسية وكان يعرف تمام المعرفة أن هذه القوانين نصت على أنه لا يجوز للأسقف أن يكون بابا لأن البابوية لم تخرج عن كونها أسقفية ولو أنها أسقفية العاصمة . فالبابا بمثابة الأخ الأكبر (١) . لهذه الأسباب احتفظ الأنبا أغاثون بالراهب يؤنس واتخذة سكرتيراً خاصاً . وهذا الحرص على القوانين الكنسية جعل البابا الاسكندري يدقق كل التدقيق عند اختيار الأشخاص المطلوب رسامتهم لكل درجات الكهنوت . ولما رأى الشعب فيه هذا الحرص وهذه العناية الفائقة فى التمسك بالتقاليد الرسولية زاد فى تقديره ومنتحه ولاءه الخالص .

٣٥٤- وكان والى مصر يومذاك اسمه مَسْلَمَة الذى كان رجلاً عادلاً نزيهاً يعامل جميع المصريين معاملة واحدة فلا يفرق بين مسلم ومسيحي إلى حد

(١) راجع ما دار من نقاش حول هذا الموضوع فى الفصل الخاص بالمجمع المسكونى الثانى فى الجزء الأول لهذا الكتاب .

أنه سمح للقبض بأن يبنوا كنيسة خلف الكوبرى عند الفسقاط رغم معارضة رجال ولايته (١) .

ثم بلغ مسامح مسلمة أن بعضاً من أهالى سخا قد أشعلوا النيران فى عدد من رجال الديوان هناك ، فانتدب سبعة من أساقفة الكرازة المرقسية ورجا منهم أن ينهبوا ليعالجوا الأمور فى تلك المدينة بحكمتهم . فذهبوا لفورهم ونجحوا فى اقرار الأمن . وقد منحتهم النعمة الالهية القنطرة على شفاء من كانوا قد أصيبوا فى الاعتداء كما منحتهم الحكمة فى توقيع العقاب المناسب على المعتدين .

٣٥٥- وكان فى سخا قيطى اسمه اسحق من أصحاب الجاه والنفوذ وله دالة على والى مدينته . فما كاد الأساقفة السبعة يتجهون من المأمورية التى انتدبوا لأجلها حتى أخذوا يتفاوضون مع اسحق فيما يجب عليهم اتخاذه من تدابير بازاء ثيلودورس الخلقيدونى . وأشار عليهم اسحق بمقابلة الوالى فذهبوا جميعاً إليه وأوضحوا له كل وسائل الاستبداد التى لجأ إليها الخلقيدونى الدخيل ضد باباهم الشرعى .

٣٥٦- ومن المؤلم أنه بينما كان الأساقفة والأرخب اسحق يتشاورون معاً فى أمر ثيلودورس الخلقيدونى أصيب الأنبا أغاثون بمرض لم يمهله غير أيام قصيرة انتقل بعدها إلى بيعة الأبركار . وكان قد بلغ الشيخوخة وجاز الآلام والبلايا خلال باباويته . فتنوح بسلام حافظاً الايمان الأرثوذكسى ، وهو الآن متوج ينتظر البر مع جميع القديسين فى كورة الأحياء إلى الأبد (٢) .

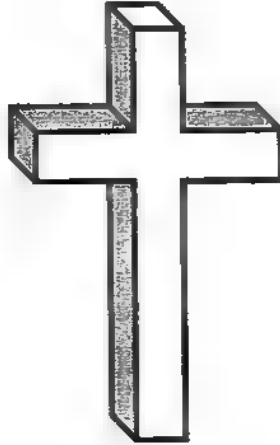
٣٥٧- ومما يؤسف له أنه لم يعثر للآن على سير الأساقفة الأجلاء الذين حملوا المسئولية مع الأنبا أغاثون . فالأنبا ميخا أسقف الفيوم قد ورد اسمه فى

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لايڤرول (الطبعة الخامسة) طبع فى لندن سنة ١٩٣٦ ص ٢٦ .

(٢) تاريخ بطريركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين ترجمه إلى الانجليزية ايفيس جـ ٣ ص ١٠ - ١١ .

جملة عابرة ضمن ترجمة باباء ، وهذا كل ما نعرفه عنه . أما الأساقفة السبعة للذين لتخبيهم والى مصر لتثبيت دعائم العدالة فى سفا فإننا نجهل حتى أسماءهم . على أنه يكفهم فخر أنهم أدوا ولجهم نحو وطنهم ونحو كنيسهم فاستحقوا أن يدالوا جزاءهم من أبيهم الذى يرى فى الخفاء ويجازى علانية (١) .

وثمة أسقف آخر أغلب الظن أنه معاصر لهم - أو قد يتقارب معهم إذ أنه عاش فى القرن السابع . وكل ما نعرفه عنه أنه كان أسقفاً على قفط وترك موعظة قالها فى مرضه الأخير (٢) .



(١) متى ٦ : ٤ .

(٢) عن مقال : مخطوطات عربية لكتبة قبط ، (بالفرنسية) ليول سبات نشرها فى مجلة الآثار القبطية للعدد الخامس (القاهرة سنة ١٩٣٩) ص ١٦٥ .

يُونُس النيقىوسى

- (٢٥٨) سطو الجهل والظلم على مخطوطاتنا .
 (٢٥٩) وصف لمدينة نيقىوس .
 (٢٦٠) تهرب يونس النيقىوسى فى دير الأنبا مكاري الكبير .
 (٢٦١) البابا أغاثون يعينه ضمن سكرتيريه .
 (٢٦٢) يونس يهاصر ثلاثة من باباوات الاسكندرية وينال كرامة الأسقفية .
 (٢٦٣) تأليفه تاريخاً مفصلاً بالقبطية .
 (٢٦٤) ترجمة تاريخ النيقىوسى إلى الحبشية .
 (٢٦٥) يونس يتقنى بأيجاد مصر فى تاريخه .
 (٢٦٦) الجزء الخاص بالفتح العربى لمصر موجز .
 (٢٦٧) خدمة النيقىوسى جليلة القدر مع أن ترجمته غير معروفة .

٣٥٨- من بين الغربيين الذين اجتنبهم تاريخ مصر بما فيه من أمجاد المستشرق الأمريكى هنرى بريستد . واقد كتب هذا الباحث المذوق فى مقدمة كتابه « فجر الضمير » (١) يقول ما ترجمته : « إن تاريخ البشرية يتلخص فيما بين اللبطة والقبلة » . وهذه الكلمة تعبر عن حقيقة مؤلمة هى أن النزوع إلى التخريب طغى فى كثير من الأحيان على بدائع الانتاج الفكرى والفنى . ولا يوجد شعب عرف مدى ما فى هذه الحقيقة من مرارة قدر شعبنا لكثرة المعتدين الذين تألبوا عليه . وأنه لمما يثير الأسى أن الكثير من تراجم آباء كنيسةنا المصرية قد سطت عليه يد الدهر - أو بالحرى يد المستعمر الغاشم - فلم يبق منها غير النزر اليسير . وليست تراجم الآباء هى وحدها التى أضاعها الجهل والطغيان بل أن تعاليمهم أيضاً قد نالها الشئ الكثير من التبيد .

(١) يتبع بريستد فى كتابه هذا تاريخ التطور الفكرى الروحى فى مصر ابتداء من العصر السابق على بناء الأهرام حتى دخول المسيحية . ويخاطب بكل مصرى وفخر بقوميته أن يطالع هذا الكتاب ليرى إلى أى مدى أدرك أجداده معنى المثل العليا التى لا يزال الناس يسمون نخوها حتى الآن .

وبين التراجم المفقودة التي يتوق الباحثون إلى العثور عليها ترجمة يونس النيقوسى الذى عاش فى أواخر القرن السابع . ذلك أن هذا الأسقف الجليل قد وضع تاريخاً شاملاً يبدأ بتكوين الخليقة وينتهى بالقرن الذى عاش فيه . فكان حظ هذا التاريخ حظ كاتبه إذ لم تبق نسخه الأصلية ولم يعثر عليها الآن .

٣٥٩- أما الشذرات الباقية عن يونس النيقوسى فتعطينا لمحات خاطفة عنه وتستثير شوقنا إلى المزيد كالعطشان الذى لا يجد غير السراب أمامه فلا يرتاح باطفاء غليله .

وتتلخص هذه الشذرات فى أن مدينة نيقوس مسقط رأس ذلك المؤرخ الكبير كانت - فى عصره - عاصمة للمديرية الرابعة من مديريات القطر المصرى . وظلت تشغل مكاناً سامياً بين المدن المصرية حتى بعد انتقال يونس إلى عالم الأرواح . أما اليوم فهى قرية صغيرة مغمورة من قرى الدلتا تعرف باسم « زاوية رزين » بالمنوفية . ولقد قام المستشرق الفرنسى دارسى سنة ١٩١٢ بحفريات حول هذه القرية فلم يعثر بها إلا على تمثال واحد لرمسيس الثانى وعلى بعض الأحجار المبعثرة والجدران المتداعية التى كانت فى يوم ما تؤلف بيوتاً للعبادة المسيحية . أما ما تبقى لها من شهرة فهى مرتبطة باسم يونس وغيره من الأساقفة الذين اعتلوا سدةها حين كانت مدينة عظمتى ومقرراً لأسقفية (١) .

٣٦٠- والمعروف عن هذا المؤرخ الكنسى أنه ترهب فى دير الأنبا مكارى الكبير فى بركة شيهيت ، حيث اشتهر بعلمه الواسع وتقواه الفائقة ومقدرته على الإدارة والتنظيم .

٣٦١- ولقد رأى الأنبا أغاثون أن يستعين بمواهب يونس فاستدعاه من الدير وعينه ضمن سكرتيريه فأخلص فى خدمته إلى حد أنه حين انتقل هذا البابا للجليل إلى بيعة الأبقار استبقاه يونس الثالث الذى خلف الأنبا أغاثون

(١) « حول مدينة نيقوس » مقال للأستاذ لبيب حبشى نشره فى رسالة مارمينا للمعد الرابع (سنة ١٩٥٠) من ١٨٣ - ١٨٤ .

على السدة المرقسية . ثم استمر يونس النيقوسى فى خدمة الأنبا إيساك (اسحق) الذى جلس على كرسي مارمرقس بعد ذلك ولازمه ملازمة الظل حتى أنه كان يلازمه أيضاً كلما ذهب لمقابلة أمير البلاد - إذ كان هذا البابا للعلامة يثق فيه كل الثقة .

٣٦٢- وقد أكرم الله تعالى على يونس بمعمّر مديد فخدم الأنبا سيمون خائفة الأنبا إيساك فيكون قد خدم أربعة باباوات بالتتالى . ومع أن يونس كان قد بلغ سن الشيخوخة حين اعتلى الأنبا سيمون كرسي مارمرقس ، إلا أن هذا البابا رأى أن يكافئه على خدماته الكثيرة ، فرسمه أسقفاً على مدينة نيقوس ، وأضاف إلى هذه الرسامة كرامة أخرى هى إقامته رئيساً على أديرة الأنبا مكارى الكبير . ولهذا السبب أطلق عليه معاصروه لقب « مدير الأديرة » .

ولا يعرف تاريخ انتقال هذا الآب الفاضل إلى الأخدار السماوية على وجه التحقيق ، ولكن من المتواتر أن انتقاله من هذه الدار الفانية إلى الباقية لم يتجاوز آخر القرن السابع .

٣٦٣- أما كتاب التاريخ الذى ألفه الأنبا يونس النيقوسى فقد وضعه باللغة القبطية ويبدو أن هذا الأسقف قد أسهب فى وصف التفاصيل التاريخية فى العصور التى تناولها بالبحث .

٣٦٤- على أنه مما يؤسف له جد الأسف أن النسخة القبطية قد ضاعت ولم يبق بين أيدينا الآن غير الترجمة الحبشية المحفوظة فى الكنيسة الأثيوبية .

وقد قام شماس أثيوبى بترجمة هذا التاريخ العام من القبطية ، وختمه بقوله : « لقد عنيت أنا الحقيق بين الناس والشماس غبريال الابن الروحى ليونس القصير بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الحبشية القديمة بمنتهى الدقة . وقد أدينا هذه الترجمة نزولاً على إرادة الملكة مريم سدا وأثناسيوس قائد الجيش الأثيوبى » .

٣٦٥- ومن هذه الترجمة الحبشية يتضح لنا أن ذلك التاريخ النيقوسى

العام مقسم إلى مئة واثنين وعشرين قسماً . ومع أن يؤنس قد قصد إلى أن يجعل تاريخه عاماً إلا أنه انتهز كل فرصة سانحة للتحديث عن مصر ومجد مصر .

وقد أفرد في كتابه هذا أقساماً عدة للتوحيه بفضل المصريين . وهذا بمعنىها : الفصل الأول - أول شعب صاغ الذهب ويحث عن المتاجم . الفصل الثاني - أول من صنع أدوات الحرب . الفصل الثالث - من أسس مدينة أون (هليوبوليس) . الفصل الرابع - تأسيس مدينة أبي صير (١) . الفصل الخامس - تأسيس مدينتي سمود والبرابي . الفصل السادس - بدء الزراعة في مصر . الفصل السابع - الاحتفاء بذكرى سيزوستريس وهو أول ملك فرض الضرائب وحفر القنوات ... الفصل التاسع - بناء الأهرامات الثلاثة في ممفيس ... الفصل الثاني عشر - خاص بالملك بروسوبيس الذى أبدل اسم بلدة أبشادى باسم نيقيو وحوك مجرى النهر من الشرق إلى الغرب عند هذه البلدة ... الفصل السادس عشر - بعض منشآت مدينة الاسكندرية . الفصل السابع عشر - بناء حصن بابلون (مصر القديمة) . الفصل الثامن عشر - حكم ديوقليانوس المصرى . الفصل التاسع عشر - الاحتفاء بذكرى القديس ثيوفيلس بابا الاسكندرية ، وهو من ممفيس . الفصل العشرون - الثورة في مصر على الامبراطور فوقا

٣٦٦- ولقد تتبع يؤنس فى تاريخه تسلسل الحوادث حتى وصل إلى فتح العرب لمصر . فأفرد له الفصل المئة والحادى عشر . وأنه لمن المدهش أن الوصف الخاص بالفتح العربى موجز على العكس من بقية الفصول التى كتبت بالفصيل ، مما يجعلنا نظن أن مرجع هذا الايجاز هو الترجمة الحبشية لا الأصل القبطى . على أنه رغم هذا الايجاز فإن المؤرخين العصريين المدققين

(١) بين الشهداء الذين خدموا مصر بطولهم الطيبة قديس درج للكتاب على تسميته ، أباكير ، ولكن اسمه بالقبطية هو أبا صير ، فاللفظ العربى أبو صير أقرب إلى الكلمة القبطية من « أبو كير » (أو أبو قير) راجع حياة هذا الطيب الشهيد فى كتاب « قديس مصر » (بالفرنسية) للأب بول شلو دورليان ج ١ ص ٢٥٧ - ٢٦٨ .

يستدلون إليه لثقتهم في يونس الذي بدا من كتاباته أنه كان يتوخى الحقيقة باستمرار .

٣٦٧- ويفرد يونس النيقوسى الفصل الأخير من كتابه لتلخيص الموضوعات للعديدة التى عالجها فى المئة واثنين وعشرين قسماً منه . وبعد أن قدم هذا التلخيص ليسهل على قرائه أدراك ما وضعه لهم رفع أى الشكر لله تعالى الذى أعانه فمكته من أن يكمل كتابه فى التاريخ العام (١) .

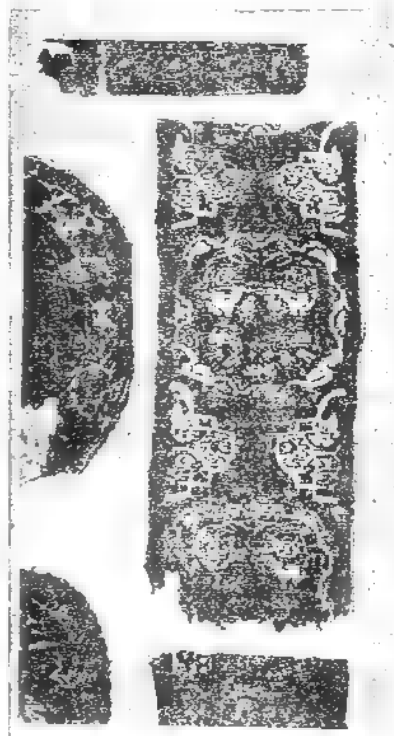
وأن يونس النيقوسى لم يخدم أبناء جيله فحسب بل قدم هذه الخدمة الوافية للأجيال المتلاحقة ، فهو ضمن الآلاف الذين يصح وصفهم بكلمة « الجندى المجهول » ، لأنه مازال مجهولاً حتى من الباحثين المدققين الذين طالعوا تاريخه العام واستناروا بما فيه من معلومات .

ومن بين الباحثين فى سيرته المستشرق زوتنبرج الذى ترجم كتابه من الأثيوبية إلى الفرنسية . ويقول لنا هذا المستشرق بأن يونس نفى إلى إحدى الجزر فى النيل حيث قضى الجزء الأخير من شيخوخته ، وأنه أصيب بفقد بصره فى تلك الفترة . وكان فى الجزيرة بعض المؤمنين الذين نجوا من الاضطهاد فاعتنوا به إلى أن تليح بسلام (٢) .



(١) « صور من تاريخ القبط » - رسالة مارمينا الرابعة المطبوعة فى الاسكندرية سنة ١٩٥٠
للفصل الخاص بيوحنا النيقوسى للدكتور مراد كامل ص ١٦٩ - ١٧٩ .

(٢) يوميات يونس النيقوسى - النص الأثيوبى مع للترجمة الفرنسية ترجمه زوتنبرج طبع فى باريس سنة ١٨٨٣ ص ٤١٨ - ٤١٩ .



زخارف من النسيج تمثل أولاد الكشافنة

الأنبا يونس الثالث

- (٢٦٨) والى سخا يؤازر القبط ضد
ثيودورس الخلقيدونى .
(٢٦٩) انتخاب الأنبا يونس الثالث .
(٢٧٠) مهادنة ابن ثيودورس
الخلقيدونى للأنبا يونس .
(٢٧١) حرب ثم مهادنة فتجارة بين
مصر والقسطنطينية .
(٢٧٢) كاتبان قبطيان يتجهان فى
استرجاع الكنائس من
الخلقيدونيين .
(٢٧٣) حالة النعمة تسطع على وجه
البايا الاسكندرى .
(٢٧٤) حادث مؤلم بينه وبين عبد
العزیز والى مصر .
(٢٧٥) اطلاق سراح الأنبا يونس
الثالث يوم خميس العهد .
(٢٧٦) عبد العزيز يزيد فى اكرامه .
(٢٧٧) تجديد كنيسة مارمرقس
ووقف طاحونة ومصرة عليها .
(٢٧٨) تعيين الراهب ايساك سكرتيراً
للبايا الاسكندرى .
(٢٧٩) الوالى عبد العزيز يستشفى
فى دير أبى السيفين بطموه
حيث يسك العملة الأولى
للعصر الاسلامى .
(٢٨٠) الوالى يتخذ حلوان عاصمته
فيبنى فيها المساجد
والكنائس .
(٢٨١) مرض الأنبا يونس وسفره الى
الاسكندرية على سفينة
يقدمها له الوالى .
(٢٨٢) الأنبا يونس يشير بانتخاب
ايساك خليفة له ويتنحىج
بسلام .

٣٦٨- فى سنة ٦٧٣ م شغرت السدة المرقسية مرة أخرى بانتقال الأنبا أغاثون إلى الأخدار السمانية . فوجد ثيودورس الخلقيدونى الفرصة سانحة ليزيد طغياناً . ومن ثم سارع إلى وضع أختامه على جميع ممتلكات الكنيسة المصرية واغتصاب كل ما أمكنه الوصول إليه من أموالها . ولما وصل خبر اعتدائه الأئمة إلى مسامع الأساقفة السبعة الذين كان قد انتدبهم مسلمة الوالى لاقرار الأمور فى سخا - وكانوا لا يزالون فى تلك المدينة - تشارروا مع اسحق الأرخن القبطى واتفقت كلمتهم على التفاوض مع والى سخا فى هذا الموضوع . وبالفعل اجتمعوا به وأعلموه بكل ما فعله هذا الخلقيدونى التخيل . فاقبلت بعالة قضيتهم ، ووافقهم على أن يتكلم هو بلمانهم مع مسلمة . فأصدر

هذا الأخير أمره برفع يد ثيودورس عن أموال الكنيسة المرقسية وممتلكاتها ويتجريد من كل سلطة مننية . ولم تمض بعد ذلك غير مدة قصيرة حتى حلّ به القصاص الالهى إذ قد مرض ولم يلبث أن انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء .

٣٦٩- وكان تجريد ثيودورس فرصة للمصريين للاجتماع والتشاور معاً فى أمر من يختارونه لرعايتهم . واتفقت كلمتهم على أن خير من يخلف الأنبا أغاثون هوسكرتيره يونس الذى أحيوه لخدمته إياهم . فتحقق الحلم الذى كان قد رآه البابا الراحل إذ قد أصبح سكرتيره الخليفة الأربعين لمارمرقس باسم يونس الثالث .

٣٧٠- ومن حسن الحظ أن ابن ثيودورس الخلقيدونى الذى خلف والده على ولاية الاسكندرية كان هادئ الطبع مسالماً قانعاً . فحاول جهده أن يكثر عن سينات أبيه بأن وضع نفسه فى خدمة الأنبا يونس الثالث ، وكان مطيعاً له . فأكرمه هذا البابا العطوف وعامله معاملة الأب الشفوق لابنه المحبوب . إلا أن ابن ثيودورس - رغم طاعته وخضوعه - لم يقض الأختام التى كان قد وضعها أبوه على الكنائس علوةً واقتداراً .

٣٧١- وفى تلك الآونة اعتلى أوغسطس بن طيباريوس قيصر عرش القسطنطينية . فعاودته الأحلام فى استعادة نفوذه على الشرق . ومن ثم شنّ الحرب على العرب فى الجزائر المتناثرة فى البحر الأبيض المتوسط وكان النصر حليفه فى هذه المرة إذ قد نجح فى الاستيلاء على صقلية كما استولى على غيرها من الجزر . وملاه النصر زهواً فتوهم أنه يستطيع استعادة مصر لسلطانه . وفعلاً أنزل جنوده على سواحل البرلس حيث تمكنوا من قتل الوردان متولى الخراج . ولكنهم هزموا رغم ذلك ولضطروا إلى الانسحاب . على أن النصر الذى أحرزوه على الجزر قد أدّى إلى أن يعقد الامبراطور أوغسطس معاهدة صلح مع العرب فى مصر مؤداها تيسير التجارة بين البلدين (١) .

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين ج٣ ص ١١ ، مصر الإسلامية لالاس الأيوبى ص ١٠٢ - ١٠٣ .

٣٧٢- وحدث في الوقت عينه أن آلت الخلافة إلى مروان . وكان ذا مطامع واسعة : إحداها السيطرة على جميع البلاد سيطرة فعلية . فعين عبد الملك ابنه الأكبر والياً على سوريا وعبد العزيز ابنه الثاني والياً على مصر . وكان عبد العزيز يميل - بوجه عام - إلى الاعتدال . فعين كاتبين قبطيين في ديوانه ، وكانا معروفين باخلاصهما للنام للأنبا يؤنس الثالث . فرأى هذا البابا الجليل أن ينتهز الفرصة التي هيأتها له العناية الالهية بأن كتب لهما من الاسكندرية يستنهض همتهما في أمر الكنائس التي لاتزال تطلوها الأختام . فجاء الرد مباشرة وبه الأمر بفضّ الأختام عن جميع الكنائس وتسليمها كاملة إلى خليفة مارمرقس . واطلاق الحرية للشعب المصري الوفي لآداء شعائره الدينية فيها . ففرح القبط بهذا الأمر فرحاً عظيماً واكتظت بهم الكنائس .

٣٧٣- وقد امتاز الأنبا يؤنس الثالث بدرجة عظمى من القداسة حتى أن النعمة الالهية سطعت كالهالة على جبينه كما سطعت قديماً على وجه موسى (١) . ولغرض قداسته وعلو مكانته العلمية كان أمراء القسطنطينية يكتبونه ويعثون إليه بالهدايا .

٣٧٤- على أنه من المزم أن وقع حادث أدى إلى سوء العلاقات بين البابا الاسكندري وبين عبد العزيز في السنة الأولى من ولاية هذا الأمير . ويتلخص هذا الحادث في أن عبد العزيز كان قد ذهب إلى الاسكندرية ليجمع الجزية المفروضة على هذه المدينة دون أن تسبقه رسلة إليها . فلم يكن الأنبا يؤنس على علم بمجيئه وبالتالي لم يخرج لملاقاته . ووجد الخلقيدونيون في هذا التفويت فرصة سانحة للإيقاع بخليفة مارمرقس فادعوا لدى هذا الوالى بأن البابا الاسكندري تعمد أن لا يخرج مع المستقبليين لأنه يزعم أنه سليل الفراعنة والحاكم الشرعى للبلاد كما ادعوا بأنه على جانب عظيم من الثراء . فجازت فريتهم على عبد العزيز وأرسل في طلب الأنبا يؤنس . وحالما دخل عليه أخذه على امتناعه من الخروج لاستقباله . أجابه الأنبا يؤنس في هدوء وسكينة قائلاً : « أؤكد لك بأننى لم أسمع بقدومك إلى هذه العاصمة إلا عندما جاءنى

(١) خروج ٣٤ : ٢٩ ، ٢٠ كورنثوس ٣ : ١٣ و١٢ .

رسولك يستدعيني إليك . . غير أن عبد العزيز لم يصدق هذه الاجابة ، وأمر عامله المدعو سمذ باعتقاله وعدم الافراج عنه حتى يأخذ منه مئة ألف دينار . وتصادف أن كان يوم اعتقال البابا الثلاثة من أسبوع الآلام (١) . فكان ألم هذا الاعتقال مضاعفاً . وقد حاول سمذ أن يحصل على المبلغ المفروض بشتى وسائل التهديد والوعيد . فلما وجد أن كل محاولاته قد ضاعت سدى أخذ يساومه حتى نزل بالمبلغ المطلوب إلى عشرة آلاف دينار . وحينما ذهب التقط لصلاة البسخة المقدسة ولم يجدوا باباهم سألوا عنه وعرفوا حقيقة الأمر فصارعوا إلى عبد العزيز وأعلنوا أمامه استعدادهم لجمع المبلغ المفروض وتقديمه إليه على أن يصدر الأمر بالافراج عن باباهم المعتقل فوراً . وعندما أمر عبد العزيز باحضار الأنبا يونس الثالث إلى دار الولاية . وما أن قابله وتأمل وجهه حتى أخذ بالنور الساطع من وجهه (٢) . فأمر باحضار وسادة ناعمة وأجلسه عليها إلى جنبه ثم قال له : : ألا تعرف أيها البابا أن السلطان لا يعاند ؟ أجابه الأنبا يونس الثالث قائلاً : : إننى أعلم أن السلطان يجب أن يطاع ، ولكنى أعلم أيضاً أن طاعة الله تعالى أوجب من طاعة السلطان ، قال عبد العزيز : : هذا حق . ولكن ألا تعلم أن الله يحب الحق ؟ ، أجابه البابا الاسكندرى : : لا يحب الله الحق فحسب بل هو الحق بعبده ، ولا يجد إليه الباطل سبيلاً . فأعجب للوالى بهذه الاجابة وقال : : أرى أنك صادق فيما تقول . لذلك أكتفى بأى مبلغ يقدر شعبك على أدائه . ومنذ هذه اللحظة أطلق لك الحرية وأدع لك التصرف فى شئون كنيستك بما ترى فيه خير شعبك . .

٢٧٥- وقد جرى هذا الحديث بين البابا الاسكندرى والوالى فى صباح

(١) هو الأسبوع الذى يحتفى فيه للمسيحيين بذكرى آلام السيد المسيح التى جازها ليفتى الناس .

(٢) يصف المخطوط هذا البابا بقوله أن عبد العزيز : رفع نظره إليه فرأه كأنه شبه ملاك ، - راجع تاريخ البطركية نقله القمص شودة الصولمى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس بولوى للطرون جـ ١ ص ١٠٥ .

خميس العهد الجديد (١) . وحالما غادر الأنبا يؤنس الثالث دار للولاية تجمع الشعب حوله فى مركب عظيم ، والكل ينشد بصوت واحد ترنيمة : يا ملك السلام ، ويهتف بعد الانتهاء منها : مبارك الآتى باسم الرب (٢) . حتى وصل المركب إلى كنيسة مارمرقس ، فدخل البابا يقيم الشعب واشتركوا جميعاً فى صلاة اللقان (٣) ثم القداس الإلهى ، والكل منصت فى بهجة . وكانت النشوة الروحية تنضاعف بتتابع الصلوات وبالأستقرار الروحى الذى شمل الجميع لما رأوه من تبدل فجائى . وقد احتفى الأنبا يؤنس الثالث بكل للصلوات الرائعة التى رتبها أسلافه الأجلاء مبحثاً بخميس العهد فالجمعة العظيمة قليلة سبت الفرح ثم ليلة عيد القيامة المجيدة .

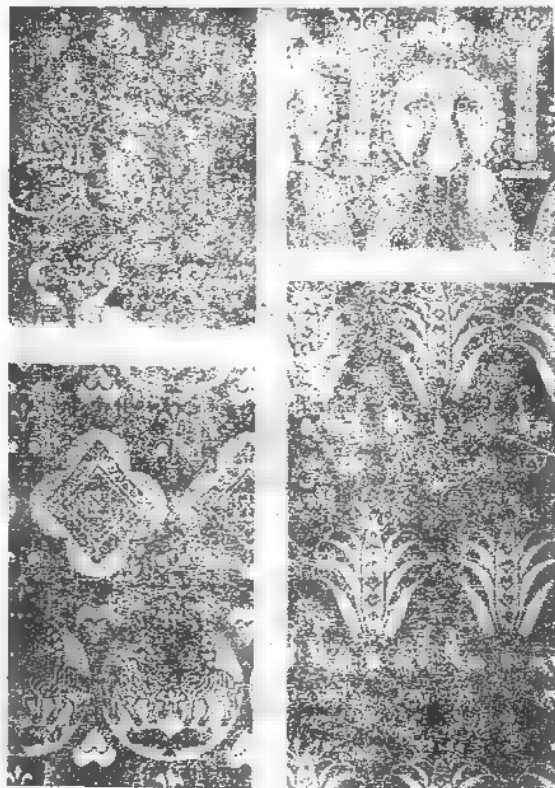
٣٧٦- وقد لثم الله نعمته على للشعب المصرى الرقى بما أبداه عبد العزيز الوالى من تبحر لذلك البابا الوقور ، إذ قد بعث هذا الوالى للمنصف برسالة دورية إلى جميع جهات القطر يأمر فيها كل الولاة والحكام ورجال الأمن والادارة أن لا يخاطبوا الأنبا يؤنس الثالث إلا بكل احترام واجلال ، وأن يلاقوه أينما حل بما يليق بمقامه السامى من ترحيب وحفاوة .

٣٧٧- وامتلات نفس البابا العظيم هدوء وغبطة بازاء الاكرام الذى أبداه الوالى عبد العزيز نحوه . فانصرف إلى تجديد كنيسة مارمرقس وزخرفتها . فامتلاً القبط حماسة لهذا المشروع وتباروا فى العطاء فجاءت تحفة فنية رائعة .

(١) هو الخميس الذى أكل فيه للسيد المسيح خروف الفصح مع تلاميذه قبيل تسليمه إلى لليهود ليصلبوه . وقد أطلق آباء الكنيسة هذه التسمية عليه للعهد الذى عاهد المخلص معهم ومع المؤمنين به على مدى الأجيال حين قال لهم : : خذوا كلوا وانتهى بكلمة . هذا هو دمى الذى للعهد الجديد ... متى ٢٦ : ٢٦-٢٩ ، مرقس ١٤ : ٢٢-٢٤ ، لوقا ٢٢ : ١٩-٢٠ .

(٢) متى ٢١ : ٩ ، مرقس ١١ : ٩ ، لوقا ١٩ : ٣٨ ، يوحنا ١٢ : ١٣ .

(٣) هى شعائر تقال لتقديس الماء ، وتتضمن صلوات وضعها الآباء ثم قراءات من الأسفار المقدسة تختم بفصول الأناجيل الخاصة بأكل الفصح قبل الصلب مباشرة (يوحنا ١٣ : ٤ - ١٧) . فإذا ما وصل القارئ إلى الآية القائلة بأن السيد المسيح لتزرى بمغزرة ، قام الكاهن للخدم وفعل بالمثل ، وظل مغزراً إلى نهاية الصلوات . وبعد ذلك يجلس عند الطشت الذى به الماء ويصل أرجل الكهنة والشعاسة ومن تقدم إليه من الشعب ، اقتداء بما فعه المخلص ساعة أن قام عن المشاء وغسل أرجل تلاميذه بنفسه ثم أوصاهم بأن يقتدوا به .



زخارف على منسوجات حريرية (حوالى القرن السابع)

ولما أكمل البابا المرقسى جهاده فى سبيل الروحيات رأى أن يستكملة بالجهاد فى سبيل الحاجات المادية فبنى عدداً من المنازل وقفها على الكنيسة ثم ابتاع طاحونة للقمح ومعصرة للزيت .

وفى وسط هذا الهدوء النفسى وهذا الجهاد المثمر حلت الآفات بالزراعة فعم القحط البلاد . واستمر هذا القحط سنوات ثلاثاً فبدأ شبح المجاعة فى كل ركن . وحين أخذ هذا الشبح المزعج يزداد طغياناً واجهه الأنبا يونس الثالث بحزم وقوة . فقد أمر بأن تدار طاحونة القمح ليل نهار ، كما أمر بطحن كل ما فى مخازن البطيريركية من غلال . وكان يوزع البقيق على المحتاجين من قبط ومسلمين مرتين فى كل أسبوع . كذلك أمر بتقديم كل الكميات الممكنة من الزيت لهؤلاء المحتاجين لأن قلبه الحنون اتسع للجميع . فخفف بذلك العمل من حدة المجاعة التى عمت البلاد وقتذاك .

٣٧٨- وخلال هذه الجهود اليومية الشاقة كان البابا الاسكندرى يداوم على الصراعة إلى الله تعالى طالباً إليه أن يرشده إلى الراهب الممثلة نعمة والمهيا بهذه النعمة الالهية لأن يخلفه على السدة المرقسية . فأوحى إليه الروح القدس بأن يرسل فى طلب ناسك اسمه ايساك ، متعمق فى الأسفار الالهية وممثلة حكمة وصلاحاً . وكان ايساك هذا قد قضى سنين عديدة فى دير الأنبا مكارى الكبير ، كما كان الابن الروحى للأسقف زكريا المتحف بالروح القدس (١) والذى جمع بين فضيلتى الاعتزاز بالكرامة الأسقفية والتواضع الجم . ولما وصل الراهب ايساك إلى الدار البابوية تلقاه الأنبا يونس الثالث بالترحاب . وبعد أن اختبره عينه سكرتيراً خاصاً له ، وأقامه مدبراً لشئون الكنيسة .

٣٧٩- ولقد ظلت صلات العودة قائمة بين الأنبا يونس الثالث وعبد العزيز حتى أنه عندما أشار الأطباء على هذا الوالى بأن يقيم فى حلوان للاستشفاء أثر الإقامة فى دير أبى السيفين بطموه - وهو يقع على الضفة الأخرى من النيل مقابل حلوان ، ومنح الرهبان عشرين ألف دينار فى تلك الزيارة .

(١) هذا هو التعبير الحرفى لكلمة اليونانية (Pnevματο foros) - للتبوية أو لابس الروح .

وقد شامت للعناية الالهية أن يذلل عبد العزيز للبرء من دأله بسرعة لم يكن ليتوقها . فازداد اعزازه للرهبان ولجلاله لباياهم .

ومما يجب ذكره هذا أن العملة الأولى لمصر فى العهد الاسلامى قد سنها عبد العزيز وهو مقيم فى هذا الدير .

٣٨٠- ولما وجد أن صحته قد اعتدلت فى هذه المنطقة استقر رأيه على أن يجعل حلوان عاصمة له . فأمر مهندسيه بتخطيطها كما أمرهم ببناء عدد من للمصايد ودار من الزجاج ومقاييس للتيل وبحيرة وخزان للمياه . ووجد - بعد هذا - أن عاصمته ينقصها كنيسة ، فملح الأنبا يونس الثالث الحق فى بنائها كما يحسن فى عيديه وقد زين عبد العزيز عاصمته بالحدائق الغناء والأشجار للباسقة ، واستقر فيها لأن طبيبه نصحه بالاستحمام فى مياهها للكبريتية (١) .

٣٨١- وفى تلك الآونة أصيب الأنبا يونس الثالث بمرض النقرس . ومع أن الأطباء قد سارعوا إليه للعناية به إلا أن للمرض استفحل أمره .

وحدث أن نزل عبد العزيز من حلوان إلى مصر بصحبة البابا الاسكندرى . ولم يكد اللوالى يصل إلى داره حتى بلغه أن الألم اشتد بالأنبا يونس الثالث ، فبعث إليه برسله للاستفسار عنه . فلما علم أنه يريد السفر إلى الاسكندرية أمر رجاله بأن يعدوا له سفينة ويجهزونها بكل ما يلزم ليسافر عليها البابا المريض فاستقلها الأنبا يونس ورجاله قاصداً إلى عاصمة كرسيه حيث كان سبقه عدد من الأساقفة فما كادت السفينة ترسو حتى سارعوا إلى استقباله . وحالما وقعت عيونهم عليه امتلأت نفوسهم حزناً إذ أدركوا أن ساعته قد دنت .

٣٨٢- ورغم ما كان الأنبا يونس الثالث يعاني من ألم ، فإنه أعرب للأساقفة عن رغبته فى الذهاب إلى كنيسة مارمرقس . فصحبوه إليها وتبعهم

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستافلى لاين بول ، طبع فى لندن سنة ١٩٣٦ ص ٢٦ والهامش على الصفحة عيدها .

جماهير الشعب . وفي الكنيسة استطاع البابا الاسكندري بقوة الروح أن يقف للصلاة . فصلى صلاة الشكر من أولها إلى آخرها . ولكنه ما كاد ينتهي منها حتى أصيب باغماءة . فحمله الأساقفة إلى غرفته حيث أفاق مدى لحظات قصيرة نصح في أثنائها المحيطين به أن يحافظوا على المحبة التي هي رباط الكمال وأن ينتخبوا ليساك سكرتيره خليفة له . ثم استودع روحه يدي الأب السماوي ، ولنضم إلى صفوف الكنيسة المنتصرة . وأقيمت على جثمانه الطاهر صلوات الجناز الخاصة بباباوات الاسكندرية . ودفن في مقبرة كان قد أعدها هو لنفسه في كنيسة مارمرقس وقد دامت بابلويته شهراً وثمانى سنين (١) .



(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأب ساريس أسقف الأشمونين طبعة ليقين ج ٢ ص ١٠-٢١ .



نحت يبين استمرار المؤثرات الفرعونية حتى القرن الميلادي السابع
الصقر (هورس) يعلوه الصليب داخل دائرة

كاتب مبدع

- (٢٨٢) ندرة المخلفات الأدبية عن القرنين السادس والسابع .
- (٢٨٤) نشأة ايساك وتضوفه فى فن الكتابة .
- (٢٨٥) الوالى يكتشف تضوق ايساك ويعينه رئيس مكتبته .
- (٢٨٦) طرح أبويه بترقيته ثم هريه إلى دير الأنبا مكارى الكبير .
- (٢٨٧) الشيخ الناسك زكريا يعاونه على الاختفاء عن والديه .
- (٢٨٨) والدا ايساك يعرفان برهينته ويقتنعان بتركه اياهم .
- (٢٨٩) الأديرة محاربي العلوم إلى جانب ما فيها من عبادة .
- (٢٩٠) الرهبنة تمهيد لصقل النفوس وتهينة للخدمة .
- (٢٩١) تضانى ايساك فى خدمة أخوته وعناية الله به .
- (٢٩٢) اختبار البابا الاسكندري لتضوق ايساك فى الكتابة .
- (٢٩٣) نياحة الأب الروحى لايساك .
- (٢٩٤) البابا الاسكندري يتخذ ايساك سكرتيراً خاصاً له .
- (٢٩٥) البابا الاسكندري يهين سكرتيه للمهام الراءوية .
- (٢٩٦) الأساقفة والأراخنة ينتخبون ايساك للسدة المرقسية .
- (٢٩٧) مقابلة جماعة الناحيين للوالى .
- (٢٩٨) روعة الموكب وحفلة تكريس الأنبا ايساك .
- (٢٩٩) الأنبا ايساك رسالة حية مقروعة من جميع الناس .
- (٤٠٠) جضوة الكاتب أنثاسيوس ثم شفاء ابنه بشفاة البابا ايساك .
- (٤٠١) ولاء أنثاسيوس ويناؤه كنيسة الانجاليون .
- (٤٠٢) عبد العزيز يأمر ببناء عدد من الكنائس والأديرة فى حلوان .
- (٤٠٣) مرض الأنبا ايساك ونياحته .

٢٨٢- إذا رمى الانسان بحصوة فى الماء أحدثت دائرة صغيرة لا تلبث أن تعقبها دوائر عديدة ، كل واحدة أكثر اتساعاً من سابقتها . وهذا الذى يحدث فى الماء إنما هو صورة للنتائج التى تترتب على أى عمل : سواء أكان يتعلق بالأمور المادية أو بالأمور الروحية . وتبدو هذه الحقيقة فى أوضح صورة لكل من يتلعب ما جرى فى خلقيدون وما أدى إليه هذا المجمع المشلوم من نتائج .

فكانت للحصوة التي رمى بها المجمع هي نفى الأنبا ديسقورس ، فنتج عن هذا النفى للغاشم غضب المصريين الذي أدى إلى تعنت أباطرة القسطنطينية . وأخذ هذا التعنت يزداد حدة على مر الأيام فلم ينتج عنه إلا زيادة تمسك المصريين بآيمانهم وولائهم الخالص لبابائهم ، ونالوا في هذا السبيل صنوف العسف والتنكيل . وظلت الفرقة تتسع بين أبناء الكنيسة المصرية وبين البيزنطيين إلى حد أن بعض الباباوات الاسكندريين كانوا يضطرون أن يعيشوا في الصحارى تجنباً لأذى الحكام ، بينما لاقى من بقى منهم في عاصمته شتى صنوف العذاب .

ولقد ألفت هذه الحياة المريرة المصريين ذلك الاستقرار النفسي الذي لا بد منه لكل ابتكار . لهذا تجد أن الانتاج الفكرى والفنى قد أصابه الركود المزعج في فترات الاضطهاد ولهذا السبب عينه كانت لمخلفات القرنين السادس والسابع قيمة مثلى لأنها نادرة من جهة ومن الجهة الأخرى لأن الكتاب والفنانين للقبط الذين استطاعوا أن يؤلفوا وينتجوا رغم ما يحيط بهم من ضيق وإرهاب قد صبروا في مؤلفاتهم العادات التي كانت سائدة إذ ذاك ، كما أوضحوا مشاعرهم وهواجسهم بدقة عجيبة . ومن المؤلفات النادرة الباقية عن هذه الحقبة المخطوط الذى يتضمن ترجمة البابا الجليل ايساك كما سجلها الأنبا مينا أسقف لبشاني (١) . فلقد انتهز هذا الأسقف الفرصة التي تحى فيها الكنيسة ذكرى ذلك البابا الجليل فكتب مرثية ضممتها تاريخ الأنبا ايساك وكان من عادة للقبط إذ ذاك أن يتخذوا من تذكارات نياحة القديسين الفرصة للكتابة عنهم وسرد سيرهم سرداً مفصلاً .

٢٨٤- ويرى لنا الأنبا مينا في مرثيته أن الأنبا ايساك ولد بضاحية الرمل بالاسكندرية وكان والده من ذوى الجاه واليسار . ففي يوم صبيغة (معمودية) الطفل ايساك ، وفي اللحظة التي كان الأسقف قائماً بتغطيسه رأى صليباً من الدور فوق رأسه . فلما أتم سر الصبيغة المقدسة وسلم الطفل لأبويه قال

(١) أطلق هذا الاسم على بلدة نيقويس فيكون الأنبا مينا هنا هو الخليفة المباشر ليرحنا النيقويس المروخ الكسى المعروف .

لهما : « ابدلا في تربية هذا الطفل كل عناية مستطاعة لأنه أمانة مخطرة لأرب
للمجد . »

ولما بلغ ايمسآك للتاسعة من عمره أرسله أبواه إلى المدرسة ، إذ كان من
الشائع أن يظل الأولاد في البيت حتى هذه السن . ولما كان ايمسآك مولعاً
بالعلوم والفنون فقد استوعب كل ما لقَّنه لياه مطبوع من معرفة بسرعة متناهية
إلا أن أهم ما استرعى انتباه ايمسآك كان فن الكتابة (النسخ) ، فلم يتفوق في
كتابة الحروف والألفاظ فحسب ، وإنما تضلع في فن الكتابة أيضاً . فكان
كاتباً وفناناً في آن واحد حتى لقد نال اعجاب معلميه وأقرنته ، فقد كان لقن
الكتابة مكانة ممتازة لدى المصريين إذ كانوا يعدونه الوسيلة العظمى لنشر
المعرفة . وكان تقديرهم هذا في محله لأن الطباعة لم تكن معروفة إذ ذاك .
ولم تكن في ذلك العهد من وسيلة يستطيع للناس أن يحصلوا بواسطتها على
الكتب إلا عن طريق نقلها كتابة باليد . فكان الكاتب والناقل ذوى رسالة مثلى
هى رسالة توصيل العلوم إلى اخواتهم من الناس الذين ييغنون للمعرفة . لذلك
استقر رأى أبوى ايمسآك على تسليمه إلى قريب لهما يدعى مينيسون كان
يشغل كاتباً في دار الولاية للعمل معه . ولما كانت مصر أيام صبا ايمسآك لا
تزال خاضعة للحكم البيزنطى فقد كان للوالى الذى يعمل مينيسون تحت امرته
يدعى جاورجيوس .

٣٨٥- وحدث ذات يوم أن أراد جاورجيوس للوالى أن يكتب رسالة خاصة
مستعجلة ، فأرسل فى طلب مينيسون ليكتبها له . على أن مينيسون كان غائباً
فى ذلك اليوم فاستثار غيابه غضب الوالى الذى أخذ يوعده ويتهدد . وتألم
ايمسآك لهذا الغضب وأراد أن يخفف من حدته ، فقال للوالى : « لا تغضب إلى
هذا الحد يا سيدى . ويكفى أن تصدر أمرك فأكتب لك الرسالة التى تريد ،
وانفجرت أسارير جاورجيوس وسأل الشاب للمائل أمامه : « تستطيع حقاً أن
تكتب لى الرسالة التى أريدها ؟ » أجابه : « نعم . فى وسعى ذلك يا سيدى . »
وإذ ذاك أفهمه جاورجيوس مضمون الرسالة فكتبها له بسرعة واتقان ملائماً
دهشة . فقال له : « حقاً إنك متفوق فى فن الكتابة ، وأنا لم أعلم بهذا للتفوق إلا

الآن . لذلك سأعبدك رئيساً لجميع كنيسة دار الولاية . . ولما كان إيساك خدوماً متواضعاً هادئ النفس فقد أحبه جميع المشتغلين معه . وبما أنه صار رئيساً للكنيسة فقد اضطر أن يعيش في دار الولاية .

٣٨٦- ولقد فرح أبو إيساك بهذه الترقية غير المنتظرة فرحاً عظيماً . وبما أنه كان وحيدهما فقد رغباً رغبة شديدة في أن يزوجه ليسعدا بتربية أولاده . على أنهما حين كانا بفاتحانه في هذا الموضوع كان يجدان منه صدوداً . ثم أعلمهما بأنه يريد أن يعيش راهباً . وظل إيساك في اطمئنان إذ كان مضطراً إلى أن يعيش ليول نهار في دار الولاية . واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن توفي جاورجيوس الوالى . فترك إيساك دار الولاية وذهب إلى بيت أبيه حيث قضى أياماً معدودات لجأ بعدها إلى برية شهيت من غير أن يعلم أحداً .

وامتلاً أبواه خوفاً وفزعاً لاختفائه المفاجئ . ولكن لما كانا قد عرفا منه رغبته في التهرب أدركا أنه لابد أن يكون قد دخل أحد الأديرة فأخذوا يبحثان عنه . على أن بحثهما كان من غير جدوى .

٣٨٧- وكان إيساك قد قصد إلى دير الأنبا مكاري الكبير الذى كان يرأسه إذ ذاك شيخ وقور اسمه زكريا نال فيما بعد كرامة الأسقفية لكرسى سايس (١) . وحالما وقعت عين الآب زكريا على هذا الشاب الوسيم أحبه . وحين عرف منه شخصيته وكيف أنه هرب دون أن يستأذن والديه لرغبتهما في تزويجه شاركه مخاوفه في أنهما لابد ساعداً لارجاعه إلى المدينة . واتفق معه على أن يساعد على تحقيق اشتياقه إلى الحياة النسكية . ولكيما يبلغا هذا الهدف رأى زكريا أن يرسل إيساك إلى جبل « باماهو » فى الصعيد الأعلى كى لا يعثر عليه أبواه . واختار له راهباً شيخاً اسمه أبرام ممثلاً نعمة وحكمة روحية ليصحبه إلى ذلك الجبل القصى . فذهبا معاً وبقياً هناك ستة شهور .

(١) هذه المدينة تقع على فرع رشيد (من النيل) جنوبى الاسكندرية بما يقرب من مئة وثلاثين كيلو متر . وكانت عاصمة مصر فى عهد الأسرة السادسة والعشرين التى حكمت ما بين القرنين السابع والسادس ق. م . وكان هذا العهد أحد عهود النهضة .

٣٨٨- ثم خطر ببال إيساك أن اختفاه لابد أن يكون قد سبب لوالديه الكثير من الحزن والقلق ، فأقنع معلمه الشيخ الناسك أن يعود معه . وسافر كلاهما حتى وصلا إلى قرية قريبة من الرمل يعيش فيها ناسك على صلة برالدى إيساك ، وقصدا إلى ذلك الناسك الذى رحب بهما دون أن يعرف شخصيتهما . وفى أثناء الحديث الذى جرى بين ثلاثتهم قال الناسك : « أن الذى إيساك رئيس كتبة دار الولاية فى حزن واضطراب نفسى منذ اليوم الذى اختفى فيه ابنهما ، . وعندها أعلماه بحقيقة أمرهما . ثم رجا منه إيساك أن يرسل فى طلب شماس قريب له اسمه فيلوثيوس يقطن على مقربة منهم . وما أن أبصر فيلوثيوس إيساك حتى عانق كل منهما الآخر فى محبة وشوق . ثم تبادلوا الحديث عما جرى لكل منهما خلال الشهور الستة التى انقضت منذ اليوم الذى لجأ فيه إيساك إلى برية شيهيت . وبعد ذلك رجا إيساك من فيلوثيوس أن يذهب إلى والديه ويطلعهما على حقيقة تنسكه ويأخذ منهما وعداً بأن يتركاه ليعيش حسب الدعوة التى دعى إليها . فإن وعدا بذلك جاء بهما إليه . فنفذ فيلوثيوس طلب إيساك . وكانت الأيام عملت عملها فى تهدئة نفسى أبى إيساك وأمه فقبلا مشورة فيلوثيوس الذى صحبهما أساعته إلى حيث يقيم ابنيهما مع الشيخين اللقورين . وحين رأياه فرحا به فرحاً عظيماً ، وامتلأت نفساهما هدوء وغبطة فقصيا معه بضعة أيام ثم ودعاه برضى وسكينة .

٣٨٩- وكان إيساك كغيره من الشبان الذين اضطربت قلوبهم بنار المحبة الالهية يقصدون إلى الأديرة لا للتشف والتأمل فحسب ، بل لكى يرتشفوا فيها ما يروى ظمأهم إلى العلوم الدينية والمدنية أيضاً . إذ أنه من الواضح لكل من يطالع سيرة الأنبا إيساك أن الكنيسة المصرية وجهت اهتمامها الخاص إلى العلوم المختلفة سواء أكانت روحية أو دنيوية ، وأن العلوم التى كانت تقدمها الكنيسة لجميع طلاب العلم إذ ذاك كانت كافية لأن تؤهلهم لأسمى المناصب الكنسية والحكومية . بل أن الكنيسة كانت وقتذاك مهيمنة على المدارس ومناهج التعليم . وكانت المدارس عديدة منتشرة فى جميع بلاد القطر المصرى، وقد وجه المسؤولون عن التعليم عناية كبرى إلى اللغات فلم يكتفوا

بتعليم اللغة للقبطية بل كانوا يعلمونهم إلى جانبها الهيروغليفية والسريانية واليونانية . كذلك اهتموا الاهتمام كله بفن الكتابة الذى كان له منذ أقدم العصور تقديراً خاصاً فى نظر المصريين ، إذ أن الكاتب كان فناناً فى تقديرهم : فهو لم يكن مجرد ناقل لما كتبه الأولون ، وإنما كان يزين ما يكتبه بالرسوم والصور ، وكان أحياناً يؤلف الشيء الجديد . وللشواهد كلها تشير إلى أن هذا الفن الذى جمع بين الكتابة والزخرفة كان من الفنون التى نمت وترعرعت داخل الأديرة ، وأن غالبية الكتاب (إن لم يكونوا كلهم) كانوا من الرهبان . وهكذا شجعت الكنيسة أصحاب الموهب المختلفة بأن قدمت لهم الفرص لاستغلالها : فهرج إلى المنابر الكنسية وإلى الأديرة كل من أحس فى داخله برغبة فى الاستزادة من العلوم والفنون (١) . ومن هؤلاء الشباب كان الأطباء والمعلمون والمشرعون وغيرهم من قادة الفكر فى مصر .

٣٩٠- ولقد كانت للعلوم المختلفة تدرس فى الأديرة لغرض هام هو صقل الرهبان وتهيئتهم للخدمة . فلم يكن اعتزالهم للعالم غاية فى حد ذاته ولكنه كان وسيلة مثلى يقرب بها الراهب إلى الله فيسمو بنفسه عن طريق تدريبيها وأخضاعها للإرادة الإلهية لى يستطيع - خلال هذا التقرب - أن يدرك حدة الصراع الروحي الذى يقوم داخل بعض النفوس ، فيعاون هذه النفوس على

(١) تاريخ البطريرك القبطي إيساك ترجمه من القبطية إلى الفرنسية للمستشرق أميليو طبع فى باريس سنة ١٨٩٠ من ١٢ - ١٥ حيث يقرئ على من ١٥ ما نصه :

" Un fait qui ressort avec évidence de la ' Vie d'Isaac ' c'est l'amour que l'Eglise Copte avait conservé pour l'instruction ... l'instruction et la science qu'elle donnait, petite ou grande étaient regardées comme la plus belle ornement d'une existence égyptienne, civile ou monacale, et comme le plus sur moyen d'arriver aux honneurs ... on cultivait avec amour ce bel art d'écrire et que l'on traçait d'un calame aussi sur qu'élégant ces pages qui font encore notre admiration ... " .
 وترجمته كما يلى : : هناك حقيقة تدور يوضح من (حياة إيساك) . " .
 هي الحب الذى نكهه الكنيسة القبطية للمعرفة ... وكان التعليم والعلم الذى تقدمه - أرى أو عال - أجمل معزلات للحياة المصرية المنحبة أو الرهبانية ، ولتجج وسيلة لبلوغ مراتب المجد ... وكانوا يبدون التقدير والمحبة لهذا الفن الجميل - فن الكتابة ، ويخطون بقلم أكيد رقيق تلك السطور التى لا تزال موضع إعجابنا حتى الآن .

الانتصار فى هذا الصراع . كذلك كان الرهبان عارفين بكل ما يدور فى العالم من أحداث سياسية فكانوا يكرسون جزء كبيراً من عبادتهم للصلاة من أجل اخوتهم الذين يقيمون فى العالم . وهكذا كانت الحياة النسكية وسيلة لخدمة الناس - سواء بالخدمة الفعلية أو بالصلوات المتأججة المستمرة .

٣٩١- وقد عاش ايساك فى هدوء وسلام تحت رعاية زكريا رئيس الدير وأبيه الروحى . وكما خدم يشوع موسى فى قديم الزمان (١) . كذلك خدم ايساك زكريا بأمانة واخلاص قلبى . وكان ايساك ساهراً مصلياً بكل دعة وأمانة إلى حد أن الله تعالى منحه نعمة اجتذاب الآخرين إلى السيد المسيح : كذلك عاهد نفسه على أن يتفانى فى خدمة اخوته الرهبان . وحدث أن خرج ذات يوم مع بعض أقرانه النساك ليجمعوا قليلاً من الحطب الضرورى لتدفئتهم ولطهى طعامهم . فلما جمعوا ما يريدون واتجهوا نحو الدير ، تأخر ايساك عنهم ليجمع بعض الأزهار ذات الرائحة الزكية لينعش بها نفوس اخوته . وبينما هو يمد يده ليقطف الزهور إذ يثعبان ينقض على ذراعه اليمنى فذعر الاخوة وصرخوا . ولكنه نفذ الثعبان ورسم ذراعه بعلامة الصليب . وجمع كل ما يريد من الأزهار ثم عاد إلى الدير مع الاخوة الذين انتظروه . وكأن شيئاً لم يصبه على الاطلاق . فأعطى الرهبان المجد لله الذى يتمم مواعيده لقدسيه (٢) .

٣٩٢- وحدث أن الأب الوقور البابا يؤنس الثالث كان يريد راهباً يتخذه سكرتيراً له . فأشار عليه بعض المؤمنين بأن يرسل فى طلب الراهب ايساك ، فأرسل فى طلبه على الفور . وحين مثل الراهب بين يدى باباه وعرف منه أنه يريد كتابة خطاب ، توهم أنه يستطيع التعمية عليه فيجعله يعود إلى الدير ثانية . فتعمد أن يكتب الخطاب بصورة غير مرضية . وتفرس الأنبا يؤنس الثالث فى الخطاب ثم تفرس فى وجه ايساك بضع ثوان قال له بعدها : صحيح إن الخطاب مكتوب بصيغة ناقصة ولكنى سأخذك سكرتيراً لى رغم

(١) خروج ٢٤ : ١٣ ، ٣٢ : ١٧ ، ٣٣ : ١١ .

(٢) مزمور ٩١ : ١٣ ، لوقا ١٠ : ١٩ ، أعمال ٢٨ : ١ - ٦ .

ذلك . واضطرب ايساك لهذه الملحوظة ، وانسحب فى سكون من حضرة باباه وأعاد كتابة الخطاب بأحسن ما يستطيعه من فن . ثم عاد ومعه الخطاب مكتوب ثانية . وما أن وقعت عيناً الأنبا يونس الثالث على الخطاب الثانى حتى تهلك وجهه فرحاً وقال : : لقد سمعت عن مهارتك ولكن الحقيقة فاقّت الوصف فأنت بحق الرجل الذى يصلح لمعاونتى فى ما أقوم به من عمل راعى . وارتمى الشعور بالخيبة على وجه ايساك . وتأمله البابا الاسكندرى فى رفق وقد أدرك أن الشاب المائل أمامه يهوى الحياة النسكية ويرغب فى العودة إلى الدير . فقال له فى حنان أبوى : : أبى معى شهراً لتكتب لى الرسالة القصصية . وأعدك بالسماح لك فى العودة إلى الدير بعد ذلك .

٣٩٣- وقبل هذه الفترة كان زكريا رئيس دير الأنبا مكارى الكبير قد انتخب أسقفاً على سايس ، وظل يخدم شعبه إلى أن أصيب بمرض أدرك معه أن نهايته قد اقتربت . فذهب إلى الدير . وظن أبناء ايارشيتيه أنه قصد إلى الصحراء ليسترجع صحته ويعود إليهم . وقد لحق ايساك برئيسه الذى كان يبادلُه محبة صادقة إذ أن الأنبا يونس الثالث برّ له بوعده وسمح له بالعودة إلى ديره . وهناك خدم الأنبا زكريا خدمة الابن البار لأبيه الحبيب . وحين دنت ساعة انتقال الأنبا زكريا إلى بيعة الأبقار جمع الرهبان حوله وأخذ يحثهم على التمسك بالمحبة التى هى رباط الكمال . ثم التفت إلى ايساك وقال له : : يا بنى - إذا ما نلت الكرامة فأذكر اخوتك الرهبان . . وكان الأسقف يشير بكلماته هذه إلى أن تلميذه سينال كرامة الباباوية المرقسية . ولو أن المحيطين به يومذاك لم يدركوا معناها . وبعد أن أكمل زكريا وصيته لأبنائه الرهبان استودع روحه يدى الآب السماوى . فأقام الاخوة الصلوات الخاصة بمن نال كرامة الأسقفية ثم استقر قرارهم على انتخاب ايساك خليفة له على رياسة الدير .

٣٩٤- على أن أيام رياسته لم تدم غير بضعة شهور . لأن الأنبا يونس الثالث كان قد أحس بدوره أن أيام غريته على الأرض قد أذنت بالانتهاء . فتضرع إلى الله تعالى أن يكشف له عن شخصية ذاك الذى سيخلفه على السدة المرقسية . فأعلمه ملاك الرب بأنه ايساك . وعندها أرسل إلى الدير

يطلبه للحضور إلى الدار البابوية فوراً . فأطاع من غير تردد . ولقد استيقاه
الأنبا يونس الثالث إلى جانبه هذه المرة بأن اتخذه سكرتيراً خاصاً وعهد إليه
بإدارة الشؤون الكنسية .

٣٩٥- وكان عبد العزيز بن مروان لا يزال والياً على مصر كما كان
لا يزال حافظاً لعهد المودة والتقدير للأنبا يونس الثالث . وقد تهل قلب ايساك
حين رأى علامات هذه المودة لأن البابا الاسكندري كان يستصحبه كلما ذهب
لزيرة الأمير ، وكلما دعاه الأمير لتبادل الرأي معه . فكان ايساك يرى بعينه
ويسمع بأذنيه ما يبديه عبد العزيز من اكرام ولجلال لخليفة مارمرقس . وقد
كانت ثقة الأنبا يونس الثالث بايساك واستصحابه إياه في شتى المناسبات
واعتماده عليه في كل الأمور : كل هذه كانت الوسائل التي استعان بها ليمهد
السبيل أمام سكرتيه لارتقاء السدة المرقسية وليجعله مستعداً لتأدية مهام
الرعاية حين ينال كرامة الرياسة الكهنوتية بالفعل . على أن هذا الاعداد لم
يدم غير بضعة أشهر انضم بعدها الأنبا يونس الثالث إلى مصاف القديسين .

٣٩٦- وكان في الفساطط إذ ذاك شماس معروف اسمه جاورجيوس ، زعم
بأنه خير من يخلف الأنبا يونس الثالث . فلجأ إلى التملق واستخدام العبارات
المعمولة لبلوغ هذه الغاية ، واستطاع بذلك أن يستميل إلى جانبه بعض
الأساقفة .

وفي تلك الأثناء تجمع الأساقفة والأراخنة في بابلون للتشاور في من
يخلف باباهم الراحل . فاجتمعوا في كنيسة القديس سرجيوس (المعروفة بأبي
سرجة) . وأخذوا في صلاة استدعاء الروح القدس . وكان ايساك منفرداً في
زاوية بتلك الكنيسة . وحدث أثناء الصلاة أن انكسر القنديل المعلق في تلك
الزاوية فانسكب ما فيه من زيت فوق رأس ايساك . وما كاد المجتمعون يرون
ذلك حتى صاحوا بصوت واحد : « أكسيوس (١) » . لقد نزل عليه الدهن الذي
نزل على رأس هرون (٢) للكهان » .

(١) كلمة يونانية - قبطية معناها مسح .

(٢) لفظ خروج ٢٩ : ٧ .

وفى اليوم التالي قصد الأساقفة والكهنة وأراخنة الشعب إلى دار الولاية وأخبروا عبد العزيز وإلى مصر برغبتهم فى انتخاب ايساك سكرتير صديقه الراحل الأنبا يؤنس الثالث للرياسة الكهنوتية العليا .

٣٩٧- وكان الموالون للشماس جاورجيوس قد سبقوا فذهبوا إلى دار الولاية حيث قابلوا عبد العزيز وغالوا فى مدح مرشحهم لديه حتى كاد أن يجاريهم الرأى . فلما قابله مناصرو ايساك وأعلموه برغبتهم طلب إلى كل من الفريقين أن يحضر مرشحه ليرى الاثنين بعينه . فسارع الفريقان إلى تلبية طلبه . ولما مثل المرشحان أمام عبد العزيز وجد أن جاورجيوس وجيه الشكل أنيق الملبس ، بينما كان ايساك على عكسه . فدهش من أن الأغلبية تساند ايساك . وسأل والدهشة بادية على وجهه وفى نبرات صوته : « كيف تقضون رجلاً ليس عليه مسحة من الوجاهة على رجل غاية فى الوجاهة ؟ » ، أجابوه فى ثقة وتوكيد : « إن الله الذى يصطفى أنبياءه قد اصطفاه . وهو تعالى حين يصطفى رجاله ينظر إلى قلوبهم لا إلى وجاهتهم » . وقد أمن عبد العزيز على هذا القول وهذا الأساقفة والأراخنة الذين أبدوا تقديرهم للقيمة الشخصية دون أن يؤخذوا بالظواهر . ثم هنا الراهب ايساك بالثقة التى نالها .

٣٩٨- ولقد فرح الشعب لتحقيق رغبته فى انتخاب ايساك ، ورأى أن يبدى فرحه علانية . فنظم موكباً رائعاً أشبه بمواكب النصر احتاط به من كل ناحية وسار معه من بابلون إلى الاسكندرية . وفى تلك المدينة العظمى التى هى عاصمة الخلافة المرقسية اتصفت جموع المؤمنين إلى الموكب الآتى من بابلون : فسار الكهنة يحملون المجامر فى المقدمة ، بينما رفع الشمامسة الصلبان عالية يتبعهم جمهور الشعب حاملين الشموع الموقدة . وأخذ الجميع يترنمون بالمزامير والتسابيح إلى أن وصلوا إلى كنيسة مارمرقس حيث أقيم الاحتفال برسمته فأصبح البابا الحادى والأربعين من باباوات الاسكندرية سنة ٦٨١ م (١) .

(١) تاريخ البطريك للقطي ايساك ترجمه من المخطوط للقطي إلى الفرنسية للمستشرق أميلير ، طبع فى باريس سنة ١٨٩٠ من ٥٠ - ٥٢ .

٣٩٩- وقد لبس الأنبا إيساك قوة من الأعلى فعما ، على نشر العقيدة الأرثوذكسية بين أفراد الرعية وحثهم على التمسك بها والذود عنها أسوة بآبائه العظام أنثاسيوس وكيرلس وديسقورس فكانت حياته رسالة حياة مقروءة من جميع الناس . وتهلل المؤمنون بفرح روحى إذ اشتموا فيه رائحة المسيح الزكية .

٤٠٠- وكان الوالى عبد العزيز حافظاً لعهد الوفاء فظل على تقديره للأنبا إيساك كما كان يقدر الأنبا يؤنس من قبل . ذلك أن هذا الوالى كان سليل أسرة امتازت بالعدل والنزاهة فقد كان أخوه عبد الملك يتق بالناصرى إلى درجة أنه استخدمهم فى المسجد الأقصى وسمح لهم بقبولث الخدمة فيه (١) . على أن عدو الخير لم يرقه هذا التآلف بين الوالى والبابا ، كما لم ترقه الألفة بين الراعى والرعية ، فأخذ يوسوس فى صدر أنثاسيوس بالشر ، وكان هذا كاتباً من اثنتين عينهما عبد العزيز فى ديوانه . فلم يلبث أنثاسيوس أن أبدى من الجفاء نحو باباه ما ملأ قلوب المخلصين أسى وألماً . وحزن الأنبا إيساك لهذا العقوق المفاجئ فأخذ يصلى ليل نهار ضارعاً إلى الآب السماوى أن يحن قلب عبده أنثاسيوس ويحيله قلباً ليناً من جديد .

وحدث بعد ذلك بشهور قليلة أن مرض الابن الأكبر لأنثاسيوس مرضاً خطيراً حتى قارب الموت . وكان البابا الاسكندرى لا يزال مداوماً على الصلاة لأجل هذا الكاتب . فظهر له ملاك الرب فى حلم وقال له : « إن أنت أقتعت أنثاسيوس بالوثوق من شفاعتك فإن الله تعالى سيمنح ابنه الشفاء والعافية » . فلما أصبح الصباح أخذ الأنبا إيساك يفكر ملياً فى الحلم الذى رآه . ثم نادى شماسه الخاص وسأله : « أ يوجد أحد من الأساقفة فى الاسكندرية ، أجابه الشماس : « نعم يا أبى البجيل ، إن فيها ثلاثة أساقفة الآن هم : الأنبا جاورجيوس والأنبا غريغوريوس والأنبا بيامون أسقف دمياط ، قال له البابا : « اذن فاذهب ونادهم ، فلما مثل ثلاثهم بين يدى البابا الجليل أعلمهم بالحلم

(١) تاريخ القس لطرف باشا المعارف بدار المعارف بمصر سنة ١٩٥١ من ٥٢ .

الذى رآه . ولكنه ما كاد ينتهى من سرده حتى ابتدره الأنبا غريغوريوس بقوله : « أنت تعرف يا سيدى البابا أن قلب أنثاسيوس قد تحول عنك بصورة غير طبيعية . كما أننا لا نعرف بعد إن كان الحلم الذى رأيته هو من الله أم أن عدو الخير قد تراءى لك ليسى إلى سمعتك » . فاقسم الأنبا ايساك فى هدوء وسلط وجهه باللعمة وقال فى ثقة الرجل الذى يعرف أن الصلة بينه وبين ربه متينة : « أنا عارف أن ملاك الرب قد جاءنى بهذا الحلم ، وموقن بأنه أمر صادر من أبى القديس مرقس كاروز بلادنا المحبوبة » . ولم يسع الأساقفة الثلاثة بازاء هذه الثقة التامة إلا أن يذهبوا على الفور إلى دار الكاتب أنثاسيوس . وحين دخلوا إليه وجدوه يذرف الدموع السخينة لأن ابنه قد بلغ آخر مراحل الخطر . فأطلعوه على رسالة الأنبا ايساك . ولم يكذب سمعها حتى نادى على زوجته وركع كلاهما أمام الأساقفة صارعين إليهم أن يسرعوا فى العودة إلى البابا الجليل ويستعطفوه من أجلهما وعاد الأساقفة لساعتهم إلى الدار البابوية حيث قصوا على خليفة مارمرقس كل ما جرى . وما أن سمع كلماتهم حتى خرج معهم قاصداً إلى دار أنثاسيوس . ولما وصلها دخل على الفور إلى حجرة الشاب المريض ووضع يده على رأسه ، وأخذ يصلى فى حرارة وقوة . ولم يكذب ينتهى من صلاته ويقول : « آمين » حتى قام الشاب من سريره معتكاً صحة وحيوراً وكأنه لم يمرض ساعة واحدة . فأمر الأنبا ايساك أن يؤتى بالطعام لذلك الذى كان مشرفاً على الموت . فجاءوا له بالطعام ، فأكل وشبع ، ومجد الله . وقد شاركه أبواه فى تسميح الله تعالى ، كما رفع البابا الاسكندري والأساقفة صلاة الشكر للآب السماوى على تحننه بخليقته .

٤٠١- ومنذ تلك اللحظة أعلن الكاتب أنثاسيوس ولاءه جهاراً للأنبا ايساك ، وظل طيلة حياته وفياً له . فانتهز هذا البابا الجليل الفرصة السعيدة وأبدى رغبته أمام أنثاسيوس فى أن يرى كنيسة « الايفانجليون » (١) مبنية مرة أخرى حيث كانت قبل دمارها . فسارع أنثاسيوس إلى تحقيق رغبة باباه المحبوب ، وبنى الكنيسة من جديد وزينها بالرسوم الفنية البديعة .

(١) كلمة يونانية - قبطية معهما « اليسيون » .

٤٠٢- وحدث أن دعا عبد العزيز الأنبا إيساك ليقضى فى قصره بحلول بضعة أيام . فلبى الدعوة . وفى ثانى يوم الضيافة قالت زوجة عبد العزيز له بأن رائحة البخور تنبعث من الغرفة المخصصة للبابا الاسكندرى . فأجابها بأن الرجل من أصفياء الله ، فلا غرابة فى أن تعبق الغرفة التى يأوى إليها برائحة البخور (١) . وازداد تقديره لهذا البابا إلى حد أنه رجا منه أن يشيد فى حلوان عدداً من الكنائس والأديرة (٢) .

ولقد استجاب الأنبا إيساك وشعبه لهذا الرجاء الصادر من عبد العزيز إليهم ، ووجدوا فى رجائه هذا نعمة من نعم الله العديدة عليهم . فأخذوا يصرفون الجهد والمال وي بذلون كل ما لديهم من فن ليجعلوا من كنائسهم وأديرتهم آيات فنية رائعة . وقد زادهم رغبة فى ما يعملون ما وجده من قيام عبد العزيز بتجميل حلوان بالحدائق الواسعة والأشجار الباسقة .

٤٠٣- على أن الأيام كانت تمر سراعاً . فلم يكد الأنبا إيساك يكرس الكنائس والأديرة الجديدة ويشعر بفيض من الغبطة يغمر نفسه لما أسبغه عليه الآب السماوى من عطف حتى شعر بالمرض يدب إلى جسمه . وبدا ألمه على وجهه فامتألاً عبد العزيز قلقاً لما رآه وسأله عما به . فأجابهُ الأنبا إيساك : « لقد أصابنى المرض فأرجو أن تعفينى من البقاء فى حلوان لأننى أريد العودة إلى الاسكندرية » . فحزن الوالى لهذا النبأ وأمر باعداد سفينة كاملة المعدات لتحمل

(١) حدث فى منتصف سنة ١٩٤٥ أن تشغلت مع الأستاذ حبيب جورجى وغيره من المربين فى نقل بعض القصص المتعلقة بأباء الكنيسة القبطية لطبعها كى يستعملها تلاميذ المدارس التابعة لجمعية السيدات القبطية لجمعية الطفولة . ولحدى هذه القصص كانت خاصة بالأنبا أنطاسيوس الرسولى . وكما كانت دهشتنا عظيمة حين شعثنا رائحة البخور كل مرة كنا نقرأ قصة حامى الايمان القويم . والعجيب أن رائحة البخور هذه كنا نشمها حينما اجتمعنا : فمرة كنا فى بيت حبيب جورجى ومرة فى بيتنا ومرة فى بيت المريية الفاضلة الأنسة أميلى عبد المسيح وكانت هذه الظاهرة للعجيب تتكرر كلما كنا نقرأ القصة الخاصة بالأناسيوس الرسولى ، فكانت بذلك أشبه بالحلقة التى قال فيها السيد المسيح لثوما : هات اصبعك إلى هنا ولبصر يدى ... (يوحنا ٢٠ : ٢٧) .

(٢) : تاريخ البطريرك القبطى إيساك : ترجمه عن المخطوطة القبطية إلى الفرنسية للمستشرق أميلينو طبع فى باريس سنة ١٨٩٠ من ٦١ - ٦٣ .

الأنبيا إيساك إلى عاصمة الكرازة المرقسية . فلما سمع الأساقفة بالأمر سارعوا إلى الاسكندرية يصحبهم عدد غير قليل من رهبان برية شيهيت . وأحاط به الجميع . وخدموه في ولاء وسكينة إلى أن استرجع الرب الإله وديعته . فرقد جسده في الأرض بينما صعدت روحه إلى خالقها . وإتنا نؤمن بأن القديسين قد سارعوا لاستقباله : الرسل والشهداء ، البطارقة والآباء ، قد رحبوا به . فليمنحنا الله جميعاً أن نجد رحمة بصلواته وصلواتهم جميعاً بالمسيح يسوع ربنا الذى يليق به مع أبيه الصالح والروح القدس المجد والاكرام من الآن وإلى دهر الداهرين كلها آمين (١) .



٤٠٤- ميل الأنبا زكريا يدفعه إلى الرهبنة ثم إلى الكتابة في الروحيات

٤٠٤- ومن بين الآباء الذين عاونوا الأنبا إيساك في جهاده الروحي الأنبا زكريا أسقف سايس . وكل ما يعرفه التاريخ الكنسى حتى الآن عن هذا الأسقف الجليل هو أنه كان ابن كاهن يدعى يونس . ومع أن يونس هذا كان كاهناً إلا أنه كان كاتباً في ديوان الوالى أيضاً . وكان ابنه زكريا كثير التأمل في الالهيات ، فمال بكل حرارة شبابه إلى الحياة الرهبانية . ولم تكن وظيفة أبيه العالمية كافية لأن تجتذبه إلى العالم لعله هو أيضاً يظفر بمثلها ، لأنه سارع إلى الفرار في دير الأنبا يونس القصير . وهناك قابل شيخين من أصفى أصفياء الله تعالى هما الأنبا أبرام والأنبا جاورجيوس الناسكان اللذان ملأ عيبر قداستهما أرجاء الوادى . ولا يعرف للآن كم من السنين قضاها زكريا في الدير، ولكن المعروف أنه اختير لأسقفية سايس ، وأنه قضى فيها ثلاثين سنة

(١) للاطلاع على تفاصيل سيرة الأنبا إيساك راجع تاريخه المترجم إلى الفرنسية عن المخطوط القبطى بقلم المستشرق أميليو ، المطبوع في باريس سنة ١٨٩٠ ويقع في ثمانين صفحة . وأورد المترجم في ختام السيرة الكلمة التالية : « والآن يرقد جسده في الأرض وتقيم روحه في السماء » . ثم يعلق على هذه الجملة على ص ١٩ (XIX) بما ترجمته : « إن هذه الكلمات هي بعينها التى سجلها قداماء المصريين في قبورهم » ، وهى محفورة على عدد عديد من توابيتهم . وليس هناك مخطوط واحد لا يحمل شيئاً من قرائت القديم انتقل إلى للعصور المسيحية والحديثة .

معلماً ومرشداً لشعبه في دعة وأمانة . ثم كتب سيرة الأنبا يونس القصير ليجد فيها المؤمنون بركة وعزاء ، اعتزلاً منه بفصل ذلك للقديس الذي تهرب هو في ديريه واقتفى أثره . كذلك كتب عدداً من المقالات والميامر التي تعبر عن اندفاع النفس الانسانية المتطلعة نحو الله (١) .



(١) تاريخ القديس الأنبا يوحنا القسبر للقمص ميصانيل بحر ، طبع في القاهرة سنة ١٩٥٧ ص ٢١ ، ويذكر دكتور منير شكرى في رسالة مارمينا السادسة المطبوعة في الاسكندرية سنة ١٩٦٢ عن : أديرة وادى النطرون ، بأن هذا الأسقف كان الابن الروحي للايغومانس يونس رئيس أديرة الأنبا مكاري الكبير وأنه رسم أسقفاً في بابارية الأنبا يونس الثالث - راجع الكتاب المذكور ص ١٩٤ - وهناك أسقف آخر باسم زكريا رسم في عهد الأنبا سيمون على سخا واشتهر بكتابهاته الكثيرة . وبعض هذه الكتابات لا يزال موجوداً لأن ولو أنه غير متداول يتضمن عظمتين : احدهما عن : دخول السيد المسيح اورشليم وثانيتهما عن توبة أهل تيلوى كما يتضمن سيرتين هما سيرتا ابرآم وجاورجيوس - راجع الكتاب عنه ص ١٩٦ - وبذلك يكن هناك أسقفان متعاصران باسم زكريا وقد كتب كل منهما سيراً لبعض القديسين . ومع الأسف إن شيئاً من كتابة هذين الأسقفين لم يطبع لأن .

راع من المشرق

- (٤٠٥) تبادل الرأي لانتخاب البابا الاسكندري .
- (٤٠٦) تحول الأنظار إلى الراهب سيمون بدلا من يونس أبيه الروحي .
- (٤٠٧) سيمون سرياني المولد مصري النشأة .
- (٤٠٨) المحبة المسيحية تربط بين الأنبا سيمون وأبيه الروحي .
- (٤٠٩) رسالة الشركة .
- (٤١٠) مجمع د ان تروثو ، يحضره الأسقف الدخيل .
- (٤١١) هذا المجمع يتجاهل البابا الاسكندري الشرعي مع استناده إلى تعاليم أسلافه الأجلاء .
- (٤١٢) حادث مؤلم ينتهي بسلام يتعلق برسامة أسقف هندي .
- (٤١٣) الصنائع المصريون يبنون الترسانة البحرية في تونس .
- (٤١٤) عناية الأنبا سيمون باختيار الأساقفة .
- (٤١٥) زيارته لأديرة وادي النطرون ثم فياحته .

٤٠٥- وحدث بعد انتقال الأنبا ايساك إلى بيعة الأبرار أن قام جدال بين كهنة الكنيسة المرقسية وكهنة كنيسة الايفانجليون (بالاسكندرية أيضا) على من يخلف البابا الراحل على السدة المرقسية . فزكى الفريق الأول الراهب يونس رئيس دير الزجاج ، بينما زكى الفريق الثاني راهبا اسمه بقطر (فكتور) . وكان في ديوان الأمير وقتذاك عند من الكتبة القبط تشيَعوا ليونس غير أن الفريقين اتفقا على التشاور معاً لخير الكنيسة مفضلين الشورى على التشيبت بالرأى الفردى . فاجتمعوا بالفعل ، وتبادلا الرأي ، واتفقت كلمتهم على أن يونس أحق بهذه الكرامة الكهنوتية العظمى .

ولما استقر رأيهم على هذا الراهب غادروا الاسكندرية قاصدين إلى القسطنطينية لكي يعلموا أمير البلاد بقرارهم . فما أن وقع نظر عبد العزيز على الراهب يونس حتى أبدى ارتياحه لهذا الانتخاب لما بدا على وجه يونس من وجاهة وجلال .

٤٠٦- وبينما كان الأمير يتحدث إلى الأساقفة وإلى من اختاروه للخلافة

المرفسية حدث ما لم يكن فى الحساب ، إذ وقف أسقف - كان الوحيد فى أن يشذ عن الاجتماع على انتخاب يونس - وقال بلا تردد : « إن الراهب اللائق لهذه الكرامة هو سيمون ، وسأله الأمير : « ومن هو سيمون ؟ ، فأشار الأسقف إلى راهب جالس بجواره . وهنا قال الباكون : « إن الراهب سيمون سريانى الأصل ، - فبدت الدهشة على وجه أمير البلاد وتساءل : « أليس من الأفضل أن يكون باباكم مصرياً ؟ ، أجابه الأساقفة بصوت واحد : « نعم . ذلك أفضل وقد وقع اختيارنا على يونس ، وهو مصرى صميم ، . وعندها تفرس عبد العزيز فى سيمون كأنما يريد أن يستطلع رأيه . وفهم الراهب سيمون معنى هذه النظرة فقال دون أن ينتظر سؤالاً لفظياً من الأمير : « إن يونس هو أبى الروحى ، وهو أولى بهذه الرعايا العليا . ولنى أقرر بأنه كالملائكة طهراً ، وقد علمنى كل ما أعرفه من العلوم الروحية ، . فكان لهذا الجواب رد فعل عجيب للغاية ، هو أنه ملأ الجميع إعجاباً بالراهب سيمون الذى تجلبى إخلاصه فى كلماته . فقالوا باتفاق واحد : « إن سيمون بالحقيقة أهل لهذه الكرامة ، . ودهش الأمير لهذا التغير المفاجئ وتفرس فى وجوه المجتمعين حوله واحداً واحداً دون أن يفقه بكلمة إذ لم يكن يملك حق المعارضة . ثم قال لهم : « أنتم أصحاب رأى فى هذا الموضوع وليس لى إلا أن أقر رأيكم الذى تقررونه فأفعلوا ما يحلو فى أعينكم ، .

٤٠٧- وكان سيمون هذا سريانى المولد جاء به أبواه وهو بعد فى سن الصبا إلى الاسكندرية ، وقدماه لخدمة الهيكل كما قدمت حنة ابنها صموئيل لخدمة هيكل النطق وكان السبب الذى حدا بهما إلى تقديم ابنهما لخدمة الكنيسة فى مصر - لا فى بلادهما - أن ساريس أسقف أنطاكية كان قد لجأ إلى بلادنا المصرية هرباً من بطش الامبراطور يوستينيان . ومع أنه كان قد انقضى ما يزيد على قرن من الزمان منذ أن انتقل هذا الأسقف الأنطاكى إلى الأختار السماوية إلا أن السريان ظلوا متعلقين بمصر يحبون المجئ إليها لزيارة قبر أسقفهم المعترف الذى لاقى النفى فى سبيل الايمان الأرثوذكسى ، ولاقى العزاء بإقامته بين من يشاركونه هذا الايمان الغالى . وكان سيمون قد نال رتبة الشماسية حين جاء إلى الاسكندرية ، فسلمه أبواه إلى الأنبا أغاثون البابا

الاسكندري إذ ذاك ، فعنى به كل العناية . وحين رأى منه ميلاً إلى النسك وإلى الاستزادة من العلوم الروحية والمدنية أرسله إلى دير الزجاج حيث قضى بضع سنين . وقد استطاع سيمون أن يستظهر معظم الأسفار الالهية بعهديهما القديم والحديث . ولما زار الأنبا أغاثون الدير ووقف على ما أحرزه سيمون من معرفة ، وما قام به من جهاد ، رسمه قسيساً . ثم انتخبه الرهبان وكيلاً لديرهم تقديراً منهم له . فبادلهم محبة بمحبة وتفانى فى خدمتهم مقابل الثقة التى أولوه إياها ، كما ظل مطيعاً لرئيسه يؤنس بكل دعة ورضا . فلما جاء مندوبير الأساقفة والأراخنة إلى دير الزجاج ليصبحوا يؤنس رئيسه إلى الفسقاط بقصد تنصيبه خليفة للقديس مرقس صاحبهم سيمون حباً فى رئيسه واغتراباً برويته جالساً على كرسي مارمرقس . إلا أن تفانيه فى محبة رئيسه أدى إلى أن ينال هو شخصياً هذه الكرامة العظمى . وهكذا أصبح البابا الاسكندري الثانى والأربعين سنة ٦٨٤ م (سنة ٤٠٠ ش) .

٤٠٨- على أن الكرامة التى نالها الأنبا سيمون لم تغيّر من طبيعته ، فظل ودعياً محباً لرئيسه يؤنس مخلصاً له الاخلاص كله حتى لقد عهد إليه بإدارة الشؤون الكنسية كما لو كان هو الجالس على السدة المرقسية . وظل الأنبا سيمون يشعر بالطمأنينة وثقاً من حسن إدارة معلمه ، كما ظل يدعو : أباً ، إلى أن انتقل هذا الناسك الجليل إلى دار الخلود . كذلك ظل يؤنس يكرم تلميذه الذى أصبح باباه ، ويخلص فى خدمته طيلة حياته . فكان الأنبا سيمون ويؤنس أبوه الروحي صورة ناطقة بالمحبة المسيحية الحقة التى لا يشوبها حسد ولا يغيرها حدث من الأحداث .

٤٠٩- وقد استهل الأنبا سيمون أعماله الراعوية بكتابة رسالة الشركة إلى يولييانوس أسقف أنطاكية الذى فرح فرحاً روحياً باستلامها لما تضمنته من عقيدة أرثوذكسية حقة . وقد بلغ اعجاب الأسقف الأنطاكى برسالة البابا الاسكندري حداً جعله يتخذها موضوع العظة التى ألقاها فى يوم الأحد الأول بعد وقوفه عليها . ثم رد عليه برسالة ممثلة محبة واغتراباً مقررناً بهدية نفيسة .

٤١٠- وحدث في السنة الأولى لبابوية الأنبا سيمون أن خطر ببال الامبراطور يوستينيانوس أن يعقد مجمعا يعرف باسم « إن ترولو » (١) . وغنى عن القول أن البابا الاسكندري الشرعى الخليفة الحق لمارمرقس المنتخب من الشعب لم يدع لهذا المجمع ، وإنما وجهت الدعوة إلى عميل الامبراطور القسطنطينى الذى اغتصب لنفسه لقب « خليفة مارمرقس » مع كونه دخيلاً غير مرغوب فيه . ولقد سارع هذا الدخيل إلى تلبية دعوة سيده الامبراطور فغادر عاصمة الكرازة المرقسية قاصداً القسطنطينية .

٤١١- ومن المضحكات المبكيات أن هذا المجمع الذى تجاهل الأنبا سيمون البابا الاسكندري الشرعى قد أعلن في تركيد تام أن الأساس الذى تقوم عليه القوانين الكنسية هو الرسائل العقيدية التى كتبها ديونيسيوس ، وبطرس خاتمة الشهداء (٢) ، وألكسندروس ، وأثناسيوس ، وكيرلس (٣) - وهم جميعاً خلفاء مارمرقس وأسلاف البابا الاسكندري الشرعى الذى لم يوجه إليه الامبراطور يوستينيانوس الدعوة إلى المجمع ! ولم يعد المصريون يأنهون لهذا التصرف إذ قد زال عنهم الحكم البيزنطى سياسياً . ولكنهم وجدوا فيه دليلاً على أن البيزنطيين لم يتعظوا بما ألقته الحياة عليهم من دروس ، فلم يغيروا من مسلكهم رغم ما أصابهم من هزيمة أفقدتهم فى النهاية امبراطوريتهم الواسعة .

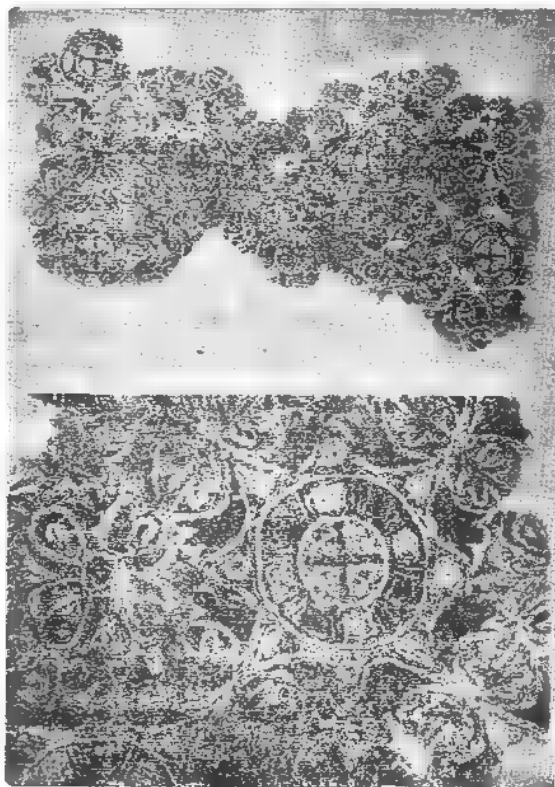
٤١٢- ولقد حدث فى هذا العصر أيضاً حدثٌ غريب خاص بالهند . فقد وصل إلى مصر فجأة وفد من الهنود ، جاء إلى الأنبا سيمون طالباً إليه أن يرسم أسقفاً للبلاد الهندية . وكانت الهند إذ ذاك (وهى لا تزال كذلك) تابعة لكرسى أنطاكية . غير أن أخطار الطريق قد اضطرت هذا الوفد إلى أن يجعل وجهته الاسكندرية بدلاً من أنطاكية . فلما مثل الوفد بين يدى الأنبا سيمون قال لرئيسه : « إن كليمتى الاسكندرية وأنطاكية متحدتان فى الإيمان

(١) سُمى هكذا لأنه انعقد تحت قبة القصر الامبراطورى .

(٢) نقيس مصر (بالفرنسية) للأب بول دورليان ج٢ ص ١٥٨ .

(٣) تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) للأرشيمندريت جوى ج٥ ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .

الأرثوذكسي ، فليس هناك ما يمنعني من رسامة الأسقف الذي تطلبونه . غير
أنى أنصحكم أن تتصلوا بأمرير البلاد المصرية لإبلاغه ما ترغبون فيه .
فغادروا الدار البابوية لتنفيذ ما طلبه منهم . إلا أن جماعة من الخلقيدونيين



قطعة رائعة من النسيج القبطي محفوظة بمتحف أشموليان
باوكسفورد (انجلترا) ترجع إلى القرن السابع

عثروا عليهم وألقوهم بالذهاب إلى أسقفهم الدخيل . فانصاعوا لرايهم وقصدوا إليه فرسم لهم أسقفاً وكاهنين . وفى الحال غادروا الديار المصرية للعودة إلى وطنهم . وفيما هم يجتازون الحدود السورية وقعوا - هم والأسقف والكاهنان فى أيدي حراس تلك الحدود فأرسلوهم موثقين إلى الخليفة مروان بدمشق . فأمر بتكبيليهم بالسلاسل الحديدية وأرسلهم إلى ابنه عبد العزيز أمير مصر وحكم الحراس رسالة توبيخ قاسية لابنه اتهمه فيها بالتقصير وعدم اليقظة . فما أن اطلع عبد العزيز على رسالة مروان أبيه حتى أمر بالقبض على الأنبا سيمون متهماً إياه بالاعتداء على سلطانه وعبثاً حاول الأنبا سيمون أن يثبت براءته لأن عبد العزيز كان متأثراً إلى حد بعيد بما آلمه من توبيخ أبيه له . فلما أعوزت البابا الاسكندرى الحجة طلب مهلة لثلاثة أيام لعله يستطيع بعدها أن يأتى بالدليل القاطع على أنه برئ من التهمة الموجهة إليه . فعلمه عبد العزيز المهلة المطلوبة ، وانصرف الأنبا سيمون إلى الدار البابوية حيث انقطع للصلاة ضارعاً إلى الآب السماوى أن يسارع إلى نجدة .

وفى اليوم الثالث - وكان الأنبا سيمون لا يزال غارقاً فى تضرعاته - إذ به يرى سكرتيره مهرولاً إليه ومعه رجل غريب ، تبيته فإذا به أحد أعضاء الوفد الهندى الذى كان قد قابله . وكان هذا الرجل قد تمكن من الهرب من السجن الذى اعتقل فيه هو وزملاءه ، ولم يجد أمامه من يلجأ إليه لحمايته من الاعتقال مرة ثانية غير البابا الاسكندرى . فرحب به الأنبا سيمون ، وبدد مخاوفه ، ثم صحبه إلى دار الولاية . وهناك قابلا عبد العزيز ، وقص عليه الهندى كل ما جرى بينهم وبين البابا الاسكندرى أولاً ثم انخداعهم بعد ذلك بحديث الخلفيدونيين . وأسف الأمير لما بدر منه نحو الأنبا سيمون أسفاً بالغاً ، فلم يكف بالاعتذار له علناً ، بل أذن له أيضاً أن يبنى كنيستين جديدتين بحلول كذلك أمر بالافراج عن الهنود المعتقلين والسماح لهم بالعودة إلى بلادهم . وحين سمع القبط عن أذن عبد العزيز لهم ببناء الكنيستين ، مجدوا الله أولاً ثم صارعوا بعد ذلك إلى جمع المال اللازم لبنائهما وتزيينهما بما يليق من كرامة لبيوت الله . وكان المشرف على هذا العمل هو الأنبا غريغوريوس

أسقف القيس الذى أنابه البابا الاسكندرى عنه فى مراقبة البناء ليتفرغ هو إلى تفقد رعيته .

٤١٣- ولقد كانت مهارة الصناع المصريين فى مختلف الصناعات لا تزال حقيقة مشهوداً لها من جميع الشعوب . فيروى التقليد أن نجاراً مصرياً من دندرة (بالصعيد الأعلى) هو الذى صنع العرش المقدم هدية من ملك النوبة إلى عبد الله ابن سعد أيام أن كان ولياً على مصر . لأن هذا النجار كان معروفاً بحسن الذوق وبالدقة فى العمل .

كذلك كانت الترسانة المصرية ذات شهرة واسعة إلى درجة أن عبد العزيز مروان والى مصر اختار ثلاثة آلاف عامل من عمال هذه الترسانة وأرسلهم إلى تونس لينشئوا ترسانة بتلك المدينة . وفى الفترة حينها ذهب عدد مماثل من الصناع المصريين إلى القدس للعمل هناك (١) .

٤١٤- وفى تلك الفترة للهانئة تمت سعادة القبط بما أبداه الأنبا سيمون من ادراك لمسئوليته العظمى التى أثمنه عليها رب الكنيسة . فكان ضميمه المرهف مرجعه الأول كلما وجد نفسه مضطراً إلى اختيار راهب لرسامته أسقفاً . فكان يسعى إلى اختيار الرهبان للممثلين نعمة المتعمقين فى الروحيات المتمسكين بالايمان الأرثوذكسى . ومما يؤسف له أن السجلات المتضمنة أسماء هؤلاء الأساقفة قد ضاعت ولم يبق منها إلا القليل مما يتعلق بالأنبا زكريا أسقف سخا وأخيه الروحى أبطلمون أسقف مخوف العليا . ولم يكف البابا الاسكندرى بحسن اختيار الأساقفة فحسب ، ولكنه كان - كلما رسم أسقفاً - زوده بالنصائح الأبوية ورجا منه أن يبذل كل عناية بشعبه .

٤١٥- وفى يوم أحد العنصرة - بعد أن احتفى الأنبا سيمون بصلوات هذا العيد العظيم كما احتفى بصلوة المسجدة بعد ظهر ذلك اليوم عينه ، أحس بشئ من التوعك أدرك منه أن ساعته قد جاءت . فاستدعى سكرتيره وقال له : هلم بنا إلى الولدى المقدس - وادى النطرون - لننال بركة القديسين ،

(١) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فييت من ١٤٨ .

ونرى اخوتنا الأطهار ساكنى للديارات لأتلى لن أراهم بعد اليوم فى أرض
الغربة هذه .

وفى صباح اليوم التالى لهذا الحديث خرج الأنبا سيمون وسكرتيه
قاصدين إلى برية شيهيت حيث قضيا بضعة أيام . وبعد أن نالا بركة القديسين
الذين أضاعوا البرية بنورهم عادا إلى الاسكندرية وقد امتلأت نفسيهما نعمة
وسكينة . ولم تمض على رجوعهما غير أيام معدودات حتى نال البابا
الاسكندرى العنق من هذا الجسد وانطلقت روحه لتتعم بالنور الأعظم بعد أن
قاد دفة الكنيسة سبع سنين وثمانية أشهر (١) .



(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شودة الصوامى للإرموسى عن النسخة المحفوظة
بديره جـ ١ ص ١٠٩ - ١١٧ .

كواكب زاهية

- (٤١٦) نور القديسين يملأ الأرجاء - (٤٢٠) انتخاب الراهب مينا أسقفًا
 (٤١٧) الناسكان جاورجيوس وابرام - لاثمى -
 (٤١٨) الناسك اييماخوس يسطع - (٤٢١) مزاييا الأنبا مينا وجهاده ثم
 وجهه بالنور الالهى كموسى - ثياحته -
 (٤١٩) برية الأنبا أنطونى وأبرز من - (٤٢٢) الشماس جاورجيوس -
 فيها -

٤١٦- كان العصر الذى امتد من القرن السابع إلى القرن الثامن عصرًا زخرت فيه مصر بمجموعة من الرجال الذين سرى نورهم فى أرجاء الوادى المتيق فملأه ضياء . وكان هذا الدور نعمة الهية بددت المخاوف وأقمت القلوب ثقة ورجاء رغم تقلب الأحداث السياسية . ولقد انتشر هؤلاء القديسون فى صحارى مصر وأديرتها فاجتذبوا بسيرتهم العطرة قلوب الشباب المتعطش لسبر عمق الروحانيات .

٤١٧- ومن أبرز هؤلاء القديسين الذين انعكس خلالهم نور الله تعالى على الناس شيخان ناسكان ذاع صيت فضلهما وتقواهما هما جاورجيوس وابرام . وقد عاشا معاً فى صومعة واحدة . وجاهدا جهاداً روحياً مقتدين بكركب البرية الأنبا أنطونى . فمناهما الله تعالى عمراً مديداً إذ قد شاءت عنايته أن يملكهما من خدمة للرهبان المنتشرين فى برية شيهيت . كما وهبهما المقدرة على استشفاف سرائر النفوس . فكان كل منهما حين يتأمل راهباً ما يراه فى صورة الحمل اللوديع أو فى شكل الثعلب المكبر . فإذا ما رأى أحد الاخوة فى صورة ثعلب واظبا على رعايته ومواساته وتغذيته بلبان التعاليم القدسية إلى أن يستقيم ويبدو أمامهما فى شكل الحمل . وهكذا كانت محبتهمما سياجاً لآخرتهم نقيهم شر العثرات وترشداهم إلى طريق الخير .

٤١٨- وكان يعاصر هذين الناسكين راهب اسمه اييماخوس شبيه أخوته الرهبان بموسى النبى لما كان يبدو على وجهه من نور سماوى شبيه بالنور

الذى سطع على وجه كايم الله حينما قضى فرق الجبل أربعين يوماً حتى بعدها بأن يتكلم مع البارى العظيم وجهاً لوجه ويأخذ منه الوصايا العشرة .
ولقد سعد أبهماخوس بالنعمة التى مكنته من شفاء الناس . فكان يأتى إليه المرضى فينالون البرء لجسومهم والسكينة لقلوبهم (١) .

٤١٩- وبينما كان عبير النساك يعبق فى بركة شيهيت من حياة رهبانها ، كان غيرهم من النساك يعطرون بركة الأنبا أنطونى بصلاحهم وفصيلتهم .
ومن أبرز النساك الذين عاشوا فى هذه البرية الأنطونية الراهب ميذا . وكان ميذا هذا وحيد أبويه للذين كانا يتوقان إلى تزويجه شأنهما فى ذلك شأن والدين المصريين عامة . ولكن قلبه اتجه إلى الرهبة فهجر بيت والديه إلى بركة الأنبا أنطونى لبعدها للساحق وسكن فى دير ذلك القديس العظيم . وهناك تكلّم لرئيسه وتلقى عنه تعاليمه بفرح واتضاع حتى اكتسب منه كل العلوم الروحية والمدنية .

وبعد أن قضى فى دير أبى الرهبان سنين عديدة رأى أن يقصد إلى بركة شيهيت ليترسم خطوات الأنبا مكاري الكبير الذى حظى قلبه بالتملذ للأنبا أنطونى شخصياً .

وفى شيهيت التقى ميذا بالشيخين الجليلين جاورجيوس وإبرآم ، وعاش معهما فى صومعتهم . وقد رآه هذان الشيخان - ببصيرتهما التى جعلها الله تعالى نافذة - رؤياه فى شكل ملاك . ذمجا الله الذى أسبغ نعمته على ميذا بهذا المقدر .

٤٢٠- وحدث أن شغرت سدة ائمتى بانتقال أسقفها إلى الدار الباقية . فأوحى الروح القدس إلى الاكليروس والشعب بانتخاب الراهب ميذا الذى تعمّر

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين - طبعة ايفيس ج٣ ص ٨٢ - ٨٣ ، رسالة مارميذا السامسة : « لأخيرة ولاى النطرون » للدكتور منير شكرى ص ١٩١ - ١٩٢ حيث يذكر أن هذين للناسك قد بلغا من القداسة درجات عليا كنتك التى بلغها الآباء العظام لمثال الأنبا أنطونى والأنبا مكاري الكبير (أبى إبرآم وجاورجيوس) .

وإني العزيز بأريج قدسسته فلما وصل للمندريون إلى وادي اللطرون لأبلاغه الرغبة في انتخابه بكى وأخذ يستعطفهم ليدعوه في عزله وفي خلوته إلى الله تعالى على أنهم استمروا في الحاحهم ليقبل طلبهم ولا يردهم خائبين . وعندما قال له الشيطان الجليلان جاورجيوس ولبرآم : « لا يحزن قلبك يا ميثا ، بل انذهب مع هؤلاء المؤمنين لأنهم إنما جاءوك بارشاد من الروح القدس » . فخضع ميثا للإرادة الإلهية وذهب مع المندريين إلى اثمي حيث رسم أسقفًا على هذه المدينة في حفلة كلها روعة وبهاء .

٤٢١- ولقد أُنصِفَ التكريس على الأنبا ميثا قوة سعاوية قياضنة مكتبته من مضاعفة جهوده في سبيل رفع شأن الأرثوذكسية . وقد حياه المولى - إلى جانب طلاقة اللسان وسعة الصدر - موهبة شفاء للمرضى . فكان شعبه يفرغ إليه ليجد عنده العزاء والهداية . كما حياه المقدره على قراءة الأفكار .

وقد شاعت الإرادة الإلهية أن يعاصر هذا الأسقف أربعة من باباوات الاسكندرية هم الأنبا لكسندروس الثاني والأنبا قزما والأنبا فيلودورس والأنبا ميخائيل . وقد اشترك في وضع الليد على هؤلاء الأربعة ، فكان لهم بمذابة الأب الروحي .

على أنه لما كان كل حي إلى زوال ، أوكما قال الشاعر :

كل ابن انثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حديد محمول

فقد تطرق الوهن إلى الأنبا ميثا بعد عمره للمديد فعرف بالروح موعِد رحيله عن هذا العالم الفاني ، فجمع المؤمنين وحثهم على التمسك بالإيمان الأرثوذكسي وباللقة للقامة في مواعيد الله تعالى . ولما انتهى من نصيحته استودع روحه يدي الأب الساموي في هدوء ولطمئنان (١) .

٤٢٢- وثمة شخص آخر يجب ذكره هنا هو للشماس جاورجيوس الذي

(١) السكسار الأنثوي ترجمه إلى الإنجليزية وليس بوجد طبع في جامعة كامبردج سنة ١٩٢٨ ج١ من ٢١٤ - ٢١٦ ، رسالة مارميثا السادسة : « لديره وادي اللطرون ، للكنز منير شكرى ص ١٦٥ .

عده البعض خلوفاً بأن يجلس على الكرسي المرقسى . ذلك أن هذا الشماس - حين فشل في الفرز بالكرامة الكهنوتية العظمى - لم يخاف ، ولم يحس بأية مرارة نتيجة لفشله ، بل استمر يخدم كنيسة بجد واجتهاد . ثم سعد بأن نال رتبة قسيس . على أن رضاه بالرتبة الكهنوتية الصغرى وتكريسه كل قواه للخدمة ليس بالسببين الوحيدين للاعجاب به ، بل أن هناك سبباً آخر أكبر قيمة وهو تركيزه الجهود في كتابة تراجم الباباوات الاسكندريين . فبينما كان مقيماً في دير الأمير ثيودورس بابلاج بدأ بكتابة سيرة الأنبا كيرلس الأول عامود الدين (البابا الاسكندري الـ ٢٤) ثم تتبع سير خلفاء هذا البابا الماجد حتى وصل إلى سيرة الأنبا الكسندروس الثاني (البابا الاسكندري الـ ٤٣) للذي عاصره . وقد كتب ترجمة هذا البابا الأخير حينما كان عائشاً في دير الأنبا مكارى الكبير بشيهيت . ولم يكف جاورجيوس بكتابة تراجم هؤلاء الباباوات ، بل صور الأحداث السياسية التي اجتازتها مصر ، كما وصف شخصيات الحكام المندنيين الذين تعاقبوا على حكم بلادنا الحبيبة . وقد تضمن كتابه أحداث قرون أربعة - من القرن الرابع إلى القرن الثامن - اعطى السدة المرقسية في أثنائها عشرون من الباباوات الاسكندريين . وهكذا تاجر جاورجيوس بالوزفات التي منحها اياها سيده الالهى ، فاستحق أن يسمع منه ذلك الصوت العذب القائل : نعماً أيها العبد الصالح والأمين ... أدخل إلى فرح سيدك (١) .



(١) متى ٢٥ : ٢١ .

من السلام إلى الخصام

- (٤٢٣) تعيين أسقف القيس مدبراً للكنيسة .
(٤٢٤) الثقة في هذا الأسقف تؤدي إلى تأجيل الانتخاب ثلاث سنين .
(٤٢٥) انتخاب الأنبا الكسندروس الثاني .
(٤٢٦) الرسامة تتم في ٣٠ برودة والتطير من هذا التاريخ .
(٤٢٧) انتقال الوالي عبد العزيز إلى الدار الباقية .
(٤٢٨) بطش الولاة الذين خلفوا عبد العزيزين مروان .
(٤٢٩) مطالبة البابا الاسكندري بثلاثة آلاف دينار .
(٤٣٠) اللغة العربية تصبح اللغة الرسمية لمصر .
(٤٣١) يؤنس كاتب ديوان الأمير شعاع من التور وسط الظلمة .
(٤٣٢) البابا الكسندروس يتفقد انشاء المثقلين بالوفاة والضرائب .
(٤٣٣) رسالة الشركة من أسقف أنطاكية .
(٤٣٤) أنوبيس طبيب خليف دوني يعتدي على الكرسي الاسكندري ثم يتوب .
(٤٣٥) المسرو واليسر يتعاقبان على المصريين .
(٤٣٦) نياحة الأنبا الكسندروس الثاني .

٤٢٣- لما نعى الداعي الأنبا سيمون فزع الشعب كما أحس بالحزن واللوعة كأنما قد أحس بقلبه مقدماً ما سيحق به من ظلم فيما بعد . كذلك امتلاً قلب الأمير عبد العزيز حزناً على فقد صديق عزيز على نفسه .

وكان أنثاسيوس قد تدرج حتى أصبح رئيس ديوان الأمير ، وكان لا يزال الخادم الأمين لأمه الرؤوم : كنيسة الآباء والأجداد . قرأى أن خير سبيل ينتهجه وفاء لتكرى باباه الراحل هو الاسراع إلى محاولة إيجاد من يخلفه على الكرسي المرقسي كي لا يبقى للشعب كسفينة من غير ريان . فتشاور أنثاسيوس مع زملائه القبط الذين يعملون معه في ديوان الأمير عبد العزيز وانفقت كلمتهم على مقابله . فلما مثلوا بين يدي الأمير قالوا له : « أظال الله بقاؤك وأمد في عمرك أيها الأمير . واسمح لنا أن نبذلك أن الضريبة المفروضة على

كنيسة الاسكندرية تحتم وجود مدير لها يسهر على حسن ادارتها . فخرجوا منك ليها الأمير أن تعهد إلى الأنبا غريغوريوس أسقف القيس بادارة شئون الكنيسة . فوافقهم الأمير عبد العزيز على رأيهم وأصدر مرسوماً بذلك على الفور .

٤٢٤- وكان أسقف القيس هذا حكيماً ، زاهداً في المجد العالمي . فجد السعى مع اخوته الأساقفة وأراخنة الشعب في انتخاب من يعلى الكرسي الاسكندري الجليل . ولكن ارتياحهم إلى ما كان يقوم به الأنبا غريغوريوس من حسن الادارة المالية جعلهم يماطلون في انتخاب خليفة مارمرقس . وأدت هذه المعاملة إلى أن تظل السدة المرقسية شاغرة سنوات ثلاثاً .

٤٢٥- وبعد هذه السنوات الثلاث ، وتحت ضغط الأنبا غريغوريوس اتفق الكليروس والشعب على انتخاب الراهب ألكسندروس أحد رهبان دير الزجاج . وكان معروفاً بحكمته وعلمه ويتواضعه الجم وينزاهته التامة . فلما استصحبوه إلى الأمير عبد العزيز رأى نعمة الله تنلأ على وجهه .

وفرح الجميع إذ تهيأت لهم الأسباب لتحقيق أمنيته ، وخرجوا من سراى الأمير قاصدين إلى الاسكندرية مباشرة . وما أن وصلوا إلى هذه المدينة العظمى حتى ساروا في مركب فخم في شوارعها الرئيسية إلى أن وصلوا الكنيسة المرقسية حيث قام الأساقفة بشعائر الرسامة الرائعة التي رفعت الراهب ألكسندروس إلى مرتبة البابوية ، فجعلت منه الخليفة الثالث والأربعين للقديس مرقس سنة ٤١١ ش (سنة ٦٩٥ م) .

٤٢٦- وحدث أن تمت رسامة الأنبا ألكسندروس للثاني في الثلاثين من شهر برمودة المبارك ، وهو اليوم الذى تعيد فيه الكنيسة بذكرى شهادة القديس مرقس كاروز ديارنا الحبيبة . وامتزج للفرح بالفزع في قلوب المؤمنين لهذه المناسبة . فقد فرحوا إذ امتلأوا أملأ في أن يكون البابا الجديد جديراً حقاً بالسدة المرقسية الجليلة ، وفرحوا في الوقت عينه إذ قد ساورتهم المخاوف لئلا تكون خاتمة حياته شبيهة بخاتمة حياة رسول المخلص الذى حمل البشارة إلى هذا الوادى العتيق .

٤٢٧- ولم تمض على رسامة الأنبا ألكسندروس الثاني مدة وجيزة حتى

انتقل الأمير عبد العزيز إلى دار الخلود ، بعد أن تولى حكم مصر عشرين سنة ، سعد فيها المصريون بالاستقرار . وكانت هذه المدة أطول مدة قضاها وال على مصر لأن الأمويين كانوا يستبدلون ولائهم في فترات مقاربية كي لا تقوم صلة للمودة بينهم وبين الشعب المصري فيراودهم الأمل في أن يستقل الواحد منهم بالحكم .

٤٢٨- وقد عم الحزن قلوب القبط والمسلمين على السواء لفقد هذا الأمير العادل . وازداد حزن الجميع حين اقترن بأنيلهم وهم يرزحون تحت عسف للولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر من بعد عبد العزيز ، إذ كان هؤلاء الولاة على جانب كبير من العتو والتجبر نقر منهم للقلوب وزادها أسى على أيام الطمأنينة التي عاشوها في ولاية عبد العزيز .

وكان عبد الله هو والي الذي خلف عبد العزيز مباشرة . وإن اسمه واسماء الولاة الذين خلفوه (وهم قرّة وسامة وعبيد الله) قد أصبحت في أفواه المصريين عامة والقبط خاصة مترادفات للقسوة والتعسف والتجبر من الرحمة . فقد ضاعفوا الضرائب ثم تذرعوها بالحط لأخذ هذه الضرائب عتوة من الشعب المصري . بل إنهم تشددوا في جبايتها إلى حد أنه حين كان يموت شخص ، لا يحصل أهله على التصريح بنقله ما لم يدفعوا الضريبة المقررة على الموتى . كما أن الفقير الذي لم يكن له ما يسد به رمقه ، كان هو أيضاً عرضة لبطش هؤلاء للولاة لأنهم لم يعفوه من دفع الضريبة . فكانوا أشبه بالصقر التي تخطف لقمة للعيش من فم آكلها .

ولم يجد الشعب المصري مخرجاً له من كل هذا التعسف إلا برفع ناظره نحو السماء في صمت واستعطاف راجياً من رحمة الله تعالى أن تتداركه . وبالطبع كانت للضريبة على القبطي أضعاف مقاديرها على المسلم (١) ، وبخاصة في ولاية قرّة ابن شريك الذي أدى تعسفه إلى أن يبيع القبط أواني

(١) تاريخ مصر : من ميلا إلى فؤاد الأول ، (بالفرنسية) للآب دي هيلو من ٢٠٦ القول الابريزي للعلامة المقريري من ٥٠ .

المذبح الفضية ويستبدلونها بأراني خشبية أو زجاجية لكي يسددوا للجزية المفروضة عليهم من هذا الولي الطلغاية الذي أبدى المسلمون سخطهم عليه كما أبداه القبط (١) .

٤٢٩- ولما وصل عبد الله (الذي خلف عبد العزيز) إلى القسطنطينية ، جاء الأنبا ألكسندروس الثاني من الاسكندرية ليحييه . فلما رآه الأمير عبد الله سأله حاشيته : من هذا ؟ أجابه : هذا أبر القبط جميعاً . فأمر بالقبض عليه في الحال وطالبه بنفع ثلاثة آلاف دينار قبل أن يغادر ديوان الولاية . فقال له البابا الاسكندري : إنك نطالبتني بما أعجز عن أدائه لأني لا أملك مالا تنفيذاً لقول السيد المسيح لأتباعه لا تقتلوا لكم ذنباً ولا قضية (٢) . ولكن ذلك الولي لم يصدق ما قاله الأنبا ألكسندروس الثاني ورفض أن يخلى سبيله . وبعد انقضاء سبعة أيام قصد إلى دار الولاية أرخن اسمه جاورجيوس للدمرلوي (٣) ، فدخل بجرأة إلى حضرة الأمير عبد الله وسأله : أيهدف مولاي إلى اعتقال انبا أم إلى الحصول على المال ؟ أجابه : ليس هناك من سبب لأن أصرم الشر لباياكم وإنما أريد المال . فقال جاورجيوس : إن قليمهاني مولاي شهرين أطوف خلالهما الوجه البحري بمعية البابا الجليل . وأمل أن أعود بعد هذه الفترة بالمال المطلوب . وإن لم يتح لنا للحصول على هذا المال فإنني مستعد لقبول ما يراه مولاي من سجن أو توقيع أية عقوبة أخرى على . وقد صادف هذا الكلام من الأمير قبولاً ، وصرح للأنبا ألكسندروس الثاني بالذهاب مع ليده البار جاورجيوس . فطافا مختلف للبلاد . وسارع القبط إلى امتداد باياهم بالمال اللازم صوناً له من استبدال الولي (٤) .

٤٣٠- وفي هذه الفترة الحالكة التي امتزج فيها بطش الولاة بأنين

(١) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) ج٢ البحث الثاني لجانسون دي قريت من ١٣٢ .

(٢) لوقا ٩ : ٣ .

(٣) نسبة إلى دمرو بجوار المنصورة .

(٤) تاريخ بطاركة الاسكندرية لماريوس بن المقفع أسقف الأشمونين ترجمة ليفيس ج٢ ص ٥٤ - ٥٥ .

الشعب، أعلن عبد الله اللغة العربية لغة رسمية للبلاد بدلاً من اللغة القبطية . فلم يجد القبط بداً من تعلم هذه اللغة مرددين لأنفسهم : « إننا لم يكن من الموت بد - فمن العجز أن نموت جباناً » . لذلك تعمقوا في دراسة اللغة العربية وبرز الكثير منهم فيها (١) .

٤٣١- وقد تضاعف يؤس المصريين مما حل بالبلاد من قحط ووباء . فهلك منهم العدد الوفير لأن أجسامهم كان قد أنهكها الفقر والخوف فلم تعد لديهم القوة على المقاومة .

إلا أن الله تعالى - وإن تمهل - لا بد مستجيب الدعاء . فإن القبط حين ادلهمت بهم الأمور لم يجدوا أمامهم طريقاً للفرج غير الصلاة . وقد استجاب المولى صلواتهم بأن هياً لهم كاتباً اسمه يؤنس . وكان الخليفة وعبد الملك بن مروان قد نقل الوالى إذ لم تعجبه أن يستبد عبد الله بالمصريين إلى هذا الحد ، وعين قرة ابن شريك مكانه . على أن قرة ضاعف للطغيان على الشعب المصرى ولم يعتبر بما أصاب سلفه أملاً فى أن يكتنز كل ما يستطيع من المال . ولكنه رغم قصوته قد وثق بالكاتب يؤنس الذى أصبحت له خطوة خاصة لدى قرة . فرأى أن يستخدم هذه الخطوة فيما يعود بالخير على قومه ، فقال لقرة : « إننى أدرى ببلى قومى . وأعلم من هو أقدر بينهم على دفع الجزية ومن منهم الفقير المحتاج . فإن شئت يا مولاي جمعت لك الجزية دون أن يستمر هذا الضرر البادى على الشعب كله » . فوافق قرة على طلبه وصرح له بالتجول فى البلاد لجمع الجزية . فخرج يؤنس من عند الوالى وبدأ عمله مباشرة . وقد فاضت عليه النعمة الالهية مكافأة له على تقنمه للخدمة فمكثته من أن يفاهم مع الخلقيدونيين ويعينهم إلى الايمان الأرثوذكسى كما مكثته من التفاهم مع الغانانيين الذين كانوا قد كونوا شيعة من عهد الأنبا بديامين (البابا الاسكندرى الـ ٣٨) وضمهم أيضاً إلى الايمان الأرثوذكسى . فأسفرت جهود يؤنس عن توحيد جميع المسيحيين فى مصر وضمهم تحت رعاية البابا

(١) تاريخ مصر فى القرون الوسطى (بالانجليزية) لسنانى لاين بول ص ٢٧ ، تاريخ الأمة لقطيعة يعقوب نخلة روفيلة طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٨ ص ٦٨ .

الاسكندري والكليسة الأم التي استشهد في سبيلها مارمرقس تلميذ القادى الحبيب (١) .

ومن للمخطوطات الباقية لذا من هذا العهد مخطوطة تتضمن المكاتبات المتبادلة بين قرة بن شريك وبين والى منطقة « أفروديتو » . وتتعلق هذه المكاتبات بالشكوى من التأخر فى دفع الجزية ، ويطلب ارسال مقادير من الحبال للأسطول فى الاسكندرية وجذوع النخل إلى الفسطاط لاستعمالها فى البناء . على أن أهم ما جاء فيها هو الأمر بارسال الصناع على وجه السرعة إلى اورشليم ودمشق للقيام بأعمال البناء التى يريد الوليد اقامتها . كذلك يندر من هذه المكاتبات أن القرية المتأخرة فى دفع الضرائب كانت تبحث بأنائها للعمل مقابل هذه الضرائب المستحقة عليها (٢) .

٤٣٢- واستمر الوياح يحصد المئات بلا شفقة ولا هوادة . فقام الأنبا ألكسندروس الثانى وعدد من أساقفته برحلة راعوية إذ رأوا من واجبه أن يتفقدوا الشعب الذى حاقت به الكوارث . فطاف مع شركائه فى الخدمة الرسولية مدن مصر وقراها يسألون عن المريض ، ويعزون الحزين ، ويثبوتون قلوب الجميع على الايمان بالله أبى المرحام . فلما خفت وطأة الوياح ، ورأى البابا الاسكندري أن الطمأنينة بدأت تسرى إلى القلوب ، ذهب هو وصحبه إلى الأديرة فى برية شيهيت ليستجمعوا ويجدوا فى رحاب الصحراء وسكونها الوسيلة للتأمل والاقتراب إلى الله أكثر فأكثر .

٤٣٣- وبينما هم مقيمون فى الأديرة جاءهم رسول يحمل إلى الأنبا ألكسندروس الثانى رسالة للشركة من الأسقف ايليا الذى كان فى تلك الآونة

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس أسقف الأشمونين - طبعة ايفيكتس ج٣ ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) فى سنة ١٩٠١ عثر على عدد من المخطوطات اليونانية فى بلدة كرم لشكار التى تقع على بعد ثلاثين ميلاً شمالي سوهاج . ومعظم هذه المخطوطات محفوظة بالمتحف البريطانى . ويدين عن إحداها أن القبط انتظروا أيضاً فى بناء المسجد الأقصى - راجع : أثر القبط فى العمارة الاسلامية الأولى لكريزويل ، (مجلة الآثار القبطية سنة ١٩٣٩) ص ٣٠٠ .

يشغل السدة الأنطاكية بصفة مؤقتة إلى أن يتم انتخاب بطريرك لها . فلما اطلع البابا الاسكندري على هذه الرسالة التي تعبر خير تعبير عن الأرثوذكسية ، فرح بها فرحاً عظيماً . فجمع أساقفته وقرأها عليهم فشاركوه فرحه واغتباطه . ولم يفرغ من قراءتها حتى كتب رده عليها لساعته وبعث به إلى الأسقف الأنطاكي مجدداً عهد المودة القائمة على الايمان الأرثوذكسي المشترك .

٤٣٤- وكان في الاسكندرية إذ ذاك طبيب بيزنطي اسمه أنوبيس منشيعاً لمجمع خلقيدون وقد نجح هذا الطبيب في أن يستميل إليه وإلى الاسكندرية بواسطة مهنته وبما بذل من مال . واستغل أنوبيس هذه الحظوة التي نالها لدى الأمير فأقنعه بأن يقيمه أسقفاً على الاسكندرية . ولما تم لهذا الطبيب ما أراد أخذ ينادي الأنبا ألكسندروس الثاني ويسخر منه جهراً على مسمع من الجميع . فغضب الشعب الاسكندري المخلص لايمانه الأرثوذكسي ، وثار في وجه هذا للدخول للمقصب ثورة عارمة أفرزته إلى حد أنه لم يجد أمامه من يلجأ إليه ويستجد به لحمايته غير البابا الاسكندري نفسه . فقصده إلى الدار البابوية حيث تلقاه الأنبا ألكسندروس بصدر رحيب ، وحماه من غضب الشعب الفائر . فامتلاً أنوبيس خجلاً من هذه المعاملة الكريمة للمأخوذة عن تعاليم الانجيل المقدس (١) ، واستغفر البابا للمرقسي عما اقترفه . فبدد هذا البابا الجليل مخاوفه وهذا من روعه بأن أعلن له صفحه عن جميع ما بدر منه . فلم يسع هذا الطبيب للبيزنطي إلا أن يعلن ولاءه للجائس على كرسى مارمرقس ، وظل على ولائه له مدى حياته .

٤٣٥- على أنه لما كانت الأحداث السياسية في بلادنا المصرية شبيهة بالنيل الذي يفيض ثم تهبط مياهه إلى مستواها ، فقد جاءت أيام اليسر في أعقاب أيام اليسر . وكان للرفق والعطف وتلاحقان تبعاً لشخصية الوالي أو أمين خزائنه . فإذا ما حدث أن تولى الأمر في وادينا والي عطوف تفرق بالمصريين ولم يشدد عليهم الخناق ، كان يتولى للحكم بعده (في غالب الأحيان) رجل

(١) متى ٥ : ٤٣ ، رومية ١٢ : ٢٠ - ٢١ .

عات لا يتورع عن جلى الضرائق بكل وسيلة ، بل لقد كان لسان حال البعض من هؤلاء للحكام الفاشمين هو: « لأحب البقرة حتى تستنزف منها الدم » (١) .

ومن نعم الله أنه تعالى قد هيا الفرصة أمام مهرة الصناعات القبطية من العمل في بناء المسجد بالمدينة إذ قد أمر الخليفة الوليد بهدم المسجد القديم وإقامة بدلاً منه كما أرسل لوالديه في المدينة لعمال والرخام والتقيضاء للقيام ببناء مع ثمانين من الصناعات القبطية وللروم عن مصر وسوريا وذهبوا إلى الحجاز وأتموا بناء المسجد المطلوب للمدينة كما بنوا المساجد في القدس ودمشق (٢) .

٤٣٦- وفي وسط كل هذا المد والجزر كان الأتبا الإسكندريون اللذان قاصداً إلى الاسكندرية على ظهر مركب ، فعاجلته للمنية قبل أن يصل إلى عاصمته . وما أن رست للمركب حتى سارع رجال الاكلوريوس والشعب إلى المرسى وحملوه إلى الكنيسة المرقسية حيث أقيمت صلاة التجنيز للخاصة بالباباوات الاسكندريين . وهكذا انتقل إلى بيعة الأبيكار بعد أن سلس أمور الكنيسة المصرية أربعاً وعشرين سنة وتسعة أشهر (٣) .



-
- (١) مصر في القرون الوسطى ، (بالانجليزية) استغنى لاين بويل ص٢٤ - ٢٥ .
(٢) فتوح البلدان للمبلاذرى ص٧ ، المؤثرات القبطية على العمارة الإسلامية الأولى ، (بالانجليزية) كريسويل نشره في مجلة الآثار القبطية للحد الخامس (سنة ١٩٣٩) ص٤٧ .
(٣) تاريخ بطاركة الاسكندرية طبعة ليفيتيس ج٣ ص٤٨ - ٧٩ ، وتاريخ الكنيسة القبطية لمسى القمص ص٤٠٩ - ٤١٣ .

فوران وهدير

(٤٣٧) رياسة مهبورة .	(٤٤١) فترات الرخاء تتخللها فترات
(٤٣٨) رهبنة ثيودورس وتنبؤ رئيسه	من البؤس .
يجلوسه على السدة المرقسية	(٤٤٢) الأنبا مومسيس أسقف أوسيم
	شهيد بغير سلك دم .
(٤٣٩) ولاية الحرين يوسف وشورة	(٤٤٣) نشأته ورهبنته .
القبض عليه .	(٤٤٤) الأنبا مومسيس شمعنة تحترق
(٤٤٠) نقل عبيد الله واستتباب	لتضيئ الطريق .
السلام في مصر .	

٤٣٧- ما أن هدأت موجة الحزن التي انتابت الاكليروس والشعب على انتقال باباهم الجليل حتى توجهت الأنظار إلى الناسك قزما أحد رهبان دير القديس مكاري الكبير ببرية شيهيت فانتخب بالاجماع . ومن ثم أقامه الأساقفة سنة ٤٣٦ش (سنة ٧٢٠م) على سدة الكنيسة الاسكندرية ، فكان الخليفة الرابع والأربعين للقديس مرقس كاروز ديارنا امصرية .

على أن هذا البابا لم يجد نفسه جديراً بهذه الكرامة العظمى التي أولاه اياها اكليروس الكرازة المرقسية وشعبها بنعمة الله . كذلك امتلأت نفسه أسى حين علم أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد كتب إلى حيان بن شريح عامل الخراج في مصر يقول له ، أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم ، وأضاف إلى ذلك الجزية على القرى - فكل قرية عليها مقدار من المال يجب تأديته بغض النظر عن من يحوت من أهلها (١) . وبإزاء هذا الشعور بعدم الاستحقاق الذي ملغى على الأنبا قزما ، وهذا الأسى الذي ملأ عليه قلبه لعدم قدرته على حماية شعبه من الجزية المتزايدة المبالغ فيها ، أخذ يبتهل إلى الله تعالى نهاراً وليلاً ضارعاً إليه أن ينقله من هذا العلم بدلاً من أن يضرع إليه أن يمنحه النعمة لتأدية ولجباته الراعوية مخالفاً بذلك الأوامر

(١) مصر الاسلامية لانياس الأيوبي ص ٩٥ .

الالهية (١) . ولقد استجاب الباري سبحانه هذه للصراعة الغريبة فلم يلبث الأنبا قزما أن انتقل إلى الدار الباقية بعد مرور خمسة عشر شهراً على ارتقائه الكرسي المرقسي . فمرت أيام باباويته مرور السحاب العابر الذي يطلع في الصيف ليتلاشى بسرعة . وهكذا اضطر الاكليروس والشعب إلى التشاور من جديد في من يكون رئيسهم الأعلى . وانتهت بهم للشورى إلى انتخاب ثيودورس أحد رهبان دير دمنوط بمريوط (٢) .

٤٣٨- وكان ثيودورس هذا قد كرس حياته للنسك والعبادة منذ حداثة . فكتلمذ ليؤنس الأب الناسك الذي قضى السنين الطوال في الرهبة وعاش تحت كفله . وبما أن ثيودورس هذا كان يهدف من البداية إلى بلوغ الكمال المسيحي فقد جعل المحبة والطاعة والتواضع وسائله للوصول إلى هذا الهدف . وكان يذكر نفسه كل يوم بقول المخلص له للمجد : « من أراد أن يصير فيكم أولاً فليكن للجميع عبداً » (٣) .

وكان قد حدث في باباوية الأنبا ألكسندروس الثاني أن جلس الرهبان بتسامرون في الدير ذات ليلة . فقال لهم يؤنس رئيسهم : « صدقوني يا أولادى أن قلبى ينبغى بأنى سأنتقل من هذا العالم في ذات اليوم الذى ينتقل فيه الأنبا ألكسندروس الثانى إلى مساكن النور ، وأن أحكم الراهب ثيودورس سيعتلى الكرسي المرقسي - لا خليفة لألكسندروس ولكن لبابا الذى يأتى من بعده » . وحين سمع الرهبان هذه الكلمات سادهم الصمت العميق إذ أحسوا في

(١) يوحنا ١٧ : ١٥ .

(٢) ورد في تاريخ البطركية (المخطوط) نسخة دير البراموس نقلها القمص شنودة الصوامى البراموسى ج ١ ص ١٢٤ ما نصه : « وكان بظاهر مريوط دير يعرف بطموره . وكان فيه راهب شيخ قديس وشاب آخر راهب ... وكان رئيسهما اسمه يوحنا ... وهذه الكلمات بعينها يوردها أسقف الأشمونين ولأنه يطلق على الدير اسم طمورة - راجع تاريخه ج ٣ ص ٨٤ . على أن القمص موصافيل بحر يذكر على ص ٤٨ من كتابه « تاريخ القديس الأنبا يوحنا القصير » : « أن الأنبا ثيودورس ترهب بدير يؤنس القصير ببرية شيهيت فلما كرسوه بطريركاً قام بشئون الخدمة لأمن قيام » .

(٣) مرقس الرسول ١٠ : ٤٤ .

داخلهم بأن رئيسهم ينبغيهم بأمور لابد ولقمة . ولقد تحققت هذه النبوءة فعلاً . فلم يكذ الأنبا فرما ينتقل إلى الأخدار السماوية حتى تمت رسالة الراهب ثيودوروس ، فجلس على السدة للمرقسية سنة ٧٢١م ، وأصبح بذلك الخليفة الخامس والأربعين لما مرقس .

٤٣٩- وكان ثيودوروس ذا وجه بشوش ، ونفس صافية ولادة ، وقلب يفيض بالمحبة للجميع . فانعكست كل هذه الفضائل على وجهه ، وتلاًلاً جبينه بنور عجيب حبّب فيه الاكليروس والشعب .

وكان عبيد الله المتولى جباية للخراج في مصر قبيل انتخاب الأنبا ثيودوروس رجلاً قاسى القلب لا يتورع عن جمع المال بكل وسيلة . على أن هذا للرجل القشوم أسقط من رياسته بعد انتخاب البابا بمدة وجيزة . ثم تولى للحر بن يوسف الحكم ، وكان على شاكلة عبيد الله في بطشه وجشعه . فكأنما قد تأمر هذان الرجلان على عصر المصريين بكل قواهم . وكان استبداد الحر بن يوسف بالقبط أصعاف استبداده بالمسلمين . وامتلات قلوب القبط غضباً لهذا التصف . فقام أهالي تدويمى وقريط وطربية (١) بثورة علنية . وقابلهم الحر بن يوسف بالقوة إذ قد أمر جيشه بقمع هذه للثورة . وقد نامت المعارك بين الثوار والجيش ثلاثة شهور ، وانتهت بفشل للثوار . إلا أن الحر بن يوسف لم يبق في مصر ، بل جاءه الأمر بالنقل إلى أسبانيا . وأعقبت انتقاله فترة قصيرة من السكينة (٢) .

٤٤٠- ثم استعاد عبيد الله سلطانه على مصر ، ولكنه لم يتعظ بفشل الحر ابن يوسف ولا بما جرى له شخصياً ، بل أتمن في سياسة السف والطغيان . وقد أنهشه أن القبط - رغم استبداده بهم - لم ينكروا دينهم . ولم يكن بينهم من حاول التهريب من الجزية بجحد مسيحيته وكان غرضه أن يزيد عدد المسلمين ، فلما لم تزايد صفوفهم من أهالي مصر استقدم خمسة آلاف عري

(١) هذه المدن جميعها ضمن المنطقة المعروفة الآن بمحافظة الشرقية .

(٢) تاريخ مصر الاسلامية لالاس الأيوبي طبع في القاهرة سنة ١٩٣٢ ص ٩٥ - ٩٦ .

من قبيلة القيس . وقد استقر هؤلاء العرب في منطقة حوف (إلى الشمال الشرقي من للفسطاط) حيث كانوا عتسراً للشعب إذ كانوا يعلنون التمرد في كل مناسبة . كما أن كل والٍ جديد كان يستصحب ما لا يقل عن ستة آلاف جددى كانوا يستوطنون مصر للرحبية بعد ذلك (١) .

وقد توهم عبید الله - بعد استقدام هؤلاء العرب - أنه يستطيع أن يستمر في سياسة الاستبداد دون معارض . إلا أن طغيانه هذه المرة لم يستتر غضب القبط وحدهم ، بل أثار غضب المسلمين أيضاً . فرأوا أن يرفعوا شكواهم إلى الخليفة هشام ، لأن هذا الخليفة كان عادلاً منصفاً ، يعمل على راحة رعاياه من مسلمين وغير مسلمين فما أن بلغه شكوى المصريين من عبید الله حتى أمر بقلته إلى بلاد البربر في شمال أفريقيا ، وعين القاسم ابنه الأكبر والياً على مصر ، فاستقر السلام على ضفاف النيل . وقد شاعت العناية الإلهية أن يظل السلام مستتباً حتى آخر أيام الأنبا ثيودورس . فتمكن خلال سنى السلام من أن يتفقد المسيحيين ويثبت قلوبهم على الايمان الأرثوذكسى لا يعوقه استبداد من الخارج ولا انقسام من الداخل . وقد دامت باباويته إحدى عشرة سنة وسبعة أشهر انتقل بعدها إلى مساكن النور في أمن وهدوء نفسى .

٤٤١- كما أن النهر العظيم يتكون من آلاف القطرات المتجمعة المنسابة معاً ، هكذا المجتمع يتألف من آلاف الأفراد المتجانسين المتألفين . غير أن

(١) تاريخ مصر في القرون الوسطى (بالانجليزية) لستافلى لاين ببول ص ٢٨ - ٢٩ حيث استشهد بالكندى وأبى صالح حين قال ما نصه : " It is remarkable that in spite of such : intermittent oppression and their invariable position of inferiority, and also the temptation to escape the poll-tax and all disabilities by the simple process of conversion to Islam, the Copts in general remained steadfast to their faith (they numbered five millions about 725) insomuch that about 732 the treasurer Abeydallah, finding that Islam was making no progress among them, imported 5000 Arabs of the Tribe of Kais, and settled them in the Hawf of the North-east of Fustat where they presently formed a hot bed of revolt ... Most governors appear to have come to Egypt escorted by an Arab army of 6000, or 10,000 or even of 20,000 men . " ويؤيد هذه الشهادة المستشرق الفرنسى جاستون فبييت في كتابه . " مختصر تاريخ مصر : (بالفرنسية) الجزء الثانى للمبحث الثانى من ١٣٧ .

قطرات المياه تتشابه تماماً لا فرق بين قطرة وقطرة ، أما الأفراد فالاختلافات العديدة تميز الواحد عن الآخر إذ قد شاء الباري تعالى أن يتوَّع مخلوقاته لزيادة الحياة رونقاً وبهاء . وهذا هو السبب في أن هناك أقوياء يقابلهم الضعفاء ، وشجعان يقابلهم الجبناء ، إلى غير ذلك من الاختلافات الوفيرة التي تميز شخصاً عن شخص . وهذا التنوع هو أيضاً السبب في أنه لا غنى للإنسان عن غيره ، لأن الفرد - مهما أوتى من مواهب ليس في وسعه أن يؤدي جميع الأعمال التي يحتاج إليها ليستطيع أن يستمتع بحياته . وكلما قام رئيس عبر عن خلجات قومه تعبيراً صحيحاً استجاب له للقلوب كلها فسارعت الحياة إلى الأمام وسانتها الطمأنينة والرضى رغم ما قد يعوق طريقها من مضايقات كالدهر المتدفق تنساب مياهه فوق الصخور وعلى الرمال انساباً غزيراً قوياً حتى المصب . ومثل هذا الانسباب رغم العراقيل صورة لفترات عديدة من تاريخ القبط الطويل : فقد كان لهم في هذه الفترات قادة روحيون حملوا الشطة وساروا بها بقدم ثابتة ، فتبعوهم في ثقة وحبور . وقد تخللت هذه الفترات التي انسابت فيها حياتهم انساباً فترات من اليأس والشقاء أشبه بالجزء الملقى بالصخور من مجرى الدهر . تلك كانت حياة القبط في القرن الثامن : حياة مليئة بالاضطرابات والمخاوف إذ اعترضت مجرى حياتهم صخور من العسف والاستبداد . ذلك لأن باباوات الاسكندرية أصروا على التمسك بايمانهم الأرثوذكسي الرسولي ، فسار وراءهم الاكليروس والشعب في ثقة وولاء . فتحتم عليهم - نظير هذا الولاء أن يؤدوا الثمن بالمال أو للثكال أو الاستشهاد . ومع أن الأنبا ثيودورس ومعاصريه من الأساقفة قد استمتعوا بفترات من السلام والاستقرار ، إلا أنهم قضوا شطراً من حياتهم مدلفعين عن الايمان الأرثوذكسي راضين بدفع الثمن غالباً .

٤٤٢- ومن الأبطال الذين آزروا البابا ثيودورس في هذا الدفاع المجيد الأنبا مويسيس أسقف أوسيم الذي عاصره وامتد به الأجل فعاصر خليفته أيضاً .

وقد كان لأسقفية أوسيم تاريخ يرجع إلى زمن بعيد إذ كان أسقفها

هيلانيكوس بين الذين استشهدوا أيام الامبراطور الطاغية ديوقليانوس . ويرغم بعد الشقة - التي تناهز خمسة قرون - كان الأنبا مويسيس خير خلف لسلفه الشهيد الأسقف هيلانيكوس . فقد أحصى المؤرخون الأنبا مويسيس بين الشهداء ولو لم تُسَفَك دماؤه - فكان شهيداً بغير سفك دم لمواقفه الباسلة في وجه الاضطهاد .

٤٤٣- ولد الأنبا مويسيس من أبرين مسيحيين ملأه اعتزازاً بالكمال المسيحي منذ نعومة أظفاره . فلما بلغ أشده زهد في للعالم ومباهجه واعتنق الحياة الرهبانية . وقد لاقت رغبته هذه من أيوية اغتباطاً وسروراً يعكس غيرهم من الآباء والأمهات الذين كانوا أحياناً حجر عثرة في سبيل تنسك أبنائهم . وقد بدت رغبته في الاغتراف من مداخل العلم منذ صغره . فلم يلبث أن رسم شماساً قبل رحيله إلى الدير . ثم انتظم في سلك الرهبنة وتعلم لأحد شيوخ البرية مدى ثمانى عشرة سنة تشبع خلالها بالفضائل النسيكية التي تجمل بها معلمه ، ولا سيما فضائل التواضع والمحبة وضبط النفس . فذاع صيته العطر في أنحاء البلاد المصرية .

وبعد أن أمضى مويسيس هذه السلوات الثمانى عشرة في خدمة أبيه الروحي ، ترملت أسقفية أوسيم فالتجتهت إليه الأنتظار . وفي الحال قصد اكليروس هذه الايبارشية وأرأختها إلى الدير حيث يقيم هذا الراهب وأقتاده إلى الكنيسة المرقسية . وهناك أقيمت المراسيم الدينية في روعتها وجلالها .

ولقد فاضت النعمة الالهية على الأنبا مويسيس فزانه قوة حتى بدا كأن قواه الروحية تتضاعف بقدر ما تتضايل قواه الجسمية . كذلك وهبه الله تعالى موهبة الشفاء والقدرة على معرفة الأمور قبل وقوعها . فكانت كنيسة ملجأ لجميع قاصديه : المسيحيين منهم والمسلمين على السواء . فأحبه الجميع وأخلصوا له . وقد كانت المحبة الدافقة التي أولاه إياها الشعب درعاً له في نوده عن الايمان ، فازداد قوة ، وصمد في وجه كل ما صادفه من اضطهاد .

٤٤٤- وكان لفرط حبه للناس يجتنب إليه الجماهير الذين منحوه ولاءهم الخالص . ولما كانت هذه القوى غير المنظورة - قوى المحبة والولاء - تغل

فعلها السحرى رغم أنها غير مرئية ، فقد ملأت القلوب جرأة وثباتاً فزادت
الأنبا مويسيس اقتناعاً وزادت الشعب إيماناً ورضى بالاضطهاد .

ولقد امتلأ قلب الأنبا مويسيس غبطة وحبوراً لما رآه فى الشعب من ولاء
للإيمان الأرثوذكسى ، فعاث ما يزيد على قرن من الزمان رغم ما تحمله من
ضرب وجلد وسجن (١) . وحين كان المؤمنون يشاهدون قوة احتماله رغم
ضعف جسمه ، كانوا يزدادون حماسة للإيمان . فكانت حياته أشبه بالشعلة
المنيرة التى تأخذ فى الاحتراق تدريجياً حتى تنتهى ، وهى فى احتراقها تنير
المسبيل أمام الآخرين . وبما أنه بلغ شيخوخة حسنة فإن نوره ملأ الوادى
الرحيب ضياء . ومازال هذا الدور الروحى يسطع أمام كل من يطالع سيرته
القدسية إذ يعجلى خلالها كفاحه المتواصل ذوباً عن الشعب ودفاعاً عن
الإيمان (٢) .



(١) الصادق الأمين للراهبين فيلوثيوس وميخائيل من دير الأنبا مكاري الكبير جـ ٢ ص ٢٨٩ -

٢٩٠ ، السنكسار الأنثيوبي ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج جـ ٤ ص ١٢٠٤ - ١٢٠٥ .

(٢) وردت تفاصيل هذا الكفاح فى سيرة الأنبا ميخائيل الأول (البابا الاسكندري الـ ٤٦) .

البركان يضور

- (٤٤٥) فترة حائلة .
 (٤٤٦) الأديرة منارة سامطة وسط الظلام .
 (٤٤٧) تبدل الوالى والاجتماع للتداول فى انتخاب البابا الاسكندرى .
 (٤٤٨) التشاور عشرة أيام دون جدوى .
 (٤٤٩) حضور الأنبا موسىس ومناذاته بالصوم والصلاة .
 (٤٥٠) الاجتماع على انتخاب الراهب ميخائيل من دير الأنبا مكاري الكبير .
 (٤٥١) تجلى العناية الالهية فى انتخاب هذا الراهب .
 (٤٥٢) الذهاب إلى الاسكندرية لرسامته خليفة لمارمرقس .
 (٤٥٣) هوض واضطهاد .
 (٤٥٤) مروان يتقلد الخلافة والخلقيدونيون يتلاعبون .
 (٤٥٥) النزاع حول ملكية كنيسة مارميثا .
 (٤٥٦) شدة وضيق بعد فترة السلام .
 (٤٥٧) السجن الذى ألقى فيه البابا الاسكندرى .
 (٤٥٨) رجل مؤمن يجلس على مائدة الملك .
 (٤٥٩) رحلة الأنبا ميخائيل إلى الصعيد .
 (٤٦٠) حدوث زلزال يوم أن عاد الأنبا ميخائيل .
 (٤٦١) مجارية ملك النوبة لمصر .
 (٤٦٢) تحول قلب عبد الملك بن مروان إلى الأنبا ميخائيل .
 (٤٦٣) شخصية الأنبا ميخائيل .
 (٤٦٤) ثورة القبط ثم هزيمتهم .
 (٤٦٥) نار الحرب والثورة تندلع فى كافة البلاد .
 (٤٦٦) لقاء الأنبا ميخائيل فى السجن مرة ثانية .
 (٤٦٧) اقتراب جند أبى مسلم ووضع الأنبا ميخائيل تحت الحراسة .
 (٤٦٨) أمر مروان بإشغال النار فى القسطنطينية .
 (٤٦٩) اضطراب زحف العباسيين واصرار مروان على اعتقال البابا المرقسى .
 (٤٧٠) أحد رجال البلاط يستثير حفيفة مروان ضد هذا البابا الجليل .
 (٤٧١) شناعة ابن مروان فى البابا المرقسى وصحبه .
 (٤٧٢) ابن قسطنطين وعنايته بالأنبا ميخائيل .
 (٤٧٣) جند مروان يمعنون فى القتل والسلب .

- (٤٧٤) مروان يهرب فيفتح المسلمون باب السجن للأنبا ميخائيل وصحبه .
- (٤٧٥) مقتل مروان وهرب ولديه وعودة بناته إلى حاران .
- (٤٧٦) قيام الدولة العباسية وتسرب القلق إلى النفوس .
- (٤٧٧) أبو عون الوالي الجديد يحسن معاملة القبط .
- (٤٧٨) أبو عون يغير مقر عاصمته .
- (٤٧٩) أسقف حاران يطمع في بطريركية أنطاكية .
- (٤٨٠) هذا الأسقف يبحث برسالة الشركة مصحوبة بهدايا ثمينة وتهديد صريح .
- (٤٨١) خطاب الأنبا ميخائيل وثيقة مجد ورسالة .
- (٤٨٢) استعداد الأنبا ميخائيل للسفر إلى حاران .
- (٤٨٣) استتاب السلام ونياحة الياها الاسكندري .
- (٤٨٤) عصر الأمويين .
- (٤٨٥) موجز سيرة يوحنا الدمشقي .
- (٤٨٦) دفاع يوحنا الدمشقي عن الأيقونات .
- (٤٨٧) الفنون المختلفة في هذا العصر .

٤٤٥- كانت فترة السلام التي سادت مصر عند تولي للقاسم بن عبيد الله الحكم قصيرة الأمد . ذلك أن هذا الوالي استهل حكمه بالمصالمة ولكنه لم يلبث أن نسي الرفق واللين واندفع في سياسة العنف والقوة متناسياً نصيحة الخليفة هشام . على أن قسوته لم تظهر إلا بعد نياحة الأنبا ثيودورس ، إذ قد شاء المولى تعالى أن يضم هذا البابا الجليل إلى داره الأبدى قبل أن يقمادى القاسم في استبداده . فكانت مصر بعد نياحة الخليفة المرقسي فريسة لقوى ثلاثة أحلاها علقم : هي القحط والوباء وبطش القاسم . فإن هذا الوالي لم يرحم الشعب المسكين الذي استبد به الوباء وضيق عليه القحط الخناق فتشدد في المطالبة بالجزية إلى حد أنه كان يحكم بالجلد علناً على كل من لا يؤدي المال المفروض عليه .

وفي تلك الفترة المليئة بالأهوال لم يتمكن الأساقفة والأراخنة من الاجتماع للتشاور في من يخلف الأنبا ثيودورس على السدة المرقسية ، وذلك

لعدم توافر الأمان اللازم للاجتماع والتشاور . فكان كل مسئولٍ منهم منشغلاً بالعناية بشعبه الجريح المضطرب .

٤٤٦- ومن مظاهر عناية الآب السماوية بكنيسته أنه على الرغم من كل هذه البلايا فقد ظلت الأديرة ملوثة برجال الله القديسين الذين كرسوا حياتهم للصراعة من أجل أخوتهم المعذبين في العالم .

وكان الدير الذي يحمل اسم السيدة للعدراء في منطقة تكتيس إحدى هذه المنارات الساطعة ، وفيه عاش رهبان تجملوا بالفضائل المسيحية ومن بينهم الناسك ليماخوس الذي بدأ حياته للرهبانية في دير الأنبا مكاري الكبير والذي استحق أن ينال كرامة الأسقفية بعد ذلك . وقد عاش في هذا الدير أيضاً الأنبا ميخا الذي اختير لأسقفية ممفيس وأخوه في الرهبنة للقس يعقوب وغيرهما من الرهبان الصالحين .

٤٤٧- ووسط هذه الفترة الحالكة ظلت السدة المرقسية شاغرة . وبعد انقضاء ما يقرب من ثلاث سنين رأى الثيودوسيوس (١) أن يجتمعوا ويتشاوروا لكي يرشداهم الله إلى الريان اليقظ الذي يمسك بدفة للكنيسة ويجمع كلمة المؤمنين . فتقابلوا وقصدوا إلى دار الولاية ليبلغوا للقاسم رغبتهم في انتخاب راعيهم الأول . ولكنهم - حين وصلوها - لم يجدوه وعلموا أن الخليفة قد استدعاه على عجل مما اضطره إلى مفاداة القسطنطينية في حراسة الجند الذين اقتادوه إلى الخليفة . فلم يشأ الأساقفة والأرلخنة أن يضيّعوا وقتاً أكثر مما ضاع وجدّوا السير في أثر القاسم ولحقوا به في مدينة بلبيس وأعلموه بالسبب الذي جاءوا من أجله . والمعجب أن القاسم - مع كونه تحت حراسة الجند ومع علمه بأنه مغمضوب عليه من الخليفة - ظل على تعسّفه ، فرفض أن يسمح للأساقفة والأرلخنة بإجراء الانتخاب . وعندما التفت الأنبا ثيودورس أسقف بابلون إلى الأنبا موميسيس أسقف أوسيم وقال له : « تأمل يا أبى سلوك هذا القاسم والشر الذي يلازمه والذي زاد على كل ما رأينا وما سمعنا » . أجابه

(١) نسبة إلى الأنبا ثيودوسيوس البابا الاسكندري ٣٢٢ - أنظر من ١٧٢ - ١٣٣ .

الأنبا موميس : « أغفر لى يا أبى لأنه إن عاد القاسم مصر ثانية فلا يكون الله تعالى قد تحدث على فمى لنا الخاطى » .

ولقد تحققت كلمات هذا الأسقف القديس إذ انتهى الأمر بخلع القاسم وتعيين حفص بن الوليد مكانه . ولما وصل الوالى الجديد إلى مصر قابله الأساقفة والأراخنة ورجوا منه أن يأذن لهم بالاجتماع للتشاور فمنحهم الاذن لماعته .

٤٤٨- وفرحوا بهذا التصريح المباشر فذهبوا على الفور إلى كنيسة الأنبا شنودة ببابلون حيث صلوا ثم جلسوا فى صمت وبعد فترة قصيرة انفت أسقف انمى إلى أسقف القديوم وسأله : « ما رأيك يا أبى فى الموضوع الذى اجتمعنا بسببه ؟ » أجابه : « للمرء فى التفكير والرب فى التدبير . وإنى لرائق تماماً بأن الله تعالى سيلهمنا اختيار الصالح من الرهبان . وأن القديس مرقس نفسه سيترك معنا فى الانتخاب » . وحين سمع المجتمعون هذه الكلمات استبشروا خيراً وقالوا بصوت واحد : « ليصنع ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح ارادته فينا » . ثم قرروا الانصراف على أن يعودوا للاجتماع فى اليوم التالى . واستمروا عشرة أيام يجتمعون ويصلون ثم ينصرفون بسلام دون الوصول إلى نتيجة .

وفى اليوم الحادى عشر اقترح بعض المجتمعين اسم راهب لم يوافق عليه البعض الآخر . فأخذوا يتبادلون النقاش حول صلاحية الراهب المقترح ثم احتدم الجدل دون أن يقتلع فريق برأى الآخر . وبدا كأنهم سينصرفون كما فعلوا فى الأيام السابقة من غير أن يصلوا إلى غايتهم المنشودة وكأن اجتماعاتهم لا تستهدف غير الجدل ! وعندها قال واحد من الجمع : إن لم يحضر اجتماعنا أسقفاً أوسيم وتزنوط قلن نصل إلى حل صحيح لموضوعنا .

٤٤٩- وكان الأنبا موميس شيخاً إذ ذاك . ولم تكن السنون وحدها هى المسئولة عن ضعفه بل كان المرض حليفها أيضاً ، فرأى أن يقضى بضعة أيام فى دير نهيا للاستشفاء . فلما جاءه رسل المؤمنين المجتمعين فى كنيسة الأنبا شنودة رأى أن يتحمل على نفسه ويلبى الدعوة لأهمية الموضوع . ولكنه

لمرضه لم يستطع أن يحتلى ظهر اللذبة التي أحضرها له . فأحضر له بعض أبداثه ثقالة وضعوا عليها مرتبة سمكة نقيه الأكم . فاستلقى عليها ثم حملوه إلى بابلون إلى كنيسة الأنبا شنودة . وحين وصل الأنبا مويسيس وجلس فى صدر الكنيسة وجد أن الجدال احترم بين المجتمعين فقال لهم : « إننا لن نصل إلى حل يرضى الجميع إلا بالصوم والصلاة فى عزم وحرارة لذلك أرى أن تنصرفوا الآن . وحالما يصل كل منكم إلى بيته ينقطع للصوم والصلاة مدى الأربع وعشرين ساعة التالية . وغدا نعود جميعاً إلى هذا المكان المقدس فى مثل هذه الساعة . وآمل أن يكون لله تعالى قد ألهنا النتيجة الصحيحة استجابة لصراعتنا » . فحسن هذا القول فى أعين الجميع وانصرفوا بسلام .

٤٥٠- وفى الليلة المكرسة للصلاة تنبه أحد شمامسة الأنبا مويسيس من نومه ، واقترب من فراش هذا الأسقف العظيم فوجده صاحياً فقال له : « أغفر لى يا أبى . فقد أوحى إلى ملاك الرب أن أخبرك بأن الراهب المستحق لهذه الكرامة العظمى هو ميخائيل المتنكسك بدير الأنبا مكارى الكبير » . أجابه الأنبا مويسيس على الفور : « حقاً إن ملاك الرب هو الذى أوحى إليك بهذا الاقتراح لأننى أعرف هذا الراهب وأعرف ما تجمل به من مزلياً » .

وفى اليوم التالى اجتمع الأساقفة والأراخنة فى كنيسة سرجيوس وواخس (١) . ولما اكتمل جمعهم قام أحدهم واقترح اسم الراهب ميخائيل قبل أن يعرف ما دار بين الأنبا مويسيس وشماسه . فلما تردد اسم هذا الراهب من فم إلى فم وقف الأنبا مويسيس وأعلن للجميع ما رآه شماسه فى الليلة السابقة . وعندها هتف الجميع « أكسيوس » ثلاث مرات . وفى الحال انتدبوا بعضاً منهم لمقابلة حفص الوالى والاستئذان منه فى الذهاب إلى برية شيهيت ومنها إلى الاسكندرية لاجراء المراسيم الكنسية التقليدية . ففتحهم هذا الوالى التصريح على الفور ، فخرجوا من داره قاصدين إلى برية شيهيت لساعتهم .

٤٥١- وبينما كان الأساقفة والأراخنة يتشاورون فى أمر الانتخاب ، كان

(١) هى الكنيسة الشهيرة باسم « أبى سرجة » من الكنائس الأثرية ببابلون (مصر عتوقة) .

رؤساء الأديرة والرهبان يتشاورون في أمر الجزية الباهظة التي كان القاسم قد فرضها عليهم . فرأوا أن خير وسيلة هي أن ينتدبوا بعضاً منهم ليذهبوا ويقابلوا حفص بن الوليد الوالي الجديد ، ويتظلموا إليه . وبالفعل اختاروا مندوبيهم - وكان بينهم الراهب ميخائيل الذي كان قد وقع عليه الاختيار ليجلس على الكرسي المرقسي الشاغر . وحدث أنه في اللحظة التي هم وفد الرهبان فيها بالخروج من الدير أن التقى بالوفد الآتي من القسطنطينية ليستصحب الراهب ميخائيل إلى الاسكندرية . وقد فرح مندوبو الأساقفة والأراخنة حينما وجدوا مختارهم بين نواب الرهبان . ومن ثم سار الوفدان معاً إلى القسطنطينية وهم يترنمون بالمزامير والتسابيح الكنسية المناسبة . ولما وصلوا إلى دار الولاية وقابلوا حفصاً أعلموه بما جرى . ففترس في الراهب ميخائيل بضع دقائق ثم قال : « حقاً إن هذا الرجل اختاره الله تعالى ليرعاكم ، فخذوه واذهبوا به بسلام » .

٤٥٢- وفي اليوم التالي ركب الجميع مركباً قاصدين إلى الاسكندرية . وبينما كانت المركب تنساب فوق مياه النيل ، كان الشعب يخرج في جموع متلاحقة على شاطئيه لتحية المختار للسدة المرقسية . بل لقد اضطر قبطان المركب إلى إيقافها أكثر من مرة ليمكن الجماهير من تأدية تحيتهم حسب ما يرغبون . وقد انتهز بعض المؤمنين فرصة رسم المركب لينزلوا في أوسيم طلباً للأنبا مويسيس الذي كان قد عاد إلى مقر رياسته حالما استقر الرأي على انتخاب الراهب ميخائيل . وكان لهم قريب مصلاً بدءاً للفالج مدة خمسة عشر عاماً . فحملوه إلى الأسقف للقدّيس . وحين اقتربوا من رجل الله صرخ المريض : « أرسم على علامة الصليب يا أبى مويسيس . أرسمها فقط وأنا أؤمن أنى سأشفى » . وعندها رسم الأنبا مويسيس علامة الصليب على رأس المريض ثم نفخ في وجهه فقام لساعته ومشى ، وأخذ يسبح الله الذي يمنح قديسيه المقدرة على اجراء الآيات والعجائب .

ثم انضم الأنبا مويسيس إلى الركب البابوي ، وساروا إلى الاسكندرية . فقابلهم الشعب هناك في جموع متدفقة وعلى رأسهم الكهنة والشمامسة وقد

حملوا الأنجيل وللشموع والمباخر والصليبان ، واتجهوا جميعاً في مركب رائع نحو الكنيسة المرقسية . وما كاد المركب يخطو بضع خطوات حتى انهمر المطر مدراراً . وكانت قد انقضت ستان لم ينزل خلالها إلا القدر الضئيل من المطر . فتهال الشعب لهذه الظاهرة إذ عدها علامة الرضى من رب الكنيسة على الراهب المختار . فازداد للتهليل ، وارتفع الهتاف . ولما وصلوا الكنيسة قام الأساقفة برسامة الراهب ميخائيل ، فأصبح الخليفة السادس والأربعين لرسول المسيحية في ديارنا المصرية سنة ٧٣٥ م (سنة ٤٥١ ش) .

٤٥٣- ولقد كانت السنة الأولى لبابوية الأنبا ميخائيل الأول مليئة بالعسف والضيق . ذلك أن اسامة بن يزيد متولى الخراج فرض ضرائب باهظة على المصريين وضاعفها على القبط . وبين الأملة على مغالاته في ابتزاز أموال الشعب المسكين أنه فرض ضريبة مقدارها عشر دنانير على كل من يتنقل من بلد إلى آخر عن طريق النيل . وكان عاتياً في الاستيلاء على الضرائب إلى حد أن أرملة كانت مسافرة في مركب ذات يوم ومعها ابنها . وحدث أن أراد ابنها هذا أن يستقى ماءً من النيل ، فخطفه التمساح على مشهد من جميع الركاب دون أن يستطيع أحدهم انقاذه . وكانت التذكرة التى تثبت أنها دفعت الضريبة فى جيب ابنها ساعة أن خطفه التمساح . فلما وصلت إلى البلد الذى تقصد إليه طالبها أعوان اسامة بن يزيد بالضريبة . وعبثاً حاولت أن تقدمهم بأنها دفعتها إذ قد أصروا على أخذ المبلغ منها ، غير مبالين بحزنها على فقد ولدها وبفقرها الذى اضطرت معه إلى بيع شئ مما عندها لتدفع الضريبة المفروضة مرة ثانية . وكان هذا التعسف فى الاستيلاء على المال بدعوى أنه ضريبة واجبة الأداء سبباً فى أن يسمى بعض القبط ولاءهم لمسيحياتهم . فأذكروها ليفوزوا بالاعفاء من دفع المال الذى حتمه عليهم اسامة بن يزيد (١) . وقد لعل قلب الأنبا ميخائيل الأول حزناً وغمماً حينما راجه هذه الخيانة من هؤلاء الأبناء الجاحدين ، فلم يجد أمامه وسيلة للمحافظة على شعبه غير الصلاة . وعلى ذلك قصد هو وبعض الأساقفة إلى برية شيهيت حيث

(١) تاريخ الأمة القبطية ليغوب نخلة روفيلة من ٧٠ - ٧١ .

انقطعوا للصوم والصلاة ضارعين إلى الآب السماوى أن يقدارك المؤمنين بمراحمه ويرفع عنهم الجور والاستبداد . فاستجاب الله تعالى لهذه الصراحة الحارة ، وهى الفرج إذ قد وصل الأمر من الخليفة مروان الثانى برفع يد اسامة ويتعيين حسان مكانه . وقد امتاز حسان هذا بالحكمة حتى أن معاصريه شبهوه بالملك سليمان بن داود . وقد بنت هذه الحكمة فى خطة العطف واللين التى اتبعها مع المصريين . فتهلل قلب الأنبا ميخائيل الأول لذلك ، ويادله الزيارات . وامتلاً قلب حسان اعجاباً بالبابا الاسكندرى إلى حد جعله يتخذة مستشاراً له . ولما كان الأنبا مويسيس من الملازمين للأنبا ميخائيل الأول ، فقد توطدت بين الولاى حسان وبين هذا الأسقف القديس أواصر الصداقة . وقد سعد الجميع بهذه الألفة التى ربطت بينهم . فقصد حسان إلى أوسيم حيث قضى ثلاث سنين ليكون على مقربة من الأنبا مويسيس ويستشيريه فى جلائل الأمور ويسترشد بأرائه فى ادارة شئون البلاد .

وفى هذه الفترة التى تنفس فيها المصريون الصعداء ازدادت حدة التوتر بين الأمراء لتزايد المنافسة بينهم فوجد الخليفة نفسه عاجزاً عن حفظ النظام واضطر إلى فرض سلطته بحد السيف . ثم استتب الأمر فى النهاية لمروان ، على أنه لم يجد من وسيلة للاحتفاظ بمركزه غير القوة فاستبد بالأمراء والولاة قبل أن يستبد بالشعوب .

٤٥٤- وقد عاود الخلقيدونيون مؤامراتهم فى تلك الأثناء فقدموا هدايا نفيسة من الذهب والفضة والحديد للخليفة ونجحوا فى اقامة أسقف لهم على الاسكندرية . ولما فازوا بهذا النصر رفعوا طلباً إلى مروان أدعوا فيه بأن كنيسة مارمينا بمريوط ملك لهم لا للقبط . غير أن هذا الطلب الثانى لم يلق الترحيب الذى قوبلت به رسالة الأسقف لأن هذا الخليفة أمرهم بالمثل بين يديه فى حضرة الأنبا ميخائيل الأول ليعلم كل من الطرفين ما لديه من الحجج التى تكبت حقه فى ملكية هذه الكنيسة .

٤٥٥- وما أن عرف البابا الاسكندرى رغبة الخليفة حتى غادر الاسكندرية على الفور واستقل مركباً إلى القسطنطينية . ولما وصل إلى أوسيم

انضم إليه أسقفها الأنبا مويسى يصحبه عدد من الكهنة والأراخنة . ثم استقبل الأنبا ثيودوريس أسقف باهلون الركب البابوى عدد وصوله إلى القسطنطينية . وذهب الجميع معاً إلى دار الخلافة حيث تناقشوا مع الخلقيدونيين في حاضرة الخليفة مروان . وبعد نقاش دلم عدة أيام طلب الخليفة إلى كل من الفريقين أن يقدم مستنداته كدابة . وعلى أثر ذلك عقد الأنبا ميخائيل الأول مجمعاً من أساقفة الكرزة المرقسية وأراخنتها . وبعد أن تداولوا معاً كتب البابا الاسكندري رسالة مملوءة نعمة وحكمة قال فيها : « من ميخائيل - بنعمة الله أسقف الاسكندرية وبابا للشعب القبطي » إلى أولى الأمر - أنه في عهد الأميرين الثقبين هونوريوس وأركادىوس ، وفى أثناء باباوية الأنبا ثيوفيلس البابا الاسكندري الثالث والعشرين ، قد بدئ بتشييد كنيسة الشهيد مارمينا المعجنى . لأن هذا البابا الجليل كان ولوعاً بالفن المعماري شغوفاً باقامة بيوت العبادة ليهيئ للناس أسباب التقرب إلى الله تعالى . فبدأ فى بناء هذه الكنيسة ، وأتم بناءها الأنبا تيموثيوس الثانى البابا الاسكندري السادس والعشرون فى عهد الامبراطور زينون الذى حاول أن يكفر عن سيئات سلفه الامبراطور مرقيانوس باغداق المعطايا على الأديرة والكنائس . وكان مرقيانوس هذا قد أمر بعقد مجمع خلقيدون وتجنى فيه على الأنبا ديسقورس البابا الاسكندري الخامس والعشرين ، وأمر بنفيه ، ثم أمعن فى تعذيب الشعب القبطى المخلص لعقيدته الأرثوذكسية وللبابا البطل المنفى المفترى عليه . ومذاك حاول الخلقيدونيون أن يبطشوا بالقبط بكل وسيلة ، واستمر بطشهم بنا إلى أن آل الملك إلى العرب بعد سقوط الامبراطورية البيزنطية سنة ٦٤١ م . وإننا - حتى هذه الساعة - نصر على عدم الاعتراف بمجمع خلقيدون ونجهر ببطلان قراراته ، كما نؤكد ثقتنا فى الأنبا ديسقورس الذى تحمل النقي والتشريد دون أن يتزعزع عن ايمانه الأرثوذكسى قيد أنملة .

أما الخلقيدونيون فكتبوا مذكرة موجزة . ثم قدم كل من الطرفين رسالته إلى عيسى رئيس الديوان الذى كان متوطناً به النظر فى أمر هذا النزاع . على أن هذا الرئيس ألقى بالرسالتين فى الدرج ولم يعط جواباً مدة شهر كامل . وبازاء هذا التلكؤ أخذ بعض القبط يتساءلون عن السبب ، وخامرهم الشك فى

أن عيسى رئيس الديوان قد عطل للحكم فى هذا الموضوع لياخذ رشوة . وحين ساورتهم هذه الشكوك اعترفوا بها للأنبا مويسيس ، فأجابهم هذا الأسقف القديس قائلاً : « ليس من اللائق أن يتقدم مثلنا برشوة . ونحن لم نضطر إلى الانتظار عشرة سنين ، ولا حتى سنة ، كما اضطر أبائنا فى مختلف المناسبات ، ف نحن نعيش فى بيوتنا ونصلى فى كنائسنا ، وليس بيننا من اضطره الظلم إلى الهرب أو إلى الصلاة فى رحاب الصحراء . فلنصبر إذن ، ولننتظر ، لأن الله تعالى لن يتركنا ولن يخلى عنا ، .

ولقد استجاب الآب السماوى لثقة الأنبا مويسيس فى الأسبوع عينه ، إذ قد أصدر الخليفة مروان الأمر بعزل عيسى من الديوان وتعيين أبى الحسين مكانه . وكان أبى الحسين هذا ابناً لقاضٍ من كبار القضاة ، كما كان عادلاً حكماً . فاستهل عمله بقراءة التقريرين المرفوعين من القبط والخليدونيين . وبعد أن قرأهما اطلع الوالى عليهما واتفق كلاهما على أحقية القبط بملكية الكنيسة . وعندها خرج أبى الحسين من دار الولاية وأرسل فى طلب الطرفين المتنازعين وما أن مثل الجميع بين يديه حتى التفت إلى الخليدونى الدخيل وقال له : « إن تقريرك يثبت أن لا إله لك ولا دين ، وأن الكنيسة ملك القبط فإن شئت فأكتب تقريراً ثانياً ، . فلما أحسوا الخليدونيون بأن قضيتهم خاسرة بعثوا إلى الأنبا ميخائيل الأول والأنبا مويسيس وبقية الأساقفة الأرثوذكسيين طالبين الانضمام إلى الكنيسة القبطية . على أن البابا الاسكندرى رأى أن يمتحنهم أولاً ، ووافق الأنبا مويسيس على رأيه وبعد مداولات ثبت للمجمع الاسكندرى أن هؤلاء الخليدونيين منافقون لا يبغيون غير الاستيلاء على كنيسة مارمينا ، فرفض طلبهم .

وحدث بعد ذلك بأيام أن أرسل أبى الحسين فى طلب القبط والخليدونيين مرة ثانية ليفصل فى أمر النزاع القائم حول كنيسة مارمينا . فجاء إليه الأنبا ميخائيل الأول بنفسه يصحبه عدد من الأساقفة . فلما استقر بهم المقام التفت أبى الحسين إلى البابا المرقسى وقال له : « أتقسم بالله العلى أن هذه الكنيسة ملك لك ولأبائك من قبلك ؟ ، أجابه رجل لله على الفور : « إن دينى ينهانى

عن القسم ويأمرنى أن أقول الصدق مهما كلفنى قوله ، . قالتفت القاضى إذ ذاك إلى الخليفونى النخيل وسأله : : أتقسم بأن الكنيسة ملك لك ؟ ، أجابه بلا تردد : : نعم . إبنى على أتم استعداد لأن أقسم . وما كاد أبو الحسين يسمع هذه الكلمات حتى هز رأسه ساخراً ثم وجه الخطاب إلى الأنبا ميخائيل الأول قائلاً : : أين شهودك ؟ ، أجابه البابا المرقسى : : لقد شيد الأنبا ثيوفيلس هذه الكنيسة وزينها باثنتى عشر عاموداً نقش اسمه على كل عامود منها . ثم أكمل الأنبا تيموثيوس البناء ونقش اسمه على إحدى جدرانه . فشهودى لديك هم أسلافى الأماجد ، . فلما سمع أبو الحسين هذه الكلمات بعث برسله فوراً إلى كنيسة مارمينا ليتحققوا مما قاله البابا الاسكندرى الجليل . فلم يلبث هؤلاء الرسل أن عادوا وأقروا بصحة أقوال هذا البابا للوقور أمام أبى الحسين والمجتمعين معه . فما كان من هذا القاضى المنصف إلا أن أمر بتسليم كنيسة مارمينا للأنبا ميخائيل الأول مهنداً إياه على تمسكه بالحق . فخرج هو وصاحبه من دار الولاية معززين مكرمين (١) .

٤٥٦- ولكن فترة السلام كانت قصيرة الأمد ، لأن الأمراء عاودوا منافساتهم ، إذ كان كل واحد منهم يتفازع مع غيره أملاً فى أن يظفر بالخلافة . على أن مروان ظل قابضاً على صولجان الحكم عن طريق الفتك والارهاب . وأصدر أمراً إلى واليه فى مصر بمضاغفة الضرائب والتشدد فى جبايتها ، توهماً منه أن مثل هذا الاستبداد يهضف من عزيمة المصريين فيمنعهم من القيام بثورة عليه . وقد غالى الوالى فى تنفيذ أوامر مروان فطالب اللقب بدفع مبالغ باهظة . ولما لم يستطع الأنبا ميخائيل الأول أن يدفعها أمر الوالى بالقائه فى السجن ، ووضع طرق من حديد حول عنقه ، وربط كتلة ثقيلة من الخشب إلى كل من قدميه . كذلك أمر الوالى بطرح الأنبا موسى أسقف أوسيم والأنبا ثيودورس أسقف بابلون وإيلياس تلميذ الأنبا موسى فى السجن ، ولو أنه لم يكلهم بالحديد والخشب كما فعل بالأنبا ميخائيل الأول .

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شريعة الصوامى البرموسى عن النسخة المحفوظة بديره من ١٤٦ - ١٥٢ .

٤٥٧- وكان السجن الذي أُلقي فيه البابا الاسكندري وصاحبه مغارة منحوتة في صخرة ، وليس بها فتحة واحدة تسمح ببصيص من النور أو نفحة من الهواء ومع أن هذه المغارة كانت عديمة للنور والهواء إلا أن الوالي رمى فيها بعدد غير قليل من الناس . وحين علم بعض المسجونين بأن الخليفة المرقسي سجين معهم أنبهم ضميرهم وامتلأوا ندماً فاستعطفوه أن يصلى من أجلهم ويحلهم من خطاياهم . وقد امتلأ قلب رجل الله عطفاً وحناناً على هؤلاء البائسين النادمين ، فأخذ يكلمهم في رقة وعذوبة . ويعد أن عزى قلوبهم الكبيرة منحهم بركته (١) .

أما الأسقفان للمسجونان مع البابا المرقسي فقد كرما وقتهما في السجن لخدمة باباهم الصبور . ولم يستطع أحدهم أن يغير ملابسه مدى سبعة عشر يوماً . ومع أنهما لم يكبلا بالقيود إلا أنهما كانا يحسان بقل هذه القيود كأنهما مقيدان مع باباهما .

٤٥٨- وحدث أن عين رجل مؤمن مشرقاً على مائدة الملك ، واستطاع أن يحظى برضاه فانتدب هذه الفرصة ليتشفع في البابا السجين ، وقال الاذن في أن يزوره ويحضر له ما يحتاج من طعام وملابس (٢) .

٤٥٩- وبعد انقضاء شهر من الزمان ، والأنبا ميخائيل الأول وزملاءه مطروحين في هذه المغارة الضيقة الحالكة الظلام ، استحضرهم الوالي وطالبهم بدفع الجزية المفروضة عليهم . فأجابه الخليفة المرقسي : « إننى لا أملك شيئاً ، فإن كان لابد من دفعها فاسمحوا لى بأن أطوف الصعيد لأجمع

(١) تاريخ بطاركة الاسكندرية للأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشميرين (طبعة ليفيتس) ج ٢ ص ١٣٤ - ١٣٦ .

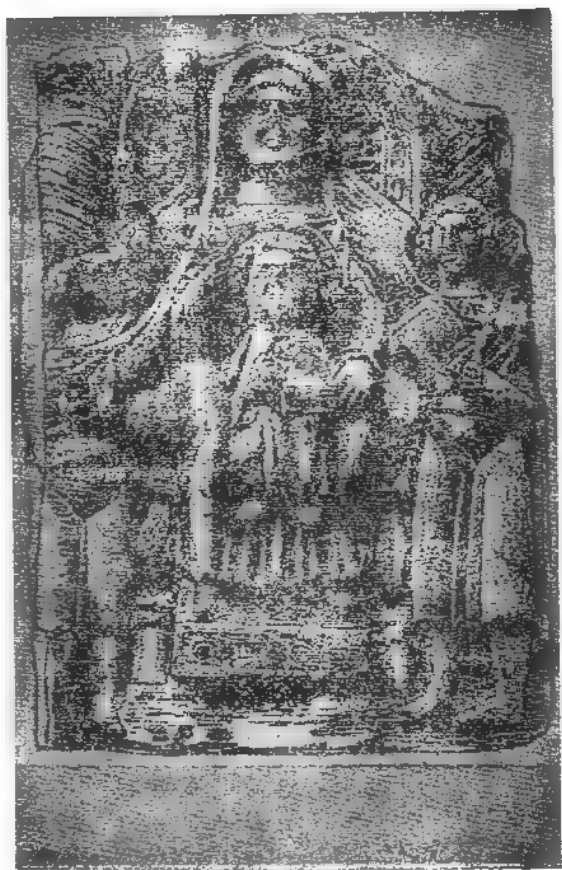
(٢) مخطوط رقم ٢٨٧ تاريخ كنسى ، غير كامل ، محفوظ بالمكتبة الأهلية ببليس ، ورد على ص ١٠٥ (١٠٥) للنص التالي : « ... واعتقل البطريرك ووضع في حقه طوق حديد وأُلقي في السجن شهراً كاملاً ومع ثلاثمائة رجل ونساء أيضاً وكان المرضى يأتون إلى باب السجن فيبارك عليهم البطريرك فيبرأون حتى المسلمين والبربر منهم وكان على مائدة الملك رجل مؤمن خير يهدم بالآب للبطرك ويقتنذنا ويوجب لنا في السجن ما نحتاج إليه وكانت كورة مصر قد هلك أهلها من العظم والخسائر والخزراج .

من أهدائي ما يمكنني جمعه ، . فحسن هذا الكلام في عيني الوالى ، ومن ثم استقل الأنبا ميخائيل الأول مركباً سارت به جنوباً . وكان كلما رست للمركب فى مكان ما - ينزل البابا المرقسى ومن معه ويزورون الأهالى . وحينما سمع الشعب أن باباهم قادم إليهم هرعوا لاستقباله . ويعد أن يقضى معهم يوماً أو أكثر يتركهم للذهاب إلى بلاد آخر . وقد أظهر القبط ولاهم وتقديرهم لراعيهم الأول بأن قدموا له كل ما يمكنهم من مال . وحينما كانوا يسمعون أنه قضى ثلاثين يوماً فى السجن مكبلاً بالقيود كانوا يزدادون إعجاباً به وقد أفاض الله نعمته على هذا البابا الصبور فمنحه قوة الشفاء . فكان يشق على مرضى شعبه ويشفيهم باللمسة الالهية المتدفقة خلاله . وهكذا امتلأت قلوب أهل الصعيد بهجة وصفاء .

٤٦٠ - وقد عاد الأنبا ميخائيل الأول من رحلته فى الحادى والعشرين من طوبة (٢٨ يناير) . وكان هذا اليوم الذى وصل فيه إلى القسطنطينية وفزع (١) . فقد زلزلت الأرض زلزلاً عديفاً أسقط عدداً وفيراً من البيوت كما أغرق عدداً من المراكب . وحينما ولج البابا للمرقسى هذه الثورة الطبيعية المزعجة دعا شعبه إلى الصلاة . فتوجه للجميع إلى الله ضارعين إليه أن يقيهم شر هذه الطبيعة الساخطة التى لم تثبت أن هدأت . ويبدو أن الزلزال قد لين قلب الوالى فقبل المبلغ الذى قدمه إليه البابا الاسكندرى دون أن يبدى شيئاً من التبرم . وما أن وجد الأنبا ميخائيل الأول نفسه حراً طليفاً حتى توجه إلى كنيسة أبى سرجة بياجلون حيث صلى القداس الالهى شكراً لله على جزيل نعمائه . وقد اشترك معه فى الصلاة جمهور كبير من القبط تصيحاً للخالق الرحيم الذى تراءف عليهم بأن حن قلب الوالى .

٤٦١ - وحدث - حين كان الأنبا ميخائيل الأول معتقلاً فى السجن - أن بلغ قرياقوس ملك النوبة خبر هذا السجن فغضب غضبة مضرة ، وجرد جيشه ، وسار على رأسه إلى مصر . وتغلب على المصريين فى الصعيد ،

(١) حدث زلزال سنة ٧٥٠م وأغلب الناس أنه هو الذى حدث فى هذه الفترة .



السيدة العذراء وقد جلس المخلص على ركبتيها
نحت على الحجر يرجح أنه من مخلفات القرن التاسع

ونقدم نحو القسطنطينية . وحين اقترب منها بحث بأحد رجاله إلى عبد الملك بن مروان يطلب إليه الإفراج عن البابا الاسكندري . على أن عبد الملك قبض على هذا الرسول الملكي وزج به في السجن بدلاً من إطلاق سراح الأنبا ميخائيل الأول . فلما استبطأ الملك النوبي رسوله عاوده الغضب واستمر في زحفه على القسطنطينية . وكان النصر حليفه إذ قد تمكن من الوصول إلى البقعة التي كانت معروفة يومذاك ببركة الحبش في ظاهر القسطنطينية . وعندها خشي عبد الملك أن يدخل الملك قرياقوس عاصمته ، فأطلق سراح المندوب النوبي ثم رجا منه أن يشفع فيه لدى ملكه ويؤكد له أن الأنبا ميخائيل الأول لم يصبح حراً طليقاً فحسب بل أنه سيبقى كل تجلة واحترام . ورجى المندوب النوبي أن يتوسط عند الملك ، ولكن هذا الملك لم يقبل وساطة رسوله إذ تشكك في حقيقة إطلاق سراح البابا الاسكندري ، ولم يكف عن القتال إلا حين ذهب إليه هذا البابا الجليل بنفسه ، ورجا منه أن يعود إلى بلاده في ثقة واطمئنان (١) .

٤٦٢- ولقد كان لوساطة الأنبا ميخائيل الأول أكبر الأثر في نفس عبد الملك بن مروان إذ قد امتلأ قلبه حباً للبابا الاسكندري وتقديراً له ، وبالتالي أحس بعطف كبير على المسيحيين . واعتاد بعد ذلك أن يزور الأنبا ميخائيل الأول وأساقفته ويستشيرهم في جلائل الأمور .

٤٦٣- ولقد كان البابا ميخائيل الأول عذب الحديث ذا وجه باسم وضاء وقامة معتدلة ، هادئاً وقوراً . وكان تعليمه كالسيف القاطع للمبتدعين وكالملاح لذوى الإيمان المستقيم . وكانت يد الرب معه أينما سار وحيثما حل . وقد تهلل قلبه لما طرأ على عبد الملك من تغيير ، فقصى وقته في تشييد الكنائس التي تهدمت وفي تثبيت القلوب التي وهنت (٢) .

(١) تاريخ مصر في القرنين الوسطى (بالانجليزية) لستافى لاين هول طبعة لندن سنة ١٩٣٦ ص ٢٧ ، تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ج ٢ ص ١٤٤ - ١٤٥ ، مصر من ميناء إلى فؤاد الأول (بالفرنسية) للأب دى هيلو ص ٢٠٧ ، كنيسة الاسكندرية في أفريقيا لأزهر رياض ص ١٦٦ .

(٢) تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع ... ج ٢ ص ١٤٨ .

٤٦٤- على أن السلام لم يتم أمده لأن الخليفة مروان أقام ابنه الثاني (المدعو مروان أيضاً) قائداً للجيش . ولنتهز عامل الخراج الفرصة قضاةف الجزية على القبط وشدد عليهم الخناق إلى حد جعلهم يدورون عليه ثورة عارمة اتخذت شكل حرب نظامية . وكان قائد الجيش القبطى فى تلك الحرب يؤنس السمودى . وقد دامت هذه الحرب عدة أيام انتهت بهزيمة القبط نتيجة لخيانة أحدهم (١) . فقد تمكن الحصد قلب هذا الخائن فجاء إلى مروان بن مروان ليلاً وأعلمه بالمكان الذى أقيمت فيه خيمة يؤنس السمودى . فسار جند مروان فى حلك للظلام خلف هذا الرجل الحسود إلى أن بلغوا خيمة القائد يؤنس وبخلوها خلسة وقتلوه وهروناثم . وما أن قتلوه حتى دقوا طبول النصر . فصحا للجند للقبط ووجدوا جند مروان محيطين بهم من كل جانب ، وعلموا أن قائدهم قد قتل غدرًا . ولكنهم - رغم هذا - لم يسلموا ، وظلوا يقاتلون إلى أن غلبوا على أمرهم نهائياً . فكانت المعركة فى هذه الليلة الأخيرة أشبه بمذبحة هائلة منها بحرب نظامية ، راح ضحيتها مئات الرجال من القبط حتى لم يخلو بيت من قنيل أو جريح أو سجين .

٤٦٥- وقد دارت رحى هذه الحرب الأهلية فى الآونة التى كانت الدولة الأموية على وشك أن تلفظ آخر أنفاسها . فقد قضى مروان على كرسى الخلافة ستين سبعا : قضاهما شاهراً السلاح فى وجه كل منافسه . وكانت بوادر الثورة قد أخذت فى الظهور بعد لنقصاء هذه الستين للسبع . فانتهز امبراطور القسطنطينية - قسطنطين الخامس - فرصة تأجج نيران الثورة فى جميع أركان الدولة الأموية وزحف بجيشه على آسيا الصغرى . وهكذا أصبح مروان بين نارين نار الثورة التى أشعلها عليه قومه ونار الغزو من الامبراطورية القسطنطينية على الحدود الشمالية لسوريا (٢) . وفى هذه الفترة المليئة بالثورات

(١) تاريخ مصر الإسلامية لآبى الأيوب طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٢ من ٩٦ ، القول الابريزى للعلامة المغريزى من ٥١ .

(٢) الخلافة : ترجمارها واحتلالها فسقوطها (بالانجليزية) للسير ولثم مير طبع فى أدنبرج سنة ١٩١٥ من ٤٠٩ - ٤١٦ - ٤٢٢ .

والقلائق والأحزاب المتنافرة ظهر خصم جديد لم يكن في الحسبان - فقد رفع أبو مسلم العلم الأسود الذى للعباسيين - وكان سياسياً لبقاً فتمكن من توحيد القبائل المتخاصمة تحت رايته . وسار على رأس هذه القبائل نحو الولايات الخاضعة للدولة الأموية ونجح أبو مسلم فى قهر الولايات الواحدة تلو الأخرى دون أن يحاول الخليفة مروان نجدها . ثم بحث له أحد ولاته برسالة أبلغه فيها أنه جالس فوق بركان ثائر وختم رسالته هذه بقوله : « ترى أين هم بنو أمية ؟ أنيام هم أم مستيقظون ؟ » وقد حفزت هذه الرسالة مروان إلى إرسال نجدة على الفور . ولكن القوة التى أرسلها لم تكن كافية لصعد القوات الزاحفة عليها . فقرر الخليفة أن ينزل الميدان بنفسه - ولكنه نزل بعد قولات الأوان . فقد قامت مملكته على الاستبداد والحكم بالسيف ، مما زاد عدد خصومه والساعين إلى اسقاطه . فتداعت الأرض من تحته حالما ظهر خطر العباسيين . وتلفت مروان يمينه ويسرة فوجد حصونه تتداعى للوحد تلو الآخر . ولم يجد أمامه سبيلاً غير الالتجاء إلى مصر فراراً من وجه خصومه وقومها منه أنه يستطيع أن يستجمع قواه فى وادى النيل ويكر على الزاحفين عليه ويغلبهم . فلما وصل إلى مصر وجدها فى حالة اضطراب وفوضى : فالسجون كانت غاصّة بالقبط الذين سقطوا أسرى بعد مقتل قائدهم يؤنس السمودى وهزيمتهم النكراء . وفوق هذا فقد رأى البشموريون أن يشقوا عصا الطاعة بدورهم . ولكنهم رأوا أن يقوموا بحرب العصابات بدلاً من الحرب النظامية ليستطيعوا أن يغتوا فى عصد جند الولى . وكان رئيس البشموريين الثائرين واحداً منهم واسمه مينا بن بغيرة . فكان يخرج هو ورجاله ليلاً يقتلون وينهبون ويشيعون للفرع بين الجند المرابطين فى حدود مديريتهم . ثم يختبئون فى النهار متحصنين خلف الترع والمستنقعات التى تكتنف أراضيهم والتى لا يعرف مخاضاتها غيرهم . وقد رأى مروان - بازاء حرج موقفه من القوات الموالية لأبى العباس - أن يلجأ لمفاوضة البشموريين بدلاً من الاستمرار فى محاربتهم . ولكنهم رفضوا المفاوضة وأصرروا على القتال (١) .

(١) تاريخ الأمة القبطية ليعقوب نخلة رويقة ص ٧٦ - ٧٧ .

٤٦٦- وكان كل هذه الدورات والحروب لم تكن كافية لتخفف الخليفة مروان بقرب انهيار عرشه ، فزاد عليها قيام والى الاسكندرية بالثورة ضده أيضاً وإعلان استقلاله بحكم هذه المدينة . فصاق مروان ذرعاً بهذه النيران المشتعلة حوله من كل جانب ، ولم يجد بداً من إرسال حوثره أكثر قواده بطشاً لقمع الثورة فى الاسكندرية . فقهروا حوثره الجيش الاسكندرى ، وفكك بالاهالى فتكاً ذريعاً . وفى سورة غضبه ألقى القبض على الأنبا ميخائيل الأول وزعماء القبط . وفرض عليهم أداء مبلغ ضخيم من المال . فلما عجزوا عن أدائه عثفهم على الثورة التى قام بها البشموريين تعنيفاً شديداً ، وألقاهم جميعاً فى السجن بعد أن كبل قدامى البابا الاسكندرى بالحديد كما أمر بضمريه . ثم خطر فى بال حوثره أنه إن تمادى فى التتكيل بالأنبا ميخائيل الأول فقد يتمادى البشموريون فى قتالهم ضد جند مروان . فتك قيوده ولقناده إلى رشيد . ومن هناك استكتب البابا الاسكندرى خطاباً إلى البشموريين وقفهم فيه على كل ما أصابه ولامهم على تماديهم فى العدوان . وحين قرأ هؤلاء اللوار خطاب باباهم احتدم غضبهم فصاعفوا هجماتهم على جند والى (١) .

٤٦٧- وبينما كان مروان متشاغلاً بالعمل على قمع ثورة البشموريين وتمرد والى الاسكندرية بلغه أن أبا مسلم وجنده - من الخراسانيين (٢) - قد اجتازوا الحدود المصرية . وعندها بعث برسول عاجل إلى حوثره يستدعيه للعودة إلى القسطنطينية على الفور ، كما بعث برسول آخر إلى جنوده الذين يقاثلون البشموريين يستدعيهم أيضاً . ولقد أوصى الجميع بأن ينهبوا ويسلبوا كل ما تصل إليه أيديهم وأن يشعلوا النيران فى كل الأماكن التى يغادرونها . وكانت هذه الأوامر نتيجة لما أحس به مروان من خطر داهم .

وحين وصل رسول الخليفة إلى حوثره استدعى هذا القائد العشوم ضابطاً

(١) تاريخ البطركية - مخطوط بقلم القمص شودة الصوامى الهرموسى عن النسخة المحفوظة بدير الهرموس ج ١ من ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) خراسان هى بلاد شامسة تقع شرقى إيران وإلى الغرب من الهند ، وتقع للصمرأ الفارسية إلى الجنوب والجنوب الشرقى منها .

بقى فيه الثقة كلها وأمره أن يوصل الأنبا ميخائيل الأول وصحبه إلى القسطنطينية فرأى هذا الضابط أن يعود بهم إلى العاصمة عن طريق النيل تجنباً لما قد يتعرض له من خطر الثوار . وعندها سارع سكرتير البابا الاسكندري إلى أرمين ليطلع أسقفها الأنبا مويسيس على ما جرى . وبينما كان الرجلان يتشاوران مرت بهما المركب التي تقل الأنبا ميخائيل الأول ورجاله فانضم إليهم الأنبا مويسيس قائلاً : « من شاء أن ينال اكليل الشهادة فليتبعد لأن هذا هو اليوم الذي طالما تمنيته ، ولو أنى أحسب نفسي غير أهل لأن أسفك دمي على اسم ذلك الذي سفك دمه الزكي على عود الصليب من أجل خلاصي » . كذلك انضم إليهم سكرتير البابا المرقسي وقارئ من دير الأنبا مكاري الكبير ورجل من بليس .

٤٦٨- وأدرك مروان أن الأمور تأزمت للغاية إذ بدأ العدو يزحف من الحدود المصرية إلى داخل البلاد . فأمر عازف البوق أن يعلن أهل القسطنطينية بوجوب إخلاء المدينة لأنه قرر إشعال النار فيها بعد ثلاثة أيام . وإن من لم يخرج من هذه المدينة بعد الأيام الثلاثة المحددة سيأمر مروان بقتله قبل إحراق العاصمة . وما أن أخذ عازف البوق يعلن أهالي القسطنطينية بوجوب إخلاء المدينة حتى تملكهم الفزع . فخرجت جموعهم على غير هدى متجهة نحو الجزيرة والجزيرة وكانوا يتزاحمون على المراكب الراسية على شاطئ النيل ويتدافعون بغير وعى فغرق العدد العديد منهم . كذلك تنافس الناس - في رعبهم المرضي والمقعدن والمكفوفين فتركوهم لمصيرهم . وحين تفقد مروان القسطنطينية بعد الأيام الثلاثة التي حددها لم يجد غير هؤلاء العاجزين فلم يشفق عليهم بل أمر بإشعال النار في المدينة وهم فيها فراحوا جميعاً ضحية اللهيب المتقد .

٤٦٩- وحالما انتهى مروان من حرق القسطنطينية ركب مركباً واجتاز النيل إلى صفته الغربية ليكون في مأمن من أعدائه . على أنه رغم اضطرابه إلى الهرب وإلى محاولة استجماع قواه لملاقاة خصومه قد ظل على بطشه واستبداده . فأمر بعض جنوده بأن يحرسوا الأنبا ميخائيل الأول وصحبه ولا

يسمحوا لهم بالخروج ، وأن يسيروا بهم حيثما سار هو ، ويضعوهم تحت الحراسة المشددة على مقربة من المكان الذى ينصب هو فيه خيامه .

وفى مساء التاسع عشر من أبيب (٢٦ يوليو) وصلت ملاح الخراسانيين إلى الضفة الشرقية للذيل فى الجهة المقابلة للمنطقة التى أقام فيها مروان خيامه . ولم تكن هناك جسر فى تلك المنطقة كما أنه لم يخطر ببال الزاحقين أن يدخلوا البلاد عن طريق النهر فلم تكن مراكبهم الحربية معهم . وهكذا تجابه للخصمان دون أن يستطيع أحدهما مقاتلة الآخر لأن النهر للخالد كان قاصلاً بينهما .

٤٧٠- وفى اليوم التالى أمر مروان باستدعاء الأنبا ميخائيل الأول وأتباعه لأن أحد رجال البلاط كان قد استثار حفيظته ضد البابا الاسكندرى بأن همس فى أذنه : « أتخرف أن هذا البابا قد قال لقومه : استيئسوا فسينزع الله المملكة عن مروان ويعطيها لخصومه » ، ولما مثل رجل الله وصحبه بين يدى الخليفة مروان أمر هذا للطاغية أتباعه بأن يهينوه علناً وهم وقوف على ضفة النيل على مرأى من الجيشين وسمعهما . إلى حد أنه أمر بتف لحية البابا وبعدما أوسعهم الجند هزء وسخرية أمر مروان بترك البابا المرقسى فى العراء تحت أشعة الشمس اللافتحة . وكان هذا الحكم جائراً يومذاك لأن شمس مصر فى شهر يوليو محرقة على أنهم تحملوا قيظ الشمس بثبات عجيب كما تحملوا الاستخفاف والازدراء فى هدوء وسكينة .

٤٧١- وفى صبيحة اليوم الثالث وصل عدد من الأساقفة والرهبان إلى حيث يقيم الأنبا ميخائيل الأول - جاءوا من شيهيت للاستفسار عن حالة باباهم ومشاركته الآمه . وتصادف أن وصلوا قبل انبثاق الفجر . وما كاد الظلام ينقشع وتبدد أشعة الشمس المشرقة حتى جاء السياف إلى الخيمة التى يقيم فيها الأنبا ميخائيل الأول ، وأمسك بيده قائلاً : « إن الخليفة يريد رؤيته بمفرده » ولكن الأنبا مويسيس لم يعجبه هذا الأمر ، فوقف إلى جانب باباه قائلاً : « حى هو للرب إني إن أفترق عن أبى الروحى إذ قد آليت على نفسى أن أتبعه حيثما سار ، وبينما كان السياف يحاول اقناع هذا الأسقف بوجوب

العدول عن قراره ، دخل الخيمة رسول ثانٍ من رسل مروان وأعلن بأن الخليفة يريد أن يرى الأنبا ميخائيل الأول ومن معه . فذهبوا إليه جميعاً . وما أن راهم مروان حتى سلمهم إلى ضابط اسمه يزيد معروف بقسوته . فأخذ هذا الضابط يجهز آلات التعذيب إذ لم يكن استقر رأيه بعد على طريقة قتلهم . وفي تلك الساعة تقدم الأنبا مويسيس راجياً من البابا الاسكندري أن يصلي على رأسه صلاة التحليل (١) . عملاً بما يقتضيه الطقس القبطي . ومن ثم أخذ الجميع يصلون بعضهم لأجل البعض . وقال شبابهم لشيخهم : « متى وجدتم نعمة عند الرب فاذكرونا ، وكان هذا أيضاً عند ضفة النهر الخالد على مرأى الجيشين ومسمعهما . وكان لصلوات هؤلاء الشهداء (بخير سفك دم) أثر بعيد جعل عندنا من المسلمين المحيطين بهم يكون شفقة عليهم وعندما تقدم عبيد الله الابن الأكبر لمروان وأخذ يستعطف آباء عنهم قاتلاً : « تمهل يا أبى قبل أن تمس هؤلاء الرجال بأذى . فنحن الآن فى ضيق عظيم ، وقد نضطر للهرب إلى السودان ، والسودانيون أولاد روحيون لهذا الشيخ الوقور . قلوبك قتلته أو ألحقت به الأذى فإن السودانيون سيعرضون حتماً أيواننا ، بل قد يعمدون إلى الأخذ بثأره منا . وقد اقتنع مروان بمنطق ابنته فأمر يزيد أن يرجع عن قتلهم واكتفى بحبسهم . فساقهم يزيد إلى زنزانة خلف ثلاثة أبواب حيث الظلام دامس والهواء خائق . وفي هذا الحبس الضيق تكلم الأنبا ميخائيل الأول بكلمات العزاء الممثلة نعمة . وكانت كلماته أشبه بأنغام قيثارة عذبة ، بينما انطلقت نسمة الحياة من فمه وهو يسبح الله تعالى بتسابيح روحية ويواظب على الصوم والصلاة (٢) . أما الأنبا مويسيس فقد تنبأ قائلاً : « إن يقتلونا ولكننا سنظل محبوبين حتى يموت مروان » .

٤٧٢- وكان بين كبار القبط المذنبين رجل اسمه ابن قسطنس ، وكان هذا الرجل باراً يخاف الله ويحب الناس ، وقد توج هذه الصفات بالشجاعة . فهاهنا

(١) هي الصلاة التي يتلوها الكاهن على المؤمن لوطه من خطيته ، ويقراها الأسقف على الكاهن ، والبابا على الأسقف .

(٢) تاريخ البطارقة لسابريس بن المقفع أسقف الأشمونين طبعة ليفيتس ج-٣ ص ١٨٠ .

أن يكون البابا الاسكندري ومن معه فى ضيق شديد دون أن يعنى أحد بأمرهم ، وأخذ على عاتقه أن يخدمهم بنفسه . فكان يزورهم يومياً فى السجن ويحمل إليهم ما يحتاجون إليه (١) .

٤٧٣- وظل الجيشان فى مجابهة أحدهما الآخر أياماً عديدة . وفى تلك الأثناء أطلق مروان لجندته الحان ، فانشغلوا بالقتل والسلب واشعال النار فى البيوت والحقول . ولم تقتصر اعمال العنف التى تمادوا فيها على المنطقة التى كان مروان قد نصب خيامه فيها ، بل امتد إلى أقصى الصعيد . فذاق المصريون الأهوال على أيدي الجند . وقد ضاعف هؤلاء الجند تنكيلهم بالرهبان والراهبات ، وأمعنوا فى احراق الأديرة (٢) . وفى وسط هذه الآلام المريرة اتجهت القلوب والعيون إلى رب السماء ليتراءف على الشعب المصرى المعذب ولسان حالهم يردد كلمات صاحب المزمور حيث قال : ، تأملت عن اليمين وليصيرت ظم يكن من يعرفنى . ضاع المهرب منى ولم يوجد من يطلب نفسى فصرخت إليك يارب وقلت أنت هو رجائى وحظى فى أرض الأحياء ... ، (٣) . أو تلك البيت من الشعر الذى ارتفع به أحمد شوقي (أمير الشعراء) إلى المولى تعالى قائلاً :

سُدت على مذاهبى ومسالكى إلا إليك فما عسائى أصنع ،

(١) تاريخ البطركية مخطوط نقله القمص شودة للبرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس ج١ ص ١٧١ .

(٢) راجع ما أورده سنانلى لاين هول فى كتابه ، تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، (بالانجليزية) ص ٢٧ - ٢٨ نقلاً عن أبى صالح الأرمي . ويجدر القول هنا بأن المؤرخين اكتشفوا أخيراً أن الكتاب الذى نسيه من سبقهم إلى أبى صالح هو فى حقيقة الأمر من نتاج أبى المكارم القبطى الذى عاش فى القرن الثانى عشر . ويرجع للخطأ إلى أن النسخة الأولى التى عثر عليها الباحثون كانت تنقصها الورقة الأولى . وكانت جلدة هذه النسخة تحمل اسم أبى صالح - أى أنها كانت ملكاً له - وبما أنه لم يوجد أى اسم آخر على هذه النسخة الأولى فقد درج الكتاب على نسبتها إلى أبى صالح . ثم شاء الله أن يعثر الباحثون على نسخ أخرى عرفوا منها أن المؤلف هو أبى المكارم القبطى .

(٣) عن مزمور ١٤١ فى الأجبية ١٤٢ فى الكتاب المقدس .

ومن العجيب أن يستمر مروان في هذه الأعمال التي لا تؤدي إلا إلى كراهية الناس له في الوقت الذي كان أعداؤه يترصون به . فلم يكن يستغرب أن يحاول المصريون - في ضيقهم وفي استلجادهم بالله تعالى - القضاء على هذا الخليفة الفاشم . وكان مروان قد أقام حراسة على مخاضات النهر الخالد ، ورغم هذه الحراسة فقد قام من بين الأهالي من أرشد الخراسانيين سراً إلى مواضع المخاضات . وحين عرف الخراسانيون هذه للمواضع قسموا جيشهم إلى أربعة أقسام لكي يضمنوا النصر .

٤٧٤- وفي التاسع والعشرين من شهر أبيب خاض الخراسانيون النيل وانتقلت جيوشهم من صفته الشرقية إلى صفته الغربية . فلما رآهم مروان قادمين نحوه ورأى جموعهم تفوق جموعه عداً امتلاً رعباً فسارع إلى الهرب متجهاً جنوباً نحو صعيد مصر . ولشدة ما أصابه من الرعب ، ولرغبته في سرعة الهرب نسي أن الأنبا ميخائيل الأول وصحبه لا يزالون مطروحين في السجن . وقد أراد أن يباعد الشقة بينه وبين خصومه فأشعل النيران في التزهات (بالجيزة) قبل أن يتراجع مع جنده عن مواقعهم . على أن أهالي الجيزة تمكنوا من إطفاء للحريق بسرعة حالما ابتعد مروان عنهم . كذلك انتظر بعض المسلمين حتى مغيب الشمس ليتأكدوا من أن مروان لن يعود ثانية إليهم ثم فتحوا باب السجن الذي كان يضم البابا المرقسي وصحبه . ولم يكتفوا بإطلاق سراحهم بل ساروا معهم حتى أوصلوهم إلى دار الأنبا بطرس أسقف للجيزة . وفي الطريق انضم إليهم جمهور من القبط . وكان ذلك في ليلة الأحد الأول من شهر مسرى المبارك (١) .

٤٧٥- وكان لمروان عند بدء القتال ثمانية آلاف جندي لم يبق منهم غير أربعمائة . فازداد خوفاً من أن يظفر به أعداؤه ، واستمر يتقهقر جنوباً والخراسانيون يتعقبونه . فلما خشى أن يقع في أسرهم لجأ إلى الكنيسة القائمة

(١) وفي الليلة السابقة لبدء الصوم المعروف بصوم السيدة العذراء وينتهي في ١٦ مسرى (٢٢ أوتسطس) وهو اليوم الذي تجدد فيه الكنيسة بذكرى حمل الملائكة جسد ولادة الإله إلى السماء .

في بلدة أبي صير (١) حيث اختبأ داخل حرمها . على أن بعض جنده خانه وأفضى سر مكمه . فدخل عليه نفر من الخراسانيين وقتلوه . أما ولده فهربا إلى الحبشة (أثيوبيا) حيث قتل الأهالي أحدهما بينما تمكن الثاني من الالتجاء إلى فلسطين . وهناك قضى بضع سنين اقتيد بعدها إلى الخليفة المهدي الذي أكرم وفادته وسمح له أن يعيش في قصره . أما بنات مروان فكن قد اختبأت في كنيسة غير تلك التي اختبأ فيها أبوهن . على أن أحد أتباعهن خان العهد هو أيضا ولرشد للخراسانيين إلى موضع اختبأتهن . فأخذهن الأعداء عنوة إلى الأمير صالح أخى الخليفة العباسي . وكانت كبراهن فصيحة لا تنقصها الشجاعة ، فشغعت في أخواتها ونجحت في الحصول على حريتهن . وعندها ذهبن كلهن إلى حازن مسقط رؤوسهن حيث عشن في سلام بقية أيام حياتهن .

٤٧٦- ويسقط مروان انتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس ، فتحولت العاصمة من دمشق إلى الكوفة فيبغداد (٢) . أما للخراسانيون الذين عاونوا أبا العباس على النصر فقد اتصلوا بالأنبا ميخائيل الأول وأكرموه كل الاكرام وكانت التجارب قد صقلته فزادته حكمة وحكمة . وفي تلك الفترة تمكن من أن يعيد بناء الكنائس التي تهدمت وأن يستعيد أموالها المبددة . وقد أحسن الخراسانيون إلى اليعشوريين كذلك بأن أعفوه من الجزية كما منحهم الهبات للمالية الوفيرة .

وقد عاود للهدوء الحياة المصرية ، إلا أنه كان هدوءا مؤقتا للغاية ذلك لأن للعباسيين - رغم عملهم على لقرار الأمن - اتبعوا سياسة تبديل الولاة بسرعة خشية أن ينجح أحدهم في استمالة القلوب إليه فتمسول له نفسه

(١) هناك خمسة بلدان تحمل هذا الاسم وهي: أ- أبو صير المحطة (أبو حماد) بمديرية الشرفية ، ب- أبو صير الجيزة ، ج- أبو صير الملق بالواسطي ، د- أبو صير دقو باطسا الفيوم ، هـ- أبو صير معلود . وبما أن مروان هرب جنوبا فأباصير التي اختبأ في كنيسها لا يمكن إلا أن تكون تلك التي في الواسطي أو التي في الفيوم ويقال أيضا أنها في الجيزة .

(٢) الخلافة : ازدهارها وتحللها فسقطها ، (بالانجليزية) للمير ولیم مير طبع في أنطبرج سنة ١٩١٥ ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

الاستقلال بالبلد الذى ولى أمره (١) . وقد تعرب القلق والاضطراب إلى القلوب نتيجة لهذه السياسة إذ قد جعلت الشعور بعدم الاستقرار يسود الجميع . ومما زاد الطين بلة أن هؤلاء الولاة - لادرلهم أن مدة ولايتهم قصيرة - كانوا ينصرفون إلى جمع المال بشتى الوسائل حتى يغتفوا قبل عزلهم . وبالطبع كانت أسهل وسائلهم مضاعفة الضرائب وخاصة على القبط . وبعد أن ساد السلام بينتين كاملتين ولجأ القبط منضماً جديداً . لأن الولاة لم يتشدوا معهم فى جمع الجزية وفى المطالبة بمقادير باهظة من المال فحسب ولكتهم جعلوا للفقاعة للتعامل لمن ينكر دينه أيضاً . وقد أدت هذه الخطة الاستبدادية إلى أن يطن عدد من للقبط اعتناقهم الاسلام . فهاه الأتيا ميخائيل الأول الأمر ، وتوجع قلبه ، فذهب لمقابلة الولاى وذكره بالمهد الذى كان قائد للخراسانيين قد عاهدوا لياه عند انتصاره على مروان . فأجابه الولاى بأن للخليفة قد بعث بأوامر مشددة فى فرض الجزية الباهظة والحصول عليها بكافة الوسائل لأن أحد رجال بلاطه قد نجح فى لقاعه بأنه إن اتبع سياسة اللين مع القبط فسيثورون عليه . على أن مثل هذا العذر لم ينطل على البابا الاسكندرى فاستعان بالأتيا موسى على التفاوض مع كتبة للديوان . وبعد مفاوضات دامت شهراً كاملاً نجح هذان الحبران الصبوران فى تخفيض الجزية المفروضة .

٤٧٧- ولقد رأى الله تعالى - فى شامل عدله - أن يكافئ الأتيا ميخائيل الأول على جهاده الشاق المتواصل فهياً له الفرصة المولتية إذ قد صدر أمر الخليفة بتعيين رجل اسمه أبى عون والياً على مصر . وكان أبى عون هذا رجلاً منصفاً اتخذ حسن المعاملة خطة يسير بموجبها . ففتن القبط الصعداء ومجنوا الله تعالى الذى أقام عليهم هذا الولاى العادل . وانتهاز الأتيا ميخائيل الأول فرصة السلام فقام برحلة راعوية . ومرة أخرى - ضمن عشرات المرات - تلاقى الشعب براعيه فى ظل السلام بعد لتقصاء فترة الظلم والاستبداد ، إذ كانت خطة الباباوات الاسكندريين القيام بمثل هذه الرحلات الراعوية كى يراهم الشعب مستمتعين بالحرية والسلام بعدما جازوا الأهوال

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لانتلى لاين بويل من ٣٠ .

والآلام ليزدادوا يقيناً بأن مراحل الآب السماوى لابد متتاركة اياهم إن عاجلاً أو آجلاً . وقد تهلل قلب الأنبا ميخائيل الأول إذ رأى النعمة الالهية فائضة على أبنائه الرهبان إلى حد جعلت البعض منهم ينتبأ والبعض الآخر يشفى الأمراض (١) .

٤٧٨- وقد غير أبو عون مقر عاصمته بأن بنى ضاحيةً جديدة للفسطاط فى منطقة تعرف بام الحمراء القصوى عرفت فيما بعد باسم العسكر . وقد تضمنت هذه الضاحية الجديدة مساكن للوزراء والحرس الملكى ، وكانت متصلة بالفسطاط عن طريق الضولحى الأخرى المجاورة لها (٢) .

٤٧٩- وحدث أن ظل الكرسي الأنطاكى شاغراً مدة من الزمن بسبب الأحداث السياسية . فاشتبهى اسقف اسقف حاران أن يحظى بشرف اعتلائه . وكان اسقف هذا على صلة وثيقة بالملك عبد الله أبى جعفر لأن الله جل اسمه كان قد رزق هذا الملك ابناً بصلاته . وكان عبد الله مقيماً بحاران فى تلك للفترة . فاستعان اسقف بعبد الله ليحقق أمليته . فلم يكف هذا الملك بتعصيد اسقف فيما يرجوه ، ولكنه قتل أسقفين عارضاه فى رغبته قاتلين له : : إنك أسقف ، وما دمت قد نلت هذه الكرامة وجب عليك الخضوع للقوانين الرسولية القاضية بأن لا يترك أسقف ايبارشيتة لغيرها . كذلك نهى الرسل عن أخذ كرامة الكهوت من يد السلطان . ألا تعلم أن من يقدم على هذا العمل يستحق الحرم ، ٢ .

٤٨٠- ولما فاز الأسقف سق بالكرسي الأنطاكى أراد أن يعزز مركزه فبعث برسالة الشركة إلى الأديا ميخائيل الأول مصحوبة بهدايا ثمينة . وسلم الرسالة والهدايا إلى أسقفى دمشق وحمص مشفوعة بتهديد للبابا الاسكندري بأنه إن رفض الشركة فعليه المثلول بين يدي عبد الله فى حاران لتأدية الحساب عن رفضه .

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمصن شودة الصوامى البرموسى عن النسخة للمعروفه بدير البرموس جـ ١ ص ١٧٧ .

(٢) تاريخ مصر فى المسود الوسطى (بالانجليزية) لسنانى لاين بويل ص ٣٠ - ٣١ .

ولما وصل رسل الأسقف اسحق إلى القسطنطينة قصدوا لغورهم إلى أبي عون وإلى مصر . فلما علم أبو عون بمضمون الرسالة التي يحملها رسل الأسقف الأنطاكي بعث في طلب الأنبا ميخائيل الأول الذي حضر إلى دار الولاية . فأطلعه أبو عوف على الرسالة راجياً منه أن يستجيب لطلب الأسقف اسحق . فطلب إليه البابا الاسكندري أن يمهله ثلاثة أيام كي يعقد مجمعاً من أساقفته للتشاور معهم في الأمر . ولبيى الوالى طلبه على الفور .

٤٨١- وبعث الأنبا ميخائيل بالدعوة إلى أساقفته فلبوها جميعاً . كذلك دعا الأسقفين الأنطاكيين لقبلا الدعوة أيضاً . وظل المجمع يوالى جلساته شهراً كاملاً ، والوالى لا يضايق أحداً ولا يحاول أن يذكر البابا الاسكندري بأنه لم يطلب غير ثلاثة أيام للرد عليه . وفي مطلع الشهر الثاني اجتمع الأساقفة في كنيسة السيدة العذراء (الشهيرة بالمعلقة) ببابلون حيث دعاهم البابا المرقسي ليلبغهم قراره النهائي في هذا الموضوع الخطير : موضوع انتقال أسقف ايبارشيتة إلى أخرى . أما قراره فقد سجله في الخطاب الذي كان ينوي إرساله إلى الأسقف اسحق مع مندوبيه ، والذي يعد وثيقة تاريخية مجيدة ، وهذا نصه : « لا السيف ولا النار ولا الرمي للأسد ولا النفي ولا هذه كلها مجتمعة تخيفنى . وإن أرزنى بعمل غير قانونى . وإن أدخل نفسى تحت حرمنى الذى كتبتة بخط يدى والذي أعلنت فيه أنه لا يجوز لأسقف أن يصير بطريركاً . ولقد حرم أبائنا المكرمون كل من يأخذ الكهنوت من يد السلطان . فإن الأساقفة كانوا قد كتبوا إلى من أنطاكية في أيام يوحنا البطريرك أن كل من جلس بعده من المطارنة على السدة البطريركية يكون محروماً . وقد وقعت بامضائى على قرارهم هذا . فكيف أحرم نفسى الآن ؟ وكيف أبرر اليوم ما حرمته بالأمس ؟ بل كيف أعترف الآن بما أنكرته من قبل ؟ وإن الآباء المكرمين أنفسهم قد حرموا كل من يسلك هذا المسلك . وقد سلم الأنبا ميخائيل الأول خطابه هذا إلى الأسقفين المنتدبين من الأسقف اسحق .

٤٨٢- فعاد رسولاً الأسقف اسحق إلى أبي عون وإلى مصر وطلباً إليه أن يكلف البابا الاسكندري بالذهاب معهما إلى حاران . وكان أبو عون يحب

الأنبا ميخائيل حباً جعله يخشى عليه المخاطر . فاختلى به ورجا منه أن يخضع لحكم عبد الله أبى الجعفر والأساقفة الموالين له . ومما يجدر ذكره تقديراً لهذا الولي العادل ، أنه مع الحاجة على البابا المرقسى بالموافقة ، فقد ترك له مطلق الحرية فى الذهاب أو البقاء فى مصر تبعاً لرغبته . ولقد شكر الأنبا ميخائيل الأول أباً عون على ما أبداه من عطف ومودة ، ولكنه صارحه بعزمه على التمسك برأيه . ثم خرج مع صحبه من الأساقفة والأراخنة . ولأزمهم رسولا الأسقف الأنطاكي وهما يلحان فى طلب الرد . فأفهمهما البابا الاسكندري أنه سيسافر معهما إلى حارثين . ثم التفت إلى الأنبا مويسيس وسأله : « أتصافر معي ؟ » أجابه : « نعم فقد عاهدت نفسي أن أأزورك حيثما ذهبت » . وهذا أعلن الأنبا ثيودورس أسقف بابلون عن رغبته فى الذهاب معهما أيضاً . وعندما طلب الأنبا ميخائيل الأول إلى سكرتيره أن يهيئ لهم كل ما يلزمهم للسفر فنفذ السكرتير طلب باباه الجليل . ولما أكمل اعداد كل شيء وكان هؤلاء الأبحار للكرام على أهبة للسفر إذا برسول قد وصل إلى القسطنطينية معلناً انتقال الأسقف اسحق إلى رحمة مولاه . وعند ذلك بادر الرسل الأنطاكيون بالعودة إلى بلادهم فى سكون ، كما ظل الأنبا ميخائيل الأول وأساقفته فى مصر مستريحى الضمائر .

٤٨٣- وقد ساد السلام ربوع مصر فى السنوات الأخيرة لباباوية الأنبا ميخائيل الأول ، إذ قد رأى الأب السماوى فى شامل محبته أن يكافئ هذا الأب الجليل على كل الخدمات التى أداها والآلام التى احتملها . وكانت التجارب والمحن التى جازها قد أثرت على صحته كما أثر عليه كثر الأيام وممر الليالى . فانتقل إلى عالم النور بعد أن قاد سفينة الكنيسة المقدسة ثلاثاً وعشرين سنة ونصف تبعاً لما ورد فى المخطوط المحفوظ فى مكتبة دير الأنبا مكاري الكبير ، ودفن جثمانه الطاهر بكل اكرام وتجله مع أحداث الآباء القديسين . بركة صلواتهم جميعاً تكون معنا إلى النصف الأخير . آمين (١) .

(١) للاطلاع على تفاصيل الأحداث التى جرت فى تلك الفترة للعامة وعلى سيرة الأنبا ميخائيل الأول راجع تاريخ بطريركة الاسكندرية للأنبا سابريوس بن المتفجع أسقف الأسمونين (طبعة ليفيس) ج ٢ ص ٨٨ - ٧١٥ .

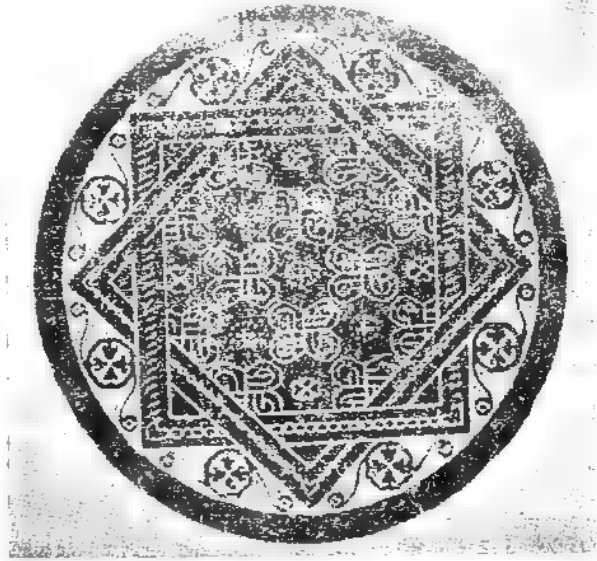
٤٨٤- ينتمي الأمويون إلى عبد مناف الجد الأكبر لنبي الإسلام - فكان حقهم في الخلافة قائماً على هذا النسب . وأول خلفاء بني أمية هو معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً على سوريا قيل توليه الخلافة سنة ٦٦١ م ، وآخر الخلفاء الأمويين مروان الثاني الذي لاقى حتفه في المعركة التي نشبت بينه وبين العباسيين في سنة ٧٥١ م . وقد هاجر بعض أفراد سلالة مروان إلى أسبانيا التي أطلقوا عليها اسم الأندلس حيث أقاموا خلافة أموية ظلت قائمة حتى سنة ١٠٣٧ م .

وكانت دمشق هي العاصمة التي اتخذها الأمويون مقراً لخلافهم . وكان النصف الأول من حكمهم زاهياً زاهراً رفعوا فيه قدر العلماء والأدباء . ولكن حكمهم أخذ في الانحطاط والتدهور تدريجاً ، وظل على هذه الحال حتى انتصار العباسيين .

٤٨٥- وفي الآونة التي زها فيها حكمهم وبلغ القمة عاش يوحنا الدمشقي . وكان سليل عائلة عريقة أدارت الشؤون المالية للخلفاء الأمويين (١) . وكان يوحنا هذا من أبرز اللاهوتيين الشرقيين الذين عاشوا في القرن الثامن ومن أروع ما قاله هذه الكلمات التي تحمل في طياتها الكثير من المعاني وهي : « إن الذي يحكم بالقوة ليس أباً ولكنه سارق » لأن الأب يستعين بالمنطق لا قناع أولاده . وكان لمقاومته البدع الغريبة أبعد الأثر إذ قد أثارت نوبة من الغضب الجارف في نفس امبراطور القسطنطينية ، فبعث - تحت تأثير هذا الغضب - برسالة إلى الخليفة هشام أوقع فيها ببوحنا الدمشقي . وتأثر الخليفة بدوره فطرده من بلاطه . وبعد سنوات عرف الخليفة الحق وندم على طرده ، فأرسل إليه يرجو منه العودة إلى بلاطه . على أن يوحنا الدمشقي شكر للخليفة عطفه ولكنه رفض العودة إلى حياة القصور ، وفضل أن ينزوى في أحد جبال فلسطين حيث قضى بقية حياته كراهب بسيط (٢) .

(١) مصر : من ميلا إلى فولاد الأول ، (بالفرنسية) للأب دى هينو (الطبعة السادسة) القاهرة سنة ١٩٣٥ ص ٢٠٩ .

(٢) تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) للأرشمندريت جيوتي جـ ص ٥٥٩ - ٥٦٥ .



قطعة من النسيج وجدت في إحدى المقابر حول مدينة
أنثينوى (عند ملوى الآن)

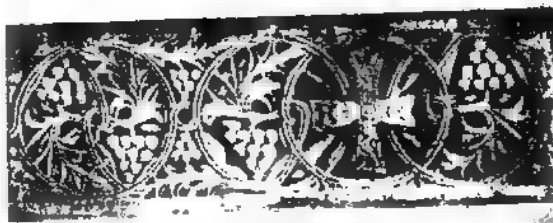
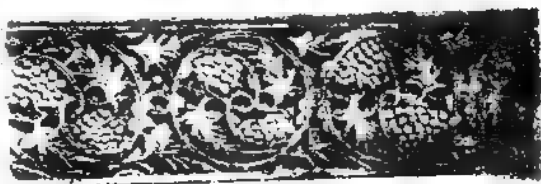
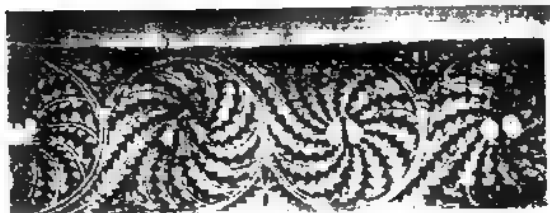
٤٨٦- وكان الموضوع الذى شغل العقول فى ذلك العصر هو السماح
بتمليق الصور (أو الأيقونات) على جدران الكنائس أم لا . فكتب يوحنا نفاعاً
عن التقليد الأرثوذكسى الذى يؤيد وجود الأيقونات فى الكنائس قال فيه :
يسأل بعضهم كيف يمكن تصوير ما لا يرى وكيف يمكن تمثيل الروح فى
صورة مادية ؟ فنجيهم إن الكلمة - باتخاذها جسداً - قد أتاح لبني البشر أن
يصوره فى شكله الإنسانى . فقد ولد من السيدة العذراء واتخذ منها جسداً ،
واصطبغ فى مياه الأردن من يد يوحنا السابق الصابغ ، وعلق على خشبة ،
ودفن فى القبر ، وقام من بين الأموات وكل هذه وقائع حسية فى الامكان
تصويرها وإبرازها فى شكل ملموس . وللفنان الحق فى أن يعبر عن هذه

الوقائع الكتابية بالصورة كما يعبر عنها للكاتب بالألفاظ . بل إن الصور أقرب إلى الإدراك من الألفاظ ، لأن الناظر إلى الصورة يدرك في الحال ما تهدف إليه في حين أن الألفاظ تحتاج إلى إدراك معناها قبل إدراك مرماها . والفنان - حين يرسم صور القديسين والشهداء - يعمل على إبراز فضائلهم في صورة واقعية تستحث المؤمنين على الاقتداء بهم . وهكذا تكون الأيقونات نوافذ يبصر منها المؤمن نور السماء .

على أن الكنيسة القبطية لم تشترك في هذه المناقشات لأنها كانت قد قطعت الشراكة بينها وبين الكنائس اليونانية واللاتينية الموالية لمجمع خلقيدون منذ سنة ٤٥١ م . ومع أن الكنيسة التي كان ينتمي إليها يوحنا كانت إحدى هذه الكنائس إلا أن تعليمه عن وجوب تكريم الأيقونات لم يكن إلا صدئ لتعليم كنيسة الاسكندرية الذي أخذته عن الرسل وعن الآباء الرسولييين ومدرسة الاسكندرية . ومما يجب ذكره في هذا المقام أن الكنائس الموالية لمجمع خلقيدون رغم انفصالها عن كنيسة الاسكندرية قد ظلت متمسكة بتعاليم آباء هذه الكنيسة الأعلام كأثناسيوس الرسولي وكيرلس عامود الدين ومن إليهما من باباواتها الأماجد . ومثل هذا التمسك إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن الكنيسة المصرية - كنيسة مدرسة الاسكندرية - قد ظلت مسيطرة على القلوب المستنيرة رغم ما قوبلت به من مقاومة عمياء ورغم ما قاساه أعباءها من جور واضطهاد . فكان الأنبا ميخائيل الأول - البابا الاسكندري السادس والأربعون - جديرًا بأسلافه العظام ، عرف (مثلهم) كيف يقف في وجه الملمات ويحافظ على الوديعة التي أوتمن عليها بكل أمانة ليسلمها إلى من يخلفونه في صفاتها الأصول .

٤٨٧- ولم يكن يوحنا الحمشقي بالشخص الوحيد الذي سعد بالحرية الكافية للتعبير عن معتقدات الكنيسة الأرثوذكسية ، بل سعد غيره بهذه الحرية لا للتعبير عن عقيدتهم فحسب بل لكل تعبير فكري - روحي أيضاً . ففي الفترات التي انتصف فيها الخليفة بالتسامح ، سرى تسامحه إلى رجاله القابعين على زمام الحكم باسمه . وفي هذه الفترات وجد الفنانون والصناع

الفرصة للابتكار والانتاج : فالحفر على الخشب ظل من الفنون البديعة ، ولا تزال هناك قطع باقية من هذا الفن تدل على دقة الصنع وحسن الذوق ، إن الفنانين المصريين في القرنين السادس والسابع للميلاد احتفظوا بالمستوى الرفيع الذي بلغه أجدادهم في العصور الفرعونية . كذلك كان الحال مع النساجين الذين جعلوا من نسجهم وسيلة للتعبير عن خلاتهم الفنية : فالألوان وتناسقها ، والنقوش والنسجاءها ، والزخارف وتلويعها - كل هذه تنطق بمقدرة الناصح المصري .



زخارف منحوتة على الحجر محفوظة بمتحف اللوفر بباريس
عثر عليها بدير باويط (محافظة أسيوط) لم يبق منه غير أطلال

ومما يؤسف له أن القصور التي تتلى الكتاب والمؤرخون بفخامتها وبما كانت تحويه من ترف وفن تداعت ولم يبق منها حجر على حجر . إلا أن القائمون بالحفريات في الفسطاط قد عثروا على أسس عدد غير قليل من المساكن ويتضح من مقارنة هذه الأسس أن البيوت إذ ذاك كانت تشاد على نظام مشابه . فكانت تشمل فناء (صغيراً أو كبيراً تبعاً لغنى صاحب الدار) من غير سقف تتوسطه فسقية . وإلى جهة من هذا الفناء كان يقوم دهليز بأعمدة تطل عليها ثلاث نوافذ : الوسطى منها أكبرها حجماً وهي نافذة حجرة الاستقبال ومنفصلة عن الآخرين تماماً . أما الجهات الثلاث الباقية ففيها أروقة تؤدى بعضها إلى غرفٍ فسيحة بينما كان البعض الآخر مصنوعاً على شكل محراب صغير . وقد اتضح من البحث أن أحد هذه البيوت مبني على شكل صليب ، وهذا الشكل هو الذي اتبع فيما بعد لبناء المدارس . أي أنه كان يتألف من فناء أوسط به فسقية تتلاعب فيها المياه . وعلى كل جانب من جوانبه الأربعة ردهة : ثلاث من هذه الردهات متساوية الحجم ورابعتها أكبر منها . وقد اتفقت كلمة السائحين ومؤلفي الكتب الجغرافية على أن بيوت الفسطاط سواء أكانت من الطوب التي أو المحترق - كانت تتألف من ست طبقات أو سبع . وكان ارتفاع المنازل يلقي ظلالاً على الشوارع والأزقة الضيقة . وكانت لمعظم هذه الشوارع أبواب تغلق ليلاً زيادة في الحرص (١) . ومثل هذا الوصف يمكننا من أن نتخيل حياة سكان الفسطاط منذ ثلاثة عشر قرناً ، وبهذا التخيل ندرك أن أجدادنا عرفوا كيف يستفيدون من فهم المعماري وأن مصرنا العزيزة عرفت معنى الحضارة في المعيشة اليومية حتى في القرون الموصوفة بمصر الظلمة .

ولم يكن عمل القبط القلي قاصراً على الفسطاط في هذه الفترة ؛ يرى المؤرخون في خرائب قصر مشاطا بالأردن صلة وثيقة بالفنون التي أنتجها القبط ؛ فالبرجان القائمان عند مدخل القصر تزينهما زخارف من عناقيد العنب

(١) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثاني للمبحث الثاني لجاستون فريب
ص ١٤٧ ، ١٥١ - ١٥٢ .

وأوراقه كبيرة الشبه بتلك الموجودة على بعض قطع العاج المحفوظة بالمتحف القبطى بالقاهرة والبعض الآخر بمتحف اللوفر بباريس . وليس ذلك فحسب بل أن قاعة العرش فى ذلك القصر موضوعة على النظام البازيليكي المتبع فى الكنائس القديمة ولها مثل فى كل من الدير الأبيض والدير الأحمر (بالقرب من سراج) وفى كنيسة دندرة التى ترجع إلى القرن المسيحى الخامس . ويقول كريزويل عن هذه القاعة : « من الصعب أن نتخيل أن مهندساً غير قبطى يستطيع أن يصمم قاعة للعرش على هذا الشكل » .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد أن الصنداع القبط بدوا الكعبة فى مكة أيضاً (١) .



(١) راجع مقال كريزويل (بالانجليزية) عن « المؤثرات القبطية فى الفن المعماري الاسلامى الأول » نشر فى مجلة الآثار القبطية (للقاهرة سنة ١٩٣٩) العدد الخامس ص ٢٩ - ٤٢ .

« جرحت في بيت أحبتي »

(٤٨٨) انتخاب الراهب مينا ياريا للاسكندرية .	(٤٩٢) مؤامرة جديدة للراهب بطرس .
(٤٨٩) راهب اسمه بطرس يخدع أسقف أنطاكية .	(٤٩٣) نهايته المؤلمة .
(٤٩٠) امعان الراهب بطرس في الغديعة .	(٤٩٤) المباسيون يبنون بقداد ويتخذونها عاصمة لهم .
(٤٩١) استبداده بأساقفة الكرازة المرقسية .	(٤٩٥) نياحة الأنبا مينا الأول .
	(٤٩٦) سلطان مصر .

٤٨٨- لما انتقل الأنبا ميخائيل الأول إلى مساكن النور ، حزن الاكليروس والشعب لفقدهم أباً عطوفاً وراعياً ساهراً . ومن أعماق قلوبهم المتوجعة تضرعوا إلى رب الكنيسة أن يهتمهم لختيار الراعي الصالح الذي يكون خير خلف لخير سلف . فاجتمعوا في الكنيسة بنفس واحدة مبتهلين متوسلين . ثم أخذوا في التشاور معاً ، فأوحى إليهم الروح القدس أن يجمعوا على انتخاب مينا أحد رهبان دير القديس مكارى الكبير . فأطاعوا هذا الوحي وانتخبوه بالإجماع . وعند الرسامة رغب في أن يحتفظ باسمه فأصبح الأنبا مينا الأول الخليفة السابع والأربعين للقديس مرقس رسول الديار المصرية سنة ٧٥٨ م . (سنة ٤٧٤ ش) .

فلما تسلم مقاليد الرياسة الروحية العليا ، أخذ يعلم الشعب ويوضح له معنى الايمان الأرثوذكسى ، كما أخذ يبلى الكنائس المتهدمة . وكان يعمل بفرح وروحى انعكس على وجهه إلى حد أن الشعب كان يتعجب من النعمة اللبادية عليه وقد استطاع الأنبا مينا الأول أن يلجز هذه الأعمال البنائية في سرعة وهوء لأن التفاهم ساد للعلاقات بين القبط ووالى البلاد إذ ذاك .

٤٨٩- ومن المؤلم أن عدو الخير لم يدع الأنبا مينا الأول يستمتع بجهوده الروحية طويلاً ، فجاءت التجربة هذه المرة من الداخل : من بين صفوف

القبض أنفسهم ١ فكان هذا البابا الجليل أشبه بالنبي حين سئل عن أساء إليه فأجاب بقلب متوجع : « جرحت في بيت أحبتي » (١) . ذلك أن راهباً اسمه بطرس تملكه شيطان الغرور ، فذهب إلى الأنبا مينا الأول يطلب إليه أن يرسمه مطراناً . ولما كان البابا المرقسى يعرف الخيلاء المتسلطة على هذا الراهب فقد رفض طلبه . وعندما ارتدى الذئب ثياب الحملان (٢) ، وكتب خطاباً وقعه بامضاء مزيفة للأنبا مينا الأول موجهاً إلى بطريرك أنطاكية . ثم قصد إلى هذه المدينة العظمى ، وقدم الخطاب إلى بطريركها . وقد ادعى بطرس في هذا الخطاب (على فم البابا الاسكندري) أن الحروب والثورات قد استنفدت ما كان في الخزانة البابوية من مال ، ورجا من البطريرك الأنطاكي أن يمد إليه يد المساعدة . وجازت الخدعة على هذا البطريرك فسارع إلى امداد بطرس بالمال الوفير . وبدافع المحبة الأخوية والرغبة الصادقة في الاحتفاظ بعلاقة الود التي تربط كنيسة أنطاكية والاسكندرية ، كتب رسالة إلى البابا المرقسى عبر له فيها عما يكتنه له وللكرسى الاسكندري من تقدير واجلال .

٤٩٠- وما أن امتلأت جيوب بطرس بالمال حتى سارع إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي كانت تربطه بالمسيحيين صلات المودة . فأحسن الخليفة وفادته لأنه كان يشبه ابناً له انتقل إلى دار الخلود قبل ذلك بشهور معدودات . ولشدة فرحه بهذا الشبه اقتاده إلى حيث تقيم زوجته لتزرى فيه صورة ابنها الراحل فتجد بذلك شيئاً من العزاء . وهكذا حظى الراهب بطرس بصداقة الخليفة ورضى زوجته ، فعاش في القصر الملكي ثلاثة شهور سألته الخليفة بعدها عما إذا كان له مطلب يرغب في تحقيقه لكي يمنحه إياه . فأعلن له بطرس أنه يشتهي باباوية الاسكندرية والخلافة المرقسية . فما كان من الخليفة إلا أن كتب رسالة إلى أبي عون وإلى مصر طلب فيها إليه أن يعمل على تحقيق أمنية هذا الراهب . ولرغبة الخليفة في تمكين بطرس من الوصول إلى بغيته ، أمر باعداد حلة له من الحرير الغالى ويعمل قلنسوة من

(١) زكريا ١٣ : ٦ وهي إشارة إلى خيلنة يهوذا للسيد المسيح .

(٢) متى ٧ : ١٥ .

الحرير عينه . فازداد بطرس زهواً وتشامخاً وأمر بتطريز القلنسوة بالعبرة الآتية : « بطرس بابا مصر وخادم الملك » . ثم سافر إلى مصر وقد امتلأ قلبه فرحاً إذ توهم أنه سيتحكم في الأنبا مينا وفي جميع أساقفة الكرازة المرقسية .

٤٩١- وحالما وصل إلى القسطنطينية قصد إلى دار الولاية وقدم رسالة الخليفة إلى أبي عون وإلى مصر . وكان أبو عون - على ما قدمنا يحترم الأنبا مينا الأول ، قرأه أن لا يفاجله بما تحويه الرسالة وبعث إليه يرجو منه الحضور إلى دار الولاية . فلما وصل البابا الاسكندري ودخل إلى قاعة الاستقبال وجد الراهب بطرس عند أبي عون الذي ابتدره بقوله : « قد تسلمت رسالة من الخليفة يطلب إليك الخضوع لمسيحي من أولائك » . فلما سمع الأنبا مينا الأول هذه الكلمات تفرس في الراهب بطرس وذكره بالوحي الالهي على لسان يولس الرسول حيث قال : « لا يزال هذه الكرامة لأحد من تلقاء ذاته بل من دعاء الله كما دعا هرون » (١) . فاسمع ما أقوله لك من كلام رب المجد : كل غرس لا يغرسه أبي السماوى يقطع ويلقى به في النار (٢) . فإن اغتصبت كرامة الكهنوت فأعلم أنها تنزع عنك ، وتلقى حتفك فقيراً معدماً ، . فأجابه بطرس متبجحاً : « عليك الخضوع وإلا نالك من العذاب ألواناً » . ثم التفت هذا الراهب الغاشم إلى الوالى وقال له بوقاحة غريبة : « كيف ترضى أن يجرؤ هذا الأسقف على مخالفة أوامر الخليفة في حضرتك ؟ » فما أن سمع الوالى هذه الكلمات حتى عراه شئ من الذعر ، والتفت إلى الأنبا مينا الأول مطيباً خاطره بقوله : « ثق أيها البابا الوقور أننى سأبذل ما فى وسعى لحمايتك من كل أذى » . وأدرك البابا الاسكندري ما يجيش فى صدر أبي عون من صراع صادر عن اضطرابه إلى تنفيذ أوامر الخليفة مع رغبته فى التعبير عن احترامه له ، وأراد أن يخفف من حدة هذا الصراع فقال للوالى : « إني على استعداد تام لتنفيذ ما تشير على به طوعاً لأوامر الخليفة » . فلما سمع بطرس هذا الكلام طلب إلى أبي عون أن يحتفظ بالبابا الاسكندري فى دار الولاية ، وأن يبادر إلى استدعاء

(١) خروج ٢٨ ، عبرانيين ٥ : ٤ .

(٢) متى ١٥ : ١٣ .

الأساقفة المصريين لابلأغهم أمر الخليفة . فأشار الأنبا مينا الأول على الوالى بتنفيذ هذا الطلب . وحالما وقف الأساقفة على دعوة باباهم مشفوعة بدعوة الوالى اجتمعوا فى احدى كنائس بابلون ولتتهلوا إلى الله العلى أن يبعد عن كنيسة كل سوء . ولم ينتظر الراهب بطرس حضور الأساقفة إلى دار الولاية ، بل ذهب إلى الكنيسة التى اجتمعوا فيها بصحبة شزيمة من الجند . ودخل الكنيسة وتوجه إلى المذبح فى تشامخ ليبدأ بالصلاة كأنه البابا بالفعل . إلا أن الأنبا مويسيس أسقف أوسيم والأنبا مينا أسقف طنبيه وقفا فى وجهه معترضين قائلين : « أنت خائن للكنيسة المجيدة ، ومثل هذا الجرم الشنيع يحرم عليك أن تطأ هذا المكان المقدس بقمميك النجستين » . ففارت ثورته ، وأمر الجند باللقاء القبض على الأساقفة جميعا ، واقتيادهم إلى دار الولاية حيث يقيم الأنبا مينا الأول . وذهب الأساقفة بأنفسهم صوناً لكرامتهم الكهنوتية ، فلما التقوا برئيسهم الشرعى حيوا بعضهم البعض بقولهم : « إننا عظيمو الانتصار بالذى أحبنا » (١) . وقد بقى الأساقفة والبابا الاسكندرى معتقلين فى دار الولاية بضعة أيام ، حاول الراهب بطرس فى أثاثائها أن يستثير أبا عون على الأنبا مينا الأول وأساقفته بغير جدوى .

٤٩٢- فلما رأى هذا الراهب المزيف أن أبا عون لا يزال على احترامه وتقديره للبابا المرقسى وشركائه فى الخدمة الرسولية ، لجأ إلى خدعة جديدة هى أنه ادعى أنهم يحتفظون بالكتب التى يعرفون منها تحويل المعادن الدنيا إلى ذهب . فلما أنكروا جميعاً هذا الادعاء الباطل ألح بطرس على الوالى أن يحكم عليهم بالعمل فى طلاء المراكب . ولما رأى تردداً منه هدهد بأن يشتكيه إلى الخليفة . وتحت ضغط هذا التهديد خضع أبو عون لهذا الأمر الذى تمجه نفسه . واشغل الأنبا مينا الأول وأساقفته بطلاء المراكب سنة كاملة دون أن يبدو منهم أى ألم أو سحر . وذات يوم تجرأ أبو عون على أن يقول لبطرس : « ويحك ! أهكذا تعامل أبا النصارى ؟ » وكان التشامخ قد بلغ بهذا الراهب المحال حداً جعله يتمادى فى صلفه ، فقال للوالى : « أتقول عنه أنت أيضاً

(١) رومية ٨ : ٣٧ .

أنه أبو العصارى ! سأبلغ عنك للملك الذى جعلك والياً ، . فلم يطق أبو عون صبراً على هذا المتصلف ، وأمر بالقلته فى السجن على الفور . ثم أذن لساعته للأتبا مينا الأول وأساقفته بأن يعيدوا إلى كراسيهم معززين مكرمين . فبادلوه للتحية والاكرام وانصرفوا لأموار كراسيهم .

وقضى بطرس ثلاث سنين فى السجن جزاء ما جنت يده .

٤٩٣- وبعد هذه السنين الثلاث استبدل الخليفة أبا عون بوال جديد اسمه صالح بن على . ولما وصل هذا لوالى الجديد إلى مصر أصدر عفواً شاملاً عن جميع المسجونين . وخرج الراهب بطرس ، وظن أن الفرصة جاءت له ليعاود مؤامراته ضد البابا المرقسى . على أنه لم يكد ينعم بتصميم الحرية بضعة أيام حتى وردت الأنباء بأن الخليفة قد انتقل إلى دار الخلود . وامتلأت نفس بطرس خيبة وحيرة وأدرك حقيقة ما قاله النبى : « ملعون كل من اتكل على ذراع بشر » (١) . فذهب إلى قريته . ولكن أهله أبدوا سخطهم عليه بمقاطعته مقاطعة تامة ، فمات شريداً محمداً .

٤٩٤- وفى تلك الآونة كان أبو جعفر المنصور قد بنى بغداد واتخذها عاصمة له . فترك دمشق وأقام بها وكان هذا العمل لاسترضاء الخراسانيين الذين مهدوا السبيل أمام حكم العباسيين ، إلا أن المصريين ذاقوا منه الويل . لأن العاصمة الجديدة كانت بعيدة عن مصر مما أدى إلى أن يستسهل المتمردون القيام بثورات فى أوقات مقطعة ، فاختل الأمن مراراً وراح العدد العديد من المواطنين الأمنين ضحية لهذه الاضطرابات . على أن مثل هذه القلاقل لم تحدث فى باباوية الأتبا مينا الأول إذ كان الخليفة العباسى لايزال حديث العهد بالاقامة فى بغداد (٢) .

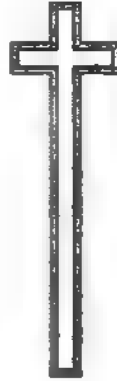
٤٩٥- وبدت مراحل الله المتجددة يوماً فى ما أسبقه على البابا المرقسى من هدوء وسلام بعدما لاقى من آلام . فقد نهج الوالى صالح بن على منهج

(١) لرميا ١٧ : ٥١ .

(٢) تاريخ مصر الاسلامية لاليس الأيوبى طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٢ من ٩٦ .

أبى عون فى انصافه المسيحيين وفى حسن معاملته للشعب المصرى عامة .
فقضى الأنبا مينا الأول سنواته الأخيرة فى افتقاد شعبه واستنهاضه للجهاد ،
وفى تجديد الكنائس . ثم انتقل إلى بيعة الأبرار فى سكون وامطنان . وكانت
أيام باباويته ثمانى سنين وعشرة أشهر (١) .

٤٩٦- ومما يجدر ذكره هنا أن مصر كان لها فى ذلك العهد سلطان واسع
امتد شرقاً وغرباً . وفى عهد لا يعرف بالضبط كان لوالى مصر الرئاسة على
منطقتى سيناء والجزء الأوسط من الحجاز ، ثم ضمّ ولاية مصر منطقة برقة
لحكمهم سنة ٧٦٥م (٢) .



(١) كتاب تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شودة الصولامى البرموسى عن النسخة
المحفوظة بدير البرموس جـ ١ ص ١٨٢ - ١٩١ .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجاستون فريت ص ١٢٧ .

القرعة الهيكلية

- (٤٩٧) السدة المرقسية تغفل شاذرة
خمسة عشر شهراً .
- (٤٩٨) هل تتفق القرعة الهيكلية
والتعليد الكنسى .
- (٤٩٩) رسالة الشركة إلى البطريرك
الأنطاكي .
- (٥٠٠) الضرصة التي يهيئها
السلام .
- (٥٠١) تعيين الشماس مرقس سكرتيراً
لبابا الاسكندري .
- (٥٠٢) حسد الغلقيدونيين .
- (٥٠٣) جهود البابا المرقسى لتخفيف
حدة المجاعة المتفشية .
- (٥٠٤) ثلاثة أساقفة يحملون رسالة
بطريرك أنطاكية .
- (٥٠٥) هرب مرقس سكرتير البابا من
كرامة الأسقفية .
- (٥٠٦) ثورة عارمة في الصعيد بزمامة
أحد الأمويين .
- (٥٠٧) عدالة الفضل بن صالح
العباسى مقرونة بشهوة الحكم
- (٥٠٨) هدم بعض الكنائس بأمر على
ابن سليمان ابن أخى الخليفة
العباسى .
- (٥٠٩) صراعة الأنبا يؤنس الرابع
ليتمكن من تشييد الكنائس
المتهدمة .
- (٥١٠) تنبؤ بتغيير الوالى القاسى ثم
نياحته .

٤٩٧- كانت مصر تنعم بالسلام الشامل ، فتهايات للمصريين الفرصة لأن
ينصرف كل منهم إلى عمله فى ثقة واطمئنان . وانهز الأساقفة فترة هذا
الهدوء لكى يتفقدوا المؤمنين فيعزوا القلوب الصغيرة ويثبثوا القلوب الكبيرة على
الايمان الأرثوذكسى ولكى يعدوا المؤمنين جميعاً إلى مواجهة ما قد تأتى به
الأيام من اضطهاد وآلام . ولانشغال الأساقفة بأمورهم الراعوية لم يجتمعوا
للتشاور فيمن يستحق أن يعتلى السدة المرقسية . وانقضت خمسة عشر شهراً
على هذا الحال . ثم انتبه أكبر الأساقفة سناً إلى أنهم لم يجتمعوا رغم مرور
هذه المدة ، فبعث برسائل إلى اخوته الروحيين يدعوهم للاجتماع فى
الاسكندرية لكى يتشاوروا معاً عن خلف باباهم الراحل .

ولما اجتمعوا رأوا أن ينصرفوا إلى الصوم والصلاة استلهاماً للروح القدس .

وبينما هم يصلون معاً ، قام شعلس شيخ واقترح اسم راهب مشهود له بالقوى ورخامة الصوت اسمه يؤنس . وكان هذا الراهب يعيش فى دير الأنبا مكارى الكبير . ومع ما لمتاز به الراهب يؤنس من الفضائل ، فقد رأى بعض الأساقفة أن يلجأوا للقرعة الهيكلية فى الانتخاب . وعلى ذلك اخفأوا راهبين آخرين ، وكتبوا الأسماء الثلاثة - كلاً على ورقة - ووضعوا معها ورقة بيضاء . ثم اشتركوا معاً فى اقامة ثلاثة قدسات . وكانوا كلما انتهوا من صلوات القداس يطلبون إلى ولد صغير أن يسحب ورقة من الأربعة الموضوعة على المذبح . وفى المرات الثلاث كانت الورقة التى يسحبها الولد الصغير تحمل اسم الراهب يؤنس . فلم يسع الأساقفة والأراخنة بعد هذا النجاح المثلث إلا أن يهتفوا : « مستحق وعادل » ، أن ينادى يؤنس هذه الكرامة العظمى ، ويجلس على كرسي القديس مرقس الرسول . فتمت رسامته سنة ٤٨٤ ش (٧٦٨ م) . وبذلك أصبح الخليفة الثامن والأربعين لكاروز ديارنا المحبوبة .

٤٩٨- على أنه يجدر بنا أن نقف قليلاً لننظر فى هذه الوسيلة : وسيلة القرعة الهيكلية التى لجأ إليها المسئولون عن الكتيمة سنة ٧٦٨ م . نقف لنلاحظ أن هذه هى المرة الأولى التى تم فيها انتخاب البابا الاسكندرى على هذه الصورة مع أنه الثامن والأربعون فى سلسلة الخلفاء المرقسيين . فلماذا لم يلجأ الأولون إلى هذه الوسيلة السهلة التى يمكن بها حسم كل نزاع ؟ إن آباء كنيستنا - حين وضعوا الطقوس والنظم - استلهموا الروح القدس ، فأدركوا بنعمة هذا الوحي للحكمة الالهية التى منحت الانسان حرية الاختيار ومعنى تأدية الواجب . ومن ثم رأوا أن يهتجوا سبيل الانتخاب كلما خلت السدة المرقسية . وكان الناخبون يدركون - بعد رسامة من يحوز على الأغلبية - أن صوت المجموع من صوت الله ، وأنهم جميعاً أولاد لذلك الذى فاز بالكرسي المرقسى ، لا فرق بين من أعطاه صوته وبين من لم يعطه . لأنه حينما كان مرشحاً كان لكل مشترك فى الانتخاب الحق فى أن ينتخبه أو يمتنع من انتخابه . أما بعد أن أصبح للبابا الاسكندرى فقد أصبح بابا الجميع على السواء . فيبولونه طاعتهم الكاملة برضى ، كما يطيع الابن البار آباءه المحبوب .

كذلك كان الآباء الأولون على صلة وثيقة بالله ، لأن مداومتهم على الصوم والصلاة ودراسة الكتاب المقدس والتعمق في البحث عما هو وراء المادة والتفكير والزهو ، كل هذه الصفات جعلتهم قريبين جداً من عرش النعمة حتى وهم بعد في الجسد . لذلك كانوا ينتخبون بابائهم بعد التداول والمشاورة ، كما كانوا يجتمعون دائماً في إحدى الكنائس حينما يرغبون في التداول بشأن الانتخاب لأن اجتماعهم في مكان مقدس من شأنه أن يخفف ما قد يساور بعضهم من حدة . وكانوا يبدأون اجتماعاتهم بالصلاة دائماً فيصنفون على اجتماعاتهم مسحة روحية . لذلك نجد الانتخابات في العصور الأولى تتم في هدوء وسرعة .

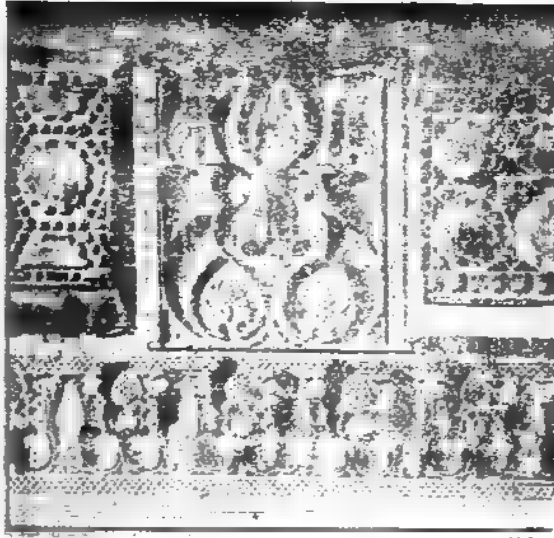
وليس ذلك فحسب . بل أن الآباء الأولين - حينما أمعنوا التأمل في مسلك الرسل وجدوا أن رسل المخلص له المجد لم يلجأوا إلى القرعة الهيكلية إلا بعد الصعود مباشرة وقبل حلول الروح القدس . وقد ألقوا هذه القرعة لاحتلال أحد التلاميذ محل يهوذا ليكون ضمن الاثني عشر ساعة أن يحل عليهم الروح القدس . أما بعد أن نالوا قوة من الأعالى بأن امتلأوا من الروح القدس ، فإنهم لم ينجحوا منهج القرعة أبداً ، لأن الروح الذي ملأهم كان يوحى إليهم بالمسلك الذي يجب عليهم سلوكه . وبالتالي رأى الآباء الأولون أن يسيروا على خطة الرسل الذين هم سلفاؤهم وقادتهم وواضعوا الأيدي عليهم . ومن هنا نتبين الدوافع التي جعلت الآباء في صدر المسيحية يؤثرون الانتخاب على أية وسيلة أخرى لاختيار راعيهم الأول . ولما كانت كنيسة القبطية معروفة بأنها أكثر الكنائس محافظة على الوديعة التي تسلمتها من الرسل ، فقد فضل المسئولون فيها مبدأ الانتخاب لأنه المبدأ الذي يحترم حرية الرأي . فهو - والحالة هذه - مطابق للخطة الالهية عينا إذ يقول لنا أوريجانوس أن الله تعالى يحترم حرية الفرد ولذلك لم يخلقه آلة صماء ، ولا خلقه من غير عقل يميز ، بل منحه العقل والنفس ليعرف الخير والشر فيكون له فضل الاختيار إن هو نهج منهج الصلاح . فالتقليد الكنسي القبطي موضوع طبقاً لأحكام الله تعالى وعملاً بالخطة التي سار عليها رسل الرب .

أما في القرن الثامن ، وعند انتخاب الأنبا يونس الرابع وبعد انقضاء سبعمائة سنة على استشهاد القديس مرقس فقد حاد الناضبون عن الخطه الأصلية ولجأوا إلى الزرعة الهيكلية ، كأنهم بذلك عادوا يمشون في الفترة السابقة على حلول الروح القدس !

على أن الأنبا يونس الرابع نفسه كان رجلاً جديراً باللقبة التي نالها رغم أنه جلس على كرسي مارمرقس بطريقة شاذة عن التقاليد ، لأن النفع قد يخفى أحياناً تحت الضرر .

٤٩٩- وكان أول عمل أناء هذا البابا الصالح - بوصفه الجالس على السدة المرقسية - هو أن بحث برسالة الشركة إلى بطريرك أنطاكية الذي تلقاها بلرح . ولما قرأها ازداد فرحه إلى حد أنه جمع الأساقفة والشعب وتلاها عليهم فتهلل الجميع بوحدة الايمان التي جمعت بين قلوبهم فربطتها برباط المودة والولاء .

٥٠٠- وما أن اطمأن قلب الأنبا يونس الرابع إلى صلوات المحبة بين كنيسته وكنيسة أنطاكية حتى وجه عنايته إلى بناء كنيسة فخمة وإلى جوارها داراً لسكناه في الاسكندرية . وكان السلام لا يزال مستتباً إذ كان أبو عون الوالى المنصف قد أعيد إلى مركزه في مصر . والسلام حليف العاملين دائماً ، فكان يهين للقبض الفرصة للجهاد : روحياً وفكرياً ومادياً ، من غير قلق ولا مشغولية . وفي هذه الفترة من السلام لنصرف الأنبا يونس الرابع إلى تجديد الكنائس إلى جانب تشييده الكنيسة المرقسية . وقد ساهم الفنانون في تزيين الكنائس والدار البابوية مما جعلها آية في الفن المعماري والزخرفة . وكان بناء الدارين : دار العبادة الرئيسى ودار الراعى الأول للكنيسة ، فاتحة لسلسلة من الانشاج المعماري في مختلف البلاد بالقطر المصرى ؟ ولأن الاستقرار والطمأنينة ملائ النفوس فقد سرت روح الاقدام والهمة في البناء من البابا إلى شعيه المتعشش إلى العمل فسارع إلى تلبية ندائه . ولقد بدأ بتبجيل الشعب في أنه أبدى نحو باباه ما أبداه المسيحيون الأوائل نحو الرسل الأطهار وذلك بأن جاء إلى راعيه بالمال الوفير وسلمه إياه . فكان يأخذ هذه الأموال ويصرفها



**زخارف تزين الحائط الشمالى للهيكل بدير
السيدة العذراء الشهيد بالسرمان**

على عمارة الكنائس وتزيينها بالآيقونات والنقوش والزخارف لتكون وسيلة ترتفع بها النفوس إلى ذروة السماوات .

ولقد وجد الفنان القبطى أن الأشكال الهندسية ذات الزوايا العديدة والأضلاع المتباينة وسيلة للتعبير عن احساسه الخفى باللانهاية ورمزاً مترابطاً عن صحاريه المقرامية يسكونها الشامل . ولما كان القبطى مولعاً بالهندسة فقد استعان بأشكالها العديدة ليعبّر بها عن غير المنظور ، أو على حد قول جاييه :
« جعلها الصورة المرئية لغير المرئى » (١) .

٥٠١- ثم قام الأنبا يؤنس الرابع برحلة راعوية كانت بعيدة الأثر فى

(١) راجع كتابه (بالفرنسية) « الفن القبطى » فى مقدمته .

لنفوس ، كما يحدث دائماً من تقارب الراعى والرعية نتيجة لهذه الزيارات . وفى أثناء تنقله بين شعبه كان يرقب الشباب فى اهتمام بالغ . ووجد بين الشباب شماساً متبطلاً متبحراً فى العلوم الروحية اسمه مرقس . وقد حباه الله صوناً عذباً حنوناً يهز أوتار القلوب . وكان يرثل الأسفار الالهية بحرارة ورقة . ففرح البابا الاسكندرى بمثوره على مرقس هذا وعينه سكرتيراً له . وكان لهذا التعيين فعل السحر لأن المؤمنين كانوا ييكونون إلى الكنيسة ليستمعوا بالاصغاء إلى قراءات هذا الشماس فتطرب نفوسهم إلى حد أن عيونهم كانت تغرورق بالدموع (١) .

وراقب الأنبا يؤنس الرابع شماسه مرقس باهتمام بالغ . وتهلل قلبه فرحاً حين رأى تعلق الشعب به ، فأكرمه واتخذ له مستشاراً . وامتلاً مرقس غبطة لهذا التقدير البابوى فضاعف جهوده فى الخدمة وازداد تواضعاً . فكانت هذه الجهود سبباً فى زيادة محبة يؤنس الرابع له ، وقرر أن يستصحبه إلى دير الأنبا مكارى الكبير مجمع النساك ومسكن الحكمة الالهية ومحراب الصلوات المتصاعدة نحو السماء بلا فتور . وهناك أقام البابا الاسكندرى شعائر الاسكيم المقدس وألبس مرقس اياه . وما أن تمت هذه الشعائر المقدسة حتى تقدم ناسك شيخ وصافحه مهتلاً ثم قال : « إن هذا الشماس يستحق أن يجلس على كرسى أبيه العظيم مرقس البشير ناظر الالهيات » .

٥٠٢- وكان من أثر النجاح المتواصل الذى أحرزه الأنبا يؤنس الرابع فى تثبيت قلوب المؤمنين على العقيدة الأرثوذكسية ، وفى تشييد الكنائس ، أن امتلاً قلب الخلقيدونيين حسداً . فحاول زعيمهم أن يقيم فى طريق البابا الاسكندرى المراقيل ، ودبر المؤامرات للايقاع بينه وبين الوالى أبى عون . على أن كل محاولاته ذهبت أدراج الرياح بنعمة الله الذى جنن قلب هذا الوالى المنصف على القبط إلى درجة دفعته إلى أن يشجع الأنبا يؤنس الرابع وشعبه فى جهادهم ، ويطن لهم فى كل مناسبة ما يكله لهم فى قلبه من حب وتقدير .

(١) السكسار الأثيوبى ترجمه إلى الإنجليزية واليس بودج طبع فى جامعة كامبردج سنة ١٩٢٨ ج٢ من ٨٧٧ .

٥٠٣- وفى وسط هذا السلام الشامل والعمل المستمر حدث ما لم يكن فى الحسبان : فقد جاء الحصاد ناقصاً نقصاً كبيراً أدى إلى انتشار المجاعة . وتلفت الأنبا يونس الرابع حوله فرأى أبنائه يسقطون بالمئات ، فامتلاً قلبه حزناً ووجعاً . وانتدفع بقوة هذا الحزن والوجع إلى أن يقوم بمجهود مضاعف : المجهود الأول هو الصوم والصلاة فى حرارة واستعطاف ، والمجهود الثانى هو فتح مخازن الكنيسة للمحتاجين من الشعب وتوزيع ما فيها على الجميع - المسلمين منهم والمسيحيين . وفوق هذا الجهاد الحثيف فإن البابا الاسكندرى أخذ يتنقل بين الأغنياء من شعبه ويحثهم على المسارعة إلى مد يد المعونة لآخوتهم الذين لم ينعموا بما نعموا هم به . وبهذه الوسائل المتنوعة استطاع الأنبا يونس الرابع أن يخفف من حدة المجاعة . ولقد استجابت العناية الالهية لصراعه كما استجابت لتعب محبته فجاء الحصاد التالى فائضاً عن الحاجة (١) .

٥٠٤- وحدث أن انتقل بطريرك أنطاكية إلى مصاف الأبرار (٢) ، فخلفه على هذا الكرسي الجليل راهب قديس اسمه كريكوس بادر بارسال خطاب الشركة إلى البابا الاسكندرى . ومع أن هذا البطريرك الأنطاكى قد نهج على خطة سلفائه فى ارسال هذا الخطاب إلا أنه رأى أن لا يكتفى بارساله بل انتدب ثلاثة من أساقفته ليحملوا خطابه . وقد رأس الوفد البطريركى الأنطاكى إذ ذاك مار أنسطاسيوس مطران دمشق . وقد قوبلوا جميعاً بحفاوة بالغة وتلقاهم البابا المرقسى بفرح روى . وقد رأى أن يؤيد المحبة البادية من الأنطاكيين فقرأ الخطاب على الشعب المجتمع فى الكنيسة يوم الأحد للصلاة . كذلك رجا من ضيوفه الأماجد أن يقضوا بضعة أسابيع فى بلادنا فقبلوا رجاءه .

(١) تاريخ البطاركة ، مخطوط نقله القمص شودة للصوامى البرموسى عن نسخة قديمة محفوظة فى دير البرموس ج١ ص ١٩٤ حيث يقول : وكان وشاهد على باب البطريرك خلق كثير من كل جنس وهو يقوم بهم حتى أن رائحة طيبه الحصنة فاجت . وكان يدعو للبرساء والأغنياء ويحثهم على الرحمة ويقول لهم اغتنموا هذا الوقت . وكان يتكلمهم بكلام الأنبياء

(٢) تعبير كنسى يبنى عن الموت .

وفى أثناء إقامتهم زاروا الكنائس والأديرة القديمة كما زاروا عددًا من الأماكن التي تقدمت بأنفاس لباس الصليب (١) ومنها المكان الذي استشهدت فيه القديسة دميانة وزميلاتها . وقد ورد فى سيرة الأنبا كيرىاكوس ما يُبْلغُه إياه مار أنسطاسيوس وشركاؤه فى الخدمة للرُسولية من إعجاب بجمال كنائس الاسكندرية وبيع نقرشها وبخاصة من نظام تلك الكنائس والطقس الكهنوتى وسكون الشعب ووقاره أثناء تأدية الشعائر الدينية (٢) . وهكذا حمل أولئك الأساقفة عن بلادنا للحبيبة أجمل الذكريات وأعظم التقدير .

٥٠٥- ولم يمض على هذه للزيارة إلا أيام معدودات حتى انتقل الأنبا جاورجيوس أسقف بابلون إلى مساكن النور . فحزن شعبه عليه لصلاحه ورحمته . ثم طلب إلى الأنبا يونس الرابع أن يقيم سكرتيده أسقفًا عليهم . ففرح البابا الاسكندرى لهذا الطلب فرحًا عظيمًا لما كان يعلمه من استحقاق مرقس لكرامة الأسقفية السامية . فلما سمع هذا الراهب بالكرامة التى يبغى شعب بابلون برضى باباء أن يمنحه إياها اختفى عن الأنظار . وبعثًا حاول المؤمنون أن يعرفوا أين اختبأ . فاضطر الأنبا يونس الرابع إلى رسامة راهب غيره اسمه ميخائيل . وظل مرقس مختفيًا حتى بعد رسامة أسقف بابلون مما جعل البابا الاسكندرى يستمر غاضبًا عليه ولكن ضميره أنبه على ذلك فبعث برسالة إلى راهب شيخ متوحد فى ضاحية البرلس أعلمه فيها بأنه لا يزال عايشًا على تلميذه الذى يحبه . فرد عليه هذا المتوحد برسالة سكنت خاطره ، قال له فيها : « الأحرى بك أن تغتبط بمسلك تلميذك بدلًا من أن تغضب عليه . لأن الآب السماوى قد كشف لى عن صونه له لكى يجلس فى الوقت المعين على كرسي قديسنا العظيم مارمرقس ، فيخلقك فى رعاية شعب المسيح له المجد . ولو أنه لم يهرب . ونال كرامة أسقفية بابلون لكان اختط لنفسه

(١) هذه الكلمة هى الترجمة الحرفية للكلمة اليونانية القبطية ، استفروفورس ، ومعناها : منشع بالصليب . .

(٢) دليل المتحف القبطى لمرقس سميكة جـ ١ ص ٥٩ .

طريقاً غير الذى هياه له رب الكنيسة ، (١) . فجاءت هذه الكلمات بلسماً لقلب الأنبا يؤنس الرابع ، وعاود البحث عن تلميذه . فانتشر رسله فى الصحارى والأديرة حتى عثروا على مرقس ، وطلبوا إليه أن يعود للعمل كسكرتير البابا المرقسى مادام الكرسي الشاغر قد وجد من يعثليه . فأطاعهم مرقس وذهب معهم . ومنذ تلك اللحظة لازم باباء ملازمة الظل .

٥٠٦- وحدث فى تلك الأيام أن قام رجل من بنى أمية يقطن الصعيد ونادى بنفسه خليفة على البلاد المصرية . فناصره أهل الصعيد بجمعهم الحاشدة حتى أن جيش الوالى لم يستطع التغلب عليهم . وفى أثناء هذه المعارك الحامية حدث أمر غاية فى الغرابة . فقد تحدى أخو الوالى زعيم الثوار لينازله منزلة شخصية فقبل التحدى وتقدم لمنازلته . فاندفع كل من الفريقين اندفاعاً خاطفاً على خصمه ، ونجح الاثنان فى أن يئخذ كل منهما سيفه فى صدر الآخر . ولم تمض دقائق معدودة حتى كانا الاثنان قد أسلما الروح . وعندهما ملأ الذعر قلوب الجيش فانسحبوا من الميدان . غير أن انسحابهما لم يطل سوى أيام قلائل عاود اللثائرون بعدما تمردهم فى وجه العباسيين . وترددت أصدااء القتال من أقصى الصعيد إلى أقصائه ، واشتدت حدة المعارك فاضطرت الخليفة المهدى إلى أن يرسل الفضل بن أبى صالح العباسى على رأس قوة جديدة من الجيش لقمع هذه الثورة العارمة . فتمكن بعد جهد جهيد من أن يتغلب على الثوار ويميد السلام إلى البلاد (٢) .

٥٠٧- وكان الفضل بن صالح العباسى ممن يحبون العدل والإنصاف ويكونون للمسيحيين المودة ، فقامت بينه وبين الأنبا يؤنس الرابع صلات من الألفة والتفاهم . على أن أبى الفضل - رغم عدالته - كان يشتهي أن يستقل

(١) راجع ما ورد فى الجزء الأول لهذا الكتاب وفى الفصل الخاص بالمجمع المسكونى الثانى عن القانون الرسولى الذى بحرم نقل الأسقف من إيبارشية إلى أخرى ، وقارن بينه وبين مرقس الأنبا ميخائيل الأول (البابا الاسكندرى ٤٦٤) من أسقف حاران .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بول - الطبعة الخامسة لسنة ١٩٣٦ ص ٣٤٦ .

بحكم مصر - فما أن مات المهدى وتولى الهادى الخلافة بعده حتى اسندعى
أبا الفضل وعين على ابن سليمان العباسى (ابن أخيه) فى مكانه .

٥٠٨- ولم يكذب يتسلم هذا للوالى الجديد مقاليد الحكم حتى توهم أن هدم
الكنائس مما يأمر به الدين الاسلامى ، فأمر بهدم عدد كبير منها رغم أنه
أحسن معاملة القبط ! فأدى توهمه هذا إلى أن هدم بعض المتعصبين عدداً آخر
من الكنائس .

ولما عرف البابا الاسكندرى أخبار التخريب ترك الاسكندرية وذهب إلى
القسطنطينية وغيرها من المدن ليوقف بنفسه على ما جرى لكنائسها . وامتلاً قلبه
حسرة حين رأى عدد الكنائس المتهمة ، وانهمرت الدموع من عينيه لرؤيتها
على هذه الحال .

٥٠٩- ثم استقر رأى الأنبا يؤنس الرابع على أن يقيم شعائر القداس فى
كنيسة تهدم سقفها . وكانت دموعه تنساب على خديه طيلة مدة الصلاة ،
واقترنت دموعه بالضراعة إلى الآب السماوى أن يمنح المؤمنين نعمة من لدنه
تحفظهم من الفشل وتقوى عزائمهم حتى يتمكنوا من معاودة بناء الكنائس التى
تهدمت .

وكان لحرارة الصلوات التى رفعها البابا الاسكندرى أثر عميق فظهر له
ملاك الرب عن يمين المذبح وقال له : « ليتعز قلبك أيها الخادم الأمين للكلمة
المتجمدة ، فقد جاهدت الجهاد الحسن (١) واستحققت أن تنال الثواب من يدي
الآب السماوى الذى لا ينسى تعب المحبة . وهو سيمنح البابا الآتى من بعدك
نعمة تجديد كل الكنائس المتهمة استجابة لصلواتك » (٢) . فامتلاً قلب الأنبا
يؤنس الرابع نشوة روحية انعكست على وجهه ، فتعجب الشعب حين رأى النور
الفياض الذى اكتنفه عند نهاية القداس الالهى .

(١) ١ تيموثيوس ٦ : ١٢ ، ٢ تيموثيوس ٤ : ٧ .

(٢) قارن ضراعة الأنبا يؤنس الرابع ليهيئ له الآب السماوى الفرصة لكى يعيد بناء الكنائس
المتهمة والاجابة على هذه الضراعة مع تلهف داود على بناء هيكل الله تعالى والرد عليه -
٢ صموئيل ٧ ، الأخبار الأولى ١٧ ، مزمو ١٣٢ .

٥١٠- وكان من أثر هذه الرؤيا السماوية أن امتلأ قلب الأنبا يونس الرابع
سلاماً ، واطمأن إلى حال الكنيسة . ومع هدوئه النفسى الكامل فقد أحس
بتوسعك جسمى أدرك معه أن ساعته قد جاءت ليترك هذا العالم الغائى ويعود
إلى الآب السماوى . وعندها استقر رأيه على السفر إلى الاسكندرية فوراً .
فذهب معه الأنبا ميخائيل أسقف بابلون والأنبا جرجه أسقف منوف . واتفق
يوم دخولهم الاسكندرية أن يلفهم نبأ وصول والٍ جديد إلى مصر يلقب بلبيب
الدولة وكان عادلاً يحسن معاملة المسيحيين . وحين سمع البابا المرقسى نبأ
وصول هذا الوالى الجديد قال للأساقفة : « حقاً إن مراحم الله عظيمة ، لأن
ملاك الرب قد أعلمنى بأن ساعتى قد دنت ، وأن والياً جديداً سيتولى الأمور
فى بلادنا العزيزة ويبدى العطف نحونا . فحين تدنو ساعتى أولوا اختياركم
البابا الجديد اهتماماً خاصاً » . فلما سمع الأساقفة هذا الكلام أحسوا فى أعماق
قلوبهم بأن الأنبا يونس الرابع سيتركهم بالجسد ، فقالوا له : « قل لنا يا
أبانا المكرم- من الذى أشار به عليك الملاك بأنه المختار من الله ؟ » أجابهم :
« نعم . لقد أعلمنى به ملاك الرب . وكنت أريد رسامته أسقفاً . فحفظته العناية
الالهية لهذه الكرامة العظمى . وهذا المختار من الرب هو مرقس سكرتيرى
وابنى الروحى » .

ولم تمض غير أيام قليلة على هذا الحدث حتى انتقل الأنبا يونس الرابع
إلى الأخدار السماوية بعد أن قاد دفة الكنيسة أربعاً وعشرين سنة (١) .



(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شونة للصوامى البرموسى عن النسخة المحفوظة
بدير البرموس ج١ من ١٩١ - ١٩٩ .

دانيال ثان في حكمته

- (٥١١) الأنبا مرقس الثاني .
 (٥١٢) قضاؤه الأربعين المقدسة في
 دير الزجاج .
 (٥١٣) زيارته الوالى تعقد أواصر
 المحبة بينهما .
 (٥١٤) رسالة الشركة إلى الحبير
 الأنطاكي .
 (٥١٥) توبة الخلقيدونيين وقبولهم
 في شركة الكنيسة .
 (٥١٦) بناء كنيسة على اسم مخلص
 العالم في الاسكندرية .
 (٥١٧) الفتن والثورات نتيجة لسياسة
 العباسيين .
 (٥١٨) الحرب بين الأمين والمأمون وما
 جرت به في أعقابها من ثورات .
 (٥١٩) هتك الأندلسيين للاجئين إلى
 الاسكندرية بالمصريين
 واليونانيين .
 (٥٢٠) اضطراب الأنبا مرقس الثاني
 إلى التجول من مكان إلى مكان
 (٥٢١) رسالة الشركة إلى البطريرك
 الجديد لأنطاكية .
 (٥٢٢) تدمير أديرة وادي النطرون
 ونياحة الأنبا مرقس الثاني .
 (٥٢٣) كلمة عن هارون الرشيد .

٥١١- كان الراهب مرقس سكرتير الأنبا يونس الرابع من الشخصيات النادرة الذين لا تبههم الدنيا بزخرفها ، فزهدها في أمجادها . بل لقد بلغ به الزهد أن هرب من المناصب الكنسية العليا ، وذلك حين وجد نفسه محط الأنظار لأسقفية بابلون . وعندما رأى أن البابا الاسكندري الذي يجله قد استودع روحه يدى الآب السماوى ، وبلغه ما قاله الأساقفة ، هرب إلى الصحراء . بينما كانوا منشغلين بأقامة مراسيم الجنازة عن نفس أبيهم الروحى . فغادر الاسكندرية خلسة . ولما انتهى الأساقفة من الشعائر الدينية ، قرروا الذهاب إلى بابلون للتشاور فى أمر الانتخاب . فاتفقوا على تنفيذ وصية باباهم الراحل وقصدوا إلى الاسكندرية للقيام بشعائر الرسامة على أنهم - حين وصلوا إلى هذه العاصمة - علموا أن مرقس قد هرب منها . فأيقنوا أنه لا بد أن يكون قد لجأ إلى الصحراء مرة أخرى فاخترأوا عدداً من خبراء الصحارى فى اقتفاء الأثر ، وطلبوا إليهم البحث عن الراهب الهارب . فاندفع هؤلاء الخبراء إلى

الصحراء ، ولم يلبثوا أن عثروا على مرقس - ضالّتهم المنشودة - فبادروا إلى
تقبّله ، وساقوه إلى الاسكندرية حيث أقيمت المراسيم الدينية مباشرة ،
فأصبح الأنبا مرقس الثاني البابا الاسكندري التاسع والأربعين سنة ٥٠٦ م
(٧٩٠ م) .

٥١٢- وكان الأحد الأول بعد للرصامة ليلة الصوم الأربعيني . فانتهز
الأنبا مرقس الثاني هذه للمناسبة ليوضح الايمان ويبين للشعب الأسباب التي
بنى عليها الآباء رقصهم لقرارات خلقيدون . ثم قام بشعائر القداس الالهى
وناول الشعب من الأسرار المقدسة . وحالما انتهى غادر الاسكندرية قاصداً إلى
دير الزجاج لينصرف فيه إلى التأمل والعبادة فى فترة الصوم المقدس حسب
التقاليد التي سار عليها باباؤنا للكراسة المرقسية منذ إنشاء الأديرة .

٥١٣- فلما انتهى للصوم ، ولحقتى الأنبا مرقس الثاني بعيد للقيامه
المجيدة مع الرهبان ، ترك البرية وقصد إلى القسطنطينية . ومز في طريقه بالأنبا
ميخائيل أسقف بابلون ، ورجا منه أن يذهب معه للسلام على ليبيب الدولة -
والى مصر . وما كاد الوالى يرى البابا الاسكندري حتى نشأت بينهما مودة
وثيقة العرى . وبعد أن تبادل الرجلان التحية قال ليبيب الدولة لصنيفه الكريم :
« أطلب ما تشاء أنفذه لك فوراً » . فصمت الأنبا مرقس الثاني برهة من الزمن
عاد الوالى بعدها يقول : « عليك الطلب وعلى التنفيذ - فأطلب ما تريد » .
فابتسم البابا الاسكندري ابتسامة هادئة ثم قال : « أنت تعرف أن سلطانى إنما
هو على الأرواح دون الأجساد ، وأن من ولجى أن أعمل على رفع النفوس
نحو الله سبحانه وتعالى . وليس هناك من وسيلة أقوى أنكر من بناء الكنائس
لبلوغ غايتى هذه . فأرجو أن تأذنوا لى ببناء الكنائس اللازمة وترميم المتهدم
منها . وليس لى غير هذا الطلب » . فأجابه ليبيب الدولة على الفور : « إن طلبك
مقبول أيها البابا الجليل » . ثم أصدر أمره لأولى الشأن بتنفيذ ما يطلبه البابا
الاسكندري منهم .

٥١٤- ثم عاد الأنبا مرقس الثاني متشرح الفؤاد إلى الاسكندرية ، ودع
برسالة الشركة إلى أخيه فى الخدمة الرسولية الجالس على السدة الأنطاكية

على يد أسقفين^(١) من أساقفة الكرازة المرقسية يجيدان اللغة اليونانية . وقد
قوبل هذان الأسقفان بحظوة بالغة من الأنطاكيين . ثم قرأ الحبر الأنطاكي
رسالة أخيه الاسكندري على مسامع الشعب . واشترك الجميع في تمجيد الله
الذي أتاح لمثل هذا البابا القديس الجلوس على الكرسي المرقسي . وقضى
الأسقفان المصريان أياماً في ضيافة اخوتهما الأساقفة الأنطاكيين ، عادا بعدها
إلى مصر يحملان إلى البابا المرقسي رد البطريرك الأنطاكي الذي عبر فيه
عن ابتهاجه وابتهاج شعبه بوحدة الايمان الأرثوذكسي واتنلاف الكرسيين
الأنطاكي والاسكندري .

٥١٥- وكان بين القبط عدد غير قليل قد ضل عن جادة الحق ووافق
على قرارات مجمع خلقيدون . وكان الأنبا مرقس الثاني يشعر بحزن عظيم
لوجود هؤلاء الناس بين رعيته ، فكان يصلي من أجلهم ليل نهار بدموع
غزيرة قائلاً : « أيها الأب السماوي ، أنت هو الدور الذي يفوق كل ادراك .
وأنت هيأت لنا سبيل الخلاص بتجسد الابن الكلمة . ولعظم محبتك ذهبت في
طلب الصلصال . فتوغلت في البرية باحثاً عن الخروف الولد الذي تاه . وحين
وجدته دعوت الجند السماوي ليفرحوا برجوعه . والآن يا سيدي - أنظر إلى
أولئك الذين زاغوا عن الحق ، وحرك قلوبهم إلى التوبة والرجوع إلى أهم
الرؤوم التي هي كنيسةك الأرثوذكسية للجامعة الرسولية ، فصعدت هذه الصلاة
من قم البابا الاسكندري إلى عرش النعمة كالبخور الزكي ، وتقبلها الأب
السماوي بنعمته ، فحرك قلب رئيس هذه الجماعة المدعو ابراهيم ، كما حرك
قلب أبيه الروحي جرجه - إلى التوبة الصادقة الصادرة من أعماق نفسيهما .
فقصدا إلى البابا الاسكندري وأعلننا له توبتهما وقوة كل جماعتهما ، ثم
استعطفا ليقبلهم جميعاً في شركة الكنيسة التي تذكروا لها عن جهل . فقطاير
قلب الأنبا مرقس الثاني فرحاً بهذه التوبة ، ولكنه لم يستسلم لهذا الفرج
الجارف ، بل كتبه في قلبه وأخذ يمتحن ابراهيم وجرجه ليعرف مدى

(١) مما يؤسف له أن كل ما نعرفه عن هذين الأسقفين ينحصر في أن أحدهما كان أسقف تكليس
وثانيهما كان أسقف القلزم ، ولا توجد مخطوطة واحدة تكلمن شيئاً عن حياتهما .

صدفهما . فتبين له أنهما تابا توبة صادقة كما تابت الجماعة كلها . وحين تبين الأنبا مرقس الثانى هذه الحقيقة ، أفصح لهما عن فرحه الجارف ، وصلى على كل التائبين ثم قبلهم فى شركته بأن ناولهم من الأسرار المقدسة . وقد أراد هؤلاء التائبون أن يعيروا عن شكرهم لما أبداه هذا البابا الجليل من عطف عليهم ، فأطلقوا على كنيستهم اسم « كنيسة البطريرك » ، وذلك لأن الأنبا مرقس الثانى كان قد رممها وزخرفها على نفقته الخاصة .

٥١٦- ولما اطمان قلب هذا البابا إلى أن التائبين قد عرفوا حقيقة الايمان الأرثوذكسى بالفعل ، عاد إلى الاسكندرية . فخرج الاسكندريون لاستقباله فى جموع حاشدة ، وهأؤوه على تثبيت العقيدة القويمة داخل قلوب الذين كانوا قد ضلوا بعيداً عنها . ثم طلبوا إليه أن يأذن لهم ببناء كنيسة على اسم « مخلص العالم » فى قلب المدينة . فابتسم فى هدوء وقال لهم : « إن مثل هذا العمل قد يستثير حسد الخليفونيين فيشتكونا إلى الوالى بحجة أننا تعمدين حدودنا ، فأجابوه لمساعدتهم : « ستكون صلواتكم حصناً حصيناً لنا يقينا كل شر حتى نكمل بناء الكنيسة » . وتهلل قلبه لسماع هذه الاجابة ولما أبداه الجميع من حماسة واستعداد للبلد . فأذن لهم بالبناء . وشرعوا فيه مباشرة . وقد ازداد فرح البابا حينما رآهم يعملون بهمة ونشاط . فكان - إذا ما قام للصلاة فى الساعات الكنسية المحددة (١) . يتقدمهم ويشترك معهم فى البناء بيديه . ثم اختار أمهر الفنانين والصناع لفنئ الكنيسة وزخرفتها . وقد تصاعف حماس الشعب لما رآه من تشجيع باباه له ، فتم بناء الكنيسة بسرعة - وقد جاءت آية فى الجمال . وقد كرستها الأنبا مرقس الثانى فى السابع عشر من شهر توت المبارك ، واحتشدت الجماهير للاحتفال بهذا التكريس الذى بلغ حداً كبيراً من الروعة . كذلك انتهز البابا الاسكندرى وأراخنة الشعب هذه الفرصة فأجزلوا العطاء للمعوزين وامتدت الموارد الدسمة للجائعين . فكان يوماً فاضت فيه

(١) هذه الساعات سبع وهى : باكر ، الساعة الثالثة (أى حوالى التاسعة صباحاً) ، السادسة (وقت الظهر) ، الثامنة (حوالى الرابعة بعد الظهر) ، للغروب ، النوم ، نصف الليل .

السعادة ، وتشارك الجميع الود حتى أنهم أحسوا بأنهم لمحروا قسباً من بهاء الفردوس .

٥١٧- على أن فيض الهناء الذى طغى على القلوب يومذاك اصطدم بالحواجز والسدود التى أقامتها الأهواء الانسانية . ذلك أن العباسيين قد انتهجوا فى مصر سياسة أفت إلى عدم الاستقرار . وتتلخص هذه السياسة فى عزل الولاى فترة قصيرة واستبداله بغيره ، خوفاً من أن تقوم بينه وبين المصريين روابط المودة ، فتمول له نفسه بأن يستقل بالحكم . وهذه الخطة - وإن ساعدت على ترسيخ الحكم العباسى - إلا أنها أضرت بالمصريين لأنهم كانوا كلما آمنوا إلى والٍ ويدأوا ينصرفون إلى عملهم فى قنّة ونشاط يجدون هذا الولاى مضطراً إلى مغادرة البلاد لأن الأمر بعزله قد صدر . ولهذا قامت الفتن العديدة فى عهد العباسيين إذ كان المسلمون يعلنون سخطهم على هذا التغيير فينضم إليهم القبط (١) .

وكان هارون الرشيد - خامس الخلفاء العباسيين وأعظمهم شهرة - متربحاً على عرش الخلافة أيام أن كان الأتبا مرقس الثانى متولياً أمور الكنيسة المصرية . وكان عصر هارون الرشيد ذهبياً ازدهرت فيه العلوم والفنون ، واستمتعت فيه الشعوب بالعدالة والطمأنينة . إلا أنه اتبع سياسة سلفائه فى تغيير الولاة بسرعة كى لا يستطيع أحدهم الاستقلال بالبلاد الذى يتولى أمره . وكانت سياسة الولاى الجديد تختلف فى غالب الأحيان عن سياسة سلفه ومما زاد للطين بلة أن الأيدى للعاملة نقصت فلم تعد الأرض الخصبة تنتج المقدار الكافى من الغلال لاشباع الجماهير . وهكذا تألب على المصريين عدوان قاسيان - حصاد شحيح وجزية فادحة . ولم يكن هذان العدوان - رغم قسوتهما - بالقوة الباطشة الوحيدة فى مصر فى تلك الفترة ، بل تأمر معهما ما ظهر من بولدر الشقاق المرير بين السنيين والشيعة - أو بين مناصرى

(١) تاريخ مصر فى القرنين لوسلى (بالانجليزية) لستائلى لاين برول طبع فى لندن سنة ١٩٣٦ ص ٢ حيث يقول : " The period of the government of Egypt under the 'Ab- basid caliphs of Baghdad was distracted by frequent insurrections . Those were due less to the Copts (who joined in, rather than caused rebellion) than to the Muslims themselves " .

الأسرة الطوية (١) ومساندى أصحاب الحكم الفطى ، وهم للجاسيون . وفوق هذا كله فقد نشط الخوارج (٢) فأحدثوا الكثير من الشعب والاضطراب ، وبخاصة أنه كان لهم حزب قوى فى مصر . فكأنما تحالفت العوامل المادية مع العوامل الروحية على إيذاء المصريين : القبط منهم والمسلمين (٣) فى هذه الفترة من تاريخهم العجيب .

٥١٨- وفى وسط هذا الوقت الحسب للقائر بالاضطراب والثورات توفى هارون الرشيد إلى رحمة مولاة . فأدت وفاته إلى أن لخصم ابنه على الخلافة . فقد كان المأمون الابن الأكبر ولكن أمه كانت جارية ، بينما كان الأمين ابن الحرة مع أنه الأصغر . وقد أدى خصام المأمون والأمين إلى حرب طاحنة بينهما . وكان نصيب مصر من الشقاء نتيجة لهذه الحرب القائمة بين الأخوين نصيب الأسد ذلك لأن كلا من الأخوين عين والياً لىصوس مصر باسمه . وكان الأمين بعيد النظر فعين شيخ قبيلة للقيس لهذه الوظيفة ، إذ أن هذه القبيلة كانت متارفة للحكومة القائمة وقتذاك . ولقد وجد كل من والييين مشايعين ناصروه وقاتلوا الفريق الآخر . وفى هذا القتال الداخلى انتصر أنصار والى الأمين وتمكوا من قتل والى المأمون (٤) . وبينما كان المصريون منشغلين بالتعارك بعضهم ضد بعض ، رأى امبراطور القسطنطينية أن الفرصة مواتية ، فأرسل أسطوليه ليقزو دمياط أملاً فى استرجاع حكمه على مصر (٥) . وفى الوقت عينه انتهاز أحد الخوارج الفرصة لإعلان نفسه والياً على مصر .

٥١٩- وكأنى بهذه البلايا كلها لم تكن كافية لأن يطفح الكيل للمصريين

(١) كان على بن أبى طالب ابن عم النبى محمد وزوج ابنته قاطمة الزهراء ، فكان أنصاره يعرفون بالطويين نسبة إليه ، وكانوا ينادون بوجوب حصر الخلافة فى أبنائه .

(٢) هم الذين خرجوا على النبى محمد وثاروا على رسالته .

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) لمستانلى لاين هرول طبع فى لندن سنة ١٩٣٦ ص ٣١ .

(٤) شرحه ص ٣٥ .

(٥) تاريخ مصر الإسلامية لاليس الأيوبى طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٥ ص ١٠٤ .

بالمراة بل زلدها قسوة وفود خمسة عشر ألفاً من اللاجئين الأندلسيين عليهم . وكان هؤلاء الأندلسيون قد قاموا بثورة فاشلة ضد للخليفة الأموى الذى قهرهم وأمر بنفيهم (١) . ورغم أنهم وجدوا فى مصر الأمن والاستقرار فقد عاثوا فيها فساداً ، إذ كانوا يضرمون النار فى بيوت العبادة ويحترشون بالمصريين الآمنين . ولم يكفهم هذا الأذى بل تعدوه إلى أذى اليونانيين ، فكانوا ينقصون على الجزائر اليونانية يسلبون وينهبون ويخطفون من يستطيعون خطفه من الرجال والنساء والأطفال ثم يبيعونهم فى أسواق الاسكندرية . فلما سمع الأنبا مرقس الثانى أن هناك قوماً يبيعون كالسلع طغى عليه الحزن . فدفعه قلبه العامر بالمحبة أن يشتري أكبر عدد من هؤلاء اليونانيين البائسين ويعطيهم سكاً بالحق ثم يخيّرهم بعد ذلك بين العودة إلى بلادهم والبقاء فى مصر . فمن شاء منهم أن يعود دفع له أجره للسفر ، ومن اختار البقاء فى وادى النيل الرحيب سلمه إلى محلمين موثوق بهم . ويبدو أن أعمال القرصنة التى قام بها الأندلسيون قد زادتهم صلفاً واستهتاراً بحياة الآخرين فكانوا يتسلون بين انقضاضهم على الجزر اليونانية بالمشاجرة مع الاسكندريين . وقد سقط العدد العديد من القتلى فى هذه المشاجرات المحلية وعمّ الحزن والقلق .

٥٢٠- ورأى الأنبا مرقس الثانى أن يواسى شعبه الاسكندرى فى محلته الواقعة عليه من هؤلاء الأندلسيين فكان يتجول بينهم ليشد عزائهم ويملاً قلوبهم ثقة واطمئناناً . غير أن الأندلسيين المتمردين الذين اضطروا إلى ترك وطنهم اضطراً تهادوا فى التآكل بالاسكندريين - شأنهم فى ذلك شأن كل ممتور لا يستطيع التشفى ممن أذاه فيتحول عنه إلى أذى غيره . فلما رأوا أن البابا الاسكندرى يعمل جهده على تعزية القلوب الموحمة ، أخذوا يشددون عليه الخناق حتى لقد اضطروه فى نهاية الأمر إلى مغادرة عاصمته وحيثما ترك الاسكندرية لم يستقر فى مكان واحد ، بل أخذ يتنقل من بلد إلى بلد لى تجنب الوقوع فى أيدي الأندلسيين الذين أضروا بالمصريين ضرراً بالغا مدى

(١) تاريخ مصر فى العصور الوسطى ... من ٢٩٥ .

خمس سنوات . وبعد انقضاء هذه السنوات الخمس قصد أرخن اسمه مكارى إلى الأمير عبد العزيز وإلى المشرق وأطلعه على حقيقة أمر هؤلاء الأندلسيين ، واضطرار البابا المرقسى إلى اللجوء بين شعبه تفادياً للوقوع فى قبضتهم . فأعطاه عبد العزيز خطاباً يخوله استضافة الأنبا مرقس الثانى فى بيته ريثما يتمكن هو من لملال الأمن محل للفوضى . ففرح الأرخن مكارى بتصريح عبد العزيز ، وعاد لفره إلى مصر وقصد إلى البابا ورجا منه أن ينزل ضيفاً عليه مكرماً معزواً . فانشرح قلب الأنبا مرقس الثانى لهذه الدعوة الكريمة إذ كان قد سئم حياة التنقل وعدم الاستقرار .

٥٢١- وبينما كان الأنبا مرقس الثانى مقيماً فى ضيافة ابنه الأمين مكارى بلغه نبأ لتقال العبر الأنطاكى إلى مساكن للنور وقيام خليفته البطريرك ديونيسيوس على كرسى أنطاكية . فبعث إليه برسالة الشكر ، مهنئاً متمنياً دوام المحافظة على الايمان الأرثوذكسى للمقدس والوحدة بين كنائسى أنطاكية والاسكندرية لفضل نعمة المحبة مدعمة بينهما .

٥٢٢- وبدا كأن نهاية للقلق على وشك الانتهاء ، وإذا بشدة جديدة لم تكن فى الحسبان : هى أن قبائل البربر أغارت على وادى النطرون ، فخرّب المفيرون صوامعه وقتلوا الرهبان القاطنين فيها . ولم ينج من أيدي هؤلاء البربر غير عدد قليل تشتت فى أنحاء الصحارى الشاسعة . فعاود الحزن قلب الأنبا مرقس الثانى ، وبكى بكاء مرأ على الأديرة وساكنيها . وتضرع إلى الله أن يجعل هذه الكارثة خاتمة حياته ، لأن ما حل فى عهده من بلايا قد حطم قلبه وملأه ألماً على ألم . فاستجاب الله لتضرعاته ، وأرسل إليه ملاكاً من عنده يقول له : لا تجزع أبها الخادم الصبور ، لأنك ستنتقل إلى الأخدار السماوية يوم عيد القيامة المجيدة . وهذه هى العلامة : حين تنتهى من خدمة القديس الالهى ليلة العيد وتتناول من الأسرار المقدسة ستطلق روحك من أسر هذا الجسد .

فلما استيقظ الأنبا مرقس الثانى صبيحة تلك الليلة ، أخبر الأساقفة الذين كانوا معه يومذاك بالحلم الذى رآه . وقد تحقق حلم البابا الاسكندرى إذ لم يكد

ينتهى من شعائر القيامة المجيدة حتى انطلقت روحه إلى بيعة الأبيكار (١) .

٥٢٣- اشتهر هارون الرشيد بالكرم الحاقمي والعدالة الممتازة إلا فيما يتعلق بمقتل أصدقائه البرامكة ، الذى لا يزال الباعث إليه سرا غامضا . ومما يروى عن هذا الخليفة أنه عقد أوامر الوداد مع شلمان ملك غاليا (فرنسا) ، فأهدى إليه هدايا فاخرة بينها ساعة دقاقة أنارت دهش الغاليين يومئذ ، فزعموا أن بها روحاً شيطانياً ! وأن استغراب الفرنسيين الذى دفع بهم إلى هذا الزعم يومذاك لدليل قاطع على أن الشرق كان له قدم السبق فى مختلف الميادين : فلم يلبث فى أرضه رسل الديانات السماوية فحسب ، وإنما تفوق فى المدنية المادية أيضاً . وهذه الحادثة تبين لنا أن أهل بلادنا الشرقية قد تفننوا فى صنع ساعة توهم الغربيون أنها من السحر . ولولا الاستعمار ما تأخرت شعوبنا العزيزة التى يدل تاريخها على عظمة انتاجها الفكرى والمادى . وحين تسلم شارلمان هدية هارون رحب بها وأرسل بدوره الهدايا إلى الخليفة العباسى . ثم انتهز الفرصة فرجا منه أن يسمح لبعض الرهبان الفرنجة بالاستقرار فى القدس الشريف لحراسة قبر السيد المسيح (٢) فقبل هارون هذا الرجاء ، وظل الرهبان مقيمين بالقدس حتى اليوم . وقد استغل هؤلاء الرهبان فرصة اقامتهم فى الأماكن المقدسة ليستمعوا إلى مذهبهم من مستطعمون استمالته من الأرثوذكس الشرقيين فأساءوا حق الضيافة .

ولقد نسج الخيال الكثير من القصص حول هارون الرشيد وعصره ، ولكن حتى بعد التفاضى عما فى القصص من خيال ، وبعد الاكتفاء بتتبع الوقائع الجافة ، فإن شخصية هذا الخليفة العباسى تظل قوية براقة تتفرع التقدير والاعجاب (٣) .

(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شلودة إليوموسى للصوامى عن نسخة محفوظة بدير اليرموين ج١ ص ١٩٩ - ٢١٤ .

(٢) مصر : من مينا إلى فؤاد الأول (بالفرنسية) للآب دى هينوطيع فى القاهرة سنة ١٩٣٥ ص ٢١٢ - ٢٢٣ ، تاريخ القدس لطرف باشا العارف ص ٥٤ .

(٣) الخلافة : ازدهارها لتحللها فستوطنها (بالانجليزية) للمير ولیم موير طبع فى لندن سنة ١٩١٥ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

أحداث حاسمة

أ- باباوية الأنبا ياكوبوس الأول

(٥٢٠) تعاقب الأباء المصريين تسرى بين الشعوب رغم عزلة كنيستهم .	(٥٢٤) تشتت الرهبان بعد هتك البربر .
(٥٢١) رسالة الشركة إلى الحبر الأنطاكي .	(٥٢٥) ياكوبوس يهرب إلى الصعيد ثم يعود إلى دير الأنبا مكارى .
(٥٢٢) زيارة مارديونيوسيوس لمصر للمرة الأولى .	(٥٢٦) انتخابه للجلوس على السدة المرقسية .
(٥٢٣) عدالة ابن طاهر وحته بقية الولاة على حسن معاملة المسيحيين .	(٥٢٧) الجدل حول إيمان الكنيسة باثنيثاق الروح القدس .
(٥٢٤) الزيارة الثانية لمارديونيوسيوس .	(٥٢٨) تجديد الكنائس والصوامع في بيرة شيهيت .
(٥٢٥) انطلاق الأنبا ياكوبوس الأول من أسر الجسد .	(٥٢٩) الأنبا ياكوبوس الأول يقوم برحلة راعوية .

٥٢٤- إن تعاقب الأيام والليالي يجر في طياته الأحداث المختلفة : الجسام منها والتافه . ومن الأحداث التي هزت الكنيسة للقبطية هجوم قبائل البربر على أديرة وادى النطرون في آخر عهد الأنبا مرقس الثاني . لأن هجوم هذه القبائل كان عنيفاً إلى حد أنه لم يبق إلا على عدد ضئيل من الرهبان ، أبقتهم العناية الإلهية ليكونوا خميرة للنسك في هذا الولدى العتيق الذى ازدهرت فيه حياة القداسة منذ القرن الميلادى الثاني . وهذا العدد الضئيل لم ينج إلا لقراره من وادى النطرون والتجائه إلى الصحراء جنوباً في منطقة الصعيد .

٥٢٥- وكان بين النساك الذين لم يقتلهم البربر راهب شاب اسمه ياكوبوس اشتهر بأعماله للصالحه وتقواه ونقشه ، يعيش في دير الأنبا مكارى الكبير . فقصده إلى الصعيد الأعلى ، إلى دير مهجور ، وعاش فيه متعبداً

متأملًا . وكان يتحين الفرصة للعودة إلى دير المحبوب . وذات ليلة ظهرت له السيدة العذراء فى حلم وأمرته بأن يعود إلى دير القديس مكارى الكبير قائلة له : « ستكون أبًا لأمة عظيمة . أمة مختارة » . فلما استيقظ ياكوبوس فى اليوم التالى أخذ يفكر فيما رآه وما سمعه ، ولم يشك لحظة واحدة فى الرؤيا التى رآها فقرر أن يطيع أمر والدة الإله ومن ثم قام لغوره وترك الصعيد واتجه نحو وادى النطرون . وما أن وصل إلى دير الأنبا مكارى الكبير حتى ظهرت له السيدة العذراء مرة ثانية وقالت له : « مبارك قدومك إلى هذا الدير العظيم أيها المؤمن الثابت . فنقر فى الرب وفى شدة قوته . ولا تخف البتة لأن رجوعك إلى هذه البرية المقدسة سيجتذب الكثيرين فيأتون إليك ويعمرون الدير من جديد ، فنجتمعهم الألفة والمحبة ، ويعيشون كما عاش أسلافهم فى وحدة الروح » . فتهلل قلب ياكوبوس لسماعه هذه الكلمات من أم النور ، وضاعف أصوامه وصلواته ونسكه وتأملاته . ولم يلبث أن أتى إليه العدد العديد من طالبى الرهبنة ليعيشوا تحت رعايته .

٥٢٦- وحدث - بينما كان الأنبا مرقس الثانى يعالج سكرات الموت - أن التف حوله المؤمنون وسألوه عن سيخلفه على السدة المرقسية ، فذكر لهم اسم الراهب ياكوبوس أبى رهبان دير القديس مكارى الكبير . فلما انتقل هذا البابا الجليل إلى مساكن النور ، نودى بالصوم والصلاة ثلاثة أيام ، أعلن بعدها الأساقفة الذين كانوا محيطين بالبابا ساعة نياحته اسم الراهب الذى نصحبهم باختياره فأطاع الجميع هذه الإشارة إذ قد عدوها وحيًا من الروح القدس . وفى الحال اتجه مندوبو الأساقفة والأراخنة إلى دير القديس مكارى الكبير ، واقتنوا الراهب ياكوبوس وساروا به إلى الاسكندرية . وكان هو يستعطفهم أن يتركوه لوحده ، ويذرف الدموع السخية لآخراجه من ديريه قائلاً : « إننى لست مستحقًا هذه الكرامة العظمى » . فلما رأى منهم تصميماً على اقتياده إلى الاسكندرية أخذ يضرع إلى الله أن ينقله إلى جوار آبائه القديسين قبل أن توضع عليه الأيدى . وخلال دموعه ونضرعاته سمع صوتًا من السماء يقول له : « تشجع يا ياكوبوس لأننى سأكون معك » . فهدأت نفسه عند سماعه هذا الصوت السماوى ، وسار مع المندوبين فى سكون . فأخذوه إلى الكنيسة

المرقسية يتبعهم جمهور الشعب . وهناك أجريت المراسيم الدينية التي اعتلى
براسمها الكرسي الاسكندري فأصبح الخليفة الخمسين للقديس مرقس البشير
سنة ٨١٠م (٥٢٦ش) .

٥٢٧- وكانت السنة الأولى لرئاسة الأنبا ياكوبوس على السدة المرقسية
سنة لها أبعاد الأثر في حياة الكنيسة الجامعة ، لأن الخرق بين الشرق والغرب
أخذ يتسع وقتذاك . واستمر الخرق في الاتساع إلى أن انفصل الشطران بعضهما
عن بعض في النهاية . وقد بدأ الخرق يتسع سنة ٨١٠م نتيجة لجدل جديد
اشتملت نيرانه إذ ذاك . وكان الجدل قد بدأ في الواقع سنة ٥٨٩م في المجمع
المحلى المنعقد في مدينة توليدو بأسبانيا إذ أعلن الملك ريكاردو (١) دستور
الايمان الذي يتمسك به هو وقومه فإذا به قد أضاف إلى دستور الايمان
الذي أقرته الكنيسة الجامعة في مجمعى نيقية والقسطنطينية وأيدته في مجمع
أفسس (٢) إذ أنه قد أضاف إلى جملة « نؤمن بالروح القدس الرب المحي
المنبثق من الآب ، كلمة ، والابن » (٣) ، في حين أن السيد المسيح له المجد قال
إن روح الحق ينبثق من الآب (٤) ولهذا السبب أعلن آباء المجمع المسكونية
الثلاثة تمسكهم بهذا التعليم الالهى الصريح وأثبته في دستور الايمان . وقد
أراد آباء مجمع أفسس (المسكونى الثالث) أن يؤكدوا تمسكهم بهذا الدستور
فذبلوه بحرهم لكل من يزيد عليه أو ينقص منه حرفاً . ومن ثم حافظت
الكنيسة الجامعة على هذا الدستور كما تسلمته من الآباء الأولين بالضبط .

على أن الملك ريكاردو أراد سنة ٥٨٩م أن يؤكد توريته عن البدعة
الأريوسية (٥) ، وزعم أنه بإعلانه لنبذاق الروح القدس من الابن أيضاً يثبت
توريته لجميع المسيحيين . وكانت هذه أول مرة قيلت فيها هذه الكلمات . ومما

(١) هو ملك قبائل لغوط الغربيين التي استولت أسبانيا .

(٢) ومي المجمع المسكونية الثلاثة التي انعقدت سنة ٣٢٥ ، ٣٨١ ، ٤٣١ بالتتالي .

(٣) وهذه الاضافة هي التي يحرر عنها الغربيون بكلمة " Filioque " .

(٤) يوحنا ١٥ : ٢٦ .

(٥) أو بدعة لتكار لاهوت المسيح التي نادى بها أريوس القس للتيبي في القرن الرابع .

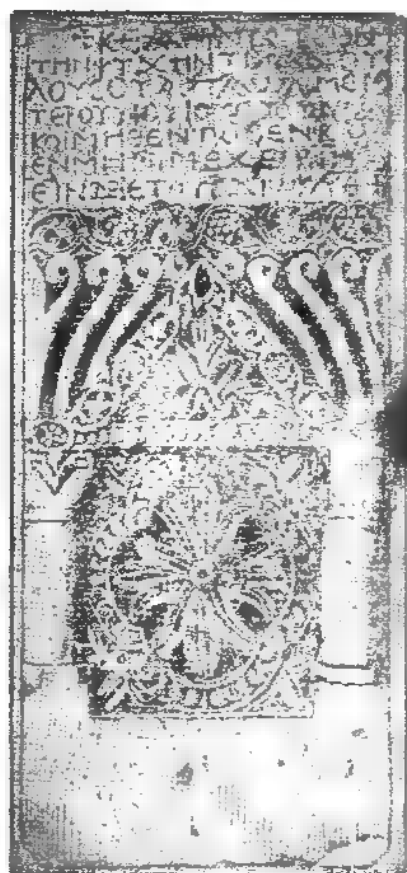
يوسف له أن أصغى أساقفة أسبانيا إلى هذا الملك وهو يتفوه بهذه الكلمات دون تعليق ، لأنها أدت فيما بعد إلى الجدل فى صفوف الكنيسة الرومانية ذاتها ، ثم بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وازداد هذا الجدل احتداماً حين بلغت هذه الكلمات مسامع الشرقيين - عن طريق الرهبان الذين أرسلهم الملك شارلمان لحراسة القبر المقدس باذن من هارون الرشيد ، إذ لم يرض الشرقيون عنها لأنهم رأوا فيها زيفاً عن تعليم السيد المسيح ، وعن الايمان الذى أقرته الكنيسة الجامعة فى مجامعها المسكونية الثلاثة والذى استقته من كلمات مخلصها مباشرة (١) .

وخلال هذه المجادلات التى دارت رحاها بين كنيسة رومية من جهة ، وكنيسة القسطنطينية مع بعض الكنائس الشرقية الموالية لها من الجهة الأخرى ، وقف الأنبا ياكوبوس على الحياد يرقب مجرى الحوادث دون الاشتراك فيها . لأن الدخيل الخلفيدونى هو الذى وصلته الدعوة لحضور المجمع الذى انعقد إذ ذاك . وهذا الدخيل الذى اغتصب لنفسه الحق فى التحدث بلسان كنيسة مصر كان غريباً عنها وطناً وإيماناً . ومع أن البابا الاسكندرى الشرعى لم يشترك بالفعل فى المناقشات التى دارت حول هذا الموضوع الهام ، إلا أنه أعلن لشعبه حقيقة الايمان الأرثوذكسى الذى نادى به أسلافه ، واصراره على التمسك به إلى النفس الأخير - وهو الايمان الذى تسلمته الكنيسة من رب المجد ورسله الأطهار وأعلنته فى مجامعها المسكونية الثلاثة .

٥٢٨- ثم حلت أيام الصوم الكبير (٢) فأتجه الأنبا ياكوبوس إلى دير القديس مكارى الكبير ليقضى به هذه الأيام المقدسة عملاً بالتقليد الذى سار عليه أسلافه الأماجد . وانتهاز فرصة هذا الاستجمام الروحى فعمل على بناء الكنائس والصوامع التى كانت قبائل البربر قد هدمتها : فبنى كنيسة كبرى باسم الأنبا شنودة رئيس المتوحدين ، وأحاطها ببعض الكنائس الصغيرة . أما كنيسة القديس مكارى الكبير التى كانت ضمن الكنائس المهدمة ، فقد أعاد

(١) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشمندريت جيتى جى من ٤٧٢ - ٤٧٤ ، ج ٦ من ٥٩ - ٩٦ ، ٢٨٧ - ٢٥٤ .

(٢) هو الصوم السابق لعيد التياملة المجيدة ومدته خمسة وخمسون يوماً .



استمرار المؤثرات الفرعونية : الكتابة القبطية منحوتة فوق الرموز
التي تمثل ألسنة اللهب الخاصة بالآلهة معت (آلهة الحق والعدل)

بناءها فى وسط دير هذا للقديس العظيم ، وتفنن فى تزيينها بالزخارف والأيقونات البديعة حتى جعلها تنطق بعظمة الفن الانسانى فتمجد الله الذى وهب الانسان هذه المقدرة الفنية (١) .

٥٢٩- وكان نشاط الأنبا ياكوبوس فائضاً ، فما أن فرغ من بناء الكنائس فى برية شيهيت حتى قام بزيارة راعوية فى الصعيد حيث قابله أبناؤه المخلصون بكل ترحيل وتهليل . فقضى بينهم أياماً كلها فرح روحى وسلام ، ثم عاد إلى عاصمته يحمل أجمل الذكريات . وفى غمرة هذه الذكريات ، رأى أن يواصل جهاده فى سبيل شعبه الوفى ، فشيد كنيسة فى القدس الشريف يصلى فيها القبط حين يذهبون إلى الأراضى المقدسة فى موسم الحج - موسم القيامة المجيدة - وفى غيره من المواسم (٢) .

٥٣٠- وبينما كان خليفة مارمرقس منهمكاً فى رعاية شعبه اقتداء بآباء الاسكندرية الأجلاء ، كانت البذرة التى بذرها هؤلاء الآباء أنفسهم تنمو فى بلاد بعيدة عن مصرنا الحبيبة . صحيح أن مجمع خلقيدون المشنوم ، ومعه الأحداث السياسية ، فقد باعدت بين الكنيسة المصرية وبين كنيسة القسطنطينية ورومية ولكن تعاليم كنيستنا كانت لاتزال النبع الصافى الذى يرتوى منه الجميع . ومن الأدلة على هذه الحقيقة أن ميشيل (امبراطور الشرق) حين أراد أن يقيم بينه وبين هولوديج بن شرلمان علاقات من المودة ، أرسل له بعض الهدايا النفيسة بينها كتاب لأحد تلاميذ أوريجانوس يغلب الظن أنه كان ديونيسيوس البابا الاسكندرى الـ ١٤ . ولقد تلقى هيلنوين كاهن كنيسة سان دونى بباريس هذه الهدية بفرح عظيم ، وعدّها هبة سماوية (٣) . وهكذا استمرت تعاليم الآباء المصريين تسرى بين الشعوب ، وتؤثر على الأفكار ،

(١) أدبرة وادى اللطرون (بالانجليزية) لايتلن وايت طبع فى نيويورك سنة ١٩٢٣ ج٣ ص ٣٥ .

(٢) القول الابريزى للملحمة المقرئى - النسخة - المطبوعة على نفقة مرقس جرجس فى القاهرة سنة ١٨٩٨ ص ٥٤ .

(٣) تاريخ الكنيسة (بالفرنسية) للأرشملاطريت جيتى ج٤ ص ١١٢ - ١١٤ .

رغم عزلة كنوستهم وزعم ما أبدته بعض الكنائس من استبداد بها ومن فرض
الدخلاء عليها .

٥٣١- واستمر الأنبا ياكوبوس الأول في جهوده للمثمرة غير عالم بذلك
الكتاب للنفس الذي أمده امبراطور القسطنطينية إلى امبراطور غالبا (فرنسا)
ولو أنه كان يعلم تماما أن للبذرة الحية متى سقطت في أرض جيدة فلا بد أن
تأتي بثلاثين وستين ومئة من الثمار . ووجد البابا الاسكندري متسعا من الوقت
- رغم أشغاله للعديدة - ليهيئ برسالة الشركة إلى أخيه في الخدمة الرسولية
بطريرك أنطاكية . وكان البطريرك الأنطاكي وقتذاك هو مارديونيوسيوس
الشمعري الملقب بحكم القرن التاسع .

٥٣٢- وقد تلقى للحبر الأنطاكي هذه الرسالة بفرح عظيم ، وأحس
باشتياق عفيف لزيارة مصر ورؤية البابا المرقسي . على أنه لم يتمكن من
تحقيق هذا الشوق إلا بعد حين . فجاء إلى مصر ، لا مرة ، بل مرتين . وقد
جاءها في المرة الأولى ليقابل الوالى عبد الله بن طاهر ويطلعه على ما أقرفه
أخوه من ظلم في معاملة أهالي أنيسا (١) .

٥٣٣- ولقد استجاب الله تعالى إلى تضرعات مار ديونيوسيوس بأن هيا له
أسباب النجاح ، إذ قد سلمه ابن طاهر خطاباً إلى أخيه ينصحه فيه بعدم
التعرض للكنائس ، ويحثه على حسن معاملة المسيحيين في جميع أنحاء البلاد
الأنطاكية . ثم بين له كيف أنه هو قد أطلق للقبط الحرية في بناء كنائسهم
والنصر في شئونهم الانبارية والقانونية حسب ما يتفق ومبادئهم الدينية ولم
يكف ابن طاهر بهذا الخطاب ، ويحسن معاملته للشعب القبطي ، بل أضاف
إلى مكرماته مكرمة أخرى هي طرد الأندلسيين المشاغبيين الذين كانوا قد ألقوا
راحة الاسكندريين وشددوا الخناق على البابا الاسكندري (الأنبا مرقس الثاني) .

(١) وتعرف بالرها لدى الكتاب العرب ، تقع ما بين الدهرين في الجزء الشمالي لدير القترات ،
على الطريق العام للقراقل ما بين هذه المنطقة والمرسل ، راجع التفاصيل منها في دائرة
المعارف الدينية (بالفرنسية) ج٤ ص ٢٤٦ - ٢٥٠ .

وسرت روح العدالة منه إلى أخيه كما سرت إلى باقى الولاة . فاستكتب السلام
فى مختلف بلاد شرقنا الأوسط (١) .

٥٣٤- وعاد مار ديونيسيوس للتبحر إلى بلاده فرحاً مستبشراً . ولما
رأى السلام مستتباً فى بلاده ، امتلأ قلبه لطمعانا ، وقرر أن يزور مصر للمرة
الثانية ، لا لغرض إلا لزيارة الأنبا ياكوبوس . وحين التقى الحبران الغفت
الجموع مواكب هاتفة لتحيتهما ، وترنمت قائلة : الرحمة والحق النقا . البر
والسلام ثلاثا ، (٢) . ثم سارت خلفهما بمواكبها : رفع البعض الصلبان بينما
حمل البعض الآخر الشموع الموقدة والمجامر التى يتصاعد منها البخور الزكى .
وقضى حكيم القرن التاسع فى مصر بضعة أيام زار فى خلالها الكنائس
والأديرة الأثرية وتبادل مع أساقفة الكرازة المرقسية الحديث عن الإيمان
الأرثوذكسى للمجد الذى مهره الشهداء بدمائهم ، والمعتفون بما تحملوا من
صلوب العذاب . ثم ودعه المصريون بنفس الاكرام الذى قبلوه به .

٥٣٥- وبعد انتهاء زيارة البطريرك الأنطاكي بقليل ، شعر الأنبا ياكوبوس
بوعكة بسيطة - ولكن نهايته كانت قد اقتربت . فلم تنقض غير أيام قليلة حتى
انطلق هذا البابا المجاهد من أسر للجسد ليذم بحرية الحياة الروحية ، بعد أن
قاد دفة الكنيسة عشر سنين وثمانية أشهر (٣) .



(١) من الطريف أن المصريين أطلقوا اسم « عبد الولى » على الفاكهة المعروفة بهذا الاسم
والقريبة من الشمام اكراما لهذا الولى الذى كان اسمه بالكامل « عبد الله بن طاهر » - راجع
كتاب تاريخ مصر فى القرن الوسطى (بالانجليزية) لسنانى لاين هول طبع فى لندن سنة
١٩٣٦ ص ٣٧ .

(٢) مزمور ٨٥ : ١٠ .

(٣) تاريخ البطاركة - مخطوط نقة القمص شودة البرموسى للصوملى عن النسخة للمحفوطة
بدير البرموسى ج ١ ص ٢١٤ - ٢٢٧ .

ب- ضربة قاصمة

- (٥٣٦) باباوية الأنبا سيميون كالحلم
في الغمض .
- (٥٣٧) فترة قلائل مدى سنتين .
- (٥٣٨) نياحة والدى يوساب وتبنى
كاتب موسر له .
- (٥٣٩) رغبته في الرهبنة وحكمة
أبيه بالتبني .
- (٥٤٠) نبوة رئيس دير الأنبا مكارى
الكبير .
- (٥٤١) السلام يسود السنة الأولى
لباباوية الأنبا يوساب الأول .
- (٥٤٢) ثورة صاخبة يقمعها الممتصم .
- (٥٤٣) شفاعة البابا المرقسى في
شعبه المصرى .
- (٥٤٤) مجيئ الخليفة المأمون إلى
مصر .
- (٥٤٥) استبداد أفشين بالقبط ضربة
قاصمة .
- (٥٤٦) توسط الأنبا يوساب الأول بين
المعتصم وملك التوبة .
- (٥٤٧) ولى عهد النوبة يزور مصر
ويقداد .
- (٥٤٨) تعدى ملكة الحبشة وصفح
البايا الاسكندرى .
- (٥٤٩) الصناع والصفانئون القبط
يساهمون فى بناء مدينة سمارة
- (٥٥٠) ازدهار الأديرة فى برية
شيهيت .
- (٥٥١) تكريس بيعة الآباء الرسل
بدير الأنبا مكارى الكبير .
- (٥٥٢) نياحة الأنبا يوساب الأول .

٥٣٦- وكان فى الاسكندرية راهب برتبة الشماسية اسمه سيميون ، نشأ تحت رعاية الأنبا مرقس الثانى ثم لازم خليفته ياكوبوس . وقد عرف الشعب فيه غيرته على الايمان الأرثوذكسى ومحبيه للجميع . فلما شغرت السدة المرقسية اتجهت الأنظار إليه . فرسمه الأساقفة فى هدوء وسلام . وبذلك أصبح الخليفة الحادى والخمسين لمارمرقس البشير كاروز ديارنا المصرية . غير أن باباويته لم تدم طويلاً ، فقد روى بعض المؤرخين أنها دامت شهوراً سبعة ، بينما يقول البعض الآخر أنها لم تدم غير خمسة شهور وسبعة عشر يوماً . وهكذا مر كالحلم فى الغمض دون أن يكون له أى أثر على الكنيسة العريقة التى تولى أمرها . وقد أجمع المؤرخون على أن أيام باباويته قد امتازت بالسكينة والسلام .

٥٣٧- وكان لانتقال الأنبا سيميون إلى دار البقاء بدء فترة من القلاقل دامت سنتين . ذلك أن تاجراً موسراً من تجار الاسكندرية اشتكى أن يظفر بالسدة المرقسية . وكان رجلاً متزوجاً عائلاً في العالم يستمتع بماله وجاهه ، فلم يكن له أى حق فى هذه السدة الكريمة . على أنه لما كانت المطاعم والأهواء الانسانية لا تقف عند حد ، فقد دفعت بهذا التاجر إلى الفأمر والاحتيال . فأشاع فى الشعب أن غناه وجاهه سيمكانه من تذليل العقبات التى قد تعترض طريق الكنيسة إذ يمهدان أمامه السبيل لمقابلة الحكام والولاة . وبهذه الشائعات الغريبة استمال إليه السانجين من المؤمنين . فافتنموا برأيه وأخذوا يروجون له .

وبلما كان هذا التاجر يعمل بوسائله الدنيئة على اكتساب أنصار ومريدين اجتمع الأساقفة والأرأخنة فى الاسكندرية للنشاور فى موضوع الانتخاب . وقد أعلنوا فى اجتماعهم أنهم لن يحددوا عن تقاليد الكنيسة والقوانين التى سنّها الرسل والآباء الرسوليون ، ولن يتناسوا المبادئ من أجل الأشخاص . ولما كانت الكنيسة القبطية قد حصرت حق الكرامة الأسقفية فى المتبتلين فهم سيوجهون اختياريهم نحو هؤلاء الرجال المكرسين الذين سلموا حياتهم بأكملها لله تعالى . وما أن اتفقت كلمتهم على هذا الرأى حتى اقترح بعضهم انتخاب الراهب يوساب . وكان الوالى قد أخذ الهدايا النفيسة من التاجر الفنى فعارض الأساقفة . على أن معارضته ذهبت هباء منثوراً ، لأن جميع الأساقفة والأرأخنة أعلنوا تمسكهم بانتخاب الراهب يوساب وبحقهم فى انتخاب من يرونه لائقاً لهذه الكرامة العظمى ، وفى المحافظة على القوانين الكنسية فلم يستطع الوالى - بازاء اجماعهم واصرارهم - إلا أن ينزل على ارادتهم . فخرجوا من عنده قاصدين إلى الكنيسة المرقسية على الفور حيث أجريت المراسيم الدينية التى رفعت الراهب يوساب إلى كرامة الباباوية ، فأصبح الخليفة الثانى والخمسين للقديس مرقس فى الثانى والعشرين من شهر هاتور المبارك سنة ٥٣٩ ش (٧ نوفمبر سنة ٨٢٢ م) .

٥٣٨- وكان الأنبا يوساب الأول ابناً وحيداً لأبويه اللذين كانا من أهالى

منوف (بالدلتا) . ولم ينعم بتربيتهما إياه ، إذ قد انتقلا إلى دار الخلود وهو بعد طفل . على أن المراحم الالهية التي سمحت بحرمانه من عطف أبويه ، قد هيأت له قلباً رحيماً فى شخص رجل على من المؤمنين كان كاتباً فى الديوان . فقد تبناه هذا الكاتب النقى واهتم بأمر تربيته كما لو كان ابنه بالجسد تماماً . فعاش يوساب فى كنفه آمناً مطمئناً .

٥٣٩- ولما بلغ من الرشد أخذ يتأمل حياته وما أصابه من يتم . وانتهى من هذا التأمل إلى القول : « مادام أبواى قد انتهيا من هم الحياة ولنا طفل صغير ، ومأمنت وحيداً لا أخ لى ولا أخت ، فخير مبداء لى هى الصحراء الرحبية حيث يسكن أصفياء الله ، . وحالما قرأ قراره على هذه الفكرة . ذهب إلى أبيه بالتبني وأطلعته على رغبته فى أن يحيا حياة الرهبنة . أجابه هذا الرجل الحنون ، لقد نشأت مدلاً متروكاً ، والحياة فى الصحراء شاقة شظفة ، فلن تستطيع احتمالها يا بنى . ومع أنه أجاب يوساب بهذه الكلمات ، إلا أنه أخذ يفكر ملياً فى رغبة هذا الشاب الذى تبناه صغيراً ، ويسائل نفسه إن كان له الحق فى أن يحرمه من تحقيق رغبته فى الحياة النسكية . وحين طغت عليه هذه الأفكار قال لنفسه : « فلأذهبن إلى الآب البطريرك وأطلعته على هذا الأمر ، ثم أعمل بعد ذلك بمشورته . وكان الأنبا مرقس الثانى هو البابا إذ ذاك . فكتب إليه هذا الكاتب الغيور رسالة ضمنها كل ما دار بينه وبين يوساب من حديث ، ثم ما دار بينه وبين نفسه من خواطر نتيجة لهذا الحديث . وسلم الرسالة إلى يوساب نفسه راجياً منه أن يوصلها إلى البابا الاسكندرى شخصياً . ولما قرأ الأنبا مرقس الثانى الرسالة تهلل قلبه ، وسلم يوساب إلى راهب شيخ معروف بحسن شمائله ، ويطول باعه فى العلم والتقوى . وكان مسئولاً عن تعليم الشباب . وقد رضى أبو يوساب بالتبني بهذا الوضع . وقضى يوساب فى دراسته على يدى هذا الشيخ الجليل بضع سنين . على أن حنينه إلى الصحراء وإلى عيشة النسك والتقشف عاوده بقوة . ولما طغى عليه هذا الحنين قصد إلى الأنبا مرقس الثانى مرة أخرى ، واعترف له برغبته الجارفة فى حياة النسك فى الصحراء . فأرسله البابا الاسكندرى إلى دير الأنبا مكارى الكبير بالاتفاق مع الكاتب الذى تبناه ، كما أرسل معه خطاب توصية إلى رئيس الدير لى

يقبله دون تردد . وهكذا انتظم يوساب فى سلك الرهبنة ، وقضى بضع سنين متتلمذاً لرئيس الدير الذى لقنه كل ما يعرف من علم .

٥٤٠- وظل الراهب يوساب يعيش عيشة النسك والتقشف والتأمل بضع سنين مريض بعدها رئيسه . فقام يوساب بخدمته خدمة الابن البكر لأبيه المحبوب . فلما دنت ساعة انتقال ذلك الرئيس إلى مساكن النور ، قال ليوساب : : لقد منحك الله نعمة خاصة وجعلك اناء مختاراً ، فإذا ما حصلت على ما يهيئ لك الله فثبت اخوتك وارسمهم كهنة للعلی ، . ولم يكذب يوساب بهذه الكلمات حتى أسلم روحه بين يدي الآب السماوى . ومرت السنون ، ونال الراهب يوساب كرامة السدة المرقسية . فتذكر كلمات أبيه الروحى ، وعمل على تثبيت القلوب ورسمه الممتازين من اخوته الرهبان كهنة وأساقفة .

٥٤١- وكانت السنة الأولى لباباوية الأنبا يوساب الأول سنة رخاء وسلام ولكنها كانت أشبه بالهدوء الذى يسبق العاصفة . وقد انتهز البابا المرقسى فرصة هذا الهدوء الشامل فرسم ثلاثة أساقفة : أحدهم للمدن الخمس الغربية ، وثانيهم للثوبة ، وثالثهم للعبشة (١) . كما ابتاع مساحات فسيحة بالمال الذى قدّمته له الرعية عن طيب خاطر ووقفها على الكنائس .

٥٤٢- ولم يكذب البابا المرقسى ينتهى مما يقوم به من أعمال الخير للكنيسة حتى فوجئت البلاد بتعيين موظفين جديدين لجباية الضرائب . فأخذ هذان الموظفان يغاليان فى تحصيل المال حتى أنهما لم يتورعا عن سجن الممتنع من أداء الضريبة وذاقته صنوف العذاب . ومن سوء حظ الشعب المصرى أن الحصاد فى تلك الأيام جاء شحيحاً ، فتضاعف عدد العاجزين عن سداد الضريبة . ولم يلب قلب هذين الموظفين بإزاء العجز الناتج عن نقص المحصول ، بل استمرا فى تنكيلهما بالشعب الذى انتهى به الأمر إلى أن ثارت ثائرتة . فاحتدم القتال بين الحكام والمحكومين فى الوجهين القبلى والبحرى . وقد تفاقم الأمر ، وظلت البلاد تغلى غليان المرجل ، والدماء تجرى أنهاراً

(١) : حمن السلوك فى تاريخ البطارقة والملوك ، لراهب بزموسى . طبع فى القاهرة سنة ١٦١٣ ش (١٨٩٧ م) ج ٢ ص ٢٤ .

حتى وفد المعتصم على مصر بقوة مؤلفة من أربعة آلاف جندي تركي (١) ليقيم ثورتها الصاخبة ويخضعها لأخيه الخليفة المأمون (٢) .

٥٤٣- وحين رأى الأنبا يوساب الأول نار الثورة مدلعة ، ورأى بطش الجند بالثوار من مواطنيه ، امتلأ قلبه حمرة ، فكرس نهاره للصوم وليله للتأمل والعبادة ، صارعاً إلى الله أن يتدارك الجميع بمراحمه . وكان الحزن قد طغى عليه إلى حد انساء كتابة رسالة الشركة إلى أخيه البطريرك الأنطاكي . على أن ماردونيوسيوس التلمحري - حكيم القرن التاسع - كان لا يزال بنعمة الله جالساً على السدة الأنطاكية . وكان يرقب الأمور الجارية في مصر باهتمام بالغ . فاستشف حزن الأنبا يوساب الأول ، وأدرك ببصيرته أن هذا الحزن هو السبب في عدم وصول رسالة الشركة . وأخذ يتحين الفرصة ليزور وادى النيل مرة ثالثة لكي يقدم التهنئة إلى البابا الاسكندري بنفسه .

٥٤٤- ومع أن المعتصم كان قد نجح في اخضاع الثوار القبط . وأخذ جمعاً منهم أسرى سيّرهم حفاة في شوارع بغداد إلا أنه ما كاد يصل بلاده حتى اندلعت ألسنة الثورة من جديد واشتد سعيها . وكان الثوار هذه المرة من القبط وحدهم لأن الضرائب كانت باهظة إلى حد الارهاق . ولم يستطع والي مصر (ولا غيره من الولاة) أن يسيطر على الموقف . فأدرك الخليفة المأمون أنه يجب عليه أن يسارع إلى البلاد المصرية لعل رؤية القبط له تكفي لتهديئة خواطرمهم . وقد استصحب ماردونيوسيوس التلمحري البطريرك الأنطاكي الذي كان صديقاً حميماً له ، كما استصحب مترجماً يجيد اللغة القبطية مع أن القبط كانوا قد أصبحوا يعرفون العربية . على أنه استنار حفيظتهم إذ قد أمر والييه في مصر وفي القاهرة أن يمسا له الشوارع شارعاً شارعاً وحارة حارة ويحصيا

(١) مما تجدر الإشارة إليه هنا أن المعتصم حين تولى الخلافة - بعد أخيه المأمون - استبدل الجنود العرب بالأتراك . وسار خلفاؤه على خطته هذه فعاتد على العرب وكل شعوب الشرق الأوسط بالويل ، إذ أخذ نفوذ الترك يتزايد حتى استولوا نهائياً على الحكم سنة ١٥١٧م - راجع مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثاني المبحث الثاني لجاستون فييت ص ١٤٠ ، الخلافة : ازدهارها ، انحلالها فسقوطها ، (بالانجليزية) لتسير وليم مرير ص ٥١٣ .

(٢) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لسنانى لاين بول ص ٣٧ .

كل من فيها باسمائهم ، كما أمرهما أن لا يمكنا أحداً من الانتقال من منزل إلى منزل إلى أن يخرج أمره (وذلك للتحري عن الباطنية) (١) فعرف من هذا الاحصاء اسماء أهل مصر والقاهرة وكناهم وأحوالهم ومعايشهم . ومن ثم استمر السخاطون على استبداد الجباة على تمردهم ورفضوا أن يلقوا السلام . وعندما أمر الخليفة أفشين قائده التركي بمهاجمة القبط فى منطقة خوف وعرج هو بجيشه على سخا لمقاتلة الثائرين فيها (٢) . ومن المومع أن هذا القائد التركى لم يكثف باخماد الثورة بل آمن فى التكنيل بالقبط : فقتل من رجالهم من قتل وشنت بقينهم ، وأحرق ضياعهم ، وسبى نساءهم وأطفالهم .

٥٤٥- وكان الاستبداد الذى جعله أفشين التركى قاعدة التعامل مع القبط عنيفاً حتى لقد كان ضرية قاسمة كادت تودى بهم (٣) . لولا عين الله الساهرة عليهم الحارسة لهم .

فلما أحرز المؤمنون نصراً ساحقاً على الثوار سنة ٨٣٢م ، عاد إلى بغداد تاركاً إياهم لكربهم ومحنتهم واندحارهم دون أن يحرك ساكناً للتخفيف من حدة هذه الخيبة المريرة التى ملأت قلوب البقية الباقية منهم . على أنه لم يعيش غير شهور خمس بعد وصوله إلى عاصمته إذ قد توفى فى خريف سنة ٨٣٣م (٤) . وتأمل الأنبا يوساب الأول فلؤل شعبه فامتلاً قلبه حزناً ووجعاً وكرس نفسه لتعزية الحزانى وتضميد قلوبهم الجريحة .

٥٤٦- على أن الواجب الذى استرعى انتباه البابا الاسكندرى قبل كل واجب آخر هو محاولة راب الصدع الذى أصاب الصلات بين الخليفة المعتصم وبين زكريا ملك النوبة . ذلك أن المعتصم الذى كان قد تولى الخلافة بعد أخيه المؤمن كان قد أرسل خطاباً إلى زكريا ملك النوبة يطالبه فيه بقيمة ضرائب

(١) ابن ميسر ص ٦٥ .

(٢) مختصر تاريخ مصر ... ص ١٣٨ .

(٣) تاريخ مصر فى العصور الوسطى ... ص ٣٧ - ٣٨ ، نقول الابريزى للعلامة المقريزى - طبع فى القاهرة على نفقة مرقس جرجس ص ٥٤ تاريخ مصر الاسلامية لالياس الأيوبى طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٢ ص ٩٧ .

(٤) الخلافة : ازدهارها وانحلالها فسقطها (بالانجليزية) ولیم مرير ص ٥١٠ - ٥١١ .

متأخرة عن أربع عشر سنة . فلما سمع الأنبا يوساب الأول بهذا الطلب بعث برسالة إلى ملك النوبة قال له فيها : « إن الخليفة المعتصم يبدى العودة للمسيحيين فوحسن بك أن تلبى نداءه ما استطعت إلى ذلك سبيلا » . وحمل الخطابين مندوبان شخصيان .

٥٤٧- فلما وصل المندوبان إلى زكريا ملك النوبة حاملين إليه رسالتي البابا الاسكندري والخليفة العباسي ، جمع هذا الملك مستشاريه وقال لهم : « ليس في استطاعتي أن أغادر البلاد بنفسى حرصاً على سلامتها . وأرى أن ابني الأكبر الذى هو ولى عهدى خير رسول يحمل ردى على هاتين الرسالتين » . وما أن استقر رأى الملك زكريا على هذا القرار حتى حمل ابنه الهدايا النفيسة ، وأرسله صحبة المندوبين المصريين . فلما وصلوا مصر ذهبوا على الفور ليخالوا بركة الأنبا يوساب الأول ، ثم استأذن الأمير النوبى فى الذهاب إلى بغداد ليفقد بنفسه الهدايا التى حمله اياها أبوه إلى الخليفة المعتصم فلما وصل بغداد استقبله الخليفة بكل حفاوة وإكرام ، ثم قال له : « مادمت قد جئت بنفسك ، وتجشمت متاعب السفر هذه المسافات الطويلة تلبية لرغبتى ، فأنى سأتنازل لكم عن المتأخر من الضريبة » . ثم دعاه إلى البقاء فى ضيافته بضعة أيام . وعندما أراد أن يعود إلى بلاده أمر المعتصم فرقة من جيشه بمرافقته إلى الحدود كحرس شرف له . وقد قصد الأمير إلى مصر أولاً ، فصاحبته هذه الفرقة إلى بلادنا الحبيبة . وذهب مباشرة إلى الاسكندرية ليفقد للبابا المرقسى تقريراً عن كل ما لاقاه من تكريم فى قصر الخليفة . فكان هذا التقرير أشبه بالبلسم الشافى لقلب الأنبا يوساب الجريح . وقد عبر عن فرحه بأن قصد هو والأمير والشعب الاسكندري إلى الكنيسة حيث صلوا صلاة الشكر ثم أدوا شعائر القداس الالهى وتناولوا من الأسرار المقدسة بنشوة روحية عجيبة . وبعد تقديم هذا الشكر للآب السماوى أبدى الأمير رغبته فى أن يعود إلى بلاده . فقدم إليه البابا الاسكندري لوحة مكرسة (١) هدية منه ثم زوده بصالح الأدعية وودعه فى حنان .

(١) هى قطعة من الخشب مربعة أو مستطيلة نقش عليها الرموز التى تعبر عن ايمان الكنيسة بتجسد الله الكلمة ولابد من وجودها لاقامة القلوس .

٥٤٨- فلما اطمأن قلب الأنبا يوساب الأول على شعبه القوي ، وجه عنايته إلى شعبه الحبشى وكان قد رسم لهم مطراناً اختاره من بين رهبان دير البرموس فى السنة الأولى من باباويته وبينما كان هذا المطران يقوم بواجباته الراعوية ، اضطر ملك الحبشة إلى أن يخرج لمقاتلة أعدائه الذين هددوا باجتياح بلاده . وقد انتهزت ملكة الحبشة فرصة غياب زوجها عن عاصمته فطردت الأنبا يؤنس - المطران المصرى - وأقامت بدلاً عنه مطراناً حبشياً من المقربين إليها . ولم يشأ الأنبا يؤنس أن يحدث شغباً أثناء انشغال الملك بالحرب ، فعاد فى سكون إلى دير البرموس الذى قضى فيه أيام رهبنته . ولما عاد الملك إلى عاصمة ملكه وجد أن البلاد قد انتابتها المجاعة وانتشرت فيها الأوبئة ، فأراد أن يستعين بالمطران المصرى ليصلى إلى الله تعالى كي يرفع عنها غضبه . فأعلمه المقربون إليه من رجال البلاط بما فعلته الملكة . وعندها بعث الملك برسالة إلى البابا الاسكندرى قال له فيها : « إننى أرفع إلى قداسة البابا الجليل الجالس على الكرسي المرقسى قرائض الاجلال والاعظام ، وأعد صلواتكم دعامة عرشى . لذلك أرجو أن تصفحوا عما وقع منا فى حق الحبر الكريم مطراننا الشرعى ، وتطلبوا إليه أن يعود إلى بلادنا فقد نلنا عقابنا الذى نستحقه ، وذلك لكى يشفع فينا أمام الله فيستجيب دعاءه ويرفع غضبه عنا ، . فرحب الأنبا يوساب الأول بهذه الرسالة الملكية ، وأسرع إلى إعادة الأنبا يؤنس إلى مقر كرسيه تلبية لرجاء ابنه الملك الحبشى (١) .

كذلك أدرك الأنبا يوساب الأول مسئوليته نحو أولاده من أهالى شمالى أفريقيا فرسم أساقفة لبلاد تونس والجزائر والمدن الخمس لأنه كان يقول بأن الرعية فى حاجة إلى الرعاة لتدبير أمورهم وإرشادهم ، فإن لم تجد الرعية من يرعاها ضلت وهلك وكان هو مسئولاً عنها أمام عرش الديان (٢) .

٥٤٩- وشاء الله تعالى أن يعوض القبط عما فقدوه من رجال ومال ، فهياً

(١) تاريخ البطاركة - مخطوط نقله القمص شودة البرموسى الصوامعى عن النسخة المفقودة بدير البرموس ج١ ص ٢٣٩ - ٢٤٢ .

(٢) تاريخ للبطاركة ... ج١ ص ٢٤٢ .

لهم فرصة لم تكن في الحسبان . ذلك أن الخليفة المعتصم أراد أن يخطط مدينة سامرا (١) . ولما كان يرغب في أن يجعلها جميلة فقد بعث إلى مصرنا العزيزة يستقدم أبناءها الصناع والفنانين ليساهموا بمقدرتهم في تشييد هذه المدينة وتزيينها - لأن مهارة المصريين التي ورثوها عن آبائهم منذ عهد الفراعنة كانت معروفة لدى الجميع . ومن الأدلة على أن هؤلاء الصناع كانوا من القبط أن المخلفات الباقية عن هذه الحقبة تحمل على ظهرها صليبا منقوشا أو تحمل كلمة الآب والابن والروح القدس ، (٢) . وهذه المخلفات شاهدة على أن الخليفة المعتصم كان عطوفاً على المسيحيين حقاً فقد رفقهم واحساساتهم .

٥٥٠- وبعد أن اطمأن قلب الأنبا يوساب الأول على حال الشعبين النوبى والحبشى كما اطمأن على شعوب شمال أفريقيا اتجه بكليته إلى شعبه المصرى فقام برحلة راعرية ، وانتهى به المطاف إلى برية شيهيت حيث امتلأت نفسه عزاء لأنه وجد الأديرة منتعشة مزدهرة ، وقد استعادت رونقها وتزايد عدد رهبانها وتضاعف فرح البابا الاسكندري علما وقف على نشاط القس شودة أبى رهبان هذه البرية . فقد كان هذا الناسك يقضى نهاره فى العمل ، وليله فى الصلاة والتأمل وتسبيح الآب السماوى . وكان قد زرع الحقائق واشترك فى بناء الصوامع وفى تربية المواشى . بل لقد أقام المباني الفخمة تمجيدا لاسم الأنبا مكارى . وزرع كروما . وبنى مطاحن للقمح ومعاصر للزيت . وأدى خدمات جليلة لا تحصى ، ثم بنى كنيسة شمالي الكنيسة الكبرى التى تحمل اسم مكارى الكبير دعاها باسم : الآباء الرسل . وقد وصف معاصرو الآب شودة هذه الكنيسة بأنها كانت فسحة جميلة (٣) .

(١) أنه سر من رأى ، ويقع هوالى ثمانين كيلو شمالي بغداد . اتخذها المعتصم عاصمة للخلافة العباسية ، وظلت كذلك حتى سنة ٨٩٤ م .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى . المبحث الثانى لجاستون فييت ص ١٤٧ .

(٣) أديرة وادى للندرون (بالانجليزية) لايفلون وايت طبع فى نيريورك سنة ١٩٣٣ ج ٣ ص ٣٥ .

ولقد كان للناسك شئود وجه مضئ بالنعمة وابتسامة رقيقة وسيرة حسنة ،
فمكنته هذه المزايا من أن يجتذب الكثير من الشباب إلى حياة الرهبنة .

وبعد أن انشرح صدر الأنبا يوساب الأول لهذا النشاط بين الرهبان ،
منحهم بركته طالباً لهم المزيد من الهمة . ثم عاد إلى مقر كرسيه .

٥٥١- ولما فرغ القس شئود وأبناؤه الرهبان من بناء الكنيسة استصحب
بعضاً منهم وقصدوا إلى البابا الاسكندري ، ورجوا منه أن يعود معهم إلى
البرية ثانية لتكريسها . فتهلل قلبه وذهب معهم لساعته . ولما وصل إلى البرية
واكتحلت عيناه برؤية منارتى الكنيسة مرتفعتين ، تحيط بها مزرعة مزدهرة ،
رفع آى الحمد والتسبيح للآب السماوى الذى شاءت مراحمه أن يجبر القلوب
الجريحة فيوضح للمؤمنين حقيقة القيامة البادية فى ازدهار الحياة الروحية بعد
ذبولها . واشترك جميع الرهبان - شيوخاً وشباباً - مع أبиеم الروحى الأعلى
فى تسبيح الله وتمجيده . وبعد أن كرس البابا المرقسى كنيسة الآباء الرسل
وقضى بضعة أيام بين أبنائه الرهبان عاد إلى مقر رياسته فى أمن وسلام .

٥٥٢- وبعد أن رعى هذا الأب الجليل كنيسة مصر مدى سبعة عشر عاماً
وأحد عشر شهراً وسط العواصف والأنواء حتى وصل بها إلى ميناء السلام ،
سمع صوت الله تعالى يهيم فى أذنه : : أن تعال أيها الراعى الأمين لتستريح
من أتعابك ، . فلازم فراشه ثمانية أيام . وكان اليوم التاسع يوم الأحد . وفى
الساعة التى كان الشعب يتناول من الأسرار المقدسة : فى تلك الساعة عينها
طارت روح الأنبا يوساب الأول إلى عالم النور (١) .



(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شئود البرموسى الصرامعى عن النسخة المحفوظة
بدير البرموس ج١ من ٢٢٨ - ٢٥٤ .

اضطراب فى الخارج وسلام فى الداخل

١- الأنبا ميخائيل الثانى

٥٥٢- باباوية الأنبا ميخائيل الثانى سحابة عابرة .

٥٥٣- إن من يتصفح التاريخ يجد بين أبطاله من هو كالطود الراسخ الذى يظل قائماً على مدى الأجيال ، كما يجد من يشبه سحابة صيف لا تلبث أن تنفث . وبين الرجال الذين مروا كالحساب العابر الأنبا ميخائيل الثانى البابا الاسكندرى الثالث والخمسون الذى قضى أيام رهبنته فى دير الأنبا يؤنس القصير (١) .

ولقد كان الأنبا ميخائيل الثانى ممثلاً نعمة وحكمة ، ولكن أيامه فى قيادة دفة الكنيسة لم تدم غير سنة وأربعة شهور سادها السلام والطمأنينة . فانتقل إلى الأخدار السماوية فى هدوء المغيب الصافى .



(١) يقول القمص ميسائيل بحر على ص ٤٨ من كتابه « تاريخ القديس الأنبا يوحنا القصير » المطبوع فى القاهرة سنة ١٩٥٧ عن الأنبا ميخائيل الثانى البطريرك الثالث والخمسين أنه « كان أحد رهبان أبى يوحنا . رسم بابا فى نفس السنة التى تليق فيها البابا يوساب سلقه فى عهد خلافة المتوكل بن المعتصم . وقد تعرض له الولاة الظالمون طالبيين منه مبالغ طائلة على سبيل رشوة أو بمنعونه من الجلوس على الكرسي البطريركى . فاضطر أن يبيع ذخائر الكنيسة ويوفى المطلوب . ولم تطل مدة هذا البطريرك سوى سنة وخمسة أشهر » .

ب- الأنبا قزما الثانى

- (٥٥٤) انتخاب قزما للكرسى المرقسى .
(٥٥٥) انقامته فى بلدة دميرة شرقى
(٥٥٦) رسالة الشركة إلى بطريرك أنطاكي .
(٥٥٧) مناورات البيزنطيين .
القسطنطين .

٥٥٤- ووجد الأساقفة والأراخنة أنفسهم مضطرين إلى الاجتماع للتشاور فيمن يخلف البابا الراحل . فألهمهم الروح القدس بانتخاب راهب فى رتبة الشماسية اسمه قزما من دير الأنبا مكارى الكبير . فأخذوه لماعتهم إلى الاسكندرية حيث وضع عليه الأساقفة الأيدى وأقاموه على الكرسي الجليل الذى ، لناظر الالهيات ، (١) فأصبح البابا الرابع والخمسين سنة ٨٤٢ م .

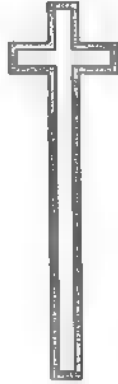
٥٥٥- وبعد رسامته بأيام قصد إلى القسطنطين ليتقابل مع الوالى . وكان فى ديوان الولاية إذ ذاك قبطيان اسم احدهما مكارى وثانيهما ابرآم ، اشتهر كلاهما بالصلاح والتقوى . وكانت لهما حظوة لدى الوالى الذى أشار عليهما بتلبية جميع ما يطلبه الأنبا قزما الثانى . ولما كان مكارى وابرام يرغبان فى ابداء كل اجلال للبابا الاسكندرى ، فقد طلبا إليه أن يقيم فى بلدة دميرة شرقى القسطنطين بدلاً من الاسكندرية ليكون قريباً من مقر الولاية . فقبل طلبهما وقضى بها كل أيام باباويته .

٥٥٦- وكان أول ما قام به الأنبا قزما الثانى - بوصفه البابا المرقسى - هو كتابة رسالة الشركة إلى أخيه فى الخدمة الرسولية بطريرك أنطاكية . وقد عبرت هذه الرسالة عن وحدة الايمان الأرثوذكسى الذى يربط بين الكنيستين الأنطاكية والاسكندرية ، فجاءه الرد عليها يفتح مودة واخلاصاً .

٥٥٧- ولقد سعد الأنبا قزما الثانى وشعبه بالطمأنينة والسلام ، إذ كان الخليفة المتوكل يحسن معاملة رعاياه على اختلاف أديانهم . ولم يقلقهم غير المناورات التى كان يقوم بها البيزنطيون من حين إلى حين . فرأى هذا

(١) هذا التعبير هو لحد ألقاب القديس مرقس الرسول .

الخليفة - الذى كان ساهراً على دولته بقدر ما كان منصفاً - أن يقيم الحصون على الشواطئ كي لا يستطيع جنود بيزنطة أن يدخلوا مصر . فحصن نمياط وتانيس والبرلس والاسكندرية ورشيد ، مما جعل المصريين يحسون بالأمن والاستقرار فانصرفوا إلى زراعتهم وتجاراتهم ومهتهم المختلفة ، فعم الرخاء البلاد . وفى وسط هذا الهدوء الشامل انطلق الأنبياء قزما الثانى من أغلال هذا الجسد وانضم إلى أسلافه المقيمين فى مساكن النور . وكانت مدة رياسته للكنيسة سبع سلين وسبعة أشهر (١) .



(١) تاريخ البطارقة - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامى البرموسى عن النسخة المحفوظة بديره جـ ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٥ .

جـ- الأنبا شنودة الأول

- (٥٥٨) انتخاب الراهب شنودة .
 (٥٥٩) توبة بعض القبط من أهالي مريوط .
 (٥٦٠) البابا المرقسى يقوم برحلة راعوية .
 (٥٦١) صفائر تضايق القبط .
 (٥٦٢) تولى عنيسة بن اسحق الحكم .
 (٥٦٣) نزاهة هذا الحاكم .
 (٥٦٤) رسالة الشركة إلى بطريرك انطاكية .
 (٥٦٥) صدام بين التوبييين والمصريين وكرم المصريين في معاملة التوبييين .
 (٥٦٦) نقل عنيسة واحلال الترك محل العرب .
 (٥٦٧) البابا الاسكندري يحضر قنوات للماء العذب .
 (٥٦٨) البابا الاسكندري يحسن دير القديس مكاري الكبير .
 (٥٦٩) نياحته .

٥٥٨- لما كانت الحياة نَقَلَ الحديد إذا لبسته وتبلى الحجر ، (١) ، فقد توالى أيامها وأحداثها وظلت قوة الأنبا قزما الثاني حتى انتهت دورته على هذه الدنيا . فتحتم على الأساقفة والأرلخنة أن يجتمعوا ليتشاوروا مرة أخرى . وقد قر رأيهم على ليفاد مندوبيين عنهم إلى بابلون ليلتقوا بأسقفها . وعندما وصل هؤلاء المندوبون اجتمعوا بالموظفين الكبارين مكاري وبرآم اللذين كانا لا يزالان في دار الولاية ، وتبادلوا الرأي معهما في أمر من يخلف البابا الراحل . وفي أثناء هذا الاجتماع حضر إلى دار الولاية راهب اسمه شنودة من دير القديس مكاري الكبير ، كان موفداً من قبل رئيسه للاستفهام عن مقدار الجزية المفروضة على ديريه . فلما رآه المجتمعون أخذوا يسألونه عن يراه أهلاً لأن يذال كرامة البابوية المرقسية ، فنكر لهم عدداً من اخوته الرهبان . ثم قضى الأمور التي جاءت من أجلها وخرج من دار الولاية ليعود إلى ديريه . وما أن انصرف من حضرته حتى أجمعوا على انتخابه بالذات لما أبداه من تواضع

(١) هذه الكلمات هي بيت من قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي ، موجهة إلى أبي الهول ومطلعا : أيا الهول طالت غفوك العصور ويئنت في الدهر أقصى البحر .

ومن تقدير لاهوته للربان . فلما أعلنوا رأيهم هذا ابتدرهم مكاري بقوله : : إن شئونة مازال في طريقه إلى الدير وفي استطاعتنا أن نلحق به بحجة أننا نريد أن نستوضحه بعض المعلومات حتى لا يحاول الهرب : . فنفذوا ما اتفقوا عليه ، وتجهوا في أن يعودوا بالراهب شئونة إلى نلر الولاية . وحالما وصلوا قيدهو وحملوه إلى كنيسة القديسين سرجيوس وياخس (أبى سرجة) ومنها إلى الاسكندرية حيث رسم يوم عيد للغطاس للمبارك باسم شئونة الأول الخليفة الخامس والخمسين للقديس مرقس البشير سنة ٥٦٦م (سنة ٨٥٠م) وقد هطل المطر ساعة دخوله الاسكندرية فاستبشر به الشعب .

٥٥٩- وكان يعيش في تلك الفترة فئة من اللقب في منطقة مريوط زاغوا عن الايمان الأرثوذكسى فقالوا إن الآم للسيد المسيح بالجسد لم تكن حقيقية بل كانت رهماً من نسج الخيال . وكان هؤلاء المبتدعون قد سمعوا عن النعمة الالهية التى تزين الأنبا شئونة الأول . فذهبوا إليه وأعلنوا له ايمانهم الخاطئ طالبين منه أن يوضح لهم حقيقة الأمر ، فرجا منهم أن يبدلوا أولاً فيقدموا له الحجج التى استندوا إليها ليبرروا محققهم وأصغى إليهم بانتياء تام . ولما فرغوا أخذ يوضح لهم الايمان الأرثوذكسى فبين لهم كيف أن الله الكلمة حين شاء أن يحقق الفناء للناس اتخذ جسداً منذ اللحظة التى حل فيها في بطن العذراء . وهذا الجسد الذى اتخذه ظل متحداً مع لاهوته حتى حين صعد ثانية إلى السماء . فاللاهوت والناموس لم يفرقا لحظة واحدة ولا طرفة عين . على أن اتحاد اللاهوت بالناموس كان بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير . وحينما جاز المسيح الآلام تألم جسده فقط ولم تمس الآلام لاهوته لكونه فوقها مع أن اللاهوت لم يفرق عن الناموس ساعة الآلام . وقد استعان الأنبا شئونة في توضيح حقيقة الايمان بالرمز الذى اتخذه الأنبا كيرلس الأول عامود الدين لتقريب غير المدرك إلى أفهام المؤمنين . وهذا الرمز هو اتحاد النار بالحديد ساعة انصهار الحديد بالنار عند صوغه . فالنار تظل محتفظة بطبيعتها النارية مع كونها متحدة بالحديد كما يظل الحديد محتفظاً بطبيعته الحديدية رغم انصهاره بالنار . والمطرقة حينما تنزل على الحديد لا تؤلم النار ولا تؤثر فيها إطلاقاً مع أن النار متحدة بالحديد ساعة الضرب فاللاهوت لم ينفصل عن

لناسوت لحظة ولحده ولا طرفة عين ، وبهذا الاتحاد المستديم أقام لاهوت المسيح ناسوته من القبر في اليوم الثالث ، ثم رآه تلاميذه بالجسد الذى علق على الصليب إذ قد وضع ثوباً للرسول يده فى موضع المسامير . وهكذا ظل اللاهوت ملازماً للناسوت منذ اللحظة الأولى التى شاء فيها الكلمة المتجسد أن يحل فى بطن العذراء . ومع أن الألم لم يقع على جوهر اللاهوت لكن اشتراكه الأدبى مع الناسوت عند الآلام أعطى قيمة كبرى للألم الناسوت (الذى كان يشبه ناسوت أى إنسان ما خلا الخطية) فتحدث سفر الأعمال عن هذا الأساس مشيراً إلى كنيسة الله التى افتداها بدمه (١) .

ولما انتهى البابا الاسكندرى من توضيح الايمان بنفس الوسائل التى لجأ إليها أسلافه أعلن له هؤلاء الصالحون عن الايمان الأرثوذكسى تويتهم واقتناعهم بتعاليمه ، وطلبوا إليه أن يقبلهم فى شركة الكنيسة . فتهلل فى قلبه ولكنه لم يعبر لهم عن تهليله وأخذ يمتحنهم ليعرف مدى اقتناعهم . وإذ تبين له أنهم صادقون قبلهم بفرح وصبتهم بالصبغة المقدسة . ثم كرس لهم كنيسة وبعض الكهنة .

٥٦٠- وكان النجاح الذى أحرزه الأنبا شنودة الأول فى اكتساب المريوطيين التقدمة الزكية الأولى التى رفعها هذا البابا الجليل إلى فاديه الحبيب، ثم رأى أن يولى أديرة الصعيد عنايته الخاصة . على أنه بدأ برحلة راعوية لجميع البلاد المصرية . فلما وصل إلى البليدا اضطربت نفسه حزناً إذ علم أن بعض أبنائه من أهل هذه المدينة قد سقطوا فى بدعة مؤداها أن المسيح قد مات على الصليب بلاهوته وناسوته . فجمعهم وأخذ يوضح لهم تعاليم الرسل وآباء الاسكندرية من عهد مارمرقس ، ثم ما دار بين الآباء من نقاش فى المجامع المسكونية الثلاثة - وهى مجمع نيقية ومجمع القسطنطينية ومجمع أفسس . وبين لهم بعد ذلك كيف أن الكلمة المتأنس ظل محتفظاً بلاهوته الذى لم يفصل عن ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين . وبهذا الاتحاد المستديم أقام لاهوت المسيح ناسوته من القبر . ومع أن اللاهوت لم

(١) أعمال ١: ٣، ٩، ١١ و ٢٢: ٣٦ .

يفارق الناسوت إلا أن الأول لم يمت إذ لا يمكن أن يطرُق إليه الموت بينما مات الثاني على الصليب لكونه من طبيعة قابلة للموت : فالناسوت مات وأقامه اللاهوت الملازم له . وما زال الأتبا شهود الأول يوضح حقيقة الايمان إلى أن اقتنع المبتدعون واعترفوا بضلالهم طالبين المغفرة . ففمر الفرح قلب البلبا المرقسى واستصحبهم إلى الكنيسة حيث أقام القداس الالهى وناولهم الأسرار المقدسة (١) .

٥٦١- وكانت الخلافة قد آلت إذ ذلك إلى المتوكل على الله ، وكان ذا استعداد طيب ولو أن بعض ولاته لم يكونوا على رأيه فى وجوب اتباع سياسة التفاهم والعدل مع جميع الناس . وكان عبد الواحد بن يحيى واليه فى مصر ضمن أولئك المختلفين معه فبدأ سلسلة من المضايقات الهزيلة التى لم يكن لها من أثر سوى أحداث المكثفة . فقد أمر هذا الوالى أن يلبس للقبط ملابس عليية اللون عليها علامات خاصة ، وأن يستعملوا سروجاً من الخشب ، وأن يضعوا تماثيل خشبية لعفريت أو كلب أو قرد على واجهات بيوتهم ، وأن يخفوا الصليبان فى الموكب وأن تكون مقابرهم متساوية والأرض ، كما منعهم من ركوب الخيل . على أن القضاة المسلمين كانوا فى صف القبط (٢) .

٥٦٢- ولم يلبث الخليفة المتوكل أن عزل عبد للواحد بن يحيى وعين مكانه عنبسة بن اسحق الذى كان عادلاً سعى إلى حسن معاملة المصريين جميعاً على السواء وقد حدث فى السنة الأولى لولايته أن عاود للروم غزواتهم أملاً فى استرداد مصر لحكمهم . ففى مايو سنة ٨٥٣ بينما كان عنبسة فى الفسطاط ينقلى التهانى بعيد الأضحى ، هجم البيزنطيون على دمياط وتغلوا على حاميتها . وأسكروهم النصر فأحرقوا المدينة وسبوا ستمائة من النساء والأولاد وتحولوا إلى تانيس حيث كرروا اعتداءاتهم . ولما سمع عنبسة بما كان خرج على رأس جيشه وقصد إلى دمياط فتانيس فوجد أن الجيش للمغير قد انسحب منهما . فاتخذ احتياطه للمستقبل بأن حصن هاتين للمدينتين .

(١) المنكسار الأثيرى ترجمه إلى الانجليزية والنس يودج ج٢ ص ٨٢٠ - ٨٢٣ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، (بالانجليزية) استاكلى لايڤ بويل ص ٢٩ .

٥٦٣- وفي أثناء الرحلة الراحوية التي كان الأنبا شنودة الأول لا يزال قائماً بها ، كان الولاة في مختلف المديرية يمارعون إلى تحيقه وتقديم كل التسهيلات له . وكان مصلحتهم هذا تنفيذاً لعدالة عنيسة الذي جعل المصريين يتسرون للشكائد التي حاقت بهم قبل ولايته لما أبداه نحوهم من نزاهة . وفوق هذا فقد امتاز بكرهه للمظاهر الزائفة إلى حد أنه كان يذهب من دار الولاية إلى الجامع مشياً على الأقدام . وكانت ولايته فرصة للمصريين جميعاً ليعملوا وهم ناعمو البال فانتهاز الأنبا شنودة الأول هذه الفرصة لتجديد الكنائس المتعدية وبناء الأديرة الخرية . ولا تزال الآثار المتخلفة عن هذا العصر تتحدث بدقة الأيدي التي أنتجتها وسداد الفكر الذي لبتدعها .

٥٦٤- وبعد أن فرغ الأنبا شنودة الأول من رحلته الراحوية وأعماله الانشائية عاد إلى مقر كرسيه ثم بعث برسالة الشركة إلى أخيه في الخدمة الرسولية البطريرك الأنطاكي . وقد قوبلت رسالته هذه بفرح روى . ولم يكف بطريرك أنطاكية بالرد عليها بل بعث مع رده بالهدايا النفيسة .

٥٦٥- وحدث أن تخلف النوبيون عن دفع الجزية المفروضة عليهم ، وزادوا على رفضهم بأن اعتدوا على المصريين المقيمين داخل حدودهم من موظفين وعمال في مناجم الزمرد وأعملوا السيف في رقابهم . ولم يكتفوا بهذه الاعتداءات الفاشمة بل أغاروا على السكان الأمنيين في متطقتي أنفرواسنا ، فشنوا الذعر بينهم . ولم يجد عنيسة بن اسحق من وسيلة يرد بها على هؤلاء النوبيين غير القوة . فبعث بجيش يتألف من سبعة آلاف جندي تصحبه سبع سفن تحمل المؤن والذخائر . واستطاع الجيش المصري أن يسحق النوبيين المغيرين . وبإزاء هذه الهزيمة الفاضحة اضطر ملك الياجا (في النوبة) إلى أن يدفع لمصر كل الضرائب المتأخرة عليه مع ضريبة السنة التي اعتدى فيها جيشه على الصعيد . ثم رأى أن يتقرب إلى المصريين فزار واليهم في القسقاط ، واتجه بعد ذلك لزيارة الخليفة المتوكل . فلاقى في الزيارتين كل اكرام وترحيب إذ قد عامله المصريون كصديق وقدموا له الهدايا (١) عند

(١) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) تستغنى لايون برول من ٤١ - ٤٢ .

عودته . وبهذه المعاملة الانسانية تحول ملك الياجأ من عدو إلى صديق .

٥٦٦- ويعد أن قضى عنبسة بن اسحق أربع سنين والياً على مصر استدعاه الخليفة المتوكل . وكانت هذه السنين الأربع أشبه بساعات المغيب الرائعة التي يخطف بهاؤها الأبصار ليعقبها ليل مظلم مليئة بالمخاوف . فقد كان عنبسة آخر ولاء عيسى المنبت ، لأن الولاة الذين حكموا مصر بعده كانوا من الأتراك رغم أنهم تولوا الحكم بأمر الخلفاء العباسيين (العرب) . وكانت غالبية الولاة الترك من الغاشمين للمستبدين ، سريعى القلب قليلى الوفاء . فكانوا سرعان ما يقتلون ظهر للمجن للرجال الذين خدموهم . وهكذا ساد القلوب الشعور بالقلق والتطير . فمثلاً كان يزيد (أحد الولاة الذين جاءوا بعد عنبسة) ينفر من الخصيان . فإذا صانف أحدهم فى الطريق أمر جنده بأن يجلدوه من شارع إلى شارع حتى يخرجوه خارج المدينة . كذلك كان يتشام من ندب النائحات فى الجنائز ولوقوف سباق الخيل . ومع أن هذه الصفات لم تبلغ حد التعذيب والتككيل إلا أنها صبغت الحياة المصرية بالقلق وعدم الاستقرار .

٥٦٧- على أن الأنبا شنودة الأول - رغم هذا الاضطراب النفسى الناتج عن اندفاع هؤلاء للحكام الأتراك وراء نزولتهم - قد وجد من إيمانه القوة التى مكنته من أن ينشغل فيما يعود بالنفع العام على الشعب المصرى المعذب فحفر تحت شوارع الاسكندرية القنوات التى تحمل الماء العذب إلى سكانها . لعل فى اروائها ظمأهم الجسمى تمنحهم شيئاً من الراحة فيجدون الرضا الروحى (١) .

٥٦٨- واقرب عيد القيامة المجيد لسنة ٨٥٨م ش ، فرأى الأنبا شنودة الأول أن يقضى فترة الصوم المقدس فى دير الأنبا مكارى الكبير عملاً بالتقليد الذى جرى عليه أسلافه . وقد عارضه الأرخنة إذ خافوا عليه لأن القبائل المتبصرة كانت تغير على أديرة وادى النطرون بين حين وآخر ولكنه هدا من روعهم وسافر من غير تردد . ولما وصل إلى دير الأنبا مكارى اتضح له أن هذه القبائل قد أغارت عليه فبذت آثار تخريبهم على عدد من الصوامع .

(١) القول الابريزى للعلامة المقريزى طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٨م ص ٦٥ ، تاريخ الكنيسة القبطية لمسى القصص ص ٤٦٩ .

وتجهر الرهبان حوله فرحين مهللين لمرآه . واشترك الجميع فى صلوات
 النسخة للمقننة التى وضعها آباء الكنيسة القبطية ليذكروا الأجيال المتعاقبة عن
 طريقها بالآلام المحيية التى قاساها للقادى الحبيب لخلاص جنس البشر . ولما
 قرغوا من صلوات خميس العهد ، وخرج الرهبان ليذهب كل منهم إلى
 صومعته ، فاجأهم وإبل من الطوب يقذفهم به للبرير الذين كانوا قد عادوا
 لاستئناف سلبهم ونهبهم الأديرة . فعاد الرهبان مسرعين ، وأعلموا الأنبا شنودة
 الأول بما حدث فكلهم بكلمات الحكمة الالهية التى ملأت قلوبهم سكينه . ثم
 خرج بمفرده ليواجه جماعة البرير . وهكذا أبدى جرأة عجيبة خليفة بالجالس
 على الكرسي للمرقسى . وحين رآه البرير خارجاً إليهم وحده أعزل السلاح
 تراجعوا أمام هذه الشجاعة النادرة وتركوا الراعى الصالح وأبناءه الرهبان
 ليكملوا صلوات الجمعة العظيمة وسبت القرح والقيامة المجيدة . على أن
 تراجعهم - وإن أبهج قلب للبابا الاسكندرى - لم يخدره فينسيه واجباً هاماً هو
 إيجاد الوسيلة لصد هجمات أولئك البرير فى المستقبل . ونتيجة لتفكيره هذا
 بنى سوراً مديماً حول الكنيسة الكبرى بالدير ليكون حصناً حصيناً للرهبان . وقد
 ساهم بنفسه فى بناء هذا السور إذ قد جمع الكثير من الحجارة وأخذ يبنياها
 بيديه . فامتلاً الرهبان حماسةً وسارعوا إلى البناء مع باباهم الساهر . فتم بناء
 السور فى وقت قصير . كذلك بنى داخل السور صوامع وقلاى لسكنى
 الرهبان . ومن المرجح أن السور لقائم اليوم حول دير الأنبا مكارى الكبير من
 صنع الأنبا شنودة الأول - إن لم يكن كله فجزء منه (١) .

٥٦٩- ولقد كان تحصين دير الأنبا مكارى الكبير آخر تقدمه رفعها هذا
 البابا للجيل إلى عرش النعمة . وكان انتقاله هادئاً شبيهاً بمغيب الشمس تحت
 سماء صافية ، بعد أن قضى على الكرسي المرقسى احدى عشرة سنة وثلاثة
 أشهر (٢) .

(١) لديره وادى النطرون (بالانجليزية) لايتين وايت ج٢ ص ٣٦ ، السنكار الأثيوبى ترجمه
 إلى الانجليزية واليس بودج ج٢ ص ٧٩٦ - ٧٩٧ .

(٢) تاريخ البطاركة - نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير
 البرموس ج١ ص ٢٦٥ - ٢٧٩ .

د - القديس يونس كامى (١)

(٥٧٠) خدمة الناس والتأمل فى يدائع الله .	(٥٧٥) التقطف الكثير حوله .
(٥٧١) يونس يتعلم للناسك ثيروتى فى بركة شيهيت .	(٥٧٦) بركة الأنبا أنثاسيوس له وتلاميذه .
(٥٧٢) يترك معلمه عملاً بإرشاد ملاك الرب .	(٥٧٧) رسامته قمصاً .
(٥٧٣) وحدته تؤهله لأن يرى غير المرئى .	(٥٧٨) ذهابه إلى الصعيد .
(٥٧٤) أمر السيدة العنواء له بيتاء دير .	(٥٧٩) شئودة تلميذ يونس ضمن الصفوة المختارة .
	(٥٨٠) نياحة الأنبا يونس كامى .

٥٧٠- من نعمة لله تعالى أنه - حين يقرم بين الناس من امتلاً قلبه بالأنوار الالهية - يجعل هذه الأنوار تنعكس على غيره فتستثير قلوبهم بما سطع عليها من قلبه للفيض . وبين الذين استضاءت قلوبهم بالنور للسماوى فعكسوه على غيرهم الأنبا يونس كامى . ومع كون هذا القديس من جملة المشاعل فى طريق الحياة الانسانية فالتاريخ يجهل يوم مولده ، ولم يسجل غير يوم نياحته - وهو الرابع والعشرون من شهر كيهك المبارك سنة ٥٧٥ ش (٨٥٩ م) . فيكون الأنبا يونس كامى ممن عاشوا فى القرن التاسع . ومن المتواتر أنه ولد فى قرية شيرا منصور (٦) . وقد مال منذ صباه إلى حياة النسك والتأمل . وكان بهى الطلعة ، هادئ القلب ، عفيف النفس ولللسان . ولما كانت المحبة لا ترضى بالسكون ولا بد لها من عمل تنصرف فيه ، فقد بنى يونس مضيفة فسيحة يجد فيها الغرباء والفقراء استراحة مجانية . أما محبته لكه فقد جعلته ينصرف إلى المطالعة والبحث فى الكتب المقدسة كما دفحته إلى الاكثار

(١) كامى كلمة قبطية معناها أسرد ، وهى مشتقة من كيمى (مصر) لترتيبها للسواء فترجمة اسمه هى يونس المصرى .

(٢) الكلمة للقبطية لهذا الاسم هى : جييرو مونسون ، وتقع فى مديرية الخريبة بالدلتا .

من الصوم والصلاة والتأمل في بدائع الخالق تعالى . وقد دأب خلال أصوامه وأبحاثه وخدماته على تدريب نفسه حتى ينجح في التحكم في جسده ولسانه .

٥٧١- وفي إحدى الليالي ، بينما كان يؤنس واقفاً يصلى ، إذا برجلٍ يشع منه النور قد وقف أمامه وقال له : « منى أصبح الصباح فاذهب إلى دير القديس مكاري الكبير بيرية شيهيت ، إلى الأب ثيروتى ، وأطلب إليه أن يتخذك له تلميذاً وأن يلبسك الاسكيم . لأن ثيروتى أثناء مختار حقاً ، نجح فى اجتذاب القلوب العديدة إلى الله » (١) . وتهلل قلب يؤنس لهذه الكلمات ، واستمر فى صلاته حتى بدأ الظلام يترجع أمام اقتراب الفجر . وما أن شق أول شعاع للشمس حجب هذا الظلام حتى انطلق يؤنس كالسهم إلى بيرية شيهيت حيث قابل الشيخ القديس ثيروتى . وكان ملاك الرب قد أعلن لهذا الراهب الشيخ مجئ يؤنس فعرفه لماعته . ولكنه أراد أن يمدحه فقال له : « ليس من شك فى أن الراهب يجب أن يبتذل نفسه للفقير والطاعة والعفة ، وأن الحياة فى البرية ليست بالأمر الهين » . أجابه يؤنس فى تواضع : « أرجو أن أجد نعمة فى عينيك يا أبى ، فقد أتيت لكى أعيش فى ظل سلواتك » . وقد أعجب ثيروتى بهذا الرد فقبل أن يضم يؤنس إلى تلاميذه ، ولم يلبث أن ألبسه الاسكيم المقدس . فغمر الدور الالهى قلب يؤنس ومكنه من أن يداوم السعى نحو الكمال المسيحى فى اهتمام بالغ .

٥٧٢- وبعد أن قضى يؤنس كامى عدة سنوات فى كثف معلمه ثيروتى ، ظهر له ملاك الرب فى رؤى الليل وقال له : « السلام لك أيها الخادم الأمين الأب السماوى . إذا ما طلع لنهار فاستأذن معلمك فى مغادرة الدير وأرحل غرباً إلى المنطقة التى كان يعيش فيها يؤنس القصير ، وابن لنفسك هناك صومعة تقيم فيها . وأعلم أن الله جل جلاله سيعطيك ميراثاً فى هذه الصحراء ، إذ ينضم إليك عدد كبير من الرهبان الذين ستكون لهم أباً ومعلماً . وبما أنك قد اتخذت القديسين مكاري الكبير ويونس القصير وبيشوى نبزاً لك

(١) مما يؤسف له أنه لا توجد فى صفحات التاريخ عن ثيروتى غير هذه الكلمات التى وردت فى ترجمة الأنبا يؤنس كامى - ولولتها تعمل فى طياتها الكثير من المعانى .

فسكون نصيبك كنصيبهم وقد أقامنى للحياة الالهية حارساً لك وللرهبان الذين سينضمون إليك . ثم توارى عنه الملاك وذهب لثيروتى وأبلغه الرسالة عيناها .

٥٧٣- وفى فجر اليوم التالي تقابل يونس بمعلمه وعرفه بالأمر الالهى الذى جاءه فى الحلم . فقال له القديس ثيروتى : : لقد أعلمنى ملاك الرب بما رأيت . فاذهب يا بنى وحقق الارادة الالهية فى حياتك : ثم باركه كما بارك الآباء الأقدمون أبناءهم وودعه بقوله : : ليمحك الله نعمته . ولتكن قوته معك لتعمل ارادته تعالى . وما أن تحصن يونس ببركة معلمه وصلواته حتى استأنز منه فى الانصراف . ثم سلم على اخوته الرهبان ، وخرج من دير الأنبا مكارى الكبير قاصداً إلى المنطقة التى عاش فيها يونس القصير . وهناك بنى لنفسه صومعة وعاش فيها فى هدوء شامل . لا يقطع عليه تأملاته إلا خروجه هو من حين إلى حين ليتوغل فى الصحراء استجابة للدعاء الملح داخل قلبه الذى هو نداء الله تعالى للنفس المشوقة إليه المتطلعة إلى الحياة فى وحدة معه ، وقد أرفف هذا النداء حواسه فمكّنه من أن يرى غير المرئى ، وأن يسمع أناشيد الملائكة الملتفة حول عرش النعمة وكان كثيراً ما يرى مجد الله فى فيض من الدور فوق الذبيحة الالهية ساعة القداس .

٥٧٤- وفى مساء يوم من أيام الآحاد ، بينما كان يونس غارقاً فى تأملاته وصلواته ، إذأ به يرى القديسة والدة الاله يحيط بها جمهور من الجند السماوى ، ويكتنفها نور يخطف الأبصار . وحين وقعت عينا يونس على هذه الرؤيا المجيدة التى لا يستطيع للسان وصفها ، خر على ركبتيه فى رهبة . فمدت أم الثور (١) يدها إليه وأقامته قائلة : : لا تخف أيها الخادم الأمين للكلمة الذى تجسد منى ، وليثبت قلبك على الايمان الذى ملأ نفسك واعقد العزم على بناء دير فى هذه المنطقة لأن كثيرين سيأتون إليك ويتعلمون لك . وسأكون أنا بنفسى حامية لهذا المكان الذى سيحيط به الملائكة لحراستك وحراسة كل

(١) هذا التعبير هو أحد ألقاب السيدة العذراء مريم .

من يلود بك . . ثم أعطته ثلاث قطع من النقود نقش عليها الصليب وقالت له : « ضع هذه النقود فى خزانة الدير للانفاق منها على مختلف حاجاته . ولتدم عليك بركة لبنى إلى الأبد » . وبهذه الكلمات سلمت السيدة العذراء على يؤنس ثم توارت عن عينيه .

٥٧٥- وشرع يؤنس كامى فى تنفيذ أوامر السيدة العذراء على الفور . ويرى التقليد أن الملائكة قد عاونته فى بناء الدير قلم يلبث عيبر فضائله أن عطر أرجاء الوادى الحبيب واجتذب إليه عدداً وفيراً من الرجال إذ كان معاصروه يعدونه نبياً ومعلماً ، لأنه كرس جميع مواهبه لخدمة السيد المسيح وتبشيت الايمان الأرثوذكسى فى القلوب . وتجمع أحباؤه ومريديه حوله ، واتخذوه لهم أباً روحياً . فسهر على ارشادهم ، وبنى لهم داخل الدير قاعة فسيحة يجتمعون فيها لتبادل الرأى ولتأدية صلاة نصف الليل (١) التى كانت تستمر حتى مطلع الفجر . ومن حسن الحظ أن يؤنس كامى أحاط بديره بسور مرتفع عريض ليقى الرهبان العائشين فيه شن الغارات التى كان يشدها عليهم قبائل البربر ، إذ كان قد تعلم هذه الحكمة من الأنبا شنودة الأول الذى حين أراد أن يحمى الرهبان من الغارات المتكررة - حصن دير الأنبا مكارى الكبير بمثل هذا السور .

٥٧٦- وحدث أن كان الرهبان منهمكين فى صلاة نصف الليل ذات مرة ، فإذا بالأنبا أنفاسيوس الرسولى (البابا الاسكندرى العشرين) قد ظهر ليؤنس محاطاً بنور سماوى عجيب وقال له : « سلام لك يا محب سيدنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح ، وسلام لأولئك المخلصين الوادعين ، ولكل الذين سيأتون إلى ديرك من بعدهم . لقد صعدت صلواتهم بخورك طيباً إلى عرش النعمة . وستكون بركة للأجيال الآتية على مدى الأزمان » . وبهذه الكلمات اختفى عن ناظره . ومن هذه الليلة أوصى يؤنس كامى رهبانه أن يختموا ذوكصولوجية (منيخ) القتيبة الثلاثة فى أتون النار (٢) بذكر الأنبا أنفاسيوس

(١) يلاحظ هنا أن صلاة نصف الليل تلى جماعياً .

(٢) أنظر دانيال ٣ .

الرسولى تمجيده له ولجهاده الذى شابه جهاد الرسل . ومازال رهبان دير الأنبا
يؤنس كامى يعملون بهذه الوصية حتى الآن .

٥٧٧- وبعد أن جاهد يؤنس ستين سنة عديدة رسم قمصاً رغم احتجاجة
العلى بأنه غير مستحق لهذه الكرامة الروحية . وفى أثناء تأدية الشعائر الدينية
لرسماته حين جاءت نوبته ليصلى ، رأى مجد الله يملأ الهيكل ويكتنفه بنور
وضاء . فامتلاً نشوة روحية ، ورفع التصاييح للآب السماوى الذى هيأت محبته
للبنش وسيلة بها يلمحون قبس المجد العتيد .

٥٧٨- وبعد رسامة يؤنس بأسابيع قال له الملاك الملازم له : : قم اذهب
إلى الصعيد لأن عدداً كبيراً من أهله فى حاجة إلى تعليمك وإرشادك . فقام
يؤنس لفوره ، وقصد إلى الصعيد تنفيذاً لأمر الملاك واقتداءً بيؤنس القصير
أخيه الروحى وبيشوى اللذين انشغلا - قبله بأجيال - فى اجتذاب النفوس
الضالة إلى حظيرة الراعى الأمين . وقبل أن يخرج من الدير نادى على شنودة
تلميذه الأول وقال له : : لقد أمرنى ملاك الرب بتأدية رسالة خاصة بين أهالى
الصعيد . فارح الاخوة فى غيابى . واستودعك الله . ولما أخذ يؤنس يتنقل
بين مديريات الصعيد ، عثر على دير مهجور فأقام فيه . وسرعان ما سمع
الناس عنه ، فهرعوا إليه لينالوا بركته ، وتعلمذ له عدد منهم أحبوا أن يعيشوا
فى حمى صلواته .

٥٧٩- وكان شنودة تلميذ يؤنس ضمن الصفوة المختارة من الناس الذين
يدركون مسئولياتهم نحو اخوتهم . فكرس نفسه لخدمة الرهبان باهتمام عظيم
حتى لقد كان ينسى حاجات جسده من أكل وشرب وراحة . وقد أدى تقانيه
هذا إلى تورم جسمه كله بحيث صعب عليه تأدية مهام الرعاية . وعندها أعلن
ملاك الرب ليؤنس حقيقة أمر تلميذه ، وطلب إليه أن يترك الصعيد ويعود إلى
ديره ليتدارك تلميذه . فعاد لساعته . وما كاد يدخل الدير حتى وضع يده على
جسد شنودة المتورم وقال له : : نعماً أيها الابن للمخلص المطيع ، فقال شنودة
الشفاء على الفور .

٥٨٠- ولم تنقضى بعد ذلك غير فترة قصيرة حتى أعلن الملاك عيذه

للأنبيا يونس كامى بأن ساعته قد دنت . فجمع للرهبان وأخبرهم بذلك . ثم أوصاهم بأن يحافظوا على العقيدة الأرثوذكسية التى ورثوها عن القديسين والشهداء ، ونصحهم بأن لا يزجوا بأنفسهم فى المجادلات غير المثمرة ، ولا يتكلموا على ذراع بشر ، ولا يقتلوا ذهباً أو فضة ، عملاً بوصية الفادى الحبيب الذى يرزقهم من حيث لا يدرون . وما كاد ينتهى من وصيته حتى رأى جمهوراً من الملائكة ملتحفين بالنور ، وهم يسبحون الله تعالى تسابيح الحمد والتمجيد . ثم اقترب هؤلاء الملائكة منه ، وحملوا روحه الطاهرة ، صاعدين بها نحو عرش اللعمة وهم يرتلون . فصلى الاخوة على جثمانه الطاهر ودفنوه باكرام عظيم .

ولقد أجزل الله تعالى العطاء للأنبيا يونس كامى ففاضت نعمته على تلاميذه ، وضاعفت عددهم ، وملأتهم قوة . صلاته وصلاتهم فلتشملنا جميعاً . آمين .



نقوش متنوعة

١- في وسط المعصرة

- | | |
|---|--|
| (٥٨٨) ثورة يشنها عباس على أبيه
ابن طولون . | (٥٨١) انتخاب البابا السادس
والخمسین . |
| (٥٨٩) حزن الأنبا ميخائيل الثالث ثم
نهايته . | (٥٨٢) السلام في مصر والخصام في
خارجها . |
| (٥٩٠) لمحة عن ابن كاتب القرضاني . | (٥٨٣) التراث المكري المصري يتخلل
تعاليم الشعوب الأخرى . |
| (٥٩١) خمروية يحرز انتصاراً
حاسماً . | (٥٨٤) عهد من الرخاء يقره ابن
طولون . |
| (٥٩٢) اعتراف حكام الشرق بسلطته
وزواج ابنته من الخليفة
العباسي . | (٥٨٥) ابن طولون يستخدم مهتدماً
قبلياً . |
| (٥٩٣) خمروية صاحب ذوق مرهف
وخيال غصب . | (٥٨٦) ويقابل رحالة قبطياً بلغ المئة
والثلاثين . |
| (٥٩٤) استجمامه من أعباء الملك في
أحد الأديرة . | (٥٨٧) القاء البابا الاسكندري في
السجن . |

٥٨١- من المؤرخين الذين عنوا بتاريخ سير الباباوات الاسكندريين الأنبا ميخائيل أسقف تديس الذي مهد لكتابه عن هؤلاء الآباء الأجلاء بقوله : « يا أولادى الأعزاء إن المحبة المسيحية تتطلب منا أن نتتبع سير آبائنا ، ونسجل ما لم يسجله الذين سبقونا لكي نكون على علم بمجريات الأمور في كنيسةنا المحبوبة ، (١) . وعملًا بنصيحة هذا الأب البار نعاود سيرنا فوق الطريق الذي اختطه لنا الآباء فنجد مذهباً أحياناً متعرجاً أخرى . وحيثما نتتبع هذا الطريق بكل ما فيه من منحنيات وانعطافات ندرك قيمة النصيحة التي أسداها

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لسابريوس بن المقفع أسقف أصف الاممونيترن ترجمه إلى الانجليزية
يمى عيد المسيح وعزيز سوريال عطيه واسود برمستر - للمجلد الثاني - الجزء الثاني -
طبعته جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٤٨ م، ص ٦٩ .

لنا الأسقف التقيسي ، لأننا سنعرف من اقتفاء خطوات الآباء مدى جهادهم وقوة إيمانهم بالآب السماوى . وفى هذا المنحنى من الطريق نجد أنه على أثر انتقال الأنبا شنودة الأول إلى مصاف الأبرار ، اتبع الأساقفة والأراخنة ما تقضى به التقاليد من شورى . واستقر رأيهم على انتخاب راهب اسمه ميخائيل معروف بسعة صدره وهدوء باله وتقشفه إلى جانب تبحره فى العلوم الكنسية ، حتى لقد قيل عنه أنه « شبيه بالذهب المصفى » . وقد تمت رسامته بعد انقضاء شهر واحد على نياحة سلفه ، فانتدب مكانه بين خلفاء مرقس البشير بوصفه السادس والخمسين من بينهم سنة ٥٧٧ م (سنة ٨٦١ م) .

٥٨٢- وفى السنة الأولى لرسامة الأنبا ميخائيل الثالث كانت بلادنا المصرية تفرم بالسلام : كنيسة وشعباً ، يعكس ما كان عليه حال الكنيسة فى البلاد الأخرى إذ قد دارت المجادلات بين القسطنطينية ورومية بحنف أشاع الفرقة بين اللكنيستين . وكان أساس هذا النقاش ما سبق أن أدخله الملك ريكاردو فى مجمع نوليدو من ابتداع فى دستور الايمان (١) . ولم يرض أساقفة رومية أنفسهم عن هذا الابتداع مما حدا ببلاون الثالث إلى أن نقش دستور الايمان الأرثوذكسى الذى أقرته المجامع المسكونية (٢) على لوحتين من الفضة : باليونانية على أحدها وباللاتينية على ثانيتهما وتعليقهما على باب كنيسة القديس بطرس برومية (٣) . وكان هذا فى سنة ٨١٠ م غ . أما فى سنة ٨٦٧ فقد رأى نيقولا الأول أسقف رومية غير ما رآه سلفاؤه إذ حاد عن دستور الايمان الأرثوذكسى وقبل البدعة التى تسبب فى ادخالها ملك الأسبان الذى لم يكن له الحق فى التلاعب بالقوانين الكنسية إطلاقاً . ولم يكتف نيقولا الأول بقبول هذه البدعة فحسب بل شاغب كنيسة القسطنطينية فى جهادها لتبشير الشعوب السلافونية ، كما ادعى لنفسه السلطة العليا فى الكنيسة . ولما كانت كل هذه التصرفات مخالفة للإيمان والتقاليد الرسولية ولأصول اللياقة بين الأساقفة

(١) راجع ف ٩٠ و ٥٢٧ .

(٢) وقد اتخذت بالتالى فى نيقية سنة ٣٢٥ و القسطنطينية سنة ٣٨١ وأفسس سنة ٤٣١ م غ .

(٣) تاريخ المجامع ، (بالفرنسية) للمسليور هيفيليه ج ٥ ص ١٧٧ - ١٧٨ .

فقد انبرى له فوتيوس البطريرك القسطنطيني العلامة ر جمع مجعاً من كل الأساقفة للشرقيين (١) وثلاثة من أساقفة الغرب ، فأجمعوا كلهم على حرم الأسقف الروماني . وبعث فوتيوس برسالة إلى نيقولا الأول بعد صفحة مُجيدة في تاريخ الكنيسة الجامعة أوضح فيها حقيقة الايمان الذي أعلنته الكنيسة في مجامعها المسكونية الثلاثة والمبنى على قول رب المجد عن روح الحق الذي من الآب ينبثق (٢) . وقد نهج فوتيوس - في مسلكه هذا - وفقاً للتقاليد الرسولية التي حافظت عليها الكنائس الشرقية وتتلخص في أن السلطة العليا في الكنيسة للمجمع وليست لفرد مهما سمى مكانته . على أنه رغم ما أبداه البطريرك القسطنطيني من حكمة ومنطق في كل ما كتب فقد توترت العلاقات بين كنيسة القسطنطينية ورومية . ولم يكن الحبر القسطنطيني هو البادئ بالجدل ، ولم يهاجم أحداً في كتاباته ، بل لزم خطة الدفاع في رصانة ووقار (٣) .

٥٨٣- وفي هذه الفترة أوفد فوتيوس بعثة لنشر المسيحية في بلاد الروس والبلغار يرأسها أخوان هما ميثوديوس وكيرلس . وكانا من تسالونيكي ، وقد تضلعا من اللغتين اليونانية والسلاقونية كما قضيا السنوات الطويلة في الفلسك والتأمل . فبعد أن بشرا الروس رأياً تثببتهم على الايمان بأن ترجما لهم الكتاب المقدس إلى لغتهم . وفي أثناء انشغالهما بهذا العمل الجليل وجدوا أن اللغة الروسية تنقصها بعض المقاطع فأخذوها عن اللغة القبطية (٤) . وهكذا استمر

(١) غنى عن القول أن البابا الاسكندري الشرعى لم يذهب إلى هذا للمجمع وأن دخيل تكلم نيابة عن الكنيسة المصرية .

(٢) يوحنا ١٥ : ٢٦ .

(٣) دائرة معارف العلوم للدبية (بالفرنسية) طبعت في باريس سنة ١٨٨١ ج ١٠ ص ٥٨٦ ، تاريخ الكنيسة ، (بالفرنسية) للأرشمندريت جيى ج ٦ ص ٢٥٤ - ٢٨٧ قاموس الاصطلاحات الكنسية (بالانجليزية) لكورثريث أنشلى ووليات طبع في لندن سنة ١٩٢٣ ص ٧٤ - ٧٥ .

(٤) تاريخ الكنيسة ... ج ٦ ص ٢٢٧ ، للقط في ركب الحضارة ، مقال للدكتور مرلد كامل نشره في رسالة مارمينا الصادرة في الاسكندرية سنة ١٩٥٤ ص ١٤ .



صليب منحوت من الحجر - وقد نحتت في أسفل
قاعدته صورة للأنبا بولا أول الخسك مع الأنبا أنطوني
أبي الرهبان . وهذا الصليب مما يوصف بكلمة ، روى ،
وهي صفة تطلق على الأقباط والزخارف الخاصة
بالشعوب الجرمانية التي امتدت من ألمانيا إلى شمال
السويد ، واستقر بعض منها في الجزر البريطانية .
والصليب الذي ذراه مقام في كنيسة روثويل
بمقاطعة دومفريسشاير باسكوتلندا .

التراث الفكرى المصرى يتخلل تعاليم للشعوب الأخرى رغم انزواء المصريين بسبب القطيعة التى باعدت بينهم وبين كليمتى القسطنطينية ورومية .

٥٨٤- وبينما كانت عوامل البناء والهدم تتفاعل ، ويؤثر تفاعلها على الشعوب المختلفة ، كان الأنبا ميخائيل الثالث منهمكاً فى تعليم شعبه . وقد سهل عليه هذا للولجب المقدس قدوم أمير جديد واسع الأفق - هو الأمير أحمد ابن طولون . وكان تركى الأصل ، تربى فى بلاط الخليفة فى بغداد ، وتعلم القرآن واللفقه وأصول الدين على مذهب أبى حنيفة ، كما اشتهر بالفناء والشجاعة ، فعينه بقبى المتصرف باسم للخليفة المعز والياً على مصر سنة ٨٦٨م . وما أن تولى زمام الحكم حتى أخذ يثبت دعائم سلطته باستمالة القلوب إليه . فخلع جباة الضرائب الدلاء وعين بدلاً منهم موظفين مصريين . ويبدو أن مثل هذه المعاملة العادلة لم تعجب الجميع ، فثار العلويون غزى الاسكندرية عليه سنة ٨٦٩ ، ولما انطفأت ثورتهم أشعلها بقيتهم فى منطقة أسنا بالصعيد الأعلى . ولكن ابن طولون ظفر بهم فى الصعيد كما كان قد ظفر بهم فى الاسكندرية . فلم تكن ثورتهم غير ريج عابرة . ومن ثم وجه هذا والى الرشيد عنايته إلى الشعب المصرى ، فمنح الجميع الحرية فى ظل القانون . وهكذا أتاح الفرصة للقيط لمزاولة شعائهم الدينية وبناء الكنائس والأديرة ، ومباشرة أعمالهم التجارية والزراعية والصناعية . فعم البلاد هدوء شامل ، واستتب الأمن إلى حد أن ابن طولون لم يعد محتاجاً إلى مرسوم جديد من الخليفة المرفق الذى تولى للحكم بعد انتقال المعز إلى رحمة مولاة .

٥٨٥- وكان أحمد بن طولون - إلى جانب ما امتاز به من عدالة - ميالاً إلى البذخ والترف ، فبنى مدينة جديدة على مقربة من القسطنطينية أقام فى وسطها قصرًا منيفاً تحيط به حديقة غناء ، وأقام فى جناح منها ملحياً لسباق الخيل . وشيد إلى جانب هذا القصر الفخم مسجداً غاية فى الهندسة المعمارية (١) - بناء له مهندس قبطى اسمه ابن كاتب الفرغانى . وقد أعجب

(١) لا يزال هذا المسجد قائماً لأن يعجب به كل من يراه وهو يحفظ فى هندسته عن كل المساجد فى مصر .



مئذنة جامع ابن طولون كما تبدو من خلال أحد أقواس الجامع ،
وهي فريدة من نوعها في مصر

ابن طولون بعمل هذا المهندس اعجاباً جعله يعطيه مائة ألف دينار مكافأة له على ابتكاره الباهر ، ومعاشاً شهرياً . وطلب إليه بعد ذلك أن يبني له خزاناً يوصل ماء النيل إلى مدينته الجديدة (١) . وكانت القصور التي بناها هذا الأمير آية في الفخامة ، عاش فيها عيشة الترف إلى حد أن بلاطه كان ينافس في الأبهة بلاط الخلفاء العباسيين في بغداد . وأدرك الخلفاء مدى هذا الترف ، وحققوا على صاحبه حنقاً أدى بهم في النهاية إلى هدم هذه القصور جميعها عند سقوط الطولونيين (٢) .

٥٨٦- ومما يرويه ابن المسعودي (٣) عن أحمد بن طولون أنه كان قد سمع عن فيلسوف قبطي من أعالي الصعيد بلغ من العمر مئة وثلاثين سنة . وكان هذا الفيلسوف يارعاً في العلوم الفلكية والجغرافية كما كان رحالة مغامراً ، فدفعه حبه للمغامرات إلى القيام بزيارات لأقطار بعيدة . فأرسل إليه ابن طولون يطلب منه الحضور إلى القطائع ، عاصمته الجديدة . ولما التقى الرجلان بالغ الأمير في اكرام ضيفه ثم سأله عن السر في أنه بلغ سناً يندر أن يبلغه الناس . فقال : « لقد دريت نفسي يا مولاي على الاعتدال في المجلس والمأكول والمشرب . وأغلب ظني أن هذا الاعتدال هو السر » . ثم سأله ابن طولون عما إذا كان يعرف أين هي منابع النيل . فأجابه : « إنني أعتقد أن منابع النيل مستقرة في قمم الجبال الشامخة حيث توجد بحيرة واسعة وحيث يستوى الليل والنهار على مدار السنة » . وقد أطلق العلماء على هذه المنطقة اسم « الخط المستقيم » بسبب هذا التساوي (٤) . وقد أعجب ابن طولون بأجربة

(١) الكنائس القبطية للقدية في مصر (بالانجليزية) لألفريد بطر جـ ١ ص ٨٩ ، تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لستقلي لآين هول ص ٥٩ - ٦٢ ، ٦٥ .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) جـ ٢ للميجت الثاني لجاستون فييت ص ١٥٨ - ١٥٩ ، الخلافة : ازدهارها وانحلالها فسقوطها (بالانجليزية) لوليم موير ص ٥٥٥ .

(٣) مؤرخ عربي ولد ببغداد وتوفي حوالي سنة ٩٥٦ م ، قضى السنوات العشر الأخيرة من عمره ما بين مصر وسوريا وكان واسع الأفق استقى معلوماته من مختلف المصادر .

(٤) من المعلوم أن الباحثين الأوروبيين لم يعرفوا منابع النيل إلا بعد ذلك بتسعة قرون ، وأن الوصف الذي قدمه للرحالة القبطي ينطبق على الحقيقة تماماً .

الشيخ القبطى وبسعة معلوماته ، فاذن له بالعودة إلى بلاده بعد أن أعطاه الهيأت المالية الجزيلة (١) .

٥٨٧- على أنه - رغم هذه المزاي - كانت هناك رخيصة شانت لبن طولون شيئاً فظيماً : هي أنه كان سريعاً فى استعمال سيفه إلى حد أنه قيل عنه بأنه قتل ثمانية عشر ألفاً من الناس (٢) . ومع أنه لم يضع ضرائب جديدة على القبط إلا أنه حتم على الأنبا ميخائيل الثالث دفع عشرين ألف دينار . فأدى هذا التصف إلى توتر العلاقات بينهما ، وبخاصة لأن ابن طولون - حين وجد البابا الاسكندرى عاجزاً عن دفع هذه الضريبة الفاحشة - ألقاه فى السجن دون تردد ويرى المقرزى أن الأنبا ميخائيل الثالث اضطر فى نهاية الأمر إلى أن يبيع قطعة من أملاك البطريركية معروفة باسم « أرض الحبش » . أما الأنبا ساويرس أسقف الأسمنوتين فقد وصف بالتفصيل المقابلة التى تمت بين الرجلين والى انتهت بأن أمر ابن طولون بالقاء الأنبا ميخائيل الثالث فى السجن .

وبينما كان البابا الاسكندرى ملقى فى السجن ، سعى كاثيان قبطيان يشتغلان فى ديوان الأمير إلى لقائه بالافراج عن باباهم . على أن توسلاتهما ذهبت سدى ، لأن الوالى رفض أن يعفو عن أسيره الكبير ما لم يقبض عشرين ألفاً من اللنانير فلجأ هذان الكاثيان إلى زميل لهما اسمه يونس يشتغل كاتباً لوزير أحمد بن طولون وكان يونس هذا يعرف أن الوزير يقصد إلى الجامع عند انبثاق الفجر . فاستصحب ابنه ، وذهب كلاهما إلى الجامع قبل بزوغ الشمس ووقفا مقابل البابا . قلما وصل الوزير استغرب لرؤية كاتبه يونس وابنه جالسين فى هذه الساعة المبكرة ، وسألهما عن السبب الذى دفعهما لانتظاره عند مدخل المسجد مع أن الشمس لم ترسل غير شعاعها الأول . وعددها أخبراه بالسبب ، وما زالا به حتى وعددهما بالعمل على اخراج البابا المرقسى من السجن . وقد برز الوزير بوعده إذ قد سعى جهده إلى أن استصدر

(١) تاريخ الكنيسة القبطية لعملى للقمص من ٤٨٤ - ٤٨٥ .

(٢) تاريخ مصر فى العصور الوسطى (بالانجليزية) استأنى لايڤ بويل من ٧١ .

أمرًا بالافراج عن الأنبا ميخائيل الثالث على شرط أن يدفع عشرة آلاف دينار في مدى شهر ، والعشرة آلاف الباقية تقسط على أربعة شهور (١) .

٥٨٨- ومن الغريب أن أحمد بن طولون حين توهم بأن ولاية مصر سلمت قيادها له ، فوجئ بثورة يرفع عباس (ابنه الأكبر) لواءها في الاسكندرية . فخف إليه على رأس جيشه . إلا أن عباس فر من الاسكندرية إلى برقة قبل وصول أبيه وقواته . ثم تنقل منها إلى مختلف البلاد في شمال أفريقيا . وكان حينما حل يشيع للدمار . ولكن ابن طولون تغلب عليه في النهاية وعاقبه شر العقاب (٢) .

وقد أدى هذا الصدام المسلح إلى الاخلال بالأمن وقلة الانتاج فطرة من الزمن - كما يحدث عادة بعد كل حرب .

٥٨٩- وكان الأنبا ميخائيل الثالث لا يزال مدينًا وعليه أن يدفع العشرة آلاف دينار الباقية للوالي ، فاضطر إلى أن يبيع بعض ممتلكات الكنيسة ليسد هذا الدين . وقد حز في نفسه أن يبيع ما قدمه الشعب المؤمن هبة لكنيسته . ويبدو أن ألم البابا الاسكندري لهذا البيع الاضطراب قد طغى عليه إلى درجة سببت له اعتلال صحته . ومع أنه عاش سنتين بعد موت ابن طولون ، إلا أن الحزن ظل ملازمًا له طيلة هذه المدة . فانتقل من هذا العالم المليء بالأحزان إلى الموضع الذي هرب منه الحزن والكآبة بعد أن ساس أمور الكنيسة شهرًا واحدًا وخمسة وعشرين سنة .

٥٩٠- كان أحمد بن طولون قد طلب إلى المهندس القبطي سعيد ابن كاتب الفرغاني بناء مقياس النيل والصبهرج المعروف للآن باسم صهرج ابن طولون . على أن هذا الأمير حكم باللقاء مهندس في السجن ونسيه تمامًا .

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لسويرس بن المقفع أسقف الأشمونين - ترجمه إلى الانجليزية يسمى عبد المسيح ، عزيز سوريال عطية ، لوسولد برمستر ، للمجلد الثاني - نشرته جمعية الآثار القبطية بالقاهرة سنة ١٩٤٨ من ٧١ - ٧٥ .

(٢) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) للجزء الثاني - المبحث الثاني - لجاستون قبيوت ص ١٥٨ .

ثم حدث بعد فترة من الزمن أن ابن طولون رغب في إقامة مسجد فريد من نوعه . فأشار عليه مستشاروه بأن يزينه بثلاثمائة عامود ثم أوعزوا إليه بأنه لن يستطيع الحصول على هذا العدد من الأعمدة ما لم يهدم عدداً كافياً من الكنائس . وسمع سعيد ابن كاتب الفرغانى بهذه المشورة وهو فى السجن فأرسل خطاباً إلى الأمير يعلن فيه استعداده لأن يبنى له مسجداً لا يحتاج بناؤه إلا إلى عامودين مع ابدال بقية الأعمدة بدعائم من الآجر لأن هذه المادة تقاوم الحريق . فلاقى هذا العرض رضى من ابن طولون وبعث فى طلب المهندس السجين وعهد إليه ببناء الجامع ووضع مئة ألف دينار تحت تصرفه للاتفاق منها على أن تزداد عند الحاجة . ولما أتم ابن كاتب الفرغانى بناء المسجد احتفل ابن طولون بافتتاحه ، ولشدة فرحه وزع الصدقات يومذاك على الفقراء كما منح الكثير من الهدايا وكان نصيب المهندس عشرة آلاف دينار مع اجراء الرزق عليه مدى حياته (١) .

سعيد بن كاتب الفرغانى المهندس

إن أشهر ما بناء هذا المهندس الفنان هو جامع ابن طولون الذى مازال قائماً شامخاً يشهد لمهندسه بالابتكار . على أن هذا الجامع كان آخر ما أنتجته عبقريته إذ من المعروف أنه بنى مقياس النيل بالروضة فى أيام الخليفة العباسى المتوكل سنة ٨٦٤م لأن العقود المدينية (القوطية) الموجودة فى هذا المقياس هى بعيدا العقود الموجودة فى جامع ابن طولون . ولقد شيد المقياس قبل الجامع بست عشرة سنة .

وأول عمل أوكله ابن طولون إلى سعيد بن كاتب الفرغانى كان انشاء قناطر توصل المياه إلى المدينة التى كان قد اختطها لنفسه ولحاشيته - وهى المدينة المعروفة باسم « القطنان » . فبنى له القناطر المطلوبة وحفر عيناً من الماء متصلة بصهرج ، وهذا الصهرج متصل بدوره بالقناطر . وقد بلغ هذا العمل من الاتقان ما جعل ابن طولون يعجب بمهندسه فيعود إليه بعد ذلك

(١) تاريخ الأمة القبطية - الحلقة الثانية - تكلل صالح نخلة وفريد كامل ص ١١٢ - ١١٣ .

بسلوات لمطلب إليه أن يشيد له جامعاً فريداً في نوعه ومبدياً بحيث يقاوم الحريق . فأجابه سعيد بن كاتب للفرغانى بأنه يستطيع تحقيق رغبته . وتوكيداً لهذه الامكانية صنع له نموذجاً مجسماً من الجلد أوضح بواسطته ما سيكون عليه للجامع بعد اتمامه . فاطمأن ابن طولون إلى أن رغبته ستتحقق . وتم بناء الجامع بالفعل وبلغت نفقاته مائة وعشرين ألفاً من الدنانير . وفى يوم افتتاحه منحت الهدايا للمهندس ولمختلف العاملين كما وزعت الصدقات العديدة .

على أن ابن طولون كان رجلاً تمتد يده بسرعة إلى سيفه . وحدث بعد فترة من الوقت أن عرض على مهندسه انكار مسيحه . فلما لم يلق غير الرفض استل سيفه وقطع رأس ذلك الذى لم يأل جهداً فى خدمته . ونال المهندس البارع اكليل الشهادة (١) .

٥٩١- وقد كان انتقال الأنبا ميخائيل الثالث فى عهد خمارويه بن طولون الذى تولى الحكم بعد أبيه وهو فى العشرين من عمره . وكان - إلى جانب شبابه - قد نشأ مدحلاً ، فلم يتدرب على أساليب السياسة ولا للحرب . فلما رأى خصومه ما هو عليه من شباه وعدم دراية ، زعموا أن الفرصة مواتية لهم لينتزعوا مصر والبلاد التابعة لها - وهى سوريا وآسيا الصغرى - من قبضة يده ويعيدوها إلى حكم الخليفة العباسى كما كانت قبل أن يستقل بها أحمد بن طولون . فتألب والى الموصل الفركى وعبر حاكم الدجلة والفرات عليه ، وتآمرا مع والى دمشق على اعلان الحرب ، وبدأ هجومهم على الحدود المصرية السورية . والعجيب أن خمارويه لم يتدحر فحسب بل هرب من الميدان أيضاً . فكان هروبه مدعاة إلى أن يزداد خصومه صلفاً وتبهاً ، ويشددوا عليه الخناق ليسحقوه . والأعجب من هذا كله أن خمارويه تركهم يشنون الغارات على حدود امارته وهو لاه فى قصره يستمتع بالمغنيين

(١) تاريخ سعيد بن كاتب الفرغانى المهندس بقلم كامل صالح نخلة استناداً إلى ما أورده المقرئى والسبوتى والاسحاقى - مقال نشره فى مجلة جمعية الترفيق للعدد العاشر من السنة الأولى (القاهرة فى ١٥ فبراير سنة ١٩٣٩) .

والمغتنيات ، وأنه على الرغم من تضاعف الهجوم من جهة والانغماس في اللهو من الجهة الأخرى ، فقد ظلت المناوشات سنة كاملة دون أن يتم النصر لفريق منهما . وفي هذه السنة - بينما كان خصوم مصر يستعدون الاستيلاء عليها ، وأميرها مشاغل بملأه - في هذه السنة عينها حدث زلزال عنيف هز البلاد فصدعها من أقصاها إلى أقصاها حتى لقد قدر المؤرخون موت ألف من الناس وسقط العدد العديد من المنازل ، بينما أصيب جامع عمر بن العاص بتصدع . ويبدو أن للزلزال الذي هز البلاد هذه الهزة المزعجة قد هز خمارويه هزة أيقظته من غفلته واستنهضت همته فترك ما هو فيه من لهو وترف ليلتفت إلى بلاده وإلى خصومه الواقفين له بالمرصاد . فشن المعركة لقوره ، وكانت حامية إلى درجة جعلت خصومه يتراجعون أمامه فزاده النصر يقظة ، ومبارد هؤلاء للخصوم ، وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً حتى لقد أقام لنفسه عرشاً فخماً على ضفاف الدجلة ، وجلس عليه في موكب حافل سنة ٨٨٨م .

٥٩٢- وكان لهذا النصر الحاسم أبعد الأثر فاعترف جميع حكام العراق وسوريا وآسيا الصغرى بسلطة خمارويه حتى أن حاكم طرسوس الذي كان قد شق عصا الطاعة على الطولونيين منذ سنة ٨٨٣م أعلن توبته بأن دفع جزية مقدارها ثلاثون ألف دينار وألف خلة . وعلى أثر ذلك اتفق الخليفة المعتضد على الزواج من قطر الندى بنت خمارويه رغم أنه كان أكبر من أبيها سناً . وقد أبدى الخليفة فرحته بهذا الزواج فأمر بأن يقام قصر في كل مرحلة من المراحل التي تقطعها العروس في رحيلها من القطائع إلى بغداد ، فكانت الحاشية التي يتألف منها موكب الأميرة قطر الندى تقضي نهارها في السفر وإيلها في أحد هذه القصور . ولقد وصف المؤرخون جهاز هذه العروس فقالوا أنه كان يتضمن مليون درهم ، والعمود النادرة المستوردة من الهند والصين ، ومختلف الجواهر ، وأربعة آلاف حزام للوسط مرصع بالجواهر ، عشرة صناديق مملوءة بالمصوغات ، وألف مدق من الذهب لاعداد الطيوب والعمود المختلفة اللازمة للزينة . وقد انتقلت قطر الندى من مصر إلى بغداد في هودج مبطن بالحرير . وكانت هي وحاشيتها يستريحون ليلاً في قصر من القصور

الفخمة التي أعدها الخليفة المعتضد لراحتهم ، وقد حوت هذه القصور كل الكماليات (١) . ولو فرضنا جدلاً أن في هذا الوصف شيئاً من المغالاة إلا أنه رغم هذا دليل على مدى الترف الذي كان ينعم به حكام تلك العصر ومدى الرفاهية التي بلغت الحياة في شرقنا في القرن التاسع .

٥٩٣- ولقد كان خمارويه صاحب ذوق مرفه ، فوسع قصر أبيه . ثم حول الميدان الذي يطل عليه إلى حديقة غناء صفت فيها الزهور في أشكال هندسية أو في جمل متناسقة . واختار لهذا التصنيف أندر للزهور وأجملها . وقد توسط هذه الحديقة البديعة مكان خاص بالطيور ذات الألوان الخلابة والأصوات العذبة . ولم يشأ خمارويه أن يكتفى بهذا كله ، بل بنى لنفسه قصرًا لا يوصف جماله أطلق عليه اسم « الدار الذهبية » ، لأن كل ما فيه من نقوش وزخارف كان مطلياً بماء الذهب .

ومن المؤلم أن كل هذا الجمال لم يكن كافياً ليهدي من نفس خمارويه المتوثبة فكان يقضى ليلاليه وهو يقلب على فراشه وقد استبد به الأرق دون أن يغمض له جفن . فأمر أن تقام له وسط هذه الحديقة الفيحاء بحيرة من الزئبق ، في كل ركن من أركانها الأربعة عامود من الفضة ، تحمل سريرًا مربوطًا إلى الأعمدة بحبال من الحرير ، فيتأرجح السرير في هواده إذا هب عليه النسيم - لعله بهذه الوسائل الخلابة يستدرج النوم إلى عينيه . وكان خمارويه إذا ما استلقى على هذا السرير المقام من نسج الخيال يسهر على حراسته الخاصة أسد أليف يلزمه ملازمة الكلب الصدوق لصاحبه .

٥٩٤- وكان خمارويه - إلى جانب ميله للترف - ميالاً إلى حسن معاملة شعبه . فأنصف المسلمين والقيط سواء بسواء . على أن الأساقفة والأراخنة لم يتمكنوا من مقابله خلال السنوات الثلاث الأولى لحكمه لانشغاله في حروبه أولاً وفي زواج ابنته ثانياً ، فلم يستطيعوا أن ينتخبوا راعيهم الأول ليجلس على العدة المرقسية التي شغرت بتياحة الأنبا ميخائيل الثالث رغم استمتاعهم

(١) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لستانلى لاين بويل ص ٧٤ .

بالسلام والاستقرار . وكان خمارويه -- إذا ما ثقلت عليه أعباء الملك يترك المدينة وصخبها ، وبأوى إلى أحد الأديرة القريبة من القسطنطينية ليجد في هدوئها السلام الذى يملكه من الاستجمام . وكان يقضى بضعة أيام فى الدير مستمتعاً بكرم الراهبان متبادلاً وإياهم العطايا لما بينه وبينهم من ود وصداقة . وكان تعلق خمارويه بالأديرة ينبع من ولعه بالفن . وكان هناك دير قائم فى أعلى الهضبة الواقعة جنوبى المقطم يحوى أيقونة للسيدة العذراء مصنوعة من الفسيفساء (الموزايكو) آية فى الجمال . فأعجب خمارويه بهذه الأيقونة إعجاباً دفعه إلى تكرار الزيارات لهذا الدير وفى هذا للزيارات كان يجلس الساعات الطويلة أمام أيقونة السيدة العذراء يتأملها فى إعجاب وخشوع (١) .



(١) مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى - المبحث الثانى . لجاستون فيبيت
ص ١٦١ - ١٦٤ .

ب- فى رحاب الصحراء

- (٥٩٥) أصفىاء الله يجاهدون بالصلاة .
(٦٠٠) الاعتداءات التى وقعت على الأديرة .
(٥٩٦) الشباب يترهبون طلباً للقداسة والعلم والخدمة .
(٦٠١) لوحة تذكارية فى دير الأنبا يؤنس كامى .
(٥٩٧) سجل الرهبان مازال ناقصاً .
(٦٠٢) رهبان ، السريانى ، يعمرون دهرى الأنبا أنطونى والأنبا يونس كامى .
(٥٩٨) ماروثا السريانى تستهويه قداسة يؤنس كامى .
(٥٩٩) السبب فى إطلاق كلمة «سريانى» على دير الأنبا يؤنس كامى .

٥٩٥- وبينما كانت القوى المتباينة تتصارع ، وللناس ينظمون طريقهم إلى الهدوء والاستقرار ، كان أصفىاء الله يعيشون فى عزلة الصحراء وسكونها فى رضى تام . فقد عمروا برية شيهيت من جديد ، وأقاموا أديرتها التى كان قد أصابها التخريب ، وارتفعت من جديد أصوات تسابيحهم ورنّت فى قضاء هذه البرية التى تقدمت بأنفاس لباس الصليب منذ قرون ، وكانت صلواتهم حارة تتصف بالجهاد . لأنهم - رغم عزلتهم - أحسوا فى أعماق قلوبهم بأوجاع العالم وأحزانه الكثيرة . فكافحوا بصلواتهم لكى يخفف الله من هذه الآلام وهذه الأوجاع فارفعت هذه الصلوات من أعماق قلوبهم المرهفة التى تدق دقاتها بانسجام مع قلوب الانسانية المعذبة .

٥٩٦- وكان بين الآباء الذين امتازوا بالطهر والقداسة يؤنس كامى الذى اجتذب بقداسه عددًا عديدًا من الشباب فى مصر وخارجها . وقد تسابق هؤلاء الشباب إلى هذه المنطقة المقدسة طلباً للتأمل والعبادة ، بينما سعى إليها بعضهم طلباً للعلوم (١) ولفن الكتابة ، أما الفريق الثالث فقد دخل الأديرة ليصقل

(١) يرى بعض المؤرخين - ومن بينهم دكتور جورجى صبحى والمستشرق الفرنسى آميلينو -

نفسه ويسمونها لعله بهذا الصقل يكون أصلح للخدمة . وهكذا كثر عدد الذين تتلمذوا ليونس كامى ، ثم تتابع هؤلاء الساعون نحو الكمال فعاشوا مع تلاميذه وجعلوا الشعلة بدورهم إذ كان قد انتقل هو إلى عالم النور . وتتضح هذه الحقيقة من المخطوط الذى ورثت فيه سيرة يونس كامى . وقد كتب هذه السيرة راهب ممن لم يعاصروه وإنما عاشوا على ضوء قُدوته . فقد جاء فى آخر هذه السيرة ما يلى : « أرجو من القارئ أن يذكر الكاتب الحقيقى الخاطى ياكوبوس ابن شنودة بن يونس كامى (١) . فالكاتب اذن تلميذ شنودة الذى كان تلميذاً ليونس - لأن الراهب الشيخ يعتبر الرهبان الشباب أبناءه بالروح كما عد بولس تيموثيوس ابنه (٢) ، وكما هى العادة فى مختلف البلاد الشرقية بين الشيوخ والأحداث .

٥٩٧- ومع أنه من الواضح أن عدد الذين اعتنقوا الحياة النسيكية فى هذا العصر كان كبيراً إلا أن الاسماء التى وصلتنا قليلة للغاية . فقد جاء فى إحدى المخطوطات أن أول من قصد إلى يونس كامى ليعيش تحت إرشاده كانوا خمسة هم : الآب شنودة مدير الجماعة والآب مرقس والآب كولوتوس والشماس جاورجيوس والآب أنطوني ، وقد قيل عنهم أنهم استحقوا نعمة الروح القدس (٣) . على أنه لا شك فى أن هؤلاء النساك لم يكونوا غير جزء ضئيل من مجموعة الرهبان ، إذ أن القبط لم ينفردوا وحدهم بالمبادرة إليه ليشاركوه الحياة الرهبانية بل جاءه شباب من شعوب أخرى وبخاصة الشعوب القريبة من مصر .

٥٩٨- وبين الذين استهوتهم قداسة الأنبا يونس كامى راهب سريانى اسمه

- أن الأديرة حملت رسالة العلم بعد مدرسة الاسكندرية ، بينما رأى بعض الآباء الشرقيين أن الأديرة لم تعمل غير مشغل العلوم الروحية دون المدنية .

(١) سيرة يونس كامى وتاريخ دير السريان - طبعه رهبان الدير عن مخطوطتين فبطيتين ومخطوطتين عربيتين سنة ١٩٥١ ص ٥ .

(٢) ١ تيموثيوس ١: ١٨ و ٢، تيمو ١: ١٠ .

(٣) سيرة يونس كامى ... ص ٢٢، ٢٣ .

ماروثا . ففى ذات ليلة رأى ماروثا حلمًا عجيبًا أحس فيه بأنه اختطف إلى السماء ووقف بين جميع القديسين والملائكة المحيطين بعرش الذمعة وهم يسبحون الله بغير فتور . وبينما هو يتأمل هذه الجموع النورانية المجيدة استلفت نظره رجلان بينهم . فتفرس فيهما وقد امتلأ عجباً لمراهما . ثم همس فى أذن ملاك قريب منه : « من هذان اللذان يشع منهما النور ؟ » . أجابه الملاك : « إن الطويل منهما هو الأنبا مكارى الكبير أبو رهبان برية شيهيت ، أما الذى وقف إلى جانبه فهو يونس كامى الذى نهج منهجه وسعى سعيه » . وغمرت النشوة قلب ماروثا لهذا العلم إلى حد أنها لازمته إلى ما بعد يقظته . وكان من أثر هذه النشوة أن أمسك ماروثا بريشته ورسم صورة هذين القديسين كما رآهما فى حلمه . وداوم على عمله ليل نهار فأتته فى أيام قليلة لكى تأتى الصورة مطابقة للرؤيا السماوية . وما أن فرغ من رسم هذه الصورة حتى غادر بلاده وجاء إلى مصر ، ثم قصد لغوره إلى برية شيهيت . وكان أول دير زاره فى هذه البقعة المقدسة دير الأنبا مكارى الكبير . وحالما دخل ماروثا هذا الدير امتلأ قلبه فرحاً ، ودخل لساعته إلى المقصورة التى تحوى أجسام الثلاثة مقاربات (١) حيث سجد لله شكرًا لأنه منحه الفرصة لزيارة أماكن هؤلاء القديسين . وبعد أن نال بركة هذه الزيارة ، قصد إلى دير الأنبا يونس القصير ومنه إلى دير الأنبا يونس كامى . وقد وصل ماروثا حينما كان الآب شنودة هو مدبر رهبان هذا الدير . فقص الحلم الذى رآه على الرهبان . ثم أراهم الأيقونة التى رسمها . ففاضت قلوب الرهبان فرحاً وشكرًا لله تعالى على استعلاناته لمحبيه . وقضى ماروثا بضعة أيام بين رهبان دير يونس كامى ، فاستهوته حياتهم بما فيها من محبة واتضاع . ومن ثم أعلن لهم رغبته فى أن يقضى بقية حياته معهم . فرحبوا به كل الترحيب . وهكذا عاش ماروثا فى دير الأنبا يونس كامى ولما دنت ساعته ، أهدى للدير صورة القديسين الأنبا مكارى الكبير والأنبا يونس كامى التى كان رسمها نتيجة للحلم الذى رآه ، كما قدم

(١) وهم مكارى الكبير أبو برية شيهيت ، مكارى القس الامكندى ، مكارى أسقف أذكو .

ثوبه المصنوع من السمار (١) لحفظه في الدير تذكراً له ، ثم انتقل في هدوء وسلام (٢) .

٥٩٩- ولقد نهج عدد من السريان منهج ماروثا فجاءوا إلى مصر وعاشوا في دير يونس كامي ، فاعتاد المصريون أن يطلقوا اسم « السرياني » على هذا الدير نسبة إلى هؤلاء للرهبان ، ولا تزال هذه التسمية شائعة حتى اليوم مما حدا ببعض المؤرخين إلى القول بأن السريان هم الذين بنوه ، بينما قال غيرهم بأنهم اشتروه من القبط في وقت كان المال يعوزهم لدفع الضريبة المفروضة عليهم (٣) .

٦٠٠- ويرى التقليد أن الدير الأصلي ليونس كامي قد اندثر هو وعدد كبير من الأديرة . ومما لا شك فيه أن يد الخراب قد امتدت إلى هذه البرية لأن الأطلال التي لا تزال موجودة في شيهيت شاهد على ذلك . ولقد كان هناك خمسون ديراً أهلاً بالرهبان في وقت ما (٤) . ثم أخذ عددهم يتناقص ويتزايد من جيل إلى جيل (٥) أما للخرائب المتخلفة عن دير القديس يونس كامي فتدل على أنه كان للدير حصن عال وأسوار منيعة بناها هذا القديس لحماية للرهبان الذين تجمعوا حوله ليعيشوا تحت رعايته . وقد وردت اشارات إلى هذا الدير حتى سنة ١٤٢٠م حين أغار البربر في غزوة من غزواتهم المتكررة على منطقة شيهيت . فخرج الرهبان من ديرهم للهرب ولجأوا إلى دير السريان حاملين مخططات أبيهم الروحي . فعاشوا فيه مذاك حتى وقتنا الحاضر . ورهبان هذا الدير الآن من القبط جميعاً ، فلم يعد بينهم سرياني

(١) اسم الأعشاب البرية التي تنمو عادة بالقرب من مجارى المياه .

(٢) سيرة يونس كامي وتاريخ دير السريان طبعه رهبان الدير عن مخطوطتين قبطيتين ومخطوطتين عربيتين سنة ١٩٥١ من ص ٢٦ - ٢٧ .

(٣) « أديرة وادي النطرون » (بالانجليزية) لايقين وايت - طبع في نيويورك سنة ١٩٣٣ ج ٣ ص ١٧٠ .

(٤) وادي النطرون - رهبانه وأدبرته وبه ملحق مختصر لتاريخ البطرك للأمرير عمر طرسين- طبع في القاهرة سنة ١٩٣٥ من ص ٢٤ ، ٨١ - ٩٦ .

(٥) « أديرة وادي النطرون » (بالانجليزية) ... ج ٣ ص ٢١٨ - ٢١٩ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ .

أوغريه من أبناء الشعوب الأخرى . فمن المرجح أن يكون دير السرياني ، هو دير الأنبا يونس كامي استناداً إلى خلاصة ما جاء عنه في مختلف التواريخ^(١) .

٦٠١ - ويحوى دير السرياني ، - إلى جانب الآثار الخاصة بالقدّيس يونس كامي - لوحة من الرخام حُفرت عليها عبارات باللغة القبطية ، وتقع اللوحة بين عامودين على هيئة أوراق الشجر يطوهما قوس مزخرف . أما العبارات المنحوتة على اللوحة فهذا نصها : « باسم الثالث المقدس المنسأوى الجوهر : الآب والابن والروح القدس . كانت نياحة أبينا القدّيس الأنبا يونس كامي في الرابع والعشرين من كيهك (٢٠ ديسمبر) في الساعة الأولى من الليل قبل الخامس والعشرين ، في أيام الأنبا قزما رئيس أساقفة الاسكندرية حين كان أبونا الأنبا ابرآم قمصاً على كنيسة الأنبا يونس^(٢) . وبعد انقضاء عشرة شهور على نياحة أبينا للقدّيس يونس ، وحسب مشيئة الله الصالحة رقد أبونا الأنبا استفانوس في التاسع من شهر هاتور (٥ نوفمبر) ، وكان استفانوس ابناً روحياً للأنبا يونس . ففي هذه السنة عيناها رقد الاثنان آمدين . وقد حدث هذا في سنة ٥٧٥ لجهاد الشهداء للقدّيسين تحت حكم ملكنا واللهنا يسوع المسيح آمين ،^(٣) .

٦٠٢ - ومن الشيق أن هذا الدير ظل مأهولاً منذ تأسيسه حتى الآن - ما عدا سنوات قصيرة في عهد الأنبا مرقس الثاني . فلم يضطر رهبانه إلى هجره لأن يد التخريب لم تمتد إليه كما امتدت إلى غيره من الأديرة .

وحدث أن أشار البربر على ديرى الأنبا أنطوني والأنبا يولا (في الصحراء الشرقية) فخرّبوهما وقتلوا جميع من فيهما من الرهبان . ثم أراد

(١) سيرة يونس كامي وتاريخ دير السريان طبعه رهبان هذا الدير عن مخطوطتين قبطيتين ومخطوطتين عربيتين سنة ١٩٥١ م ص ٤٠ .

(٢) أى مدير الرهبان (أولبرهم) .

(٣) أديرة وادى النطرون (بالانجليزية) لا يظن وأيت ج ٣ ص ١٩٤ ، سيرة يونس كامي ... ص ٤٥ - ٤٦ .

الأبنا غبريال السابح (ليايا الاسكندري لـ ٩٥) أن يصرّ هذين الديرين فاختر
ثلاثين راهباً من دير السرياني ، عيّن عشرين منهم للاقامة في دير الأنبا
أنطوني وعشرة في دير الأنبا بولا . وعدد ذلك لرتاع لليايا الاسكندري إذ وجد
أن القبائل التي دمرت الديرين وفكت بسلكيهما قد استدفأت باستعمال
المخطوطات كوقود النار . ورأى بلزاه هذه الكارثة أن للرهبان الذين لانتخبهم
لتعمير هذين الديرين لا يمكنهم الاستمتاع بحياة للرهبنة من غير كتب ، فأذن
لهم بأن يأخذوا معهم بعض الكتب من مكتبة ديرهم الأصلي . ولا تزال هذه
الكتب محفوظة للآن في هذين الديرين ، وهي تحمل خاتم دير السرياني، (١)
. وهكذا جدد تلاميذ الأنبا يونس كامي الحياة للرهبانية في الصحراء الشرقية ،
وأشعوا فيها من جديد نور القنطرة التي كان قد أوقده في بادئ الأمر كوكب
البرية الأنبا أنطوني أبو جميع للرهبان - هذا الذي بقوته ألهب قلوب الساعين
نحو الكمال للمسيحي في مختلف البلاد وعلى مر الأجيال . فسد الأبناء ما
عليهم من دين نحو أبيهم للروحي بأن أعادوا إلى ديرهم تلك الحياة المثلى
المكرسة لله التي اختطها لهم ، ولسان حالهم يقول :

نبني كما كانت أولئنا نبني ونفعل مثل ما فعلوا



(١) سيرة يونس كامي ... ص ٥٢ .

جـ - على شاطئ بحر صاخب

- (٦٠٣) التجار البندقيون يسرقون جسد مارمرقس .
- (٦٠٤) الصداقة المتينة بين خمارويه وأسقف طحا .
- (٦٠٥) السعي لانتخاب خليفة لمارمرقس .
- (٦٠٦) مقتل الأمير خمارويه .
- (٦٠٧) انتخاب الأنبا غبريال .
- (٦٠٨) اعلانه التمسك بقانون الايمان الذى اقترحه المجمع المسكونية الثالثة .
- (٦٠٩) الفوضى والقتال تسود مصر .
- (٦١٠) خلتجى يشق عصا الطاعة على الخليفة .
- (٦١١) ظهور الفاطميين .
- (٦١٢) صراع فى الخارج وصراع فى الداخل .
- (٦١٣) نياحة الأنبا غبريال .
- (٦١٤) الأنبا قزما الثالث .
- (٦١٥) رسامة الأنبا بطرس مطراناً للحبشة .
- (٦١٦) الفاطميون يفتسرون اولاً ثم يشاؤون .
- (٦١٧) نصايان يحدثان اضطراباً فى الحبشة .
- (٦١٨) الأمير العيشى يستثير غضب الأنبا قزما الثالث ويؤدى إلى قطع العلاقات بين الكهنستين .
- (٦١٩) عودة الفاطميين إلى مناوشة المصريين .
- (٦٢٠) الفوضى والاضطراب يوديان بحياة البابا الاسكندرى .
- (٦٢١) انتخاب الأنبا مكارى الأول .
- (٦٢٢) قيامه برحلة راعوية ونصيحة أمه له .
- (٦٢٣) الويل يعم المصريين فيلجأون إلى الله تعالى .
- (٦٢٤) الأخشيدي يتولى الحكم ويقر السلام .
- (٦٢٥) الأنبا مكارى الأول يقوم برحلة راعوية ثانية يمتتب السلام خلالها نهائياً .
- (٦٢٦) باباوية الأنبا مكارى الأول يلبث بالعواصف وانتهت بالسلام .

٦٠٣- ولما ساد الهدوء الديار المصرية استطاع الخلق يدونيون أن يقيموا لهم أسقفاً خلعوا عليه لقب : بطريرك الاسكندرية ، بعد أن ظلوا قرنين من

الزمان عاجزين عن إقامة بطريرك يدين بمذهبهم الخلقيدوني - فاستراحت الكنيسة القبطية خلال هذين القرنين من شغبهم . فلما نجحوا في إقامة بطريرك لهم في هذه الفترة زعموا أنهم نالوا مغنماً ، وأنهم استطاعوا التفوق على القبط أصحاب البلاد المصرية وبنلوا من جديد يشاغبون .

وكان جسد القديس مرقس للرسول موجوداً في كنيسة اغتصبها الغدر الروماني وسلمها غديمة باردة للخلقيدونيين الدخلاء . وكانت الكنيسة خارج الباب الشرقي لمدينة الاسكندرية . وحدث في ذلك العصر أن البندقيين كانوا يتاجرون مع الاسكندرية . على أنهم لم يكتفوا بالكسب الجلال ، بل راودتهم نفوسهم على الكسب الحرام . فانتهزوا فرصة الشغب الذي يحدثه الخلقيدونيون ، كما انتهزوا فرصة وجود جسد القديس مرقس في كنيسة لم تعد في حوزة القبط بحكم الاستعمار الأجنبي ، فسرقوا جسد كاروز النيار المصرية ووضعوه في قاع سفينة سارعوا بها إلى مدينتهم حاملين هذا الكنز الثمين معهم . وقد أيد هذه الحادثة الراهب برنار الفرنسي البنديكتي كما ذكرها أبو صالح الأرمني (١) . وفرح البندقيون بهذا النعم الذي أخذوه خلسة ومن غير حق ، ووضعوا للجسد الطاهر في كتدرائيتهم المشهورة . أما رأس القديس فظلت في مصر التي أخلص لها ورواها بدمه الذكي لأنها كانت محفوظة في كنيسته بالاسكندرية منذ استشاده .

٦٠٤ - ولقد أمعن الخلقيدونيون في إبداء الاستخفاف بالقبط الذين لم يكونوا قد انتخبوا راعيهم الأول بدلاً من الأنبا ميخائيل الثالث البابا الراحل . فرأى الأنبا باخوم أسقف طحا (٢) أن يفوب عن القبط ويحدث الأمير خمارويه عن رغبتهم في انتخاب خليفة لمارمرقس . ذلك لأن الأنبا باخوم كان يحظى بثقة لا حد لها من الأمير . فأخذ معه بعض الهدايا النفيسة وذهب إلى

(١) راجع كتاب برنار عن رحلته إلى الأراضي المقدسة سنة ٨٦٠ ، السكمار للقبطي في ٩ هاتير .

(٢) في منطقة العدا ، ومن المزم أننا لا نعرف عن هذا الأسقف غير هذه السطور القليلة كما أن هذه الأسقفية لم يعد لها وجود .

خمارويه . وحين دخل القصر الملكى قابله صاحبه بالترحاب ، وبعد أن تبادل الرجلان التحية استفهم الأمير عن السبب الذى حدا بالأنبيا باخوم إلى ترك عاصمته فى مثل هذا الوقت . وسأله بصفة خاصة عن حدود مصر للغربية . ذلك لأن خمارويه كان قد اتتمنه على الدفاع عنها ، فقام الأسقف بتأدية الأمانة على خير ما يكون الأداء وذلك بأن عين ثلاثمائة جندى يحسنون الرماية بالنشاب لهذه الحراسة . كذلك أعد لهم المعدات فى مختلف النقط لينتقلوا بها من صفة إلى أخرى . وعين لهم أوقات الحراسة بالتناوب حتى لا ينفأ لهم العدو فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار . ولما كان الأنبيا باخوم مسئولاً رسمياً عن حماية الحدود المصرية للغربية سأله خمارويه عنها ترهها منه أن يكون الأعداء قد أغاروا عليها . فطمأنه الأسقف ، وأبلغه أنه إنما جاء للسؤال عنه والاستفسار عن صحته وصحة أسرته . وبعد أن قضى عدة أيام فى ضيافته ، استأذن فى العودة إلى ابيارشيته دون أن يطلعه على السبب الذى جاء من أجله .

٦٥٠- وبعد خمسة أيام عاد الأنبيا باخوم إلى زيارة خمارويه . وما أن رآه للمرة الثانية حتى داخله الخوف إذ لم يدر فى خلد أنه هناك سبباً فى عودة الأسقف إليه بعد هذه الفترة الوجيزة غير هجوم مفاجئ على الحدود الغربية . ولكن الأنبيا باخوم هنا من روعه وأكد له أن السلام مستتب بحمد الله ثم قال له : لقد علمت أن الخلقيدونيين الذين هم أعداء كنيسنا بقدر ما هم أعداء دولتنا قد تمكنوا من إقامة أسقف لهم خلعوا عليه لقب بطريرك الاسكندرية . وقد خفت أن يكون بطريركهم هذا جاسوساً فى خدمة امبراطور بيزنطية يستعين بنفوذه على تمهيد الطريق لغزو بيزنطى جديس عن طريق الاسكندرية . فوجدت لزماً على أن أتى إليك وأتفاهم معك فى هذا الأمر الخطير . وأبدى خمارويه اغتباطه بهمة الأنبيا باخوم وسهره على مصلحة مصر . ثم خوله الحق فى الذهاب إلى الاسكندرية واتخاذ ما يراه من خطة تعود على البلاد بالخير وفيها صلاح الشعب القبطى . فأخذ الأسقف رسالة من الأمير إلى والى الاسكندرية ، وسافر لساعته . وهناك نجح فى خلع الأسقف الخلقيدونى وستة من أساقفته . وما أن اطمان إلى أن صفو السلام لن يعكزه

هؤلاء الخلقيدونيون المخروعون حتى اتفق مع عدد من الأساقفة الأرثوذكسيين على التوجه إلى بركة شيهيت بحثاً عن الراهب الذى يصلح للجلوس على السدة المرقسية الجليلة .

٦٠٦- وبينما كان الأساقفة يتداولون فى أمر انتخاب البابا المرقسى ، دهمت البلاد كارثة لم تكن فى الحسبان هى اغتيال الأمير خمارويه فى أثناء زيارته لدمشق سنة ١٩٦٦م . قلم يفلح أسده الأمين ، ولا حراسه الأقوياء من التغلب على مؤامرات الحريم . ذلك لأن خمارويه - رغم همته للعالية وعدالته فى معاملة الشعب - كان ولوعاً بالدناء فجمع العدد العديد منهم فى قصوره الباذخة . وقد نذر لحمد قلوب بعض هاته النسوة فتآمرن على ولى نعمتهن ونجحن فى قتله . وكان مصرع خمارويه بدء سلسلة من الاغتيالات والمؤامرات والشغب (١) . وقد عم البلاد الحزن لمقتل هذا الأمير الذى عرف كيف يعامل الجميع بالانصاف .

٦٠٧- على أنه رغم ما ملأ النفوس من حزن وما ساورها من قلق ، فقد استمر الأساقفة والأرلخنة فى مشاوراتهم لانتخاب من يجلس على السدة المرقسية . ولتقت كلمتهم على لختيار راهب اسمه غبريال من رهبان دير القديس مكارى الكبير . وكان أبو للرهبان فى ذلك الدير وقتذاك شيخاً وقرراً اسمه مكسيموس حرص على تعليم للرهبان وإرشادهم حرصاً شديداً . كذلك كان بين للرهبان ناسك شيخ اسمه دوروثيوس منحه الله أن يعرف ما فى الغيوب . وتجمع للرهبان ذات مساء حول دوروثيوس لينالوا بركته ، ثم جلسوا حوله يستمعون بحديثه الهادئ العذب ما عدا الراهب غبريال الذى كان ولوعاً بالوحدة . وحين هم غبريال بالخروج من الكنيسة ومر على أخوته ، أمسك دوروثيوس بيده وقد أضاء وجهه بابتسامة سماوية ثم قال له : « أنت تجرى منى ومن اخوتك لأنك تحب العزلة ، ولكنى أقول لك إنك بالحقيقة ستجلس بين جماهير الرجال والنساء ، ولم يدرك غبريال ساعتئذ ما يرمى إليه الراهب

(١) تاريخ مصر فى القرن الوسطى (بالانجليزية) لستافلى لاين بويل ص ٧٥ ، مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثانى المبحث الثانى لجامترن قبيت ص ١٦٠ .

الشيخ دورثيوس إلا حين أمسك به الأساقفة والأرلخنة وساروا به قسراً إلى الاسكندرية حيث رسموه للخليفة السابع والخمسين للقديس مرقس سنة ٦١٦ م (سنة ٩٠٠ م) .

٦٠٨- ولما كان الخلقيدونيون قد أوجدوا شيئاً من بليلة الأفكار بما نشره على الاسكندريين من تعاليمهم الابتداعية ، فقد رحب الأرثوذكسيون بمقدم البابا الاسكندري ترحيباً مزدوجاً إذ أدركوا أنه سيوضح الحقيقة للجميع . فما أن انتهوا من تهنيئته بالثقة التي نالها حتى رجوا منه أن يبين لهم إيمانه ، فأوضحه لهم ثم ختم حديثه بقوله : « إننا نؤمن بالدستور الذي سنّه مجمع نيقية (المسكونى الأول) وأكمّله مجمع القسطنطينية (للمسكونى الثانى) وأيده مجمع أفسس (للمسكونى الثالث) ، فلا نزيد عليه ولا ننقص منه ، ولا نحيد عنه أبداً . وهذه العقيدة الأرثوذكسية هي التي تمسك بها الأنبا ديسقورس الخليفة المباشر للأنبا كيرلس عامود الدين ورضى في سبيلها بالثقى والتشريد .

٦٠٩- ومن المعروف أن الأنبا غبريال - رغم اعتلائه السدة المرقسية - قد قضى معظم أيامه في برية شيهيت ، لا يفادها إلا إذا دعت للضرورة إلى ذلك وكان - إذا ما اضطر إلى البقاء في الاسكندرية - يشعر بأنه غريب بين قوم غريباء ! وأغلب الظن أن هذا الشعور بأنه غريب مرجعه إلى ما ساد البلاد المصرية من اضطراب وفوضى . وترجع هذه الحالة من ضعف الإدارة واختلال الأمن إلى عاملين : أولهما أن الابن الأكبر لخماريوه كان لا يزال صبيّاً في الرابعة عشرة من عمره عند مقتل أبيه ، فلم يكن يدرك عظم المسؤولية التي آلت إليه ، وبخاصة لأنه نشأ مثلاً مرفهاً . وثانيهما أن حكومة بغداد كانت قد تملكها شهوة القضاء على الأسرة الطولونية لما كان لها من نفوذ واسع وما أحرزته من غنى وجاه . فتمكن رجالها بنفوذهم وثروتهم من جعل مصر دولة مستقلة لا تعطى الخليفة من علامات الخضوع غير الصلاة له في الجوامع .

ولم ينصب غضب حكومة بغداد على الأسرة الطولونية وحدها بل امتد إلى المصريين إذ قد تصاعفت الضرائب . وقد ذكر المقرئى أنه جاء إلى

مصر الوزير على بن عيسى ، وبعد فحص حالة البلاد قرر على الأساقفة والرهبان والعجزة من المسيحيين دفع ضرائب فرضها عليهم . فذهب وفد منهم إلى بغداد وقدموا التماساً إلى الخليفة باعقائهم ، فقبل التماسهم وبعث برسالة إلى وزيره في مصر ينبهه بذلك (١) .

٦١٠- وفي وسط هذا الاضطراب ظهر رجل اسمه خلندجى موال للطلوليين وأعلن نفسه حاكماً لمصر . وكان يقيم إذ ذاك في فلسطين ، فجمع عدداً كبيراً من أنصاره ، وبعد أن استولوا على الأملاك المصرية في فلسطين زحفوا على مصر وحاربوا قوات الخليفة العباسى وتغلبوا عليها واحتلوا الفسطاط سنة ٩٠٥ م . فرحب بهم المصريون كل الترحيب لأنهم كانوا يكونون لأحمد بن طولون وخمارويه كل حب لما استمتعوا به في عصرهما من هدأة ورخاء . ولم يكف خلندجى بالاستيلاء على الفسطاط والاقامة في دار الولاية ، بل زحف على الاسكندرية وانتصر على واليها أيضاً . وقد أثار زحف خلندجى غضب الخليفة ولم يجد بداً من ارسال جيش لمحاربهه . وبعد مواقع دامية ظفر جيش الخليفة بخلنجى واقتاده إلى بغداد حيث أركبوه جملأً وطافوا به في شوارع تلك المدينة ليجطوه عيرة لغيره ، ثم أمر الخليفة بقطع رأسه في مايو سنة ٩٠٦ م . وإن في زحف هذا المغامر ، وفي انتصاره ، وفي مقدرته على تحدى جيوش الخليفة مدى ثمانية أشهر ، في هذا كله لأبلغ دليل على ضعف الحكومة إذ ذلك (٢) .

٦١١- وكان كل هذه البلايا لم تكن كافية لبث الخوف في النفوس فبدأ شبح الأفق هو شبح الفاطميين الذين كانوا قد وجهوا نظرهم إلى مصر وهدفهم الاستيلاء عليها . وكانوا قد أغاروا على تونس وانتصروا عليها سنة ٩٠٩ م فاضطر واليها إلى الفرار إلى مصر . فتلقته بالترحاب وأكرمت مثواه رغم ما تعانيه من بلايا وخطوب - لأن مصر كانت على مدى الأجيال أملاً حلوئاً

(١) أنيرة وادى النطرون - من مطبوعات جمعية مارميذا للمعاليين بالاسكندرية - للدكتور منير شكرى ص ٢٣٩ .

(٢) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لستافلى لاين هول ص ٧٨ - ٧٩

لجميع المتضايقين . اللاجئين إليها . فليس بعجيب إن أحس الأنبا غبريال بأنه غريب وسط هذا المجتمع المملئ بالأهوال ، ولم يجد لنفسه من عزاء غير الالتجاء إلى شبيبت كلما أمكنه ذلك ليرفع ابتهالاته إلى الله تعالى منارعا إليه أن يترفق بمصر وينبها ويذكر عنهم كل بلاء ولو أن تصرفه هذا لا يتفق والمسئولية الموضوعة عليه .

٦١٢- على أن الصراع للخارجى كان يهون لو لم يكن الأنبا غبريال فريسة لصراع داخلى عنيف . فقد داخله الزهو لقوزه بالسدة المرقسية ، فأرقت هذا الزهو غريزته الجنسية وأدى به إلى معارك نفسية كدرت عليه صفر الحياة فزادته ألما وحزنا . فقصده إلى أحد الرهبان الشيخ للذين عاش معهم فى دير الأنبا مكارى الكبير واعترف له بخبيطة نفسه وما يساوره من قلق وفزع . فقال له هذا الشيخ المحنك : إن للتوسع والعمل للجسمانى هما خير دواء لسقمك . وعندنا اشترى الأنبا غبريال مجرفة ، فإذا ما انتهى من صلاة نصف الليل ، وأبوى الرهبان إلى صوامعهم ، خرج هذا الأب المتوجع ونظف جميع مرابيض الدير . واستمر على هذا العمل إلى أن نظر الله تعالى إلى تعبهِ فى تواضعه وأراحه من صراعه النفسى ، وأسبغ عليه الهدوء والطمأنينة .

٦١٣- وهكذا كانت باباوية الأنبا غبريال مليئة بالمخاوف والأهوال من الداخل ومن الخارج - فلم ينعم بالهدوء غير مدة قصيرة ، نقله الله بعدها من عالم مشوب بالقوضى والألم إلى العالم الذى يقمره النور والسلام . وكان انتقاله فى الحادى عشر من أمشير سنة ٦٢٧ ش (٢٥ يناير سنة ٩١١ م) ، بعد أن جلس على السدة المرقسية لحدى عشرة سنة (١) .

٦١٤- لم تكن شعائر التجنيز الخاصة بيارات الاسكندرية تنتهى حتى أخذ الأساقفة والأراخنة يتشاورون معاً من جديد فى أمر من يجلس على كرسي مار مرقس مكان الأنبا غبريال باباهم الراحل . ولقد شاعت المراحم الالهية أن تتفق كلمتهم وتتحد قلوبهم ، فأجمعوا على الزاهب قزما لأنه كان باراً تقياً . كثير

(١) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ترجمه إلى الانجليزية يسي عبد المسيح وعزيز سوريال عطية ولويسلاند برمستر - المجلد الثانى ج-٢ طبعته جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٤٨ من ٩١ - ٩٣ .

الرحمة والرأفة . مختصلاً في الأسفار الالهية والتعاليم الكنسية (١) . وحالما انتقلت كلمتهم حملوه إلى الاسكندرية حيث كرسه الأساقفة في الكنيسة المرقسية فأصبح بذلك البابا الاسكندري الثامن والخمسين سنة ٦٢٧ م (٩١١ م) .

٦١٥- وقد استهل الأنبا قزما الثالث باباويته برسامة الراهب بطرس أسقفاً على الحبشة ، ويعد أن زوده بالنصائح وأوصاه بالتفاني في رعاية شعبه ، أرسله إلى تلك البلاد التي باعدت المسافات الجغرافية بينها وبين مصر وقربت بينهما الصلات الروحية . فاستقبله الملك والشعب استقبالاً رائعاً مقترناً بالصراعة إلى الله تعالى أن يؤازره بنعمته .

وحدث بعد وصول الأنبا بطرس إلى الحبشة بأسابيع قليلة ، أن أصيب الملك بمرض عضال أدرك معه أن نهايته اقتربت . فنادى المطران إلى جانبه واعترف له بما يحس به . ثم رجا منه أن يتولى تربية ولديه إلى أن يتلقا سن الرشد . ثم أضاف إلى هذا الرجاء قوله : : إن الملكية مسئولية عظيمة ، وأنت سفير السيد المسيح لدينا . فإذا ما بلغ ابناي هذان سن الرشد ، فوازن بينهما ، وضع التاج على رأس أجدرهما به دون أن تلتفت إلى كونه الأكبر أو الأصغر . وبعد أن وضع ملك الحبشة هذه الة سولية على عاتق الأنبا بطرس بأيام قليلة ، انتقل إلى رحمة مولاه . وكان المطران مما يقدرون مسئولياتهم حق قدرها ويؤتون الأمانة على خير وجه . فأشرف على تربية الأميرين بنفسه . وما أن بلغ أصغرهما سن الرشد حتى أخذ الأنبا بطرس يوازن بين شخصية الأميرين عملاً بوصية أبيهما . وانتهى إلى أن أصغرهما أجدرهما بالملك . فبادر إلى مسحه ملكاً .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أبرز اختصاصات المطران القبطي ظهوراً في أثيوبيا هي تكويج الامبراطور في احتفال ديني خاص ومسحه بالزيت المقدس لكي يكسب الامبراطور صفة القداسة ويكون سلطانه هبة الهية . وهذه الصفة - صفة استلام السلطة من الله تعالى - هي التي تميز الامبراطور عن

(١) السكسار الأنثوي ترجمه إلى الانجليزية واليس بودج ج٢ ص ٦٦٦ .

غيره من أمراء المقاطعات الذين كانوا يتوارثون الإمارة عن آبائهم فهم والحالة هذه لا يستمدون سلطتهم من الله . وقد أيد الدستور الأثيوبي حق المطران في تنصيب الإمبراطور بالنص عليه في المادة السابعة من دستور سنة ١٩٥٥ . وإلى جانب حق التنصيب فالمطران له حق العزل أيضاً إن وجد الإمبراطور قد حاد عن القوانين الكنسية أو أضر بمصالح الدولة . ومتى عزل المطران إمبراطوراً حق للشعب أن يخرج عن طاعة هذا الإمبراطور (١) .

٦١٦- ولتعد إلى تنكب مجرى الحوادث - بعد هذه الملحوظة - فنقول إن الفاطميين كانوا يترصدون بمصر منتظرين الفرصة المواتية . فراقبوا مجرى الأمور فيها باهتمام بالغ . ولما وجدوا أن الحكومة المحلية ضعفت بسبب تعاقب الحروب والثورات ، ووجدوا أن الخليفة العباسي لم تعد له نفس الهيبة في القلوب كما كانت لأسلافه نتيجة لهذه الحروب عيبتها ، ولبعد عاصمته (بغداد) عن مصر ، أدركوا أنه قد آن الآوان لهم لأن يدخلوا البلاد المصرية . وبالفعل تمكن القائد الفاطمي من الاستيلاء على الاسكندرية سنة ٩١٤م دون أن يلقى منها أية مقاومة . بل أن الاسكندريين سارعوا إلى الهرب ولجأوا إلى الفيوم حالماً رأوا الجيش الفاطمي الظافر مقتحماً مدينتهم . وقد تعقبهم الجيش وفنك بهم . وعندما فقط أدرك الخليفة العباسي مدى الخطر الذي يهدد مصر إن هو لم يسارع إلى إمدادها بجيش من قبله يلضم إلى جيشها . فبادر بإرسال المدد اللازم ونجح في إجلاء الجيش الفاطمي عن مصر .

٦١٧- وحين تلفت الأنبا قزما الثالث حوله لم يجد غير التقتيل والتدمير امتلاً قلبه ألماً وحسرة فكريس وقته وجهده للصلاة والصوم مبتهلاً إلى الله تعالى أن يترأف بالمصريين ويرفع عنهم ما يقاسون من بلاء فتحن الله بأن قبل صلوات هذا البابا وأعاد السلام والطمأنينة إلى القلوب الفزعة المضطربة . على أن عدو الخير لم يعجبه استناباب السلام ، فاستثار اثنين من أبناء القبط ليحمل منهما حرباً على أبيهما الروحي ، وكان اسم أحدهما ميثا وثانيهما

(١) كنيسة الاسكندرية في أفريقيا للدكتور زيلمر رياض ص ٩١ - ٩٣ .

بقطر . فتخفيا في زى الراهبان ثم أخذوا يطوفان البلاد المصرية ليستجديا . وقد ادعيا للشعب أنهما إنما يجعلان المال لانفاقه على الكنائس والأديرة . فتمكنا بذلك من جمع مبالغ طائلة . ثم قصدا إلى الحبشة وذهبا ليستجديا الأنبا بطرس . ولما كان الله تعالى قد منحه قوة الكشف عن السرائر فقد عرف خبيث ميثا ويقطر ، وطردهما شر طردة ، فأضمر له كلاهما سوء وصمما على الايقاع به . فزين لهما الوسواس الخداس أن يزيقا خطاباً باسم الأنبا قزما الثالث موجهاً إلى الأمير الحبشى الأكبر قالوا فيه : « لقد بلغنا أن أحد آبائنا العاقين - اسمه بطرس - ادعى أمامكم أننا أقمناء مطراناً على بلادكم الحبيبة إلينا . وهذا غير صحيح لأن الخطابات التى حملها إليكم باسمنا مزيفة أما المطران الحقيقى فهو حامل هذا الخطاب . وحالما يصلكم لخلعوا بطرس عن كرسيه وأقيموا ميثا مكانه . كذلك بلغنا أن هذا المطران الدعى قد وضع التاج على رأس أخيكم الأصغر متخطياً حقكم بوصفكم الابن الأكبر للملك الراحل . وهذا مسلك شائن إذ هو مسلك رجل يتجاهل حق البكرية . ونحن لا نرضى أبداً عن مثل هذا التصرف » .

وما أن زيف ميثا ويقطر هذا الخطاب حتى حملاه إلى الأمير الأكبر الذى كان عائشاً إذ ذاك فى عزلة راضياً بما حدث . فلما قرأ الخطاب المزيف صادف هوى فى نفسه ، ففسى أن المطران المتهم هو الذى رياه منذ طفولته وهو الذى اطمانت إليه الملكة فى كل ما أناه لها وللإمبراطور (زوجها) من خدمات . نسى الأمير الأكبر هذا كله ودفعته شهوة الحكم إلى أن يجمع رجال جيشه ويقرأ عليهم الخطاب المزيف . فتوهموا أنه من خليفة مارمقس بالفعل وثأروا ثورة عارمة على الأمير الأصغر (الذى هو ملكهم) ، وانتصروا عليه ، ونفوه هو والأنبا بطرس . ثم تولى الأمير الأكبر العرش ، وأقام ميثا مطراناً تنفيذاً لما جاء فى الخطاب المزيف .

على أن أسقفية ميثا لم تدم غير بضعة أيام ، فقد اختلف مع صديقه بقطر الذى استبد به الحسد فسرق كل ما أمكنه سرقته من مال الكنائس الحبشية وفر هارباً .

٦١٨- ولم تثبت أخبار هذا المسلك المعوج أن وصلت إلى الأنبا قزما الثالث فحزن حزناً شديداً ، وبعث على الفور برسالة مع مندوب أمين إلى الأمير الأكبر أبلغه فيها أنه وقع الحرم على مينا ويقطر لأنهما نصّابان . فلما قرأ الأمير رسالة البابا الاسكندري ثارت ثائرتة ، فاستل سيفه على الفور وأغمده في قلب مينا من غير تريث . ولكنه لم يستسمح الأنبا بطرس - بل لم يرجعه إلى مقر كرسيه . فأثبت بذلك أنه أرعن متهور . لأنه حين قرأ الخطاب المزيف لم يدع لنفسه مجالاً للتفكير في أسلوبه الذي لا يتفق وأسلوب الباباوات الاسكندريين ، ولا في أن الأنبا بطرس قد رياه بنفسه بناء على توصية أبيه ، بل اندفع إلى الحرب بدافع شهوة الحكم . ولم يتعظ بتصرفه الخاطئ في المرة الأولى ، بل استمر في رعونته ونهوره ، مكثفياً بقتل النصاب دون أن يحاول التكفير عن ذنبه في حق مطرانه الذي رياه وفي حق أخيه الأصغر . فأغضب بسوء مسلكه الأنبا قزما الثالث الذي رأى أن يعاقب الأحباش بأن رفض أن يرسم لهم مطراناً حين تتيح الأنبا بطرس . وقد نهج منهجه أربعة من خلفائه إذ رفضوا هم أيضاً أن يرسموا مطارنة على الحبشة . وهكذا ظلت الايباشية بلا راع أعلى يدير دفعتها مدة تقرب من ستين سنة ، إذ لم يقم عليها مطران إلا في عهد الأنبا فيلوثيوس البابا الاسكندري الثالث والستين (سنة ٩٧١ - سنة ٩٩٦ م) .

٦١٩- وعادوت المصريين المخاوف لأن الجيش الفاطمي الذي اضطر إلى الانسحاب سنة ٩١٤م أخذ يزحف على الحدود المصرية من جديد ونجح في الاستيلاء على الاسكندرية مرة ثانية سنة ٩١٩م . وامتلأت قلوب الاسكندريين فزعاً فهرىوا إلى الفيوم للمرة الثانية . وللمرة الثانية تعقبهم الجيش الفاطمي . وكان في زحفه الثاني أكثر بطشاً مما كان في زحفه الأول . فدمر الاسكندرية وخرب الفيوم . على أن المصريين رغم ما انتابهم من بلايا متلاحقة استطاعوا أن يغرقوا الأسطول الفاطمي الراسي في ميناء الاسكندرية . وبذلك انقطعت للمؤمن عن الجيش الظافر رغم انتصاره مما أدى إلى انتشار المجاعة والوباء بين جنده . فانتقم هاتان القوتان المدمرتان للمصريين من بطش الفاطميين . وحاول الجيش الفاطمي أن يقاوم هذه القوى التي تألّبت

عليه ، ولكنه لم يستطع واضطر إلى الانسحاب سنة ٩٢٠ م . ومن الأسباب التي شجعت الفاطميين على المقاومة ما رأوه من تحاسد ولاية مصر وتناقصهم إلى حد دفع البعض منهم إلى مساومة قادة الجيش الفاطمي ليمهدوا لهم السبيل إلى الاستيلاء على البلاد .

٦٢٠- ولقد قاسى المصريون الأهوال حتى يعد انسحاب الجيش الفاطمي ، وذلك لأن جند الولاية المتنافسين أخذوا يعيثون فساداً ، ويشيعون الخوف والفرع في القلوب بما يقتربون من سلب ونهب وقتل ، من غير تفريق بين مسيحي ومسلم . فلم يأمن شر هؤلاء الجند غير من كان لديه العدد الكافي من الرجال الأقوياء الأمانة ليدافعوا عنه وعن حرمانه (١) .

وطغى الحزن على قلب الأنبا قزما الثالث فلم يجد أمامه غير طريقتين : أولهما مداومة الصلاة والصوم ، وثانيهما زيارة شعبه وتفقد أحواله ليعزى القلوب المضطربة ويثبت النفوس الخائرة . ويبدو أن حزنه هذه المرة كان أقوى من أن يحتمل فتداعت قوته الجسمية ولم يلبث أن استودع روحه يدي الأب السماوي سنة ٩٢٣ م .

٦٢١- وعمت الشعب موجة من الحزن لفقدهم الراعى المعزى . ورأى الأساقفة أن ما يعانيه هذا الشعب من مخاوف وأحزان تستلزم سرعة التفاهم على انتخاب البابا الاسكندري ، إذ وجدوا الجميع منزعجين ومنطرحين كخراف لا راعى لها (٢) . وامتلات القلوب غبطة لما أبداه الأساقفة من رغبة في المبادرة إلى إقامة الراعى الصالح ، واستجابت لهذه الرغبة بفرح . فاتفقت كلمة الجميع على رسامة الراهب مكارى المقيم بدير الأنبا مكارى الكبير والذي اتخذ لنفسه هذا الاسم تيمناً به .

وقد ولد هذا الراهب في قرية اسمها شبرا بالقرب من الاسكندرية ، إلا أنه كان قد هجر منزل أبويه لينعم بسكون الصحراء ، ويسمو عن طريق هذا السكن لعله يبلغ للكمال المسيحي . وذاع عنه أنه راهب شديد التقشف كثير

(١) تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية) لماتثي لابين ببول ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) مرقس ٦ : ٣٤ .

التأمل ، وقد قربه هذه الصفات إلى قلوب جميع من عرفوه . ومن ثم قصد مندوبو الأساقفة والأراخنة إلى دير القديس مكارى الكبير ، وأمسكوا بالراهب مكارى لئلا يفلت منهم ، وأخذوه معهم إلى الاسكندرية حيث تلقاه الجميع بالألحان الكنسية الخاصة ، وساروا به لغورهم إلى كنيسة القديس مرقس وهناك أقسم البابا التاسع والخمسين من باباوات الاسكندرية سنة ٦٣٩ ش (سنة ٩٢٣ م) .

٦٢٢- وكان أول عمل قام به الأنبا مكارى الأول بوصفه البابا المرقسى هو رحلة راعوية ليفتقد شعبه ويعرف أحوالهم بنفمه ، ويعزى من كان منهم حزيناً مضطرباً . وفى أثناء هذه الرحلة مر بشبرا مسقط رأسه ، وقصد إلى البيت الذى قضى فيه طفولته . وحدث أن أمه كانت فى تلك الساعة جالسة أمام الباب تغزل فحياتها ، وردت هى التحية عليه دون أن ترفع نظرها نحوه . فقال لها : « سلام لك يا أمى . ألا تعرفين من أنا ؟ إننى ابنك ، وقد تركتك لأقضى حياتى فى الدير راهباً متعبداً ، ولكن النعمة الالهية قد محتلى أن أكون خليفة لمارمرقس كاروزنا الحبيب . » وعندها رفعت أمه عينيهما إليه فإذا بدموعها تنهمر كالسيل على خديها . فانزعج وسألها : « ماذا بك يا أماه ؟ ، أجابته : « لا شئ بى يابنى . » فازداد انزعاجاً وسأل فى شئ من اللهفة : « فلماذا تبكين إذن ؟ » أجابته : « إن الكرامة التى نلتها كرامة عظمى حقاً ، ولكن مسئولياتها غاية فى الخطورة . فأنت كنت مسئولاً عن نفسك فحسب حين كنت راهباً بسيطاً فى الدير . أما الآن وقد جلست على كرسى مارمرقس فقد أصبحت مسئولاً عن شعب الكرازة المرقسية . لهذا لا يسعنى إلا أن أبكى - ضارعة إلى الله تعالى الذى ائتمنك على هذه الوديعة أن يغمرك ببعثته فيمكنك من القيام بمسئولياتك الجسام ، . وامتز الأنبا مكارى الأول حتى الأعماق لكلمات أمه إذ تجلت أمامه حقيقتها ، ونقشها على قلبه فى الحال لأنه ظل يذكرها طيلة حياته فيجعلها حافزاً له على الجهاد دون ملل ولا كلال . فقضى حياته يعلم الشعب ويحثه على مداومة قراءة الأسفار الالهية وتعاليم الآباء . كما أنه - حين كان يجد ايبارشية شاغرة - يصوم ويصلى مستلهماً

الروح القدس فى اختيار من يصلح للجلوس على سدةها . وحينما تمتلئ نفسه ثقة واملئنا إلى أن الأب السماوى سيرشده ويهديه كان يصنع اليد على من يختاره بفرح روحى عميق (١) .

٦٢٣- وفى تلك الآونة اشتدت المنافسة بين الأمراء ، فكان كل منهم يحشد جنوده ضد الآخر ويترك لهم العنان ليسلبوا ويذهبوا ويقتلوا دون رحمة ولا تروى فنجاريت فى الوادى الأخضر أصداء الألم ، وترددت فى جميع أنحاء صيحات الحزن والفرح . لأن جند الأمراء المتنافسين لم يكتفوا بالقتل والسرقة ، بل أضافوا إلى هاتين الجريمتين جريمة إشعال النار فى الحقول . وكأن قسوة الانسان لم تكن كافية لارهاب المصيريين تماماً فانضمت إليها الطبيعة ، وأمطرت ذات ليلة عدداً كبيراً من الشهب تساقطت فى سرعة وحدة مما جعل الناس يتوهمون أن نهاية العالم قد اقتربت . ومن العجيب أن الانسان يزداد اقتراباً إلى الله تعالى حين تدهمه البلايا على حد المثل النارج ، زى البخارة ما يعرفوش ربنا غير ساعة الفرق . وقد دفعهم هذا الوهم إلى مضاعفة الصوم والصلاة إلى حد أن الكنائس والجوامع كانت تزخر بالناس حتى ساعة متأخرة من الليل .

٦٢٤- وقد استجاب الله تعالى الدعوات الحارة الصاعدة إليه من ألوف القلوب المتوجعة : استجاب ضراعة شعبه المصرى بأن فيض له والياً جديداً اسمه الأخشيد . فوصل هذا الوالى الرشيد إلى القسطنطين فى أغسطس سنة ٩٣٥م (سنة ٦٥١ ش) . وكانت مصر قد بلغت إذ ذاك حالة من الفوضى والارتباك تتطلب والياً ذا حزم وعزم ليعيد إليها هدوءها واستقرارها . ولقد أثبت الأخشيد أنه الرجل المرتقب ، فقد ثبت قواعد النظام وأعاد لمصر رخاءها خلال الاحدى عشرة سنة التى تولى فيها الأمور ، فأوضح بذلك أن سوء النظام والاشتباكات العنيفة إنما كانت نتيجة لتحاسد الحكام وتنافسهم ، لا لآى سبب آخر . وقد ساعد الأخشيد على بسط نفوذه ما كان يتميز به من قوة جسمية

(١) المسكسار الأثيوبى ترجمه إلى الانجليزية وليس بوردج ج١ ص ٧٣٦ .

خارقة ، فلم يكن بين ضباطه وجنوده من يستطيع أن يرفع سيفه أو يشد قوسه . وكان جيشه يتألف من أربعمائة ألف جندي ، منهم ثمانية آلاف كانوا يولفون حرمه الخاص . ومثل هذا العدد يبدو الآن ضئيلاً إلا أنه كان في القرن العاشر قوة لا يستهان بها . ومن ثم رأى الفاطميون أن يلازموا الهدوء في تلك الفترة ريثما تناح لهم فرصة أخرى ، ولكن أمراء البلاد الشرقية لم يتصفوا بهذه الحكمة فحاولوا أن يشقوا عصا الطاعة . وقد حارب الأخشيذ أحد هؤلاء الولاة الذي كان قد اغتصب حمص ، ودخل دمشق من غير أن يجد مقاومة تذكر . ثم اشتبك الجيشان في معركتين لم ينتصر فيهما أحدهما انتصاراً حاسماً . وأدرك الأخشيذ أن خصمه قوى الشكيمة ، فهادنه واتفق معه على أن يتنازل عن المنطقة الواقعة شمال رملة . مقابل جزية سنوية مقدارها أربعون ألف دينار . على أن هذه الحال لم تدم غير سنتين اثنتين فقط ، استعاد الأخشيذ بعدها سلطانه على كل سوريا الشمالية ودخل دمشق دون أن يرفع سيفه في وجه انسان (١) .

٦٢٥- ووسط كل هذا المد والجزر ، وتعاقب الفوضى والسلام ، عكف الأنبا مكاري الأول على الصوم والصلاة . ودعم أصوامه وصلواته بقيامه بزيارة راعوية ثانية . ومن نعمة الله أن السلام الذي وطد الأخشيذ أركانه قد ساعد البابا الاسكندري الجليل على تنمة زيارته هذه وهو هائل الجال . ورأى في هذه المناسبة المعيدة أن يذهب إلى برية شبيهية ، وقضى فيها بضعة أسابيع . وقد تهال قلبه إذ وجد عدد الرهبان يتزايد رغم الأحداث والضيقات . ولم يعكر عليه صفوه غير شعوره بما يقاسيه الشيوخ الساكنون في دير الأنبا يونس كامي من تعب واضطراهم إلى الذهاب للصلاة في دير الأنبا يونس القصير إذ لم تكن في ديرهم كنيسة . فقرر لساعته أن يبني لهم كنيسة في ديرهم ، وبدأ بالعمل فوراً . وبينما كان العمل جارياً عاد إلى مقر رياسته ليحتفي بصلوات عيد الغطاس المجيد . وما أن انتهى من تأدية هذه الشعائر

(١) تاريخ مصر في المصور الوسطى (بالانجليزية) لمتانلي لايين ببول ص ٨١ - ٨٢ ، مختصر تاريخ مصر (بالفرنسية) الجزء الثاني المبحث الثاني لجاستون قبيب ص ١٦٨ .

الرائعة حتى عاد إلى شيهيت ثانية ليكرس كنيسة دير الأنبا يؤنس كامى لأنها كانت قد تمت ودعاها باسم السيدة العذراء .

٦٢٦- ولما رأى البابا الاسكندري السلام منتشراً في الريع المصرية ، انشغل فى بناء عدة كنائس . وقد تجاوب الشعب مع باباه فكان يتقاطر على الكنائس التى ضاقت جميعها بجماهير المصلين .

وهكذا بدأت باباوية الأنبا مكارى الأول بالعواصف وانتهت بالسلام والطمانينة .

وقد قمنى غبطته فى رعاية للشعب المصرى عشرين سنة جاهد خلالها الجهاد الحسن لأنه لم ينس قط كلمات أمه ودموعها التى استقبلته بها فى مستهل باباريته (١) .



(١) تاريخ البطارقة مخطوط نقله للقمص شفودة للإرموسى عن النسخة الموجودة فى دير ج١ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .



استغل القاهريون عيد وفاء النيل للترفيه عن أنفسهم فانتشر المنشدون
والشعراء في القهوات التي أقيمت على جانبي القناة .
وما هو ، الشاعر ، وفرقته يغنى ملاحمه على الرياضة

فترة قائمة

(٦٢٧) التسرع في انتخاب الأنبا ثيوفانيوس .	(٦٢٠) الرخاء والسعادة يسودان البلاد بهتما تكتب الكنيسة في راعيها الأعلى .
(٦٢٨) ضعف قواء الجسمية والعقلية .	(٦٣١) نياحة الأنبا ثيوفانيوس وهو في مركب تحمله إلى القسطنطينية .
(٦٢٩) شقة ثيابه وانتشاق كهنته عنه .	

٦٢٧- دخلت السدة المرقسية بانتقال الأنبا مكارى الأول إلى مساكن
النور . فسارع الأساقفة والأرلخنة إلى انتخاب خليفته دون تردد . وبدلاً من أن
يقصدوا إلى الأديرة للتشاور مع رؤسائها في خير الرهبان الجديرين بالجلوس
على هذه السدة الجليلة ، وقع اختيارهم على راهب كهل في الاسكندرية اسمه
ثيوفانيوس ، ظناً منهم أن الشيخوخة قد أكسبته حكمة . ورسمة الأساقفة
للخليفة الستين للقدس مرقس البشير على الفور .

٦٢٨- وما كاد هذا البابا يعلى الكرسي المرقسى حتى تبين لمنتخبه أنهم
أخطأوا الاختيار ، لأن الأيام الكثيرة - بدلاً من أن تكسبه حكمة ورصانة -
أضعفت قواء الجسمية والعقلية . فكان لهذه المفاجلة في نفوس المؤمنين أسوأ
الأثر ، وزاد القلوب حزناً أن البلاد في تلك الآونة كانت ترتع في سلام شامل
كان من الممكن الاستفادة منه لو أن الفائز بالكرسي المرقسى كان من الحكماء
الروحيين .

٦٢٩- وكان الأنبا ميخائيل الثالث (للبابا الاسكندري الـ ٥٦) قد تعهد
لأبائته الاسكندريين بأن يدفع لهم ألف دينار سنوياً مقابل بعض الأوقاف
الخاصة بهم كان قد باعها سداً للصربية المقروضة عليه (١) . وقد استمر
خلفاء الأنبا ميخائيل الثالث محافظين على ما تعهد به . فلما جاء الأنبا

(١) انظر ص ٥٨٨ .

ثيوفانيوس ذكره الاسكندريون بالدين الذى جرى أسلافه على دفعه . ولم يكن يملك من المبلغ شيئاً ساعة أن ذكره الاسكندريون به . فبدلاً من أن يفرض على مطالبه امهاله حتى يتمكن من جمعه فاجأهم بالرفض الذى لم يكونوا ليوقعونه من أبيهم الروحي . فثارت ثائرتهم ، وانفقوا بحدّة هذه الثورة متناسين ما يجب عليهم من احترام نحو بابائهم وقالوا له : « إن الكرامة التى نلتها إنما ترجع إلى أننا أولينا ثقتنا واخترناك لرعايتنا . فأنت مدين لنا بهذه الكرامة . فإن لم تدفع لنا المال الذى تعهد بدفعه خلفاؤك فلا أقل من أن تعيد لنا كرامة الكهنوت التى نلتها بانتخابنا إياك » . وما كاد الأنبا ثيوفانيوس يسمع هذه الكلمات حتى فقد ادراكه إلى حد جعله ينسى عظمة الكرامة التى نالها ، وينسى الوقار الذى يجب أن يتجمل به ، وقال فى حدة : « إن كنتم مصممين على استعادة ما أوليتموني من كرامة فخذوها لأنى لست فى حاجة إليها » . وخلق الاسكيم للمقدس والثوب الكهنوتى ورمى بهما فى وجوه المجتمعين حوله . وفى تلك اللحظة عيها زالت عنه النعمة الالهية ، وانشق كهنوته كما انشق كهنوت قيافا حين شق ثيابه وهو يقوم بتمثيل دور القاضى ليلة أن حكم على الرب يسوع (١) . وقد أدى زوال النعمة الالهية عنه إلى أن يداخله الخبل مما اضطر المسؤولين فى الكنيسة إلى تقييده بالسلاسل .

٦٣٠ - ومقابل هذه الصورة - صورة الكنيسة المتشعبة بالحزن والألم لما أصاب راعيها الأول من خبل - كانت صورة مصر ساطعة مصيبة . فقد كان الأخشيد ممسكاً بزمام البلاد ، وكان شديد الولع بالبناء ، ولو أن ما شاهده من قصور متيقة قد زال كله . كذلك كان ميالاً إلى الاحتفال بالأعياد والمواسم . بل لقد بلغ ميله إلى هذه الاحتفالات حداً جعله يشترك مع القبط فى أعيادهم ، ويأذن بإقامة المواكب الفخمة بمناسبةها . ومن أهم الأعياد التى كان الأخشيد يحتفى بها عيد الفطاس المجيد الذى عده المصريون جميعاً عيداً عاماً ،

(١) متى ٢٦ : ٦٥ ، ويطلق الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين فى كتابه تاريخ البطارقة بقوله فى هامش مکتوب بالمداد الأحمر : « هذا هو الذى نخلت عنه للتسعة الالهية » .

واشتركوا فيه مسيحيين ومسلمين . فقد أمر هذا الوالى الرشيد بإيقاد ألف مشعل على كل من صنقى الليل عند القسطنطين - وكانت هذه المشاعل بالاضافة إلى المشاعل الخاصة التى كان الأهالى يوقدونها فى تلك الليلة العظيمة ، إذ كانوا يخرجون بجمعهم إلى الليل فيركبون المركب أو يزحمون فى الأكشاك التى كانوا يقيمونها خصيصاً لهذه المناسبة . وكان الجميع يتبارون فى تلك الليلة فى الأبهة : فليس كل منهم أفخم ما عنده من ثياب وأندر ما لديه من مجوهرات . وكانت الألوان الزاهية تملزج بشذى العطور الزكية ، فيحملها الريح مع الأنغام الموسيقية التى يرن صداها من صفة إلى صفة . وإلى جانب كل هذه المظاهر المعبرة عن توافق الأمزجة وانسجام الطبائع ، كان المعيدون يشتركون فى الاستمتاع بالغناء والرقص على ألحان الموسيقى ، ويستمترون فى لهوهم وسمرهم حتى مطلع الفجر . فكانت ليلة الغطاس - فى ذلك العصر - أشبه بالأحلام منها بالحقائق ، تسعد فيها النفوس ، وتتقارب القلوب . فكان النهر الخالد قد سحر الجميع وحمل إليهم أصداء الأعياد الصحيحة فى القدم ، التى طربت لها قلوب المصريين فى عصور الفراعنة ، فجاءوا من جديد يترافسون على ضفاف هذا النهر الذى كانوا يحبونه ويتجاوبون الأناشيد فوق مياهه ويسعدون بالاصغاء إلى هديره .

ولم يكتف المصريون فى تلك الليلة بكل هذه الوسائل للتسلية ، بل أن غالبيتهم كانت تستحم فى النيل اعتقاداً منهم بأن لمياهه قوة الشفاء واسباغ الصحة والعافية ومثل هذه اللذائى تبين لنا بوضوح ما كان يسود مصر وقتذاك من طمأنينة ورخاء . لأن الشعب المعذب المضطرب ليس لديه من الوقت ولا من هدره البال ما يمكنه من الاستمتاع بأى عيد - فاهيك عن الاسراف فى تنسيق هذا الاستمتاع .

وفى هذه الفترة السعيدة لم ينصب الانتاج الفنى القبطى على مصر وحدها بل نصبت ثماره فى المدن الخمس من بينها بلدة أجيدابيا التى قيل عنها بأنها مدينة كبرى قائمة فى وسط الصحراء ، وبها جامع بديع الصنع ذو مدفنة مثمنة ، وبها أيضاً حمامات وأسواق عديدة ورفنادق .

ويعيش أهلها فى رخاء وغالبيتهم من القبط (١) .

٦٣٦- ووسط هذا السلام الشامل اتفقت كلمة الأساقفة على أن يجتمعوا للتشاور فى أمر الأنبا ثيودوقانيوس . قرأوا أن يحملوه إلى القسطنطينية لمرضه هناك على بعض الأطباء الذين يقفون فى علمهم وإخلاصهم . ومن ثم وضعوه فى جوف مركب صوفاً له ، كى لا يرى أحد من الشعب ما عراه من خبل . وبينما كانت المركب تمخر عباب النيل ، أخذ هذا البابا المريض يصرخ ويجثف ، ويرغى ويزيد . ويبدو أن صراخه كان عذيقاً بحيث أنهك قواه ، فسكت فجأة . وكان سكوته هذا صممت للموت الذى تسلى إليه وسلبه الحياة ليحصى بجلاله وجلال الكهنوت . فكانت يد الموت القاسية يداً رحيمة فى هذه المرة ، دعت بالبلمس قلوب المؤمنين للمتوجعين لما أصاب راعيهم الأول . وكانت أيام هذا البابا التاسع أربع سنين وسنة أشهر (٢) .



(١) كتاب البكرى فى وصف أفريقيا الشمالية ترجمه إلى الفرنسية ماكجوكين دى سلاين طبعة ١٩١٣ ص ١٦ - ١٧ .

(٢) تاريخ بطريركة الكنيسة المصرية للأبنا ساويرس أسقف الأشمونين ترجمه إلى الانجليزية بى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأوسولد برمستر ، طبعة جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٤٨ - للمجلد الثانى - الجزء الثانى - ص ٨٣ - ٨٤ .

جندى مجهول

- (٦٢٢) « عوض يارب من له تعب فى ملكوت السموات » -
 (٦٢٥) تاريخ باباوات الاسكندرية وغيره من الكتب .
 (٦٢٣) ساويرس أسقف الأشمونين (٦٣١) ميامره .
 (٦٢٧) ساويرس صورة حية للكنيسة بطل مجهول .
 (٦٢٤) مؤلفاته تشهد بسعة تفكيره . القبطية .

٦٣٢ - إن الكنيسة القبطية قد آمنت منذ العصر المسيحى الأول بالفضائل التى علمها اياها الفادى الحبيب ومنها فضيلتا التواضع وانكار الذات . ويبدو هذا الايمان فى الآثار الفنية المختلفة عن العصور الأولى - فهى لا تحمل اسماء مبتكرىها ولا صانعيها . وقد اكتفى مؤلفو الكتب ، وبناة الكنائس والأديرة ، والفنانون والمهندسون ، وغيرهم بالدعاء إلى رب الكنيسة قائلين : عوض يارب من له تعب فى ملكوت السموات ، (١) . كأنما هذه الكلمات هى امضاءاتهم ، إذ قد اعتاضوا بها عن توقيع اسمائهم على ما أنتجوه ، عملاً بقول رب المجد بالجهاد فى الخفاء (٢) . وليس ذلك فحسب ، بل أنهم لم يضعوا تواريخ على أعمالهم ، وكأن وحدة الأجيال قد ملأت عليهم عقلمهم الباطن فجعلتهم ينسون معنى الزمن . وهذا الاغفال للاسماء والتواريخ لم يكن شيمة الفنانين والصناع وحدهم ، لأن هناك العدد الوفير من الأساقفة ذكر التاريخ اعمالهم ولكنه أغفل سيرهم . فكانوا أشبه بيوحنا المعمدان الذى أجاب سائليه عمن هو بقوله إنه « صوت صارخ فى البرية » (٣) . مقدماً عمله على شخصيته .

٦٣٣ - وبين هؤلاء الساعين نحو الكمال المتفانين فى خدمة الكنيسة الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين الذى اشتهر بكتابه الشيق عن بطاركة

(١) الكنائس القبطية القديمة فى مصر (بالانجليزية) لألفريد بطلر مقدمة للجزء الأول .

(٢) متى ٦ : ٨ -

(٣) يوحنا ١ : ١٩ - ٢٣ .

الكنيسة المصرية . ومن الطريف أن كتابه هذا لم يطبع بالعربية فحسب ، بل طبع باللاتينية والانجليزية أيضاً . وقد اختلف الباحثون فى التواريخ الكنسية على عدد الكتب التى ألفها ، فقال الأنبا ميخائيل أسقف تليس (١) أنه وضع عشرين كتاباً عدا الميامر وتفسير الكتب الالهية التى وضعها فى قالب سؤال وجواب . أما ابن كبر (٢) فقد قال إن كتبه بلغت ستة وعشرين . فى حين أن جراف المستشرق الألمانى قد وازن بين ما ذكره هذان الباحثان وبين ما قاله غيرهما ممن عنوا بالبحث عن مؤلفات الأنبا ساويرس ، واستنتج من هذه الموازنة أن عدداً كبيراً من مؤلفاته قد ضاع أو ما زال مخبوءاً فى احدى الزوايا المجهولة .

٦٣٤- ونظرة واحدة تلقى على مؤلفات هذا الأسقف العلامة كافية لأن نرى ما بلغه من سعة التفكير وتنوع الموضوعات التى عالجه .

٦٣٥- على أن أشهر مؤلفات الأنبا ساويرس (لأنه أكثرها تداولاً) هو كتابه عن باباوات الكنيسة المصرية . وقد قال فى مقدمته ما يلى : « بعد دراسة المؤلفات التى وضعت عن الباباوات الاسكندريين المتداولة بين الأيدى والمحفوظة فى أديرة الأنبا مكارى الكبير ونهبيا وغيرهما ، هيات لى العناية الالهية الفرصة لأن أجمعها كلها فى كتاب واحد . وقد شاء الآب السماوى أن يمد فى عمرى حتى لقد بلغت التسعين فاستطعت بهذه النعمة أن أتمم وضع هذا الكتاب » . وقد جمعه عن المخطوطات القبطية واليونانية إذ كان يجيد اللغتين .

أما الكتب الأخرى التى وضعها الأنبا ساويرس فهى :

١- كتاب التوحيد .

(١) كانت تليس أسقفية من عهد الأنبا بطرس خاتمة للشهداء (البابا الاسكندرى الـ ١٧ سنة ٢٨٥ - سنة ٢٩٥ م) . أما الأسقف الذى نحن بصدده فكان معاصراً للأنبا شجرة الثانى (البابا الاسكندرى الـ ٦٥) ، وقد كتب سورة عشرة من باباوات الاسكندرية مبتدئاً بالأنبا ميخائيل الثالث (البابا الاسكندرى الـ ٥٦) .

(٢) هو العلامة الشيخ الأجل شمس الرياسة ابن الشيخ الأكمل الأسعد المسمى بابى البركات المعروف بابن كبر فليس كنيسة المعطة للموتى سنة ١٠٤٠ هـ (سنة ١٣٢٣ م) .

- ٢- كتاب الاتحاد .
- ٣- كتاب الباهر - وهو مجموعة الأجوبة التي رد بها على ما وجهه إليه اليهود من أسئلة عن الدين المسيحى .
- ٤- الشرح والتفصيل - ويتضمن تنقيده للبدعة النسطورية .
- ٥- كتاب عن الدين وجهه إلى أبى اليعن قزمان بن مينا كاتب ديوان وإلى مصر .
- ٦- كتاب نظم الجواهر الذى رد به على القائلين بالقضاء والقدر .
- ٧- كتاب طب الغم وشفاء الحزن الذى وضعه لتعزيزية المكومين .
- ٨- كتاب المجالس .
- ٩- كتاب المجامع .
- ١٠- كتاب شرح دستور الايمان (بالحقيقة نؤمن بإله واحد ...) وعنوانه ، تفسير الأمانة .
- ١١- كتاب التبليغ - وقد فند فيه مزاعم اليهود .
- ١٢- كتاب الردود على سعيد بن البطريق بطريرك الملكيين .
- ١٣- كتاب فى تربية أولاد المؤمنين وأولاد غير المؤمنين .
- ١٤- كتاب مصباح النفس فى التعامل الروحية .
- ١٥- كتاب الأقوال النفيسة .
- ١٦- كتاب الاستبصار .
- ١٧- ترتيب الكهنوت الاثنى عشر طقوس للبيعة .
- ١٨- الأحكام - وهو خاص بالأحكام الكنسية .
- ١٩- إيضاح الاتحاد - وهو شرح لمعقيدة الكنيسة القبطية فى التوحيد والتثليث .
- ٢٠- تفسير الأناجيل الأربعة .

٢١- كتاب رد به على كاتب يدعى بشرين جارود ، وقد وضعه في قالب السؤال والجواب .

٢٢- شرح أصول الدين وترتيب الخدمة للبخور ورسم الصليب ونسبة السيدة (١) .

٢٣- البيان المختصر في الايمان .

٢٤- المثالات والرموز .

٢٥- التعاليم في الاعتراف بالذنوب .

٦٣٦- ومن الأدلة الساطعة على صحة ما ذهب إليه جراف ما قاله الأنبا ساويرس نفسه . فقد وضع هذا الأسقف الأشموني كتاباً عن المجامع في جزئين ، ذكر في الجزء الثاني منه بأنه سيكتب بالتفصيل عن أزلية الكلمة المتجسد رداً على اليهود والأريوسيين وجميع من يزعمون أن الابن مخلوق . ولم يعثر الباحثون للآن على هذا الكتاب - كذلك وعد الأنبا ساويرس - في الكتاب عينه - بشر تفسير للآيات الغامضة الواردة في ما ذكره موسى النبي عن الخليفة . وهذا أيضاً لا نرى أثراً لهذا التفسير الموعود به . وقد يتساءل البعض : ألا يمكن أن يكون الوقت قد أعوز هذا الأسقف العلامة فلم يتمكن من تنفيذ وعوده ؟ قد يكون الأمر كذلك . ولكن أغلب الظن أنه كتب هذه المؤلفات التي وعد بها لأنه اعترف بأن الله تعالى أمدّ في حياته ، ولأنه كان كاتباً خصب الانتاج . وقد يكشف المستقبل عما لم يبيع به الحاضر ، أو قد تظل هذه المؤلفات طي الخفاء حتى النهاية وعلى أية حال فهذا الأب العامل قد قدم انتاجاً فكرياً ضخماً يليق بالقبط الآن أن يطبعوه وينشروه على الملأ ، لكي يعرف الجميع أن هناك موضوعات شغلت المفكرين من أبناء هذا الوادي العتيق منذ عشرة قرون وهي لا تزال للآن موضع البحث والتفتيح كالموضوع الذي يعالجه الأنبا ساويرس عن طب الغم المحفوظ بدير السريان . فهذا الكتاب يدور

(١) المقصود هنا ، بنسبة السيدة ، هو نساب السيدة العذراء ، إذ قد أورد في آخر هذا الكتاب أسلاف أم الثور .

حول الآلام النفسية ووسائل علاجها ، فهو - والحالة هذه - كتاب عن علم النفس الذى يقوم الكليدون أنه من العلوم العصرية .

والى جانب هذا ، الكتب فقد ووضع الأسقف الأشمونى عدة مقالات وهى :

١- دهن المسيح بالطيب بيد مريم الخاطية فى بيت سمعان الأبرص الفريسي ومريم أخت لعازر .

٢- تطبيق على قول السيد المسيح ، السماء والأرض تزولان ولكن كلامى لا يزول ، (متى ٢٤ : ٣٥) - خطه اسحق بن فضل الله .

٣- مخطوطة محفوظة فى المكتبة الأهلية ببائس رقم ٤٩ منسوبة إلى الأنبا ساويرس علوانها ، تنبيه للكهنة ، لم تنشر بعد ، وبالتالى لا يعرف ما تتضمنه كما أنها لم تدرج فى كشف مؤلفاته .

٦٣٧- ويحصى المؤرخون هذا الأسقف الجليل ضمن المعاصرين للأنبا مكاري الأول البابا الاسكندرى التاسع والخمسين ، وذلك لأن اسم الحبر الأشمونى قد ورد فى مقننة أسماء الأخبار الموقعين على رسالة الشركة التى بعث بها هذا البابا الاسكندرى إلى مار ديونيسيوس بطريرك أنطاكية . واستناداً إلى هذه الحقيقة يكون الأنبا ساويرس بن المقفع من رجال القرن العاشر . ولا توجد معلومات أخرى عنه ، لأنه - على الرغم من أنه قد وضع كل هذه المؤلفات - لا يوجد كتاب واحد عنه ، ولا يزال الباحثون يجهلون أين ولد ، وكيف نشأ ، ومتى دخل الدير ، وفى أية سنة نال كرامة الأسقفية . وإن عدم معرفتنا لسيرة الأنبا ساويرس رغم وجود مؤلفاته بين أيدينا حتى الآن لتجعل منه صورة حية ناطقة للكنيسة القبطية التى أنجبته فخدمها بأمانة . إنه صورة للكنيسة المجيدة المجهولة حتى من أبنائها مع أنها حملت الشعلة منذ العصر المصيحى الأول ، وما زالت تحملها ، وستحملها إلى آخر الدهور بإذن الله (١) .

(١) راجع مقال الأستاذ يسى عبد المسيح عن ساويرس بن المقفع ، نشره فى رسالة مارمينيا الصادرة فى الاسكندرية سنة ١٩٥٠ تحت عنوان : صور من تاريخ القبط ، ص ١٨٥ - ٢٠٩ .



صفحة من سنكسار يرجع تاريخها إلى سنة ٨٩٥م

ويجدر الإشارة هنا إلى أن الغالبية للعظمى من المخطوطات والايقونات وغيرها من الأعمال الفنية والعلمية لا تحمل تاريخاً ولا اسماً . وكان الفنانون والعلماء والصناع يكتبون بكتابة « عوض يلرب من له تعب في ملكوت السماوات » . فهذا السنكسار نادر في ما حمل من تاريخ . وهو الآن محفوظ بمكتبة بيربونت مورجان بنيويورك .



٦٢٨- مهتد حمل المصباح

٦٢٨- والمعجب أن الجنود المجهولين يشملون بين صفوفهم أفراداً لم يكونوا مسيحيين منذ حداثتهم ، وأحد هؤلاء هو عبد المسيح الاسرائيلي المتنصر . وليس لدينا أية معلومات عن هذا الرجل إلا الكتب التي كتبها ، فهو قد حمل المصباح عالياً ليثير الطريق أمام الآخرين لملأ في أن يعرفوا الحق الذي عرفه هو . وفي هذا السبيل كتب أربع مقالات هي :

١- مقالة في إثبات مجئ السيد المسيح .

٢- مقالة في النفس .

٣- مقالة في الرد على اليهود .

٤- مقالة في انتصار الصليب على اليهودية والوثنية .

وقد عثر بول سبات على هذه المقالات وهو يدأب على البحث عن الكتب العربية التي كتبها المسيحيون . وخلال هذا البحث تمكن من شراء ألف وستمئة مؤلف وعرف بأن هناك مؤلفات لدى غيره من الهواة والباحثين . ومقالات عبد المسيح المذكورة آنفاً موجودة في مكتبة ورثة كركور صايغ وهي ما زالت مخطوطة فحسب لم تطبع ولم تنشر (١) .

وهكذا يتكشف لنا - كلما أمعنا في البحث - أن عدد الجنود المجهولين يزداد . فواجبنا أن نحبههم ونعترف بأفضالهم عالمين أن أجرهم محفوظ لدى عالم الخفايا .



(١) عن مقال ، مخطوطات عربية لكعبة قبط ، (بالفرنسية) لبرل سبات نشره في مجلة جمعية الآثار القبطية العدد الخامس (القاهرة سنة ١٩٣٩) ص ١٦٦ - ١٦٧ .

بعض العادات والرموز

أولاً : العادات :

إن الجماعات كالأفراد لها طابعها للشخصى الذى يميزها والذى يساعد الباحثين عن تعرفها إلى فهم دوافعها . فما هو الطابع العصرى الذى يمكن بواسطته الاستدلال على دوافعه ؟ إنه ولا شك حرصه على التقاليد وبخاصة ما يتعلق منها بالدين لأن الميل إلى الروحيات ميزة أصيلة فيه . فيحسن بنا أن نعرف ثمار هذه النزعة الروحية المتأصلة فيه منذ العصور السحيقة فى القدم . وتنعكس هذه النزعة فى العادات التى اعتاد القبط ممارستها جيلاً بعد جيل . وأهم هذه العادات هى :

أ - المواظبة على قراءة الكتاب المقدس يومياً إلى حد أنهم كانوا يقرأونه بأكمله من الأصحاح الأول للتكوين حتى الأصحاح الأخير للرؤيا خلال الصوم الكبير - السابق لعيد القيامة المجيدة . ولمواظمتهم على هذه القراءة كان فى إمكانهم تلاوة أجزاء كثيرة منه غيباً كما كان فى إمكانهم معرفة مكان أية آية يريدون الاسترشاد بها .

ب - المواظبة على الصلاة بالأجبية (١) - فإن لم يتمكنوا من الصلاة فى الساعات المحددة كنسياً كانوا يجمعون بين صلاة ساعتين أو أكثر فى الوقت الذى يتحيفون به ولما كانت تلاوتهم لهذه الصلوات مستمرة فإنهم كانوا يحفظونها غيباً ولذلك كان فى إمكانهم تسميعها حينما اتفق وجودهم .

ج - تكريس ركن معين من البيت يضعون فيه أيقونة أمامها قنديل - وذلك لقرضين أساسيين أولهما أن يكون هذا الركن منبهاً لهم إلى الحياة الروحية التى يجب عليهم السعى نحوها يومياً . وثانيهما أن يجد كل من فى البيت ركناً مختاراً يستطيع الالتجاء إليه فى أية ساعة - ليلاً أو نهاراً - ورفع صلواته إلى الله .

(١) : قصة الكنيسة القبطية ، ج ١ من ٤٧٠ .

د- احترام للقريان - كان احترامهم للقريان بالغاً فعبروا عنه بوسيلتين : الأولى أنهم كانوا يعتبرون أولادهم بن طليبا ، شراء ، القريان قائلين : إن القريان لا يشتري . فحن نأخذ للقريان . أما ما نعطيه للقرابنى فهو عطية أيضاً . فالأخذ والاعطاء بخصوص للقريان ليس سوى نوع من التعاون الاجتماعى ، والثانية هى أنهم لا يقضمونه قضمًا وإنما يقطعون لقمة فى حذر لكى لا تسقط فتتلف منها على الأرض ويأكلونها ثم يقطعون غيرها . وقد بلغ حرص البعض أنهم يضعون للقرانة فى صندوق لكى يجمعوا للفتات المتساقط منها فى النهاية ويأكلونه .

هـ- الذهاب إلى الكنيسة من غير تناول أكل إطلاقاً حتى إذا كان المؤمن غير عازم على التناول من الأسرار الالهية - وهذا أيضاً تعبير عن احترامهم لبيت العبادة والشعائر التى سيحضرونها . لأن الامتناع عن الأكل يتضمن تهيلة للروح وتقويتها . ولهذا السبب جرت عادة ما زال معمولاً بها فى بعض الجهات هى ، الأغابى ، أو وجبة للمحبة - وهذه وجبة يتناولها المصلون جميعاً بعد الانتهاء من القداس الالهى فى قاعة ملحقة بالكنيسة . وتتناوب العائلات - كل بدورها - اعداد للطعام لهذه الوجبة وتقديمه للكنيسة . فيشارك الجميع فى الغذاء للجسد بعد أن يكونوا قد اشاركوا فى الغذاء الروحى . وليس ذلك فحسب بل أن الاشتراك فى مائدة واحدة تعبير عن تقارب الناس بعضهم إلى بعض والشعور بأنه لا فرق بين غنى وفقير . فكانت ، الأغابى ، صورة من الاشتراكية وفرصة للتأخى .

ثم إنه كان من الشائع إطلاق اسم « قاعة العرسان » على القاعة الملحقة بالكنيسة ، وذلك لأنها لم تكن مجرد قاعة للطعام بل كانت المنتدى الذى يتسامر فيه المجتمعون بعد الأكلة المشتركة ويأتسون بعضهم ببعض فكانت هذه القاعة بمثابة للنادى أو الجمعية فى وقتنا الحاضر . وكانت العائلات يتقاربها وتلطفها عدد التلاقى فيها تزداد معرفة وارتباطاً ينتهى أحياناً إلى المصاهرة . وحينما يخطب الشاب يتقابل مع خطيبته فى تلك القاعة فيشعر كلاهما بقدسية الرباط المزمعين عقده . وزيادة فى توكيد هذه القدسية

يتناول الخطيبان من الأسرار المقدسة معاً في صباح يوم الاكليل (١) أو قبله
بيوم .

ومن وسائل التقارب أيضاً أن ذوى اليسر لم يلبسوا في الكنيسة
الملابس الفاخرة ولا المجوهرات الجذابة بل كانوا يرتدون ملابس بسيطة
محتشمة .

و- ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن المتناولين من الأسرار المقدسة لا
يركعون بعد تناول ويرجع ذلك إلى أن كنيسة القبطية تعتقد أن الخبز والخمر
يتحولان تحولاً فعلياً إلى جسد الرب ودمه الأقدس . وكما أن الشخص حينما
يكون حاملاً شخصاً آخر لا يستطيع الركوع كذلك المتناول لا يركع لأنه يحمل
السيد المسيح في داخله . ولا يجوز عمل مطانيات (٢) بعد للتناول لأن للنفس قد
تهللت باتحادها بمخلصها فلا تحتاج إلى تذلل لأنه خلصها من أدرانها وسما
بها إلى ما فوق . لذلك يحرصون كل الحرص على أن لا يبصقوا وعلى أن لا
يأكلوا ما يضرهم إلى اخراج شيء من أفواههم فلا يصون القصب مثلاً ، كما
يحرصون على تجنب كل ما قد يسبب جرحاً أو خشاً في يوم تناول . ويرجع
ذلك إلى اعتقادهم الراسخ بأن المسيح له المجد يتخلل كل ذرة من أجسامهم لا
من أرواحهم فقط . وبهذا الايمان يحلو لهم أن يلبسوا الملابس البسيطة عند
التناول (٣) إلى حد أن بعض السيدات المتقدمات في السن كن يخططن ثوباً
أبيض يرتدينه فوق ملابسهن قبل تناول مباشرة .

وقبل الانتهاء من الحديث عن العادات يحسن الإشارة إلى عادة آخذة في

(١) كناية عن عقد الزواج .

(٢) أى الاستغفار المضمن للثوبة الحقيقية .

(٣) أتاحت لى نعمة الله الفرصة للذهاب إلى الهند في فبراير سنة ١٩٦١ فلنتهزت فرصة وجودى
هناك لزيارة كوتابام عاصمة الكنيسة الأرثوذكسية الهندية التي أسسها توما الرسول في تلك
البلاد . فرأيت بعينى أن السيدات والرجال جميعاً يرتدون الملابس البيضاء عند ذهابهم إلى
الكنيسة - حتى العزائى منهم الذين يرتدون الملابس السوداء يستبدلونها بالبيضاء ما عتقد
فيكون منظرهم جميلاً حقاً وهم وقوف صفاً خلف صف لأن للكنائس الهندية تخلص من المقاعد
ما عدا القليل الموضوح إلى جانب الجدران للشيوخ والضعفاء فقط .

الزوال وهي تخصيص أماكن في الدور الأعلى للسيدات . وبالبحث في هذا الموضوع اتضح أن هذه الأماكن العليا في الكنائس الأثرية كانت لحماية السيدات . ذلك أنه في العصور الوسطى لم تكن المدفلة مكفولة ولا الأمان مستقراً . ومتى كان الولي ظالماً كان يأمر جنوده بالهجوم على الناس حتى وهم يصلون في الكنيسة . فرأى القبط - صوناً لسيداتهم - أن يخصصوا لهم أماكن عالية لها ممرات مؤدية إلى المنازل مباشرة . فلا تحتاج السيدة إلى النزول لصحن الكنيسة ولا إلى السير في الشارع كي تذهب إلى الكنيسة أو تعود منها . وكان هناك أشخاص مخصصين للحراسة . فإذا ما رأوا الجند آتين من بعد أعطوا الإشارة فتنسحب السيدات في سكن إلى الممرات المؤدية إلى بيوتهن في أمان وسلام .

ثانياً : الرموز :

وليست العادات بالمرآة للوحيدة التي تعكس الطابع المصري للخاص بل أن الرموز التي تزرع بها الكنيسة هي أيضاً مما يعكس . والرموز وسيلة حسية سهلة تقرب للأذهان الحقائق الروحية لللا - حسية . ولقد استعان بها أبائنا حتى من خلال أبنية الكنائس وألوانها والملابس المستعملة فيها . فالأعمدة مثلاً ترمز إلى الرسل وإذا تأملنا الأعمدة المقامة في الكنائس الأثرية لاحظنا أنها كلها مزخرفة ما عدا عاموداً واحداً بينها . وهذا العامود لا يشذ عن البقية في تجرده من الزخرفة فحسب بل في المادة المصنوع منها أيضاً أو في لون طلائه . ففي كنيسة القديسين سرجيوس وواخس (أبي سرجة) بمصر القديمة نجد العامود الشاذ مصنوعاً من الجرانيت المحمر في حين أن الأعمدة المزخرفة مصنوعة من الرخام الأبيض فما السبب لهذا للتباين ؟ إنه يتلخص في أن العامود المغاير للآخرين يشير إلى يهوذا الاسخريوطي . وما من كنيسة قديمة تخلو منه . ولقد حرص الأولون على وضع هذا العامود لأن الآباء علمونا أن خطية يهوذا ليست في أنه سلم المسيح بقلته الخائنة بل في أنه بعد خيانتته يس من رحمة المسيح وشدق نفسه - أي أنه لم يندم للثيرة بل ندم إلى اليأس . ولو أنه ندم إلى التوبة ورجع إلى المخلص وطلب منه المغفرة لنالها

من غير شك كما نالها بطرس بعد انكاره المثلث . وفى هذا للمعنى يقول لنا الأنبا باخوم أبو الشركة : « ليست خطية بلا مغفرة إلا التي لا يثاب عنها » .

وتمتد الرموز من بناء الكنيسة إلى الأواني الكنسية - فالشورية مثلاً رمز إلى السيدة العذراء ، والنار المشتعلة دلخها هي نار لاهوت الابن الكلمة المتجسد منها ، والقبة التي تعلوها رمز للروح القدس الذى ظلل السيدة للعذراء كما أعلن لها الملاك .

كذلك تشمل الرموز أغطية المذبح - فالبروسفارين الذى يغطى الكرسي (الصندوق المحتوى على الكأس) رمز إلى الحجر الذى وضع على باب القبر المقدس ، والقفافة الموضوعة فوقه هي الختم الذى وضعه بيلاطس البنطى على باب القبر بعد أن أئذره اليهود بتخوفهم من سرقه جسد الرب . أما الجلال المخططة فى البروسفارين فتشير إلى الزلزلة التي حدثت عند قيامة رب المجد .

وثمة رمز آخر له طرافته هو بيض اللعنام المعلق فى الكنائس القديمة أيضاً ، وهو موضوع لأنه يرمز إلى تركيز الانتباه . ذلك أنه من الشائع عن اللعنام أنه لا يرقد على الأبيض بل يتفرس فيه . فمتى تجبت الأنثى من تركيز نظرها على البيض حل الذكر محلها . وهكذا يتناوبان التفرس فى البيض إلى أن يفقس . فإن تبدد النظر فإن يفقس البيض . فالمصلى عليه أن يتخذ الدرس المقدم له من اللعنام فيتدرب على تركيز أفكاره فى الله .

هذه أمثلة متفقا من بين الرموز تستهدف استثارة الرغبة فى معرفة الحكمة التي امتدى بها آباؤنا عند بناء كنائسهم وزخرفتها وأعداد السقائر والأواني اللازمة لها .

ثالثاً، الأيقونات :

إن الأيقونات (١) لها أيضاً مكانها وهدفها ، فهي موضوعة فى الكنائس

(١) راجع كتاب ، من هم القبط ، (بالانجليزية) للنص ثلثة حنا راعى كنيسة للسيدة للعذراء الشهيرة بالمعلقة - الفصلين الخاصين بالرموز والأيقونات .

لكي يتأملها المؤمن فيفكر فيمن تصوره . فهي وسيلة لاستثارة التأملات نحو القداسة والتكريس والعبادة الحقّة ، أي أنها نوافذ على السماء . لذلك يجب العناية بها عناية كبرى وبخاصة في أيامنا هذه - وتحديد هذه الأيام بالذات يرجع إلى أن هناك مؤمنين يقدمون الصلوات للكنائس ومن بينها الصور فيخرج ضمير الكاهن من رفضها في حين أن بعض الصور يخالف عقيدتنا الأرثوذكسية . والمثل الصارخ على هذه المخالفة يبدو من الأيقونة التي تمثل معمودية رب المجد على يد يوحنا السابق الصايغ . فكنيسة تؤمن بأن المعمودية لا بد أن تتم بالتغطيس الكلي (١) ، ومع ذلك نجد العدد العديد من كنائسنا بها أيقونة المعمودية تصور يوحنا واقفاً وفي يده شيء يشبه الرشاشة يرش بها الماء على رأس قاديان الذي لا يغطى ماء الأردن غير قدميه . وبهذه الكيفية تفقد الأيقونة الغرض الأساسي من وضعها فوق جدران المعمودية . لذلك يجب على كل من ينبغي تقديم أية عطية - من ستائر أو أواني أو أيقونات - أن يعرف المعنى الذي ترمز إليه أولاً لكي يستطيع أن يقدم الهبة اللائقة بكنيسة مكرسة للعبادة تبعاً للعقيدة الأرثوذكسية .

رابعاً: الأعياد ،

إن العيد هو يوم يتميز بذكرى خاصة فيحتفي الناس بهذه الذكرى وبالتالي يجطلون من هذا اليوم عطلة يتركون فيه أعمالهم اليومية العادية ليتفرغوا لهذه الذكرى .

ولقد نص الكتاب المقدس نفسه على الأعياد حيث أمر الله تعالى باقامة الشعائر الدينية والانصراف إلى الأعمال الصالحة في هذه الأيام الموصوفة بأنها ، أعياد ، فأصبحت بذلك من الفرائض الدينية (٢) . ولقد أولى السيد المسيح الاعتبار للأعياد بحضوره فيها وممارسته شعائرها وفرائضها (٣) .

(١) ، قصة الكنيسة القبطية ، ج ١ ص ٤٦٥ .

(٢) خروج ١٧ : ١٤ ، ٢٠ : ٨ - ١١ : ٢٣ ، ١٦ : ٢٤ ، ٢٢ : ٢٣ - لاويين ٢٣ : ٤ - ٥ ، ٢٤ : ٢٦ ، ٣٢ : ٣٦ - عدد ٢٩ - أمثال ٩ : ١٨ .

(٣) متى ٢٦ : ١٧ - ٢٠ ، مرقس ١٤ : ١٢ - ١٧ ، لوقا ٢٢ : ٤٦ ، ٢٢ : ٧ - ١٥ ، يوحنا ١٣ : ١٠ ، ١٠ : ٢ - ٧ ، ١٠ : ٢٢ .

وبالتطوع جرى الرسل المكرمون على نهج رب المجد فاحتفلوا بالأعياد وباركوها وأوصوا المؤمنين بالمحافظة عليها (١) .

ولالأعياد أغراض ثلاثة هي :

أ- احياء ذكرى نعم الله وعجائبه .

ب- تذكير الأجيال المتعاقبة بإحسانات الله وعنايته .

ج- جعلها واسطة لحفظ أحكام الله ووصاياه .

والأعياد الكنسية نوعان : أعياد سيديّة وهي الأعياد الخاصة بيسينا له المجد ، وأعياد غير سيديّة وهي الأعياد الخاصة بتذكارات السيدة العذراء والرسل والقديسين والشهداء .

ومما يجدر ذكره هنا أن الكنيسة حينما تعد أعيادها غير السيديّة لا تقيم الأعياد لميلاد الرسول أو القديس وإنما تقيمها أيام نياحتهم (أى انتقالهم إلى الدار الباقيّة) أو أيام استشهادهم أو لذكرى بناء أول كنيسة باسم واحد منهم أو آية خاصة من الآيات التي أجروها .

والأعياد السيديّة أربعة عشر عيداً : سبعة منها موصوفة بالكبيرة وسبعة بالصغيرة . فالكبيرة هي :

١- البشارة ويقع في ٢٩ برمهات (نحو ٧ لبريل) .

٢- الميلاد ويقع في ٢٩ كيهك (أو ٢٨ منه في السنة الكبيسة) نحو ٧ يناير .

٣- الغطاس ويأتي بعد الميلاد المجيد بأثنى عشر يوماً في ١١ طوية .

٤- أحد الشعانين أو أحد السف وهو الأحد السابق لأحد القيامة المجيدة (وليس له موعد ثابت) (٢) .

(١) أعمال ١٨ : ٢١ ، ١٩ : ٢١ ، ٢٠ : ١٦ ، ١ كورنثوس ٥ : ٧-٨ ، ١٦ : ٨ ، ١ بطرس ١ : ١٩ .

(٢) راجع ما جاء عن حساب الأبطس (للخامس بعد القيامة المجيدة في الجزء الأول لهذا الكتاب ص ٤٦ - ٤٨) .

٥- للقيامة المجيدة ويقع فى نهاية أسبوع الآلام بعد الصوم الكبير .

٦- الصعود ويأتى بعد للقيامة المجيدة بأربعين يوماً .

٧- العنصرة أو حلول الروح القدس على التلاميذ المكرمين وتأتى بعد الصعود بعشرة أيام أو بعد للقيامة بخمسين يوماً ولذلك يسمى بعيد الخمسين (البنتيقوستى - العنصرة) .

أما للصغيرة فهى :

١- الختان أو يوم أن ذهبت السيدة العذراء بسحبة يوسف للصديق إلى الهيكل فى اليوم الثامن لميلاد القادى الحبيب لكى يتموا الناموس ويقع فى ٦ طوبة .

٢- دخول السيد المسيح للهيكل على ذراعى السيدة العذراء وهو ابن أربعين يوماً ويقع فى ٨ أمشير (نحو ١٥ فبراير) .

٣- دخول السيد المسيح أرض مصر هرباً من غضب هيرودس ويقع فى ٢٤ بشنس (نحو ١ يونير) .

٤- حضوره عرس قانا الجليل وتحويله للماء خمرًا ويقع فى ١٣ طوبة (نحو ٢١ يناير) - وللكنيسة تعيد هذا اليوم لسببين : ١- لتوجيه أذهان المؤمنين إلى قدمية الزواج ، ب- لأنه بدء عمل السيد المسيح القدلى .

٥- التجلى على الجبل حينما بدا القادى الحبيب فى مجده أمام ثلاثة من تلاميذه الذين بهرهم هذا المجد إذ أدركوا أن الناموس (موسى) والنبوات (إيليا) قد تحققا فى ذلك الذى يسرون معه كائنسان فى حين أنه رب المجد . وموعده هذا العيد ١٣ مسرى (نحو ١٩ أغسطس) .

٦- خميس العهد وهو اليوم الخامس بعد لحد الشعانين وفيه قدم السيد المسيح نفسه إلى تلاميذه المكرمين وأوصاهم بأن يأكلوا جسده الطاهر ويشربوا دمه للذى ليحيوا فيه وبه .

٧- أحد توما وهو لحد الأول بعد للقيامة المجيدة وذلك لتذكير المؤمنين بما نالوه من بركة إذ قال رب للمجد لرسوله المتشكك طوبى

لمن آمنوا ولم يروا ، (يوحنا ٢٠ : ٢٦ - ٢٩) (١) .

هذا عن الأعياد السيديّة أما الأعياد الخاصّة بالرسل والشهداء والقديسين فقد وُردت في السنكسار . ولما كانت كنيسة القبطيّة هي كنيسة الشهداء والمعترفين فكل يوم من أيام السنة فيه ذكرى لشهيد أو معترف . وهذه الأعياد هي تعبير عن تقدير الكنيسة لمن جاهدوا الجهاد الحسن وأكملوا السعى لأن الله تعالى قد حسب أكرامهم تكريماً له واحتقارهم تحقيراً له (٢) .

وهذه الأعياد تستهدف :

أ - تذكير المؤمنين بأعمال هؤلاء القديسين التي أدت إلى تمجيد الله وإعلان عجائبه فيهم فنُدفعهم هذه الذكرى إلى العمل على اقتفاء آثارهم والسعى على مناجاتهم .

ب - لتوكيد حياتهم ولو أنهم ماتوا بالجسد وبالتالي لتوكيد الصلة التي ترتبط بينهم وبيننا .

ج - لتنبية الأذهان إلى أن الأخيار مكرمون لدى الله .

ولئن كان الله تعالى قد أعلن بأن تكريم القديسين تكريم له فكم بالحرى يكون تكريم السيدة العذراء التي ظللتها قوة الطي وحل عليها الروح القدس وولد منها الابن المتجسد . ولم يكرمها الله بتجسد الابن للكلمة منها فحسب بل إن الابن المتجسد أكرمها علانية في مختلف المناسبات : فقد أكرمها في طفولته بخضوعه لها ، ثم أكرمها في مستهل خدمته بتلبية ملتصقاً بها ، ثم أكرمها وهو معلق على الصليب بتروحية تلميذه الحبيب عليها (٣) .

(١) الآلئ للنفيسة في شرح طقوس ومعنات الكنيسة للقمص يوحنا سلامة ج٢ ص ٤٨٢ - ٥٢٦ .

(٢) متى ١١ : ٩ - ١١ ، لوقا ١٠ : ١٦ ، ١ ، متالونيكي ٤ : ٨ ، ٢ ، متالونيكي ١ : ٦ ، رابع أيضاً ما أورده القمص يوحنا سلامة في كتابه للمذكور أعلاه ج٢ ص ٣٨٤ - ٤١٧ ، ٥٢٧ - ٥٣٧ .

(٣) متى ١٢ : ٤٦ - ٥٠ ، مرقس ٣ : ٣١ - ٣٥ ، لوقا ٢ : ٥١ ، ٨ ، ١٩ - ١ ، ١١ : ٢٧ ، يوحنا ٢ : ٥ ، ١٩ ، ١٦ ، ٢٥ - ٢٧ .

ولذا ما تأملنا بدورنا هذه العذراء المطوبة التي لقبها الكنيسة بوالدة الإله
نبتهج لبتهاجاً روحياً إذ نرى فيها تحقيق للوعد الإلهي القائل بأن نسلها يسحق
رأس الحية (١) فهي بحق ملكة السمائيين والأرضيين (٢) .



(١) تكوين ٣ : ١٥ .

(٢) راجع ، الأئمة النقيصة ، في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة للقمص يوحنا سلامة ج٢
ص ٥٢٧ - ٥٢٨ ، أم الخليقة القديمة وأم الخليقة الجديدة لأيريس حبيب المصري (مكتبة
المنجبة) ص ٩ - ٢٣ .

أسماء بياضات الإسكندرية من سنة ٤٢٥ - ٩٤٨ م ش (١)

رقم	الاسم	تاريخ التقدمة	مدة الرياسة	شهر	سنة	الحكام المعاصرون
٢٥	الأنديا ديمقورس الأول	٤٣٥	٢	شهر	١٤	ثيودورسيوس الثاني ودمقيايوس
٢٦	الأنديا تيموثيوس الثاني	٤٥٠	١١	شهر	٢٢	باسيلسكوس وزيلتون
٢٧	الأنديا بطرس الثالث	٤٧٢	٣	شهر	٨	زيلتون
٢٨	الأنديا أنطاسيوس الثاني	٤٨١	١٠	شهر	٦	زيلتون وأنطاسيوس
٢٩	الأنديا يونس الأول	٤٨٨	٧	شهر	٨	أنطاسيوس
٣٠	الأنديا يونس الثاني	٤٩٧	-	شهر	١١	أنطاسيوس
٣١	الأنديا ديمقورس الثاني	٥٠٨	٤	شهر	٢	أنطاسيوس وديوسقورس
٣٢	الأنديا تيموثيوس الثالث	٥١١	٤	شهر	١٧	ديوسقورس وديوسقيايوس الأول
٣٣	الأنديا ثيودوسيوس الأول	٥٢٨	٤	شهر	٣١	ديوسقيايوس الأول والثاني
٣٤	الأنديا بطرس الرابع	٥٥٩	-	شهر	٢	ديوسقيايوس الثاني
٣٥	الأنديا دميانوس	٥٦٣	١١	شهر	٣٥	ديوسقيايوس الثاني وطيباريوس وديوسقورس وفوقا
٣٦	الأنديا أنطاسيوس	٥٩٨	٦	شهر	١٢	فوقا وديوسقورس
٣٧	الأنديا أندرونيكوس	٦١١	-	شهر	٦	مهرقل

(١) أي مولانية شريفة - وقد أوجع التتويم الشرقي وأسماع الزراد في ثلثها المحط القبطي لمرقس سبوكه .

تابع أسماء بابوات الاسكندرية

رقم	الاسم	تاريخ التقدمة	مدة الرياسة	شهر	سنة	الحكام المعاصرون
٣٨	الأنبا بنيامين الأول	٦١٧	-		٣٩	هريقل وعصر بن الخطاب وعثمان بن علقان وعلى بن أبي طالب وحسين بن علي ومعاوية بن أبي سفيان معاوية بن أبي سفيان
٣٩	الأنبا أغاثون	٦٥٦	٩		١٦	يزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ومروان بن الحاكم وعبد الملك بن مروان
٤٠	الأنبا يوزس الثالث	٦٧٣	١		٨	عبد الملك بن مروان
٤١	الأنبا إيساك	٦٨١	١١		٢	عبد الملك بن مروان
٤٢	الأنبا سيمون الأول	٦٨٤	٨		٧	عبد الملك بن مروان
٤٣	الأنبا ألكسندروس الثاني	٦٩٥	٩		٢٤	عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الحكم وسليمان وعصر بن عبد العزيز ويزيد وهشام
٤٤	الأنبا قزما الأول	٧٢٠	٤		١	هشام
٤٥	الأنبا ثيودوروس	٧٢١	٧		١١	هشام
٤٦	الأنبا ميخائيل الأول	٧٣٥	٦		٢٣	هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وابراهيم ومروان وعبد الله أبو العباس السجاح وعبد الله أبو جعفر المعصوم
٤٧	الأنبا ميلا الأول	٧٥٨	١٠		٨	

المهدي وموسى بن مهدي الهادي وهرون الرشيد	٢٢	سنة	٧٦٨	٤٨	الأنيا يونس الرابع
هرون الرشيد والأمين والمأمون	٢٠	٣	٧٩٠	٤٩	الأنيا مرقس الثاني
المأمون	١٠	٩	٨١٠	٥٠	الأنيا ولاكيريوس
المأمون	—	٧	٨٢١	٥١	الأنيا سيميون الثاني
المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل	١٧	١١	٨٢٣	٥٢	الأنيا يوساب الأول
المتوكل	١	٤	٨٤١	٥٣	الأنيا ميخائيل الثاني
المتوكل	٧	٧	٨٤٢	٥٤	الأنيا قرما الثاني
المتوكل والمستنصر والمعتصم	١١	٣	٨٥٠	٥٥	الأنيا شجرة الأول
المهدي والمعتد وأحمد بن طوئون وخمارويه وهرون بن	٢٥	١	٨٦١	٥٦	الأنيا ميخائيل الثالث
{ أنبي موسى وشهبان بن أحمد والمكشفي	١١	—	٩٠٠	٥٧	الأنيا غبريال الأول
	جعفر بن المعتذر	—	٩١١	٥٨	الأنيا قرما الثالث
	جعفر بن المعتذر	—	٩٢٣	٥٩	الأنيا مكارى الأول
محمد الرضاى ومحمد الأخشيدي وأبو القاسم الأخشيدي	٢٠	—	٩٢٣	٥٩	الأنيا مكارى الأول
أبو القاسم الأخشيدي	٤	٨	٩٤٣	٦٠	الأنيا فيلوفانيوس

مراجع الكتاب

- ١- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (طبعة ايفيتس) .
- ٢- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية للأنبا ساويرس بن المقفع ترجمه إلى الانجليزية يسى عبد المسيح وعزيز سوريال عطية ويورمستر (طبعة جمعية الآثار القبطية) .
- ٣- تاريخ البطاركة للأنبا يوساب أسقف فوه .
- ٤- تاريخ البطاركة للأنبا ميخائيل أسقف تنيس .
- ٥- تاريخ للبطاركة للشماس موهوب بن منصور بن مفرج .
- ٦- تاريخ بطاركة الاسكندرية وكشف باسمائهم للشماس كامل صالح نخلة .
- ٧- تاريخ الأمة القبطية - الحلقة الثانية للشماس كامل صالح نخلة وفريد كامل - طبع بمكتبة المحبة للقاهرة سنة ١٩٤٩ .
- ٨- تاريخ بطاركة الاسكندرية - مخطوط نقله القمص شنودة الصوامعى البرموسى عن النسخة المحفوظة بدير البرموس .
- ٩- تاريخ الأمة القبطية ليحقوق نخلة روفيلة طبع فى القاهرة سنة ١٨٩٨ .
- ١٠- حسن السلوك فى تاريخ للبطاركة والملوك لراهب برموسى .
- ١١- تاريخ الكنيسة القبطية لمنسى القمص طبع فى القاهرة سنة ١٩٢٤ .
- ١٢- كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا لزاھر رياض القاهرة سنة ١٩٦٢ .
- ١٣- مجمع خليفون ترجمه إلى العربية عن الأصل اللاتينى المحفوظ بمكتبة القاتيكان الراهب فرنسيس ماريا وصادق عليه ثلاثة كرادلة - مطبوع فى رومية سنة ١٦٩٤ .
- ١٤- تاريخ الانشقاق لجراسيموس مسرة .
- ١٥- تاريخ الهرطقات لألفونسو دى ليجورى - مطبوع بالعربية فى دير سيدة طاميش فى مقاطعة كسروان سنة ١٨٦٤ .

- ١٦- تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية لمارسويريوس يعقوب متروبوليت بيروت ودمشق وتولبعها للسريان الأرثوذكسى .
- ١٧- مختصر تاريخ الشعوب لابن العبرى - طبعه بمطبعة الجزويت ببيروت الأب أنطون صالحانى .
- ١٨- الدرة النفيسة فى شرح حال الكنيسة للأسقف ملائىوس .
- ١٩- مجمع خلقيدون للمسنثور يوسف الدبس المارونى .
- ٢٠- الخلاصة الوفية لأرثوذكسية الكنيسة القبطية - مقال لفرنسيس العتر أرشيدياكون كنيسة الرسولين بطرس وبولس نشره فى مجلة الصخرة عدد أكتوبر - نوفمبر سنة ١٩٤٩ من السنة الثالثة عشرة .
- ٢١- قصة الكنيسة القبطية لايريس حبيب المصرى طبع فى القاهرة سنة ١٩٦٢ .
- ٢٢- القبط فى ركب الحضارة - مقال لمراد كامل نشره فى مجلة مارمينا (العدد الخامس) الاسكندرية سنة ١٩٥١ .
- ٢٣- ساويرس بن المقفع - مقال ليسى عبد المسيح نشره فى مجلة مارمينا (العدد الرابع) الاسكندرية سنة ١٩٥٠ .
- ٢٤- تاريخ القديس الأنبا يوحنا القصير للقمص ميصائيل بحر .
- ٢٥- أولوجيوس قاطع الأحجار - من مطبوعات دير السيدة العذراء الشهير بالسريان طبع بمطبعة الدير سنة ١٩٥٢ .
- ٢٦- سيرة يؤنس كامى وتاريخ دير السريان - طبعه رهبان الدير بمطبعتهم عن مخطوطتين قبطيتين وأخرتين عربيتين سنة ١٩٥١ .
- ٢٧- تاريخ القدس لعارف باشا العارف - طبع بمطبعة المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥١ .
- ٢٨- حول مدينة نيقو - مقال للبيب حبشى نشره فى رسالة مارمينا (العدد الرابع) الاسكندرية سنة ١٩٥٠ .

- ٢٩- أديرة وادى النطرون لمنبر شكرى - رسالة مارمينا العدد السادس - الاسكندرية سنة ١٩٦٢ .
- ٣٠- وادى النطرون : رهبانه وأديرته للأمير عمر طوسون طبع فى القاهرة سنة ١٩٣٥ .
- ٣١- سجل مكتبة البطريركية القبطية بمصر لمرقس سمكة ويسى عبد المسيح .
- ٣٢- دليل المتحف القبطى (جزآن) لمرقس سمكة .
- ٣٣- دليل القدس - صدر عن رابطة القدس للأقباط الأرثوذكس (الطبعة الخامسة) القاهرة سنة ١٩٥٥ .
- ٣٤- تاريخ مصر الحديث لزيادان .
- ٣٥- تاريخ مصر الاسلامية لالياس الأيوبي - القاهرة سنة ١٩٣٢ .
- ٣٦- المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو اليسوعى .
- ٣٧- تراث الاسلام - لجنة الجامعيين لنشر العلم .
- ٣٨- الخطط للمقريزى .
- ٣٩- القول الابريزى للعلامة المقريزى طبع على نفقة مرقس جرجس - مصر سنة ١٨٩٨ .
- ٤٠- فتوح البلدان للبلاذرى .
- ٤١- لباب الآداب لأسامة بن منقذ الكندى .
- ٤٢- كتاب البكرى فى وصف شمال أفريقيا .
- ٤٣- مذكرات عن رحلتى فى مصر للدكتور عبد التطيف البغدادى (القرن الثانى عشر) .
- ٤٤- رحلة الأنبا يؤنس التاسع عشر إلى أثيوبيا ليوسف جرجس .
- ٤٥- المنكسار القبطى - طبعه رينيه ياسيه .

٤٦- الصادق الأمين للقمص فيلوناؤس والقس ميخائيل الراهبين بدير الأنبا
مكارى الكبير .

٤٧- يوحنا النيقىوسى لمراد كامل فى العدد الرابع من رسالة مارمينا الصادرة
فى الاسكندرية سنة ١٩٥٠ .

٤٨- القبط فى ركب الحضارة العالمية لمراد كامل العدد الخامس من رسالة
مارمينا الصادرة فى الاسكندرية سنة ١٩٥٤ .

٤٩- اللآلئ النفيسة فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة للقمص يوحنا سلامة
- الطبعة الثانية - القاهرة سنة ١٩٢٥ ش (سنة ١٩٠٩ م) .

٥٠- مجلة صهيون (العدد السادس) يونيو سنة ١٩٤٩ .

٥١- مجلة النور - تصدرها حركة الشبيبة الأرثوذكسية المعترف بها من
المجمع الأنطاكي المقدس (العدد العاشر) للسنة السابعة سنة ١٩٥١ .

٥٢- مقدمة ابن خلدون - طبع على نفقة ورثة المرحوم الشيخ محمد عبد
الخالق المهدي - القاهرة سنة ١٩٣٠ .

٥٣- قصائد : مشروع ٢٨ فبراير
أبو الهول
الأندلس الجديدة
لأحمد شوقى

٥٤- ليال الصيف فى مصر ، قصيدة لالياس فياض عن كتاب مختارات
الزهور - القاهرة سنة ١٩١٢ .

٥٥- أم الخليقة القديمة وأم الخليقة الجديدة لايريس حبيب المصرى طبع
بمكتبة المحبة - القاهرة سنة ١٩٦٥ .

٥٦- مخطوطة تروى سيرة التسعة والأربعين شيخاً محفوظة بدير الأنبا
بيشوى .

٥٧- سيرة الأنبا ديسقورس - مخطوط عربى محفوظ بمكتبة البابوية القبطية
بالقاهرة رقم ١٧١ .

- ٥٨- مخطوطة قبطية رقم ١٣ محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس .
- ٥٩- مخطوطة قبطية رقم ٢٩١ لاهوت محفوظة بمكتبة البابوية القبطية بالقاهرة .
- ٦٠- مخطوطة قبطية رقم ١٠٦ طقس محفوظة بمكتبة المتحف القبطى بمصر القديمة .
- ٦١- مخطوطة قبطية رقم ٤٠٥ طقس محفوظة بمكتبة المتحف القبطى بمصر القديمة .
- ٦٢- مخطوطة عربية رقم ٤٧٠ تاريخ محفوظة بمكتبة المتحف القبطى بمصر القديمة وتتضمن سيرة الأنبا بيسنطىوس أسقف فقط .
- ٦٣- مخطوطة عربية رقم ٧١ محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ومقيدة فى السجل برقم ١١٢ .
- ٦٤- مخطوطة عربية رقم ٢٨٧ تاريخ كنسى محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس .
- ٦٥- الدرة البتيمة والجوهرة الكريمة بعبادة سليمة لله مستقيمة - مخطوط رقم ٢٤٦ لاهوت محفوظ بمكتبة البابوية القبطية بالقاهرة .
- ٦٦- عن الكتاب المقدس من أخبار السادات الآباء للقدسين - مخطوط رقم ٥١ تاريخ محفوظ بمكتبة البابوية القبطية بالقاهرة .
- ٦٧- صلاة اللّان (الطقس القبطى) .
- ٦٨- صلاة التحاليل .
- ٦٩- صلاة التحليل للابن وتذكارات القديسين فى الخولاجى العربى الكاثوليكي المطبوع فى رومية .
- ٧٠- القداسات القبطية : قداس الأنبا كيرلس عامود الدين ، قداس الأنبا غريغوريوس الديولوجوس ، قداس الأنبا باسيليوس أسقف قيسارية الكبادوك .

- ٧١- الأجيبة القبطية .
- ٧٢- صلاة السجدة .
- ٧٣- سفر طوبيا .
- ٧٤- الكتاب المقدس بمعهديه القديم والجديد .
- ٧٥- الأبصلمودية السنوية المقدسة (حسب ترتيب آباء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية) طبعها أفلادويس لييب بأمر قداسة البابا الأنبا كيرلس الخامس سنة ١٦٢٤ش (١٩٠٨م) .
- ٧٦- تاريخ التربية القبطية لسليمان نسيم - طبع بدار الكرنك القاهرة سنة ١٩٦٣ .
- 77- Y. Abde'l Massih : The Faith and Practises of the Coptic Church
- 78- Abu'l Makarem (attributed to Abu Salih the Armenian) : The Churches and Monasteries of Egypt and Some Neighbouring Countries - edited and translated by B. T. A. Evetts - Oxford 1935.
- 79- Amélineau : Etude Sur le Christianisme en Egypte au VII^{eme} Siècle .
- 80- Amélineau : Vie du Patriarche Copte Isaac (traduit du Copte) Paris 1890 .
- 81- Amélineau Samuel de Qualamon (traduit du Copte) pub. dans "La Revue de l'Histoire des Religions " .
- 82- A. S. Atteya : Some Egyptian Monasteries According to the Unpublished Ms. of al Shabushti's " Kitab al Diyarat " .
- 83- Abbé Barbier : Vie de Saint Athanase .
- 84- H. J. Breasted : The Dawn of Conscience, New York 1943 .
- 85- W. Budge : The Book of the Saints of the Ethiopian Church (translation of the Ethiopic Synaxarium) Cambridge 1928 .

- 86- O. H. E. Burmester : The Office of Geneffluction on Whitsunday,
pub. in " Le Muséon " , Tome 47, Louvain 1934 .
- 87- A. G. Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt, Oxford
1884 .
- 88- Costigan : " Sculpture and Painting in Coptic Art " , pub . in Le
Bulletin de la Société d'Archeologie Copte, Tome III, Le Caire
1937 .
- 89- K. A. C. Creswell : " Coptic Influences on Early Muslim
Architecture " pub . in Le Bulletin de la Société d'Archeologie
Copte, Tome V le Caire 1939 .
- 90- Drescher : " A Widow's Petition " pub. in Le Bulletin de la
Société d'Archeologie Copte, Tome X, Le Caire 1944 .
- 91- E. de Faye : Esquisse de la Pensée d'Origène , Paris 1925 .
- 92- J. Foster : Why the Church, London 1954 .
- 93- J. Foster : Beginning from Jerusalem, London 1959 .
- 94- Al. Gayet : L'Art Copte .
- 95- Abbé P. Guettée : La Papauté Schismatique .
- 96- Archimandrite V. Guettée : Histoire de l'Eglise, Paris &
Bruxelles 1806 .
- 97- Sh. Hanna : Who are the Copts ? (3rd ed.) Cairo 1963 .
- 98- A. Harnack : Outlines of the History of Dogma translated by
Edwin Knox Mitchell, Beacon Press, Boston 1957 .
- 99- H. Harnack : History of Dogma, translated by James Millar from
the third German edition, pub. by Williams and Norgate,
London 1897 .
- 100- Mgr. Héfélé : Histoire des Conciles, Paris 1869 .
- 101- R. P. de Hénaut : L'Egypte de Menès à Fouad I, Le Caire 1935 .
- 102- R. Payne : The Holy Fire, New York 1957 .
- 103- A. Lucot : Histoire Lausiaque (traduction) .
- 104- S. Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, Vth
ed. London 1936 .

- 105- W. Muir : The Caliphate - its Rise Decadence and Fall, Edinburgh 1915 .
- 106- H. Munier : Précis de l'Histoire d'Egypte Tome II, Première Partie .
- 107- H. Munier : La Géographie de l'Egypte d'Après les listes Coptes - Arabes, pub. dans Le Bulletin de la Société Archéologie Copte, Tome V Le Caire, 1939 .
- 108- H. Munier : La Christianisme à Philoe, pub . dans Le Bulletin de la Société d'Archéologie, Copte, Tome IV, Le Caire 1938 .
- 109- Nau : Vie de St. Dioscore - traduction Française du Ms. Copte par Theopistus, pub. dans Le Revue Asiatique No. X. Tome II (Mars - Avril 1903) .
- 110- J. Neale : History of the Holy Eastern Church .
- 111- Ch. Desroches - Noblecourt (en Concours avec l'Unesec, Le Centre Egyptien de Documentation sur l'Egypte Ancienne, et L'Institut Geographique National de Paris) : Temples de Nubie - 1963 .
- 112- Ch. d'Orléans : Les Saints d'Egypte .
- 113- Sbath: Mss. Arabes d'Auteurs Coptes, pub. dans Le Bulletin de la Société d'Archéologie Copte, Tome V, Le Caire 1939.
- 114- I. Simon : Fragment d'une Homélie Copte en l' Honneur de Samuel de Kalamon - pub. dans Miscellaneis Biblicis, vol . II Roma 1934 .
- 115- J. Simon : Le Monastère Copte de Samuel de Calamon, pub. dans Orientalia Christiana Periodica, 1935 .
- 116- G . Sobhy : Education in Egypt during the Christian Period & Among the Copts, pub. in Le Bulletin de la Société d'Archéologie Copte Tome IX, Le Caire 1943.
- 117- E. White, The Monasteries of Nitria and Scetis. New York 1933.

- 118- G. Wiet, Précis de l'Histoire, d'Egypte, Tome II, Deuxième Partie .
 - 119- H. E. Winlock and W. E. Crum : The Monasteries of Epiphanius at Thebes, part I, New York 1926 .
 - 120- M. N. Zottenburg : Chronique de Jean de Nikiou (traduction) Paris 1883 .
 - 121- Cuthbert Atchley & Wyatt .
 - 122- P. N. Ure : Justinian and His Age (Penguin pub) . 1951.
 - 123- Encyclopoedia Britannica - XIVth ed .
 - 124- Encyclopédie des Sciences Religieuses Pierpont - Morgan Library, New York .
 - 125- God. 578 (IX s) .
 - 126- P. Van Cauvenbergh : Etude sur les Moines d'Egypte depuis le Concile de Chalcedoine (451) jusqu'à l'invasion Arabe (641) . Paris - Louvain 1914 .
 - 127- F. Nau : La Politique Matrimoniale de Cyrus (le Mocaucas) , pub. dans " Le Muséon " , 45 - Louvain 1932 Bibliothèque Nationale de Paris .
 - 128- MS. Histoire 287- Fragment d'une Histoire Ecclesiastique, par un auteur Copte .
 - 129- The Sunday Times Magazine (July 14th , 1963) .
 - 130- Bulletin du Musée National de Varsoire IV - vol 1963 , No. 2.
 - 131- Westcott : an article on Acacius in : " A. Dictionary of Christian Biography, Literature, & Doctrines " edited by Smith & Wac, pub. by G. Murray, London 1877.
 - 132- Le Regime Foncier en Egypte depuis l'Epoque Grecque jusqu'au X. Siècle de Notre Ere - Thèse pour le doctorat par Reda Farag Bastouli Paris 28/6/62 .
- ١٣٣- « الامبراطورية البيزنطية » ، احسين مؤنس ومحمود يوسف زائد وهو
ترجمة لكتاب :
- " The Byzantine Empire " by Norman Baynes (London 1946) .

الفهرس

٩	تمهيد
١٢	بطل مقدم
١٤	أ - فى أفس
٣٧	ب - فى خلقيدون
	رجع الصدى :
٧٠	أ - الأنبا تيموثيوس الثانى
٨٧	ب - الأنبا بطرس الثالث
	وقت للسلام :
٩٧	أ - الأنبا أناسيوس الثانى
١٠٢	ب - الأنبا يونس الأول
١٠٦	ج - الأنبا يونس الثانى
١٠٩	د - الأنبا ديسقورس الثانى
	وقت للحرب :
١١٤	أ - الأنبا تيموثيوس الثالث
١٢٢	ب - الأنبا ثيودوسيوس
١٣٥	ج - الأنبا بطرس الرابع
١٤٣	فترة من الراحة
١٤٨	صلة الكنيسة ببلاد النوبة
١٥٢	القرن السادس فى الميزان
١٥٤	الأسقف بيسنطيلوس أسقف قسط
١٥٨	الأنبا يونس أسقف البيرلس
١٦٠	دانيال قمص شيهيت
	نور وظلال :
١٦٤	أ - الأنبا أنستاسيوس
١٧٠	ب - الأنبا أندرونيكوس

١٧٤	سبحان الذى يغيّر ولا يتغيّر
٢٠٧	معترف جرى : الأنبا صموئيل القلمونى
٢٢٢	الايغومانس يونس رئيس أديرة الأنبا مكارى الكبير
٢٢٤	الصلة بين مصر والأراضى المقدسة
٢٣٩	الصلة بأثيوبيا
٢٤٤	المحبة واسعة الحيلة
٢٥١	يونس النيقوسى
٢٥٧	الأنبا يونس الثالث
٢٦٧	كاتب مبدع
٢٨٠	أسقف سايس
٢٨٢	راع من المشرق
٢٩٠	كواكب زاهية
٢٩٤	من السلام إلى الخصام
٣٠٢	فوران وهدير
٣٠٩	البركان يفور
٣٤٣	« جرحت فى بيت أحببى »
٣٤٩	القرعة الهيكلية
٣٦٠	دانيال ثانٍ فى حكمته
	احداث حاسمة :
٣٦٩	أ - باباوية الأنبا ياكوبوس الأول
٣٧٧	ب - ضربة قاسمة
	اضطراب فى الخارج وسلام فى الداخل
٣٨٧	أ - الأنبا ميخائيل الثانى
٣٨٨	ب - الأنبا قزما الثانى
٣٩٠	ج - الأنبا شنودة الأول
٣٩٧	د - الأنبا القديس يونس كامى

نقوش متنوعة

- ٤٠٣ أ - في وسط المعصرة
٤١٧ ب- في رحاب الصحراء
٤٢٣ ج- على شاطئ بحر صاخب
٤٤٠ فترة قاتمة
٤٤٤ جندي مجهول
٤٥١ بعض العادات والرموز
٤٦١ كشف بأسماء باباوات الاسكندرية
٤٦٤ مراجع الكتاب

